وزارة المعارف العمومية

كتاب
ما خلفته اليونان

نشرته بالانجليزية مطبعة جامعة أكسفورد.
وترجمته الى العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
وراجع ترجمته أحمد فريد بك ناظر مدرسة المعلمين الثانوية
ومحمد على مصطفى افندى المدرس بمدرسة
المعلمين العليا (قسم الآداب)

المطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩٢٩

وزارة المعارف العمومية

كتاب ما خلفته اليونان

نشرته بالانجليزية مطبعة جامعة أكسفورد

وترجمته الى العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

وراجع ترجمته أحمد فريد بك ناظر مدرسة المعلمين الثانوية

ومحمد على مصطفى افندى المدرس بمدرسة

المعلمين العليا (قسم الآداب)

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٢٩

تمهيد

ليس بين العصور ما هو أقرب شبها بعصر اليونان القديمة من عصرنا مع ما بين الاثنين من فروق كثيرة . فليس من العصور سواه ما جعل أساس حياته الوجدانية الى ذلك الحد البعيد قائما على المبادئ التى أظهرها اليونانيون للعالم ، ولسنا نقول ان التاريخ يعيد نفسه ولكن القرن العشرين اذا شاء أن يبحث فى ثنايا القدم عن أقرب أشباهه فى الروح لم يجد ذلك الا فى القرن الخامس وما يليه قبل الميلاد فلا نزال (ونحن ندرس فكر اليونانيين وأدبهم) نجد وجها يلقانا فنتبين فيه وجهنا وقد حجبه غشاء من نسيج الزمن و بعد الشقة . الا أن ذلك الوجه نراه أكثر فتاء وأقل تغضنا وأسارير ، ويبدو من عينه شعاع ينم عن غاية مقصودة محدودة ، ولهذه الأسباب نرى أنفسنا فى هذه الأيام فى مكان نقدر فيه أن نفهم اليونان القديمة خيرا من فهم أى عصر آخر لها ، وأن نحفظ عنها ما تلقى من درس . وانا اذا بحثنا فى مبادئ القوم وحياتهم وهم قوم تربطنا بهم تلك الأسباب الكثيرة كان لنا من ذلك قدرة أعظم وقوة أوفى على أن نفهم مبادئنا وحياتنا . وهذا الكتاب ، وهو أول كتاب من نوعه فى اللغة الانجليزية ، يقصد الى أن يبين بعض ما لليونان على العالم من فضل فى مختلف الميادين الروحية والعقلية وما لا يزال جديرا بالعالم أن يتعلم منها .

فهـــرس

كتاب ما خلفته اليونان

فضل اليونان على مستقبل العالم

لئن كان الفضل فى الحياة الانسانية فى هـذه الدنيا يقدر بالدرهم أو يقاس بالميـل أو بمقياس مادى آخر (قوة الحصان) لما كانت بلاد اليونان القديمة سوى أرض ضيقة الرقعة أمضها الفقر فلم تكن عدتها ولا آلاتها الا أشباه الرماح والأقواس التى عند الهمج المتوحشين وليست نظائر ما نستخدمه نحن من عدة البرق والطيارات . على أننـا اذا صرفنا النظر عن مثل هـذه الأشياء المـادية وجعلنا ميزان المفاضلة ما تبلغه الأمة من العلم وما تسلكه فى تعاملها . وجدنا أن الفرد الوسـط من عامة الكتّاب فى يومنا ممن ينزل كل يوم الى المدينـة ويتصفح جريدة الصـباح فاترا قد يكون فى معاملته أكثر تهذبا وفى علمه مبرزا أوفر حظا اذا قسـناه بأحد أوساط الاثنيين ممن كانوا يجلسون الى قصص اسكيليس وكأنمـا أخذهم سحرها .

فالحق أن ذلك العصر العظيم عصر اليونان انما يعتبر بالغا قصارى الهمة وفذا فى فضله اذا نحن جعلنا ميزان الحكم قوة الروح ذلك الميزان الذى لا يعتد بالشىء الذى يخلق اعتداده بصفات العقل الذى يبتدع ذلك الشىء ولا يعبأ بمقدار ما يدرك من العلم مثل ما يعبأ بحب العلم والرغبة فى تحصيله ولا يقدر ما يقوم به الناس من طيب الأعمال فى قيامهم بواجباتهم كما يقدر عملا جليلا من أعمال البطولة يقوم به شخص طوعا واختيارا . فاذا كان ذلك الميزان ميزانا صالحا وجاز لنا أن نتخذه مقياسا أمكننا أن ندرك السبب الذى من

أجله كانت المخلفات اليونانية القديمة فى الأدب أساس التثقيف طول أواخر العصور القديمة واستطعنا أن نفهم السر فى أن نشورها بعد نسيانها قد بعث نشوة فى أذكى عقول أوربا حتى كأنما قد أعاد فى نفوسها حياة جديدة مع أن تلك المخلفات لم ينشر منها عند ذلك الا قليل مبتور ولم تفهم فهما صحيحا . وقدرنا أن ندرك أن ادمان البحث فيها والامعان فى كشف مخبآتها عمل لا يزال جديرا بأن يصرف فيـه الناس أعمارهم ومهما يبذلوا فى سبيل ذلك يجدوا جزاءهم من علم يهدى الناس و يوحى اليهم .

ولكن هل ذلك الميزان — ميزان الروح — ممـا يجوز أن نتخذه مقياسا لائقا؟ اننا لا نستفيد شيئا من سوق ألفاظ مبهمة لم نحللها تحليلا ولكنا نرى مع ذلك أن هذا هو المقياس الذى يليق طبعا لأن يتخذه مؤرخ باحث فى فلسفة التاريخ . ولنضرب مثلا رجلا ساق حجة قال : ان أى صانع من صـناع البصريات فى أيامنا هذه يعلم من علم الضوء وعدساته أكثر ممـا كان يعلمه (روجر بيكون) وهو مبتدع العدسات الضوئية (النظارات) وقال: ان معنى هذا أن ذلك الصانع أعظم قدرا فى الرجال من روجر بيكون وأن هذا المخـترع لم يخلف لنا شيئا نستطيع أن نزيد به علمنا اليوم . هب قائلا قال ذلك فماذا يكون جوابك ؟ انـــ جواب ذلك القول فى نظرنا هو أن روجر بيكون قد تعـلم عن أساتذته شيئا من العلم ولكنه كان يحمل فى نفسه قوة جعلته ينتفع بذلك العلم الذى حصله فيوجهه فى سبل غير مطروقة فنمى علمه وزاد أضعافا وأتى أكله جنى طيبا ، وأما صانع العدسات البصرية فلعله قد زاد شيئا على ما تعلمه ولكن ذلك الشيء ليس بالكثير وقد نسى ممـا تعلمه كثيرا ، واختلط

عليه مما حصله قسط عظيم . فاذا نحن درسنا تاريخ حياة روجر بيكون أو قرأنا كتبه أمكننا أن نتصل بعقله وأن نلتمس قبسا من ذلك النور الذى فى نفسه يهديها و يوحى اليها وكان ذلك أجدى علينا من كل ما يعلمه صانع البصريات .

ولا شك أن تلك الحقيقة التى نقررها يصعب ادراكها فى مؤلفات العلوم الوضعية البحتة ، أما فى الكتب الشاملة الواسعة المدى أمثال كتاب داروين فمن السهل على القارئ أن يحس أثناء القراءة أنه فى حضرة عقل راجح يبعث فى نفس القارئ معانى لا ينبعث مثلها عند قراءة أحدث الكتب الدراسية وأعلاها كعبا فى العلم . و يلوح لنا أن الناظر فى كتب الفلسفة والدين والشعر ومن تقع عينه على عمل من جليل الأعمال الفنية لا يستحوذ على التفاته فى العادة سوى قوة عقل المؤلف ، حتى ليكاد يصرف النظر عن اعتبار العصر الذى كان فيه المؤلف ، وما ذلك التفريق بين هذين النوعين من الكتب الا لأن العلوم الوضعية جل عنايتها بالحقائق المجردة والعلم المحض فصغر ذلك من شأن عناصر أخرى كالخيال والروح. وهذا هو السر فى أن كتب العلوم الوضعية فى عصور الحياة والتقدّم لا تلبث أن تذهب جدتها فتصبح بعد قليل قديمة، وكل (طبعة) جديدة منها تزحزح سابقتها وتحل محلها وقلما تجد مؤلفا علميا بقى مرجعا للدارسين أكثر من عشرة أعوام أو نحوا من ذلك . ولا تكاد ترى مثلا يخالف ما نقرره بين المؤلفات الحديثة الا كتابا واحدا وذلك هو كتاب نيوتن (برنسيبيا) (Principia) غير أن هناك كتبا قليلة من أمثال ذلك الكتاب . فمبادئ الهندسة مثلا كانت الى نحو عام ١٩٠٠ تدرس فى بلاد أوربا

جميعها فى كتاب ألفه يونانى اسمه اقليدس فى القرن الرابع أو القرن الثالث قبل الميلاد [1] أى ان ذلك الكتاب ظل يدرس نحو ألفى عام، لا جرم أن الناس قد وجدوا فى كتاب اقليدس شيئا من الخطأ فى هـذه الأيام ولكن ذلك الخطأ لم يتبين الا بعـد ذلك الوقت الطويل . وانى لأعرف رجلا كبير السن قال لى انه كان يتعـلم فى أوائل القرن التاسع عشر فى مدرســة لا بأس بها من المدارس الانجليزية وكان يحفظ قواعد اللغـة عن كتاب من تأليف (ديونيسيوس ثراكس) أو هو (دنيس التراقى) ودنيس هذا كان يونانيا عاش فى القرن الأول قبــل الميلاد وهو الذى وصــل الى كشف سر ذى بال أو لعله لم يكشفه بل بنى على أساس وضع من قبل . وذلك السر هو أن هناك شيئا اسمه علم قواعد اللغة أى أن الناس فى حديثهم المعتاد يتبعون بالطبع بغـير تفكير قوانين دقيقة وقواعد متشابكة وان تلك القواعد يمكن استنباطها وترتيبها ودراستها . حقا ان دنيس لم يقم بكشف كل ذلك وحده بل ان أسـتاذه (ارستارخوس) وسواه قد مهدوا له السبيل الى ذلك ولكن كتابه ظل يظهر مرة بعد مرة طول هذه القرون التسعة عشر حتى بلغ الأمر أن درسه ذلك السيد المسن الذى مر ذكره .

واليك مثلا ثالثـا : فقد كان علم الطب قائمـا فى كل العصور القديمـة المتأخرة وفى طول القرون الوســطى على أساس ما كتبه الطبيبان القديمان ابقراط وجالينوس . وقد كان جالينوس يونانيا

(١) منذ كتبت هــذه الورقة فى أول أمرها . قد طبع الكتاب الأول من اقليدس باللغة اليونانية — مع حاشية عليه كتبها السير توماس هيث (مطبعة كامبردج سنة ١٩٢٠) وهو يفيض فائدة و يسترعى الاقبال .

ممن سكن رومه فى أوائل الدولة العاهليــة (الأمبراطورية) وكان ايبقراط يونانيا آخر من جزيرة قوص فى القرن الخـامس قبـل الميلاد وما تاريخ الطب الحديث الا سلسلة جهود كان كثير من حلقاتها محاولات للخروج من سلطة ذينك النابغين القديمين . على أن رسالة صغيرة من الرسائل المنسوبة الى ايبقراط كانت لا تزال الى أيامنا القريبة فى أيدى طلبة الطب من بلاد ايقوسيا ولا تزال تستخدم فى بعض جامعات أمريكا الى اليوم وكانت تلك الرسالة هى اليمين الذى كان يقسمه طلبة الطب فى العصور القديمة فى بلاد اليونان عند ما كانوا يستقبلون واجبات مهنة الطب والعلاج فى محفل رهيب فقد كان الطالب يقسم أن يجل أستاذه ويطيعه وأن يقوم على حاجات أولاده اذا كانوا فى حاجة وأن يبذل قصارى جهـده فى اعانة مرضاه فى كل حين وأن لا يستعمل السحر ولا يدعى استعماله وألا يستخدم التعاويذ والتمائم وما شابهها من الوسائل السفلية غير الطبيعية وألا يعطى السم لأحد ولا يقوم بعمل يحرمه الشرع وألا يسىء التصرف فى مكانة الثقـة التى يحـل فيها الطبيب من بيت المرضى بطبيعة عمـله بل يذكر دائما اذا ما دخله أنه انمـا يدخل ذلك البيت صـديقا ومعينا لكل من فيه . حقا لقد تركنا ذلك القسم اليوم وأكبر ظنى أننـا لا نؤمن كثيرا بقوّة الأيمـان ولكن من وضع صورة ذلك اليمين قام بعمل جليل فقد صوّر صورة واضحة محدودة لواجب صناعته الشريفـة ومعناها فى ألفاظ تناقلها الأطباء بلغات غير معروفة له وفى بلاد لم تكن قد عرفت بعد ورأوا فيها ما يعبر عن غرضهم مدّة تزيد على ألفى عام .

وبعد فأى شيء أقصد أن أوضح بهـذه الأمثلة الثلاثة ؟ فهل أحب أن أظهر مقدار السرعة التى نرمى بها عن أنفسنا آخر خيوط القيدالذى كانت بلادااليونان تقيدنا به؟ لا لست الى هذا أقصد. وانمـا أريد أن أظهر أن اليونان فى عصرهم الجليـل كان لهم من رجاحة العقل وقوة الحياة ما جعل مؤلفاتهم تبقى بقاء لم تبلغه كتب سواهم حتى فى ميدان العـلم الوضعى الذى لا تلبث فيه المؤلفات أن يعفيها القدم بسرعة تيار التقدّم والتجديد العلمى . وانه لجدير بنا أن نمحو من عقولنا صورة كتاب اقليدس أنه ذلك الكتاب المشوه الناقص يستعمل فى المـدارس وأن نذكر اقليدس القديم ذلك الذى لم يكن له الا كتب قليلة وصحفة واسعة من الرمل كان يضعها فى الأرض ويخط عليهـا وما زال يكتشف عليها الحقائق ويجمعها ويعيد وضع القواعد الأولى لعـلم الهندسة حتى كمل لديه بعد حين كتاب من أعظم الكتب التى ظهرت فى العـالم وأسهلها تناولا وهو سفر قدّر له أن يكون علما من أعلام الفكر ونورا ظل يهتدى به البشر أمدا طويلا بعد أن تبدّلت الأحوال وتغير الدهر وزالت الدول التى كان يعرفها اقليدس وثلت عروش الملوك الذين كان يخدمهم، تعاقبت على أرضها دول أولها الرومان ثم دالت دولتهم على مر الدهر ووطئت أرضهم جيوش الهمج ، ثم نهض هؤلاء الهمج بعد حين طويل ومصاعب جمـة ففتحوا صدورهم للعـلم والتربية وكان كتاب اقليدس من عوامل تهذيبهم وها هى هـذه الشعوب فى أيامنا هـذه بعد ذلك الدهر الطويل قد استطاعت أن تصـل الى درس الهندسة بغير كتاب اقليدس ، اذن لقد حان الوقت لزوال دولة كتاب اقليدس ، فليكن ذلك . ولتزل دولته ولئن ذهب اليوم فقد ظل حاملا نور الهـدى للناس أمدا طويلا وحسبه . وما كتب العلم الا الى مدى ثم يستبدل بها غيرها .

فالذى أريد أن أبينه أن هذا الروح العقلى القوى الممتاز هو الذى جعل ايبقراط واقليدس ، لا بل دنيس التراقى يعيشون ألفى عام ، وأن ذلك الروح نفسه هو الذى نفخه أهل العصر المجيد من اليونانيين فى كل أعمالهم وسوف يبقى جلها على كل حال أبد الدهر لا يعفيها قدم وان هذه الحقيقة التى نذكر أمر سهل ادراكه ولكنه مع ذلك ذو بال وخطر ولهذا نرى حتما علينا أن نختصه بالتوكيد لحظة فانا اذا قرأنا رسالة قديمة فى الطب أو علم الحيل (الميكانيكا) هزنا الاعجاب بها ورأينا فيها مؤلفا جليلا ولكنا مع ذلك ندرك أنها قد أصبحت قديمة عافية وأنها قد عاشت دهرها واحتلب خيرها وسار العلم دونها . ولكنا اذا طالعنا كتب هومر أو اسكيليس وقدرنا على تفهمها وادراك محاسنها لم نجد فى أكثرها ما نشعر من أجله أننا قد أصبحنا فوق مستواها فانا لا شك قد قطعنا أشواطا بعيدة فى صغرى الأمور ، فقد أوغلنا فى ميادين المعارف العامة ودقائق العلوم الوضعية ورقينا فى مراقى الحضارة وما الى ذلك غير أنك لا تكاد تجد لبيبا يتصوّر أنه قد سبق هؤلاء فى صفتهم الكبرى وميزتهم التى جعلتهم من كبار الرجال .

لا مراء فى أن كل فن به عنصران : الأول هو الحقائق المطلقة أو العلم ، وهذا العنصر تعتوره التغيرات ويسوقه تيار التقدم ولكن الآخر لا شأن له بالعلم ولا يناله التغير بتقادم الدهر بل هو أبدا حيث هو له قيمة خالدة ثابتة أشبه الأشياء ببهاء الفجر المتنفس أو روعة حب الأم لوليدها أو تنعم الحيوان الصغير بتذوق الحياة أو شجاعة الشهيد فى الفتنة والعذاب فان العالم مهما تقدم لا يمكن أن يخلف تلك المعانى وراء ظهره فانها أبد الأبيد ماثلة مثول النار

فوق العلم ، وانما سعى الناس الى بلوغها والرقىّ اليها ، وهكذا الحال فى كل ما خلقه خيال البشر من جلائل البدع وفى ظننا أنه ليس فى شبهة التوقع أن يقوم شاعر فيعمد الى المعنى الرئيسى الذى قصده (اسكيليس) فى منظر (كاسندرا) من قصة (أجا ممنون) فيبرزه فى حلة أبهى مما كساه اسكيليس فان البشر ليس لهم من ذلك المنظر الا أن يفهموه و يفوزوا منه بمـا فيه من سرور وهزة وعجب وان هذه الصفة الخالدة لأبين ما تكون فى الشعر ، فالشعر اذا شابه علم كان منه فى المحل الثانى .

ففى الفن لا يزال التقدم يطرأ على آلاته المستعملة ووسائله المتبعة وأعماله التى يستلزمها ، فصاحب الفن اليوم قد يجد فى نفسه أنه لا يستطيع أن ينحت تمثالا فيبدع فيه ابداع فيدياس الا أنه مع ذلك يرى أنه قد يعلم من الأمور ما كان يخفى على سابقه وفى استطاعة ذلك المتأخر على كل حال أن يوجه فنه فى وجوه مختلفة ما كان لفيدياس أن يلج مثلها وأن يجد مما يثير خياله أكثر مما أتيح لفيدياس أن يجده .

أما فى الفلسفة فان اشتراك العنصرين أخفى وأدق فقد كانت الفلسفة أبدا قائمة على أساس العلم من بعض الوجوه بيد أنه يلوح أن أحسن مباحث الفلسفة يتردد فيها عادة روح الخيـال المنشئ فقـد كتب أفلاطون محاورة اسمها (التيماوس) وكانت دائرة على تكوين العالم وكان لها أثر كبير فى متأخرى اليونان ولكنا اذا قرأناها اليوم ولنا ما لنا من المعارف العلمية التى تزيد على ما كان يعلمه أيمـا زيادة ، اذا قرأناها خيل الينا أنها تكاد تكون خلوا من المعنى ولكن أفلاطون فى كتاباته عن نظرية المعارف أو عن أساس معانى العدل أو الحب لم يكن لباحث معتبر فى الفلسفة أن يلقى بمـا كتب فى زاوية الاهمال بل اننا لنتساءل عما اذا كان لنا أن نبلغ شأوه فى دقة التفكير وسموّه .

وانا اذا أردنا أن ندرك حقيقة علاقتنا بالماضى وجب علينا أن نعتبر أمرا آخر يبدو فى هذا الموضع وهو كالأمر السابق الذكر فى بساطته وخطورته ، فلنضرب مثلا : رجلا يقول " انى أدرك تمام الادراك أن (أفلاطون) أو (اسكيليس) قد يكونان صاحبى آراء بديعة غير أن كل ما قالاه من قول قيم كان لا شك معروفا قبل أيامهما للناس جميعا وعلى ذلك فليس من اللازم أن نرجع الى اليونانيين فيه . ونظير ذلك أننا لا نرجع الى ما كتبه كوپرنيكوس اذا شئنا أن نعلم أن الأرض تدور حول الشمس " فما ذا يكون ردنا عليه ؟

ليس لنا من رد سوى أن نقول ان مثل هذه الحجة لا تعتد بالفرق بين ما يتغير و يتقدم و بين الدائم الذى لا يتبدل أو بين المعارف و بين الخيال . فاذا كان (هارفى) مثلا أول من اهتدى الى أن الدم ليس بثابت بل يدور دورته و (كوپرنيكوس) أول من اهتدى الى أن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض فان هذه الحقائق المكشوفة تصبح سهلة التناقل بأوجز عبارة واذا كان صانع يهتدى الى تحسين فى آلة المسرة أو مصلح اجتماعى يتوصل الى أن يستبدل بخبيث طيبا فيما يتبعه الناس كان من المحتمل بعد أعوام قلائل أن الناس جميعا يستفيدون بما أدخل من التحسين غير شاكرين سعى من سعى فيه ، بل غير عارفين ما ذلك الاصلاح الذى ينتفعون به وهكذا الناس لا يبالون بما يكونون عليه من الغباء ما دام قد نالهم الخير واحتلبوا لبانه .

ولكن أيستطيع الانسان أن يتحدث بمثل ذلك عن مكبث أو روميو وچوليت وهل يمكن أحدا أن يقول فى ألفاظ قليلة موجزة

ماذا تدل عليه هذه . وهل لامرئ أن يبلغ من هذين خيرا الا من طريق واحد وذلك أن يكب عليها دارسا فى شغف يستجلى معانيها ويتغلغل فى قلب المؤلف يستقصى دخيلة شعوره ودفينة فكره ؟

وانه لدليل على نوع من نقص العقل ، نقص يشبه الصمم أو عمى اللون أن يظن الانسان ، كما يفعل البعض ، أنه يستطيع أن يدرك قيمة قصيدة عظيمة بأن يدرس ملخصا لهـا فى دائرة معارف أو بأن يتصفح ترجمة لها فان الأشياء التى ندعوها خالدة ، تلك الأشياء وليده العقل والخيال تستمد ما فيها من طريقتها أكثر مما تستمده من نتيجتها ومغزاها ولا يستطاع بلوغ لبها ولا تذوق لذاتها الا بأن نتدخل فى طريقتها . فاذا كانت قيمة نزهة مخصوصة مستمدة من منظرها فلا يمكن الانسان أن يدرك تلك القيمة اذا هو سلك طريقا مختصرا فيها أو اذا هو قطعها فى سيارة سريعة .

وبعد : فانا اذا رجعنا بالنظر الى عصر حى ممتاز من عصور المـاضى وجدنا نوعين من الكتب يستوقفان النظر أولهما أمثال ڤينوس لميلو أو الكتاب لجوب أو الجمهورية لأفلاطون وهذه لها قيمة ومعنى فى ذاتها لمـا اتصفت به من الميزات القائمة بها وثانى النوعين أمثال القانون الرومانى المأخوذ عن الصفحات الاثنتى عشرة أو اختراع آلة الطباعة أو ديوان بعض الأيام العظمى فى الحرب وهـذه الأشـياء تسترعى النفس خصوصا لأنها أسباب لنتائج أعظم وحوادث أجسم أو لأنها عقد فى متسع نسيج التاريخ فالاقبال على النوع الأول لأنه فنى وعلى النوع الثانى لأنه تاريخى على أنه من الجلىّ أن العنصرين الفنى والتـاريخى ممتزجان فى الغالب فى كل مثل حسى .

فاليونان القديمة ذات خطر عظيم من الوجهين كليهما فهى فى نظر ابن الفن والشاعر يكسوها جمال رائع لا مثيل له . واليك موازنة بينها و بين رومة فى ذلك مثلا فانك ان حفرت فيما يجاور الحائط الرومانى فى كمبرلاند وجدت ركاما من أشياء شتى بين مذابح القربان والنقوش المكتوبة والصور وآلات الحرب والأحذية الطويلة والنعال القصيرة وهذه الأشياء ذات دلالة تاريخية عظمى تسترعى الاهتمام والاقبال ولكنها من جهة الجمال لا تزيد بهاء على ما يوجد فى أحد أكوام المتروكات فى أيامنا هذه ويصح أن يقال مثل هذا فى ما يستخرج من الحفر فى كل بلاد العالم ولكنك ان حفرت فى مكان من الأماكن القديمة أو الوسطى فى العالم اليونانى كدت لا تجد شيئا الا جميلا ولو قلت قيمته التاريخية فترى الحائط نفسه جميلا وعليه نقش أبدع حفره وأما الصور فترى أكثرها يميزه الصدق والملاحة ولو كانت مادتها رخيصة بسيطة على أنك قد تجد منها ما تعمد صانعه أن يجعله غريب الشكل مضحكا، وأما الأوانى فتجدها حسنة الشكل ورسم وشيها جميلا ، فاذا اتفق أن حفرت فى مقبرة وعثرت ببعض الشواهد عليها ذكرى بعض الغابرين وجدت على جلها تلك المسحة من الجمال التى لا يستطيع أحد أن يدرك كنهها ولو أن الشعر المكتوب قد لا يكون حسن الوزن وقد تكون الكلمات غير صحيحة الهجاء .

وانى لشديد الحرص على ألا أكتب فى ذلك الأمر هراء . وأن الانسان ليستطيع أن يدلل على صدق هذا الأمر فى تفاصيله بأن يأخذ أية مجموعة مما كتبه اليونان على شواهد قبورهم وهذا هو الطريق الوحيد لاقامة الدليل فان الانسان يرى دونه الجمال

حقيقة ماثلة ولعله اذا حاول أن يتغلغل الى منابعه ليفحصها أمكنه أن يبلغ شيئا فى فهم سر ذلك الأمر فأول شيء يعرفه أن ذلك الجمال ليس من حلية وتميق بل هو جمال فى البناء والتركيب جمال الصدق والبساطة. ولنضرب مثلا: رجلا مروّض الجسم يلعب كرة التنس فى أصوافه اذا وضعته الى جانب عظيم من العظماء ضخم الجثة مختنق فى حلله المذهبة أو مثـلا آخر (يختا) من خير سفن اليوم سريعا خفيفا بسيطا اذا قابلت بينه و بين سفينة ضخمة تحمل الخشب من سفن القرن السادس عشر قد زينتها حلية مذهبة ثقيلة، لا بل اذا فاضلت بينه و بين سفينة من سفن الحكومة الصينية فان اليخت لا يدانيه أيهما فى الجمـال على أنه لا يحليه جزء من مائة من زينة الأخريين فاليخت فى نفسه هو الجميل لأن رسمه و بناءه صحيحان وأما الآخريان فقوامهما ثقيل وهما لذلك شيئان قبيحان قد لطخا بالذهب والأصباغ .

و بعد فان أكثر مخلفات اليونان القديمة لها جمال ذلك اليخت، لا جرم قد اسـتخدم اليونان الأصباغ كثيرا ولكن المعبد اليونانى فيما عدا ذلك بسيط بساطة الحظيرة وأن من ألف الزخرف العربى والزجاج الملون والميازيب لا يدرك فى الغـالب قيمة لذلك المعبد وكذلك التمثال اليونانى فانه فى العـادة عاطل من كل زينة كأن يكون تمثال شـاب يسابق أو يصلى أو تمثال شيخ يفكر فتراه قائما يتمثل فيه الجلال والبساطة وسواء أكان وضع أعضـاء جسمه صحيحا أم غير صحيح وسواء أكانت تقاطيع سطوحه سليمة أم سقيمة فانه لا يقصد الا الى الجمال الأصدق . ولعل مثل هـذا التمثال يكون سمجا فى عين أحد رجال الفن الذى صنع صورة خشبية لملك

فى القرون الوسطى ، وأذكر أنى رأيت ذلك التمثال فى مدينة بشرق أوربا ، فألفيته تاجا يتألق بزجاج مختلف الألوان فوق حلة طويلة قرمزية تغطيها النقوش وفى طيها وجه قبيح من وجه لا عظام به ولا عضل ولا تحلى به نظرة ولا معنى . وليس هذا ماكان يقصده اليونانى من الجمال ويصدق هذا القول نفسه فى شأن الشعر اليونانى غالبا . وليس ذلك لاتفاق الاصطلاح الفنى أوتشابهه فى حالى صناعتى الأحجار واللغة فان الشعر اليونانى (تمثالى) بمعنى أنه على الأكثر متوقف على تركيبه فى نفسه وليس ذلك الشعر بحال من الأحوال تمثاليا بالمعنى الآخر أى بكونه باردا أو لا روح فيه أو جامدا . على أن الشعر اليونانى على وجه الاجمال به صفة يسوء بها ظن قارئ هذه الأيام وتلك هى أنه عار شديد وذلك القارئ قد اعتاد الزينة الزائدة والاغراق فى كل ناحية ، فشعر اليونان بسيط يرمى الى قصده بغير عوج وهو فى ذلك شبيه بالنحت اليونانى فكان شاعرهم يريد أن يقول شيئا عنده فيقوله بما استطاع من احكام وصدق فى أسلوب ملائم ولك بعد ذلك ألا تقبل على شعره اذا لم يكن فيك اقبال عليه فهو لا يلتمس ألفا من الحيل الدقيقة والحركات الغريبة فى سبيله حتى تنسى سماجة قوله فيما يسبب لك من لهو فى زوائده التى لف بها ذلك القول . اللهم الا فى شواذ قليلة تفسر علة وجودها بنفسها .

ولكنا هنا نلقى صعوبة ظاهرة فانا نقول ان الشعر اليونانى معروف بالقصد والبساطة وأنه خال من الحلية التى لا وجوب لوجودها ومع ذلك فاننا اذا نقلنا منه الى الانجليزية . ونظرنا الى الترجمة كان أكبر ما نشعر به على ما أعتقد أن البهاء والرونق قد زالا عنه ولا نعلم كيف زالا ، فنرى أن شيئا كان عاليا جليلا قد

أصبح سخيفا حقيرا ، وأن أحد دارسى اليونانية ممن لا بأس بهم اذا طالع أحد شعرائه الأقدمين وجد فى نفسه أنه فى حضرة شىء مجيد نادر، شىء يشبه فى جوه جو (الفردوس المفقود) ولكن لغة الفردوس المفقود لغة متكلفة ملتوية دخلها من التنميق ما جعلها عالية نادرة على حين لغة الشعر اليونانى لغة بسيطة مستقيمة . فما معنى ذلك ؟ لا أستطيع الا أن أقول ان اللغة العادية للشعر اليونانى فى حد ذاتها لغة مجيدة من بعض الوجوه وأكثر النقاد يقبلون ذلك الرأى على أنه حقيقة واضحة على أن ذلك الرأى اذا كان حقيقة كان حقيقة غريبة وكان جديرا بالبحث والنظر، وسر ذلك يرجع جزء منه الى جمال اللفظ فحسب فقولك "kaireis harôn fôs" كما يلوح أحلى منطقا من قولك "تسرك رؤية النور" ولكن جمال اللفظ ليس كل السر فان نطق كثير من الشعر اليونانى كما ننطق به نحن أو كما كان ينطق به القدماء لا يحلو للأذن الحديثة بل هو فيها كريه . اذا فلعل جزءا من السر فى ذلك الجمال يرجع الى تركيب اللغة اليونانية نفسه فان علماء اللغة يقولون ان تلك اللغة خير اللغات التى يعرفونها وأكملها فى التركيب والنمو وفى قوة التعبير عن معانى الأشياء ولا شك أن الانسان كثيرا ما يجد أن المعنى يمكن أن يظهر فى اللغة اليونانية سهلا جميلا فاذا ما وضع فى اللاتينية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية صار قبيحا ثقيلا ولكننى مع ذلك أرى أن هاتين العلتين السابقتين ليستا فى الصميم ولا تذهبان فى الايضاح الى الكنه ، فما ذلك الذى يخلع على الألفاظ حلتها ويجعل الأسلوب عاليا أو ساقطا ؟ لا شك أن ذلك هو ما يلتصق بتلك الألفاظ ويتداعى اليها أو هو تلك الصحابة التى لا تزال حول الألفاظ فى أذهان من يستعملها ، فان اللفظ الذى يستعمل

فى لغـة الحانات ومحال لعب (البليارد) يصبح وقد سرى فيـه الروح المعتاد لأمثال تلك المحـال وان اللفظ الذى يثير فى النفس ذكر ملتون أو كارليل تفوح منـه ريح لا تنفك حوله من عقول هؤلاء ولهذا لا أستطيع أن أنكر حكما وهو أن لغة شعر اليونان اذا كان لها فى نظر من ألم بها ذلك الطبع الخاص من الجمـال الحى الشديد فمـا هذا الا لأن عقول الشعراء الذين استعملوا تلك اللغة كانت فى حياتها معوّدة السموّ الى أفق أعلى من أفقنا سواء فى قوتها أو فى نبلها وشرفها . فتلك اللغة أنق وأكثر تهذبا لأنها تعبر عمـا فى أذهان قوم أنق وأكثر تهذبا ولا نقصد بالقوم أن يكونوا أنق وأكثر تهذبا أنهم كانوا فى تعاملهم أجم أدبا سواء قسناهم بميزان أيامنا أو بميزان أيامهم ولكن أقصد أنهم كانوا قوما أشد احساسا بالأمور فكانت عندهم المحاسن من شروق الشمس ومنظر البحر ومرأى النجوم وحب الانسان للانسان والنضال ومواجهة الشر فى سبيل الخير . لا بل كانت لديهم الأشياء العادية من لحم وشراب والأمور القبيحة من كره وخوف . كان كل ذلك لديهم له حد أحد وسن أقطع ممـا له عندنا فكان يثير فى نفوسهم مشاعرها أسرع ممـا يثيرها فينا وأكثر جلالا . وبعد فعلينا أن نستقصى تلك الحجة قبل أن نعدوها لغيرها ولنجعل أول مكان نبدأ منه تلك الحقيقة التى لا نزاع فيها وهى أن اليونانيين فى حوالى القرن الخامس قد أخرجوا لسبب ما أعمالا مختلفة من أعمال الفن من مبانى وتماثيل وكتب ولا سيما كتبا قد بقيت بدل أن تموت أو تهمل وتسقط فى حياة مؤلفيها وهى لا تزال مبعث جلائل المعانى ومثار واثبات المشاعر فاذا حاولنا أن نفسر هذه الحقيقة الغريبة لاحظنا أن اليونانيين كانت لديهم غريزة قوية لادراك الجمال قد استحوذت

عليهـــم وكان ادراكهم لنوع خاص من الجمـال ، ذلك الحسن الذى لا يكون من حليـــة عرضية بل من جوهر الشىء المصنوع وتركيبـــه .

ففى مؤلفات الأدب قد رأينا أن الجمال الخاص الذى نسميه الجمال اليونانى جزء منه ناشئ من قصـــد القول وصدقه و بساطته تلك الصفات التى كانت تميز اليونانيين فى كتابتهم لمـا يريدون أن يقولوه وأن جزءا آخر من ذلك الجمال راجع الى قوة خاصة وجلال فى اللغة التى نظنها الأداء الطبيعى للعقول القوية الجليلة ، فهل نقدر بحال من الأحوال أن نجمع كل تلك الأشياء معا حتى نفسرها ، أو على الأقل لكى ندركها جميعا ادراكا أكثر جلاء ووضوحا ؟

سيعيننا فى الاجابة عن هذا السؤال مثل مغرق فى القدم ومضلل غالبا . فقد قالوا : "ان العالم كان اذ ذاك فى صباه" نعم ان العالم لم يكن بالطبع كذلك اذا عنينا بالدقة فى التعبير . ذلك بأن الألفى سنة العجيبة التى تفصل بيننا و بين بريكليس ليس شيئا مذكورا بالقياس الى عمر العالم الكلى أو الى عمر الانسان . ثم نحن لا نستطيع أن نتصور أن رجلا ناهز الستين من عمره يشعر أنه أكثر فتوة فى القرن الخامس قبل الميلاد منه فى عصرنا الحاضر . بل الأمر على نقيض ذلك تمـاما . فان المناظير والأسنان الصناعية لم تكن قد عرفت بعد فى ذلك العهد البعيد . ومع هذا كله فان العالم ، وان شئت فقل ان عالمنا الغربى ، عالم الرقى والانسانية ، كان على عهد اليونان من بعض الوجوه فى صباه واقتبال سنه . فان الأمور العظيمة التى تعنى بها العقول الناهضة فى العصر الحاضر كانت قد بذرت بذورها كلها تقريبا فى بلاد اليونان .

لعل لفظ (الصبا) لا يؤدى المعنى المراد تمام الأداء . فان من النبات ، وذلك كضروب من عود الند مثلا ، ما يظل سنين طوالا قريبا من الأرض وحيا حياة رتيبة بطيئة حتى اذا ادخر كفايته من القوة الحيوية نما فجأة نموّا يبلغ عشرة أقدام وغدا حافلا بالنور ثم هو بعد ذلك إما يعتوره الفناء أو تبدو عليه أعراض الجهد ونفاد القوة . فاذا نحينا فكرة الفناء جانبا فانه يلوح لنا أن شيئا مثل ذلك يصيب الجنس البشرى من وقت لآخر أو يصيب منه نواحيه التى تحمل بحق نورا ما . فان جل الشعوب والأمم ليست فى تقدّم ونهوض فى معظم حياتها ولكن فى مجرّد ركود وخمول فان تحركت فليس تحركها الا لمجرد المحافظة على عاداتها التى اصطلحت عليها أو لترتد مرة أخرى الى جاهليتها . هذا هو السر فى أن التاريخ لا يعى شيئا عن هذه الشعوب والأمم . ان تاريخ العالم ليتكوّن فى الغالب من ذكريات العصور القلائل التى فاضت فيها بعض نواحى العالم بالقوى الحيوية واندفعت تحمل نورا وثمرا .

وقد أتيح لنا نحن أن نعيش فى منتصف عصر من هذه العصور وقد يكون ذلك فى آخره . فان ما شهده القرن الأخير من تغير فى الحياة اليومية وفى الأفكار وحال الأرض بوجه عام ربما كان أشدّ مما شهدته أية أربعة قرون أخرى أتت منذ ابتدأ العهد المسيحى . ولكون الأمر كذلك أصبحنا نميل الى اعتبار الرقى السريع حالا عادية من حالات الجنس البشرى مع أنه أعنى الرقى السريع لم يكن كذلك قط . ثم ان عصرا آخر منوّرا كعصرنا الحاضر نورا قصير الأمد ضيق الرقعة بالنسبة الى عصرنا ولكنه سريع النمو قويه الى حد التحيير والادهاش قد أتى على النواحى المنخفضة من شبه جزيرة البلقان من حوالى القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد .

و بعد فهذا الضرب من النور هو الذى يملأ جوانح العالم أملا ويجعله بذلك صبيا فتيا . أنظر الى رجل قد فرغ توا من استكشاف أو اختراع . أنظر الى رجل موفق فى حبه ، أو الى رجل قد أخذ فى حركة اجتماعية عظيمة ناجحة ، أو الى رجل يصنف كتابا أو يصوّر صورة يعلم أنهـا قيمة ، أنظر الى رجال يقاتلون فى سبيل قضية انقطع رجاؤهم من نجاحها قبل القتال ثم اذا هى ظافرة ظاهرة . أنظر الى انجلترا عقب هزيمة الأرمادا وفرنسا وقد لاح فى أفقها فجر الثورة وأمريكا أثر سقوط يوركتاون ، أنظر الى ذلك كله تر أن أمثال هؤلاء الرجال وهـذه الأمم قد امتلأت جوانحهم قوى حيوية فغدت مداركهم أشد وأحد واستنشقوا الهواء يفيض غبطة وسرورا وسرى فى نفوسهم شعور بأنهم سائرون فى طرق جديدة و بآمال مشرقة النور وأمور محتملة النجاح لم يعالجوها بعد ، وثقة بأن كل شيء يمكنهـم التغلب عليه اذا ما صدقوه السعى . بهذا المعنى يكون العالم فى صباه واقتبال سنه وأظنه كان بهذا المعنى فى صباه على عهد ثميستوكليس واسكيلوس . هـذا الصبا نصف سر الروح اليونانية .

هنا قد ألقى اعتراضا ربما كان كامنا فى أذهان كثير من القراء . فقد يقول قائل : " ان كلامكم هذا كله يلوح عليه أنه تحليل بسيط لحقائق معلومة بل الواقع أنه محض تصوّر وخيال . هؤلاء الاغريق الذين تصفونهم (بالنبل) قد طال عرضهم على الأنظار وألقى عليهم علم الانثروبولوجيا أنواره الكشافة . فليست محاربيهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية هى وحدها التى لها نظائر عند المتوحشين فكم منهم كان غريقا فى أحط أنواع الخرافات ! وكم منهم كان يأتى غير الطبيعى من الرذائل والمنكرات ! أولم يكن فيهم من كان مستعدا

لأن يرى حين الفزع الشديد أن الأضحية البشرية خير دواء يدفع به الأذى عن نفسه ؟ ! ثم إنا بعد هـذا كله لسنا بحاجة لأن نقرر أن نظامهم الاجتماعى كان الى حد كبير قائما على الرق وأنهم كانوا يعيشون فى مدن صغيرة حقيرة شبيهة بأعشاش الزنابير ، كل مدينة منها فى حرب مع جارتها التى تليها ونصفها فى حرب مع نفسه " !

لو أن صاحبنا المخاصم لليونان ذهب فى اعتراضه الى أبعد من ذلك فربما خرج الى قول غير الحق . ونحن واقفوه وان كنا على اتفاق معه فيما ذهب اليه . أن هذه التهم صادقة على وجه الاجمال ، واذا كنا نريد أن نفهم حقيقة اليونان فعلينا أن ندرك هـذه التهم ونقتلها فهما . وعلينا أن نجعـل نصب أعيننا حقيقتين اثنتين أولاهما أن أغريق القرن الخامس قد جاءوا ببعض ما يعرف العالم من خير الشعر والفن وأدق الآراء السياسية وأشد ضروب الفلسفة اتصالا بالحياة . والحقيقة الثانية أن القوم الذين سمعوا أو شهدوا تلك الآيات الروائع ، كلا بل ان نفس القوم الذين جاءوا بهذه الآيات الروائع ، لا يفصلهم عن المتوحشين سوى فاصل ضعيف وغير مقطوع بوجوده . يقولون اذا امتحنت الروسى المتحضر تكشف لك عن تترى همجى ونحن نقول اذا امتحنت الأغريق القديم تكشف لك دون شك عن مخلوق فطرى مخيف تلتمسه بمنزلة ما بين الفايكنج والبولنيزى .

وهذا أعجب ما فى الأمر وأغربه ولا بد أن المجهود الأدبى الذى اقتضاه هذا الانتقال كان هائلا جدا . نعم انا قرأنا قصصا تروى عن زعماء متوحشين أدخلهم المبشرون المسيحيون أو البوذيون فى ديانتهم فما هو إلا عام أو بعض عام حتى كانوا قد عدلوا عن

أسمارهم التى يكرعون فيها الخمور وعن خزعبلاتهم السحرية الدموية الى حياة لا نقول انها حياة تقوى وتدين ولكنها حياة منطوية على الرغبة فى اسعاد البشر وحسن ولاية أمورهم . كذلك رأينا اليابانيين منذ عهد قريب يبلغون من النهوض فى مدى جيل من الزمان ما يبلغ عادة فى بضعة قرون . ولكن القوم فى هذين المثالين انما كانوا يعملون بتعاليم حضارة راقية ، ثم هم مع ذلك لم يبلغوا أن يخرجوا للناس أثرا من آثار العبقرية الفذة المبدعة . أما اليونان فليس من شك فى أنهم ليسوا مدينين للمؤثرات الأجنبية إلا فى القليل النادر . لقد كانوا حتى فى عصر اضمحلالهم شعبا متعودا "أن يأخذ قليلا ويعطى كثيرا" ، كما يلاحظ الأستاذ بيورى ولقد أقاموا صرح حضارتهم لأنفسهم بأنفسهم . بيد أنه ينبغى أن نصغى مع ما يجب من الانتباه الى النقاد الذين أظهروا للعيان ما وجدوا عند اليونان من بقايا التوحش والخرافة كالنخاس والوثنى والعراف والمحتقر للمرأة والمتعصب الحنق على كل ما هو أجنبى عن مدينته أو حزبه . ولكن ينبغى أن نعلم أن اليونان لا يتألفون من هؤلاء الأشخاص . انك لتجد لهؤلاء الأشخاص أمثالا فى جميع نواحى العالم التاريخى . هم أعم من ثمر العليق وأشد انتشارا . ليس الذى يتألف منه اليونان بالشىء الثابت الجامد . انما هو الحركة التى نقلت اليونان من حال هؤلاء الأشخاص الى حال الرواقى أو سفسطائى القرن الخامس الذى استنكر الرق وسخطه ، والذى ألقى الخرافات الوحشية طرا ودعا الى دين قائم على الفلسفة والانسانية ، والذى طالب للمرأة بنفس الحقوق الأدبية التى للرجل ، والذى نظر الى جميع الناس نظره الى شيعته وعشيرته ، والذى نظر الى العالم على

اعتبار أنه "مدينة عظمى تسكنها الآلهة والناس" تلك هى الحركة التى لن تجد لها مثيلا فى غير بلاد اليونان كما أنك لن تجد مثيلا لتماثيل فدياس وحوارات أفلاطون وقصائد اسكيلوس وأور يبيد .

من ذلك كله نستخلص نتيجتين أو ثلاثا : النتيجة الأولى ، هى أن الحضارة اليونانية لكونها قامت بتلك العجلة الزائدة وذلك المجهود الحاد ، ولكونها نشأت من ذلك المنشأ الوضيع قد كانت برغم عظمتها كلها قلقة قلقا غريبا وملأى بعيوب جعلتها أشد أذى بطبيعة الحال لمن زاولوها وعاشوا فيها ولكنها لا تنقص من لذتها وفائدتها لمن يدرسها بل على العكس من ذلك تزيد هذه اللذة وتلك الفائدة. النتيجة الثانية ، هى أن قرب عهد اليونانى بالتوحش قد أكسب العقل اليونانى صفات بعينها نتجشم نحن كثيرا فى سبيل الاتصاف بها مع أننا ذوو مدنيات أكثر اطمئنانا وأرسخ أساسا من المدنية اليونانية . فالعقل اليونانى ينشأ نشطا ويسير الى غرضه سيرا قاصدا وهيهات أن تأخذه فى ذلك سآمة أو ملل . ثم ان دهشه بالنسبة للعالم وعنايته به لا يبرحان جديدين. النتيجة الثالثة ، هى أن صفة غريبة وهامة جدا تلحظ فى المدنية اليونانية أكثر مما تلحظ فى غيرها ، اللهم الا اذا كنت مخطئا فيما ذهبت اليه ، تلك هى أن هذه المدنية قد نهضت من الطبيعة سليمة خالية من الشوائب خلوا عجيبا بحيث لا تكاد تجدها تتعثر فى عقائد أنيقة أو عادات وتقاليد مرعية .

لست غافلا بالطبع عن الحضارة المينوية السابقة على التاريخ ولا عن الأوضاع الخاصة ، والبسيطة جدا غالبا ، التى انحطت اليها الديانة اليونانية التقليدية . ربما أكون قد تنكبت المحجة

بعض الشيء لتعوّدى الاكثار من الاقامة وسط أشياء يونانية ونسيانى بذلك الغرابة التى كانت تبدو على بعضها زمنا ما . ولكن اذا حسبنا حسابا لهذه المؤثرات كلها فانه يخيل الى أن قولنا بأن المدنية اليونانية نهضت من الطبيعة سليمة من الشوائب يظل مع ذلك دعوى صادقة بوجه الاجمال. فلو أن مفكرا أوربيا أو أمريكيا أراد أن يدرس أشياء تتعلق بالصين أو الهند فليس عليه أن يلم بأصول معينة من التاريخ والميثولوجيا فحسب ولكن عليه فوق ذلك أن يعمل عقله معملا خاصا كأن يضع عليه اذا صح هذا التعبير منظارا من نوع خاص . ولو أن هذا المفكر عينه أراد أن يدرس أشياء ترجع الى العصور الوسطى ، لو أنه أراد مثلا أن يدرس شاعرا عالميا كدانتى فالأمر كما ذكر. فهو يجب عليه قبل أن يقدم على فهم دانتى أن يمثل فى خياله بوجه ما الآراء الغريبة المتعلقة بالبابا والأمبراطور والفلسفة المدرسية العسرة، واللاهوت الغريب والذى قد يكون شنيعا بالنسبة للعقل الحديث ، المرتكز على جهنم وسعيرها . أما اذا كانت الأشياء المراد درسها يونانية فالأمر يكون أهون من ذلك كثيرا . نعم انه لا شــك فى أن المصـدر التاريخى والخيالى الذى كان يستمد منه كبار الشعراء والفلاسفة على اختلافهم هام جدا وأن حظا كبيرا من عمل المعلم الحديث مصروف الى جعل ذلك المصدر أوضح وأبين . ولكن اذا نحن صرفنا النظر مؤقتا عما عساه أن يكون من نقص فى ترجمة الآداب اليونانية فان الفلسفة اليونانية بوجه عام تحدّت رأسا الى كل من يريد أن يفكر تفكيرا بسيطا سهلا وأن الفن والشعر اليونانيين ليتحدّثان الى كل من يستطيع أن يستعمل خياله و يستمتع بالجمال. وليس عليه أن يستعين فى ذلك بقيود أو عصابات يأخذها عن نظـام آخر . بل الذى عليه هو أن يتخلص من قيوده وعصابته الخاصة وذلك أجدى عليه وأيسر مؤنة .

أظن أن هـذه النتيجة الخاصة لا ينازعنا فيها منازع ومع ذلك فالموضوع لا يخلو من صعاب واذا ينبغى أن نفصل القول فيه .

هـذه النتيجة لا ترمى قبـل كل شيء الى أن الفن اليونانى هو ما نصفه (بالطبيعى) أو (الواقعى) فمن البين أنه عكس ذلك . لقد كان الفن عند اليونان أبدا نوعا من (Sophia) أى الحكمة أو مصطلحا (Technê) ذا قواعد يجب استظهارها وأن ما يبدو عليه من علائم البساطة المطلقة لغير مطابق للواقع . فالعمود الذى يرى كأنما هو مستقيم استقامة مطلقة هو فى الواقع مؤلف من منحنيات لطيفة والنقش الجنازى الذى يخيل الينا أنه يمثل أبسط تمثيل ممكن حال امرأة تودّع طفلها الوداع الأخير قد رتب سطحا وراء سطح بأعظم ما يمكن من البراعة وأحيانا بمخالفة متعمدة لقواعد المنظور . انك دائما تجد فى الفن اليونانى شيئا من المواضعة وشيئا من الخيال وشيئا من النور الذى لم يقع قط على بحر أو بر . ومع هذا كله فالفن اليونانى على ما أرى ظل قريبا من الطبيعة بدرجة عجيبة . ان عين الفنان اليونانى دائما متجهة الى موضوع عمله واذا أبرز هذا الموضوع فى أسلوبه الخاص فذلك الأسلوب دائما أسلوب متزن معتدل خال من التكلف والغلو وسقم الذوق وخال فى العصور الأولى من المواضعة والاصطلاح . انه لفن دون شك ولكنه الفن الطبيعى المتزن الذى ينمو من تلقاء نفسه لأوّل عهـد النـاس بأن يكونوا أحرارا فى التعبير عن الجمال خذ لذلك مثلا : إن لغة الشعر اليونانى تختلف عن لغة النثر اختلافا بينا . وأساليب الشعر يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا والشعر نفسه قلما يتعلق بالحـاضر هو دائم التعلق بالمـاضى و بالمـاضى المتخيل فى صورة الكمال . فكل ما نلاحظه على ذلك هو أن هـذا النوع من التقيد المعهود

فى جميع عصور الشعر العظيمة ليس على ما يظهر أمرا صناعيا أو تحكميا ولكنه ميل واتجـاه نشأ نشوءا طبيعيا مع الآثار الأولى العظيمة التى عبر بها الناس عن احساسهم الشعرى .

وفوق ذلك فان هذا القرب من الطبيعة وهذا الخلو من نظام تفكيرى مقيد أوترتيب نقول ان هــذا كله بالاضافة الى عوامل أخرى قد أدى الى مافى الفن اليونانى من تنوّع وتعدّد فى جوانبه . ذلك التعدّد المدهش والذى هو أعجوبة من أشد أعاجيب اليونان القدماء تحيرا للألبـاب اذا ما قابلناهم بالاسرائيليين والآشوريين والرومان الأوائل مثــلا : ان بلاد اليونان من الوجهة الجغرافية مملكة ضيقة الرقعــة وذات ساحل شديد التعرج وأرض يتقطعها عدد عظيم من الأودية التى يكاد كل واد منها يكون بمعزل عن سائر الأودية . أما من الوجهة السياسـية فانهـا كانت عبارة عن وحدة مضطربة مؤلفة من عدّة دول مستقلة . فكل مدينة يحيط بها سور وتسكنها بضعة آلاف من السكان كانت كافيــة لتكوين دولة . وكان أهل كل دولة من هذه الدول بصفة خاصة قادرين قدرة عظيمة على أن يكونوا لأنفسهم آراء يقاتلون من أجلها . ومن ثم وجد من الوجهة العملية كثير من التقاطع والتحازب والضعف العام وهذا كله أدى الى خسارة وضرر لليونان أنفسهم ولكنه أدى الى نفع عظيم لنا نحن الذين يدرسون اليونان بعد أن مضوا لسبيلهم . ذلك بأنه أدى فى عالم الفكر الى تنوّع وحيوية هائلين . فانك لا تكاد تجد نمطا من أنمـاط الفكر ولا أسلوبا من أساليب الكتابة الا أمكنك أن تجد له نظيرا عند اليونان القدماء . وغاية ما فى الأمر أنك تجـد ذلك النمط وهذا الأسلوب عنـدهم كأنمـا هما فى أقدم صورهما وأبسطها . بل ان كل شىء يخيــل

اليك أنه ليس يونانيا بالمرة تستطيع أن تتبين له أصلا فى ناحية من نواحى الأدب اليونانى . فمذاهب : اللذة ، والزهد ، وعبادة المعرفة، واحتقار المعرفة ، والالحاد ، والتقوى ، والعمل للدنيا ، واطراح الدنيا ، كل هذه وكل ما عداها تقريبا من وجوه الرأى التى يمكن أن ترد على الخاطر تجدها ماثلة فى مكان ما من آثار ذلك الشعب الواحد الصغير . وما من حكم عام فى هذا الفصل الا ويستطيع الكاتب أن ينقضه نقضا معززا بالأدلة والشواهد . وجملة القول أنك تحس تحررا عظيما من كل قيد وترى العقل البشرى الذى ربما كان لم يجرب الأمور بعد مطلق الحرية شديد العناية بالحياة وممتلئا أملا ويحاول أن يبلغ فى كل ناحية ذلك السمو الذى يسميه اليونان (cretê) تهديه فى ذلك غريزة خاصة نحو الاعتدال والجمال .

هناك التنوع وينبغى ألا ينسى . ومع ذلك ففى وسط هذا التنوع تجد لوازم معينة عامة أو مركزية ترجع غالبا الى تلك الصفة عينها صفة الجدّة والقرب من الطبيعة .

لو أنك نظرت الى تمثال من تماثيل اليونان أو نقش من نقوشهم البارزة أو لو أنك قرأت قطعة متوسطة الجودة لارسطاليس فمحتمل جدا أن تشعر فى أول الأمر بملل وسآمة . ولم ؟ لأن هذه الأشياء كلها عادية صادقة خالية خلوا عجيبا جدا من الغلو والاغراب والتأكيد الثقيل ولأنها مجردة من تلك الأوضاع الجانبية الفاتنة الشاذة التى تروق فينا عنصرا شاذا ضعيفا يشبهها . قد نصيح قائلين ” انا سئمنا منظر هؤلاء الرجال بما أوتوا من خلق حسن وصحة تامة ، ووجوه تعلوها المهابة والوقار ، وعظام

وعضلات لا تفترق عما ألفنا فى شىء. انا سمئنا سماع أن الفضيلة وسط بين طرفين وأن الغرض منها اسعاد البشر ، وانا ان نحفل بمـا يقال الا أن يقول لنـا قائل ان الفضـيلة هى انكار النفس انكارا تاما أوانها ، وقد تكون كذلك ، اثبات النفس اثباتا متطرفا لاهوادة فيه . أو انها ليست الا غلطة شنعاء. أما التماثيل فاما أن تعطونا تمثـال رجل شخت الخلقة معصوب الجسم غائر العينين ، يسب الاله سبا ، أو تعطونا تمثال شىء يتدحرج على الأرض لحما وشحما .

وما منشأ ذلك النوع من الشعور الذى أسلم بأنه يأخذ غالبا صورا أدخل فى حكم العقل من جميع الصور التى أشرت اليها ؟ انه ذلك السبب البسيكولوجى الذى يبعث على تغيير الزى فى الفن واللباس والذى يحبب الى الناس كل منقوص الخلقة و يجلب للجرائد الصفراء الخير والثراء. انه الملل والسآمة (Ennui). لقد تناولنا أكثر من كفايتنا من (ا) وسئمناه وعرفنا كيف يصنع ومجته أذواقنا فهات لنا من (ب) وخير من ذلك أن تناولنا شيئا من (حـ) فاذا ماتناولنا جرعة كبيرة من (حـ) اشتهينا أن يعاد الدور من جديد. دعك من ذلك وتصور رجلا لا تدركه السآمة على الاطلاق، رجلا يغاير من ذكريهتم للدنيا اهتماما عظيما حريصا على اختيار الأشـياء الصالحة واطراح الأشياء الفاسدة، رجلا كله رغبة فى العلم وكله نزوع الى الاستكشاف . ذلك الرجل يسره أن يرى منظر عضلات طبيعية صحيحة فى جسم صحيح حسن التكوين . فاذا غيرت و بدلت فى وضع العضلات لتحدث تأثيرا انفعاليا قال لك فى تبرم وضجر (ولكن هذا قبيح) أو قال (ولكن عضلات الانسان ليست بهذا النظام !) وستجده يلاحظ أن الدموع ملحة دافئة بعض الشىء .

فاذا قلت مع شاعر محدث ان دموع صاحبتك (أحر من الجمر وأملح من ماء البحر) فربما خال ما تقول (غير مقنع) وخاله من أجل ذلك "باردا" .

لعلنا قد ألفنا استعمال اللغة الوجدانية فى دائرة الدين والأخلاق خاصة . أعنى انا نستعمل التعبيرات التى لا تصلح الا فى آونة الصفاء الروحانى كما نستعمل الأشياء العادية فى حياتنا اليومية . "لأن تتألم أنت خير ألف مرة من أن ترى غيرك يتألم" "انما الحب الصادق أن ترغب فى سعادة من تحب" هـذا النوع من العبارات الطنانة قد أصبح مما تألفه عقولنا كما أصبحت الاستعارات الكثيرة الميتة جزءا من لغتنا اليومية . وعلى ذلك فنحن نشعر بشيء من البرد والتبرم اذا ما سمعنا لغة لا يكاد أهلها يستعملون استعارة الا اذ أرادوا معنى هذه الاستعارة حقا ولا يجرى على ألسنتهم ذكر العواطف السيالة الا اذا كانوا موقنين كل الايقان بأنها عواطف صادقة . فهل معنى ذلك أن اليونانى كان يظل دائما فى درجة حرارة عادية اذا صح هذا التعبير فلا تتقد فى جوانحه انفعالات قوية تملك عليه سمعه وبصره ؟ كلا ثم كلا ! لان تخطر مثل هذه النتيجة بالبال دليل على عدم الثقة بقيمة الحياة . دليل على أنك انما تستطيع أن تبلغ الانفعالات العظيمة بالتصنع والتكلف أو بأن تعتاد تجسيم الانفعالات الصغيرة فى حين أن الواقع عكس ذلك تماما . اذا كانت عظائم الأمور وجد اليونانى اللفظ العظيم والمعنى العظيم حاضرين . أما الذى اعتاد الغلو والاسراف فى القول فهو الذى يجد نفسه عييا مفلسا . وبعد فان عظائم الأمور لا بد من وقوعها !

ان القدرة على رؤية الأشياء رؤية قاصدة عامدة وتبين ما فيها من جمال أو سمو فى غير تأثر بسآمة عارضة أو تقلب فى الذوق ، نقول ان القدرة على ذلك هبة نادرة جدا و ربما لم تتوافر لانسان تامة غير منقوصة . على أن هناك قاعدة فنية أصولية تأمر الانسان اذا ما كان منهمكا فى درس الأساليب المتنوعة أوفى استقراء تصوراته الخاصة "بأن يعود فيلقى بنفسه فى حجر الطبيعة" وكذلك الشأن الى حد ما بالنسبة للعالم . فانه يلوح لنا أن العالم ينبغى برغم ما قد يكون فى الفن والأدب من ضروب التكلف والغلو وتقلب المواضعة ، أن يعنى عناية خاصة بمـا كان فى الفن والأدب من أمثال هذه الأمور عند ما فطن الانسان لأول مرة الى معنى الحق والجمال ، ونظر الى العالم فى حرية وعدم تقيد نظره الى شىء جديد .

أهذا اسراف فى القول ؟ لا أظن ذلك . بيد أنه لا يمكننا فى هذا المقام أن ننفى عنه صفة الاسراف نفيا مطلقا . لقد عنينا فى هذه المقالة عناية تكاد تكون مطلقة بطرافة اليونان الفنية وقد يكون فى استطاعتنا كذلك أن نعنى بطرافتهم التاريخية . إذا لألفينا ، بالنسبة لذلك الفرع البشرى المسئول عن الحضارة الغربية ، أن أصول مانعده مفخرة الرقى الانسانى هى كلها تقريبا قد غرست فى بلاد اليونان ففى بلاد اليونان تكلم القوم لأول مرة و بقوة تامة فى تصورالجمال لعبا فى نفسه ودليلا هاديا فى الحياة . وفى بلاد اليونان قد استكشف القوم أو وصفوا الى حد كبير نفس القوانين التى يعرف بهـا الجميل من القبيح . وأن تصوّر الحرية والعدالة ، حرية الجسم والقول والفكر ، والعدالة بين القوى والضعيف والغنى والفقير ليتغلغل فى مناحى التفكير السياسى اليونانى

كله وقد حقق ، وسط عيوب ظاهرة ، فى أحسن الجماعات اليونانية . ثم لعل العالم لم يعرف أحدا أشد ادراكا لتصور الحق غاية تطلب لنفسها وشيئا يستكشف أمره وتجلى حقيقته بالتجربة والخيال خاصة ، ومعنى يتصل فى أصله بالحرية ويغاير كلا من الفوضى والطاعة العمياء ، نقول لعل العالم لم يعرف أحدا أشد ادراكا لذلك من كتاب الأغريق الأوائل الذين كتبوا فى العلم والفلسفة والذين يقف الانسان حائرا دهشا أمام حرية فكرهم التامة . وثم تصور آخر ظهر عند اليونان أخيرا أى عند ما اندمجت المدن اليونانية بعضها فى بعض وألفت مجموعة كبيرة مع احتفاظ كل منها بحقوقه المدنية الخاصة . ذلك هو تصور الأخاء العام بين الانسان والانسان . ذلك بأن اليونان سرعان ماتبينوا عقب الحروب الفارسية أنهم مبعوثون للعالم وأن الهيلينية ترمى الى الحياة العليا انتصارا لها على الهمجية ، والى السمو انتصارا له على التوسط الذى يدرك بغير مجهود . ولقد عبروا الى ذلك أدوارا ومراحل فكان فى أول الأمر دور الوطنية الفجة التى تعد كل يونانى أفضل من كل همجى ، ثم كان دور التفكر والتعقل فرأى القوم أن ليس جميع اليونان حملة النور حقا ولا جميع الهمجيين أعداء ذلك النور ، وأن الهيلينية انما هى أمر يتعلق بالروح لا بالجنس الذى ينتمى اليه الانسان أو المكان الذى يولد فيه . ثم كان دور تصور جديد يعبر عنه لفظ جديد هو (الانسانية) ذلك التصور جعل الرواقيين يرون أن العالم أخاء عام . لعمرى ان التاريخ لا يعرف أمة سبقت اليونان الى تكوين هذه المثل تكوينا صحيحا ، وان الذين جرت

على ألسنتهم أسماء هـذه المثل بعد اليونان يخيل الى الانسان أنهم فى معظم الأمر انما يرددون صدى أفكار اليونان القدماء .

كل هذه الآراء من طلب الحق ، والحرية ، والجمال ، والسمو ليست كل مافى الأمر . لقد كانت هذه الآراء للعالم مبعث قلق وحيرة . لقد رفعت للناس نورا لم يرقهم دائما أن يبصروه . ثم ان هناك مثلا أعلى آخر أقوى منها بوجه عام وقد يقضى عليها فى النهاية على اعتبار أنها شرور وآثام . فثم الخضوع بدل الحرية ، واماتة الحواس أوتحريك بهيميتها بدل الجمال ، والنزول على حكم التقاليد بدل طلب الحق ، والاعتقاد بالوهم أو الشهوة بدل العقل والفكر المعتدل ، ومحو الفوارق بين الخير والشر ، والتسليم بأن جميع الناس وجميع حالات الذهن متكافئة متساوية . فاذا ثبت فى النهاية أن شيئا من ذلك يجوز للانسان القول به فان اليونان يكونون قد لعبوا دور المخرب الأكبر فى تاريخ الانسانية . يكونون قد رفعوا لنا أضواء كاذبة استمالت سفننا الى مواطن خطرة . ومهما يكن من الأمر فانهم لا يزالون رافعين هذه الأضواء هادئا كان الجو أم عاصفا . وانهم أوقدوا هذه الأضواء قبل الأمم كلها وظلوا رافعيها مدة سيطرتهم القصيرة . وسواء اعتقدنا بحياة فردية قائمة على الحرية والعقل والجمال والسمو وطلب الحق ، وبحياة دولية ترمى الى المؤاخاة بين الانسان والانسان أو ظننا أن هـذه المثل شباك عظيمة نصبتها السياسة البشرية فهناك سبب معقول فى أن يقوم نفر منا فى كل جيل فيضحى ببعض وقته ومجهوده ويدرس أمثال هذه القوى الهامة حيث ظهرت لأول مرة واضحة

مدركة فى أذهان آبائنا الروحيين . سنجد هذه القوى وأضدادها الكبرى الى حد ما أنضر فى أفكار اليونان القدماء وفنونهم وأسلم من العيوب وأسهل نسبيا منها فى غير هـذه الأفكار والفنون . سنجدها عندهم قد دوّن كل أثر من آثارها العظيمة بمقياس رسم مادى صغير وذكرت كل مسألة من مسائلها بأشد ما يمكن من الايجاز م ه

جلبرت مرى

الدين

من الواجب على من يكتب عن اليونانيين أن يحذر ضلالة كثر ذيوعها اليوم هى نظرية المفاضلة بين الأجناس . ان علم الأصول السياسية للشعوب ، وهو علم مزيف ، قد برر مطامع الألمان وسهل عليهم اضرام نار الحرب وهو الذى أوحى الى الحلفاء طريقة لنشر السلام وكذلك المذهب الباطل القائل بالتفاضل بين الأجناس يتخذه بعض النـاس وسيلة لتبرير الظلم فى أوروبا وتبرير القتل بالتعذيب فى أمريكا . هذا المذهب لن يعيننا على تفهم اليونانيين .

كان اليونان أمة مكونة من نفس العناصر التى تكونا نحن منها وان اختلفت نسبها فيهم وفينا . وان جمالهم المشهور الذى كان قد أدبر أو كاد حين زار ششرون أتينا كان راجعا فى صميمه الى حياتهم الخلوية وتربيتهم البدنية وزيهم الذى كان من أكثر الأزياء تجميلا لأهله وما نظنهم كانوا أجمل من مجد فى أكسفورد أو من تلاميذ ايتن . أما الزمن الذى أزهرت فيه عبقريتهم فقد تأثر بنفس العوامل التى أثرت فى النهضة العلمية الايطالية وتشابهت آثارها فيهم وفيها . ان ولايات المدن[1] من شأنها أن تحمل أهلها على ادراك الفخم الرائع من النتائج ولكنها تسرع فى استنفاد ذخيرتها التى لديها منهم . على أننا لا نستطيع أن نعد اليونانيين شعبا متجانس العناصر فقد كان الأسبرطيون من الشماليين الخالصين تقريبا والأثينيون

---

(١) City—state

روما[1] خلصا . أما الذين عمروا تلك الأرض وأنجبوا أبطال اليونان فبعيد أن يكونوا قد احتفظوا بأنسابهم خالصة . على أنه لم تكن هناك يوما ما ثقافة يونانية مشتركة بين جميع اليونانيين فالنظام الأسبرطى الذى كان يقوم على قبيلة صغيرة محاربة ترابط فى أرض مغلوبة يذكرنا بنظام الزولو فى عهد (تشاكا) . وقد كان أهل اركاديا رعاة ، وأهل يوتوليا همجا و يوتيا كانت متقشفة ومقدونيا كان نصفها داخل المدنيـة ونصفها خارجها وقد كان الشعور بالجنسية قائما بين اليونانيين على وجه التقريب مقام الشعور بالانتماء الى الجنس الأبيض أو الى المسيحية فى المدنية الحديثة .

لم تكن اليونان من الوجهة التى نكتب عنها جنسا ولكن ثقافة . كانت لغـة وأدبا وشيئا أهم منهما هو الوجهة فى الحياة ، ثقافة تبدأ بالنسبة لنا من هو ميروس وتستمر سلسلة متصلة الحلقات مع ما اعتورها من التغيرات الى أن يغلق جستنيان غرف المحاضرات فى أثينا تلك التغيرات كانت عظيمة من غير شك فى العهد الذى بدّلت أثينـا فيه من الوجهة السياسية غير أثينا النابضة بالحياة ، ذلك العهـد الذى ورث التقاليد اليونانيـة فيه قوم لم يكونوا من سلالة الذين أسسوا تلك التقاليد . لكن التقاليد ظلت باقية يحفظها الأدب والتماثيل وتحفظها العوائد الاجتماعيـة أن تزول .

لقد كانت مدنيـة الأمبراطورية الرومانيـة يونانية لا ايطالية واستمر الأمر على ذلك الى انتهاء القرن السادس ثم فقدت المدنية الرومانية صبغتها اليونانية فى اللغـة والأدب ووجهة الحياة فقدانا استمر حوالى ألف عام ثم استردّها الغرب فى النهضة العلمية الايطالية فظلت بعد ذلك عنصرا فعالا فى المدنية الغربية الى اليوم . وكانت الفترة التى انقطعت فيها الصلة بين الغرب و بين الثقافة اليونانية

(١) من شعوب البحر الأبيض المتوسط

هى فترة العصـور المظلمة وأوائل القرون الوسـطى لكن لم يكن الانقطاع تاما بين الغرب و بينها حتى فى تلك العصور لأنهـا كانت عصور الحكم اللاهوتى الكاثوليكى. واذا كنا لا بد مختـارين رجلا واحدا يمكن أن نعـده مؤسسا للكاثوليكية كحكومة دينية فذلك الرجل لن يكون أوغسطين ولا القديس بولص وأبعد من ذلك أن يكون عيسى المسيح . انمـا ذلك الرجل هو أفلاطون الذى بين فى "قوانينـه" الظروف التى تنتج مثل تلك الحكومة والشـكل الذى لا بد أن تكون تلك الحكومة عليه وحدّد ذلك كله تحديدا عجيبا فى صحة نبوءته وكذلك فى دائرة التفكير النظـرى فقد كان أوغسطين مدينا للأفلاطونيين بالشيء الكثير كما كان المدرسيون مدينين لارسطو والمتصوفون لتلميذ بروكلوس الذى كانوا يسمونه ديناسيوس . أما الذى فقد أو كاد فذلك هو العلم اليونانى والروح العلمية ولم يكن أمام الغرب حين حطم أغلاله الا أن يبدأ ذلك من جديد .

فالثقافة اليونانية لم تكن ميراثا لشعب خاص ولم تقتصر على فترة من الزمن خاصة . زالت الحرية السياسية عنها فضنيت وهزلت ولكنها لم تهلك بل اتصلت حلقات فلسفتها من تاليس الى بروكلوس ثم من فيسينو و بيكو الى لوتزى و برادلى بعد نوم طويل لم يكن نوم الموت . أما دينها فقد وجد مدخلا دخل منه فى لاهوت المسيحية من غير أن يعتور ذلك الدين انقطاع . كانت الكنيسة الأولى اذا تكلمت تكلمت اليونانية واذا فكرت فكرت باليونانية وكان معنى الجنسية اليونانية فى أيام حرية اليونان أن يكون الانسان فردا من أفراد العشيرة اليونانية . أما بعد الاسكندر فقد صار معناها أن

يكون الانسان ذا ثقافة يونانيــة . فالرواقيون لم ينشأ واحد منهم بأرض اليونان نفسها وكان زينو نفسه ساميا . أما الكتاب اليونانيون المتأخرون فقد كان منهم ماركس أوريلياس وهو أسبانى نشأ نشأة رومانية ، وبلوتينوس وأكبر الظن أنه قبطى وبورفيرى ولوسيان وهما شاميان ، والقديس بولص ورابع الانجيليين على الراجح وهم من اليهود . كل هؤلاء تظلهم الثقافة اليونانية ويضمهم تاريخها . واذا كان هؤلاء يونانيين فهل يمكن أن ننفى هذا اللقب عن روفائيل وميخائيل انجلو وعن سبنسر وسدنى وعن كيتس وشلى ؟ ان بليك حين كتب :

"ان نور الشمس المسفرة ، متوقف على العين المبصرة"

لم يلخص فى قوله هذا فلسفة شعراء البحيرات فحسب ولكن لخص خير ما أخرج الفكر اليونانى للناس ثم ألم يكن هناك ما يطرب له أفلاطون فى اقرار ميخائيل انجيلو بالايمــان وهو الاقرار الذى ترجمه لنا ورد زورث اذ يقول :

"ولدت الروح من السماء فهى تنزع دائما الى السماء وهى لا تزال تحلق فى ما وراء عالم الشهادة تبحث عن الشكل الكامل والقالب العام اذ كل ما يبتهج به الحس باطل ضعيف وانى أقول ان الحكيم لن يجد راحة فيما يفنى ولن يعلق قلبه شيئا ينال منه الزمان" .

وهل كان أحد قط أحسن تعبيرا عن أعلى مظاهر الديانة اليونانية من ورد زورث نفسه وقد وفق اليه كما وفق بليك عن طريق الالهام لا عن طريق كتاب ؟

"لقد شهد العظمة وأحس قوتهـا وهو طفل لم يبلغ أشده وانطبعت الأغراض العظيمة على خاطره بطابع الشعور القوى

الراسخ فاستقرت على ذلك الخاطر كأنما هى مواد محسوسة يروع الحواس شهودها" .

ان الانسان لا تحيا روحه بالتقاليد فحسب بل هى تستطيع أن تشرب من المورد الأصيل نفسه إنا هنا نتكلم عن احدى ثقافات الانسان الخالدة التى تنسب بحق الى اليونانيين إذهى قد بلغت أوج عزتها وبهجتها فى أدب المدائن الهيلينيـــة وفنهـا . ولكنها أيضا لا يمكن أن يفرق بينها وبين المدنية الغربية كما يفرق بين أجنبى وأجنبى فلولا ما تركه لنا اليونان لما كان لنا ديننا ولا فلسفتنا ولا علمنا ولا أدبنا ولا تربيتنا ولا سياستنا ولكنا لا نختلف عن الهمج بشىء . ولا داعى لأن نبحث عما كنا نستطيع استكشافه فى النهاية لو أننـا كنا تركنا وأنفسنا فان مدنيتنا شجرة جذورها فى اليونان . أو هى ، اذا اسـتعرنا من كليمان الاسكندرى مجازا أدق ، نهر تمده الروافد من كل مكان ولكنه يونانى المعين . إن الاتصال بين الرأى والعمل عند اليونان فى الدين وفلسفته أمر له شأنه وخطره ومن الضرورى أن نؤكد هــذا هنا لأن برنامج التربية لدينا ، وهو أمر عارض ، يترك فى عقول أكثر الطلبة هوة واسعة بين الرواقيين والمسيحيين ويهمل ما تأخر من فلسفة الدين عند اليونان اهمالا تاما ويرد القواعد المسيحية الى فلسطين وليس بينها وبين فلسطين من الاتصال الا النزر القليل .

وهناك طريق آخر يبطل فينا الشعور بهذا الاتصال . ذلك هو النزعة التى ينزع بعضنا بهـا الى التفرقة بين بعض مظاهر التفكير والحياة عند الهيلينيين فيقولون هذا يمثلهم وهذا لا يمثلهم فى حين أن كليهما كان على السواء بين قدماء اليونان . ففى دائرة الدين

وهو موضوع هذا المقال يأمرنا بعض الناس أن نعتبر أفلاطون ويوربيديس خارجين على التقاليد القومية وغير ناتجين بالفطرة عن عصرهما وقطرهما . ولكنى لا أرى من حقى أن أقبل شيئا وأرفض غيره على هذا الأسلوب فقد لا يمثل صفات أمة مثل خوارجها ولا خصائص دين مثل الملحدين فيه . فلو أن نيتشه كان مصيبا فى تسميته أفلاطون مسيحيا قبل المسيح لما كان لى أن اعتبر أفلاطون من أجل ذلك يونانيا غير هيلينى ولكن الأقرب من هذا أن أرد اليه ، والى اليونان ، دين الكنيسة المسيحية وفلسفتها السياسية والنوع المسيحى من التصوف . واذا كان يوريبيديس قد سبق الى اللا أدرية المتورعة والشرك المبهم والعاطفة الانسانية التى هى الى القرن التاسع عشر أقرب منها الى القرن العشرين فلست من أجل ذلك أظنه من خوارق أثينا فى القرن الخامس ولكن أرى أن أثينا قد هدتنا الطريق حتى فيما لم نكن نتوقع الهداية منها فيه . ولست أجدنى كذلك ميالا من غير برهان الى اعتبار الأفلاطونية المتأخرة غيرهيلينية سواء سميناها دينا أو فلسفة . ولا داعى الى أن نبحث عن مؤثرات أسيوية فى مدرسة استمسكت بالتقاليد الأثينية . انما الأقرب من هذا الى ما نحن بصدده أن نبين كيف أن فلسفة دينية ذات نزعة تصوفية تنزع بها الى الكشف ومحاسبة النفس قد نشأت بالفطرة عن الفلسفات الطبيعية التى تقدمتها كما اضطر علم ما وراء الطبيعة والعلم الطبيعى فرجع فى أيامنا هذه الى نظرية المعرفة وعلم النفس وما كان ينبغى أن يكون أنصار الهيلينية فى حاجة الى مذكر يذكرهم أن صفوة الحكمة فى العصر الأدبى القديم (العصر الكلاسيكى) كانت " اعرف نفسك

بنفسك " أو أن هرقليطس قدبين طريقته بقوله " فتشت نفسى " .

على أننا سنصل عما قريب الى بعض أجزاء فى تراثنا الحديث ليست يونانية فى أصلها ولا فى لونها ولن يكون عثورنا عليها أيسر فى يوربيديس أو أفلاطون منه فى هرودوتاس أو سوفوكليس . لكن أنصار الهيلينية لكراهيتهم بعض ما نجم فى الدين من مثل التقشف والشعوذة فى العبادة والاضطهاد الدينى والاعتماد على رأى أولى العلم ، يريدون أن ينكروا اتصاله بما كان اليونانيون يقولون و يفعلون . وما هو الا مساوئ الروح اليونانى سرت الى الكنيسة من مصادر هيلينية لا من مصادر يهودية . ان كليانتيس هو الذى أراد أن يعامل أرسترقس بما عاملت الكنيسة به جاليليو لأنه سبق الى ما استكشفه جاليليو بعد . وأن بلوترك أو قل أباه الوقور هو الذى قال : "انك على ما يظهر لى تتناول موضوعا عظيما ذا خطر أو بالأحرى تثير مسائل لا ينبغى أبدا أن تثار إذ تضع رأينا فى الآلهة موضع النظر وتتطاب أسبابا و براهين على كل شىء . إن العقيدة القديمة عقيدة السلف كافية . واذا زحزحت هذه العقيدة فى نقطة ما عن مركزها الثابت الموروث فانها تنهدم ولا يثق بها أحد" ان سلسس اتهم المسيحيين بأنهم قالوا : "لا تسأل ولكن صدّق" ولكن هذا لم يكن مذهب كليان وأريجان فضلا عن أن يكون مذهب القديس بولص ذلك السباق المقدام وانما كان مذهب الفرد العادى من الوثنيين المتورعين . فقد كان الدفاع فى ذلك الوقت عن الخرافات الشائعة قد تعدى أمره السياسة وصار ضرورة محسوسة . كان مركس أوريلياس كثيرا ما يقدم البقر الأبيض

قربانا وكان الناس يكرهون المسيحيين لا لأنهم كانوا يظنون بهم التخريف ولكن لأنهم كانوا يظنون بهم الاجتراء على الآلهة . لذلك طرد الاسكندر الأبنطاكى "المسيحيين والأبيقوريين" بالاسم من مجالسه وكان لوسيان فولتير عصر كثير التصديق أما الشعوذة التعبدية فان أقيد قد نسب مذهب الأخذ بما عمل من قبل[١] صريحا الى اليونان .

لقد كانت الكنيسة المسيحية آخر عمل عظيم أخرجته الثقافة الأدبية القديمة فهى فى صفاتها الأساسية لا تنتسب الى آسيا ولا القرون الوسطى اذ المسيحية أقل جميع الديانات العظمى شرقية فالساميون قد نفضوا أيديهم منها وعادوا الى يهودية خالصة من عناصرها اليونانية أو حشروا أنفسهم طائعين تحت راية الاسلام الذى سماه وستكوت يهودية متحجرة وما لقيت بعثات التبشير المسيحية نجاحا فى قطرأسيوى ما . كذلك ليس فى الكاثوليكية شىء من مميزات القرون الوسطى . لقد حفظت الكاثوليكية فكرة الأمبراطورية الرومانية من الزوال بعد أن زالت دولة الأمبراطورية الغربية بل لقد حفظت تقاليد الأمبراطورية المدنية فاتخذت من الأمبراطورية الرومانية نموذجا نسجت أنظمتها على منواله ورفعت ما ادعاه الرومان من حق امتلاك العالم الى منزلة التقديس وأرصدت لكل خارج على سلطتها قانون الـ(Maiestas) الرومانى . حتى المعاقبة بالنار وهى أحب طرق العقاب اليها قد أخذتها عما تأخر من القوانين الرومانية . وهى بعد ذلك قد استمسكت باللغة التى كانت رسمية فى العصر القديم و باللقب الأمبراطورى الذى ابتدعه لنفسه حاكم

(١) ex Opere Operato

التلال السبعة على أن المسيحيين الأولين لم يكونوا من الحرص على انكار هــذا الاتصال بالمحل الذى يضعهم فيه كثير من الناس . ان كتابهم كانوا فى أول الأمر يرمون الى اثبـات اتصالهم باليهودية ولكن اليهودية لم يعد يقام لها وزن بعد أن دمر بيت المقدس فى سنة ٧٠ بعد الميلاد . وجاء كتابهم فى القرن الثانى يبنون دعوتهم الى التسامح على أن ما يقول به خيرة الفلاسفة اليونانيين يكاد يكون هو ما يعتقده المسيحيون . يقول چستين مارتر : "انا نعلم ما يعلمه اليونان وان كنا قد خصصنا بالكراهية دونهم جزاء على ما نعلمه" ويقول ترتليان : "لقد كتب بعض الراسخين منا فى الأدب القديم كتبا ليثبتوا أن ليس فيما نعتقد شيء لا يؤيدنا فيه الأدب الشائع بين الناس" ويقول چستين فى موضع آخر : " ليست تعاليم أفلاطون بأجنبية عن تعاليم المسيح وهذا يصدق أيضا على الرواقيين" "لقد اتبع هرقليطس وسقراط القانون الإلهى فيما عاشا " وينبغى اذا أن يعدا من المسيحيين . ويقول كليمان : ان أفلاطون كان يكتب "بالهام من الله" ويرى أوجستين وعصره متأخر جدا عن عصر كليمان أنه ليس هنالك حاجة الا الى تعـديل " بعض كلمات وعبارات " فى الأفلاطونية حتى تصير مطابقة للمسيحية من كل جهة . وقد بين هرنك أن قواعد الأخلاق عند معاصريه من الوثنيين خصـوصا ما بينه بورفيرى منها كادت تكون هى بعينها قواعد الأخلاق عند المسيحيين فى عصره وان اختلفت فى نقط كثيرة عن قوانين الأخلاق لخمسمائة سنة من قبل وعن قوانين الأخلاق لخمسمائة وألف سنة من بعد فان الخلاف لم يكن ناشئا عن الجنســية ولا عن العقيدة . فالمسيحية الكاثوليكية متصلة اتصالا تاريخيا بالمدنيات القديمة التى ظلت حية فيهـا بعد أن ذهبت تقاليدها الأخرى وعاداتها

وليس فى التاريخ الا أمثلة قليلة أخرى اتسع فيها الفرق بين الحقيقة والظاهر كما اتسع فى هذا المثل ففى الظاهر يبدو الاتصال بالوثنية مفصوما وباليهودية غير مفصوم والواقع على الضد من هذا .

هذه الحقيقة التى هى غاية فى الأهمية قد أبهمها على الناس أسباب عدة وقد ذكرنا من قبل الهوة التى توجدها تربيتنا التقليدية فى التاريخ كما نقرأه . أما التواريخ التى لدينا عن الكنيسة فى عهدها الأول فكثيرا ما ينحرف بها عن الجادة تحيز ووددنا لو سلمت منه فهى تحكم على المسيحية بأحسن ما فيها وعلى الوثنية بأسوأ ما فيها وتنزل المجاز فيما طعن به الطاعنون على سنيكا وجوڤنال وتاسيتاس منزلة الحقيقة فتأخذ به على ظاهره . وقل أن تتذكر تلك التواريخ العرف الذى كان يضطر الهاجى الى الاقذاع أو الظن السيئ الذى كان يظنه الرواقيون بالملكية من الوجهة السياسية ، أو أن الحياة العامة لم تكن يمثلها النمط الحديث للحياة فى العاصمة . هذا عن التواريخ القديمة . أما مؤرخ الكنيسة الحديث فقد اكتسب خبرته فى ركن من أركان كلية أو زاوية من زوايا كاتدرائية فهو لا يعلم عن بلده الا قليلا ولا يكاد يعرف شيئا عن الحالة الأخلاقيــة فى القرون الوسطى ، أما ما صارت اليه الحالة الأخلاقية الآن فى كثير من بقاع أوروبا فذلك ما لا يعرف عنه شيئا على أنه تبدو الآن فى أحدث الكتب رغبة حقيقية فى الوقوف فى الحكم عند حد العدل وليس هناك شىء تخشاه الكنيسة من حكم لا يأخذ الا بالعدل .

هناك فرض يفترضه حتى الكتاب المطلعون أمثال هرنك وهتس مؤداه أن العنصر اليونانى فى المسيحية دخل عليها فأخرجها عن صفائها الأول وصير أوروبا نصف وثنية مرة أخرى . وود هذا

الفريق لو أثبت أن الكاثوليكية كانت تكن بروتستانية أولية ليس لليونان عليها من فضل . والحق أن الكنيسة كانت نصف يونانية من البدء وان كان الانجيل لم يكن كذلك كما سأتعرض لهذا عما قريب . كان القديس بولص يهوديا من يهود التيه لا من فلسطين وكانت المسيحية التى اعتنقها مسيحية ستيفن لا مسيحية خيمس أخى المسيح ورسائله الأخيرة تفيض بلغة المعميات اليونانية واصطلاحاتها فرسالته الى العبريين كالانجيل الرابع لا يفهمان من غير أن تحيط بعض الاحاطة بما كتب فيلو . ولاهوتية فيلو يونانية أكثر منها يهودية فلما قام النزاع حول الحياة الأخرى غلبت الوجهة اليونانية على اليهودية وما التصريح المشهور الذى أعلنه القديس بولص بقوله : "إنا لا ننظر الى المرئيات ولكن الى غير المرئيات لأن المرئيات موقوتة وغير المرئيات خالدة" الا فكرة أفلاطونية خالصة ليس بينها وبين تفكير اليهود اتصال . لقد كانت المسيحية المتهودة مسألة محلية لم تعش الا أجلا محدودا قصيرا .

وهناك نقطة أخرى . ان الخلاف بين التعاليم الرسمية فى الوثنية وبين الصلوات فى المسيحية ينزله فريق فوق منزلته ويعطيه فوق أهميته وينسى من يفعل هذا كيف كان الدين والفلسفة متمازجين فى العصور اليونانية تمازجا تاما . إنا نستطيع أن نقول مطمئنين أن الأمبراطورية كان دينها الحيوى مرتبطا بالديانات ذات المعميات وبرياضة "الحياة الفلسفية" هذا نستطيعه من غير أن ننتقص بهذا القول قدر تلك التقوى البسيطة التى كانت تحوم حول الهياكل وطقوسها خصوصا فى البلاد الريفية . وفى هذه الدائرة دائرة الرياضة الفلسفية والمعميات يقع أغلب اتصال الكاثوليكية بالهيلينية لقد كان الفلاسفة فى ذاك العصر هم الوعاظ وهم القوام

على الاعتراف وهم القسيسون والمبشرون لحرفة الكهنوت بجميع فروعها تقريبا قد تسلسلت مباشرة عن الفلاسفة الهيلينيين .

ودعوى الاتصال هذه قد تبدو مناقضة نفسها لمن يتذكر الاضطهاد الوحشي الذى اضطهدت الحكومة الأمبراطورية به المسيحيين . غير أن تلك الاضطهادات لها أسباب عدة . كانت الأمبراطورية ككل الأمبراطوريات التى من جنسها تعتمد من بين ما تعتمد عليه على عماد دينى وقد كان أغسطس يشجع شعراء حاشيته على الحض على احياء التقوى والأخلاق الفاضلة . وليس فى وسع حكومة أن تمحص اعتقادات الناس ولكنها تستطيع أن تلزمهم السير على سنن الدين واحترام العبادة التى "يؤيدها القانون". فالمسيحيون والابيقوريون كانت جريمتهم السياسية واحدة هى الكفر. فلم تكن الحكومة تجد فى ديانات المعميات ما تشكو منه لأنها كانت ديانات لا تتجاوز الضمائر ولكنها كانت ترى الجهر بازدراء الآلهة القومية خيانة واضحة . ولم يكن فى مقدور الوثنيين أن يفهموا لماذا كانت الكنيسة تأبى كل الآباء أن تصانع القائلين بامتزاج الأديان وهو فى نظرهم كان نتيجة طبيعية لامتزاج القوميات . فأبيليوس مثلا يقول على لسان أزيس حين تجلت للوسيوس حيث الروح الأحد الذى تعددت أسماؤه وتنوعت شعائر عبادته واختلفت مظاهره بقدس فى كل بلاد العالم ويسرد على لسانها بعد ذلك أسماءها المختلفة فكان كرم النفس هذا الذى تجاوز مقام التسامح يبدو لمختلف سكان الأمبراطورية اعترافا بالحالة السياسية الواقعة . فالذين كانوا يأبون أن يدخلوا ضمن دائرته كانوا فى نظر الناس قابلين على الأقل لأن يصيروا أعداء المجتمع الذى هم فيه . هذا هو الخلاف الحقيقى الذى كان بين الكنيسة والأمبراطورية .

وأوغسطين حين سخر انمـا سخر من دين الحكومة القديم ومن الآلهة الرومانية الصغيرة التى لا عداد لها ولعله وجد أسماءها فى فارونيس ان أفلاطون و يوريپيديس وزينوفانيس هاجموا الخرافيات الرسمية[1] بمـا لا يكاد يقل فى شدته وحدته عما كتب أوغسطين ولكنهم لم يسـلموا مـن اللوم والتجريح وكان المسيحيون أكثر مخالفة للأولمبيين فى الأساسيات .

كانت النهضــة الوثنية التى قامت فى حمى الأمبراطورية شبيهة بالكاثوليكية الجديدة فى فرنسا وكانت أقرب الى الوطنية والقومية والمحافظة منها الى التدين بمعناه الدقيق ومن هنا على ما يظهر حاول سلسس فى كتابه المفقود الذى انتقد المسيحيين فيه أن يأتيهم من ناحية الوطنية حاثا اياهم على مؤازرة مملكتهم وحكومتهم فى الأزمات الشــداد حتى اذا أخذت الكنيسة تزداد أتبـاعا وقوة وأخذت التقاليد القائمة تنهار شيئا فشيئا لمـا قل التناسل فى الطبقتين العليا والوسطى جعل المحافظون يحدبون على ثقافتهم حدب الولهان القلق و يبصرون فى المسيحية ظلمة مبهمة تنذر باطفاء "كل شىء جميل فى الدنيا" . ونحن نستطيع أن نعطف بعض العطف على خوفهم وقلقهم هـذا ولكنا لا نستطيع عطفا على ما أدى اليه من سياسة حمقاء . لقد كانت الاضطهادات الأولى شبيهة بالمجازر الروســية كانت الحكومة فيها بين محرضة عليها ومغضية عنها رجاء أن يكون فيها منفذ يذهب منه سخط الناس فقد كان الناس فى ذلك الوقت يكرهون المسيحيين و يتلقون ما كان يدور حولهم من فظيع الأقاويل بشىء كثير من التصديق لكن الهجمات عليهم لم تكن متصلة ولم

---

(١) Official mythology

يقبل الناس عليها بقلوبهم فالبون بعيد بينها و بين ذلك الاستئصال المنظم الذى استؤصل به اليهود والبروتستانت فى أسبانيا . وقد وجد هدريان فى الاسكندرية شعبا يحب المال و يعبد المسيح وسارابيس عبادة من يسوى بينهما لا يبالى أيهما عبد . ونحن نخطئ اذا تصوّرنا المجتمع عندئذ منقسما قسمين على حرب دائمة فان أول حرب حقيقية وآخرها وقعت فى أيام دقلديانوس لتكون فصلا بين الوثنية والمسيحية أيهما يكون دين الحكومة . ولكن مهما يكن من ذلك فليس من شك فى أن تلك الاضطهادات كان لها يد فى القضاء على الثقافة القديمة .

يرى هرنك أن صبغ المسيحية بالهيلينية قد أخذ أدوارا ثلاثة وأن "الحياة والآراء اليونانية بدأت تنبت حقا" حوالى سنة ١٣٠ ميلادية ولا يستطيع أن يجد أثرا يونانيا مذكورا " فى كتابات المسيحيين الأوّلين غير بولص ولوقا و يوحنا" وهذا استثناء من الأهمية ما يسلب هذا القول قيمته أو يكاد . أما بعد سنة ١٣٠ فان "فلسفة اليونان قد نفذت الى صميم الديانة الجديدة من غير تعريج" و بعد ذلك بقرن أو نحوه "تأثرت الكنيسة بالرموز اليونانية والمدنية اليونانية فى جميع تطوّراتهما ولكنها لم تتأثر حتى ذلك الحين بقصصها وتعدّد آلهتها فان هذين لم يكن حان وقت التأثر بهما بعد" "لقد مر قرن آخر قبل أن يثبت فى الكنيسة قدم الهيلينية والواقع أن هذه الحركة قد بدأت منذ جعل الوعاظ المسيحيون يعظون باللغة اليونانية ولم تبلغ قط من التمام ذلك المبلغ الذى يصفه" ان الروح المسيحى[1] الذى يحله بحق أعلى محل من الأهمية كان فى رسائل القديس بولص لا ينقصه

(١) Logos Christology

الا الاسم . وما يجـده من التناقض الواضح بين الفكرة المسيحية عن الوحى يظهر على يد انسان فى وقت معلوم و بين الفكرة اليونانية عن حق لا يتغير ولا يحده زمان يمكن أن يدركه كل من يروض نفســه الرياضــة اللازمة ، وهــذا التناقض قد عالجـه الآباء القســيسون من اليونان وتغلبوا عليه بعض التغلب . كذلك يرى هرنك أن مذهب الأدرية ان هو الا المذهب اليونانى الصحيح فى الوحى قد تجسم ونسى أن الأفلاطونية الحقة والكنيسة هما فى معاداة مذهب الأدرية سواء . والكنيســـة برفضها مذهب الأدريين قـد آثرت الهيلينية الحقة على تطوّر همجى فاسـد قد تطوّرته . لكنا من الجهة الأخرى لا نجد عهدا يمكن أن نقول عنه ان الآراء اليونانية قداستحوذت فيه على المسيحية تمام الاستحواذ . لقد ذهب شطر كبير من التقاليد القديمة حين ذهب حماتها الذين انقرضوا طوعا لذلك القانون المحزن الذى تفنى الجماعات وتبقى تبعا له وأفسحوا بانقراضهم المجال للنزلاء وللطبقات التى كانت مغلوبة على أمرها من قبل أى لأولئك الذين كانوا أقل حاجة والذين لم يكونوا يأبهون بثقافة لم يسمح لهم أن يأخذوا بنصيب منها .

وهناك سبب آخر من أسباب فهم الحال على غير وجهها يمكن توضيحه ممـا كتب ماتيو ارنولد . لقد قسم النـاس جميعا الى صنفين أتباع العبريين وأتباع اليونانيين وجعل الانجليز والأمريكيين الحديثين من أتباع العبريين . وفى رأيه أن شعار الأخلاق العبرية هو "سر بالنور الذى لديك" وشعار الأخلاق اليونانية هو "احذر أن يكون النور الذى فيك ظلمة" فالآخذ بالشعار الأول صحا قلبه ولم يستنر عقله والآخذ بالشعار الثانى صفا عقله وقسا قلبه . وقد

لاحظ الأستاذ سانتيانا حديثا الفرق نفسه بين الفرد ينشأ من الأمم اللاتينية والفرد ينشأ من الانجليز السكسونيين . فالمدنية الرومية . الناشئة حول البحر الأبيض ، تحرى الدقة فى مقاييسها لأنها أقدم عهدا وأكثر تحذلقا . أما ساكن الأصقاع الشمالية فقد قصر اهتمامه على ضخامة ما يعمله من غير نظر الى نوع ما يعمل واتبع فى ذلك نصيحة كلاو .

"اذهب ! لا تقل فى نفسك ثم ما ذا ؟ واذا تم ما تريد وهدأت سورتك فلا تقولن ما الفائدة وما النفع؟" .

لكن سانتيانا لم يقع فى الخطأ الذى يقع فيه من يعتبر أن النهضة الحديثة كانت رجوعا الى مسيحية فلسطين . لقد كان القائمون بالنهضة أنفسهم يظنون ذلك لكن كل بدعة دينية تحاول أن تقوم على بعض التقاليد القديمة . فالمسيحية جعلت تبحث أولا لنفسها عن شواهد فى اليهودية وان أسرع اليهود فأدركوا أن المسيحية "قد أبطلت القانون" وكان هذا الظن الذى ظنه القائمون بالنهضة معقولا فى ظاهره فانهم نبذوا من الكاثوليكية كل ما لم يكن يمت بسبب الى فلسطين وان اتصل بثقافة الهيلينيين القدماء وأشياعهم لكن ما بقى بعد الذى نبذوه كان تيوتونيا أكثر منه يهوديا . حقا ان النهضة فى احدى نواحيها كانت فرارا من الرومانية الى الهيلينية فقد كانت الفلسفة المسيحية الأولى أفلاطونية فى أساسها وكانت الأخلاقيات المسيحية الأولى كما تمثل فى بعض الكتابات خصوصا كتابات أمبروز ، رواقية فى صميمها . وقد قرب الأفلاطونيون المتأخرون كثيرا بين أفلاطون والرواقيين حتى صار من السهل أن يسود الاثنان جنبا لجنب وجاء أوغسطين فطرد الأخلاقيات

الرواقية من الكنيسة طردا لم يكن لها بعده رجعة الا عند النهضة. أما الكلفانية فما هى الا رواقيــة معمدة ثم هى فى الواقع تجعل الاله مرجع كل شئ لأنهـا لا تعترف فى العـالم الا بارادة فعالة واحدة فهى فى هذا تشبه كثيرا ما كان يعتقده العلم فى القرن التاسع عشر . كذلك البيوريتانية لم تشبه اليهودية فى شيء وإن شغفت بكتاب العهد القديم ولكنها شديدة الشبه بالرواقية. فالنهضة كانت ثورة على اللاهوت اللاتينى وعلى الوثنيــة التى ورثتها شـــعوب البحر الأبيض ولم تكن رجوعا الى مسيحية ما قبل الهيلينيين أظلت بكنفها انسانية ارازمس والنهضة الانجليزية التى ازدهرت أخيرا. وما وجدت الأفلاطونية المسيحية منبتا أنمى ولا نمـاء أكبر من ذلك الذى وجدته فى بريطانيا البروتستانتية .

ويوجد اليوم ثورة بين غوغاء المدن أكبر خطرا تنذر فى الواقع بتدمير كل ما نحن مدينون لليونان به . فقـــد تولد عن الثورة الصناعية نوع جديد من الهمجية لا يمد فى المـاضى بجذر فأصبح التواشج والاتصال مهددا بالضياع للمرة الثانية فى تاريخ أوروبا الغربية. ينشأ الآن جيل لا تعوزه التربية ولكنها تربية من طراز لا تصله بالثقافة الأوروبيــة فى تطوّرها التاريخى صـلة . فلا الآداب القديمة تدرس فيها ولا الكتاب المقدس ولا التاريخ يدرس درسا ذا أثر. وأشــد خطرا من ذلك أن التقاليد الاجتماعية قد انعدمت فالمدنى الحديث مبتور لا يتصل بجذر قد نسى ما كانت عليـــه القرية التى جاء منها آباؤه من عادات وعواطف وصارت الحيـاة الى طراز لا هو بالصحيح ولا بالطبيعى فليست تربطه رابطة بالطبيعـة ومؤثراتها الحلوة وقد أكسب هــذا الطراز الناس عقلية تبرأ منها الصحة والفطرة وليس لها فى الماضى شبيه وأخص خصائص هذه

العقاية حب الدنيا والمادة . فالصانع المدنى البحت لا دين له ولا خرافة . لا يعرف غاية وراء هذا العالم الذى يحسه بحواسه ويلمسه . فكان من الطبيعى أن يفتح ذلك هوة بينه وبين دين اليونانيين ويفتح هوة أكبر منها بينه وبين المسيحية . أما المحاولات التى يحاول أصحابها أحيانا خصوصا فى هذا البلد أن يلبسوا حركة العمال بها لباس من يريد الرجوع الى الانجيل الفلسطينى فانها تكاد تكون خلفا مضحكا . وقد بين بلفور باكس فرق ما بين الاثنين فى قطعة تمثل بها الأستاذ جاردنر وهى : "ترى المسيحية أن الاصلاح لا يبدأ الا من الداخل أما دين الاشتراكية الحديثة وأخلاقها فانهما يتطلبانه فى الخارج فى الماديات وفى حياة اجتماعية أرقى" فهى بهذا تتحدى المسيح وأفلاطون على السواء .

هذا الروح الجديد منطق حين يثور على ما نسميه بالفكرية[1] أى معالجة مشاكل الحياة بالفكر المحض فانه روح يريد أن يستعيض عن الفكر بما يسميه بعض فلاسفته بالغريزة ولو سموه عاطفة لكان أقرب وليس بين هذا الرأى فى الحياة وبين الهيلينية من وفاق فان العلم هو أكبر أبناء الروح اليونانى وأعزهم عليه ولسوف تقع بين العلم وخصومه احدى كبريات معارك المستقبل فأما الغريزيون فسيكونون أكثر عددا وأما الطبيعة وهى التى كان يجلها ويثق بها جميع اليونانيين فسوف يتحقق ظنها فى أبنائها .

وأخص ما ينقم عليه هذا الروح الجديد هو أخلاق الرواقيين التى تقلدتها المسيحية كما رأينا ، تقلدتها ومذهب الأفلاطونيين فيما وراء المادة . ان الرواقية تعلم الناس أن يحترموا القانون الطبيعى ويخضعوا له وأن يتقبلوا مصائب الحياة بهدوء فى تكبر وأن يعطفوا

(١) Intellectualism

ولكن من غير استرســال فى شــفقة وأن يعتمدوا على النفس ولا يحوجوها الى غيرها وأن يحرموها ابتغاء ضبطها والفوز عليها وأن يجعلوا هــذه الحياة مدرسة صارمة يتلقون فيهــا الرياضة الخلقيــة المتينة . وهذا كله يبغضه الروح الجديد فانه يقاد بعواطفه غير مروض ولا جاعل للحياة غرضا الا السرور . يذكر للبيوريتانية شدتها من غير أن يعجب بفضائلها .

كثيرا ما يقال : ان الرجل الحديث قد فقد كل حب اليونانيين للجمال . وهذا فيما أرى غير صحيح فيه ظلم لمدنيتنا الحاضرة رغم مافيها من قبح محقق فى نواح كثيرة . ومن العجيب أن الذين تنــاولوا اليونانيين بالنقد لم يلفتوا الناس الى عيب فى حاسة الجمال عندالقدماء جعلهم لا ينفرون كثيرا من القسوة . ولم يكن هذا فيهم لأنهم كانوا يخرجون الأفعال الجميلة من دائرة الجمــال ، فانهم لم يخطر لهم قط أن يفرقوا بين الجمــال والخير من هــذا الطريق ، ولكنهم كانوا لا يتأذون بتعذيب الرقيق ولا من تعريض الأطفال للموت ولا من ذبح أهل مدينة اذا هم ثاروا . وقد انتاب المدن الايطالية عنــد النهضة مثل هذه القسوة فان ازلينو كان معاصر اللبانين والراسمين العظماء . ولست أرى مندوحة عن أن أستنتج أن هــذه القسوة تمت بسبب الى ما كان هناك من مقدرة على الابتكار الفنى فى هذين العصرين . أما الحساسية الكبيرة التى تحس المدنيــة الحديثة بها آلام الناس اذا كانت جثمانية فانها نشأت وانتشار الصناعة جنبا لجنب وهى أظهر ما يكون فى أخضع الممالك للصناعة وقد ظهر معها أمر آخر نأسف له فى عصرنا . ذلك هو ما أصــاب المقدرة على الافتنان السهل المطبوع من ركود ريحه . لقد كان افلين فى القرن

السابع عشر لا يزال فى استطاعته أن يزور السجن من سجون باريس بدافع التطلع الى رؤية مسجون يعذب حتى إذا ما رآه خرج قبل انتهاء العذاب ولكن من غير أن يقشعر له بدن ومن المحقق أن تأففنا من أمثال هذه المناظر راجع الى عاطفة الجمال لا الى عاطفة الخير فينا وهذا أظهر ما يكون فى الطبقات الاجتماعية السفلى . حدث منذ سنوات أن كنت ممن شهدوا أول ليلة مثلت فيها رواية لم تخل من سخف عن روما القديمة وكان من بعض مناظرها أن يؤتى بمسيحى ليعذب على المسرح تعذيبا لا أثر للشدّة فيه ولكن لم يكد يرتفع السوط فى يد الضارب حتى قام جيرانى من مجالسهم يصيحون "يا للعار ! أمسك يدك !" واضطر القائمون بتمثيل الرواية الى حذف هذا المنظر فى الليالى الأخرى . وحدث فى بعض المصانع أن سمع العمال مواء هرة بين الآلات فأبطلوا العمل ساعة حتى اذا أنقذوها من الموت بين الآلات والعدد قضوا عليها خنقا . وتفسير هذه الحساسية يجب أن يترك لعلماء النفس لكنى على ثقة من أننا فى مثل هذه الأحوال نبصر مثلا من الاحساس الجمالى قد زحزح عن موضعه فنحن مثلا نستطيع أن نسير غير متأثرين فى شارع بليستاو لكنا لا نحتمل أن نرى حصانا يضرب . والأثينيون لم يقيموا تذكارا كتذكار ألبرت ولكنهم كانوا يعذبون الرقيقات فى محاكمهم ويسوقون الأسرى الى مناجم الفضة فى لوريا ليعملوا فى أسرابها الفظيعة .

فظهور هذا الروح الجديد الذى تكاد الصلة تنقطع بينه و بين جميع التقاليد يجعل من الصعب تقدير ما علينا الآن من دين لليونان فى الأمور الدينية وما كان ذلك التقدير ليكون سهلا ولو لم تحدث ثورة صناعية . ان الأوروبيين الشماليين لم يكادوا يبلغون بعد

مرتبة الافصاح عن أنفسهم فديا نتهم خليط من عناصر يونانيـة ولاتينية وعبرية تأبى أن تتفق فيما بينها وتتنافر فى هذا البلد مع ما يراه مثلا أعلى للرجل المهذب ذلك المثـل الذى هو بين غير القساوسة فى الشعوب الناطقة بالانجليزية دين لم يعد له علاقة بالرتب وتاريخها ولا بالأرض وامتلاكها . ان الانجليزى المهذب بعيد عن أن يكون يونانيا بعده عن أن يكون يهوديا . لو قسنا أوديسياس به لكان خبا ذا فكاهة ، أو أكيليس لكان متوحشا ذا فظاظة ، أما الانسان الأعلى الذى يصوره ارسطو فهو كما قيل يشبه بعض النبلاء فى روايات دزرائيلى لكنه لا يشبه أى مهذب آخر. ان الانجليزى متدين بطبعه لكن المسيحية كما هى الآن دين رومى[1] ولو أنها نشأت فى شمال الألب أولا لأمكن أن تكون ذات معالم غير معالمها . من أجل ذلك كان فى البروتستانتية اضطراب ثابت يجعل نضالها مع الكنيسة اللاتينية كالمعارك يخوضها همج ضد جنود مدربين .

فديننا الحديث مثل الخيط المعقد يصعب جدا فصل بعضـه من بعض . ومع ذلك قد لا يكون من العبث أن نحاول أن نميز فى المسيحية الحاضرة ما هو غير يونانى بالمعنى الواسع الذى اخترناه لهذه الكلمة مما هو يونانى فى أصله أو فى لونه .

فأما العناصر غير اليونانية فأولاها بالتقديم الانجيل الأصلى الذى لم نذكر عنـه الى الآن شيئا . ان ما تحتويه الأناجيل الثلاثة من تاريخ الهداية الجاليلية لم يكتب الا بعد زمن طويل من حدوث الحوادث الموصوفة فيه . واذن فلا ينبغى أن يؤخذ بها غير منقودة . لكن تعاليم المسيح بالرغم من ذلك تبدو فى لبابها واضحة جلية فى هذه

(١) Mediterranean

الكتب على ما أرى وليس فيها من أثر يونانى يمكن العثور عليه بل ليس فيها علامة من علامات اليهودية المصطبغة بالهيلينية التى يمثلها لنا معاصره فيلو . ولكننا لا يمكننا كذلك أن نسمى الانجيل يهوديا الا بقيود كثيرة فقد جاء المسيح قومه نبيا وتعمد أن يقفو أثر الأنبياء قبله فى نبوءاتهم فهو كمن سبقه من أنبياء قومه لم يخرج فى تنبؤاته كل الخروج عن القالب الذى اعتاد الناس عندئذ أن تفرغ النبوءات فيه لكنه لم يدع الى القومية المألوفة ولا الى الحبرية المألوفة ولا الى الأخلاقية المألوفة فلم يكد قومه يدركون مرماه حتى نبذوه . ان الانجيل كما قال القديس بولص كان خلقا جديدا ولأمر ما لم يلبث أن استحدث اصطلاحات خلقية جديدة فالكلمات اليونانية التى نترجمها بالمحبة (أو الاحسان) والفرح والسلام والرجاء والتواضع ليست فى شىء من بضاعة الأخلاقيين اليونانيين قبل المسيح والناس لا يضعون ألفاظا جديدة لمدلولات قديمة . فالانجيل فى مجموعه ينسج على غير منوال سابق . والمسيحى يستطيع أن يجد بينة قوية تشهد بصحة ما يعتقده من أن الانسانية عامة قد تجلى لها فى المسيح هدى يريها لأول مرة دينا روحيا فى أنقى صوره وأعمها وقد اندمج هذا الهدى الى حد كبير فى مشاعر الدنيا المتحضرة لكن الدنيا المتحضرة لا تفقه للآن ما ينطوى تحته من كل ما يتعلق بالمعاملة فردية كانت أو اجتماعية أو دولية . ثم هى لم تعمل به قط الا عن تراخ وضعف . ان عارا علينا ألا تكون تعاليم المسيح الا قليلا من كثير مما يؤلف ما نسميه بالمسيحية وأن أتباع وسلى[1] فى مجموعهم هم فى رأيى أقرب الجماعات الى ما ينبغى أن يكون عليه مجتمع مسيحى .

(١) Quakers وهم طائفة من النصارى يؤمنون بالوحى الخاص فى أمور الدين والحياة .

ثم ان اليونان قد نجوا من مفاسد الحكومة الكهنوتيـة . ان النوع الشرقى من التيوقراطية الذى عرفوه فى مصر أيام الفراعنة كان أجنبيا عن حضارتهم . كانت قرابينهم من نوع يغلب عليه الايناس والبشر اذ كانت أكلة يتصلون فيهـا بالاله الا أنه يجب علينا ألا ننسى أنه قد كان فى اليونان أشكال للعبادة بعيدة عن البشر والايناس وأن الأرفية[1] أصابها انحطاط تعدّدت أنواعه ذكره أفلاطون فى جمهوريته "كانوا يسوّلون لا للأفراد فحسب ولكن لمدن بأسرها أن الذنوب انما يكفر عنها بقرابين وملاهى يفرغ لها الانسان ساعة وينتفع بها حيا كما ينتفع بها ميتا . فأما ما ينفع الميت فكانوا يسمونه بالمعميات ويرون أنها تنقذ من النار وأن مهملها لا يدرى أحد أى مصير سيئ يصير اليه" هذا النوع من استغلال القربان كان اذا شائعا فى اليونان لكن الهيلينية لم تعرف قط تلك البابوية القيصرية التى امتازت بهـا البيزنطية والاستعمار الحديث والتى ابتدعها قسطنطين ليستعين بها على صبغ الأمبراطورية بالصبغة الشرقية صبغا كان دقلديانوس هو البادئ به . "ان قسطنطين" كما يقول سيلى "اشترى لقبا لا يمحى بعهد لا ينقض أعطى به بعض امتيازات مقابل الطاعة التامة له . حصل على فتوى تقر النظرية الشرقية فى الحكم مقابل تقبله قانون الكنيسة . صار غير مسئول لرعيته بشرط أن يصير مسئولا للمسيح" .

واليونان لم يكن لهم دين كتابى قط بالمعنى الذى صارت اليه اليهودية والذى كان دائمـا عليه الاسلام غير أنهم كانوا الى حد ما

(١) Crphism

عرضة لأن ينظروا الى هوميروس وهسيود كما ينظر غيرهم الى الكتب المنزلة . ومن البين لنا نحن أن وراء هوميروس تاريخا دينيا طويلا وأن اتخاذ الآلهة أغراضا للشعر القصصى يثبت أن الالهة لم تعد يحف بها من الشعور الدينى الا القليل بل لقد صار بعضها مثلا يسخر منه كالشيطان فى أقاصيص الايقوسيين فكان من يريد أن يجعل هذه الأشعار أدبا مقدسا عرضة لأن يكون سخرية للمسيحيين . على أن هوميروس لم يظن أحد قط به أنه يشتمل على "الايمان الذى كان مرة مما أوتى القديسون" فلم يكن مستطاعا أن يبنى عليه دين يسيطر على نفوس الناس وكان من أثر ذلك أن بقى الفكر اليونانى أبعد من الفكر المسيحى كثيرا عن التغيير حتى جاء العصر الذى نحن فيه .

ان الذين راقبوا حقيقة حال المسيحية فى أقطار البحر الأبيض لا يجدون فرقا كبيرا بين التوحيد المسيحى والشرك الوثنى . لقد حاربت الكنيسة الأولى جنوح الناس الى أن يجعلوا بينهم و بين الله شخوصا تعبد لكن عبادة مريم قد دخلت على الناس من ثغر غير محروس وصارت الجماهير الكاثوليكية فى الأقطار الرومانية أكثر من كتب الصلوات وثنية فى العبادة حتى صار الكثير من سذج الكاثوليك أليمبوس يتخيلون فيه عيسى ومريم و يوسف عياهل مسيطرين .

ان القول بخلق الدنيا فى وقت محدود ، وهو قول كان ينكره أكثر المفكرين الوثنيين و يقره أكثر الربانيين المسيحيين . أقرب مردّا الى الفلسفة منه الى الدين وأهم منه القول بانكار قدم الروح وهو قول متوقف عند الفكر اليونانى على عقيدة البقاء بعد الموت

يقوم بقيامها ويسقط بسقوطها ومن الممكن أن يكون راجعا بعض الرجوع الى تأثير اليهودية لكن أغلب اليونان لم يكونوا يعتقدون القدم على ما يظهر وهو فى الواقع يكاد يختفى من عالم الفكر اليونانى بين أفلاطون والأفلاطونيين المستحدثين فمن الجائز أن يكون للقول الفيثاغورى الأفلاطونى مستقبل يضمره الغيب .

هـذه فروق يصر بعض الناس على أنها لا معنى لهـا بجنب الحقيقة الواقعة ، ان المسيحية كانت الجانب النظرى لثورة ثارها دهماء الناس على النظام الاجتماعى لذلك العهد . وعادت هذه الفكرة التى جعلت المسيح الفقير الصالح فشاعت بين النـاس حديثا حتى لقد قارن بعضهم المسيحيين الأولين بالبلاشفة وأن من الانصاف أن نتساءل فى أى عهد كان ذلك ولو بالتقريب صحيحا ؟ لقد كان المسيح وحواريوه من زراع وادى الأردن المترفين . نشأوا من طبقة متوسطة جيدة التربية غير مكدودة . أما خدم سراة الرومان وهم الذين اعتنقوا الدين الجديد زرافات فقد كانوا لا يستطيعون صرفا ولا نصرا ولكنهم مع ذلك لم يكونوا تعيسين ولا مستذلين . فاذا ما نحن جاوزنا القرن الثانى صارت المقارنة بين المسيحيين بعده وبين دعاة الثورة فى هـذا العصر الحديث أسخف من أن تتناول ببحث أو تمحيص . نعم ان فى أقوال الآباء المسيحيين كثيرا من الأقوال البليغة عن الغنى وعن الفقر لكن من تعس الجد أن الكنيسة لم تعمل على ما يظهر الا قليلا جدا تنمى به على المظالم الاقتصادية الصارخة فى القرنين الرابع والخامس ولم يكن هناك حوالى الكنيسة الكاثوليكية من الأول الى الآخر شىء من الحركة الاسبرطية ، ثم لم تكد الاضطهادات تقف حتى أخذ الأساقفة بالطبع مكانهم بين الأشراف .

فاذا ما أردنا أن ننظر فيما لليونان من فضل على الديانة الحديثة عسر علينا أن نعرف أين نبدأ .

ان تصور الفاسفة كفن حى من أخص تصورات اليونان وليس أبعد من الحقيقة من أن تسمى اليونان "فكريين" تريد الاستخفاف الذى يغلب على الكلمة اليوم . كان غرض الفلسفة تعليم الانسان أن يعيش فيحسن العيش وأن يفكر فى الله والدنيا ونفسه فيحسن التفكير وسيلة الى ذلك العيش الحسن . وهذه الصلة الوشيجة بين ماوراء المادة والأخلاق والدين قد بقيت بين أيدى الدنيا الحديثة ملكا لا يزول . فكل فيلسوف ينتظر منه اليوم أن يبين علاقة ما بين مذهبه و بين الخلق والدين . وكثيرا مايلاحظ النقد عن صدق أن المفكر مهما اجترأ فى تفكيره يتحرى حين يتعرض للسلوك أن يجارى العرف مجاراة كافية . ولا يزال المزيج الذى مزج اليونان الأقدمون بين مذهب أفلاطون فى ماوراء المادة ومذهب الرواقيين فى الأخلاق هو الطراز الغالب على الفلسفة الدينية المسيحية . ومن الشائق أن يلاحظ الانسان كيف استمرت الميول المتخالفة فى هذين المذهبين ، من استحسان التجرد والعزلة والاشتراك فى أعمال البر الاجتماعية ، يجاهد بعضها بعضا داخل الكنيسة المسيحية .

ان ما للزهد من المكانة فى الدين والكثير الذى كتب بغير تعقل عن فرق ما بين مكانته فى الهيلينية والمسيحية يحملنى مع مراعاتى الاختصار فيما أكتب على أن أتناوله بتفصيل أكبر مما تبرره الدقة فى مراعاة التناسب . كثيرا ما افترض المفترضون أن المثل الأعلى من الزهد لا يمكن أن ينال إلا احتقارا من أمة رياضية

تجعل هرقل وتسيوس وأكليس وأمثالهم أبطالا يمجدون . لكن الحق أن الزهد كان له فى الهيلينية تاريخ مطرد . فهو مروس نفسه لم يكن يجهل خبر (السـلى) من قساوسة دورونا ذات البرد الذين كانت أرجاهم الحافية لا تغسـل والذين كانوا يفترشون الغبراء . ومن الراجح أن هـذا لم يكن ، كما يظن ڤيلاموڤتز مولندرف ، وصفا لمعيشـة متوحشة ولكن لطائفة متقشفة من المتنبئين فان أيام الصوم التى كانت تسبق تنقيح القوانين كل سنة كانت المحصنات الأثينيات يصمنها على نفس النمط ، كن يمشين غير منتعلات و يجلسن على الأرض عارية . ومن الممكن المقابلة بين هذه وبين مذهب تعرية الأقدام[1] الذى كان الرومان يأخذون أنفسهم به فى زمن القحط والذى ذكره پترونيوس وترتولبان . لقـد صام المتنبئون والمتنبئات فى ملتوس وكلفون وفى غيرهمـا من الأماكن وكان الناس كافة يؤخذون بأنواع من الصوم أيام النوازل أو الخطر وكانت مدينـة تارنتم تصوم فى كل عام شكرا على النجاة من حصار حوصرته أما جلد الأولاد فى أسبرطة فلا يكاد يدخل فيما نحن بصـدده إذ هو على الراجح كان بدلا من القربان البشرى . لكن ممـا يحمل على العجب أن ذلك التعبد القاسى قد استمر الى نهاية العصر القديم تقريبا . وكانت عبادة ديونسيوس زجريوس فى طراقيا مصحوبة قبـل فيثاغورث برياضات من التقشف وكان الأخذ بمذهب النباتيين ، وهو الذى لا تخـلو حياة مترهد من أثرهام له ، حتما لازما على الفيثاغوريين ولكن لم يكن يبعثهم عليـه محض الرغبة فى قمع الحيوانية فقـد كانوا يعتقدون بانتقال الأرواح الى جسوم الحيوانات ومن يعتقد ذلك لا يجد

(١) Mudipedalia

مناصا من اعتبار أكل اللحوم كأكل البشر أو يقرب منه وكانت قواعد الحياة عند الفيثاغوريين والأرفيين معروفة جد المعرفة خلال العصر القديم وكان يراعيها كثير من الناس على الأرجح . كانت قاعدة العفة أقل دقة منها فى الحياة الكاثوليكية الدينية بكثير لكن أمبدوكليس قد نصح كما يقول هيبوليتوس بالامتناع عن الزواج والتناسل . واطرد ازدياد الميل الى اعتبار الترهب جزءا من الحياة الفلسفية . وقد روى عن كليمان الاسكندرى أن انتستين الكابى وداو "رمى أفرديت ذلك الذى أفسد العدد الكبير من النساء الطاهرات" لكن زهد الكلبيين الأولين وبعض الرواقيين لم يكن مبنيا على الروحية وبيع النفس بل على الرغبة فى الاستقلال بالنفس عن غيرها وكثيرا ما اتخذ ذلك الزهد أشكالا منفرة وقد كان فيهم من يصدق عليه أنه كان لا يكره اللذة الحسية لذاتها وانما كان يكره أن يدفع لها ثمنا .

ان الرغبة فى استغناء النفس عما سواها جزء دائم من الزهد ولكنه كان جزءا صغيرا عند القديسين المسيحيين . وكان اليونانيون الذين اتبعوا هذه الرغبة يتلهفون دائما على العصمة فيغلون فى التلهف . وكانت العصمة هى المحبب الأكبر فى الحياة الفلسفية من عهد انتستين وبقيت كذلك الى النهاية . لكن الكلبية والرواقية (وهما يجنحان الى أن يجريا معا) صارا فى عصر الأمبراطورية الرومانية أكثر لطفا وأقرب رحما وأكثر روحانية حتى لقد يبدو سنيكا وأبكتيتس وماركس أورلياس كأنما أخذوا من المسيحية بنصفها ولكن لعل من البعيد أن تكون الأخلاق المسيحية قد أثرت أثرا مباشرا فى ذلك العهد القديم ويكفى أن نفترض أن روح العصر قد أثرت فى جميع المعتقدات والمذاهب

أثرا متشابها . لقد أخذ تعذيب النفس يتشكل أشكالا تتزايد عنفا حتى انتهى الى الضلالات الغريبة ضلالات الرهبنة المصرية وهذه لا يمكن اعتبارها يونانية ولا مسيحية وانمـا تدل على اعتلال قائم فى المجتمع لا يمكن أن يعلل كله بظروف ذلك العصر . ثم مرت قرون قليلة جاء بعـدها نوع من العزلة كان خيرا من تلك الرهبنة عفى على أصحاب الصوامع . فلقد احتفظ نساك القرون الوسطى بعيشة التفرد ولكن شـتان بينهم و بين متوحشى طيبة المعاتية . أما فى العصور الحديثة فقد عاش أكثر الناس تأثرا بالروح اليونانية فى بسـاطة التقشف فى الجملة ولكن من غير أن يأخذوا أنفسهم بشىء من التأديب العنيف الذى يقال ان بعض صالحى الكاثوليك لا يزالون يفعلونه . ذلك لأن الروح اليونانية لا ترى حياة فلسفية أعلى من المران الدائب على امتلاك النفس والتقليل كل التقليل من الأخذ من ملذات الحواس لحياة القسيس أو الأستاذ أو الفيلسوف الانجليزى هى عند أخيار اليونان حياة ملومة لاسرافها فى مطاوعة النفس . ونحن كثيرا ما ننسى مبلغ أخذ اليونان فى جميع الأحوال بالشظف والجلد فى العيش لكن علينا فى هـذا المقام أن نزن الفروق بين المناخين واضطرار الشعوب الشمالية على ما يظهر الى التغذى بغذاء أطيب .

ان تأثير المعميات اليونانية على المسيحية مسألة يحتدم الجدال فيها وللهوى وسوء الظن فيهـا ملعب لا يليق . لقد استكشفت فى مصر وغيرها استكشافات حديثة زادت كثيرا فى المعـلومات اللازمة للحكم ولكن قد وقع ما يقع عادة من المبالغة أحيانا فى تقدير أهمية الحقائق الجديدة . لقد بخس اللاهوت البروتستانتى تأثير المعميات حقـه وتعمد أن يرد ذلك التأثير الى تاريخ متأخر حتى

لا يسلم بأن مسيحية القرن الأول كان قد وجد فيها بالفعل عنصر كاثوليكى قوى والكاثوليكية الصحيحة تجاهلت ذلك التأثير لبواعث تختلف عن الأولى ولكنها مثلها فى الوضوح وفى رأيى أن الكاثوليكية الآخذة بالجديد قد قدمت تاريخ انبثاق مذهب القربان التقديسى الساذج فى الكنيسة عن موعده وجعلت له من الأهمية فى دين القرن الأول المسيحى فوق الذى كان له . وأهل هذا الرأى يكادون ينكرون أن يكون هناك بين تعاليم المسيح و بين الكنيسة الكاثوليكية التى يرونها فى الدين من طراز عبادة أزيس ومثرا ، الا اتصال يرجع نصفه الى المصادفة . ومن الغريب أنهم يرون المسيح مجرد شخص من أشخاص التوراة و يعتبرونه واحدا من كثير من المسيحيين أو المهديين الذين قاموا فى تلك الفترة فى فلسطين . وهناك مثار آخر للجدل هو تقدير ما كان لأديان المعميات التى كانت فى بلاد اليونان من قيمة . ان من كتب فى هذا الموضوع من رجال الأدب الألمان المقتدرين مثل رتزنشتين وروض وهو أكثر تطرفا فى ذلك من رتزنشتين ، اتخذوا فى بحثهم طرائق المعميات أسلوبا جافيا جدا على ما يظهر لى ثم جاء أخيرا بعض النقاد الأكفاء فانتصروا منذ زمن غير بعيد الى أن لليهودية ، اليهودية المتهلنة طبعا ، من الفضل على هذه الناحية من المسيحية أكثر مما كان يظن الى الآن .

يقول أفلاطون فى فيدو " ان الذين أسسوا معمياتنا يعلنون أن من يرد على النار غير مهدى سيرقد فى الطين وأن من يرد عليها مطهرا مهديا سيقيم مع الآلهة " لأن " من يحمل الشارة كثير لكن الملهمين منهم قليل " ولم يسلم مذهب القربان التقديسى هذا من التحدى كما قد رأينا عن أفلاطون نفسه . وقد تساءل ديوجينس كما يقال عن الفاتك باتشون أهو خير منقلبا فى الدار

الأخرى من البطل أمنونداس لأنه كان موفقا مهديا ولأن الثانى لم يكن ؟ لكن الأرفيــة طهرت التعبدات الخمرية ورفعتها وان تعرضت هى للفساد . فقد كان الخمريون كما تقول مس هريسون يرجون أن يصلوا الى الله بالسكر والأرفيون يرجون أن يصلوا اليه باجتناب الخمر فصارت النجاة الآن عن طريق الصلاح وأعطى المهدى عهـدا أن "يأيها الســعيد المبارك لتكونن الها بدلا من أن تكون فانيا" وكان اليونانى يفهم من أن يكون الها أن يكون خالدا ونجا الأرفى الصالح بهذا من الحلقة المؤلمة حلقة الميلاد والموت المتكررين. وكانت الطهارة الأرفية فى صميمها نتيجة للرياضــة الخلقية وان لم تكن كذلك فى رمتهـا . ويقول كيومون ان طرائق المعميات جاءت معها بشيئين جديدين ، بوسائل معياة للتطهير أرادوا أن يغسلوا بها عن الروح أدرانهـا ، وبالعهد الذى يضمن للتقى الخـلود فى النعيم جزاء تقواه . ويقول مستر ه . ا . كندى إن الحق كان يعرض عليهم فى ثوب الوحى الالهى وأنهم كانوا يعنون باخفاء التعاويذ عن أعين الفساق يرون ذلك حتما عليهم وهى التعاويذ التى كانوا يرون فيهـا وسـيلة قوية يتخلصون بهـا من مس الشياطين ويتغلبون بها على القدر النافذ وهو أهم لديهم. وكانت هذه الشيطانيات يعتقدها الناس فى كل مكان أيام الأمبراطورية الرومانية وهى الأيام التى عناها مستركندى بجملته هـذه . ومن تعس الجد أنهـا تركت من الأثر فى رسائل القــديس بولص أكثر ممـا كنا نود . كذلك تكونت جماعات تصوفية كان تكونها خطوة مهمة فى نمو الدين اليونانى . كانت هذه الجماعات عامة وانتشرت على ما يظهر فى الفرص الكبرى على الأخص وأقبـل الناس عليها اقبالا وكان أكثر أشياعها من

الطبقات الدنيا ولم يكن معمولا بالفروق القومية والاجتماعية فيها . ولا يمكن أن يلخص غرضها الأقصى بأحسن من كلمات مستر كندى " أن ترتفع بالروح عن قصير عمر المادة الفانية بالوحدة الفعلية مع الاله" .

وقد اعتاد الكتاب أن يفرقوا بين الوقور المعترف به رسميا من المعميات مثل معميات أليسيس و بين الجماعات التطوعية المستقلة التى صار لبعضها أهمية بعد . لكن الراجح أنه لم يكن هناك فرق مهم بينها فلم يكن فى أيها كبير تعليم محدود وكانت ترمى كما يقول ارسطو الى احداث حالة خاصة من الشعور كانوا يمثلون رواية من روايات العواطف فى ظروف غاية فى الروعة والتأثير . وليس هناك سبب يحمل على الشك فى أن تأثيرها الخلق كان مفيدا وأنه كان أحيانا عظيما . فلما امتزجت المعميات المصرية ، معميات أيزيس وآزوريس ، بالمعميات اليونانية نشأ طراز من العبادة يشبه المسيحية الى حد مدهش . ففى بعض المتون المصرية المشهورة ترى الوعد " ليحيين (العابد) حقا كما أن حياة آزوريس حق ولينجون من الموت حقا كما أن نجاة آزوريس من الموت حق" . وشكر أيزيس الوارد فى آخر "من خلق الى خلق"...... لابيلياس جميل جدا فى ذاته وان كان نهاية غريبة لرواية خليعة . وتحتوى الأدبيات أدبيات النسك الرهبانية أيضا على مواعظ تشبه مواعظ يوحنا شبها كبيرا كما يتبين ذلك على الخصوص فى دعاء أيزيس "مجدينى كما مجدت اسم ابنك هوراس" . وانى وان وافقت النقاد أمثال كيومون وزلنسكى فيما يرون من نسبة التعليم الرهبانى الأرقى الى مصادر هيلينية حقا فانى لا أرى داعيا لأن ينسب التعليم الأرقى كله الى اليونان والأدنى الى مصر .

كثــير من لاهوت القديس بولص ينمى الى نفس سلسلة الأفكار التى تمى هذه المعميات اليها . ومن أجدرها بالتنويه علم النفس الذى يقسم الفطرة البشرية الى روح ونفس وجسم يريد بالروح ذلك العنصر الالهى الذى يتحوّل اليه الذين ينجون لأنهم "يعرفون الله" . هــذه المعرفة هبة غير طبيعيـــة تجعل صاحبها يتخلق بأخلاق الاله . ويفضل القديس بولص عادة أن يسمى هــذا الجزء وهو أسمى جزء من الفطرة البشرية بالنيوما وليس من السهل التمييز فى أدبيات النسك . الأدبيات الرهبانيــة بين النيوما و بين النوس التى لها بالضبط نفس المكانة فى الأفلاطونية المستحدثة . وليست فكرة أن النجاة هى معرفة الله قليلة الورود فى القديس بولص . قارن مثلا (الرسالة الأولى الى الكورنثيين — ١٣) وقطعة أخرى أهم منها (٢رسالة الى فليمون — العهد الجديد) وكان الكشف والرؤى سبيلا من ســبل الوصول الى بعض هــذه المعرفة كان له بعض الأهمية لدى القديس بولص لكن القديس بولص يسير فى الجملة على وتيرة واحدة ويجعل المعرفة تاج الايمــان ونهايته . ان تبدل الشخصية النيوموية الروحية منزلة من غيبيات القديس بولص منزلة القلب . " إن هلك الانسان الظاهر فالانسان الباطن يتجدّد يوما فيوما " و" الجسد الروحى" هو وعاء الشخصية المتبــدلة لأن " اللحم والدم لا يمكن أن يرثا ملكوت الله " . والتعبــير" بعود فيولد " شائع فى أدبيات المعميات .

ان من السهل أن نجد لو شئنا فى رسائل القديس بولص وفى كتب يوحنا التى هى أحسن تعليق عليهــا وفى لاهوت الآباء اليونانيين متشابهات أخرى كثيرة تثبت الصلة الوشيجة بين المسيحية الأولى و بين أديان المعميات فى الأمبراطورية . ولو كنا نكتب هــذا

المقال قبل عشرين عاما لكان من المفيد أن نبين أوجه الشبه هذه بتفصيل أكبر حتى فى ملخص كهذا الذى نكتبه . لكن الناس الآن اذا لم ينزعوا الى المبالغة فى تقدير ما للآراء والعبادات الهيلينية من فضل على الدين المسيحى فانهم ينزعون على أى حال الى أن يغفلوا فى أديان المعميات الفرق العظيم بين العناصر الراقية التى كان فى مقدور الدين الجديد أن يستلحقها بسهولة وسرور و بين النوع الأدنى منها مثل الفلسفة الالهية[1] والسحر والشعوذة التى لم يكن طريقها طريق النمو اليونانى والتى قد خلا كتاب العهد الجديد منها وقد قال وندلاند وما عرفناه الا ناقدا بصيرا فأصاب كل الاصابة ان موقف القديس بولص من أديان المعميات كموقف أفلاطون من الأرفية فهى لم تكن مدار حياته الدينية ولكنه وجد فيها من العبارات البليغة ما وافق المعانى التى كانت تحوم حول وجدانه أو كما يقول فينل "ليس رأى القديس بولص فى الروح وفى المسيح رأى مقلد للعميات ولكنه معنى من ذات نفسه عبر عنه مجازا حسب أسلوب عصره" .

ان أمثال لوازى من الكتاب الذين يقولون ان المسيح كان فى اعتقاد القديس بولص إلها منقذا بالمعنى الذى كانت به آزوريس وأتيس ومثرا و يطفقون يوضحون أوجه شبه بين بلاء هذه الأشخاص الخرافية وموتها و بعثها و بين أناجيل الكنيسة المسيحية ينسون أن القديس بولص كان من اليهود وأن من التطورات ما يستحيل على العقل الدينى أن يتطوره . فلو فتشت القديس بولص ما وجدته يقول عن المسيح انه إله منقذ وأبعد من هذا عن الصواب تلك

---

(١) Theosoophyo

الاستشهادات التى يراد بها اثبات أن دين القديس بولص كان يرتكز على أساس من السحر المـادى القربانى الغليظ . وأن الرســول الذى انطبعت كل كتاباته بطابع كرهه للتعبدات الشكاية أيا كانت والذى يشكر الله على أنه لم يعمد الا قليلا جدا من الكرنثيين والذى يعلن للناس أن المسيح أرسله لا ليعمد ولكن ليدعو الى الانجيل هـذا الرسول يرمى بأنه يرى التعميد "وســيلة وثيقة تضمن للرجل دخول الملكوت مهما كان سلوكه فى المستقبل" . وهذا كما يقول فينلى بالرغم من أن رسالته الى الرومان قد ورد فيهـا "التعميد لم يخطر على بالى الا مرة ومائدة السيد لم تخطر ولا مرة" . ما كان التعميد عنده وسيلة وثيقة وانمـا كان احتفالا ذا مغزى اجتماعى ورمزا يمثل الفوز بقسط أكبر من الرعاية الالهية التى يستوجبها صاحبها بالايمـان ثم يأتى هؤلاء النقاد أنفسهم فيوضحون رأى القديس بولص فى مائدة السيد بمـا يجدون فى دين الأزتيين[1] وغيرهم من الهمج لكن من العبث مناقشة الذين يظنون أن رجلا له نشأة القديس بولص وثقافته كان يستطيع أن يصبر على فكرة "أكل إله" . ان السيد على المـائدة هو المضيف الروحى وليست مائدة عليها لحمه . ولقد فارقوا بين مائدة السيد ومائدة الشياطين فهل يظن أحد أن مائدة الشـياطين هى المـائدة التى عليها يؤكل الشياطين . ان الشياطين لا أجسام لهم كما نتبين من قطعة يونانية معروفة جد المعرفة فى مخطوط للعهد الجديد .

انمـا جاء مذهب القربان الغليظ بعد ذلك ولو شئنا لتعقبنا منشأه حتى نردّه الى المتجرين بالمعميات الذين قد سخط عليهم أفلاطون .

---

(1) Aztecs

هذا الشكل من الدين ليس بالهيلينية الصحيحة اذا كانت الهيلينية علما على طريق من طرق التفكير أما أن هيلينيين كثيرين قد قالوا به فذلك ليس الى انكاره سبيل .

ان التوراة تقول بخطيئة الانسان وهو ما لم يكن يستطيع العبريون تخريجه من عند أنفسهم . وقد ظلت اليهودية تعتقده وتكتمه حتى جاءت المسيحية فذاع فيها بتأثير اليونان . وقد كان أميدوكليس وغيره يعلمون أن الانسان "وقع عليه طرد وتشريد من الله" وأن جسمه كان قبره وأن لحمه لم يكن الا جلبابا مستعارا يلبسه على زلل هو موبقه ان لم يجد من يستنقذه . فالهيلينية كانت قد صارت دين الانقاذ وكانت الأمبراطورية مستعدّة تمام الاستعداد لقبول هذا الجزء من المذهب المسيحى وأصبح اثم آدم هو المنظر الأول فى مأساة الانسان العظمى مؤدّيا فيما بعد الى الكفارة . ولم يكن هذا التصوير مجرد تاريخ فان معناه الأكبر كانت تمثله حياة كل فرد . فالفكر اليونانى قد جاء فصبغ بهذه الصبغة قضايا كان اليهودى يسلم بها ولا تبدو له الا تاريخا معادا بحتا . وجاءت العصور الحديثة فاعتبرت المناظر الأولى من الحكاية تمثيلا قصصيا لما تكابده الروح البشرية عادة ولا تكاد تفيد عندهم شيئا غير هذا . لكن الفكر اليونانى وان حافظ على قالب الحكاية لم ينظر قط الى الاثم نظرة التحسر والتشاؤم التى نظرت المسيحية بها اليه فقد جعلت المسيحية مجاهدة الشر أصعب منها عند اليونان فى أى عهد . على أن علينا ان نتذكر أن الجمهرة العظمى ممن يدينون بالمسيحية لا يعبأون كثيرا بآثامهم وأن أخيار اليونان كانوا فى ابتغائهم اصلاح أنفسهم جادين غير هازلين .

نزل الانقاذ الى الأرض على يد منقــذ كان انسانا وإلها معا . وهــذا المعنى كان مرة أخرى وفق التفكير اليونانى . فعندهم أن الواسطة بين الله والانسان يجب أن يكون إلهيا تاما اذ لو كان بين بين لمــا اتصل بأحدهما فلم يكن انتصار اثناسيوس هزيمة للهيلينية بوجه من الوجوه انمــا العقبة التى كانت تقوم بين المفكر اليونانى و بين ذلك المعنى هى استحالة تجسد الاله عنده . ولكن هذا لم يكن عقبة الا عند الفلاسفة . أما العامة فلم يجدوا فى دينهم صعوبة فى تصور اله مجسد ان القول بروح القدس قرب ما بين المسيحية و بين الأفلاطونية والرواقية فأحاطا الشخص الثــانى فى الثالوث بنفس الصفات التى كانت للنوس عند الأفلاطونيين المستحدثين لكن الذين حاولوا أن يعادلوا بين الثالوث و بين أرواح بلتينس الالهية الثــلاثة لم يكونوا أكثر فى ذلك فلاحا من هيجل حين حاول حديثا أن يجعل الثالوث أصلا من أصول فلسفته .

بقى الآن موضوع الغيبيات وهو من السعة بحيث لا نرجو أن نلم بجميع نقطه فى فقرة واحدة مهما اختصرنا فى بحث كل نقطة . لقد اعتاد الناس أن ينسبوا القول ببعث الجسم الى اليهود والقول بخلود الروح الى اليونان . لكن اليهود لم يدمجوا فكرة الحياة الأخرى فى دينهم العملى الا ببطء شديد وهى الى اليوم ليست على ما يظهر بذات أهمية فى اليهودية وكأن الشكل الذى تتشكل به آمال اليهود بطبعهــا نوع من أنواع المللنيرية ، وهى حكم يكون للقديســين على الأرض كان الاعتقاد به أول قالب ظهر فيه كنز الهدى الجديد . ولم تتخلص الكنيسة منه قط تمام التخلص ولا يزال ينازعها الرجوع أثناء كل انقلاب . ان أنضج فلسفة لليونان ترى أن مظهر الوجود

الالهى الخلود . أما الحوادث فانها تولد وتعيش ثم تموت وكانت ترى أن الانسان عالم صغير على صلة بكل درجة من درجات الوجود وأنه يستطيع الأخذ بنصيب من الوجود الالهى وذلك بأن يعيش ما استطاع متجردا عن هـذه الأرض وظلالها الزائلة و بضاعتها الباطلة . ولا حاجة بنا الى تبيين ما كان لتصور الخلود على هـذه الصورة من تأثير كبير فى المسيحية فكرا وعملا . انه لا يزال اليوم كما كان دائمـا من قبل دين المتصوفة . ولكن التقاليد الأرفية وما كانت تصور به دار عذابها ودار نعيمها وما فيهما من عذاب ونعيم خالدين قد غلبت فى المسيحية الشائعة على المذهبين الآخرين بعد أن جردت من الاعتقادين اعتقاد عودة الأرواح الى التجسد واعتقاد تناسخها وهمـا قولان لا يزال لهما فى مذهب الأفلاطونية المستحدثة وجود و إن كان على شيء من القلق والاضطراب . وقد صار العقاب الأخروى بدونهما أرهب منه بهما . هذان الاعتقادان ، الفلسفى والعامى ، فى الدار الأخرى هما كلاهما أقرب كثيرا الى اليونانية منهما الى اليهودية لكن محاولة الجمع بين هذه المعتقدات المتباينة قد جعلت الغيبيات المسيحية على اضطراب عظيم وأيأست كثيرا من المسيحيين فلم يعودوا يحاولون أن يأتوا بنظرية ما عما يسمى بالأشياء الأربعة الأخيرة . وليس التحديد فى موضوع معمى كهذا بمتوقع ولا محمود . إن الانجيل الأصلى لا يشجع الانسان فى تطلعه بطبعه الى معرفة مآل نفسه . ولكل من الغيبيات الثلاثة التى وصفناها قيمته لأنه يمثل فى الدين ناحية من نواحى الثقة والرجاء . وعلينا بعد هذا كله أن نعترف بصدق كلمات القديس بولص اذ قال : "لم تر عين ولم تسمع أذن بل ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله لأولئك الذين يحبونه" وهو نفسه يذكرنا بأنا "نرى كأنما نرى من

مرآة . نرى أحاجى ولا نفقه الا جزءا " وقد تكون الرؤية وجها لوجه والمعرفة التى تجمع بين العارف والمعروف من نصيبنا اذا انتهى بنا المدى . وهـذه الكلمات التى تذكرنا بخرافة الكهف الشهيرة لأفلاطون ترينا القـديس بولص متحدا فى الأساسـيات مع الأفلاطونيين . ولقد خبأ نور الاعتقاد فى الحياة الخالدة بين رجال هذا العصر وليس ببعيد أن يستردوه عن هذا الطريق .

وفى الختام نتساءل ما هو ذلك الشىء الذى نحن فى أشد خطر ان نسيناه ويستطيع دين اليونان أن يعلمنا إياه ؟ ذلك باختصار هو الايمـان بأن الحق لنـا صديق وأن معرفة الحق ليست فوق مقدورنا . فقد كانت الثقة فى حسن عاقبة الاخلاص فى الطلب بمنزلة القلب من وجهة النظر اليونانية . يقول أرسطو "لا ينبغى أن يكون الذين يريدون الوصول الى الحق الا حكاما لا خصوما" ويقول يوربيدس فى نبذة له "سعيد من عرف قيمة البحث" أما أن حب الاسـتطلاع فضـيلة لا رذيلة فذلك قد عرفه اليونان وجهلتـه القرون الوسطى . كان أفلاطون يرى أن الطبيعة هى خليقة الله والكاشفة عنه وأنها روح الكون وأن الطبيعة البشرية هى والطبيعة الالهية سواء — لم يكن أحد أكثر تأكيدا لذلك منه . وأن الطبيعة لنا وإنمـا الذى علينا الضرورة والفوضى . ويجب علينا أن نسلم بأن الفرقة بين الدين ومذهب الانسانيـة لم تبدأ الا فى عهد خلفاء أفلاطون الذين لم يعبأوا لنكد الحظ بالعلوم الطبيعية بل هم فيما عرفوا منها لم يتبعوا أحسـن النور الذى كان لديهم . ثم صارت تلك الفرقة فرقة باتة فى العصور المظلمة وكانت الصلة باليونان منقطعة فيها . ولم يكن ما ربا من خرافيات اليونان الأولين غير علمى فقـد كانوا حين تعوزهم المعرفة يسدون النقص

بالخيال و "طريقة التجربة والخطأ". وما التمثيل القصصى الذى تصدر الخرافيات عنه الا مادة الشعر والعلم كليهما. ومن الممكن طبعا أن تكون الخرافيات الدينية حاجزا دون التقدم فى العلم وانها لكذلك فى كل عصر يرد كل شىء الى العقل وحين تكون المسألة مسألة واقع أو غير واقع . ومن الخطأ أن نفترض أن الايمان فى العصر الذى يعقب العصر العقلى يكون مثله فى العصر غير العلمى ولو كانت القواعد فى العصرين واحدة . ان الروح اليونانية نفسها تهتف بنا الآن لتصرفنا عن بعض ما ألبستنا إياه التقاليد اليونانية . فنحن الآن مخيرون بين الأخذ بتقاليد ما بعد العقلى — كما يسميه سنتيانا — وهو مذهب شك وتحكم ونفاق فى التفكير و بين الوثوق بالعقل وهو الذى يرتكز فى حقيقته على الايمان بروح القدس — أى بروح الكون التى تدل على نفسها بنفسها . ان كاتب هذه السطور ليعتقد أن النظر الصادق والعقل المتفتح سيقوداننا مرة أخرى الى اقدام المسيح . ذلك الذى وقعت اليونان — وهى صاحبة التقاليد الطويلة فى البحث الحر الجرىء — فى أسره طائعة مسرعة واضعة بين يديه كنوزها المتعددة ثقة منها أنه جاء متمما ولم يأت مدمرا لها

و . رانج

الفلسـفة

لقد تأملنا فى الاتجاهات التى تسير فيها الفلسفة اليوم لتبدى لنا قبل كل شيء أن الحاجز الصناعى الذى يفصل بين العلم والفلسفة — ولا سيما العلم الرياضى — آخذ فى التضاؤل . ولا مفر لنا من أن نلحظ — من جهة أخرى — أن هناك انقلابا على ما يسمى بمذهب الذهنيين (١) وهـذا الانقلاب يتجلى فى أشكال عدة لعل أظهرها تجدد الاهتمام بالتصوف (٢) ، وانه ليفضى بنا الى أن نعنى العناية كلها بالشطر العملى من التفكير الفلسفى ، وبتكوين رأى عن علاقته بمـا كان يعد من قبـل مسائل نظرية محضة وتعرف باسم برجماتيزم (٣) ذلك الاسم الكئيب . ففى هذه الأمور نفسها يمكننا أن نتعلم الشيء الكثير من الاغريقية . ولذلك أضحى للفلسفة الاغريقية شأن كبير لنا فى هذا العصر الحاضر . فهى ، فى أحسن أحوالهـا ، لم تنفصل قط تمـام الانفصال عن العلم بل شقت لنفسها طريقا تتصل منـه بالحيـاة العملية ، وبالتصوّف من دون أن تهمل مراعاة ما يتطلبه الذهن نفسـه . وسنقتصر فى بحثنا هـذا فى الفلسفة الاغريقية على هـذه النقط وحدها ، فمن العبث أن نحاول ايجاز الموضـوع كله فيما لدينا من الصفحات لأن هذا الايجاز يكون لا قيمة له ولذلك سنغضى عن أشياء كثيرة يجب أن تفصل فى الكتب الكبيرة لمـا لها من قيمة فى ذاتهـا .

(١) Intellecrualism

(٢) Mysticism

(٣) Pragmastim

وجل ما نستطيع عمله هنا هو أن نشير الى المواضع التى فيها يلوح أن الفلسفة الاغريقيـة تمس مسائلنا العقلية وسيتبين لنا هنا كما يتبين لنـا فى أى موضـع آخر "أن كل تاريخ انمـا هو تاريخ عصرى" وأن الحاضر لا يفهم الا على ضوء المـاضى .

ان لفظة الفلسفة اغريقية . وكذلك مدلولها . وليس ثمة دليل على أن الفاسفة لم تقم فى أى مكان ما الا بتأثير اغريقى الا اذا استعملنا هذه اللفظة بأوسع معانيها وجردناها من كل معنى خاص بها . فتأملات الصوفيين التى عمـادها الدين ليست من الفلسفة فى شىء على الرغم من أنها كثيرا ما كان لها الأثر العميق فى الفلسفة ولذلك فان مذهب الحلول عند الأوبانيشاد لا يمكن أن يدعى فلسفة . نعم أن هناك فلسفة هندية، وأن الهنود هم الشعب القديم الفذ الذى كان له فلسفة اذا استثنينا الاغريق، ولكن علمهم خذ لا شك عنه الاغريق بعد فتح الاسـكندر . وان النظم الهندية التى يمكن أن تعد بحق فلسفية لهى أحدث عهدا من ذلك كما تدل عليه الدلائل الكثيرة . ومن جهة أخرى فان أول مثل لمفكر اغريقى تأثر بالفلسفة الهندية هو بيرهوس (٣٢٦ قبل الميلاد) فما أتى به من الشرق كان فكرة الهدوء والسكينة من حيث هى مثل أعلى ولم يأت بمذهب فلسفى محدود . فاللغة كانت عقبة كأداء فى سبيل تبادل الآراء فى الموضوعات الهامة لأن كلا من الهنود والاغريق لم يعن الى تعلم لغة سوى لغته . طبعا ان الفلسفة قد تسمو حتى تصل الى مرتبة الدين وقد كان ذلك من نصيب خير الفاسفة الاغريقية، ولكنها تبدأ بالعلم لا بالدين .

يقصد الاغريق بالفلسفة جهـدا جديا يبذل فى سبيل تفهم العالم والانسان، وغايتها الكبرى الاهتداء الى خير طريق فى الحياة ثم دعوة الناس الى سلوكه . ومع ذلك فليس من الصواب أن نقول ان لفظة الفلسفة كانت دائما تدل على هذا المعنى الخاص . وعلى أى حال فان الفعل الاغريقى كان فى أول الأمر ذا معنى أوسع من ذلك بكثير فهيرودوت مثلا (.I — ٣٠) يقول على لسان كريصص (قارون) ان صولون ساح فى بلدان كثيرة كفيلسوف ويتضح من سياق الحديث أن ذلك يومئ الى محبة السياحة من أجل العجائب التى ترى فى البلاد الغريبة ، وبتلك المحبة كان يمتاز الاغريق الأيونيون فى القرن الخامس قبل الميلاد . ويوضح ذلك عبارة "بقصد الرؤية" المذكورة معها . هذا ، ولما جعل توسيد يد (.II ٤٠) بركليس يقول عن أبناء وطنه "اننا نتبع الفلسفة بدون أن نفقد شيئا من رجولتنا" لا شك فى أنه ما كان يفكر وقتئذ فى الفلسفة بمعناها الخاص . انما كان يقابل بين ثقافة أثينا بحضارة الأيونيين فى آسيا الصغرى تلك الحضارة التى كان بها شىء من الخنوثة . حتى فى القرن التالى قد حاول ايسوقراط أن يعود الى هذا المعنى الواسع فكان يستعمل لفظة الفلسفة عادة فى فن الصحافة السياسية الذى كان يلقنه تلاميذه .

وقد جاء فى الأثر أن أول من استعمل لفظة "الفلسفة" بمعناها الخاص الذى سبق ذكره هو فيثاغورس الصامى (نسبة الى جزيرة صامس) وهو أيونى أقام جمعية فى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد فى جنوب ايطاليا للعناية بها . ومعلوم كل العلم أنه من الصعب أن نذكر شيئا محققا عن فيثاغورس هذا لأنه

لم يكتب شيئا ما . على أنا نكون بمأمن من الخطأ اذا نسبنا الأفكار العــامة فى النظام الفلسفى الى المعـلم لا الى أتباعه ومع ذلك فان ما جاء فى الأثر يؤيده القول بأن لفظ الفلاسفة كان يطلق فى الأصل على الفيثاغوريين بطريقة خاصة ، ولدينا على هــذا القول أدلة كافية — فانا نعرف مثلا أن زينون الايلياوى (حوالى ٤٥٠ قبل الميلاد) (نسبة الى Elea) كتب كتابا ضد الفلاسفة وهذا القول منه لا يمكن أن يقصد به الا أنه ضد الفيثاغوريين . واستعمال الفيثاغوريين لهذه الكلمة متوقف على نظرتهم فى الانسان نظرة خاصة ولدينا أدلة كافية تجعلنا نعزو ذلك الى فيثاغورس نفسه . وقد أصبح ذلك شيئا معلوما للناس كافة ولكن يجب علينا اذا أردنا أن نعلم ما يفهمه الاغريق من لفظة الفلسفة أن نحـاول معرفة ذلك من منشئه . و بالايجـاز هو أن الانسان شيء وسط بين الله وسائر الحيوان . فاذا وازناه بالاله فهو انســان لا غير معرض للخطأ وللموت (و يقال عنهما كليهما انهما من صفات الانسان خاصة) وهو شقيق وقابل للحضارة والتمدين . ولقد حوى اللفظ اللاتينى هــذا المعنى المزدوج الذى يفرق بينه فى الانجليزية تفريقا تحكميا فى الهجاء فحسب فيقال (Humane, Human) وجلى أن الحكمة بأكمل معانيها مستحيلة على كائن معرض للغلط وللموت فتلك من خصائص الاله وحده . ومن جهــة أخرى فان الانسان لا يرضى — كما ترضى الحيوانات الأخرى — أن يظل جاهلا فان لم يستطع أن يكون حكيما فانه يستطيع أن يكون على الأقل محبا للحكمة ويستنبط من ذلك أن غايته السامية أن يتشبه بالله الى أقصى حد مستطاع كما قال أفلاطون فى تياتيتوس [١]

---

(١) Theatetus

ودراسة الفيثاغوريين للرياضة جعلتهم يواجهون فكرة الاقتراب المستمر الذى لا يصل الى غايته . فأنت ترى أنا لدينا إذا أدلة كافية تدعونا الى تصديق القول بأن فيثاغورس هو أول من أعطى لفظة الفلسفة ذلك المعنى الخاص وبربطه بتقسيم الكائنات الى إله وانسان وحيوانات أخرى . ولقد تقدم الفيثاغوريون المحدثون خطوة أخرى ورتبوا الحيوانات العاقلة الى آلهة وأناس "ومن كان على شاكلة فيثاغورس" فان ذلك ناجم عن تحمس المريدين والأتباع وليس فى الواقع الا دليلا آخر على أن هذه الأفكار جميعها ذات صبغة فيثاغورية حقيقية فلنسلم إذا بأن لفظة الفلسفة قد اتخذت معناها الخاص فى جنوب ايطاليا قبل أن يبدأ القرن الخامس قبل الميلاد .

وأوكد من ذلك أن هذا المعنى كان معروفا تمام المعرفة فى أثينا بعد منتصف القرن الخامس بقليل ، فى دوائر معلومة على الأقل . ويظهر أن هذا كان من عمل سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩ قبل الميلاد) فلا ريب فى أنه كان متصلا تمام الاتصال بزعماء الفيثاغوريين الذين لجأوا الى طيبة وألى فيلوس فى البلوبونيز لما صارت تعد جماعتهم خطرا على الحكومة فى كروتون وغيرها من بلاد جنوب ايطاليا — مهما كان رأينا فى فلسفة سقراط أو فى علاقتها بفلسفة أفلاطون فى محاوراته الأولى (وتلك نقطة لا حاجة بنا لمناقشتها هنا) .

حدث كل هذا حوالى منتصف القرن الخامس ولا بد أن يكون سقراط قد عرف هؤلاء الرجال بزمن لا يبعد عن ذلك بكثير . فمن الطبيعى أن يكونوا قد زاروا أثينا حوالى هذا التاريخ

ولكن لا بد أن تكون صلته بهم قد انقطعت بعد قيـام حرب البلوبونيز (٤٣١ قبل الميلاد) لأنهم كانوا يقطنون ولايات معادية فى حين أن سقراط كان يحارب عن بلاده فاذا استثنينا فترة صلح نيكياس القصيرة (٤٢١ قبل الميلاد) فلا بد أن يكون انقطاعه عنهم مدة سنين طويلة ومع ذلك يجلى أنهم لم ينسوه . إذ لا محيص لنـا عن قبول قول أفلاطون فى فايدو — ان كثيرا من فلاسفة العصر النابهين جاءوا أثينا ليكونوا مع سقراط عند ما قضى عليه بالموت ، وأن من لم يستطع الحضور منهم كان متشوّقا أن يسمع التفصيلات الكثيرة عما حدث له . حتى قبل هذا قد غادر طيبة سيمياس وسيبيز (وهما تابعان ناشئان من اتباع الفيثاغورى فيلولاوس) ولبثا مع سقراط — وذلك خبر من الأهمية بمكان كبير. ويشهد بذلك زينوفون كما يشهد به أفلاطون ، ولقول الأول منهما قيمة كبيرة فى هذا الموضع لأنه لم ينضم الى سقراط الا خلال هذه السنوات مع أن آخر مرة رآه فيها كانت قبل محاكمته واعدامه بسنة أو اثنتين . ومهما استنبطنا غير ذلك من هـذه الحقائق فهى كافية للدلالة على أن سقراط قد عرف بعضا من زعماء فلاسفة الاغريق قبل أن يبلغ العقد الرابع من عمره وذلك يجعل احتمال أنه هو الذى أدخل لفظ "الفلسفة" بالمعنى الفيثاغورى الى أثينا كبيرا .

كفى بهذا القدر بحثا فى هـذه اللفظة . وعلينا بعد ذلك أن نتساءل كيف حدث أن قام شيء يسمى بالفلسفة . ذكرنا قبلا أن فيثاغورس كان أيونيا فكان من الطبيعى أن ننتظر أنه جلب من شرقى هلاس مبادئ ما سماه فلسفة . ولقد بينا أن الفلسفة الاغريقية قد شيدت دعائمها على العلم وأن العلم قد بدأ فى ميليطة[1]

(١) Miletus

فى أرض آسيا الصغرى وهى تكاد تقابل جزيرة صاموس موطن فيثاغورس ومنشأه . ولقد كان الميلطيون الأول رجال علم أكثر منهم رجال فلسفة بمعناها المحدود ، ولم يكن العلم والفلسفة قد تميزا بعد بعضهما عن بعض ، فالقول الشائع بأن الفلسفة تبدأ من طاليس الميلطى (٥٨٥ قبل الميلاد) له ما يبرره . ان مبادئ العلم الرياضى ذلك العلم الذى كان طاليس أول من أوجده كما هو مبين فى موضع آخر من هـذا الكتاب قد أفض بطاليس ومن خلفه الى أن يتساءلوا عنه الطبيعة النهائية للحقيقة ، فكانت أسئلتهم مبدأ الجانب النظرى من الفلسفة ، نعم ان الميلطيين لم يستطيعوا أن يجيبوا عن هذه الأسئلة الا اجابة ناقصة كل النقص ومن المحتمل أنهم لم يدركوا كل ما لهذه الأسئلة من شأن كبير . ولم يرد هؤلاء الباحثون الأوائل الا معرفة ما صنعت الأرض منه وطريقة سيرها ولكن ابتعادهم عن الأساطير وعن كل ماجاء فى الأثر قد مهد الطريق لكل ما حدث بعد . وليس من الأمور الصغيرة أنهم استطاعوا أن ينبذوا المذهب القديم المعروف "بالعناصر" — النار والهواء والتراب والماء — وأن يعدوا هذه كلها حالات لمادة واحدة تبدو فى أشكال مختلفة حسب رقتها وكثافتها . فأنكسيمندر (٥٤٦ قبل الميلاد) خليفة طاليس قد نقض عن نفسه فكرة أن الأرض تقتضى دعامة ماتحفظها فى مكانها بل كان يعتقد أنها تترجح فى الفراغ وأنها بقيت حيث هى لأنه ليس من سبب يقضى بسقوطها فى اتجاه دون الآخر . وفى الجملة فان هؤلاء الباحثين فى الدنيا من حيث هى رأوا أن الثقل ليس صفة ذاتية للأجسام وأنه لا يمكن تفسير شيء ما به . بل بالعكس فان الثقل نفسه فى حاجة الى التفسير . ولقد لحظ أنكسيمندر أيضا ما الحركة

الدوران من الشأن والأهمية فى النظام الكونى واستنتج أنه ربمـا يوجد عدد غير محدود من النظم الدائرة غير ذلك النظام الذى نعرفه مباشرة . وكذلك لاحظ عدة ملاحظات ذات صبغة بيولوچية وأعلن أن الانسان لا بد أن يكون قد نسل من حيوان من نوع آخر . فصغار أكثر الحيوان تستطيع أن تجد غذاءها فى الحال فى حين أن صغار الانسان تستلزم حضانة طويلة فان كان الانسان فى الأصل على ما هو عليه الآن ماتسنى له أن يعيش الى اليوم . كل هـذه لا شك مبادئ علم أكثر منها مبادئ فلسفة ولكنها كانت مبادئ الفلسفة بمعنى أنها قلبت الرأى الشائع عن الدنيا رأسا على عقب وجعلت ظهور مشاكل أخرى نهائية محتما لا مفر منه .

ولقد تم هذا الانقلاب مستقلا عن الدين الاستقلال كله فان ما نسميه بالعلمـانية كان فى الواقع مميزا للعلم الأيونى الى النهاية ويجب ألا انضل بتسمية أنكسيمندر عوالمه المتعددة الهة ولا بتسمية أنكسمنيز الهواء إلها ، فهذه لم تكن فى وقت من الأوقات آلهة لأية مدينـة ولم يعدها أحد قط ولا ينطبق عليهـا ما يفهمه الرجل الاغريق العادى من الآلهة . واستعمال المليطيين لهذه اللفظة يقصد به أن الحيز الذى كانت تشغله آلهة الدين فى حين ما أصبح الآن وقد تولته الظواهر الكبرى الطبيعية وأن الاغريق المحدثين كانوا على حق من وجهة نظرهم هم فى تسمية ذلك الحادا وقد دل ارسطوفانيز على ذلك النوع من الكلام فى كتابه " السحب " لما قال على لسان ستربسياديز ملخصا ما تعلمه بقوله ان " الدوامة (دورة الأرض) قد طردت زيوس وحكمت محله " . وكذلك عند ما يجعل سقراط يقسم " بالفوضى وبالتنفس وبالهواء " وكذلك قال المليطيون

عن المادة الأولى بأنها " قديمة أزلية " وهى عبارة من عبارات هوميروس تدل على فرق بين الآلهة والانسان ولكن لا يدل ذلك إلا على أن العاطفة التى كانت ملازمة للآلهة انتقلت الى الطبيعة.

يستنتج من هذا أن المليطيين ارتأوا فكرة المادة الخالدة التى منها تولدت الأشياء كافة واليها تعود . والفكرة عن المادة هى فكرة تتعلق بالفلسفة أكثر من تعلقها بالعلم . وفضلا عن هذا فانهم وضعوا أسس الهندسة وقد أدّى هذا غيرهم الى تكوين فكرة الحد أو الشكل المتعلقة بها . ولا حاجة بنا أن نعدد هنا ما استفادته الهندسة المستوية من الفيثاغوريين والمليطيين بل يكفى أن نذكر القارئ بأنهم كانوا يعرفون الأجزاء الأولى والثانية والرابعة والسادسة ولربما الثالثة أيضا من كتاب " اقليدس " . وزيادة على ذلك فان فيثاغورس قد أسس علم الحساب أو نظرية العدد بخلاف فن الحساب العملى . وانا لنعلم أيضا أنه قد كشف كروية الأرض ، والنسبة العددية للمسافات بين درجات السلم المرسيقى ومن هذا يتضح أنه كان نابغة من نوابغ العلم ومن طرازهم الأول وأن طرقه كان تشمل طريقتى الملاحظة والتجريب . ان استكشاف كروية الأرض نشأ من مشاهدة الكسوف والخسوف وكشف النسبة العددية بين درجات السلم الموسيقى لا بد أن يكون نتيجة تجارب على وتر مشدود . هذا مع أن التجارب الفعلية التى تعزى اليه كلها فاسد سخيف . ولا شك فى أن استكشافه الأخير هذا هو الذى دعاه الى أن يصوغ مذهبه فى تلك الصيغة الرائعة : " ان الأشياء أعداد " وبذلك أعطى الأولية لعنصر الشكل أو الحد بدلا من المادة المتوسطة التى كان سابقوه يجعلون الأولية لها .

ولقد كان فيثاغورث يخالف من تقدمه فى نقطة ظهر أنها ذات شأن كبير . فانه لم يتجاهل الدين ولم يغفله حتى أنه لقد أقام فى جنوب ايطاليا جمعية للدين فيها المقام الأول . فيجوز أنه كان متأثرا بازدياد عددالجمعيات الأرفية التى أخذت تنتشر فى كل مكان خلال القرن السادس ولكن دينه كان يخالف الأرفية فى أمور كثيرة ولا سيما فى أن إله الفيثاغوريين الأعظم كان أبلو وليس ديونايصص وجميع ما لدينا من البينات تدل على أن فيثاغورس قد جلب دينه هذا من شرقى هلاس لما جلب منها علمه ولو أنه جلب الأول من جزائر بحر ايجه لا من أرض أيونيا وانا لنستطيع أن نرى أنه كان متأثرا جد التأثر ببعض ما يؤثر عن معبد ديلص الذى أصبح المركز الدينى للعالم الأيونى .

انه كان هناك أفكار وآراء دينية منتشرة بين الاغريق قبل فيثاغورس . وهذه الآراء كانت من نوع لا يخالف ما نراه فى الهند على أن عقبات كأداء تقوم فى سبيلنا ان فرضنا أن الايجيين أثروا فى الهند أو أن الهند أثرت فى الايجيين فى ذلك الوقت . ولربما يرجع أصل الآراء التى كهذه الى وقت كان الاغريق والهنود يعيشون فيه فى صعيد واحد أو ربما ، وذلك أكثر احتمالا أن كليهما قد تأثر بحركة نشأت فى الشمال ووصلهم منها رأى جديد فى "الروح" وربما كانت أسطورة الديليين عن الشماليين تشير الى شيء من ذلك . ومهما يكن فان الغرض الأول من الطقوس الدينية التى كان يزاولها كل من الأرفيين والفيثاغوريين كان الحصول على افتداء الروح بوساطة التطهير من عقاب الاعتقال المتوالى فى عدة جسوم . وكانت الروح عندهم تعد إلها سقط من

السماء . وليس من سبب يجعلنا نظن أن فيثاغورس قد أبدى ابتكارا خاصا فى هذا الجزء من تعاليمه . فكله متوقف على مبدأ تقمص الأرواح أو الولادة من جديد الذى كثيرا ما يطلق عليه لفظ تناسخ الأرواح [١] وهو لفظ محدث لا ينطبق عليه تمـام الانطباق .

ولا يخالج الشك واحدا منا فى أن فيثاغورس قد قال بذلك كما أنه قال بالامتناع عن تناول اللحم وتلك نتيجة طبيعية لذلك الامتناع . ولقد كان الاغريق مع ذلك على علم بمثل هذه الآراء قبل زمن فيثاغورس . والصعوبة الحقيقية هى فى معرفة الرابطة بين هذا كله و بين عمله العلمى وانا لمقصورون فى تعرف ذلك على ما نستنتجه من أقوال الكتاب المحدثين . أما اذا كان المبدأ الذى جعـل أفلاطون سقراط يشرحه فى فائيدو فيثاغوريا كما يظنـه الكثيرون فلنا أن نقول ان فيثاغورس لم يقل سوى أنه : فى حين أن لطرق التطهير المعتادة فوائدها الخاصة بهـا فان خير طريقة لتطهير الروح وأصدقها هى البحث العلمى . ولسنا نستطيع أن نفسر الصبغة الدينية التى يمتاز بها خير ما أنتجه الاغريق من العلم إلا بمثل ذلك فهو يتضمن المبدأ القائل بأن الحياة النظرية هى أسمى أنواع الحيـاة الانسانية ، وهذا مبدأ يعتقده أفلاطون وارسطاطاليس وسنعود اليه فيما بعد . ومع ذلك فانا يجب أن نذكر أنه ليس مثلا أعلى من مثـل الذهنيين . فليس الأمر مجرد تأمل وتفكير ، تأمل الكسالى ، انمـا هو طريق شاق مجهد من طرق الحياة غايته تخليص الروح وانه ليوحى الى الانسـان أن يدعو الناس اليـه .

---

(١) Metempsychosis

ولهذا السبب وحده يرى الفيلسوف الفيثاغورى ضرورة الاشتراك فى الحياة العملية اذا سنحت له الفرصة بل وأنه ليقبض على أزمة الحكم فى البـلاد اذا دعاه اليها داع . فجماعة فيثاغورس كانت من أول نشأتها جمعية دعاية ولقد حاولت أن تدعو الى الانضمام اليها كل من استطاعت تحويله الى مذهبها من غير نظر الى مركزه الاجتماعى أو جنسه ، ذكرا كان أو أنثى (لأن النساء لعبن دورا هاما فيها من المبدأ) فغيرتها على اصلاح الحياة البشرية ، ومحاولتها إقامة حكم يشبه حكم القديسين ، فى مدن ايطاليا الجنوبية هما اللذان جلبا عليها سخط الناس فلو قنع الفيثاغوريون بتأمل الكسـالى وتفكيرهم لذبحوا أو اضطروا الى الفرار كما حدث لهم فعلا قبـل منتصف القرن الخامس .

وسرعان ما اتضح أن المبدأ الفيثاغورى بحذافيره كان عاليا جدا على معتنقيه فكان لا مناص من حدوث الشقاق بين العلم والدين الفيثاغوريين . فمن استطاع أن يقدر الشطر العلمى لتلك الحركة حق قدره مال شيئا فشيئا الى أن يهمل القاعدة الدينية التى أقامتها . ولذلك قبل أن ينتهى القرن الخامس رأينا الزعمـاء الفيثاغوريين الذين نعرف أسماءهم هم رجال علم قبل كل شىء وأنهم ليزدادون ميلا يوما بعد يوم الى أن يهملوا ما اعتبروه الجزء الخرافى من العقيـدة وأخيرا انتهوا بأن انضموا الى ما نشأ فى أثينا من المدارس الفلسفية الجـديدة أما سواد المؤمنين فانهـم لم يعنوا بالحساب والهندسة والموسيقى والفلك بل أصبح اعتقادهم فى مذهب فيثاغورس أن يسيروا حفاة الأقدام وأن يكفوا أنفسهم عن أكل اللحم والفول وظل الأمر كذلك حتى بعـد أن خمدت روح الفيثاغوريين العلميـة فأصبحوا موضع تهكم شعراء القرن الرابع الهدوجائين ومجالا لسخريتهم .

وانه لمن اليسير علينا أن نرى الآن أن كل هذا يدل على ضعف حقيق فى مذهب الفيثاغوريين . فالعلم والدين لا يتحدان بأن يوضع كل منهما قبالة الآخر . وأنا لا ندرى الى أى حد كان فيثاغورس شاعرا لغموض مركزه ، ولا يدهشنا ان كان قد أحس بذلك عند نهاية عمره لأنا نعلم أنه قد عمر طويلا حتى شهد أوائل الثورة على جماعتــه فى كروتن وغيرها وهذا ما دعاه الى الذهاب الى متابنطم حيث توفى وحيث استطاع شيشرون أن يزوره بعد ذلك بزمن طويل . وسترى بعد . ما هى النقطة الضعيفة فى نظام فيثاغورس وكيف تغلب الناس فيمابعد على ذلك الشقاق الذى خلفه وراءه . أما الآن فأهم من ذلك أن نفهم أنه كان المؤسس الحقيقى للعلم والفلسفة كما نفهمهما نحن الآن وأنه ايصدق حقا على العلم أن الخطوات الأولى هى أشق الخطى . ولقد خلف فيثاغورس وراءه عملا كافيا فى الحساب لكى يحكمه سواه ويتقنه . ولقد لبثت الاغريق أقل من ثلاثة قرون فى اتمـام البناء ولفيثاغورس الفضل الأكبر فى ذلك فهو الذى وضع الأساس وضعا صادقا متينا .

لقد رأينـا الآن كيف توصـل الاغريق الى فكرتى المـادة والشكل . والمسألة الثانية التى كان على الفلسفة الاغريقية أن تواجهها هى مسئلة الحركة . ولقد كانت حقيقة الحركة فى المبدأ شيئا مسلما به . وكان الأيونيون ميالين الى أن يروا حركة فى كل مكان ، فالسكون أو بالأحرى مظاهره هو الذى يستلزم تفسيرا ولكن لمـا أخذ الناس يفكرون تفكيرا جديا فى فكرة المـادة الخالدة أحسوا بصعوبات كثيرة . فان كانت الحقيقة تعد دائمة مستمرة فيظهر أن لا مكان لشىء غيرها حتى ولا للفراغ نفسه الذى يجب أن يكون هو وغير الحقيقة شيئا واحدا ومن السهل أن نبين أن غير

الحقيق لا يمكن أن يكون له وجود ما . ولكن إن لم يكن ثمة فراغ فيظهر أنه من المحال أن تكون حركة وأن ذلك العالم الذى نظن أننا عارفون به مدركون له لا بد أن يكون وهما كله . هذا بالايجاز هو الموقف الذى اتخذه أيونى آخر من جنوب ايطاليا هو برمنيدس الايلوى (حوالى ٤٧٥ قبـل الميلاد) . فقد كان فى أول نشأته فيثاغوريا ولكنه قد طبق طريقة الاستدلال الدقيقة التى استعملها الفيثاغوريون فى الهندسة بكل نجاح على مسألة طبيعة العالم القديمة التى كانت شاغلة للمليطيين . ان الشيء العجيب عن المهنـدسين هو أنهم لم يكونوا لهم فكرة عن الفراغ تلك التى تبدو لنا الآن ذات شان عظيم فى الوقت الحاضر بل استطاعوا تجنبها لأن فكرة المـادة كانت قائمة لديهم ، وكانوا يعدون الهواء الحال الطبيعية للطبقة التى دون المـادة . ان خلط الهواء بالفراغ شيء طبيعى ومع ذلك فان المرء ليدهش أن ذلك الخلط لم يدركه مؤسسو علم الهندسة ومع ذلك فليس من النادر فى تاريخ الفكر العلمى أن لا يستنبط من اكتشاف علمى حديث كل نتائجه الممكنة .

أما برمنيديس فقد أزال هذا الغموض بانكار احتمال وجود أى فراغ لا باثباته ، حتى قبل أن يثبت ذلك أحد ما . فقد رأى أن الفيثاغوريين قد تضمنوا ذلك فعلا فى آرائهم على غير علم منهم . وأن برمنيديس هذا ليهمنا من حيث أنه أول فيلسوف شرح فلسفته نظما ولا ريب فى أن ذلك ليس من أصالة الرأى لأن الأدلة التى يبحث فيها لا يسهل التعبير عنها بصفة النظم على أنا نحمد الله ان لم يتخذ طريقته هذه أحد ممن جاءوا بعده سوى أمبدكليز فانها تضايق كل المضايقة من حيث أنهـا تستلزم استعمال عدة ألفاظ مختلفة للشيء الواحد كما تقتضيه ضرورة الشعر والقافية فلو أن هنـاك

استدلالا لا يقتضي دقة التعبير فذلك استدلال برمنيديس . ومهما يكن فان شعره مملوء بتلك الأغلاط والعيوب التى ننتظرها لو أن هندسة اقليدس صيغت فى قالب من الشعر . ومن جهة أخرى ان برمنيديس هو أول فيلسوف لدينا من آثاره مابه نستطيع أن نتتبع حججه المتواصلة . فانا لا نملك شيئا ما عن فيثاغورس وقطعا منفصلة ليس إلا عن سواه . وكان برمنيديس مستعدا أن يسير وراء حجته الى حيثما تفضى به . فانه تناول فكرة المادة كما أحكمها من تقدمه وأبان أنها لا بد أن توصلنا — ان فكرنا فيها تفكيرا جديا — الى أن الحقيقة متواصلة محدودة ، كروية لا شيء خارجها ولا فراغ داخلها . فالحركة محال فى مثل هذه الحقيقة ، ولا بد أن يكون عالم الحس وهما . وطبعا هذه نتيجة لا ينتظر أن تظل الناس موافقة عليها زمنا طويلا . واذا تكلمنا من وجهة تاريخية فان المذهب الأيلوى يجب أن يعد تفنيدا[1] للتفكير السابق ومع ذلك ليس من سبب يدعو الى الاعتقاد بأن برمنيديس نفسه قصد به ذلك بل أنه كان يعتقد اعتقادا جازما بأنه قد عثر بالحقيقة وأدركها .

لقد حاول كثيرون أن يفلتوا من نتائج برمنيديس فبدءوا جميعا بترك الفرض بأن المادة متجانسة متواصلة ذلك الفرض الذى كان متضمنا فى الفلسفات السابقة على الرغم من أن برمنيديس هو أول من أوضحه للناس . وهنا يتجلى أيضا تأثير العلم المعاصر فى التفكير الفلسفى فامپدكليز الأجرجنطى (حوالى ٤٦٠ قبل الميلاد —

(١) التفنيد طريقة البرهان على شيء باثبات بطلان ضده .

(Reductio ad Absurdnm)

وهو الوحيد الذى له مقام فى أوائل تاريخ الفلسفة وكان من ولاية ضورية — كان مؤسس مدرسة صقلية الطبية . ولعل اشتغاله بهذا العلم (الطب) هو الذى جعله يحي المذهب القديم القائل بالنار والهواء والتراب والماء ذلك المذهب الذى نبذه المليطيون ولكنه كان موافقا لهوى النظريات الفسيولوجية التى كانت قائمة فى ذلك العصر . وهو لم يستعمل الكلمة (اسطقس) التى ترجموها فيما بعد بالعناصر فمعناها الحرفى "حروف الهجاء" ، ويلوح أن الفيثاغوريين هم أول من استعملها بهذا المعنى فى وقت متأخر عن هذا عند ما رأوا ضرورة التنبه الى النظرية الجديدة . فتكلم امبدكليز عن الأصول الأربعة للأشياء . وكان يقصد بذلك أن أشكال المادة الأربعة هذه كانت كلها أصلية وكل منها منفصل عن الآخر . وفى هذا جواب جزئى عن أدلة برمنيديس التى كانت قائمة على أن المادة متجانسة . كذلك وجد أنه لا مناص له عن أن يفترض وجود أصلين للحركة ، أو قوتين كما نسميهما الآن ولكن امبدكليز كان يرى أنهما مادتان : واحدة تفرق تلك الأصول الأربعة بعضها عن بعض والأخرى تضمها وتؤلف بينها وقد سماهما الحب والخصام ، وظن أن حياة العالم تأخذ أدوارا متبادلة تتغلب فى كل دور منها احدى هاتين القوتين . فلا ريب فى أنه كان فى ذلك كله متأثرا بدراسته للفسيولوجية فظن العالم كله كائنا حيوانيا قابلا لما نسميه الآن التكوين الخلوى والانحلال الخلوى [١] وتجعل تفاصيل النظرية ذلك كله واضحا . ويشبه هذا المذهب مادعا اليه انكسجوراس (حوالى ٤٦٠ قبل الميلاد) . وهو رجل من كلازومينى

---

(٢) Anabolism. & Catabolism.

من أعمال آسيا الصغرى نزح الى أثينا بعد الحروب الفارسية واشتغل معلما لبركليس مدة . أما مذهبه فكان أدق من مذهب أمپدكليس وأعوص منه . فانه كان يقول : " بالبذور " تجتمع فيها الأضداد من بلل وجفاف، و برد وحر على نسب مختلفة و يتيسر لنا أن نرى فى هذا المذهب توقعا غريبا لبعض النقط فى الكيمياء الحديثة . ولقد شعر انكسيجوراس أيضا ضرورة فرض قوة أو أصل للحركة وظن أن فى ذلك الأصل كفاية لتعليل دوران الأرض الذى نسب اليه تكوين العالم . وقد سمى هذه القوة "عقلا" ولكن وصفه إياها يجعلها مادية و يرى أنهـا أرق من سائر الأجسام وأصفى منها . ولا شك فى أنه اختار ذلك اللفظ لكى يبين التوافق بين أصل الحركة فى العالم و بين أصلها فى الحيوان . وهذا ينطبق أيضا على الاهتمام العلمى الذى كان قائمـا فى ذلك العصر . أما من حيث نظرياته الفلكية فانه دل على أنه أيونى شرقى حقيقة وكان فيها يتخلف كثيرا وراء فيثاغورس ففى نظره ونظر أيونى أيجه حتى ديموقريط نفسه أن الأرض مسطحة وأن "الدوامة" التى منها نشأ العالم كانت حركة فى مستوى . ان نظرية المذهب الذرى كانت جوابا أكثر اقناعا على برمنيديس فهذا المذهب يسلم صراحة بوجود الفراغ و يثبت أنه حقيقة كالجسم نفسه وكان مايسس (٤٤٤ قبل الميلاد) أول من أشار الى مثل هذا الحل وهو رجل صامى ولكنه كان عضوا فى المدرسة الايلية قال : " اذا كانت الأشياء "كثيرا " فكل شىء منها ينبغى أن يكون" كالواحد" الذى بينت ما يجب أن يكون". وكان المقصود من هذا أن يكون اثباتا بطريق التنفيذ . ولكن لمـا تجرأ لويكيپص المليطى (٤٤٠ قبل الميلاد) الذى درس كذلك فى مدرسة ايليا على أن يثبت وجود الفراغ لم يبق سبب ما للتهرب

من النتيجة التى لم يقـررها مليسص إلا ليبين استحالتها . فليست الذرات فى الحقيقة إلا ذلك الواحد المتواصل الذى لا يتجزأ (الذى ذكره برمنيديس) مكررا الى ما لا نهاية فى فراغ لا حد له. وبذلك أصبحت نظرية الجسم تامة من هذه الوجهة على الأقل، وأصبح سؤال طاليس مجابا عليه . ومن المهم أن نلاحظ أن ذلك قد حدث بفضل عودة الاختلاط — بين أيونى ايطاليا وأيونى أيجه ذلك الاختلاط الذى أتاحه تأسيس الأمبراطورية الأثينية — فلا شىء يجعلنا نشعر شعورا حيا بالرابطة التاريخية مثل عودة أسماء كميطه وصامس الى الظهور بعـد خفائها تلك السنين الطوال ومع ذلك فقد تبقت عدة مشاكل أساسـية لم تستطع النظرية الذرية حلها وكانت أول محاولة لفك طلاسمها فى أثينا ، التى يلاحظ أنها الى هنا لم يكن لها ذكر فى تاريخنا الذى نحن بصدد سرده والواقع أنه لم يبلغ أحد من أثينا الطراز الأول فى الفلسفة الا اثنان فحسب نعم ان هذين الرجلين كانا يدعوان سقراط وأفلاطون ولذلك كان الاستثناء كبيرا جدا. فتأسيس الأمبراطورية الأثينية هو الذى جعل أثينا ملتقى طبيعيا لمختلف الآراء الفلسفية والعلمية . ففيها التقى غرب هلاس بشرقيها واجتمعت آراؤهما اجتماعا أنتج فلسفة جديدة استمرت الى اليوم على الرغم ممـا حدث لها من الطوارئ التى عطلتها أحيانا .

اذا أردنا أن نفهم كيف ترقت الفلسفة الاغريقية فمن الأهمية بمكان أن ندرك الاختمار العقلى الذى كان فى أثينا فى عصر بركليس وأيامه الزاهية . ولقد ذكرنا قبلا أن انكسيجوراس الكلزومينى قد استقر هناك ولم يمض زمن طويل حتى حذا آخرون حذوه ولا سيما زينو الأيلوى (حوالى ٤٥٠ قبل الميلاد) تلميذ برمنيديس الحبيب اليه فانه أصبح وقد تتلمذ له كثيرون فى أثينا .وقد جعل

زينو نصب عينيه تأييـد مذهب أستاذه ومعاضدته فيه فبين أن الذين رفضوا تصديقه والأخذ به قبلوا آراء أخرى أقل ما يقال فيها أن الذوق السليم ينفر منها ، وبذلك قد خدم عرضا الرياضـة والفلسفة بأن أثار عجاجة مسئلتى الاتصال والانقسام اللانهائيين وأظهر ما دونهما من صعوبات اظهارا تاما . كل هـذا كان منفصلا كل الانفصال عما كان للسفسطائيين من تأثير فى وقت تال مع أنهـم جاءوا كذلك من الشرق والغرب ومع أنهم قد تأثروا بمدارس هـذه الأقاليم الفلسفية . ففى أثينـا هذه ولد سقراط (سـنة ٤٧٠ قبل الميلاد) نحو عشر سنين بعد موقعـة سلاميس فكان معرضا من صباه بطبيعة الحال الى كل هذه المؤثرات المتضاربة التى وصفها لنا أفلاطون وصفا حيا فى فائيدو . والحقيقة أنا لا نستطيع فهم سقراط ان لم نجعل هذه الحوادث التاريخية نصب أعيننا . ولا شك فى أنه قد انضم فى ريعان شبابه الى أرخلاوس الأثينى الذى خلف أنكسيجوراس بعـد أن اضطر هـذا الأخير الى مغـادرة أثينا الى لمبساكس ولقد قال شاهد عيان وهو أيون الصاكصى : أن سـقراط زار آسيا الصغرى رفقة أرخلاوس ويلوح لنا أن فى ذلك اشارة الى حصار صامص حينما لم يبلغ سقراط العقد الثالث من عمره . وليس ثمة من سبب يدعو الى الارتياب فيما قرره أفلاطون مرات من أنه قابل برمنيديس وزينو فى وقت قبل هذا . وعلى كل فأثر زينو فى جدليات سقراط لا يخطئه أحد ويجوز لنا أن نسلم بأنه كان عارفا بأنواع الطوائف الأرفيـة والفيثاغورية فقد كتب اسكنيز الاسفطى محاورة عنوانها تلاوجيز صوّر فيهـا سقراط جامعا حوله المتقشفين المتشدّدين مع أتبـاع فيثاغورس ولكن سقراط — كما نستطيع أن نكون عنه صورة

لأنفســنا — لم يكن رجلا يتتلمذ لغيره بل كان أثينيا صميما من حيث تهكمه الذى يتضمن شيئا من تحفظ مشوب بسخرية يقيه التورّط فى المبالغة والافراط مهما كان له من الاهتمام بمبالغة غيره وافراطهم . ومع ذلك فقد اشتهر فى صباه بالحكمة وذاع صيته فيها على الرغم من أنه نفى عن نفسه كل شىء من ذلك . ولكن يظهر أنه جمع حوله حلقة من "الرفقاء" وليس لنا من مرجع يبين لنا هذه السنوات الأولى الا "سحب" ارسطفانيز (٤٢٣ قبل الميلاد) وهذه مضحكة بالطبع ويجب ألا نعدماجاء فيها جدا كله . ومع ذلك فكل شاعر هزلى يحسن عمله — (ولا شك فى أن ارسطفانيز يحسنه) لا يرتضى لنفسه أن يعرض على جمهور الأثينيين رجلا نابهـا فى صورة لا تتفق مع الحقيقة فى شىء ما ، ولحسن الحظ توجد قطعة فى ممرابيلية زنوفون (I — ٦) يظهرعليها أنها تزودنا بمـا يمكننا من فهم رواية السحب . وهذه القطعة تمثل سقراط بصورة مخالفة كل المخالفة لمـا يظهر به فى سائر الكتّاب . ولا يمكن أن تكون هذه من مخترعات زينوفون نفسه والظاهر أنها تشير الى وقت كان فيه زينوفون وأفلاطون طفلين صغيرين ان لم تشر الى وقت قبل أن يولدا ولربمـا كانت مأخوذة من أصل أدبى لا سبيل الى وصولنا اليه فتلك القطعة تقول ان أنتيفون السفسطائى كان يحاول أن يفصل زملاءه عن سقراط . ثم تلا ذلك حديث اتهمه فيه بتعليم أتباعه أن يكونوا بائسين لا سعيدين ثم أردف ذلك بقوله انه كان على حق فى عدم تناوله أجرا على دروسه لأنهـا فى الحقيقة لا تستحق شيئا . فهذا دليل على علاقة متواصلة بين سقراط وأتباعه كانت معروفة مشهورة حتى أنها أثارت حقد بنى مهنته وحسدهم . ولم يحاول سقراط انكارها بل قال ان كل ما كان يعمله هو ورفقاؤه

انما كان صرف الوقت معا فى درس حكمة السلف الصالح التى خلفوها فى كتبهم ، وأنهم اذا عثروا بشيء ارتأوه حسنا وصالحا اقتبسوه لمصلحتهم وعدوه مكسبا عظيما وبهذا صاروا أصدقاء بعضهم لبعض ولا يخفى أن هذا يدل على شيء يخالف كل المخالفة الرأى الشائع أن سقراط ليس الا ثرثارة على قوارع الطرق بل هو يدل على شيء أشبه ما يكون بمدرسة منظمة وأن ذلك كما هو يفسر لنا مهزلة أرسطفانيز .

ان سقراط الذى نعرف عنه الشيء الكثير كان مشتغلا بشيء يغاير ذلك كل المغايرة فانه حبس حياته على تبليغ رسالة الى بنى جنسه وبخاصة الى أهل بلدته . وان كنا نثق " باعتـــذار " أفلاطون الى هـــذا الحد فان سبب ذلك هو الجواب الذى حصل عليه خيروفون من عرافة دلفى . وخيروفون هـــذا أحد كبار تلاميذ سقراط فى أول حياته كما أخبرنا ارسطفانيز . سأل خيروفون عرافة دلفى ان كان ثمة رجل أعقل من سقراط وهذا يتضمن أن سقراط كان مشهورا بالحكمة قبل أن يبدأ برسالته . وقد صرحت العرافة ألا أحد أعقـــل منه وجعل أفلاطون ســقراط يقول فى كتاب " الاعتذار " ان هذا كان مبدأ رسالته الحقيقى فانه نهض ليبرهن أن " العرافة " كانت مخطئة ولذا اجتهد سقراط فى أن يبحث عن رجل أعقل منه ولكن بحثه لم يكن مجديا لأنه لم يعثر إلا على أناس يظنون أنفسهم حكماء وليسوا بهم فاستنتج أن ما قصدته العرافة فعلا هو أن سقراط أعقل من غيره من وجهة واحدة ليس إلا فلا هو ولا غيره كان حكيما حقا ولكن سقراط كان أكثرهم حكمة لأنه يعتقد أنه ليس بحكيم فى حين أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم حكماء ويجب أن يتضح أن أكثر هذا لم يكن إلا تهكما . ولا يتوهمن أحد أن سقراط

يجعل لعرافة دلفى شأنا كبيرا لأنه يتكلم عنها باستخفاف وما كان ليذكر القصة لو لم يكن معروفا للناس أن رسالته قد بدأت فعلا من هذا الزمن . واذا نظرنا الى ذلك من الوجهة التاريخية كان أقرب الى الواقع أن نقول ان نشوب حرب البلوبونيز كان النقطة الحاسمة فى حياته وفيها اشترك سقراط كفارس اشتراكا يشرفه فقد ابث أربعا وعشرين ساعة وهو فى غيبوبة ، فى معسكر بوتيديا (٤٣١ قبل الميلاد) و يظهر أن هـذا يدل على تطوّر فى نفسه أحدثه اشتراكه فى تلك الحرب أو أعجل ظهوره . ومهما يكن فانا نراه بعد ذلك وقد حبس نفسه على دعوة بنى وطنه الى مذهبه وتحويله اليهم . فلنحاول أن نفهم تلك الرسالة التى أرسل اليهم بها .

يقول سقراط فى "الاعتذار": انه كلف برسالته من السماء فهو لا يجرؤ على اهمالها ولو أفضت الى موته كما حدث فعلا والأسلوب هنا يخالف تلك اللهجة التهكمية التى بحث بها فى نبوءة العرافة "والعلامة المقدسة" نفسها فتلك لم تفعل سوى أن حذرته من عمل أشياء — أكثرها تافه — كان على وشك القيام بها . ولكنها لم تخبره بعمل شيء ما . أما رسالته فكانت على النقيض من ذلك أمرا ايجابيا كلفه الله ولا يرتاب أحد فى أن أفلاطون أراد منا أن نفهم أن تلك كانت عقيدة سقراط الخالصة اعتقدها من صميم نفسه . يشق علينا أن نصدق أن أفلاطون قد أساء تصوير أستاذه فى مثل هذه النقطة فانه قد شهد محاكمته ولا بد من أنه كتب كتاب "الاعتذار" بعد ذلك بزمن غير طويل لم تزل فيه ذكرى المحاكمة قائمة فى نفوس الناس . يقول لنا أفلاطون قولا واضحا جليا إن سقراط انما أراد تفهيم الناس ضرورة "العناية بأرواحهم" و يؤيد ذلك مصادر أخرى وأن

جميع الناس لتسلم بذلك على أن هـذه العبارة قد أضحت معروفة للناس فـلم نعد نرى فيهـا شيئا جديدا أوهاما . أما الأتينيون فى القرن الخـامس فكانوا يرونها غريبة كل الغرابة . نعم ان الكلمة التى نترجمها " بالروح " قد وردت مرات فى آداب العصر ولكنها لم تستعمل فى شىء يطلب منا رعايته والعناية به بالمعنى الذى قصده سقراط فانها كانت تستعمل عادة فى نفس الحياة ذلك " الخيال " الذى " يلفظه " الانسان عند موته . فيمكن أن تترجم إذا " بالحياة " فى كل حالة يخاطر المرء فيها بحياته أو يفقدها أو يتشبث بها ولكنها لم تستعمل قط فى مركز الحياة الشاعرة بأى حال من الأحوال . بل كانت تستعمل أحيانا لتدل على مركز الشعور فى الحلم أى فيما يسمى الآن باللاشعور ولم تستعمل مرة واحدة فى الشعور أثنـاء اليقظة الذى هو مركز العلم والجهـل والصلاح والخبث . ومع ذلك فان هذا المعنى كان معروفا فى القرن الرابع تمـام المعرفة فيمكننا أن نستنتج أن الفضل فى هذا التغيير راجع الى سقراط . ولقد تهكم عليه ارسطفانيز كثيرا لاعتقاده آراء غريبة فى الروح ، وكانت هـذه التهكمات تصب عليه وأفلاطون لم يزل طفلا . لا شك فى أنا لا نطمع أن نحصل من هـذه على رأى واضح محدود عن تعاليم سقراط الحقة فى هذا الموضوع ولكنا لو راعينا الآراء التى كان يعتقدها مدارس غرب هلاس وشرقيها عن الروح لم يكن من المستحيل أن نتعرف ما هو ذلك الرأى .

ان أيونيى آسيا الصغرى قد أطلقوا الروح على الشعور الذى هو مستقر الصلاح والخبث والحكمة والحمق ولكنهم لم ينظروا اليه من حيث هو النفس ، ولم يعاملوه كما يعامل الفرد . فقد اعتقد

أنكسمنيز وأتباعه أن الروح هو ما يسمونه هواء ، وذلك لأنهم كانوا يعدون الهواء المـادة الأولى التى منها تكون كل شيء . فالروح شيء يأتينا من الخارج بوساطة التنفس ، أو هو كما يقول ديوجينيز الابولونى "جزء صغير من الله" أى من المـادة الأولى احتبس فى الجسم الى حين ثم يعود بعد الموت الى الجزء الأكبر من المـادة نفسها . وكان الناس يتقبلون الحكمة القائلة "التراب للتراب والهواء للهواء" كوصف كامل لمـا يحدث بعد الموت . أما الأيونيون الغربيون ولا سيما الفيثاغوريون فكانوا يرون رأيا آخر فالروح عندهم شيء إلهى . فهى إله ساقط من السماء واعتقل فى الجسم عقابا له على ما ارتكبه قبل ميلاده من الخطايا . وان ذلك ليسترعى نظرنا من حيث أن أول هم لنا فى الحياة هو أن نطهرها من كل رجس حتى نضمن لها الحرية فلا تضطر الى الاعتقال فى جسم آخر . أما فى هذه الحياة الحـاضرة فانهم كانوا يعتقدون أن هـذا العنصر الالهى ينام الا فى الأحلام التنبؤية فكما يقول بندر : انهـا لتنام حينما تكون سائر الأعضاء مستيقظة . فلا هذا الرأى ولا ذاك كان معروفا لدى الرجل العادى فى أثينا . أما سقراط فانه كان يعرف كليهما حق المعرفة ولكنه لم يكن راضيا عن أحدهما فاذا تكلم فى الروح فانه لم يقصد إلهـا عجيبا هوى من السماء واحتل الجسم الى حين بل قصد النفس الشاعرة التى فى طاقتنا جعلها حكيمة صالحة . ومن جهة أخرى فان اهتمامه وتوكيده بأن العناية بالروح واجبة علينا لا يتلاءم مع كونها شيئا خارجا عنا كما قال بذلك كل الأيونيين الشرقيين الى أنكسيجوراس انما هى على العكس من ذلك نفسنا الباطنة الحقة هى شيء فينا أكبر قيمة وأعلى شأنا من أى شيء آخر كائنا ما كان . فالى هذه العقيدة فى الروح والى واجبنا نحوها أحس سقراط بأنه واجب عليه أن يقوم

ويدعو الناس كافة ولا سيما أبناء وطنه . ولقد كانت هذه عقيدة جديدة غريبة فى ذلك الزمان . ولئن أصبحت معروفة مشهورة اليوم فذلك دليل على أن سقراط قد نجح فى مهمته فهو وان لم يستطع حمل بنى جنسه على أن يعملوا بما علموا فانه على الأقل نجح فى جعلهم عالمين بها متأكدين منها . وبهذه الطريقة رأى سقراط الصدع بين العلم والدين الذى كان قاضيا على جماعة الفيثاغوريين وانا لنقول ان أهمية تعاليمه لم تنفد بعد . ولقد قرر ذلك أفلاطون بكل وضوح فى كتابه اعتذار سقراط كما ذكرنا من قبل . هذا ، وأن ذلك لهو المفتاح الوحيد الذى يجعلنا نفهم كل الفهم سلسلة المحاورات العظيمة الى الجمهورية التى فيها كلها ظهر سقراط بمظهر المتكلم الأول . وانها لمسألة تاريخية هامة . هل زاد أفلاطون على مبدإ أستاذه قليلا أم كثيرا فى هذه المحاورات ؟ على أن ذلك لا يعنى القارئ العادى وعلى الأقل فى البداية . وانا لنعرف من تلميحات أرسطفانيز أن سقراط نفسه قال بمبدإ جديد عن الروح لما كان أفلاطون لا يزال طفلا ولا يفوت القارئ العطوف أن يرى أن القطعة التى فى "الاعتذار" التى أشرنا اليها قد قصد بها أن تكون تقريرا صادقا لذلك المبدأ أما الباقى فليس إلا زيادات طبيعية وليس بذى شأن كبير أن نعرف ان كانت هذه الزيادات ترجع الى سقراط أو الى أفلاطون نفسه . وان حكمنا فى هذه النقطة لا يقلل من قيمة ما استوحته الأجيال الكثيرة من هذه الكتابات ما دمنا نجعل نصب أعيننا أن موضوعها الأصلى هو المبدأ الجديد للروح ، وأن لا يتسنى لنا فهمه الا مسترشدين بالمبادئ التى مهدت الطريق له . وسقراط لم يفعل سوى أن زاد فى عمق مبدأ الأيونيين الشرقيين بأن نفحه شيئا من الوجدان والعواطف التى امتازت بها

تعاليم الفيثاغوريين فى هـذا الموضوع فى حين أنه من جهة أخرى جعل نظرية الفيثاغوريين معقولة بجعله الروح هى نفسنا الشاعرة .

فاذا كان هذا حقا ما علمه سقراط وقال به فلا بد من أن يعد فاتحا لعهد جديد بالمرة فى تاريخ الفلسفة وهـذا يدل عليه اطلاق العبارة — "قبل سقراط" على أسلافه مع أن الكتب المعتادة غامضة عند ما تبحث الأسباب التى من أجلها نال سقراط هـذه المكانة السامية . كذلك ترى أنه كان من الطبيعى لديه أن يهتم كل الاهتمام بتحويل الأرواح كما حدث منه فعلا . ولقد ظل هذا الرأى غالبا على الفلسفة الاغريقية الى النهاية . نعم انه لا شك فى أن المدارس المتعاقبة اختلفت أفكارها فى معنى هذا التحويل ومع ذلك قد كانت الصلة التى تربطها جميعا بعضها ببعض . وفى الواقع أن هذا قد أدى الى شكل أولى جديد عنيت به الناس عناية متزايدة وأخيرا اقتبسه آباء الكنيسة المسيحية مع ما اقتبسوه من كثير غيره من القواعد الأساسية .

لقد رأينا قبلا أن سقراط كان له أتباع ومريدون من بين جميع المدارس الفلسفية فى ذلك العصر وليس من المستحيل أن يزداد ما نعلمه عنه عند ما نعثر بمصادر أخرى جديدة . أما الآن فليس لدينا من مصدر جديد الا بعض أجزاء جديدة كبيرة من الالسبيادس التى ألفها اسكنيز الأسفطى . وانا نعلم أن اسكنيز هذا كان تلميذا لسقراط ويشاع قديما أن محاوراته مثلت سقراط أصدق تمثيل . فاذا كان الأمر كذلك فيحتمل أن سببه عدم وجود فلسفة خاصة لاسكنيز . وأهمية هذه الأجزاء الجديدة تحصر فى أننا اذا قرأناها مع ما لدينا (ولسوء الحظ ان الأجزاء الجديدة والقديمة لم تطبع معا)

تؤيد التأثير الذى تركه فينا أفلاطون عن سقراط وطريقته فى المحاجة وذلك يزيدنا ثقة بأن سقراط أفلاطون مطبوع بطابع تاريخى صادق .

وكذلك أجزاء اسكنيز تؤيد أفلاطون لأنها تبين أن تحويل السبيادس (الذى أنقذ حياته صغيرا) كان من أحب الأمور الى فؤاده .

ولكن الخليفة الحقيق لسقراط كان بالطبع أفلاطون نفسه (٤٢٧ — ٣٤٧ قبل الميلاد) وانا لا يتسنى لنا أن نقول شيئا ولو موجزا عن فلسفة أفلاطون . والواقع أن الوقت لم يحن بعد لذلك مع أن أبحاثا شيقة كثيرة تعمل الآن ولا سيما تلك التى يقوم بها الأستاذ الفرنسى روبان التى تبشر بنتائج أكيدة أكثر مما وصلنا اليه الى الآن . ان كل ما نستطيع أن نعلمه هنا هو أن نشير الى موقف أفلاطون تجاه بعض المسائل التى نحن بصدد البحث فيها ونشير بآرائه الهامة التى أمد بها نظرية المعرفة لأنها بدأت الآن أن تفهم ، وبخاصة ثياتيطس وتتمتها "السفسطائى" فانها آخذة أن تنال المكانة اللائقة بها من حيث هى أفضل مقدمة للفلسفة عامة ومع ذلك لا مفر لنا من أن نلق نظرة عجلى على مسئلة أساسية فى الطريقة وقد أشارت المحاورات نفسها اليها . وذلك أنه فى حين أنا نرى اسم سقراط فى كل محاورة منها ما عدا "القوانين" فانه لم يشترك فى بعضها البتة ، ومعلوم استنادا على أسباب أخرى أن هذه المحاورات التى لم يشترك فيها كتبت آخر أيام حياة أفلاطون فلا بد من سبب ما لذلك . ومن الحزم أن نتخذ هذه المحاورات كبينة أولى على آراء أفلاطون والحقيقة أنه لم يكن مأمونا أن نحاول أن نجيب عن السؤال : كم من هذه المحاورات التى كتبها

فى أوائل حياته تعزى الى أفلاطون نفسه لا الى سقراط ، الا بعد أن أعيد اقامة فلسفته بالاطلاع على هذه المصادر وعلى الاشارات الغامضة اليها فى ارسطاطاليس . تلك مشكلة تاريخية ذات أهمية عظيمة ولكن — حلها لو كان ممكنا — لا يحدث أى تغيير يذكر فى الأثر الذى تركته الفلسفة الأثينية فينا .

لو أنا تأملنا كتابات أفلاطون الأخيرة — ولنفرض اذا أنه كتبها مستقلا فيها أكبر استقلال لوجدما ننتظره من تلميذ لسقراط فالروح فيها المحل الأول على أنا نلاحظ فيها صفات خاصة بها ليس لدينا ما يؤيد نسبتها الى سقراط . إنا لنميل كل الميل أن نرى أن أفلاطون كان مشغولا الشغل كله بما يسمى (نظرية الآراء) وهى نظرية بحثها أفلاطون مرة أو اثنتين فى محاوراته الأولى التى تعزى الى سقراط ولكنها لم يكن لها أثر فى مؤلفاته الناضجة حيث يشغل مبدأ الروح الحيز الأكبر منها ، ومن ثم نرى أن الروح عند أفلاطون شأنا كبيرا . فهو يعتبر الروح منبع الحركة كلها فى العالم لأنها هى وحدها الشىء الذى يحرك غيره من دون أن يتحرك هو بشىء آخر فهذا — وهذا وحده — الذى مكن أفلاطون من أن يعلل وجود العالم والانسان وأن يتجنب نظرية "العالمين" التى كاد أن يقع فيها كل أصدقاء "الآراء" كائنا من كانوا كما بينه أفلاطون نفسه فى السفسطائى ، ولقد سما هذا الرأى عنده حتى صار نوعا من "التوحيد" لا ينسبه أفلاطون فى أى موضع ما الى سقراط فهو يمثله رجلا ذا طبيعة دينية عميقة ، ولكنا لا نرى من ذلك أنه شعر بضرورة ايجاد مبدإ شكلى لله ، على أن أفلاطون قد خلف وراءه أوّل دفاع منظم تعلمه عن الإلهيــة [1] وهومبنى كله على مبــدئه

(١) Theism

القائل بأن الروح محرّك يتحرّك بذاته . ولكن الروح الأسمى أو الله ليس الأصل النهائى لكل حركة فحسب بل انه قد بلغ من الطيبة أقصى حدّ وبمـا أن فى العالم أشـياء كثيرة غير طيبة من الالحاد أن نعزوها الى الله فلا بد من أن يكون فى العالم أرواح أخرى مستقلة استقلالا نسبيا على الأقل فليس الله سبب كل شىء على الأقل مباشرة . ولكنه ليس من السهل أن نكتشف العلاقة بين هذه الأرواح الأخرى و بين الله وقد ذكرت هذه المشكلة فى تيما يوس على الشكل الآتى : ان روح العالم وجميع الأرواح الأخرى بشرية كانت أو إلهية كلها من عمل الخالق الذى هو الله ، وهى ليست غير قابلة للعدم لأن كل شىء يعمل يمكن أن يعدم ولكنها مع ذلك تكاد تكون غير قابلة للعدم لأن الله خلق كل شىء لأنه طيب وأراد أن تكون مخلوقاته طيبة كذلك بقدر الامكان . فطيبته لا تسمح له حينئذ بافناء ما عمله من قبل وكل هـذا قد ذكر طبعا على شكل أساطير لم يقصد بها أفلاطون أن تكون بيانا عن اعتقاده الشخصى لأن ذلك ليس الا ما قاله تيمايوس على لسان الخالق . ومع ذلك فانا لنستطيع أن نرى المسألة التى كانت شاغلة له ولا نكون بعيـدين عن الانصاف اذا استنتجنا أنه نظر الى المسئلة التى لا تزال محيرة للعقول من وجهة أن قدرة الله على كل شىء محدودة بطيبته وهـذا تحديد أهم ممـا يفرضه وجود المـادة ويشير اليـه تيمايوس . ولم يكن هو فى ذلك الا سائرا على نهج الفيثاغوريين الذين ينتمى اليهم كما يدل على ذلك توحيده بين المـادة والمكان أو الحيز .

ان ما بلغناه الى الآن من العلم لا يخولنا أن نعزو هـذا الرأى الى أفلاطون عزوا حاسما فهذه نقطة لم يفصل فيها بعد .

ان وصف تيمايوس للخليقة يجب أن يعــد من باب الأساطير فى تفصيلاته ، على أن به من الصفات المميزة ما يجعلنا نعلم الشيء الكثير عن الاتجاه الذى سارت فيه أفكار أفلاطون عن العــالم اننا نفهم فيثاغوريا عند ما يذكر ما للهندسة من الأهمية، ولكنه اســتخدم بضع نظريات هى من أحدث الرياضيات عهدا فى ذلك العصر وبخاصة قانون الخمس المجسمات المنتظمة التى يرجع الفضل فيها الى تياتيطس أحد أعضاء الأكاديمية الأول والذى يصوّره لنا أفلاطون بأنه عرف سقراط قبيل مماته . أما تياتيطس نفسه فقد توفى صغيرا ولكن ما نعرفه عنه ينبئنا بأنه كان أحد أفذاذ الرياضيين العبقريين الأفلاء الذين ظهروا فى التاريخ . فنظرية المجسمات المنتظمة استعملت فى تيمايوس للتخلص من مبدأ الأربعة العناصر النهائية مرة أخرى . ويقول تيمايوس عن هذه أنها لأبعد من أن تكون عناصر أو حروف هجاء بل هى ليست مقاطع . ان الطريقة التى بها تكون ما يسمى بالعناصر من جزيئات تشابه فى شــكلها المجسمات المنتظمة ، وتفسير تغييرها بعضها الى بعض المبنى على التركيب الهندسى لهــذه الأشكال يراها القارئ العادى شيئا غريبا ولكن واحدا من أنبه الرياضيين والطبيعيين الأحياء ذكرا قال ان ما يدهشه هو مشابهتها للنظريات العلمية القائمــة فى القرن العشرين، فيحسن بنا اذا ألا نتعجل فى الحكم على هذه النقطة . وعلى كل حال فمن السهل أن نفهم كيف صار لدراســة الرياضيات المحل الأرفع فى أكاديمية أفلاطون .

حسب الخطة التى اختططناها لأنفسنا فى هذا المقال لا بد لنا من أن نذكر شيئا عن موقف أفلاطون تجاه الحياة العملية . وتلك نقطة من السهل الخطأ فيهــا . فلم يهتم أحد اهتمامه باعلاء شأن

الحياة النظرية فالحكيم رجل مغرم بمشهد الزمان والوجود كليهما وهــذا ما يجعله بنجوة من سفساف المطامع وحقير الأمانى فانه كابد من المشقات ما كابد فى الصعود من " الكهف " حيث يقطن سواد الناس وحيث لا يرون الا أشباح الحقيقة . ولكنه فى تحمسه عند وصفه للحياة الفاسفية قد اهتم اهتماما معادلا لهــا بما على الفلاسفة من واجب يقضى عليهم بالنزول على التوالى الى الكهف لانقاذ من يمكن انقاذه من اخوانهم المعتقلين ولو بالرغم منهم فيوجهونهم شطر النور و يأخذون بيدهم الى عالم الصدق والحق .

من السهل علينا أن نفهم ممــا سبق أن أفلاطون خص الجزء الأعظم من أحسن سنى فى حياته بمسائل الحياة العملية وأنه هجر أبحاث الأكاديميــة حينا ليشرف على تربيــة ديونيصص الثــانى و يظهر أن هذا شيء لا يستهان به فالحضارة الاغريقية فى صقلية وكذلك بالطبع حضارة أوربة الغربية كان محدقا بها خطر شديد من ناحية القرطاجيين فقد أوقف ديونيصص الأول تيــارهم ولكن كل شيء بعد موته كان متوقفا على من سيخلفه . و بمــا أن تربية ديونيصص الثانى كانت مهملة كل الاهمال مع ما فيه من المواهب الطيبة فان عمــه ضيون كان صديقا لأفلاطون وكان يدافع عن ديونيصص هذا وحسن نيته فلم يسـتطع أفلاطون أن يعير هذه الدعوة أذنا صمــاء ولكن ديونيصص كان ممــا يدعو الى الأسف عنيدا متصلفا فسرعان ما مل الدروس الجدية التى كان يرى أفلاطون بحق ضرورة أخذه بها حتى يعده الى عمله فكانت العاقبة أن ازداد النفور بين أفلاطون وتلميذه وأصبح من المحال أن نأمل أملا طيبا فى نجاح الخطط التى كان يرسمها ضيون . ليس من الضرورى أن نسرد

القصة كلها هنا ولكن من الصواب أن نقول انه لم يكن ثمة شيء غير عملي فيما أخذه أفلاطون على عاتقه ولا شك فى أنه كان مبررا فى اعتقاده أن تربية ديونيصص يجب أن تكمل قبل أن يؤمن جانبه و يعهد اليه الدفاع عن مصلحة الهلينية فى الغرب .

ان اخفاق أفلاطون فى تربيـة ديونيصص لم تجعله يهجر كل جهد يبذله فى تضميد جراحات الهلينية فكان التشريع أحد الأبحاث التى يتحمس لها فى الأكاديميـة ، وأفلاطون هو الواضع الحقيق لأساس ذلك التشريع ولم يكن من النادر أن تطلب المدن الاغريقية من الأكاديمية المتشرعين لينظموا قوانينها الحاضرة أو تسن قوانين أخرى جديدة للمستعمرات التى تم تأسيسها حديثا . فهذا هو التفسير الحقيقى للكتاب الشهير الذى عنوانه القوانين والذى شغل أفلاطون عدة سنين . ور بمـا كان بدأه فى أثناء اشرافه على تربية ديونيصص ، و يظهر أنه تركه قبل أن يتمه ففى حين أن بعض أجزائه محكمة الوضع ترى أجزاء أخرى تجعلنا نعتقد أنهـا ليست الا "تسويدا" . ومع ذلك فانه كتاب جليل اذا نظرنا اليه من الوجهة الحقة . فهو تنظيم للقانون الاغريقى ولا سيما الأثينى مع بعض تعديل عنّ لأفلاطون حينما كان يبحث الموضوع بحثا منظما ، وقد صار أساس القوانين الهلينية والرومانية التى لهـا فضل كبير على العالم . لا شيء يصحح الفكرة الشائعة فى أن أفلاطون رجل خيـالى غير عملى مثل الدرس الدقيق لأشق أجزاء "القوانين" وأعوصها فى البحث الفنى مسترشدين فى ذلك الدرس بضوء كتاب "النُظُم" .

لم نحاول أن نصف هنا نظام أفلاطون الفلسفى كله . والحق أن الوقت لم يحن بعد لأن تكون مثل هـذه المحاولة مجدية فنحن

لا نعرف مباشرة شيئا عن تعليمه فى الأكاديمية لأنا لا نملك من كتبه الا ما كتبه للجمهور وكذلك يجب أن نحتاط فى حال ارسطاطاليس (٣٨٤—٣٢٢ قبل الميلاد) وانما لسبب نقيض السبب الأول فليس لدينا الا قطع من كتبه المنشورة وما هى الا أصول محاضراته فى الليصيوم . وسنرى أن فى هذه مجالا كبيرا للبحث والعمل فمن طبيعة الحال أن الانسان يدع فى مذكرات المحاضرات أشياء كثيرة مسلما بها ولكنها تشرح أثناء الالقاء شرحا وافيا هذا وان كثيرا من النقط الهامة لم تبحث البحث الكافى ومع ذلك فان بها أشياء كثيرة تتجلى بوضوح كاف وقد يتفق أنها نقط هامة نعرف منها أمورا كثيرة تفيدنا فى مسائل اليوم الفلسفية .

إنا نود أن نبين أن ارسطاطاليس ما كان أثينيا وانما هو أيونى من شمال ايجه فكان متأثرا أشد التأثر بالعلم الأيونى الشرقى ولا سيما بنظام ديمقريطس (الذى يظن أن أفلاطون لم يعرفه) كما كان متأثرا كذلك بنظريات ذلك العصر الطبية وهذا هو السبب فى أنه لم يكن يعطف على مدارس الغرب الفلسفية وبخاصة المدارس الفيثاغورية والايلية . ولم ينل الحظوة لديه سوى امبدكليس الذى كان مشتغلا مثله بعلم الحياة والمؤسس لمدرسة طبية . فلم يكن ارسطاطاليس عارفا اذا بالأمور الرياضية ونظامه فى الطبيعيات (الفيزيقا) لا يعد الا رجعيا اذا وازنا بينه وبين نظام الأكاديمية . نعم انه قبل مذهب كروية الأرض ولكن اذا استثنينا ذلك فان آراءه الكونية لا بد من أن توصف بأنها رجعية . أما فى علوم الحياة (البيولوچية) فلا يرتاب أحد فى أنه كان عظيما . والبيولوچية هذه لم تهمل كل الاهمال فى الأكاديمية ولكنها كانت تعد ثانوية

بالاضافة الى الرياضيات والفلك . فالمقابلة بين ارسطاطاليس وأفلاطون تعيد الى الذهن المقابلة بين فيثاغورس وأمبدكليس وذلك يذكرنا بشيء هو أشبه بقانون للترقى الفلسفى وربما يلقى شيئا من النور على الموقف الحالى فكأن التبادل بيد الاهتمام بالرياضيات وعلم الحياة أساسى فى نشأة التفكير الفلسفى . وأن فلسفة العصور المختلفة لتصطبغ بصبغته . ففلسفة القرن التاسع عشر كان يغلب عليها آراء أكثرها بيولوجية فى حين أن القرن العشرين يقضى عليه بأن يكون رياضيا فى نظراته الى العالم ولا شك فى أنه يجب علينا ألا نغالى فى تقدير مثل هذه القوانين على أنه قد يفيد أن ندرس مثل هذا التبادل فى فلسفة الاغريق حيث كل شيء أبسط وأسهل فهما .

ومن جهة أخرى فقد لبث ارسطاطاليس عضوا فى الأكاديمية نحو عشرين سنة فلا بد من أن تترك هذه السنون أثرا فى نفسه وهذا يفسر لنا الحقيقة التى لوحظت مرارا . ففى تفكيره تياران متضادان لا يتلاءمان . فهو من جهة قد اعتزم تجنب كل شيء سماوى وترجع لذلك كراهيته لرياضيات فيثاغورس وأفلاطون . ومن جهة أخرى فهو معجب بأفلاطون كل الاعجاب وقد تأثر به تأثرا غير قليل على الرغم من الانتقادات المجحفة التى كان يوجهها اليه ويمكن أن تقول ان السبب فى نقده له على هذا الشكل المجحف يرجع جزء منه الى أن صدره قد يضيق به أحيانا عند ما يرى نفسه عاجزا كل العجز عن التخلص من الأفلاطونية مهما عمل . ويؤيد ذلك أنه كان يميل الى أن يلجأ الى مجازات ذات صبغة أسطورية أو سماوية لم نكن مهيئين لها من قبل ولم يتفضل علينا أحد بتفسيرها كلما بلغ أقصى نقطة يوصله اليها نظامه . وهذا هو الحال وبخاصة عند ما يبحث

فى الروح وفى المحرك الأول وليس ما يقول ارسطاطاليس فى الروح الا ترقية للنظريات الأيونية الشرقية وإنا لنشعر بأنا قد ابتعدنا بعدا كبيرا عن فكرة أفلاطون من حيث تقديمه الروح وتفضيلها على كل شيء آخر . ولكن عند ما يقول لنا ارسطاطاليس ان العقل أسمى جزء فى الروح وأرقاه فانه يدهشنا كل الدهشة عند ما يقرر أن العقل فى هذا المعنى ليس الا سلبيا فى حين أنه يوجد شكل آخر منه ينفصل عن المادة وهذا وحده هو الخالد الدائم . وقد أفضى ذلك الى مناقشات لا نهاية لها ولا تشغل بالنا هنا وخير تفسيرها أنها انفجار أفلاطونى لم يستطع ارسطاطاليس الخلاص منه . وشبيه بها تلك القطعة التى يحاول فيها أن يبين كيف أن المحرك الأول يوصل حركته الى العالم مع أنه لم يحركه أحد . فهو يقول يتحرك كما يتحرك الشيء المحبوب ثم يدعنا نستخرج منها ما نستطيع أن نستخرجه ومع ذلك فلا يسعنا الا أن نشعر أنا فى مثل هذا القطع نقرب كل القرب من اعتقادات ارسطاطاليس التى كان يهتم بها أكثر من اقترابنا منها فى أى موضع آخر فهو فى قلبه أفلاطونى أراد ذلك أو لم يرد .

ان موقف ارسطاطاليس تجاه الحياة العمليـة يتوقف أيضا على رأى أفلاطون . ففى الكتاب العاشر من الأخلاق وضع حياة التفكير والتأمل فى مكانة أعلا مما وضعها فيها أفلاطون حتى أن الحياة العملية لتبدو ثانوية بالاضافة اليها . فهو لا يشعر كما شعر أفلاطون بواجب الفيلسوف فى النزول الى الكهف من أجل من فيه من المعتقلين فهو فى الجملة يبدو عليه أنه كان أقل اكتراثا من أفلاطون بما تهتم به الحياة العملية . ومع ذلك فانه احتذى أفلاطون فى حبسه جزءا كبيرا من وقته لدرس السياسيات وهـذا أيضا لغرض عملى واضح وهو تدريب المتشرعين . ولقـد انتقده

الناس كثيرا لعجزه عن أن يرى أيام "دول المـدائن" معدودة عليها ومن أجل الطريقة التى بها تجاهل ظهور العاهلية فى شخص تلميذه الاسكندر الأكبر . ومع ذلك فهـذا ليس من الانصاف فى شىء . فقد كان ارسطاطاليس يكره الأمراء والبلاطات وكانت دول المدائن لا تزال تسـترعى لبه من حيث أنها هى المعيـار العادى للتنظيم السياسى . وما كان يصدق أن يوما سـيأتى عليها تخمد فيها و يحل سواها محلها بل كان يود أن يسـاعد على تحسين ادارتها والواقع أنه كان فى نظراته أشد محافظة من أفلاطون الذى كان يميل أن يرى مع أيسوقراط أن اعادة الملكية هو الشىء الوحيد الذى يحفظ الهلينية كما كانت عليـه حينئذ . يجب علينا أن نذكر أن ارسطاطاليس نفسه لم يكن منتميا الى أية حكومة حرة فليس لنا أن ننتظر أن يكون لديه من الغرائز السياسية ما لأفلاطون الذى ينتسب الى الطبقات الحاكمة فى أثينا وقد ورث الحرية عن عصر بركايس وربما يظهر ذلك كله على أجلاه فى موقف كل من الحكيمين تجـاه مسئلة الرقيق . ففى "القوانين" التى تبحث فى الأحوال الحاضرة حينذاك يعترف أفلاطون بنظام الرقيق كأمر واقع على علمه بما فى ذلك من الأخطار وقد اقترح عدة مشروعات قانونية لتقليل أضراره . وأما فى الجمهورية حيث لا حاجة به تضطره الى مراعاة الأحوال الحاضرة فانه صوّر لنا على لسـان سقراط أمة يظهر ألا رقيق فيها . كذلك كان ارسطاطاليس مهتما بتقليل أسوأ مناكر الرق ومقابحه ولكن كان يبرر استبقاء هذا النظام — نظام الرق — ودوامه بحجة أن البرابرة أرقاء بطبيعتهم وأنه لمن مصلحتهم أن يكونوا آلات حية . فان هذا الاهتمام بالتفريق بين الاغريق والبرابرة لا بد أن يكون قد ظهر لكثيرين من معاصرى ارسطاطاليس كمغالطة تاريخية ولذا شهر به أفلاطون و رفضه لأنه غير علمى .

ان رفض ارسطاطاليس للرياضـيات الأفلاطونيـة أفضى الى انفصـال الفلسفة عن الرياضة وتلك نتيجة مباشرة لم يقصدها ارسطاطاليس ولم يتنبأ بحدوثها . ولقـد كانت الرياضة لا تزال بالغة أشدها . أدرك ذلك ارسطاطاليس أم لم يدركه وكانت أعمال الجيل السابق تدفع الرياضيين الى أن يحلوا مسائل أدق وأعوص . فان زوى الليسيوم وجهه عنهـم فانهم كانوا على أتم أهبة فى أن يسيروا باسم الأكاديمية وحدهم وقد نجحوا فى ذلك نجاحا لم يكن ينتظره أحد . والحق أن القرن الثـالث قبل الميلاد كان العصر الذهبي للرياضة الاغريقية ويقـال ان ذلك راجع الى انفصالها عن الفلسفة . فان كان هذا حقا فمعرفتنا له من الأهمية بمكان . لا شك فى أن كبار الرياضيين فى القرن الثالث كانوا يسيرون خلف أسلافهم الذين كانوا فلاسـفة كما كانوا رياضيين فلا غرو أن استطاعوا هم ذلك الى حين . ولكن الحقيقة المدهشـة هى أن الرياضة الاغريقية قد أصبحت عقيمة غير مثمرة فى وقت قصـير ولم يحدث أى تقدم الا أيام ديكارت ولا يبنتز الذين سارا بالفلسفة والرياضة معا يدا فى يد .

ولم يكن ما حل بالفلسفة نفسها من جراء هذا الانفصال بأقل ممـا أصاب الرياضـة . نعم ان ثيوفراسطس استمر فى عمـل ارسطاطاليس ناهجا منهجه فأسس علم النبات كما أسس سابقوه علم الحيوان ولكن مدرسة المشائين ماتت بموته أو كادت ولم يبق لها من النفوذ الا قليـل الى أن أحيا الأفلاطونيون المحدثون دراسة ارسطاطاليس .

والآن قد أصبح انفصال الفلسفة عن الرياضيات انفصالا تاما . نعم انه كان لكل من الرواقيين والأبيقوريين نظـام علمى ولكن

فلسفتهما لم تكن مقامة على هـذا النظام بأى شكل من الأشكال فموقف أبيقور تجاه العلم مشهور فانه لم يهتم به من حيث هو علم ولكنه اتخذه وسيلة يحرر بها الناس من الخوف الديني الذى ينسب شقاء الانســان اليه . وظاهر أن علم الأكاديمية الذى منه نشأ علم دينى (لاهوت) لم يكن صالحا لهذا الغرض ولكن أبيقور عاد كما يعود أيونى شرقى مثله — الى نظرية ديمتريطس الذرية بعد أن أضاف اليها مع ذلك عدّة أمور صيرتها هراء لا معنى له وذلك مثل نظرية الثقل والخفــة المطلقة التى كان من دواعى الأسف أن قال بهــا ارسطاطاليس . ولقد كان الرواقيون كذلك ماديين فانهم وجدوا ما شاءوا من العلم فى نظام هراقليطس مع أنهم اقتبسوا لأغراض جدلية كثيرا من منطق ارسطاطاليس بعـد أن عنوا بتغيير ألفاظه ومصطلحاته . فكل من هاتين المدرستين — مع أنهما ابثتا مخلصتين لفكرة الفاسفة من حيث هى دعاية وتحويل — نسيت أنهــا كانت فى الحقيقة مؤسسة فى خير أيامها على العلم . وهذا هو الذى اجتــذب الرومانيين الى الرواقيين والأبيقوريين الذين لم يهتموا بالعلم اهتماما صحيحا فى وقت من الأوقات . فكلا المذهبين : الرواقى والأبيقورى كانـــ لهما جاذبية عملية تختلف فى أحدهما عن الآخر جعلت لهما مقاما محمودا فى رومية .

ظلت الأكاديمية التى أسسها أفلاطون فى الوجود ولكنهـا حادت عن الغرض الذى أنشــئت من أجله ولم يمض على وفاة أفلاطون جيـــل واحد . ولقد رأينا أن الرياضة قد استقلت عن الفلسفة فأصبحت الحــاجة ماسة كل المساس الى ضرورة نقد " النظريات والمبــادئ التحكمية " التى أدخلها الرواقيون . وفى

هذا اتباع لجزء غير صغير من مذهب أفلاطون وهو على صغره ليس بأقل الأجزاء خطرا . وحقا ان الأكاديمية لتبدو لنا بعد هذا الزمن الطويل كمدرسة للتشكيك ولكن يجب أن نذكر أن تشكيكها هذا كان موجها الى عالم الحس الذى كان موقف أفلاطون تجاهه لا يختلف عن موقفهم اختلافا أساسيا . ان المتشككين الحقيقيين كانوا دائما يرفضون أن يعدوا الأكاديميين متشككين بمعنى الكلمة الصحيح ومن الجائز أن تقاليد الأفلاطونية الحقة لم تنقطع فى وقت ما . وعلى كل حال فانا نلاحظ من القرن الأول قبل الميلاد أن الرواقية أخذت تقرب من الأفلاطونية شيئا فشيئا . فأخذ الناس يقبلون من جديد على دراسة تيمايوس التى لأفلاطون وكان لتعليق پوزيدونيوس (حوالى ١٠٠ قبل الميلاد) عليها أثر كبير فى ترقى الفلسفة حتى آخر القرون الوسطى . فذلك هو عصر "الاختيار والتفضيل" الذى يتجلى لنا فى كتابات سيشرون الفلسفية وكان له شأن عظيم فى تاريخ الحضارة على أنه كان بعيدا كل البعد عن روح الفلسفة الاغريقية الصادقة فتلك كانت ميتة فى ذلك الوقت ولم تعد اليها الحياة الا فى القرن الثالث بعد الميلاد لما نشر بلوطينوس الأفلاطونية فى عاصمة الروم .

لم يأخذ مؤرخو الفلسفة الاغريقية فى نصفة الأفلاطونية الحديثة الا منذ عهد قريب . ويرجع ذلك الى اتجاهات الفلسفة العصرية وميولها التى أشرنا اليها فى مفتتح هذا الفصل كما يرجع الى الأبحاث التاريخية التى تمت فى فلسفة القرون الوسطى تلك التى اتضح تزايد اعتمادها على الأفلاطونية الحديثة لغاية نظام القديس توماس أكوناس بما فى ذلك هذا النظام نفسه . حقا لقد كان اختيار بلوطينوس تأسيس مدرسته فى رومية لا فى أثينا

أو الاسكندرية ، أكبر حقيقة فاصلة فى تاريخ الحضارة الغربيـة لأن غرب أوربا أصبح بذلك الوارث الحقيق للفلسفة الاغريقية لامراء فى أن كل امرئ يعرف أن بلوطينوس كان صوفيا ولكن هـذه اللفظة قد تجعل المرء يرى فيه آراء خاطئة لا تصدق عليه . فكثيرا ما قيل عنه انه رجل أدخل الآراء الشرقية فى الفلسفة الاغريقية وان عامة الناس تظنه مصريا وهذا بعيد الاحتمال اذ لو كان ذلك صحيحا لازداد الأمر غرابة فهو على الرغم من أنه قضى احدى عشرة سـنة يدرس فى الاسكندرية لم يذكر ديانة ايزيس التى كانت فاشـية فى روميـة فى أيامه والتى أخذت بلب رجل أغريقى عريق مثل پلوطرخس قبل ذلك بعدة أجيال . لاشك فى أن بلوطينوس كان يعتقد أن ما يدرسه هو الأفلاطونية الصحيحة وأنه قد أعد نفسه لذلك بتوافره على درس ارسطاطاليس وعنايته به و بمذهب الرواقيين ما دام ذلك يعينه على غرضه لا مراء فى أن بلوطينوس كان رجلا عظيما تمنعه عظمته بعـد أن يكون مرددا لصدى أفكار سواه . ولكن على الرغم من كل ذلك فانه كان الوارث الحقيق لأفلاطون ولنا أن نزيد فنقول أن المسيو روبان الذى أخذ على عاتقه اسـتخلاص فلسفة أفلاطون الحقيقية من كتب ارسطاطاليس — وذلك عمـل شاق — فانه قد توصل الى أن فى افلاطون "أفلاطونية محدثة" أكثر مما قد يظنه الناس .

كان بلوطينوس صـوفيا اذا ، ولكن ليس بذلك المعنى الذى يساء فهمه من هـذه الكلمة . انه وضع أمام تلاميذه طريقا للحياة توصـل مراحله الى أسمى أنواع الحياة كلها وهذا هو نفسه ما فعله فيثاغورس وأفلاطون من قبل ، فهو ليس الا استمرارا فى رواية يرجع الاغريق عهدها الى القرن السادس قبـل الميلاد

أى نحو ألف سنة قبل عصر بلوطينوس . ولقد كانت غايته نفس الغاية التى رمى اليها سالفوه وهى تحويل الأرواح الى ذلك الطريق ويختلف عن المفكرين أمثال الرواقيين والابيقوريين فى اعتقاده أن هذا الطريق الذى يدعوهم اليه يجب أن يكون أساســه مذهبا منظما فى الله والعالم والانسان فكانت النتيجة أن الانفصال الذى تم بين العــلم والفلسفة ذلك النظام الذى ظل قرونا قد زال ثانية . أجل إنا لا نستطيع أنـــ نقول ان بلاطينوس نفسه قد درس الرياضة دراســة خاصة ولكن لا يوجد ثمة ريب فى أن أتباعه قد فعلوا ذلك وانا لمدينون اليهم بكثرة ما نعرفه من الرياضة الاغريقية ولا سيما الى بروكلوس الذى كان المنظم لمــذهب بلوطينوس على الرغم من أنه كان يخــالفه فى بعض نقط معــلومة ومهما قلنا فلا نستطيع أن نغــالى فى تقدير ما كان له من التأثير فى الفلسفة التى ظهرت بعد وذلك التأثير تمكن رؤيته واضحا جليا حتى فى ديكارت الذى تأثر بها من عدة طرق قام بها الأستاذ جيلصن المشتغل بدراسة الفرنسية فى جامعة ستراسبورج فاذا ما تمت أبحــاثه تجلى استمرار الاتصال بين الفلسفتين الاغريقية والحــديثة وتبدى ما كانـــ لأفلاطون من الشأن العظيم فى تكوين العقل الأوربى الحــديث وعندئذ ندرك أكثر من ذى قبل الأســباب التى صيرت الفلسفة الاغريقية ذات شأن كبير دائم .

والحق أن تاريخ الفلسفة الاغريقية هو تاريخ ماضينا الروحانى، ومحال أن نفهم الحاضر منـــ دون أن نحسب للمــاضى حسابا ولا سيما الأفلاطونية فهى أساس الحضارة الغربية كلها . ففى رومية — كما أشرنا اليه سابقا — كان بلاطينوس يلقى دروسه ،

وفى بعض ما ترجم الى اللاتينية من كتب مدرستـه وجد القديس أوغسطين ما كان يبحث عنه من أساس للفلسفة المسيحية فالنفوذ الكبير الذى كان لهذا القديس فى الكنيسة اللاتينية هو الذى جعل الأفلاطونية فلسفتها الرسمية عدّة قرون، انه لخطأ كبير أن يظن ظان أن نفوذ ارسطاطاليس كان الغالب على القرون الوسطى المسيطر عليها فانه لم يعرف قط الا فى القرن الثالث عشر وحتى فى هـذا القرن نفسه فانه لم يكن يدرس الا على ضوء الأفلاطونية كما كان يدرسه بلاطينوس وأتباعه وأنه لم يحصل الا فى آخر القرون الوسطى على هـذا النفوذ وتلك السيادة التى كان لها أثر كبير فى القرون التى تلتهـا . وكذلك من الأفلاطونية نشأت علوم القرون الوسـطى الأولى فترجم كلسينديوس فى القرن الرابع جزءا كبيرا من كتاب تيمايوس الى اللاتينية وعلق عليه تعليقات محكمة كل الاحكام مستقاة من مصادر قديمـة . وكتاب تيمايوس هذا من تأليف أفلاطون . ولقد كان كتاب "عزاء الفلسفة" الذى كتبه الأفلاطونى الرومانى بوثيوس وهو فى سجنه سـنة ٥٢٥ أشهر كتاب فى القرون الوسطى وقد ترجمه الى الانجليزية الملك الفرد الكبير وتشوصر كما ترجم الى عدّة لغات أوربيـة أخرى . فعلى هـذه الأسس قامت الأفلاطونية الفرنسية فى القرن الثانى عشر ولا سيما أفلاطونية مدرسـة شارتر التى كان لهـا أثر كبير فى انجلترا و يكفى أن نذكر أسمـاء جرستسته وروجر باكون حتى يتبين المرء بسهولة أن ما قدّمه الكتّاب الانجليز الى العلم والفلسفة يمتاز بأمور يرجع أكثرها الى ذلك الأثر .

على أن الاهتمام بالفلسفة الاغريقية ليس مقصورا على الوجهة التاريخية وحدها بل هو حافل بتعاليم للمستقبل أيضا . لقد كانت الفلسفة منـذ أيام لوك ميالة الى الاقتصار على البحث فى طبيعة

المعرفة وتترك مسئلة طبيعة العالم للاخصائيين وأن تاريخ الفلسفة الاغريقية ليبين لنا الخطر الكامن فى انقسام دائرة الفكر هذا الانقسام غير الطبيعى . فكلما ازددنا لهذا التاريخ درسا ازددنا شعورا بالحاجة الى نظر أوسع وأشمل . ان "فلسفة الأشياء الانسانية" كما يقول الاغريق ليست الا جزءا من عدة أجزاء أخرى وما نظرية المعرفة الا جزءا من ذلك الجزء فاذا درست منعزلة عن الكل أصبحت لا شك ذات وجه واحد . كذلك يمكننا أن نعرف من الفلسفة الاغريقية خطر فصل التفكير عما فيه مصلحة الجنس البشرى فالفكرة القائلة بأن الفلسفة يمكن عزلها كانت فكرة لا يفهمها أحد من كبار مفكرى الاغريقية وبخاصة الأفلاطونيين الذين كثيرا ما اتهموا بهذه "الهرطقة" نفسها وفوق كل هذا تعلمنا الفلسفة الاغريقية الأهمية العظمى لما نسميه نحن الشخصية ويسمونه هم الروح . فادراك الاغريق لذلك جعل فكرة التحويل الاغريقية الصحيحة ذات شأن كبير فى تفكيرهم ومعيشتهم . فهذا قبل كل شيء هو الدرس الذى كان عليهم أن يعلموه وهذا هو السبب فى أن كتابات عظمائهم لا تزال قادرة على تحويل أرواح من يتلقى تعليمهم بالتواضع "

چ . برنت

الرياضة والفلك

لقد أحسن من قال : اننا اذا أردنا دراسة أى علم على الوجه الأكمل وجب أن ندرسه باعتباره حيا ناميا وأن ننظر فيه من وجهة نموّه فى ماضيه ولما كانت معظم القوى والحركات الحيوية ذات الأثر الفعال فى المدنيـة الحديثة نبتت فى اليونان فان دراستها على الوجه الأكمل تستلزم الرجوع الى عهـد اليونان وهـذا هو الحال أيضا بالنسبة لآداب اللغات عند البلاد الحديثـة ولفلسفتهم ولفنونهم فاننا لا نستطيع دراستها جميعا بقصد الوصول الى قرارتها دون أن يؤدّى بنا السير فى نهاية الأمر الى الطريق الموصل لليونان .

وعند ما نفكر فى مقدار الدين الذى على الانسانية لليونان نكون عرضة لأن نحصر دائرة تفكيرنا فى الدرر الغوالى التى خلفوها لنا فى الأدب والفن . وهذا خطأ لأن العبقرية اليونانية كانت متعدّدة النواحى وقد وجد اليونانى نفسه مندفعا بفطرته نحو دراسة العلوم البيعية والرياضية والمنطق والاستدلال الدقيق بوجه عام دفعه على ذلك ما جبل عليـه من حب فى العلم لا سبيل لاطفاء جذوته ومن رغبة صادقة فى رؤية الأشياء كاملة على حقيقتها وما يتأجج فى صدره من الشوق لأن يكون قادرا على ادراك تفسـير معقول لكل شيء فى السماء والأرض .

ننقل هنا عبارة وردت فى نقد ينم عن ذكاء مفرط لكاتب شهير وهى "كون الانسان يونانيا مرادف لكونه باحثا وراء الحقيقـة

ينبغى تعرّف اللباب الأساسى للمادة وتفقه معنى العدد ومعرفة الدنيا كوحدة جامعة معقولة . ويستطيع الانسان أن يقول وهو بعيد عن روح التناقض أو الالغاز بأن اقليدس كان أحسن نموذج لليونانى فقد كان يسعى ليعرف قوانين قياس الأرض معرفة عميقة وليعرفها كسلسلة معقولة . وأفلاطون أيضا كان مولعا بالهندسة وعجائب الأعداد وقد كان يونانيا لأنه كان رياضيا قبل كل شىء ......
واذا ما تبين الانسان بهذه الطريقة العبقرية اليونانية متجلية فى كتاب اقليدس وكتاب " بستريور أنا ليتيكس " فانه يفهم الشعار الذى كتب فوق الأكادمى لكى تدرك معنى العبقرية اليونانية يجب أن تبدأ بدراسة الهندسة والحقيقة أن الرياضة تلعب دورا مهما فى فلسفة اليونان فهناك مثلا قطع عدة فى أفلاطون وارسطاطاليس لابد من بعض العلم بالاصطلاح لكى تفهم الرياضى اليونانى . من أجل ذلك يجب أن يكون من معدّات كل طالب يدرس الأدب القديم أن يقرأ أجزاء ليست بالقليلة من كتب الرياضيين اليونانيين فى أصلها اليونانى فيقرأ مثلا بعض الأجزاء الأولى من كتاب اقليدس بحذافيرها والتعاريف على الأقل التى وردت فى بقية الأجزاء ويقرأ كذلك منتخبات لكتاب آخرين . وقد ضمن فون ولاموفتش مولندروف كتابه " المطالعة اليونانيـة " مقتطفات من اقليدس واركميدس وهيرن الاسكندرى ويجب أن يقتدى بهذا الكاتب فى هذه المملكة (انجلترا) وضرورة المام كل رياضى يستحق هذا النعت بالكتب الأصلية للرياضيين اليونانيين لا تقل عن ذلك فان الرياضة علم يونانى . أما فيما يتعلق بالهندسة النظرية البحتة فالمعدّات الفنية للرياضى تكاد تكون جميعها يونانية فقد وضع اليونان القواعد الأساسية وحددوا المصطلحات وكانوا أول من اخترع الطرق . وفوق

هذا فقد فعلوا كل ذلك بغاية التحقق بدليل أنه لم تظهر حاجة ما في كل تلك القرون التي توالت بعدهم لأن ينشأ من جديد أي جزء أساسي من تعاليمهم ومن باب أولى لم يدع الحال قط لأن يطرح بعضها لثبوت عدم صحته .

أنظر أولا الى المصطلحات الرياضية تجد أن كل الأسماء العامة الأساسية يونانية أو ترجمـة لاتينية لأصل يوناني ومع ان الرياضي قد يتعلم معنى تلك المصطلحات من غير أن يكون له المـام باللغة اليونانية الا أنه اذا تعلم تلك الكلمات كما تنشأ وكجزء من اللغة الحية التي استخدمها الرجال الذين وضعوا هذه المصطلحات فانه يكون ولا شك أقدر على ادراك مدلولاتها . خذ مثلا كلمة "isosceles" وترجمتها متساوي الساقين فمن الممكن إفهام التلميذ معنى المثلث المتساوي الساقين ولكنه اذا لم يعرف شيئا عن اشتقاقها حار في السبب الذي من أجله احتجنا لاستخدام كلمة ظاهرة الغرابة للتعبير عن فكرة بسيطة كهذه ولكن اذا عرف من مجرد شكل الكلمة أن معناها شيء له ساقان متساويان لتركبها من "isos" بمعنى متساوي و"Skelos" بمعنى ساق . عندئذ يفهم صلاحيتها ولا يصعب عليه تذكرها (أما كلمة "Equilateral" فمأخوذة من اللاتيني ولكنها مجرد ترجمة للأصل اليوناني ومعناه متساوي الأضلاع . كذلك يمكن تفسير كلمة "Parallelogram" لمن لا يفهم اليونانية ولكنها تكون أسهل في الفهم على من يرى فيها الكلمتين اليونانيتين اللتين يتكون منهما ويدرك أنها طريقة مختصرة للتعبير عن أن الشكل المشار اليه محصور بين خطوط متوازية . وكلمة "Parallel" نفسها تكون أوضح لنا اذا عرفنا أن الخطين الموصوفين بها يسيران جنبا لجنب دائما . كذلك يجب أن يعرف الرياضي أن المعين سمى "Rhombus"

لما بينه و بين نوع من النحل الدوّار من الشبه وكما أن متوازى الأضلاع شكل مكوّن من خطين مستقيمين متوازيين فالمتوازى المستطيلات " Parallelepiped " جسم محدود بثلاثة أزواج من المستويات المتوازية و بهذه المناسبة نقول ان المتعلم بهذه الكيفية يسلم من الوقوع فى الخطأ الفاحش الذى يشوّه عددا ليس بالقليل من الكتب الدراسية الهندسية وهو كتابة "Parallelopiped" بحرف O واليك مثلا جيدا آخر وهو كلمة "Hypotenuse" فهى مشتقة من فعل بمعنى يمتد تحت شيء فاذا اعتبرناه لاتينيا فيكون معناه "subtend" وهى لفظة تستخدم بوجه عام للدلالة على "المقابلة" وكلمة الوتر (hypotenuse) أى وتر الزاوية القائمة مقصورة فى استعمالنا نحن على الدلالة على الضلع المقابل للزاوية القائمة فى المثلث القائم الزاوية . وهو اختصار للعبارة المستخدمة فى بند ٤٧ بالجزء الأول من كتاب اقليدس ومعناها الضلع المقابل للزاوية القائمة وهذا يفسر التأنيث فى "hypotenuse" ولو أن الرياضيين لقنوا من اللغة اليونانية قدرا أكبر من الذى عرفوه لما ظل الخطأ فى الهجاء فى كتابة كلمة "hpothene" هكذا شائعا هذه المدة الطويلة .

لنأخذ مثلا خارجا عن المبادئ كيف يتسنى للرياضى أن يفهم على الوجه الصائب لفظة "Latus rectum" المستخدمة فى القطاعات المخروطية اذا لم يكن رآها فى "أبولونيوس" على أنها الجنب والضلع القائم فى مستطيل خاص فى حالة كل من القطاعات المخروطية الثلاثة(١)

(١) فى حالة القطع المكافئ تكون قاعدة المستطيل (وهى خلاف الضلع القائم) هى ما يسمى بالاحداثى الأفقى المقابل للاحداثى الرأسى ومساحة المستطيل نفسه تساوى مربع الاحداثى الرأسى . أما فى حالة القطاعات المخروطية ذات المركز فقاعدة المستطيل هى الضلع المستعرض للشكل أو القطر المستعرض (القطر اليه) ومساحة المستطيل تساوى مساحة المربع المنشأ على القطر المرافق للقطر الذى نسب اليه .

ثم ان كلمة احداثى رأسى تكاد لاتفيد شيئا لمن لايعرف أنها ماوصفه أبولونيوس بالخط المستقيم المرسوم (من نقطة على المنحنى) النازل الى أسفل بكيفية موضوعة من قبل أو مقدرة كذلك كلمة "asymptote" مأخوذة من كلمة يونانية بمعنى غير المتقاطعة وكان لها عند اليونان مداول أعم زيادة على مداولها الذى نحصره الآن فى دائرة ضيقة وقد استخدمت فى بعض الأحايين للدلالة على الخطوط المتوازية لأنها هى أيضا لا تتقابل واذا تناولنا أى كتاب مدرسى هندسى مؤلف طبقا لأحدث القواعد التى وضعتها ادارة التعليم أو التى وردت فى برنامج الجامعات وجدنا أن الألفاظ المستخدمة (الا فى الكتب التى قصد منها أن تكون أقرب الى اللغة المتداولة وأبعد من اللغة العلمية) تكاد تكون يونانية صرفة وقد كانت صلاحية اللسان اليونانى لنقل الأفكار العلمية مدهشة وكانت الدقة الباهرة من مميزات لغة اقليدس وكان بركليس أحد مفسريه وشراحه مشغوفا جدا بالتنويه بتلك الدقة العجيبة وتأكيدها . كانت لغة علماء الهندسة اليونانيين على جانب عظيم من الايجاز والافادة برغم الظواهر التى تشير الى عكس ذلك ومما ينعاه الكثيرون على اقليدس "أنه مسهب" ومع ذلك نجد فى الكتب الهندسية الابتدائية الحديثة (بصرف النظر عن الاختصارات الكتابية) أن بسط المادة المناظرة لمادة اقليدس يشغل عادة حيزا لا يقل بل يزيد عن نظيره فى هذا الكتاب الأخير. واذا أغضينا الطرف عن براعة المقطع فى رسائل أرشميدس فانا نجد فى هيرن وبطليموس وپاپوس نماذج قيمة للتعبيرات المختصرة المفيدة. والبرهان الهندسى البحت الذى أورده هيرن لقانون مساحة المثلث $\Delta = \sqrt{ع (ع - ا) (ع - ب) (ع - حـ)}$ والنظريات

الهندسية فى الكتاب الأول (Ptolomy's Syntaxis) بما فيها نظرية بطليموس هى حالات تشرح ما نحن بصدده .

وقواعد الهندسة والحساب (بمعنى نظرية الأعداد) مذكورة ضمن المادة التمهيدية فى الجزأين الأول والسابع من كتاب اقليدس ولم يكن بمستكشفها فانها نشأت بالتدريج من عهد فيثاغورس وكان ارسطاطاليس يفهم طبيعتها وترتيبها فهما واضحا فهو يقول ان كل واحد من العلوم التى تقبل التوضيح عمليا يتضمن ثلاثة أمور : المادة والأشياء التى وردت لها براهين والأشياء التى عندها تبدأ البراهين وليس فى مقدور الانسان أن يبرهن على كل شىء والا أصبحت سلسلة البراهين لا نهاية لها فيجب أن تبدأ برهانك فى نقطة معينة ثم تأخذ بأمور معترف بها ولكنها غير قابلة للايضاح عمليا وهذه الأمور هى :

(أولا) القواعد العامة التى تشترك فيها كل العلوم وهى التى تسمى بالبديهيات أو الآراء العامة ومثالها أن " أحد الرأيين المتناقضين يجب أن يكون صحيحا " أو أنه " اذا طرحت أشياء متساوية من أخرى متساوية كانت البواقى متساوية أيضا " .

(ثانيا) القواعد التى تمتاز بها مادة العلم الخاص الذى هو موضوع البحث كالهندسة مثلا وفى مقدمة هذه القواعد الأخيرة التعاريف فلا بد أن يكون هناك اتفاق على مدلولات ألفاظ اصطلاحية معينة على أن التعريف لا يقرر شيئا بخصوص وجود الشىء المعرف أو عدمه .

ولا بد من التدليل على وجود مختلف الأشياء المعرفة ويستثنى من ذلك فى كل علم من العلوم بعض أشياء قليلة أو مبدئية يستحيل

التدليل على وجودها ولا مناص من افتراض هذا الوجود ضمن القواعد الأساسية للعلم . فلا بد مثلا من افتراض وجود النقط والخطوط فى الهندسة والوحدة فى الحساب وأخيرا علينا أن نفترض وجود أشياء أخرى محدودة هى أقل وضوحا من الأشياء السابقة ولا يمكن للانسان أن يبرهن عليها ومع ذلك لا مناص له من التسليم بصحتها وهذه الأشياء سميت بالفروض لما تطلبه فى المتعلم من استعداد للاعتقاد فيها باخلاص وفروض اقليدس من هذا النوع ولاسيما الفرض المعرف بفرض التوازى .

ولا شك فى أن طرق حل المسائل كانت تطبق أولا على حالات خاصة ثم تنظم وترتب بالتدريج وربما جاء وضع الأسماء الاصطلاحية الفنية لهذه الطرق متأخرا أى بعد أن توطدت دعائم الطرق نفسها .

وكانت احدى طرق الحل هذه عبارة عن تحويل مسألة الى أخرى وكانت تسمى باسم يظهر أن ارسطاطاليس أول من استخدمه ولو مثل هذا التحويل حدث قبله بزمن طويل فقد حول هيولرانيس ايبقراط الطشيوزى مسألة مضاعفة المكعب الى مسألة ايجاد الوسط المتناسب فى التناسب المتسلسل بين خطين مستقيمين أى أن ايبقراط بين أنه لو أمكن حل هذه المسألة الأخيرة فان الأولى تحل كذلك تبعا لها ومن المحتمل أنه كانت هناك أمثلة أخرى أقدم من هذه واردة فى الهندسة الفيثاغورية .

يأتى بعد ذلك طريق التحليل الرياضى الذى قيل ان أفلاطون كتب عنه الى ليودامس الثاسوسى أو فسره له ولكن التحليل بمعناه الرياضى كالتحويل (الذى يقرب منه كثيرا) لا بد أنه كان مستخدما قبل هذا العهد بزمن طويل وقد عرف پاپوس التحليل والتركيب

المتصل به فقال : فى التحليل نفرض وجود ما نبحث عنه ثم نتساءل عما يصح أن ينتج هذا عنه ونبحث بعد ذلك عن السبب الذى نشأ عنه هذا الشيء الجديد وهكذا نتراجع الى الوراء خطوة خطوة حتى يصل بنا هذا التراجع الى شيء معروف من قبل أو معدود من طبقة القواعد الأساسية . أما فى التركيب فانا نعكس العملية فنبدأ بهذا الذى وصلنا اليه فى نهاية العملية السابقة ونرتب تلك النتائج التى كانت فيما سبق مقدمات حسب ترتيبها الطبيعى ونربط كل واحدة منها بالتى تليها حتى نصل فى النهاية الى انشاء ما كنا نبحث عنه .

أما طريقة الاحالة الى المستحيل التفنيد فضرب من التحليل نبدأ فيه بفرض صحة عكس الذى نريد البرهنة عليه ونستخدم طريقة التحليل نفسها ونتدرج بها الى الوراء حتى نصل الى شيء معترف بخطأه أو مقطوع باستحالته . يصف ارسطاليس هذه الطريقة بطرق مختلفة فيقول انها الاحالة الى المستحيل أو البرهنة بالمستحيل أو البرهان الموصل للمستحيل ولكن فى هذه الحالة أيضا لم تكن الطريقة بالمستحدثة ولو أن اسمها كان جديدا ومن أمثلتها القديمة متناقضات زينون .

وفى النهاية نقول ان اليونان أسسوا طريقة العرض التى لا تزال سائدة على المباحث الهندسية لأنها من املاء المنطق الدقيق وتراها متبعة فى نظريات اقليدس بأقسامها الشكلية المتعددة ، تلك الأقسام التى وضعت لها فيما بعد الأسماء المميزة الآتية :

(١) منطوق النظرية ،

(٢) التوضيح بالرسم ،

(٣) اعادة ذكر المطلوب وهو ما يراد عمله أو اثباته لا بألفاظ عامة (كما فى منطوق النظرية) ولكن بالاشارة الى الفروض الخاصة التى يحتويها الرسم ،

(٤) العمل ،

(٥) البرهـان ،

(٦) النتيجة ،

وكثيرا ما يحدث فى حالة المسائل أن حل التمـارين لا يكون ممكنا الا اذا حققت فروضها الخاصة شرطا معينا وفى هذه الحالة ينتفى عنصر آخر من النظرية وهو ذكر الشروط أو الحـدود الضرورية لامكان الحـل وهـذا العنصر سمى بنفس الاسم الذى أطلق على العنصر الثالث للنظرية ومعناه التعريف أو التحديد .

وقد حاولنا الى الآن أن نبين بوجه عام الصفة القاطعة والقيمة الباقيـة للعمل الذى قام به أولئك الذى خلقوا علم الرياضة وبقى علينا أن نلخص بأقصى ما يمكن تاريخ الرياضة اليونانية تبعا للعصور والموضوعات .

أخذ اليونان بالطبع كل ما استطاعوا أخذه من الحقائق الأولية فى الهندسة والفلك عن المصريين والبابليين ولكن حتى فى هـذه الاستعارات وأمثالها عن الأمم الأخرى تتجلى بعض المميزات الخاصة بالعبقرية اليونانية فيظهر فيها كما يظهر فى كل موضع آخر استقامة قصدهم وتركيز فكرهم فقد كانوا دائمـا على علم واضح بمـا هم فى حاجة اليه وكانت لهم غريزة لا تخطئ تلهمهم انتقاء ما هو جدير بأن يؤخذ ويضربون صفحا عما سواه . توضح لنا هذه الصفة فيهم قصة أسفار

فيثاغورس الذى عاشر قسيسين وأنبياء وتعلم منهم مبادئ الشعائر الدينية التى تقام فى مختلف الجهات تعلمها لا عن تحمس دينى (كما قد يتبادر الى ذهنك) هكذا يقول الراوى — ولكن عن رغبة فى ألا يفوته تحصيل أى جزء جدير بالتحصيل من العلم الذى قد يكون مخبئا فى العبادة الدينية. وهذه الحكاية توضح أيضا ميزة مهمة لليونان على المصريين والبابليين ففى هاتين الدولتين كانت العلوم — شأنها فى ذلك العهد — احتكارا للقسس وحيث يكون الحال كذلك قد تصبح أولى الخطوات العلمية هى الخطوة الأخيرة أيضا لأن النتائج العلمية التى يتوصل اليها يغلب عليها أن تندمج فى الأوامر الدينية ورسومها المرعية اليومية ولذلك تصير فى نهاية الأمر مجموعة من القواعد التى لا روح فيها. أما اليونان فلم يكن عندهم لحسن الحظ قسوسة منظمة وقد أعانهم عدم التقيد بالأوامر والقواعد التقليدية أو الخرافات على أن يطلقوا العنان لقواهم الفكرية فاستطاعوا بذلك أن يخلقوا العلوم الطبيعية كما يخلق الكائن الحى صالحا لأن يرتقى لغير حد .

تبدأ الهندسة اليونانية كما يبدأ الفلك اليونانى بجهود طاليس حوالى (٦٢٤ — ٥٤٧ قبل الميلاد) الذى ساح فى مصر وقيل انه جاء منها بالهندسة والهندسة التى كانت بمصر عندئذ هندسة نشأت عن الحاجيات التى تعرض للناس فى حياتهم العملية . فالخراج كان يجبى من العوائد التى تفرض على الثروة الطينية وكان تقديرهذه يتوقف على تعيين حدود مضبوطة لمختلف الممتلكات (التكليف) كان كلما طغى الفيضان الدورى فأزال معالم هذه الحدود وجب ابدالها بغيرها أو تعيين المساحات التى تفرض عليها العوائد بقطع النظر عن تلك الحدود التى انطمست معالمها وهذا كله يحتاج

الى فن مسح الأراضى وانا نستنتج من ورقة البردى رند (حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد) وغيرها من الوثائق أن الجزء الأساسى من الهندسة المصرية كان عبارة عن قواعد عملية لمعرفة المقاييس الآتية بنوع من الدقة :

(١) بعض المساحات كمساحات المربعات والمثلثات وأشباه المنحرف والدوائر .

(٢) أحجام المواد الصلبة التى تحتويها مكاييل القمح وغيره على اختلاف أشكالها . كذلك أنشأ المصريون أهراما ذوات انحدارات معينـة قدروها بواسطة عمليات حسابية مبينة على نسبة خاصـة هى نسـبة نصف ضلع القـاعدة الى الارتفاع وهـذا يعادل فى الواقع ظل تمـام زاوية الميل . وينم استـعمال المصريين هذه النســبة على وجود فكرة لديهم عن تشابه الأشكال ولا سيما المثلثات وكان المصريون يعرفون أيضا أن المثلث يكون قائم الزاوية اذا كانت النسبة بين أضلاعه الثلاث تسـاوى ٣ الى ٤ الى ٥ و يستخدمون هذه الحقيقة كطريقة لرسم الزوايا القائمة ولكن ليس لدينا ما يشير الى أنهم كانوا يعرفون الخاصة العامة للمثلث القائم الزاوية (راجع بند ٤٧ من الجزء الأول لاقليدس) التى تضم فى ثناياها الخاصة السابقة كحالة خصوصية . أو ما يشير الى أنهم أتوا ببرهان لأية نظرية عامة فى الهندسة .

لاشك فى أن طاليس كان يرى وهو بمصر أشكالا ترسم لتوضيح قواعد قياس الدوائر والأشكال المستوية الأخرى وأن رؤيته لهذه الأشكال كانت تبصره ببعض تشابهات وتطابقات هندسية تحمله على التفكير فيما اذا كانت هنـاك قواعد أولية عامة ينطوى عليها

انشاء تلك الأشكال المختلفة وأجزائها وعلاقتها بعضها ببعض وهذا أمر يتفق مع الغريزة اليونانية التى طبعت على التعميم ومع ما كان عند اليونان من رغبة فى أن يصيروا قادرين على تفسير كل شيء على أساسات معقولة .

والنظريات الآتية منسوبة الى طاليس :

(١) الدائرة ينصفها القطر (انظرتعريف ١٧ بالجزء الأول من اقليدس)

(٢) زاويتـا القاعدة فى المثلث المتساوى الساقين متساويتان (اقليدس ١ — ٥) .

(٣) اذا تقاطع مستقيمان فالزاويتان المتقابلتان بالرأس متساويتان (اقليدس ١ — ١٥) .

(٤) اذا تساوى فى مثلثين ضلع وزاويتان على التناظر تساوى المثلثان من جميع الوجوه (اقليدس ١٠ — ٢٦) .

(٥) يقال إنه كان أول من رسم مثلثا قائم الزاوية داخل دائرة وهــذا يدل على أنه أول من استكشف أن الزاوية المرســومة على نصف الدائرة تكون قائمة (انظر ٣١ بالجزء الثالث من اقليدس) .

وهذه الأشياء الأوّلية تشير على بساطتها الى تطوّر جديد عظيم الأثر فانها تمثل الخطوات الأولى فى سبيل تكوين هندسة نظرية ولا شيء أبلغ فى هذا الموضوع من أن ننقل بالحرف بعض ملاحظات وردت فى مقدّمة "كانت" الطبعة الثانيــة من كتابه "نقد للتفكير النظرى" قال : لقد سارت الرياضة فى طريق العلم المأمون من أقدم الأزمان التى يصل اليهـا تاريخ التفكير عند

الانسـان على يد الاغريق ذلك الشعب العجيب . ولكن يجب ألا نظن أن العثور على هذا الطريق (السلطانى) أو بالأصح شقه كان ميسرا للرياضة تيسره للمنطق حيث لا يعنى التفكير الا بذات التفكير مجردا عما سواه بل انى أعتقد بالعكس أنه فى حالة الرياضة قد ظل الحـال زمنا طويلا وهو لا يعدو أن يكون تلمسا وكان المصريون على وجه خاص لا يزالون فى تلك المرحلة كما أعتقـد أن هذا التحوّل يجب أن يعزى الى ثورة سببها ذلك الالهام السعيد الذى حمل رجلا من الناس على أن يقوم باجراء تجربة ومنذ ذلك الحين صار طريق العلوم الذى يجب أن يسار فيه واضحا لا يضل عنه أحد وهكذا عثر على الطريق الأمين للعلوم واختط لجميع الأزمان وللمسافات لانهائية . نور تجلى على أول رجل وضح للناس خاصـة المثلثات المتساوية الساقين (سواء سميته طاليس أو أى اسم آخر تريده) .

كذلك حل طاليس مسألتين عمليتين :

(١) فأبان كيفية قياس بعد السفينة فى البحر .

(٢) وأوجد ارتفاعات الأهرام بواسطة مقارنة أطوال ظلالها بظل عصا معلومة الطول فى برهة واحدة . وقال بعضهم انه اختار الوقت الذى يتساوى فيه طول العصا بطول ظلها ولكنه على أى حال كان يحاج بتشابه المثلثات .

أما فى الفلك فقـد تنبأ طاليس بكسوف شمسى ولعـله كان الكسوف الذى حدث فى (٢٨ مايو سنة ٥٨٥ قبل الميلاد) ومعلوم أن البابليين بعد أن قاموا بأرصاد متوالية فى بحر عدّة قرون استكشفوا أن الزمن الذى بعده تتكرر الانكسافات هو ٢٢٣ دورة قمرية فمن المحتمل القريب أن يكون طاليس قد سمع بهـذا الزمن و بنى عليه

نبوءته . وقيل أيضا انه استعان بالدب الأصغر فى العثور على القطب وأنه استكشف اختلاف مدد الفصول الأربعة الفلكية وأنه كتب مؤلفات عن الاعتدال والانقلاب .

أتى الفيثاغوريون بعد طاليس ويقول عنهم ارسطاطاليس انهم نصبوا أنفسهم لدراسة الرياضة فكانوا أول من سار بها الى الأمام وذهبوا فى الاكبار من شأنهـا الى حد أن قالوا بأن القواعد التى تسير عليهـا الكائنات جميعها منطوية تحت القواعد الرياضية . أما عن فيثاغورس نفسه فقد روى لنا أنه كان يعلق أهمية عظمى على دراسة الحساب وتقدم بهذه الدراسة وخرج بها عن دائرة النفعية العملية وأنه أيضا حوّل دراسة الهندسة الى أن صيرها بمثابة تعليم عام واختبر قواعد هذا العلم من البداية .

والكلمة اليونانية نفسها التى تفيد" مواد التعليم" بوجه عام كان فيثاغورس أول من أطلقها على الرياضة .

وعندما نقول بأن علم الحساب بدأ بفيثاغورس يجب أن نفرق بين استخدام هذه الكلمة فى ذلك الوقت واستخدامها فى الوقت الحاضر فاليونان كانوا يفرقون بين لفظة (ارتماطيق) ولفظة (اللغياطيق) وهى علم اجراء العمليات الحسابية . وهذه الكلمة الأخيرة هى التى يصح أن تنصرف الى علم الحساب كما نفهمه نحن . أما لفظة (ارتمـاطيق) فكانت مقصورة على علم الأعداد قائمة بذاتها أو ما نعبر عنه نحن الآن بنظرية الأعداد ويمكن التعبير عن هـذا الفرق بطريق آخر فنقول ان (الارتمـاطيق) يبحث فى الأعداد المطلقـة أو الأعداد مجردة عن أى معنى آخر . أما (اللغياطيق) فيبحث فى أشياء معـدودة أو بعبارة أخرى فى الأعداد المحسوسة بعـد

تخصيصها . وعلى ذلك يشمل (اللغياطيق) مسائل بسيطة عن عدد من التفاح أو عدد من القصع أو عدد من الأشياء بوجه عام كالتى توجد فى المختارات اليونانية وهى تحوى فى بعض الأحايين معادلات جبرية بسيطة .

فنظرية الأعداد اذا بدأها فيثاغورس حوالى (٥٧٢ — ٤٩٧ قبل الميلاد) وكانت تشتمل على تعريفى الوحدة والعدد وتقسيم الأنواع المختلفة من الأعداد وتعريفها كالفردى والزوجى والأولى والمركب والتقسيمات الفرعيـة لكل من هـذه مثل الفردى — الزوجى والزوجى — مكرر الزوجى الخ . وهناك أيضا أعداد شكلية وهى الأعداد المثلثية والمربعة والمستطيلة والمضلعة "مضلعات خماسية وسداسية الخ" . وهذه الأعداد تقابل تلك الأشكال المستوية المناظرة لها . وهناك الأعداد الهرميـة والمكعبية والمتوازية السطحية وما اليها التى تناظر المجسمات الهندسية . وكانت أغلب المباحث فى هذا الصدد هندسية تمثل الأعداد فيها نقط تملأ أشكالا هندسية على أنواع مختلفة وقد قررت القواعد التى تتكوّن تبعا لها تلك الأعداد الشكلية المختلفة . وفى هذه المباحث لعب النومون دورا مهما وكان معنى هذا اللفظ فى الأصل الابرة القائمـة فى الساعة الشمسية ثم استـخدم للدلالة على شكل يشـبه مربع النجار ثم أطلق اللفظ بعـد ذلك على شكل يشـبه الفائت يوضع حول ضلعين من أضـلاع المربع فيكون مربعا آخر أكبر من الأول والاستعمال الحسابى لذلك اللفظ شبيه بهذا . فاذا مثلنا الوحدة بنقطة واحدة ووضعنا حول هذه النقطة ثلاث نقط بحيث تكون الأربع النقط معا أركان مربع فيكون العدد ٣ هو النومون الأول واذا وضعنا بعد ذلك خمس نقط على أبعـاد متساوية حول ضلعين متجاورين من أضلاع المربع الذى يحتوى

الأربع النقط الأصلية فانه يتكوّن منها جميعا المربع التالى ($٣^{٢}$)
ويكون العدد ٥ هو النومون الثانى وعلى العموم اذا كانت لدينا
نقط عددها $ن^{٢}$ مرتبة بحيث تملأ مربعا ضلعه ن فالنومون
الذى لا بد من وضعه حول هذا المربع لكى يتكوّن المربع التالى
$(ن + ١)^{٢}$ يحتوى (٢ ن + ١) من النقط . ولذلك عند
تكوين المربعات تكون النومونات المتتابعة سلسلة من الأعداد
الفردية التى تلى الواحد الصحيح أول مربع وهى ٣ ، ٥ ، ٧ ......
وفى تكوين الأعداد المستطيلة أى الأعداد التى فى شكل ن (ن + ١) أى
التى أولها ١ × ٢ تكون نوموناتها المتتابعة الحدود التى تلى العدد ٢
فى متسلسلة الأعداد الزوجية ٢ ، ٤ ، ٦ ، ...... أما الأعداد
المثلثية فتتكوّن باضافة الحدود التى تلى الواحد الصحيح فى متسلسلة
الأعداد الطبيعية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ...... الى الواحد الصحيح
(وهو أول مثلث) فالأعداد الطبيعية اذا (بالقياس) نومونات
المثلثات . أما نومونات المخمسات فهى الحدود التى تلى الواحد
فى المتوالية العددية ١ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ ... التى أساسها ٣ أو (٥ — ٢)
وهكذا . فأساس متوالية النومونات المتتابعة لعدد ينتمى الى مضلع
ألفى (أى تحتوى على ألف من الأضلاع) هو (ا — ٢) .

ومن متسلسلة النومونات للمربعات نستطيع أن نستنبط
بسهولة قانونا لايجاد الأعداد المربعة (المربعات الكاملة) التى يكون
كل منها فى ذاته مجموع مربعين فانه لما كان النومون ٢ ن + ١
هو الفرق بين مربعين متتاليين $ن^{٢}$ ، $(ن + ١)^{٢}$ فما علينا
إلا أن نجعل ٢ ن + ١ مربعا كاملا . ولنفرض أنها صارت
$= م^{٢}$ فتكون عندئذ $ن = \frac{١}{٢}(م^{٢} - ١)$ ، $\{\frac{١}{٢}(م^{٢} - ١)\}^{٢}$
$+ م^{٢} = \{\frac{١}{٢}(م^{٢} + ١)\}^{٢}$ بفرض أن م أى عدد فردى
وهذا هو القانون الذى ينسبونه بالفعل الى فيثاغورس .

وقيل ان فيثاغورس كشف نظرية المتناسبات أو التناسب وكانت هذه نظرية عددية ولذلك لا تنطبق الا على المقادير القابلة للقياس. ولا شك فى أنها كانت على نمط ما ورد فى الجزء السابع لاقليدس وترتبط بنظرية التناسب هذه نظرية المتوسطات التى كان يعرف منها فيثاغورس ثلاثة هى : المتوسط الحسابى والمتوسط الهندسى والمتوسط الشبه العكسى (الذى سمى فيما بعد بالتوافق) ونخص بالذكر ما روى من أن فيثاغورس نقـل التناسب "التام الكامل" من بابل الى اليونان وهو :

$$\text{ا} : \frac{\text{ا}+\text{ب}}{٢} = \frac{٢\,\text{اب}}{\text{ا}+\text{ب}} : \text{ب}$$

الذى حدّاه الثانى والثالث هما المتوسط الحسابى والمتوسـط التوافق على التنـاظر للعددين ا ، ب وهاك حالة خاصة ١٢ : ٩ = ٨ : ٦ .

ولهذا علاقة بمـا قد يعد أعظم اكتشاف لفيثاغورس وهو أن الفترات الموسيقية مناظرة لنسب حسابية خاصة بين أطوال الوتر عنـد ما يكون مقدار الشـد فى الوتر واحدا فالجـواب الموسيقى يقابل النسبة ٢ : ١ والخامس يقابل ٣ : ٢ والرابع ٤ : ٣ ولمـا كانت هذه هى نفس النسب التى بين العدد ١٢ والأعداد الثلاثة ٦ ، ٨ ، ٩ على التناظر فانا نستطيع أن نفهم الآن كيف تطوّرت التسمية وأطلق على الحـد الثالث فى ذلك التناسب السابق وهو العدد ٨ اسم الوسط التوافق بين العددين ١٢ ، ٦

وهذا الحساب الفيثاغورى بجملته مع ما طرأ عليه من تطوّر بعد عهد فيثاغورس وصل الينا معظمه من طريق كتاب نيقوماخس "مقدّمة فى الارثمـاطيق" وتعليقات ايامبليخس على هذا الكتاب

ومؤلف ثيون الأزمـيرى والأشياء التى تستحق الاهتمام فى هـذه الكتب هى الآتية :

(أولهـا) وصف العـدد الكامل (وهو الذى يساوى مجموع كل أجزائه وهى جميع الأعداد الصحيحة التى تقسمه ويدخل فيها الواحد الصحيح ولكن يستثنى منها العـدد نفسه) مع ذكر خاصة تلك الأعداد التى تنص على أنها جميعا تنتهى بأحد العددين ٦ أو ٨ وكانت أربعة من هذه الأعداد وهى ٦ ، ٢٨ ، ٤٩٦ ، ٨١٢٨ معلومة لنيقوماخس وقد عثر على أول ذكر لقانون تكوين هـذه الأعداد فى ٦٣ بالجزء التاسع من اقليدس الذى برهن فيه على أنه اذا كان م ن وهو مجموع حدود عددها ن من المتوالية ١ ، ٢ ، $٢^٢$ ، $٢^٣$ ، . . . عددا أصم فالعدد م ن × $٢^{ن-١}$ عدد كامل .

(ثانيا) يذكر ثيون الأزميرى قانون تكوين متسلسلة الأعداد "الجانبية" و"القطرية" التى تحقق المعادلتين ٢ $س^٢$ — $ص^٢$ = ± ١ وهـذا القـانون مبنى على النظرية التى برهنها اقليدس فى ١٠ بالجزء الثانى من كتابه للدلالة على أن $(٢ س + ص)^٢$ — ٢ $(س + ص)^٢$ = ٢ $س^٢$ — $ص^٢$ ومنـه ينتج أنه اذا حققت س ، ص احدى المعادلتين السالفتين فان المقدارين (٢ س + ص) ، (س + ص) يكونان حلا بأعداد أكبر للمعادلة الأخرى والحلول المتتابعة تعطى للنسبة $\frac{س}{ص}$ القيم

$$\frac{١}{١} ، \frac{٣}{٢} ، \frac{٧}{٥} ، \frac{١٧}{١٢} ، \frac{٤١}{٢٩} ، . . . .$$

وهى تقريبات متتابعة لقيمة $\sqrt{٢}$ (نسبة قطر المربع الى ضلعه) والمناسبة التى عرفت بها هذه الطريقة لتقريب $\sqrt{٢}$ (وهى طريقة يمكن التوسع فيها كما تشاء) كانت اكتشاف الفيثاغوريين لأن هذا المقدار ($\sqrt{٢}$) غير قابل للقياس أو غير جذرى .

(ثالثا) يذكر ايامبليكس اكتشافا قام به تيماريداس وهو من أتباع فيثاغورس فى زمن لا يتعدى زمن أفلاطون ويسمى هـذا الاكتشاف زهرة تيماريداس وهو بمثابة حل لأى عدد من المعادلات الآنية التى على الصورة الآتية :

$$\text{س} + \text{س}_{1} + \text{س}_{2} + \cdots\cdots + \text{س}_{\text{ن}-1} = \text{م}$$

$$\text{س} + \text{س}_{1} = \text{ا}_{1}$$

$$\text{س} + \text{س}_{2} = \text{ا}_{2}$$

$$\text{س} + \text{س}_{\text{ن}-1} = \text{ا}_{\text{ن}-1}$$

وحلها هو $\text{س} = \dfrac{(\text{ا}_{1} + \text{ا}_{2} + \cdots + \text{ا}_{\text{ن}-1}) - \text{م}}{\text{ن} - 2}$

وقد ذكرت القاعدة فى صيغة عامة ولكن التعبير عنهـا على الصورة السابقة يدل على أنها جزء من الجبر البحت بل ان ما أضافه الفيثاغوريون للهندسة أعجب . وأشهر نظرية تعزى الى فيثاغورس نفسه هى بالطبع النظرية المـذكورة فى بند ٤٧ من الجزء الأول من كتابه وهى أن المربع المنشأ على الوتر فى أى مثلث قائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ولكن بروكلس نسب اليـه أيضا علاوة على نظرية المتناسـبات انشاء الأشكال الكونية وهى الخمسة المجسمات المنتظمة .

ولأحد المجسمات المـذكورة وهو ذو الاثنى عشر وجهـا ١٢ وجها كل منها مخمس منتظم وانشاء هذا المخمس المنتظم يتضمن تقسيم مستقيم "بنسبة الطرف والوسط" (راجع ١١ بالجزء الثانى و ٣٠ بالجزء السادس من كتاب اقليدس) وهى حالة خاصة من الطريقة المعروفة "بتطبيق المساحات" وهذه طريقة بسطها فيثاغورس بتفصيل أوفى

وظهر أنها من أقوى الطرق وأفعلها فى الهندسة اليونانية . وأبسط حالة لها مذكورة فى ٤٤ ، ٤٥ بالجزء الأول من اقليدس وفيها يتبين كيف يتسنى لنا أن نرسم أو نطبق على الخط المستقيم باعتباره قاعدة "متوازى" أضلاع احدى زواياه تساوى زاوية معلومة ومساحته تساوى مساحة شكل مستقيم الأضلاع معلوم وهذا الانشاء هو العملية الهندسية المناظرة لعملية القسمة الحسابية . والحالة العامة هى التى يتجاوز فيها متوازى الأضلاع هذا المستقيم ولو أنه مرسوم عليه أو يقصر عنه بحيث يكون الجزء الزائد أو الناقص من متوازى الأضلاع عن متوازى أضلاع آخر قاعدته المستقيم المعلوم بالضبط وزاويته وعرضه يساويان نظيريهما فى المتوازى الأضلاع الأول بحيث يكون هذا الجزء الزائد أو الناقص مشابها لمتوازى أضلاع معلوم (راجع ٢٨ ، ٢٩ من الجزء السادس لاقليدس) . وهذه العملية السابقة هى المكافئ الهندسى للعملية الجبرية فى حل أعم شكل لمعادلة الدرجة الثانية وهى ا س ± م س^{٢} = حـ بفرض أن الجذرين حقيقيان وقد بسط أيضا شرط توافر كون الجذرين حقيقيين (انظر ٢٧ من الجزء السادس) .

وعلى هذه الصورة صورة "تطبيق المساحات" حصل أبولونيس على الخاصة الأساسية لكل من القطاعات المخروطية . ومن المصطلحات الفنية المستخدمة فى تطبيق المساحات أخذ أبولونيس كما سنرى فيما بعد الأسماء الثلاثة : القطع المكافئ والقطع الزائد والقطع الناقص التى كان هو أول من سمى بها هذه المنحنيات .

وهناك مسألة أخرى حلها الفيثاغوريون وهى كيفية رسم شكل مستقيم الأضلاع بحيث يساوى فى المساحة شكلا معلوما مستقيم الأضلاع ويشابه شكلا آخر ويذكر بلوتارخ أن هناك شكا فيما

اذا كانت هذه المسألة أو النظرية الواردة فى ٤٧ بالجزء الأول من اقليدس هى التى ضحى فيثاغورس من أجلها بثور .

وأهم التطبيقات الخاصــة التى عملت على نظرية مربع الوتر كالتى وردت فى الجزء الثانى من اقليــدس كلها فيثاغورية ومن هذه التطبيقات كيفية انشاء مربع يكافئ مستطيلا معلوما (راجع ١٤ بالجزء الثانى من اقليــدس) وهى عمليــة تناظر حل معادلة الدرجة الثانية البحتة س^{2} = ا ب .

وكان الفيثاغوريون على علم بخواص المتوازيات وقد برهنوا النظرية التى تنص على أن مجمــوع الزوايا الثــلاث فى أى مثلث يساوى قائمتين .

كانت نظرية التناسب الفيثاغورية كما رأينا عددية ومن ثم لم تكن وافية بالحاجة لعــدم انطباقها على المقادير غير القابلة للقياس ولكنا نستطيع أن نقول بأن الهندســة الفيثاغورية مع تلك الصــفة التى اتصفت بها شملت معظم مادة الأجزاء الأول والثانى والرابع والسادس من "المبادئ" تأليف "اقليدس" أما من جهة الجزء الثالث من المبادئ فحالته أقل جلاء ولكنا نرجح أن معظم النظريات التى وردت به كانت كذلك جزءا من الهندسة الفيثاغورية ونستنتج ذلك من أنها كانت معلومة لأبيقراط الطشيوزى فى النصف الثانى من القرن الخامس بعد الميلاد .

وفى النهــاية نقول ان الفيثاغوريين اكتشفوا وجود الكميات غير القابلة للقياس أو غير الجذرية فى تلك الحالة الخاصة حالة قطر المربع اذا قيس بضلعه وقد ذكر أرسططاليس برهانا قديمــا لعدم امكان قياس نسبة القطر للضلع وذلك بطريقة (الاحالة الى المستحيل)

أو التفنيد فبين أنه لو كان هذا القياس ممكنا لنتج عنــه أن يصـير واحد من الأعداد فرديا وزوجيا فى آن واحد . ولا شك فى أن هذا البرهان كان فيثاغوريا .

ولا بد من أن نقول كلمة عن الفلك الفيثاغورى فقد كان فيثاغورس أول من قال بأن الأرض (وكذلك كل واحد من بقية الأجرام السماوية بغير شك) كروية الشكل وكان يعرف أن الشمس والقمر والسيارات لها حركات مستقلة خاصـة بها وأن اتجاهات تلك الحركات مضادّة لاتجاه الدورة اليوميـة ولكن الظاهر أن فيثاغورس اعتبر الأرض فى الوسط على أن أتباعه فى التفكير نبذوا هذا الرأى وهو مركزية الأرض (ويعزى هذا الابتكار تارة الى هكتس السـيراقوزى وتارة الى فيـلولاوس) واعتبروا الأرض كالشمس والقمر والسيارات الأخرى تدور كلها فى دوائر حول "النار المركزية" التى هى موطن تلك القاعدة (أو القوة) المسيطرة على حركة الكون تسيره وتوجه حركته حيث شاءت .

الهندسة التى تكلمنا عنها للآن كلها واردة فى "المبادئ" ولكن اليونانيين قبل أن يتم بناء هيـكل "المبادئ" كانوا قد تقدموه فعند حلول النصف الثانى من القرن الخامس كانوا قد بحثوا ثلاثة مسائل شهيرة فى الهندسـة العالية وهى : (١) تربيـع الدائرة . (٢) تثليث الزاوية . (٣) مضاعفة المكعب والأسماء العظيمة التى ظهرت فى ذلك العصر هى هپياس الأليوى وأبقراط الخيوسى ودمقريتس .

فالأول اخترع منحنيا خاصا يتكوّن بتركيب حركتين منتظمتين (احداهما زاوية والأخرى فى خط مستقيم) يتمان فى زمن واحد وقد استخدم هپياس نفسه منحنيه هـذا فى تثليث أية زاوية

أو تقسيمها بأية نسبة ولكن استخدمها بعده كل من نيكوميديس ودنستراتوس أخو ميناخموس تلميذ يوركسوس لتربيع الدائرة ومن هذا الاستعمال علق بها الاسم (Quadratixe) .

وقد ذكر ارسطاطاليس أبيقراط الطشيوزى كمثـل يشهد بأن الرجل قد يكون عالمـا ممتازا فى الهندسة وفى الوقت نفسه جاهلا غبيا فى شئون الحياة العادية فقد كان أبيقراط يشغل مكانا رفيعا بالنسبة لمـا أتى به فى الهندسة الأولية وكذلك لعلاقته بمسألتين من المسائل العالية التى أشرنا اليهـا فيما سبق . كان على ما نعرف أول جامع لكتاب المبـادئ وهو أول من أثبت النظرية المهمة التى وردت فى ٢ بالجزء الثانى عشر من اقليدس والتى تنص على أن النسبة بين مساحات الدوائر كالنسبة بين المربعات المنشأة على أقطارها و يستنتج منها كذلك أن النسبة بين القطاعات المتشابهة من الدوائر كالنسبة بين المربعات المنشأة على قواعدها وقد استخدم هذه النظريات فى رسالته عن تربيع الأهلة الذى قصد به التدرج الى تربيع الدائرة. والأجزاء المهمة فى هذه الرسالة محفوظة فى قطعة وردت ضمن تعليقات سمبليسيوس على كتاب ارسطاطاليس فى "الطبيعـة" الذى يحتوى مقتطفات من كتاب يوديمس المفقود عن "تاريخ الهندسة" وقد أوضح أبيقراط كيفية تربيع ثلاثة أهلة خاصـة من أنواع مختلفة ثم ربع فى نهاية الأمر حاصل جمع دائرة خاصة وهلال خاص ولسوء الحظ لم يكن هذا الهلال الأخير من النوع الذى يمكن تربيعه ولذلك أخفقت محاولة تربيع الدائرة بهذه الطريقة بعد كل ما كان .

عالج أبيقراط أيضـا مسألة مضاعفة المكعب وهناك روايتان عن أصل هذه المسألة الشهيرة فحكى بعضهم أن شاعرا "تراجيديا" عجوزا صوّر مينوس كأنه لم يرقه حجم قبر مكعب بنى لولده جلوكس

فأمر المعمارى بمضاعفة حجم القبر مع الاحتفاظ بشــكله المكعب أما الزواية الأخرى فهى أن الدلينيين أصابهم (و باء) واستخاروا العراف فأنبأهم بأن السبيل لايقاف هــذا الو باء هو مضاعفة حجم مذبح معبد معين . حقا ان أبيقراط لم يحل مسألة التضعيف ولكنه أحالها الى مسألة أخرى وهى ايجــاد وسطين متناسبين تناســبا متسلسلا بين مستقيمين معلومين . ومن ذلك الحين عالج الناس تلك المسألة بهذا الشكل . فاذا كان سـ ، صـ هما الوسطان المتناسبان المطلوبان بين المستقيمين ا و ب فان ا : سـ = سـ : صـ = صـ : ب ومن ذلك ينتج أن $\frac{\text{ب}}{\text{ا}} = \left(\frac{\text{س}}{\text{ا}}\right)^{3}$ ومنها الحالة الخاصة التى يكون فيها ب = ٢ ا وعندئذ تكون $\text{س}^{3} = 2\,\text{ا}^{3}$ وعلى ذلك اذا وجدت قيمة سـ تضاعف المكعب .

كتب ديمقريطس عددا عظيما من الكتب الرياضية لم يبق الدهر على شىء منها غير العناوين ويستنتج من أحد هذه العناوين وهو " عن الخطوط والمجسمات غير الجذرية " أنه كتب عن المقادير غير الجذرية . وقد أدرك ديمقريطس تمام الادراك مثل زينو الصعوبة التى تصحب دراسة المقادير المستمرة والمقادير المتناهيــة فى الصغر وعبر عن ذلك بنفس القوّة التى عبر بها زينو وهذه الصعوبة تتجلى فى حيرته بشأن القــاعدة الدائرية للمخروط وقطاعه الموازى لهــا والقطاع الذى يقصده هو القطاع القريب من القــاعدة قربا لا نهائيا (كما يقول) أى القطاع الذى يصح أن نصفه بأنه القطاع التالى مباشرة اذا كان هناك قطاع بهذه الصفة .

وتساءل ديمقريطس هل هــذا القطاع مساو للقاعدة أم لا فاذا كان مساويا لهــا كان المقطع الذى يليه مباشرة مساويا له وكذلك الذى يلى هذا الخ ولو صح هــذا لكان المخروط فى الحقيقة

أسطوانة لا مخروطا واذا لم يكن ذلك المقطع مساويا للقاعدة بل كان أقل فان سطح المخروط يكون مدرجا كالسلم وهذا قول سخيف . ولا شك فى أن كتاب ديمقريطس عن "تماس الدائرة أو الكرة" يبحث فى صعوبة مشابهة لهذه .

وأخيرا نذكر أن أرشميد يقول بأن ديمقريطس كان أول من قرر بأن حجم المخروط أو الهرم = ثلث حجم الأسطوانة أو المنشور على التناظر المرسوم على نفس القاعدة والذى له نفس الارتفاع . قرر ديمقريطس ذلك ولو أنه لم يستطع ايراد برهان دقيق لهذه النظريات التى كان يودكسس أول من برهنها .

وصلنا الآن الى عصر أفلاطون والأسماء العظيمة المتصلة به هى أسماء أرخياتاس وتيودور الكيريني وتياطيطس ويودكسس .

وقد ألف أرخياتاس (حوالى عام ٤٣٠ — ٣٦٠ قبل الميلاد) فى الموسيقى والنسب العددية التى تناظرفترات ذى الأوتار الأربعة ويقال انه أول من وضع كتابا مطولا فى الميكانيكا مبنية على الأصول الرياضية ومن الناحية العملية ابتدع حمامة آلية تستطيع الطيران وفى الهندسة وضع أول حل لمسألة المتوسطين المتناسبين واستخدم فى ذلك انشاء عجيبا ذا ثلاثة أبعاد أمكن بواسطته تعيين نقطة هى محل تقاطع ثلاثة سطوح وهى :

(١) مخروط معين .
(٢) نصف أسطوانة .
(٣) وحلقة مرسى قطرها الداخلى صفر .

وتيودور معلم أفلاطون فى الرياضة وسع نظرية المقادير غير الجذرية باثبات عدم امكان القياس فى حالات خاصة معينة عدا حالة قطر المربع بالنسبة الى ضلعه وهى التى كانت معروفة من قبل

وقد أثبت أن ضلع المربع الذى يشـتمل على ثلاثة أقدام مربعة أو خمسة أقدام مربعة أو أى عدد غير مربع من الأقدام المربعة لغاية ١٧ لا يمكن قياســه بالنسبة الى القدم وبعبارة أخرى أن $\sqrt{٣}$ ، $\sqrt{٥}$ ... $\sqrt{١٧}$ كلهـا لا يمكن قياسها وظـاهر أن برهان تيودور لم يكن عاما بل لقـد بقى لتياطيطس فضـل تضمين كل المقادير غير الجذرية فى تعريف واحد واثبات الخاصة اثباتا عاما كما ورد فى اقليدس جزء ١٠ — نظرية ٩

وكثير من محتويات بقية الجزء العاشر من اقليدس (التى تتناول المقادير غير الجـذرية المركبة) وكذلك الجـزء الثـالث عشر الذى يبحث فى المجسمات المنتظمة الخمس كل ذلك يرجع الفضـل فيه لتياطيطس الذى يقال أكثر من هذا أنه اكتشف اثنين من هذه المجسمات (ذا الثمانية أوجه وذا العشرين وجها) .

وقد لا يكون أفلاطون (من ٤٢٧ — ٣٤٧ قبل الميلاد) رياضيا مبتكرا ولكنه كان سببا فى تقدّم فروع الرياضـة عامة والهندسـة بصفة خاصة تقدّما عظيما بتحمسه لها وقد شجع طلاب مدرسته على التخصص فى الرياضة والفلك . فمثلا يقال : انه فى الفلك وضع لطلابه المجدين السؤال الآتى وهو :(ما هى الحركات المنتظمة المرتبة التى يمكن بفرضها تفسير الحركات الظاهرة للسيارات؟) . ويوجد بعض تعاريف كتبت بخط أفلاطون نفسه، مثال ذلك : تعريف الخط المسـتقيم بأنه ما يمكن لوسطه أن يشـمل طرفيه وبعض ايضاحات رياضية ممتعة ولا سيمـا ما ورد فى القطعة الهندسـية الثانية فى (مينو) (٨٦هـ٨٧حـ) وينسب لأفلاطون نفسه القانون الآتى $(ن^٢ - ١)^٢ + (٢ ن)^٢ = (ن^٢ + ١)^٢$ لايجاد عددين مربعين مجموعهما عدد مربع وكذلك وضع طـريقة التحليل التى

يقال انه شرحها الى ليوداماس الثاصرصى (وان كان التحليل الرياضى بلا شك مستعملا قبل ذلك بكثير) ويشك فى صحة ما ينسب لأفلاطون من حل مسألة الوسطين المتناسبين بوساطة اطار يشبه ما يستخدمه صانع الأحذية فى قياس قدم .

ويودكسوس (٤٠٨ — ٣٥٥ قبل الميلاد) عبقرى مبتكر لا يسبقه فى تاريخ موضوع بحثنا هذا أحد (الا أن يكون ارشميدس) كان له الفضل فى استكشافين على أعظم جانب من الخطر فى تقدم الهندسة الاغريقية :

(١) ان الاهتداء الى الكميات غير القابلة للقياس بعد ذلك قد جعل نظرية التناسب الفيثاغورية غير وافية بالحاجة كما مر بنا لأنها انما تصدق على المقادير التى يمكن قياسها دون غيرها . نعم ليس من شك أنه من الممكن فى أكثر الأحوال أن يستبدل بالبراهين القائمة على التناسب سواها ولكن كان فى هذا عناء وحرج ولقد غلب على الهندسة بوجه عام شيء من الخفاء أو بقى لذلك شيء من العار على الهندسة بوجه الاجمال على أن تلك الصعوبة ذللت تذليلا نهائيا باهتداء يودكسوس الى النظرية الكبرى للتناسب التى تنطبق على ما يقاس وما لا يقاس من الكميات على السواء وهى التى فصلت فى الكتاب الخامس لاقليدس . ويحق لبارو أن يقول عن هذه النظرية "انه ليس فى مجموع الأصول العامة ابتداع أدل على الذكاء وأمتن أساسا منها" وحجر الزاوية فى كيانها هو تعريف النسب المتساوية (اقليدس ه التعريف الخامس) ولم تنقص ثلاثة وعشرون قرنا من قيمته شيئا كما يتضح لك من أن فيرستراس يعيده لفظا لفظا وهو يعرف الأعداد المتساوية وهو يناظر الى حد يكاد يكون تطابقا الطريقة الحديثة التى بسطها ديدكند عن المقادير الصماء .

(٢) وقد اهتدى اكتشف يودكسوس الى طريقة الاستنفاد فى قياس المساحات والمجسمات المنحنية وبفضلها مع ما أدخله عليها أرشميدس من التوسعات نالت الهندسة الاغريقية أكبر انتصاراتها . لقد قرر السفطائى أنتيفون وهو فى معرض محاولة تربيع الدائرة أننا اذا أنشأنا فيها مضلعات منظمة ثم ظللنا نضاعف عدد الأضلاع باستمرار وصلنا فى وقت ما الى مضلع تنطبق أضلاعه على محيط الدائرة . ولما كان الرياضيون يحاذرون أن تقف فى طريقهم محاجات زينو فى المقادير المتناهية فى الصغر وهو التى لا سبيل لهم بدفعها اعتاضوا عن تلك العبارة بعبارة أخرى وهى أنه بالاستمرار فى انشاء المضلعات نستطيع أن نرسم مضلعا يقارب مساحة الدائرة الى درجة القرب التى نريدها . وقد استخدمت طريقة الاستنفاد هذه للاثبات بواسطة التفنيد (الاحالة الى المستحيل) الفكرة الذى دلل عليها فى اقليدس (١٠ — ١) للبرهنة على أنه اذا طرح من كمية ما لا يقل عن نصفها ثم طرح من الباقى ما لا يقل عن نصفه وهكذا باستمرار أمكن الوصول الى باق أصغر من أى مقدار معين من النوع نفسه مهما صغر . وهذا أيضا يتوقف على فرض يعتبر واردا ضمن التعريف الرابع فى الجزء الخامس من اقليدس ولكنه يعرف ببديهية أرشميدس وهى التى تقول بأنه اذا علم لدينا مقداران غير متساويين أمكن باضافة فاضلهما الى نفسه باستمرار مهما صغر أن يزيد على أى مقدار من النوع نفسه (مهما كبر) .

ونرى طريقة الاستنفاد هذه مستخدمة فى اقليدس (١٢ — ١ الى ٢ ، ٣ الى ٧ والنتيجة ١٠ ، ١٦ — ١٨) وتبرهن نظريات ٣ — ٧ ونتائجها وكذلك نظرية ١٠ على أن حجم كل من الهرم والمخروط يعادل على التناظر ثلث حجم المنشور والاسطوانة

اللذين يشتركان معهما فى القاعدة أو الارتفاع . وقد ذكر أرشميدس بجلاء أن أول من أثبت تلك الحقائق هو يودكسوس .

واشتهر يودكسوس فى علم الفلك بنظرية الكرات المتمركزة تلك النظرية الجميلة التى ابتدعها ليفسر الحـركة الظاهرية للسيارات وبصفة خاصة النقط التى تبدو ثابتة فيها وما يظهر عليها من التراجع . والنظرية تصدّق أيضا على الشمس والقمر وقد استخدم يودكسوس لكل منها ثلاث كرات وقد مثل حركة كل سيارة كأنها ناشئة من دوران أربع كرات متداخلة متحدة المركز مع الأرض وتتصل على الوجه الآتى : كل كرة من الكرات الداخلة تدور حول قطر ثبت طرفاه (القطبان) فى الكرة التالية التى تحيط بها . فأما الكرة الخارجية فتمثل الدورة اليومية والثانية تمثل حركة على محيط الدائرة البروجية وقطبا الكرة الثالثـة مثبتان فى الكرة السـابقة وقطبا الكرة الرابعة ويحمـلان السيارة مثبتة على خط استوائها قد ثبتا على الكرة الثالثة ورتب فرع الدوران واتجاهاته بحيث ترسم السيارة على الكرة الثانية منحنيا يسمى حدوة الحصان أو شكل حرف ثمـانية باللغة الأفرنجية وهو يقع على طول الدائرة (البروجية) ويتناصف بها والترتيب بأجمعه يدل على ذكاء هندسى خارق .

وهرقليد بونتس (من نحو ٣٨٨ — ٣١٥ قبل الميلاد) وهو من تلاميـذ أفلاطون خطا خطوة واسـعة فى تقدّم الفلك باظهاره أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل ٢٤ ساعة وبمـا كشفه من أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس كتوابع لها .

ومناخموس أحد تلاميـذ يودكسوس هو الذى استكشف القطاعات المخروطية واستخدم اثنيـن منها وهما القطع المكافئ والقطع الزائد لحل مسألة الوسطين المتناسبين اذا كانت ا : سـ

= سـ : صـ = صـ : بـ كانت سـ^{٢} = ا صـ ، صـ = بـ سـ ، سـ صـ = ا بـ وهذه المعادلات يمكن أن تمثل فى الأحداثيات الكرتيزية والمحاور المستطيلة القطاعات التى بتقاطعها مثنى أمكن مناخموس أن يحل المسألة أما فى حالة القطع الزائد القائم فكان ما استخدمه فى الحل خاصة الخط التقريبى .

وننتقل بعـد ذلك لعهد اقليدس . قبل اقليدس بقليل كتب أوتوليقوس البيطانى كتابين حول الكرة المتحركة وهو مؤلف يبحث فى خواص الكرة لتستخدم فى الفلك والثانى حول الشروق والغروب والكتاب الأول أقدم مؤلف يونانى مدرسى وصل الى أيدينا سليما ولقد كان بين يدى اقليدس حين كتب كتابه "الظواهر" وهناك كثير من مواضع الاتصال بين الكتابين واشتهر اقليدس (سنة ٣٠٠ قبل الميلاد) أو قبل ذلك بقليل وكتابه العظيم المبادئ الذى يقع فى ثلاثة عشر جزءا هو أشهر من أن يحتاج لوصف . وربمـا كان أكبر الكتب تأثيرا بعد الانجيل وسترجع اليه الأجيال المتصلة كلما ملوا تلك الكتب المنقولة التى وضعت لتحل محله وسئموا الاضـطراب الناشئ من تعددها المربك وبعد ما ذكرناه سابقا عن نمو كتاب "المبادئ" نستطيع أن نقدر ملاحظة بروقليس عن اقليدس حيث قال انه هو الذى حصر المبادئ كلها معا فجمع كثيرا من نظريات يودكسوس وكمل كثيرا من نظريات تياطيطوس وأوضح بجلاء الأشياء التى لم يقم عليها أسلافه الا أدلة مفككة ومع أن قسما كبيرا من مادته كان موضع ابحاث أسلافه أولئك فكل الدلائل تشير على أن الترتيب بأجمعه من عمل اقليدس نفسه ، ومن المحقق أنه أحدث تغيـيرا عظيما فى ترتيب النظريات وفى براهينها وأن ظهور أثر ابتكاراته تجلى من بداية الكتاب الأول .

وقد كتب اقليدس كتبا أخرى فى كلا الهندسة الأوّلية والعالية وفى موضـوعات رياضـية أخرى كانت تعرف فى عصره وكتبه فى الهندسة الأولية تشمل كتاب "الفروض" وكتاب "حول التقسيمات للأشكال" وقد بقى الأصل اليونانى للكتاب الأول أما الثانى فلا توجد منـه الا صـورة عربية وكذلك كتاب "البسودار يا" وهو الآن مفقود وكان من قبيـل الكتب التى ترشـد الى المغالطات فى البراهين الهندسية . أما الرسائل التى كتبها فى الهندسة العالية فقد فقدت جميعها وهى تشمل القطاعات المخروطيـة فى أربعة أجزاء وقد تناولت ما تناوله كتاب أبولنيوس فى القطاعات المخروطيـة فى أجزائه الثلاثة الأولى تقريبـا وان كانت القطاعات فى نظـر اقليدس كما كانت فى نظر أسـلافه قطاعات مخاريط قائمة الزاوية ومنفرجتها وحادتهـا على التناظر ينشأ من قطعها بمستو عمودى على مولد فى كل حالة .

(٢) وله كتاب "المنشورات" فى ثلاثة أجزاء ويستدل على أهميته وصعوبته من بيان وصف بابوس له ومن الفروض التى يوردها لتستعمل معه .

(٣) المحال الهندسـية السطحية وهى كذلك قد أضـاف اليها بعض فكر بابوس احداها تشـير الى أن اقليدس قد افترض معرفة خاصة الدليل والبورة للمخاريط الثـلاثة وهى ما لم يرد لهـا ذكر فى مخروطات أبولنيوس .

وكتب اقليدس فى الرياضة التطبيقية :

(١) كتاب "الظواهر" .

وهو كتاب فى الفلك الكرى وتبدو فيـه كلمة الأفق لأول مرة بمعناها المعروف .

(٢) كتاب البصريات وهو رسالة أولية فى فن المنظور وكلا الكتابين قد بقى أصله اليونانى .

(٣) كتاب فى مبادئ الموسيقى . أما كتاب سكتيوكانونيس المعروف باسم اقليدس فيصعب أن ينسب اليــه وهوفى صــورته الحالية .

وفى الفترة التى تقع بين اقليدس وأرشميدس يجىء أرستارخوس الصاموسى (٣١٠ — ٢٣٠ قبل الميلاد تقريبا) وله الفضل فى أن سبق الى التنبؤ بمـا اهتدى اليــه كوبرنيق . ولقد أخذ بمـا ارتآه هراقليــدس من أن الأرض تدور حول محورها وذهب أبعــد من ذلك وافترض أن الشمس هى الساكنة وأن الأرض والمشترى والزهرة والسيارات الأخرى تدور حول الشمس فى أفلاك دائرية . وإنا نقرر ذلك اعتمادا على سند أرشميدس الذى صح فقد جاء بعــده بخمس وعشرين سنة فقط ولا بد أن يكون قد رأى الكتاب وفيه هذا الافتراض الذى أشرنا اليه وقد نبئنا أيضا أن كليانديس الرواقى كان يرى ضرورة محاكمة أرستارخوس بتهمة الكفر لجعــله قلب العالم فى حركة .

ولأرستارخوس كتاب واحد باق باليونانية وهو حول حجم كل من الشمس والقمر وبعدهما وهو كتاب ممتع فى ذاته وأن يكن غير مشتمل على كلمة واحدة . عن افتراض الدوران حول الشمس وهو كتاب كلاسيكى فى شكله وأسلوبه ولذلك فهو يورد افتراضات معينة ثم يستنبط منها طبق قواعد الهندسة الدقيقة حجمى الشمس والقمر وبعديهما . ولو صحت افتراضاته لصحت النتائج أيضا ولكن أرستارخوس فى الواقع قد افترض أن زاوية معينــة ٨٧° بينما هى

فى الحقيقة ٥٠ ، ٨٩° وافترض أن الزاوية التى تحدث بتوصيل طرفى قطرى الشمس أو القمر عند مركز الأرض تساوى ٢° بينما قد علمنا عن أرشميدس أن أرستارخوس نفسه استكشف أن الزاوية الأخيرة تبلغ $\frac{١}{٢}$° فقط وكان من أثر هندسة أرستارخوس أن وجدنا نهايات حسابية لمقادير هى فى الواقع نسب من نسب حساب المثلثات لزوايا صغيرة معينة وهى :

$\frac{١}{١٨} > \text{حا}\,٣^\circ > \frac{١}{٢٠}$ ، $\frac{١}{٤٥} > \text{حا}\,١^\circ > \frac{١}{٨٠}$ ، $١ > \text{جتا}\,١^\circ > \frac{٨٩}{٩٠}$.

والنتائج الأساسية التى يحصل عليها من ذلك هى :

(١) أن قطر الشمس يعادل بين ١٨ ، ٢٠ ضعفا بالنسبة لقطر القمر .

(٢) أن قطر القمر بين $\frac{٢}{٤٥}$ ، $\frac{١}{٣٠}$ من المسافة التى يبعدها مركز القمر عن أعيننا .

(٣) أن قطر الشمس يقع بين $\frac{١٩}{٣}$ ، $\frac{٤٣}{٦}$ من قطر الأرض ، ويشتمل الكتاب على قدر كبير من العمليات الحسابية .

ولد أرشميدس حوالى (٢٨٧ قبل الميلاد) وقتل فى حصار سراقوزه بجيش مارسيلوس (فى سنة ٢١٢ قبل الميلاد) والروايات عنه شائعة معروفة جيدا ومن ذلك قوله : "أعطنى مكانا أقف عليه وأنا أحرك الأرض" وكيف انه بعد أن فكر فى مسألة التاج وهو فى الحمام خرج عريان الى بيته وهو يصيح "يوريكا يوريكا" أى لقد وجدتها وكيف أنه أثناء الاستيلاء على سيراقوزه كان غارقا فى شكل رسمه على الأرض فقال لجندى رومانى قدم عليه : "أبعد أيها القادم عن شكلى والقليل من الناس من يعلم عن عمله أكثر من أنه اخترع بارما لايزال يستعمل فى ضخ الماء وأنه لبث زمنا يحبط هجوم الرومانيين

على سيراقوزه بالابتكارات الميكانيكيـة والمحركات التى كان يستخدمها ضـدهم ولكنه كان قليل الاعتداء بتلك الأشياء فأما اهتمامه الحقيقى فكان بالتأملات الرياضيةولقد طلب أن ينقش على قبره صورة تمثل أسطوانة تحيط بكرة بنسبة $\frac{٣}{٢}$ وهى نسبة الأسطوانة الى الكرة ومن ذلك نستنتج أنه كان يعد ذلك أعظم استكشافاته .

وكانت كل أعمـال أرشميـدس مبتكرة وهى أمثلة حقة للبسط الرياضى تبلغ الكمال و يتضح المدى الفسيح الذى تناولته موضوعاته من قائمة الكتب التى سلمت من العـدم وهى "حول الكرة والأسطوانة الجزءين الأول والثانى" و"قياس الدائرة" و"حول المخروطات والكرات الصغيرة" .

"وحول الأشكال الحلزونية "و"حول التوازن فى مستوواحد" الجزءين الأول والثانى و " الحاسب الرملى " و " تقسيم القطـع المكافئ الى أر بعة أر باع " و "حول الأجسام الطافية" الجزءين الأول والثانى وآخرها كتاب " الطريقة " الذى لم يستكشف الا سنة ١٩٠٦ وتنسب اليـه كذلك " مسـألة المواشى " الصعبـة كتاب الفروض الذى وصل الينا عن طريق اللغة العربيـة على أنه فى صورته الحالية لا يمكن أن يكون من وضع أرشميدس ولو أن بعض ماورد فيـه من نظر يات يحتمل كثيرا أن يكون منشؤها أرشميدس (وأشهرها تلك التى تتصل بال "Salinon" أو خزانة الملح ونظريات أخرى عن الدوائر المرسومة داخل مايسمى سكينة صانع الأحذية) .

ومن الكتب التى فقدت الكاتو پسر يكا و "حول عمل الكرة" وتحقيقات بشأن متعددات السطوح يحتوى ١٣ جسما شبه منتظمة عزى بابس استكشافها الى أرشميدس .

وكانت كتب أرشميدس الهندسية اذا تكلمنا بوجه عام مقصود بها قياس السطوح والأحجام المنحنية وقد استخدم فيها طريقة هى تطوّر فى طريقة الاستنفاد ليودكسس والظاهر أن يودكسس كان يقترب من الشكل المراد قياسه من أسفله أى بواسطة أشكال ترسم داخله تباعا أما أرشميدس فكان يقترب منه من ناحيتيه فيرسم الأشكال تباعا بعضها داخله والأخرى تحيط به من الخارج وبذلك استطاع أن يضغطها اذا صح هذا التعبير حتى تنطبق على الشكل المراد قياسه الى أى درجة مرغوبة من الدقة فكانت عمليته فى كثير من الأحوال تظهر بمثابة تكامل حقيقى عند ما نبسط ما يعادلها فى الوضع التحليلى وهذا هو الحال فى دراسته لمساحات القطاعات المكافئة والحلزونيــة وســطح الكرة وحجمها وأحجام أى قطاع فى المخروطيات والكرويات .

وكتاب "الطريقــة" الذى كشف حديثا له أهمية خاصة لأنه يبين كيف حصل أرشميدس فى أول الأمر على نتائجه وقد كان هذا بطريقة ميكانيكية تنم عن ذكاء بها يوازن (نظريا) بين عناصر الشكل المراد قياسه المتناهية فى الصغر وعناصر شكل آخر معلوم مساحته أو حجمه (حسب ما تقتضيه الحال) فهى بمثابة اتقاء لعملية التكامل ومع ذلك فما كان يعترف أرشميدس للطريقــة الميكانيكية الا بأنها تنفع للوصول الى النتائج وما كان يقول بأنها أثبتت حتى يقوم الدليل عليها هندسيا ففى "قياس الدائرة" بعد أن برهن أرشميدس بطريق الاستنفاد على أن مساحة الدائرة تساوى مساحة مثلث قائم الزاوية ضلعاه المتعامدان يساويان نصف قطر الدائرة ومحيطها على التناظر وصل أرشميدس بمجرد العمليات الحسابية الى ايجـاد النهايتين العظمى والصغرى للنسبة بين محيط الدائرة

وقطرها (التى نسميها ط) وقد فعل ذلك برسم مضلعات منتظمة ذات ٩٦ ضلع فى الدائرة وحولها واستخرج حسابيـا محيطاتها المتناظرة بوجه التقريب فبدأ بافتراض معلومية قيم تقريبية خاصة للقدار $\sqrt{٣}$ وهى $\frac{١٣٥١}{٧٨٠} > \sqrt{٣} > \frac{٢٦٥}{١٥٣}$ وتتضمن حساباته التقريبية الى الجذور التربيعية لأعداد كبيرة عديدة (الى سبعة أرقام) والكتاب لا يورد الا النتائج ولكن من البديهى أنه لم تعترضه أية صعوبة فى أن استخراج الجذور التربيعية على الرغم ممـا كان لطريقة التعبير عن الأعداد بالطريقة الهجائية من عدم الملائمة اذا قيست لغيرها . والنتيجة التى وصل اليها مشهورة وهى $٣\frac{١}{٧} >$ ط $> ٣\frac{١٠}{٧١}$.

و"الاتزانات المستوية" أول كتاب علمى وضع فى القواعد الأساسية للميكانيكا حسب ما تقرره الهندسة البحتة وأهم نتيجة وردت فى الجزء الأول هى قاعدة الرافعة وكان يعرفها أفلاطون وارسطاطاليس ولكنه لم يكن لديهما برهان حقيق عليها فالميكانيكا الارسطية تقتصر على ارجاع الرافعة الى موضوع الدائرة فتنص على أن القوة التى تؤثر على مسافة من نقطة الارتكاز أبعد من غيرها تحرك المجموعة بسهولة أكبر لأنها ترسم دائرة أكبر وقـد أوجد أرشميدس كذلك مركز ثقل متوازى الأضلاع والمثلث وشبه المنحرف وأخيرا (فى الجزء الثانى) عين مركز ثقل القطاع المكافئ وكذلك الجـزء منه الذى ينحسر عنه خط مستقيم موازى للقاعدة .

أما "الحاسب الرملى" فيمتاز باحتوائه على طريقة للتعبير عن الأعداد الكبيرة بالرتب والأدوار مؤسسة على قوى بالآلاف المؤلفة (١٠٠٠٠)[٢] وكذلك يحتوى على الاشارة المهمة لنظرية تمركز الشمس

فى وسط الكون التى أتى بها أرستارخوس الصاموسى فى كتاب عن (الفروض) وعلى التفاصـيل التاريخية للمحاولات التى تقدمته فى سبيل قياس حجم الأرض وتعيين أحجام وأبعاد الشمس والقمر.

وآخر ما نذكره عن أرشميدس أنه اخترع كل علم الايدروستاتيكا ففى كتابه عن الأجسام الطافية يبـدأ بفرض عن الضغط المنتظم فى السائل ويبرهن لأول مرة على أن سطح السائل عنـد ما يكون ساكنا هو كرة مركزها عند مركز الأرض . وتبين نظريات أخرى أنه اذا طغا جسم صلب فى سائل فان وزن الجسم يسـاوى وزن السائل المزاغ واذا وزن جسم صلب فى سائل أخف منه فانه يزن أقل من وزنه الحقيق بمقدار وزن السائل المزاغ ثم يأتى بفرض آخر وهو أن الأجسام التى يدفعها السائل الى أعلى يكون دفعهـا فى اتجاه الأعمدة على السطح التى تمر بمراكز ثقلها . وبعـد أن يفـترض ذلك يتناول أرشميدس موضع السكون وثبـاته لقطاع من كرة عائمة فى السائل بحيث تكون قاعدتها بأجمعها فوق السطح أو كلها تحته والجزء الثانى (تنقل عجيب للقوة) يبحث بتوسع كل مواضـع السكون والثبات لمقطع قائم فى جسم ناشئ عن دوران القطع المكافئ عائم فى سائل تبعا لمـا يأتى :

(١) علاقة محور الجسم بالمقياس المعين للقطع المكافئ الذى يولده .

(٢) الثقل النوعى للجسم بالنسبة للسائل ولفظة (الثقل النوعى) وان لم توجد فى البحث بنصها الا أن فكرتها قد وضحت تماما بعبارة أخرى .

وكان أراتستنيس الكرينى معاصرا تقريبا لأرشميـدس واليه أهدى الأخير مؤلفه (الطريقة) ومن مقدمة هذا المؤلف نستنتج

أن أرشميدس كان يعتقد بأنه على مقدرة رياضـية عاليـة وكان معاصروه يعترفون له حقيقة بأنه رجل متفوق يمتاز فى جميع الفروع برغم كون الاسمين اللذين أطلقا عليه وهما بيتا و بنتاتلس[١] يشيران الى أنه كان دون المرتبة الأولى مباشرة فى كل مادة من المواد وقد عينه بطليموس يوريجيتى مؤدبا لابنه (فيلوپاتر) وصار أمينا للمكتبة فى الاسكندرية وقد اعترف بدينه لبطليموس بأن أنشأ عمودا وكتب عليه عبارة وجيزة رقيقة أشار فيها الى الحلول السابقة لمسألة مضاعفة المكعب أو ايجـاد الوسطين المتناسبين ودافع عن طريقته وفضلها لأنها تعطينا أى عدد من الأوساط وقد ثبت على العمود صورة من البرنز تمثل آلته وهى إطارفيه مثلثات قائمة الزاوية (أومستطيلات) قابلة للحركة بمحاذاة خطين أجوفين متوازيين و بعضها فوق بعض كما نقش معها برهان مركز. و بديهى أن كتاب ايراتسثنيس (أفلاطونيكى) تناول الآراء الأساسية للرياضة من حيث علاقتها بفلسفة أفلاطون والظاهر أنه ابتدأ بقصة أصل مسألة التضعيف وأشهر عمل قام به (ايراتسثنيس) قياسه للأرض وكان أرشميدس قد روى قياسا قديما قدّر محيط الأرض فيه ٣٠٠٠٠٠ ستاد فجاء ايراتسثنيس بتقدير أحسن من هـذا فقد لاحظ أن وقت الظهيرة من يوم الانقلاب الصيفى لا يكون للأجسام عند سيين (اســوان) ظل ما بينما يكون فى تلك اللحظة فى الاســكندرية للنومون القائم ظل يناظر زاوية بين النومون وأشعة الشمس قدرها $\frac{١}{٥٠}$ من الأربعة القوائم ولمـا كانت المسافة بين سيين والاسكندرية معروفة بأنها ٥٠٠٠ ستاد فمحيط

[١] المعنى الأصلى لهذه الكلمة هو (أثليت) رياضى من جميع النواحى يفوز فى كل الخمسة الأنواع من اللعب التى تتألف منهـا الألعاب الرياضية وهى النط وقذف الأقراص والجرى والمصارعة والملاكمة (أو رمى المزراق) .

الكرة الأرضـية يكون تبعا لذلك ٢٥٠,٠٠٠ سـتاد والظاهر أن أراتسثنيس لأمر ما غير هذا القول فيما بعد الى ٢٥٢,٠٠٠ ستاد وهذه تساوى ٧٨٥٠ ميلا حسب أقرب احتمال لما كان عليه طول الستاد وهذا العدد لا يقل عن القطر القطبي الحقيقى الا بخمسين ميلا .

وقيل ان أراتسثنيس تناول بالبحث أمورا فلكية أخرى فى كتابه "عن قياس الأرض" كالمسافة بين دائرتى الاستواء والقطب وحجمى الشمس والقمر وأبعادهما والكسوف والخسوف الكلى والجزئى الخ وعلاوة على الكتب الأخرى التى ألفها فى الفلك وحساب الزمن فقد ألف أراتسثنيس "الجغرافيكا" فى ثلاثة أجزاء بسط فيه لأول مرة تاريخ الجغرافيا الى أيامه ثم عرج على الرياضة الجغرافية بما فى ذلك شكل الأرض الكروى وهلم جرا .

أطلق معاصرو أبولونيوس البرجى عليه بحق "الهندسى العظيم" مستندين فى ذلك الى مؤلفـه العظيم عن القطاعات المخروطية . ووصف بأنه من مشاهير الفلكيين فى أيام بطليموس يوريجيت (٢٢٢ — ٢٤٧ قبل الميلاد) وقد أهـدى الجزء الرابع وما تلاه من أجزاء "القطاعات المخروطيـة" الى الملك أتالس الأول البرجمومى (١٩٧ — ٢٤١ قبل الميلاد) .

وكتاب " القطاعات المخروطية " كتاب هائل كان فى الأصل ثمانية أجزاء وصلت الينا الأربعة الأولى منها باليونانية وثلاثة أخرى بالعربية وأما الثامن ففقد ومن مقدمة أبولونيوس نستطيع أن نحكم عن علاقة كتابه بكتاب اقليدس فى نفس الموضوع ومحتويات الأخير قد تضمنها الأجزاء الثـلاثة الأولى من كتاب أبولونيوس ومع أن اقليدس كان يعـلم أن القطع الناقص يمكن

رسمه بطرق أخرى مثل قطع الأسطوانة القـائمة بمقطع مائل فلا شك فى أنه حصل على الثلاثة القطاعات المخروطية بواسطة المخروطات القائمة كما فعل أسلافه ولكن أبولونيوس يصل اليها بأعم الطرق وهى قطع المخروطات المـائلة وكانت محاوره الأصلية على العموم مائلة ونعنى بها قطرا ومماسا فى نهايته و بالنسبة لهذه المحاور وجد أبولونيوس الخواص الأساسية بواسطة تطبيق المساحات وأنواعه الثلاثة : التطبيق والتطبيق بالزيادة والتطبيق بالنقص توصلنا الى خواص المنحنيات الثلاثة على التناظر والى سبب تسميتها بنفس الأسماء الثلاثة" القطع مكافئ" و"القطع الزائد" و" القطع النـاقص" التى أطلقها عليها أبولونيوس لأول مرة ولا تظهر المحاور الأساسية الا لحالة خاصة بعد أن يقوم الدليل على أن المنحنيات اذا نسبت الى أى قطر آخر والممـاس فى نهايته يكون لها خواص مشابهة لتلك التى تستنتج بالنسبة للمحورين الذين يخرجان عن طريقة الانشاء الأصلية. وتتألف من الأربعة الأجزاء الأولى ما يسميه أبولونيوس بالمقدمة الأولية والأجزاء الباقية مباحث تخصيصية وأهمها الجزءان الخامس (عن الأعمدة) والسابع (ومعظمه عن الأقطار المترافقـة) وقد بحثت الأعمدة لا عن طريق الممـاسات ولكن بصفتها النهايات الصغرى أو الكبرى للمستقيمات التى تصل المنحنيات بنقط أو أنواع من النقط المختلفة . يبحث أبولونيوس المسائل التى من قبيل عدد الأعمـدة التى يمكن رسمها من نقطة واحدة (حسب موضعها) وطريقة انشاء مثل هـذه الأعمدة جميعها وتعيننا بعض نظريات على جانب عظيم من الصـعوبة فى استنتاج المعادلات الكرتيزية للمنحنيات الناشئة من الثلاثة القطاعات بسهولة .

ولأبولونيوس عدّة مؤلفات أخرى يصفها بابس بأنها جزء من "خزانة التحليل" وقد ضاعت جميعها الا كتاب "سكتيوراسيونيس" الذى يقع فى جزأين والذى وصل الينا باللغة العربية ونشر ترجمتـه باللاتينية هالى فى سـنة ١٧٠٦ وهو يتناول كل الحالات الممكنة للمسألة العامة التى هى اذا علم خطان مستقيمان سواءأ كانا متوازيين أم متقاطعين ونقطة ثانيـة على كل منهما فكيف ترسم مستقيما يمر بأية نقطة من النقط المعـلومة ويحدد على كل من الخطين أجزاء (مقيسة من النقطتين الثابتتين) النسبة بينهما تساوى نسبة معلومة ويبحث الكتاب المفقود "سكتيوسپاتى" بطريقة مشابهة لهـذه فى المسألة المشابهة لهـا التى لا بد للأجزاءالمحددة فيها أن (تكوّن) مستطيلا معلوما والكتب الأخرى التى ذكرت فيما رواه بابس هى:

(١) عن المقطع المحدد .

(٢) اللمس أو التماس والجزء الثالث مخصص كله للبحث فى مسألة رسم دائرة تمس ثلاثة دوائر معلومة يمكن تجـديد حل أبولونيوس هذا بصورة مرضية اذا استعنا على ذلك بالنظرياتِ المساعدة التى وضعها بابس .

(٣) المحال الهندسية المستوية أى المحـال الهندسية التى تكون خطوطا مستقيمة أو دوائر .

(٤) الميول والمسألة العامة فيها هى كيفية مد خط مستقيم ذى طول معلوم بين خطين مستقيمين أو منحنيين بحيث يتجه نحو نقطة معلومة أى يمر بها اذا مد . وقد قصر أبولونيوس بحثه على الحالات التى يمكن حلها بطرق مستوية أى بمستقيمات ودوائر فقط .

وقيل ان أبولونيوس ألف كذلك .

(٥) مقـارنة بين الجسم ذى الاثنى عشر وجهـا والجسم ذى العشرين وجها (المنشأين داخل كرة واحدة) برهن فيها على أن النسبة بين سطحيهما كالنسبة بين حجميهما .

(٦) عن اللولب الأسطوانى .

(٧) "رسـالة عامة" تبحث على ما يظهر الفروض الأساسـية وما اليها للهندسة الأولية .

(٨) كتابا عن المقادير غير المرتبة التى لا يمكن قياسها أى المقادير غير القابلة للقياس .

(٩) عن "المرايا المحرقة" الذى يبحث فى المرايا الكرية وربمـا بحث أيضا فى المرايا التى مقطعها قطع مكافئ .

(١٠) الايصال السريع وفى هذا الكتاب الأخير ذكر أبولونيوس مقدارا تقريبيا لقيمة ط أقرب من الذى ورد فى كتاب أرشميدس «قياس الدائرة» وربمـا احتوى الكتاب كذلك تفسـيرا للعدية التى وضعها أبولونيوس للأعداد الكبيرة حسب القوى المتعاقبة لعشرات الالاف .

أما الفلك فيروى أن أبولونيوس أجرى فيه أبحاثا خاصة تتعلق بالقمر وأنه سمى (إپسلن) لأن الشكل (اليونانى) لهذا الحرف متصل بالقمر . وكان كذلك أستاذا فى نظرية الدوائر التى مركزها على محيط دائرة أكبر تتحرك هى حولها ونظرية المنحرفات عن المركز .

وقد وصلت الهندسة الاغريقية الى ذروتها فى عصر أرشميدس وأبولونيوس والواقع أن الهندسة كانت قد أتت على جميع كل مواردها تقريبـا لولا التعبيرات والوسائل الأشد مرونة التى كانت يمدها بها الجبر، ومع ذلك فقد مضت مدّة ظل يظهر فيها علماء هندسة

قادرون حافظوا على التقاليد اليونانية واشتغلوا إما بتكميل التفاصيل أو بابتكار حلول جديدة للمسائل أو اكتشاف منحنيات جديدة يستفاد منها أو يبحث فيها .

كان نيكوميدس الذى يحتمل أن يكون قد ظهر فى الفترة التى بين أراتسثنيس وأبولونيوس هو مخترع الكونكيويد أو الكوكلويد الذى كان على ثلاثة أنواع مختلفة كما روى بابس . واشتهر ديوكليس (حوالى آخر القرن الثانى قبل الميلاد) بأنه كاشف السيسيد الذى كان يستخدم فى مضاعفة المكعب وألف أيضا كتابا عن المرايا المحرقة ربما تناول فيه بالبحث المرايا ذات السطوح التى مقطعها على شكل القطعين المكافئ والناقص مع غيرهما من أشكال المرايا واستخدم الخواص البورية لهذين القطاعين وفى هذا الكتاب أورد ديوكليس حلا مستقلا بارعا (بواسطة القطع الناقص والقطع الزائد القائم) لمسألة أرشميدس التى ترمى الى قطع الكرة بنسبة معلومة الى قطاعين ووضع ديونيسودورس بواسطة القطاعات المخروطية حلا للمعادلة المساعدة ذات الدرجة الثالثة التى أحال اليها أرشميدس مسألته هذه كما قدر ديونيسودورس حجم حلقة الرسو .

والمأثور عن برسيس أنه كاشف القطاعات الاسبريكية وباحثها وهى قطاعات خاصة أحد أنواعها حلقة الرسو . والحلزون يتولد من دوران دائرة حول مستقيم فى مستويها قد يكون خارجا عنها (وعندئذ يكون الجسم المتولد هو حلقة الرسو أو قد يكون قاطعا للدائرة أو مماسا لها .

كان زنودوراس مؤلف كتاب عن الأشكال المتساوية القياس والمسألة التى تناولها فيه هى مقارنة محتويات مختلف الأشكال المستوية أو المجسمات التى تتساوى محيطاتها أو سطوحها على التناظر .

وكتب هبسكليس (فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد) الكتاب الذى عرف بالجزء الرابع عشر من "المبادئ" ويحتوى نظريات تكميليــة عن المجسمات المنتظمة (بعضها مســتخرج من ارستايوس وأبولونيوس)، ويظهر أنه كتب أيضا عن الأعداد المضلعية والكتاب المتوسط فى الفلك الذى يعزى اليه هو أوّل كتاب أغريقى نجد فيه تقسيم دائرة البروج الى ٣٦٠ جزء أو درجة .

وكتب پوسيدونيس الرواقى (حوالى ١٣٥ — ٥١ قبل الميلاد) عن الجغرافيا والفلك تحت العنوانين : "عن الأقيانوس" و"المحيط" وقد حسب من جديد محيط الأرض وأخطأ فى حسابه بجعله ٢٤٠٠٠٠ ستاد) وعلى النقيض من ذلك قد افترض فروضا (بعضها تخمينى) فى قطعة (رسالة عن حجم الشمس) قائمة بذاتها (تفند الرأى الأبيقيورى الذى يقول بأنها من الكبر بقدر ما تظهر لنا) قدر فيها القطر الشمسى ٣٠٠٠٠٠٠ ستاد (أى قدر قطر الأرض $\frac{1}{4}$ ٣٩ مرة) وهى نتيجة أقرب بكثير الى الحقيقــة من تلك النتائج التى وصــل اليها) ارســتارخوس وهبرخس و بطليموس وقــد أورد پوســيدونيس فى الهندسة الأوّلية بعض تعاريف (أشهرها للتوازيات مبنى على فكرة تساوى الأبعاد) .

وقد كتب (حوالى ٧٠ قبل الميلاد) أحد تلاميذ پوسيدونيس وهو جيمينوس الروديسى كتابا كدائرة المعارف عن تبويب الرياضة ومحتوياتها يتضمن تاريخ كل فرع من فروعها وقد صان منه پروكليس وغيره بعض مقتطفات جديرة بالذكر ونقل النــيريزى (عربى من شراح اقليدس) محاولة أحدهم وهو أجانيس ولعــله جيمينوس أن يبرهن على فرض التوازى .

ولكن الظاهر أنه منذذلك الحين زوت دراسة الهندسة العالية (ما عدا الكرية منها) حتى ظهر (عند نهاية القرن الثالث بعد الميلاد) ذلك الرياضى الذى يستحق الاعجاب وهو بابس فأحيي فى الناس الاهتمام بالموضوع وانا لنستخلص من الطريقة التى ظن بابس فى كتابه العظيم "التجميع" أنه لا بد من اتباعها فوصف بشيء من التدقيق فى التفاصيل محتويات الكتب التاريخية التى تتصل "بكنز التحليل" أن كثيرا من هذه الكتب كان فى عهده قد ضاع أو غشيه النسيان وأن بابس لم يكن يرمى الى أقل من تأسيس الهندسة من جديد واعادتها الى مستواها القديم وما كان لأحد أن يفوقه فى حسن الاستعداد للقيام بهذه المهمة والغالب على الظن أن الاهتمام الذى استطاع بابس أن يثيره ضعف سريعا ولكن كتابه "التجميع" لا يزال أوسع المراجع وأثمنها بعد الكتب الأصلية التى وضعها عظماء الرياضيين وهو بمثابة كتاب مرجع أو دليل للهندسة اليونانية يكاد يشمل أو يحيط بجميع نواحى ذلك الميدان ومن الأشياء المبتكرة فى "التجميع" الذى ألفه بابس عبارة صاغها تعد بمثابة توقع للنظرية المعروفة بنظرية جولدين .

بقى أن نتكلم عن ثلاثة فروع وهى حساب المثلثات (الذى يمثله هبرخس ومنيلاوس وبطليموس) وعلم تقدير السطوح (المساحة) (الذى يمثله هيرون الاسكندرى) والجبر (ويمثله ديوفانتوس) .

ولو أن مبادئ حساب المثلثات ترجع من جهة الى عهد أرشميدس (قياس الدائرة) الا أن هبرخس هو أول شخص يمكن التدليل على أنه استخدم حساب المثلثات بنظام فهذا الرجل هو أعظم علماء الفلك الأقدمين والذى أجرى أرصاده بين ١٦١ و ١٢٦ قبل الميلاد . كشف تقدّم الاعتدالين وقدّر بالحساب

متوســط طول الشهر القمرى ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة و $\frac{1}{2}$ ٢ ثانية (وهو يختلف عن القيمة التى يؤخذ بها الآن بأقل من دقيقة) وأجرى تقديرات أصح من تقديرات من سبقه لحجمى الشمس والقمر وبعديهما وأدخل تحسينات عظيمات فى الآلات المستخدمة فى الرصد وجمع مجموعة تحوى نحو ٨٥ نجما ويظهر أنه أول من عبر عن موضع هذه النجوم بدلالة خطوط الطول والعرض (بالنسبة لدائرة البروج) وقد ألف كتابا يقع فى اثنى عشر جزءا عن الأوتار فى الدائرة يعدل جدولا للجيوب المثلثية واستخدم نظريات فى حساب المثلثات الكرية لاستخراج الأقواس الفلكية بالحساب من أقواس أخرى معلومة بواسطة الجداول .

ليس فى كتاب "الكرويات" الذى ألفــه ثيوروسيوس البثينى المكتوب حوالى سنة ٢٠ قبل الميلاد حساب مثلثات ولكن هذا يختلف عنه فى "الكرويات" الذى ألفه منيلاوس الموجود باللغــة العربية ويحتوى الجــزء الأول من هــذا الكتاب نظريات عن المثلثات الكرية تناظر النظريات الأساسـية التى فى اقليدس عن المثلثات المستوية (كنظريات التطابق مثلا والنظرية التى تنص على أنه فى المثلث الكرى مجموع الثلاثة الزوايا أكبر من قائمتين) بينما يحتوى الجــزء الثـالث حساب مثلثات كرى حقيق يتألف من نظرية منيلاوس بالنسبة للكرة واستنتاجات منها .

وكتاب بطليموس العظيم "التكوين" الذى كتب حوالى ١٥٠ بعدالميلاد والذى كان يسمى فى الأصل "المـاتيماطيقى سنتا كسس" صار يعرف بـ "المجالا سنتا كسس" وقد كوّن العرب من صيغة المبالغة وهى لفظة كلمة المجسطى التى أصبحت تطلق عليه .

والجزء الأول الذى يحتوى المقدمات الضرورية لدراسة النظام البطليموسى فيــه جدول للأوتار الدائرية التى تقابل زوايا رأسها فى المركز = ½° وتتزايد بقدر هذا النصف حتى تصل الى ١٨٠° وقد قسمت الدائرة الى ٣٦٠ جزءا أو درجة والقطر الى ١٢٠ جزء وقد ذكرت الأوتار بدلالة الأخير وكسور "ستينية" (فمثلا الوتر المقابل للزاوية ١٢٠° = ١٠٣ جـ ٣َ ٥ ٢٣ً) وجدول الأوتار يعادل جدول جيوب أنصاف الزوايا التى فى الجدول لأنه اذا كان الوتر ٢ ا يمثــل الوتر المقابل للزاوية كان الوتر ٢/١٢٠ وقــد بدأ بطليموس بذكر أقل عدد من النظريات الهندســية الضرورية لحساب الأوتار وأول هــذه تعطينا (وتر ٣٦°) ، (وتر ٧٢°) من هندسة سومين داخل الدائرة والثانية (نظرية بطليموس عن المثلث المتساوى الأضلاع فى الدائرة) تعادل قانون حا (ثيتا — فاى) والثالثة قانون حا (½ ثيتا) ومن (وتر ٧٢°) ، (وتر ٦٠°) ، استنبط بطليموس باستخدام هذه النظريات على التوالى مقدار (وتر ١½°) ، (وتر ٣/٤°) ومن ذلك استنبط (وتر ١°) بطريقة تفسير تنم عن ذكاء ولا ينقص لاتمــام الجدول الا نظريته الرابعــة التى تعادل قانون جتا (ثيتا + فاى) .

كتب بطليموس كتبا فلكية أقل أهمية من هذا معظمها لا يزال موجودا إما بالعربيــة أو اليونانية وكتابه عن البصريات يقع فى خمسة أجزاء (أربعــة تكاد تكون كاملة وترجمت الى اللاتينية فى القرن الثــانى عشر) وكذلك كتب محــاولة للبرهنة على فرض التوازى أعاده بركليس .

أما هيرن الاسكندرى (ولا يعلم بيقين الزمن الذى عاش فيه وربمـا كان متأخرا الى وقت القرن الثالث بعد الميلاد) فقد كتب فى الموضوعات الرياضـية والطبيعية كتابه على نسق دائرة المعارف وكان يقصد الى الفائدة المـادية العملية لا الى الكمال النظرى ولذلك إذا ضربنا صفحا عن مجموعة التعاريف الممتعة التى وصلت الى أيدينا باسمه وعن انتقاداته على اقليدس التى لا تمثلها الا مقتطفات فى كتابات بركليس والنيريزى اذا استثنينا ذلك فان هندسته معظمها تقديرات للسطوح على شكل أمثلة عددية محلولة. ولمـا كانت هذه قابلة للتوسع بغير حد فقد كان فيها ما يغرى الناس بأن يضيفوا اليها و ينشروها باسم هيرن .

و بقطع النظر عن مقدار ما هو مطابق للواقع من الكتب التى نشرها هلتش فلا بد لنا الآن من أن نعتبر المتريكا الأصلية التى كشفت فى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ وطبعها هـ . شون سنة ١٩٠٣ مرجعا أقوى فالجزء الأول من مقاييس المساحات له أهمية خاصة لمـا يأتى :

(١) لأنه يذكر القانون الذى استخدمه هيرن لايجاد قيم تقريبية للجذور الصماء .

(٢) للبرهان الهندسى الظريف على قانون مساحة المثلث وهو $\Delta = \sqrt{\{\text{ح}(\text{ح}-\text{ا})(\text{ح}-\text{ب})(\text{ح}-\text{حـ})\}}$ قانون معروف الآن بأنه يرجع الى أرشميدس .

(٣) اشارة الى نهايات قيمة ط التى أوجدها أرشميدس والتى هى أدق من المقـادير $٣\frac{١}{٧}$ ، $٣\frac{١٠}{٧١}$ التى وردت فى كتاب "قياس الدائرة" .

والجزء الأول من المتريكا يحسب مساحات المثلثات والأشكال الرباعية والمضلعات المنتظمة لغاية المضلع ذى الاثنى عشر ضلعا (حتى أن مساحات المسبع والمتسع وذى الأحد عشر ضلعا نفسها مقدرة على وجه التقريب) والدائرة وقطاعها والقطع الناقص وقطاع القطع المكافئ وسطوح الأسطوانة والمخروط القائم والكرة وقطاعها ، ويبحث الجزء الثانى فى قياس المجسمات : الأسطوانة والمنشورات والأهرامات والمخاريط وأجزائها (أى القطاعات الناقصة) والكرة وقطاعاتها وحلقة الرسر والمجسمات المنتظمة الخمسة وأخيرا المجسمين الخاصين الواردين فى طريقة أرشميدس وقد استخدمت فى ذلك بكثرة جميع نتائج أرشميدس والكتاب الثالث يبحث فى تقسيم الأشكال والجزء الخاص بالأشكال المستوية يشبه كثيرا فى أسلوب كتابته كتاب "التقسيم" (أى تقسيم الأشكال) لاقليدس والمجسمات التى قسمت بنسب معلومة هى الكرة والهرم والمخروط وجزؤه (أو المخروط الناقص) وقد بين هيرن عرضا كيف يحصل على تقريب للجذر التكعيبى لعدد (١٠٠) الذى ليس بالمكعب الكامل وقد حل هيرن المعادلات التربيعية (ذات الدرجة الثانية) بقاعدة منتظمة ليست بعيدة الشبه عن طريقتنا وتحوى "الجيومتريقا" على مسألتين هامتين غير محددتين .

كتب هيرن أيضا "النوماتيكا" وفيه يجد القارئ أمورا كالمصاصات ونافورة هيرن وآلات بنس فى الثقب ومضخة حريق وأرغون مائى وترتيبات عدة تستخدم فيها قوة البخار وعمل (المتحركات بذاتها) والبلوبيكا ويبحث فى الآلات الحربية و "الكاتوبتريكا" والميكانيكا وقد نشر "الميكانيكا" عن العربية وقد ضاع أصله اليونانى (الا قطعا قليلة) ويبحث عن معضلة عجلة ارسطو ومتوازى

أضلاع السرع وتعريف مركز الثقل ومسائل عليه وتوزيع الأثقال على عدّة حوامل والخمسة القوى الميكانيكية والميكانيكا فى الحياة اليومية (أسئلة وأجوبة) ويتناول بابس فى الجزء السابع من كتابه "التجميع" نفس المادة .

نأتى بعد ذلك على ذكر الجبر ونجد فى ورقة البردى "الرند" مسائل تتضمن معادلات بسيطة وكذلك فى "الأياثيما" تأليف تيماريداس الذى سبقت الاشارة اليه وأيضا فى المقطعات الحسابية فى المختارات اليونانية (يشير أفلاطون الى هذا النوع من المسائل فى القوانين ٨١٩ ب ، ج وتلك المختارات تحتوى كذلك حالتين من حالات المعادلة غير المحددة من الدرجة الأولى وقد أورد الفيثاغوريون حلولا عامة بأعداد مقيسة للمعادلات $س^٢ + ص^٢ = ع^٢$ ، $٢ س^٢ - ص^٢ = \pm ١$ وهى معادلات غير محددة من الدرجة الثانية .

وكان أول من استخدم الرموز فى الأعمال الجبرية بطريقة نظامية هو ديوفانتوس الاسكندرى (حوالى ٢٥٠ بعد الميلاد) فاستخدم :

(١) علامة للكمية المجهولة وسماها أرثموس صورة مختصرة لقواها حتى القوّة السادسة واستخدم :

(٢) علامة أخرى (↑) تقابل علامة (—) التى نستعملها والعلامة الأخيرة ربما كانت اختصارا للأصل اليونانى لكلمة معناها ناقص وعلامة (‿) هى فى الغالب اختصار للحرفين اليونانيين (ألفا ، رو) وكانت الصورة المختصرة لقوى الكمية المجهولة يرمز لها بالرمز $\Delta^{ص}$ للربع و $ك^{ص}$ للكعب وهكذا وبين ديوفانتوس أنه حل معادلات الدرجة الثانية بقانون كما فعل هيرن وكتابه (الأرتماطيق) الذى لم يبق

منهسوى ستة أجزاء من ثلاثة عشرجزءايحتوى على عدد من المسائل تؤول الى معادلات بسيطة ولكن أكثره قد خصص للتحليل الذى يتناول المقادير غير المحددة أو شبه المحددة ولا سيما ذات الدرجة الثانية والمجموعة متعددة النواحى بدرجة مدهشـــة والطرق التى اتبعت فيها تنم عن ذكاء كبير والمسائل المحلولة تشبه ما يأتى (ويسمح بالأجوبة الصحيحة والكسرية على حد سواء) :

بمعلومية عدد يراد ايجاد ثلاثة أعداد أخرى بحيث يكون مجموع الثلاثة أو أى اثنين منها مع العدد المعلوم مربعا كاملا والمطلوب ايجاد أربعة أعداد بحيث يكون مربع مجموعها زائدا أو ناقصا أى عدد منها مربعا كاملا والمطلوب ايجاد ثلاثة أعداد بحيث يكون حاصل ضرب أى اثنين منها زائدا أو ناقصا مجموع الأعداد الثلاثة مربعا كاملا وقد فرض ديوفانتوس أن القارئ يعـلم نظريات معينة عن الأعداد التى تساوى مجموع مربعين أو ثلاثة مربعات على التناظر وخواص أخرى فى نظريات الأعداد وكتب أيضـا كتابا فى الأعداد المضلعية لم يبق منه الا جزء صغير .

وبابس وديوفانتوس تختتم قائمة المؤلفين المبتكرين فى الرياضة وجاء بعدهم الشراح الذين لا يمكن ذكر أكثر من أسمـائهم هنا ومنهم ثيون الاسكندرى ناشر كتاب اقليدس وقد عاش حوالى نهاية القرن الرابع بعـد الميلاد وفى القرنين الخامس والسادس جاء بروكلوس وسـنبلسيوس وأوتوسـيوس الذين لا يمكن أن نجزيهم الجزاء الكافى على ما احتفظوا به من البقايا الغاليـة لكتب هى الآن مفقودة ولا سيمـا تاريخ الهندسـة وتاريخ الفلك ليودموس تلميذ ارسطو .

تلك هى قصة العلوم الرياضية الاغريقية واذا كان ثمت ما يزيد فى اعجازها فهو أن ندخل فى الاعتبار قصر الوقت (نحو ٣٥٠ سنة) الذى استطاع فيه الاغريقيون وقد تناولوا تلك العلوم من بدايتها الأولى أن يصلوا بالهندسة الى درجة اجراء عمليات تعادل حساب التكامل وفى عالم الفلك أن يسبقوا كوبرنيق فعلا الى آرائه .

العلوم الطبيعية

ارسطو

لجوته الشاعر الألمانى الفيلسوف مقال صغير سماه الطبيعة هو فى جملة ما كتب فى العلوم الطبيعية فتناول فيها عقل الشاعر الفيلسوف التواق الى البحث فى شتى الموضوعات من ضوء ولون وأبراق وأزهار وجمجمة وفقار يخيل للانسان أنه منثور شعرى أو أنشودة شريفة مؤنقة تحث على النظر فى الطبيعة وتزين درس أحوالها . وقد كتب أنا كسيمندر الحكيم اليونانى قبل ذلك بخمسة وعشرين قرنا كتابا شارك المقال المذكور فى العنوان وخالفه فى الموضوع والكتاب صورة أخرى لمذاهب التكوين الشائعة . فذكر فيه كيف كانت الأرض فى البدء خالية لا شكل لها . وأراد أن ينسب كل شىء فى مؤلفه هذا الى القوّة الأزلية التى لا تحد بزمان أو مكان تلك القوة التى وجدت قبل العوالم كلها والتى يصير اليها فى النهاية كل شىء . والطبيعة لجوته هى الجمال أى جمال العالم بأنواعه خلا ما يتعلق بالأشياء الملموسة أما الفيلسوف الأكبر سنا فيرى فيها سرا لروح الخالق ولا شىء فى عرف جوته أعلق بنفوسنا من الطبيعة فهى التى يتصدى لوصفها كثير من الشعراء ويقفو على آثارهم فيها من دونهم . أما فيما كتب اليونان فلا أذكر تشبيبا بجمال الطبيعة وهياما بها شبيها بذلك ولكن التواليف اللاتينية أتت بالمعجب من القول فى بدائع الطبيعة لذاتها على النسق الذى يروقنا ونستطيبه اليوم .

ولعل هذا السبيل هو أقرب السبل التى جعلت العالم الرومانى يظهر أقرب لنا من العالم اليونانى وهو لا يظن أقرب الينا فحسب بل هو فى الواقع كذلك فاننا اذا وازنا بين حضارة روما وغيرها من الحضارات السالفة ألفيناها عصرية وتنتمى الى حضارة الغرب على أننا مهما تقربنا بقلوبنا الى الحضارة اليونانية أنسنا منها تلك النغمة الشرقية وشممنا منهـا ذلك عبقا من المـاضى القديم . فابن (توسكانيا) اليوم لا يختلف عن ابن روما بالأمس كلاهما فلاح كما كان كاتو ومحب للطبيعة مثـل هوراس يذهب الى مزرعته أو كرمة مثل اتيكوس أو پلينى الصغير وكما أن (بيكون) تغنى بمحاسن حديقته كذلك پلينى تغنى بمحـاسن ضيعته . وما فيهـا من حقول الحنطة وخصيب السهول ومثمر الكروم والدوح الظليل وما تضمنت رياضها من أشجار الفاكهة وشجيرات الزهر وما فيها من خلايا النحل والزهور .

وقديمـا قال ڤارو قبل كوبر بزمن مديد : انـــ الريف من صنع الله ، أما الحضر فمن صنع الانسان ، ولا تجد مثل هذه العبارة المأثورة فى كتب اليونان .

لقد قال شيلر : ان اليونانيين كانوا يتأملون الطبيعة بعقولهم لا بعواطفهم . فلم يرد لهـا عندهم أى ذكر يشعرنا صريح حبهم إياها وإعجابهم بها . وقال (همبولت) : ان تصوير الطبيعة لذاتها وفى مختلف مظاهرها كان بعيدا عن أفكار اليونانيين ويصرح أن المنظر الطبيعى يشغل الجزء الظهرى من صورتهم بينما تشغل الجزء المهم منها شئون الناس وأعمالهم وأفكارهم غير أنك تجد فى هذه الصورة كما هو الحال فى بعض الصور الايطالية القديمة لدومينكينو

أو ألبانى أو ليورناردو نفسه أن الجزء غير المهـم قد صوّر بدقة ويظهر لك رائعا جميلا وقد يؤدى بنا ذلك أحيانا فى نهاية الأمر الى تقديره أكثر من باقى أجزاء الصورة .

ان منبت علومنا الطبيعية تجـده متأصلا فى ثرى حبنا للطبيعة سواء كان هذا الحب حسيا أو عقليا ومتغلغلا فى فن النظر والملاحظة وهو نتاجها وأول مدلولاتها وكل ما نمـا فوق ذلك فهو تراث للناس كافة ، على أنه قد يختلف ما يصيبه البعض عما يصيبه البعض الآخر كثرة وقلة ، ويتجلى هذا فيما وقع الينا ممـا خلف القانص وصائد السمك والراعى والفلاح والفنـان والشاعر . فليست معارف القدماء فى التاريخ الطبيعى مقصورة على ما أدلى به ارسطو وبلينى . بل تجدها متشعبة فى بطون الأسفار الأدبية القديمة .

ومهما أوردنا فى القول بشأن ذلك الصمت الذى استقبل به اليونانيون هذه المعـارف فانها تحيينا بنبل فى كلام هوميروس وتشنفنا بشعر (أنا كريون) ويوفق رعاة صقلية مزاميرهم تبعا لها فيما سطر نيوقراطس ثم ننتقل الى أشعار فرجيل فنحلم بهذه المعارف بين صدح اليمام الباكى ودوى النحل المجد .

ولم يقتصر ما انتهى الينا فى علم تاريخ الطبيعة من كتبه ومناحيه على ما كتب عظماء كهؤلاء ، بل يجب علينـا أن نتلمسه كذلك فى ثنيات التواليف الأدبية المختلفة فنضيف على ما خلف ارسطو وبلينى من المؤلفات العلمية مستعينين بالشذرات الباقية مما كتب بعض الطبيعيين مثـل (أسبيسبوس أو الاسكندر المنـديانى) ونزيد على أقاصيص هيرودوت المعروفة حكايات (اكترياس) و(مجسطنيوس) الهندية ثم نجلس الى مائدة العشاء مع (اثنيوس)

فلنلتقط أحاديث الطاهى ونصغى الى هـذا الجمع المبتهج ومن فيه من هؤلاء الرجال الجذلين حين يتنافسون فى حلبة الشعر ويقصون القصص ثم نقرأ تواليف (أكسينوفون) فى الصيد وندرس ما قرض من الشعر للتعليم مثل قصيدتى (سينجتيكا) و (هليوتيكا) لأوبيان وأوفيد وبعد ذلك لنـا أن نعرج على عالم أدبى أكبر من هذا فيه الشاعر والأديب من كاتب الخرافات الوضيع الى عظماء الروائيين ومن (هوميروس) فى عظمته الى لوسيان فى مضاء خاطره تجدهم جميعا على مشاركة فى حب الطبيعة يجعلون حواشى أقاصيصهم الموفقة جذابة بالاشـارة فيها من طرف خفى الى حيوان أو طائر ثم ان هذه الاشارات يتناولها الفنى أولا بالصقل ثم تصبح قدسية لكثرة ما تعيها الذاكرة فتبقى بعد ذلك كنزا فى صدور الرجال وتتبوأ لها مكانا فى أحسن كتبنا فى الأدب .

خذ مثلا من ألف مثال تتوارد اليك وهو تلك القطعة المشهورة بالاليـاذة . ففيها تشبيه الجيش اليونانى حيـن نزوله فى سهول سكامندر بأسراب مهاجرة من الكراكى أو الأوز أو البجع المشرئب الأعنـاق تطير مختالة فوق مروج آسيا وتهبط صاخبة بازاء مجرى (كيستر) . وكم من مرة ردّد فرجيل صدى هذه السطور المألوفة . وصف هوميروس ثانيــة ما بلغ به أسباب السماء نفسها وأورد (هسيود) و (بنـدار) شيئا عن صخب الكراكى البعيد وهو يطرق السمع من فوق السحاب ، وهناك مثال قديم فى أيام (هسيود) وهو أن الكركى كان يراعى وقت قدومه بصيرا بالفصول يضربون المثل بمعرفة الكركى لفصول السـنة اذ كان ينذر بحلول الشتاء ويوعز الى الفلاح لاعداد نفسه للحرث .

وذكر (تيوقريطس) أن الكركى كان يتبع المحراث بلجاجة كما يتأثر الذئب الحمل أو كما يلزم فتى المزرعة حبيبته وطالما افتنوا فى وصف نظـام الكراكى المهاجرة وتجمع صفوفها على شكل صفين محتشدة أثناء طيرانها وحسن تنسيق أسرابها المستريحة. وقد أبان ارسطو كيف أنها تختار دليلالها يسهر على حراستها بالليل ويصيح بالبطئ المتأخر أثناء الطيران. وجمع (أور بيدس) ويعد أكثر كتاب المأساة تقربا من الطبيعة كل هذه القصة القديمة فى أبيات من الشعر وهى :

يتحاشى سرب الطيور الليبيائية عاصفة الشتاء نزولا على نداء قائدها الهرم الذى يصيح لقطيعه وأخيرا جمع ملتون فى شعره ماذكر من هذه التلميحات الى الكراكى المهاجرة والكثير غيرها من القديم مغزى وشكلا :

ويحلق البعض بلا مبالاة فوق المنطقة والبعض الآخر وهو يشاركه فى تنسيق صفوفه ويشق طريقه وهو على دراية بالفصول ويبدأ قافلته الهوائية طائرا فوق البحر والبر وترفرف لتقلل عن أنفسها عناء الطير على هذا النمط يقوم الكركى النابه بالقيادة .

وما نأخذه عن الشعراء من التاريخ الطبيعى بمثابة قصة لا آخر لها اذا ما قدّرنا المعارف القديمة مهما يكن تقديرنا موجزا ، فهناك مسائل أخرى جديرة ، بالتأمل ووجهات أخرى للنظر ، يجب أن نقف عندها .

فاذا نحن تدبرنا العلوم اليونانية وأسرعنا الى التعلق بها وبدت لنا عظمتها تدريجا . ألفيناها كذلك محصورة مفيدة قياسا على علومنا يشـوبها التحيز العجيب أو يطبعها التحديد . فلا وجود عندهم

للعلوم العملية النافعــة كالكيمياء والميكانيكا والهندسة وكلها علوم طغت على الناس وغمرتهم فى العصر الحديث . هى خافية بحيث تنسى فنمرّ بها غير ملتفتين . أما الرياضيات فكانت عندهم فى أوج فوق الجميع كما يليق بها . فتبوأت عرشها قرنا من بعد قرن من دون منازع . من فيثاغورس الى (بروكليس) ومن نثير المدارس فى عهد الحضارة الاغريقية المتقدمة الى عهد ازدهار جامعة الاسكندرية ثم ذبولهـا وكان بجانب الرياضة من قديم الزمن وليدها علم الفلك وكان كلاهما المحبب الموموق عند أعظم فطاحل علماء اليونانيين . يجب ألا يتطرّق الينا الظن لحظة أن العلوم العملية والفنية كانت معدومة فى مثل هذه الحضارة المركبة ذات الرخاء بالرغم من أننا لم نسمع بها ولم نقرأ عنها فالخزف وهو أنخر آثار العصور القديمة الباقية لا ينبئنا بمـا فيه من كيمياء على أننا نعلم أنها موجودة هنالك . قلب الطرف فى بلد صينى وسر فى شوارعه الضيقة المكتظة الخالية من اللجب حيث لا تسمع ضجيج العربات ولا فرقعــة العجلات تخلص لك صورة هى أقرب شيء لمـا نسمع عن (سيبارس) فصناعة تلك الحرائر الزاهية والآنية الخزفية الرقيقة والمصنوعات المعدنيــة الدقيقة تطلبت الكثير من المعارف الكيميائيــة منقولة كانت أو تجريبية .

على مثل هذا كانت الحال بالضبط عند قدماء اليونانيين وقد عرف أفلاطون أن الأمر كذلك أى أن لكل من الصباغ والعطار والأقرباذينى فنه الخفى وعلمه المستور الخاص به وهو مما لا يستهان به ولا يستصغر شأنه ولقد نعثر هنا وهنالك على بحث مجد انتقل بصاحبه من الحدس الى اليقين أو تحليل صبغة أو سبيكة أو قطعة من نفايات المعدن ونهتدى فى مدوّنات يرجع عهدها الى ما قبل

زمن الاغريق الى التركيب الكيميائى لما كانت تستعمله احدى الأميرات المصريات لتكحيل عينيها . أو نتأمل فى صور ما كان يستعمله أتباع (طوبال كين) فى صهر المعادن من موقد وفرن ومنفاخ و بوتقة . وفيما عدا هذه المرة قلما أصاب الانسان فى الأدب اليونانى شيئا من الكيمياء . فهنالك نبذة غريبة صبغتها غير صحيحة وترجمتها مستعصية تضمنتها قصة (آرجونوت) ويذكر فيها كيف أن (ميديا) صنعت خمرها السحرى فكانت تخلط بين أعشاب شتى لها عصارات ملونة مثل العصفر وحناء الغول والصابونية الخ...... لتكسب المخلوط قواما ثم تمزجه بالشب والزاج الأزرق (كبريتات النحاس) ثم تضيف اليه دما ولم يك هذا الخمر السحرى الا ضربا من الصبغ القرمزى لا أكثر ولا أقل ولكن صنعه يتطلب الكثير من المعلومات الكيميائية فأضيف النحاس للحصول على أملاح النحاس التى من نوع القلويات النباتية وهى من أبهى المواد الملونة وأثبتها والشب لتثبيت الألوان بل الدم لم يكن وجوده فى المخلوط عن خرافة وانما لما عرف عنه من خاصية الترسيب وترويق المختمر (بواسطة زلاله المجمد) .

والرواية رفية للقصة التى وردت فيها تلك النبذة ربما ترجع الى العهد السكندرى وسواء أكانت العقاقير التى اتخذت منها الخمر السحرية جاءت بالنص فى السير القديمة أم اقتطفها الشاعر من العلوم الى أيامه فهذا مما لا يمكن القطع به وكيفما كانت الحال فان هذا التركيب قديم يسبق العهد البيزنطى بعدّة قرون على الأقل وليس هذا بفريد فى نوعه فقد جمعت نتف أخرى من الكيمياء القديمة تشبهه بعض الشبه . وفى الوسع أن نعثر على شتيت أطلال صرح الكيمياء القديمة فى كتاب (جالينوس) الموسوم باسم تركيب الأدوية

النباتية وفيما كتب (پليني) و (باپولص أغنيتا) وما ورد في أوراق البردى المصرى (خصوصا الورقة المشهورة التى لا تزال باقية والتى وصفها (كليان السكندرى) بأنها كتاب أسرار الكيمياء ومع ذلك فجميع هذه المعلومات ضئيل المكانة فى كتب الأدب فلا تكاد تذكر عند تقديرنا مواهب اليونانيين القدماء . ولسنا نستطيع أن نفترض أن الكيمياء القديمة أو أى شطر منهـا كان فى أى عصر ذا صبغة يونانية بحتة أو أن هذا العلم كان ملكا خاصا لأى أمة وفضلا عن ذلك فقد كانت حرفة تجارية أو مجموعة من الحرف تعدّ أسرارها من النفاسة بحيث لا يجـدر افشاؤها وبذلك عاشت كالأحاجى والألغاز لا كالعلوم .

هكذا كانت حالة الكيمياء دائمـا وهى أعظم العلوم شيوعا بين الأمم وأكثرها اكتنافا بالأسرار ثم انبثت فى العـالم وتسربت فى هدوء . فأبان عن شيء منها متعاطى صناعة الالتحام . فأخذ كبار صناع الفولاذ فى دمشق وطليطلة علمهم عن قبائل أفريقيا وهى أول من عالج صناعة الحديد .

ولم تكن تجـارة الكيمياء علما جديرا بالرجل المهذب كما كانت الفلسفة والرياضيات فكان أفلاطون زعيم الفلاسفة من كبار المهذبين وبعد ذلك بزمن كبير أدلت (اكسفورد) الى روبرت بويل بمثل هـذا الرأى أى أن الكيمياء ليست بالمهنة التى تليق بالسادة ولكن روبرت بويل خالفها فى الرأى وبذلك أصبح شقيق الأرل (كورك) أبا الكيمياء العلمية :

وانى أعتقد فيما يختص بعلم الحياة أن ارسطو قام بمثل ما قام به (بويل) متخطيا بذلك تقاليد مشابهة لتلك فكان هذا من أعظم

مآثره الجليلة وقد وجد شيء كثير من معلومات التاريخ الطبيعي قبل عهده ولا يعزى هذا الا لمن اشتغلوا به من زارع وقانص وصائد ولا شك أنه وجد زيادة على ذلك شيء للطالب والخامل والشاعر فأوجد ارسطو من كل ذلك علما وأحله مكانا لائقا فى الفلسفة أى أن ارسطو عمل ما عمله (فيثاغورس) فى الرياضيات فى عهد سابق (كما ينبئنا بروكليس) اذ فصل الفلسفة التى تضمنها فن الهندسة التجريبي القديم وجعله قاعدة تعليم فى التربية الحرة المطلقة .

كان الصائد على شواطئ البحر المتوسط لا يختلف عن الصائد الصينى أو الصائد اليابانى فيما لا يزال عنده ، كما كان شأنه دائما ، من المعلومات الجمة فى كل ما يتعلق بمهنته أو يلازمها . أما الصائد الاسكوتلندى فمفرداته محدودة ولا تكاد تتعدّى أسماء أصناف السمك القليلة التى توجد فى السوق بخلاف الصائد على شواطئ مرسيليا وجنوه ومياه الشرق اذ عندهم أسماء مئات من أنواع السمك وذوات المحار والأصداف والأسماك المرجانية وأشتات السوابح والزواحف ولهم علم بكثير من عاداتها فى حياتها . لا بل قد تزيد معلوماتهم بها عنا معشر العلميين فى بعض الأحايين فهم من علماء التاريخ الطبيعى بحكم التقاليد والاتجار وبهذه المناسبة يجب ألا ننسى أيضا المعلومات الطبية والتشريحية القديمة لفريق الاسكولابيين ومعلومات القسس العريقة فى الخفاء وهى خاصة بكثير من المخلوقات كالسمك المقدّس والحمام والدجاج والأفاعى وما اليها (شأنهم فى ذلك شأن اخوانهم قساوسة الصين واليابان اليوم) وهى التى ربوها وعنوا بها وقدّسوها من قديم الزمن .

وليس من المستطاع التحقق مما استكشف ارسطو من جديد الحقائق وسواء أثبت أنه استكشف الكثير منها أم اتضح أنه لم يستكشف بنفسه شيئا البتة فلن يؤثر هذا شيئا فى تقديرنا لعظمته واعجابنا بعلمه فهو أول فلاسفة اليونانيين ومهذبيهم الذين أدركوا أن هــذه الأشياء خليقة بالحفظ جديرة بتعليمها للناس. وهذا هو استكشافه العظيم الشأن .

ولقد بسطت فى غير هــذا المكان كيف قضى ارسطو سنتين ربما كانتا أسعد سنى حياته عند ساحل البحر بجزيرة (متيللين) فكانتا كشهر عسل طويل وذلك عقب زواجه من الأميرة الصغيرة وقبل أن يبدأ بعمله الشاق فى الحياة أى قبل أن يتولى تعليم الاسكندر فى مقدونيا وقبل أن يخطب أبناء بلده والعــالم فى الليسيوم بزمن كبير . ففى تلك الجزيرة درس الجزء الأعظم من معلوماته فى التاريخ الطبيعى التى يظهر فيها ، رغم توسعها ، من أولهــا الى آخرها ما للأحياء المــائية من الأهمية الممتازة .

ولقد حاولت أن أشرح فى غير هذا الموضوع كما حاول غيرى من الكتّاب شيئا مما انطوت عليه معلومات ارسطو عن الحيوانات من التنوع و بعد الغور بضرب الأمثلة فكنت فى عملى هذا كمن يغترف قليلا من المــاء من بئر لا ينضب .

خذ مثلا مشهورا وهو: "الحيوانات الرخوة" تجد أحد شيئين إما أن معلومات ارسطو كانت نهاية فى الدقة و إما أنها وصلت الينا فى حالة من الكمال غير مألوفة .

وهــذه الحيوانات هى ذوات المداد وقد فارقها اسمها الذى سماها به ارسطو وهو " الحيوانات الرخوة " واندمجت فى مجموعة

كبيرة وجد أنها تشملها وتشمل الأصداف التى كان يسميها ارسطو استراكودرما وذوات المداد من المخلوقات التى ينـدر أن نراها ولكنها فى البحر الأبيض المتوسط من مواد الأغذية ويعرف الصيادون منها أنواعا كثيرة جميعها أو كلها على التقريب كان معروفا لارسطو فقـد وصف أشكالها وتشريحها وعاداتها وكيفيـة نموّها وذلك بدرجة من الدقة والأمانة يظهر لك معها أن كل ما يمكن أن نضـيفه اليها اليوم ذو أهمية ثانوية .فانه بدأ بوصف منسق للشكل العام وتكلم عن الجسم والزعانف والثمانية الأذرع وما اصطف عليها من ماصات وأرؤسها النابيـة الوضع ثم بين لنا الرجلين الطويلتين فى السيبيا والكالوماري وعدم وجودهما فى (الاخطبوط) ثم أخبرنا بشيء لم يتحقق الا حديثا وهو أن الحيوان يتعلق فى الصخور بواسطة هاتين الرجلين الطويلتين ويهتز كالسفينة بعد أن تلقى مرساتها فى اليم . ووصف ارسطو أيضا العينين الواسعتين والسنين الكبيرتين اللتين هما بمثابة المنقار ثم شرح التركيب الكلى للأمعاء بمريئها المديد وحويصلتها المستديرة والمعدة والأمعاء الدقيقة اللولبية . ولم يقصر تشريحه على نوع واحد بل تنـاول أنواعا كثيرة مبينا من الاختلافات ما لم يلاحظه غيره حتى أتى (كوفييه) وشرحها ثانيـة ووصف أيضا (القمع) وعلاقته بالكيس الشبكى والكيس المدادى مبينا أن هذا الكيس فى السيبيا أكبر منه فى سواها . وعلى ذكر ذلك نقول: ان ارسطو أخطأ فى أمر ظاهر وقد اتضح فى الواقع أن له العذر فيه . فقد ذكر لنـا عن نوع الاخطبوط دون سائر الأنواع أن القمع فيه فى الجانب الأعلى ولكن الحقيقة أن الحيوان اذا تمدد ووجهه نحو الأرض وبسط أرجـله جميعا فان القمع بالنسبة لطوله يبرز بين الأذرع والرأس

(بدلا من أن يكون مفرطحا تحت جسم الحيوان الممدود) فيبدو إذا على أحد جانبى الحيوان فى موضع هو فى الظاهر عكس موضعه الطبيعى : ووصف أيضا طبيعة العظمة التى بداخل السيبيا والقلم القرنى الذى يحل محلها فى أنواع الكالومارى المختلفة ولحظ عدم وجود تركيب مشابه لهذا فى الاخطبوط وشرح الأجزاء التناسلية فى الزوجين الذكر والأنثى فلم يفته شىء من أجزائها الرئيسية المعقدة ورسم كل ذلك فى مجلد مفقود كان قد وضعه فى الأشكال التشريحية وذكر صفة الأنواع المختلفة من البيض ثم كشف لنا عن معرفة أدعى الى الدهشة مما سبق فبين لنا أجنة الحيوانات الرخوة الصغيرة وما يعلق برؤوسها النامية من أكياس المح الكبيرة خلافا لما هو حادث فى صغار الدجاج على أن هناك أمرا آخر جديرا بالذكر كان ارسطو على علم به من أجيال قبل أن يعرف للمرة الثانية فى عصرنا تقريبا وهو أن بعضا من ذكور الحيوانات الرخوة اذا ما جاء وقت التناسل يغلظ أحد أذرعه بشكل غريب ويتحول الى ما يشبه السوط المتقوّر ثم ينتقل الى الحفرة الشبكية للأنثى فى عملية التناسل ولم يعرف (كوفييه) شيئا من طبيعة هذا الذراع المنفصل أو وظيفته . وان لم أكن مخطئا فانه هو فى الحقيقة الذى أخطأ فحسب هذه الذراع من الديدان الطفيلية أما ارسطو فقد أخبرنا بفائدته وغلظه الوقتى ومفصلات تركيبه وينطبق وصفه على وصف أحدث الكتاب .

ويتلو ذلك وصف لا يقل عما سبق دقة لللاكوستراكا أو ذوات القشر والسرطانات والأربيانات والجراد البحرى وغيرها من نوعها وقد خص كوفييه هذا الجزء بمقال مشهور . وهناك أنواع كثيرة من السرطانات وهى النوع العادى

والسرطانات الكبيرة المسنة وسرطانات الفرسان الصغيرة التى تعدو فوق الرمال وتجد أغلبها خاويا أى أن تجاويفها التنفسية كبيرة جدا وكذا سرطانات الماء العذب . وهناك الجراد البحرى الصغير والحيوانات ذات السنام الكبير وهى من الجراد وتوجد أيضا الكرانجونات والأربيانات الكبيرة ومثيلها بما فيه من شوك وهو السلطعون أو اللانجوست ونقرأ عن أعينها الحبيبية التى ترنو فى كل الجهات وقرونها الكبيرة الخشنة والقرنين الواقعين بينهما وهما أصغر وأملس منها . وأنيابها الكبيرة أو عظام الفك وكذا الصدف وما به من منقار بارز والبطن ذات المفاصل ويوجد فى نهايتها الزعانف وعند أسفلها حواشى صغيرة تضع عليها الأنثى بويضاتها وقد وضعت هذه الأشياء بشىء من التفصيل وسردت هذه الأعضاء الكثيرة كل بمفرده نوعا بعد الآخر . ويمتاز وصف الأربيان واللانجوست بالدقة وقد أجريت المفاضلة بينهما باتقان محكم ففى الأربيان — فضلا عن الاختلافات الأخرى بين الذكر والأنثى — يقال ان القدم الأولى (أو الساق) للأنثى ذات شعبتين بينما تجدها فى الذكر غير منقسمة وقد تبدو هذه المسألة تافهة على أنها حقيقية وقد بلغت هذه النقطة من الدقة أنى نقبت كثيرا قبل أن أعثر أخيرا على ذكر لها فى رسالة ألمانية. والأمر الذى يدعو الى الحيرة هو أن الساق الأخيرة هى التى لها هذه الصفات دون الأولى ولكن تعداد الأعضاء من الأمام الى الخلف ما هو الا اصطلاح خاص بنا فاننا عند فحص أعضاء الأربيان نلقيه على ظهره (كما كان يفعل ارسطو) فتبدو لنا الأرجل بعضها فوق البعض وكل ساق خلفى فوق سابقه . فأول ما نرى العضو الأخير خلفا وهو الذى يجب أن نرفعه أولا لفحص الآخرين.

ويعد وصف ارسطو للأسماك تاريخا عظيما للعادات والطعام والهجرة وطرق الصـيد وأوقات البيض وطرقه وبعض تفاصيل تشريحية . وليس هـذا بالمجـال الذى نستطيع فيه أن نشرح علم الأسماك المدهش أو نوضحـه فليس من السهل دائمـا فهمه ولكن العقبة هى غالبـا على ما اعتقد جهلنا فليس تعرف الأنواع دائمـا سهلا وفى هذا الموضع كما فى غيره لم يحسب ارسطو حساب زمان أو مكان تغدو فيه كلماته الاغريقية المألوفة غير معروفة أو ينسى الناس معانيها البسيطة ونجد الكثير من بين ذلك العدد العظيم من أسماء الأسماك يشير بطريقة ما الى الموليت الرمادى ممـا يحير الطبيعيين وواضعى القواميس وقد أخبرنى ضابط شاب يوما أنه كان يراقب صيادا عربيا يفرغ سـله وكان به موليت رمادى على أحد شواطئ سوريا فذكر العربى أربعة أسمـاء — ان لم تكن خمسة لأنواع مختلفة لم يستطع صديقى أن يجد بينها أى اختلاف ولو كان صديقى من العلمـاء بالأسماك للاحظ بلا ريب أن لأحدها جفونا دون الآخرين وأن أحدها له فرجونات صغيرة على شفتيه وأن نوعا آخر يوجد تحت فكه شق صغير ولكنه مفتوح وآخر له بقعة صفراء على أغطية خياشيمه وهلم جرا . وطائفة الموليت يعسر فهمها على أنه من الجلى أن ارسطو كان كالصياد العـربى على علم بمـا بينها من الفروق الدقيقة واستعمل الأسماء المناسبة . ثم يتكلم لنا ارسطو على نوع معين من الأسمـاك ذات العش . ولقد وقع كوفييه فى خطأ فيما يختص بهـذا النوع (وقد جاريته فيه مرة) فلم يكن معروفا فى عهد كوفييه سوى نوع واحد من السمك ذى العش يناسب فى الظاهر فقرة ارسطو وهو الجوبى الأسود الصغير ولكن بعد زمن كوفييه عرف الطبيعيون طبائع

نوع " الراسات " من حيث بناء الأعشاش ولا شك أن هذه الطبائع كانت معروفة للصيادين ولارسطو قبل ذلك بأجيال .

وكما هو الحال تقريبا فى كل نقطة أخرى اتفق أن مررنا عليها . كذلك يمكننا أن نجعل هذه النقطة مبدأ لحكايات أخرى (وهنا يجد الشارح بهجة وافتتانا من عمله) .

كان سبيوسيبوس الذى خلف ارسطو فى مجمع العلماء فيلسوفا وطبيعيا ولنا أن نفترض اذا راقنا ذلك أن لميله الى علم الحياة والى مجرى الآراء البيولوجية التى عظم شأنها شيئا فشيئا فى الفلسفة اليونانية فى ذلك العهد بعض العلاقة بتلك الروح الكبيرة التى استحثها ارسطو . ومهما يكن من الأمر فان سبيوسيبوس كتب كتابا اسمه "حول المشابهات" ولا بد أن هذا الكتاب الذى لم يبق لدينا منه سوى جمل قليلة متناثرة عجيب جدا ومما تلذ قراءته فقد ذكر ضمن حالات أخرى مشابهة أن سمكا الصغير المسمى فيكيس يشبه كثيرا فى مظهره الخارجى السمك الأحمر وفى ذلك ما يكفى لاقامة الحجة على أن سمك ارسطو ذى العش كان من نوع "ابلحو بى" لا " الراس " ويظهر أن كل مضمون كتاب سبيوسيبوس فى الكيفية وفى السبب الذى من أجله تشبه بعض الحيوانات البعض الآخر شبها كبيرا رغم أنها من نوع يختلف تماما عن نوعها مع ما يبدو فى الطبيعة من اختلافات لا نهاية لها . وهذه مسألة لا تزال تحيرنا اذ ترى كيف أننا لا نندهش فحسب بل ونخدع بالشبه بين الزنبور والذباب الحائم وكذا بين ضرب من البزاة الصغيرة والوقوق وفى بعض الأحوال المتطرفة نطلق على هذه المسألة اسم "التقليد" ونستعين بالفروض لتعليل هذا التشابه "التقليدى"

والذين لا تروقهم هـذه الفروض لا مندوحة لهم عن الالتجاء الى غيرها ممـا لا يقل عنها فى بعـد الغور ، وعلى الأقل فاننا نعلم أن سبيوسبيوس اهتـدى الى مسألة حقيقية من مسائل علم الحيـاة لم تقتصر على ما بها من لذة لا تمل بل ولها أهمية جوهرية .

نعود الى ارسطو وأسماكه لنلق نظرة على نقطة أخرى صغيرة : ان تناسل ثعبان البحر لغز قديم لم يهتد الى فهم كنهه الا فى وقتنا الحاضر فبينما تجد حوت سليمان مثلا يصعد فى النهر ليلد ثم ينحدر ثانية الى البحر ترى الثعبان يذهب الى المحيط ليبيض ولا تعود الثعابين المسنة مرة أخرى بل تموت فى مياه البحر ويتحوّل بيض الثعبان أولا الى سميكات صـغيرة مفرطحة شفافة تختلف فى مظهرها اختلافا كليا عن الثعبان ثم تستحيل فيما بعد الى ثعابين صغيرة ويروى الأستاذ جراسى وكان له شأن كبير فى ايضاح هـذا الموضوع — أمرا غريبا هو أن صيادى صقلية على علم تام بهذه الديدان الشفافة التى يسميها الطبيعيون الحديثون ليتوكوفالس فيعرفون أصلها جيدا ويطلقون عليها اسما خاصا (كاسنتولا) ويقول ارسطو فى عبارة أظنها لم تفهم على حقيقتها (ويجب أن نسلم أن بها بعض الخطأ) أن ثعبان البحر ينتج ممـا سماه "γῆς ἔντερα" وهى كلمة اذا ترجمت حرفيا كان معناها أمعاء الأرض وهى التى ترجمها الشراح بديدان الأرض ولكنها فى اللسان الصقلى "γῆς ἔντερα" تصير فى الحال "γᾶςεντρα" وبين كلمة "gasentera" والكلمة الصقلية الحديثة (Casentule) لا يوجد من الفروق قيد شـعرة لذلك يجوز لنا أن نفترض أن ما رواه ارسطو على جانب عظيم من الصحة والدقة وأنه كان يعرف سميكات الثعبان الصغيرة بالرؤية وبالاسم ذلك الثعبان الذى يعد استكشافه من انتصارات البحوث العلمية الحديثة .

ان الصفحات الكثيرة التى كتبها ارسـطو عن الأسماك تبعث فى القارئ لذة وانشراحا فالمشرّح يعجب بمطالعة بعض الكتابات القيمة مثل (Placenta vitellina) فى كلب البحر الأملس وهى التى بها يتغذى الجنين فى الرحم على نمط مشابه لعلم أجنة الحيوانات الثديية . وتلك ظاهرة أماط اللثام عنها حديثا جوهان ملر وقد أهاجت فى نفسه عاطفة إعجاب شديد بما قام به ارسطو من التشريح الدقيق الصحيح . وقد نطالع مرة أخرى عن هجرة التن الدورية وعن الشبكة العظيمة التى يصـاد بها وعن الرقباء المعروفين باسم (هوور) فى مصايد كورنوول وهم ينذرون من برج أو رأس باقتراب أسراب السمك . ويستطيع الطالب أن يعرف نوع ذلك السمك (شعاع النسر الكبير) الذى ذبح عوليس بزعانفه الشائكة . وهى أول ما استعمل كسنان للرمح . ويستطيع ثانية أن يعرف شيئا غير قليل عن السمك الرعاد الذى شبه به مينو أستاذه سـقراط فى تحيـة بها بعض الغموض . وقد خلف لنـا ارسطو كثيرا من المعلومات المبعثرة الهائمة عن الحشرات وأورثنا ما يصلح لأن يكون مجلدا فى كل التاريخ الطبيعى للنحلة . فقد عرف جميع سكان الخلية غير أنه كان كبعض معاصريه (وربما استثنينا منهم زنوفون ومثل شكسبير أيضا فى تسمية ملكة النحل بالملك . فتراه يصف بناء الخلية ووضع البيض وإطعام صغار النحل ويتكلم عن صفات العسل المختلفة والزهور المتنوعة التى يجنى منها وكان ملما بأمراض النحل وآفاته وقد حدثنا عن أشياء كثيرة غريبة اقتصادية عن الخلية وعن فنون النحالين فيظهر بعضها للرائى وعليـه مسحة الشيء العصرى المألوف ومثل ذلك اسـتعمال شبكة أو حاجز لمنع الزنابير وقد روعى فى صـنعها الدقة بحيث يحجز هؤلاء الأفراد

البواسل وهى مع ذلك تمرر النحل النحيف العامل . ويطول بنا الحـديث ثم يطول اذا شئنا سرد كل ما يعرفه ارسطو عن النحلة واذا قارناه بمـا دونه فرجيل المعتبر سيد صناعة النحل فانه ينبئ لحسن الحظ بخدمة أكثر وعلم أغزر .

واذا أطلقنا لأنفسنا الحرية لنذهب أينما شئنا واقتفينا أثر النحل فى جميع نواحى الكتابات الأدبيـة القديمة وجدنا فى هوميروس ما نقرأه عن النحل البرى وعسله فى الصخور ثم عن نحل الخلايا وأمكننا تتبع منشئه الخرافى فى كريد حيث غذى الطفل جوبتير بالشهد وذلك كما تمس شفتا الرضيع بالعسل حتى فى زمننا الحاضر . وتتبع اجتماع النحل ببرسيربين وأمها والعلاقة الدقيقة التى بين النحل وديانا الافيزية وأن نجـد فى قصيد الشعراء من مثل أشعـار هيسيود الى منتخبات الأشعار المتأخرة مائة المـاعة سارة لذيذة تلمع الى شجرة النحل فى غابة السنديان والى تل هيمتس الأزهر النضير ولربمـا عثرنا فى النهاية على الموضـع الذى كان يظهر فيـه أرچين كأنه يتنبأ بما سيأتى به شكسبير حين تكلم على ملك النحل وركب حاشيته (طبقات ضباطه) وسرب عماله (الحمالين الآليين الصعاليك يتدافعون للدخول) وعن عقاب المتراخين منهم (حيث يجلس البعض كالقضاة لقصاصهم) وعن الحرب والظفر والغزو (حين يسير الظافرون بالأسلاب فرحين لأميرهم فى سرادقه الملكى) .

لنعد الآن لارسطو نسمعه يحدثنا ثانية عن كثير من الحشرات المتقاربة فيقص خبر النحل الوديع ونوعه والنحل البناء وعشـه الطينى الجامد المستدير وعن النحل السراق والزنابير المختلفة والزنابير ذات القرون ثم يدهش القارئ ويفاجئه الى مدى أبعد فيتكلم عن

الزنبور الصائد وكيف يقتـل العنكبوت ويغدو به الى وكره ثم يبيض فى جسم الحشرة المسكينة حيث تتغذى ديدانه متى أفرخ بيضه . أو اصغ اليـه إذ يروى نبأ الزنابير الكبيرة التى يسميهـا انثرينـا وكيف تطارد الذباب الكبير وتفصـل رءوسه وتطير حاملة باقى الجثة . وكل هذا يتفق بالحرف الواحد مع ما قاله هنرى فابر عن زنبور كبير يقطن جنوب أوربا ويصيد ذباب الخيل الكبير(١) .

حقيقة لا جديد تحت الشمس .

ولارسطو معرفة تامة بأطوار انقـلاب الحشرات المختلفـة . فيعرف كيف تقضى الذبابة المعروفة أيامها الأولى فى المزابل وكيف يعيش ذباب الخيل الكبير والتبانيد فى الخشب النخر وكيف يتناسل (كما يقول) بعض الذباب الصغير والبعوض فى نفايات الخل اللزجة وهو يشرح باعتناء زائد ودقة فائقة تاريخ حياة البعوضة المعروفة ابتداء من العلق المـائى أو الدود الدموى الصغير الذى نشاهده فى البرك فيصفها وهى تتلوى كأجزاء العشب الأحمر الدقيقة النامية فى بئر غاض نصف مائه ثم يشرح أخيرا كيف تصبح العلقة جامدة ساكنة صلبة ومـن ثم تنفجر الحسكة الجامدة وتخرج منها البعوضة صغيرة فتمتطيها سابحة على صفحة المـاء حتى اذا تأثرت بحرارة الشمس أو اذا ما هبت نفخة ريح انطلقت وركبت متن الريح .

وبعض هذا القصص عجيب حقا لأن ما يكشفه من الحوادث خفى يكتنفه بعض الغموض ولذلك فليس من المستغرب أن يعجز

(١) Pour donner le coup de gaâce à leurs Taons mal sacrifiès et se debattants encore entre les pattes du ravisseur, J'ai va des Bmbee mâchonner la tête et le thorax des victimes.

ارسطو بمـا بسط لديه من هذه المعلومات عن أن يطيل الحديث عن تاريخ حياة الفراشة وأنواعها المختلفة وذلك بالرغم من وضوح نظريتها . فهو فى الواقع يحدثنا فى موجز من القول على أن الفراشة تنتج من دودة وعلى أن هذه الدودة تتغذى بأوراق الكرنب وتلتهمها بنهم وشراهة ثم تتحول الى شرنقة ولا تتغذى بعـد ذلك . ليس لها فم ينفذ منه الطعام وهى فى هـذه الحال صلبة وتظهر كالميتة ولكنها مع ذلك تتحرك وتتلوى اذا لمست . ثم تنفجر الحسكة بعد حين وتخرج منها الفراشة . وبيان ارسطو هذا كما هو كاف مناسب ولكن ارسطو مع ذلك لم يظهر أى عطف نحو الفراشة فلم يقف عندها فيطيل ولم يرو عنها القصص . وكل هذا يتفق مع طبيعة باقى الأدب الاغريقى وخاصة الشعر حيث تنـذر الاشارة الى الفراش وأخال اليونانيين وجدوا فى تلك القوة الحيوية التى تكاد تكون بلا جسـد والتى نسميها الفراش شيئا ينـذر بالنحس أو الشؤم ولا يصلح الكلام عنـه باستخفاف فأطلقوا عليه اسم الروح وكان عندهم للزيز اسم غريب يقرب من معنى " جثة صغيرة " فالزيزة ترقد فى الشرنقة كما ترقد الجثة الصغيرة فى الكفن أو التابوت وقد وصف أحد الشعراء المتأخرين " الفراشة وهى تفارق القبر وتعود لضوء النهار " ومن ثم استخلص بعض آباء الكنيسة لا سيما القديس باسل المغزى تبعا لذلك فشـبه البعث بالدودة حية تغط فى سباتهـا والحياة بالفراشة تصعد للعظمة والبهـاء ولا تزال الأجيال تمجد هـذا التشبيه للآن .

ولقد خلف لنا ارسطو بيانا عن فراشة كبيرة ولا يزال هذا البيان لدى الكثيرين لغزا معقدا . فابتدأ بذكر دودة عظيمة لها قرون

كما يقول تنمو فى مراحل هينة وتغزل ابان ذلك شرنقة وثمت فريق من النساء يفككن الشرنقة ثم يلففن خيوطها ومن هـذا الخيط ينسجن قمـاشا واختراع هذا النسيج منسوب لامرأة من قوص ويبدو هذا لأول نظرة كأنه وصف بسيط قويم لدودة الحرير . على أننا نعرف أن دودة القز وشجر التوت الذى تغذيها أوراقه لم تنقل من الشرق الى اليونان البيزنطية الا بعد ذلك بزمن كبير يقرب من ألف عام فى حكم يوستنيان وقد أخبرنا بلليني شيئا عن دود الحرير القونى وحدثنا أنه يعيش على أوراق الدردار والبلوط والسرو وقد يخلص لنا بعض معلومات أخرى من كلمنت الاسكندرى وغيره من الآباء . مثال ذلك : أن الدودة كانت مغطاة بشعر كثيف وأن الشرنقة تتكون من مادة غير متماسكة تشبه نسج العنكبوت . وكل هـذا يتفق بالدقة مع نوع من الفراش الكبير ينسج شرنقة لا تشـبه شرنقة دود القز المعروف ووطنها جنوب أوربا الشرقى وتتغذى بأوراق السرو والبلوط . ولا يزال يستخدم للآن كثير من أنواع دود القز غير النوع الحقيقى المعروف فمنه ما يخرج حرير الهند وغيره من جزائر اليابان التى تماثله وعلى ذلك فقد كان يغزل هذا الضرب من الحرير الخشن وينسج فى اليونان وبمرور الأيام ظهر نوع أجمل منه تنتجه دودة الشام فاقه وحل محله فأبطلت الصناعة القديمة ثم انمحى أثرها من الأذهان .

ولنقف لحظة قبـل أن نترك مبحث الحشرات أمام موضوع أحبته اليونان وفاق حبهم له كل ماعداه . لقد كنا يوم بدأنا نقرأ كتاب توكيديدس ونحن صبية فى المدارس نجد فى أوله قصـة موسرى اليونان وكيف كانوا يعلقون جنادب ذهبية (كما كان

يسميها المعلم) فى شعورهم . ولم تكن هذه الحلى الذهبية بالطبع جنادب عادية ولكنها كانت ضربا صغيرا منها يخرج تغريدا حادا يطرب له اليونانيون طربهم للموسيقى المشجية . وهـذا الصوت لا تستملحه آذاننا كما وجد ذلك برونتج ولكننا نقرأ عنه آى المديح فى كثير من شعراء اليونان مثل السيوس وانا كريون وفى جميع مجموعات الشعر اليونانية وهاك مثلا منه من قصيدة الأطيار :

ولو أن الشمس الحارة تسطع فى السماء
فأنا أرقد على حشائش المرعى المزهرة الوثيرة
لأصغى للنغمات الحادة المشجية
التى يحدثها الجندب حين يهيج وجدا فى الظهيرة

ولأرسطو عن هذه الحشرات المألوفة المحبوبة بيان واف فهو يصف منها نوعين لا نزال للآن نميز أحدهما عن الآخر بسهولة : فالكبير من النوعين أشجاها صوتا وأحسنها غناء والثانى صغير وهو أول من يقدم وآخر من يرحل فى فصل الصيف . وقد نعرف العضو الصوتى الغريب أو الطبل المهتز فى وسط الجندب . ولاحظ أن بعض الجنادب لهـا هذا العضو و بعضها ينقصه وعرف كما عرف الشعراء أيضا أن ذكر الجنادب هو الذى يغنى بينما تصغى له الأنثى ساكتة و يخبرنا أن الجندب لا يعيش فى بلاد لا شجر فيها مثل سيرين (ولست أدرى لم شط كل هذه المرحلة البعيدة الى سيرين ليتخذها مثلا) وأن صوته لا يسمع فى الغابات الكثيفة التى لا تنفذ فيهـا أشعة الشمس وان أحسن ما نصغى الى غناء الجنـدب فى بساتين الزيتون حيث الأشجـار متباعدة تخترقها أشعة الشمس . وهو بعد ذلك يقص علينا بايجاز ولكن

بدقة عجيبة تاريخ حياة هذا المخلوق وكيف أن الأنثى بمبيضها المستطيل تضع بيضها فى أعماق الغصون الميتة الجوفاء مثل القصب الذى تدعم به الكروم وكيف أن أفراخها تتخذ لها أوجرة فى الأرض عند ما تفارق البيض وكيف تخرج بعد ذلك من حفرها خصوصا فى اليوم المطير حيث تلين الأرض بفعل ماء المطر وكيف يتحول الدود الى صورة أخرى تسمى حورية ويحدثنا أخيرا كيف يتمزق جلد الحورية عند حلول الصيف فتخرج منه إذ ذاك الحشرة تامة ويتغير لونها ثم لا تلبث أن ترفع عقيرتها بالغناء . وفى استطاعتنا أن نعثر فيما كتب ارسطو فانيس وتيوقراطس ولوكريتوس وفرجيل ومارشيال وفى مجموعات الأشعار على كثير من الاشارات الشعرية لهذا التاريخ الطبيعى فهى بذلك خلاصة بسيطة له .

ويعتبر " كتاب الحيوان " أو " تاريخ الحيوان " كما نسميه لك وقد اقتبست منه هذه الأمثلة القليلة من علم ارسطو الواسع ، أولى الخطى اللازمة فى سبيل البحث العلمى . وثمت نوع من الفلسفة اليدوية (كما سماها اللورد الشيخ منتبدّ) يفحص حقائق لاتدركها العامة ويمكن تسمية هذا النوع قصص الطبيعة أو التاريخ السرى للطبيعة وقد برع فى هذا البحث المفتن جلبرت ويت وجون راى وكثير غيرهما وتتكون منهم جماعة الطبيعيين البسيطين . ولكن تراكم الحقائق بهذه الصفة إن هو إلا أساس فلسفة " فالفلسفة لا يصح اطلاقها إلا على ما يفسر أسباب الأشياء وأصولها " ولقد كان فى وسع ارسطو أن يقطع فى هذا السبيل مرحلة عظمى لو اكتفى بأن يظهر (كما بين جلبرت هويت لمعاصريه) أن التأمل فى الطبيعة تأملا عميقا عمل خليق بالرجل المهذب وجدير بعناية

طالب العلم ولكنه فعل ما هو أكثر من هذا فانه جعل المعلومات الطبيعية فى مرتبة العـلوم وأدخلها فى دائرة الفلسفة مرة واحدة لا رجعة فيها . فتساوى هذا العلم بالفلك على عراقة هذا فى القدم إذ شغل أذهان الفلاسفة واستهوى أفئدة المفكرين مئات كثيرة من الأعوام فى مصر والشرق و بعض القرون القليلة فى اليونان ولقد نقلت عنه فيا سبق جملة عظيمة فيها يفسر غرضه و يبسط المعاذير عن اعتسافه وهى "لا شك فى أن جلال الأجرام السماوية يملأ النفس روعة تفوق التأمل فى هذه الأشياء الحقيرة الأرضية . لأن الشمس والنجوم لم تولد ولن تموت ولكنها سماوية أبدية غير أن السماء بعيدة نائية وحواسنا لا تمدنا عن السماء الا بمعلومات طفيفة تحوطها الظلمات . أما المخلوقات الحية فهى أمام دورنا تغدو وتروح وان شئنا حصلنا من كل منها أو منهـا جميعا على معلومات وافية دقيقة . واذا كان الجمـال فى التمثال يسلب اللب و يملك المشاعر أفلا يملأنا الحى بهجة وحبورا ؟ ولشد مايزيد اعجابنـا اذا بحثنا فى ضوء الفلسفة عن الأسباب وتعرفنا أدلة التصميم . إذا لتكشف الستر عن أغراض الطبيعة وقوانينها الكامنة الخفية فكلها يفضى بعملها الحافل الى شكل من أشكال الجمال .

وصلت الينا كتابات ارسطو الفائضة الوافرة وقد تغيرت تغيرا خطيرا . ولكن أعظمها جميعا وصل الينا لحسن الحظ سالمـا غير ممسوس أو متغيرا تغيرا يسيرا جدا وفقد بعضها ودخل بعضها الآخر ابدال وتحريف . وكتاب "أجزاء الحيوان" يبدأ (كما فى النسخة التى تحت يدنا) بباب غرضه الظاهر مقدمة عامة لسلسلة كتب علم الحياة كلها ولست أعرف غير هذا الباب فى كل كتب ارسطو يدل بوضوح على عظمة ارسطو كمعلم وكفيلسوف كبير . فهو يبدأ

بحديث جرى مجرى المثل وهو "كل علم وكل فرع من علم ينتج نوعين من الفائدة : الأولى يصح تسميتها بحق الدراية العلمية ، والثانية فى متناول الشخص المتعلم العادى" ثم يتطرّق بعد ذلك الى "طريقة" البحث العلمى وهى هل يصح البدء من الخاص ثم ننتقل للعام أم نبدأ البحث فى الصفات العامة ثم نتحول الى الصفات الخاصة وهل يصح لنا عند الكلام عن الحيوان أن نسير كما فى الفلك الرياضى فنبحث أولا فى الحقائق أو الظواهر ثم نتطرق بعد ذلك فنكشف أسبابها المختلفة ونذكرها ، وهذا يؤدى فى الحال لبحث موجز (وهو مكمل فى مكان آخر) فى السببين العظيمين أو صورتى الأسباب ، وهما السبب النهائى والسبب المحرك أو الفعال ، سبب الحادث أو الغرض منه والسبب السالف الذى لأجله يصل الشىء بحكم الضرورة الى الحالة التى هو عليها . وهذه مسألة من مسائل الفلسفة العويصة الكبيرة . ولما مال ارسطو ناحية السبب النهائى كان لعمله هذا أكبر التأثير على عقول البشر فى كل تاريخ العلوم وقد اتخذ امبدكليس وجهة نظر أخرى فاعتقد بأن المطر يهطل أنى شاء أو عند الضرورة ولا يحق لنا أن نظن بأنه ينزل لينمى القمح فى الربيع ولا ليتلف اهراء الغلال فى الخريف واعتقد أيضا أن الأسنان تنمو بعملية تتبع قانونا طبيعيا واستعدادها الظاهرى وصلاحيتها للكسر والطحن لم يكونا لغرض وانما كان هذا عرضا واتفاقا . واعتقد بأن العمود الفقرى انقسم الى فقرات بسبب القوى الأولية وهى الثنى والعطف اللذان أثرا فيه فى بطن الأم . وتطرق أمبدكليس بعد ذلك الى نتيجة النشوء والتطوّر فأدرك بوضوح نظرية دارون قبله وأن الصالح وغير الصالح يخلقان سويا بيد أن الصالح يبقى وغير الصالح يهلك .

ويطول بنا المقال لأن هـذا البحث عريض خطير لا يسعنا بحثه هنـا ولكنى أجسر فأشير الى أن ارسطو كان يجنح لأن يمر المـامة خفيفة بالسبب الطبيعى أما السبب النهـائى فيقتله بحثا ولسبب واحد (بصرف النظر عن أية أسباب أخرى) وهو أن معرفته بعلم الحيـاة تفوق معرفته لعـلم الطبيعة وأنه كانت تعوزه الناحية الرياضية من نواحى التفكير وهذه الناحية من أصول مدارس الفلسفة القديمة . وسواء أكان اختياره لطريقته هـذه عن خطأ أم صواب فقد كانت لذلك أهمية لا تقدر إذ استطاع مدة قرون أن يكون مرشدا (ونجسر أن نقول مرشدا مؤثرا) للعـلوم فى المدارس ولتقدم العلم ولأوثق معتقدات بنى الانسان .

ويحتوى هذا البـاب الملئ المثمر على قصره من أعمال ارسطو أشياء هى أكثر بكثير مما نطمح حتى الى التكلم عنها بايجاز ففيـه يطيل الحديث عن " التقسيم " ذاك الموضوع المهم فيبحثه بحث منطيق قادر فى أشد نواحيه وأعنفها وقد بحث كثير من الشراح عن " تقسيم الحيوان " لارسطو أما أنا فلم أعثر عليه وان شئت دقة فى التعبـير فأنا أؤكد عدم وجوده . فأى تقسيم راسخ ثابت لا يمت لمنطق ارسطو بصلة . وقد يكون حسنا بل وضروريا لو أردنا ترتيب حيواننا على رفوف متحف أو فى الصفحات الجرداء لدليل منسق وقد تكتسب رونقا جديدا لو استطعنا أن نجـد ترتيبا حقيقيا أو تاريخيا وفق أصـول التسلسل الصحيح مؤسسا على حقائق التطور التاريخى المؤيدة بالبراهين ولكن ارسطو (كما يلوح لى) لم يكن مقيدا بأدلة المتاحف ولم تمثل له فى أحلامه آمال بالحصول على سلم طبيعى كامل أو على علم تسلسل الأنساب التقديرى . فقد قسم الحيوان كما رآه وكانت كل الفروق لديه كرجل

منطق منقسمة الى قسمين يظهران بوضوح أمام ناظريه . فقد قسم الحيوان مرة الى ذوات دم وبدون دم ومرة أخرى الى متنفسات الهواء ومتنفسات الماء وثالثة الى وحشى وأليف وأخرى الى محب للعشرة ومحب للوحدة وغير ذلك من تقاسيم لا حصر لها . وكان فى نفس الوقت ذا نظر ثاقب يدرك بسرعة المجموعات الطبيعية الكبرى وكان يسميها الأجناس كالسمك والطير والحشرة والحيوان الرخو وعلى هـذا ففى الوقت الذى لم يجعل فيه ارسطو تقسيمه على أسلوب راسخ أو نظام وثيق لا شك (على ما أعتقد) أنه كان يظن أن عمله فى هذا السبيل عبث باطل فقد حدث أن طرقه العديدة فى التقسيم الجزئى أو الوقتى أنتجت خيوطا تآلفت أخيرا فكونت نسيجا غاية فى الجمال منسجما منسقة ألوانه ولو أنه كان على مثال غامض نوعا ما . هذا ولو أن نظام ارسطو يخالف نظامنا الا أن خلاصـة ما فى تفكيره وأسلوبه تنتج نظاما كاملا فائقا معينا . وهذه الميزة هى التى قصدها موليير فى "النساء العالمـات" حيث يقول : انى أحب المشائين من أجل نظامهم [١] .

وقبل أن يختم هذا الفصل الكبير الذى بدأنا أن نتكلم عنه أشار ارسطو إلى أنه يوجد أكثر من طريقة واحدة لسرد الحقائق أو تقسيمها . فمثـلا يكون من المناسب الضرورى أن نبحث فى الحيوان وأجزائه العديدة أو خواصه آونة ثم نتكلم آونة أخرى على هذه الأجزاء أو الخواص كما هى ونشرحها ونوضحها مستعينين بالحيوانات العـديدة التى تنسب لها هـذه الأجزاء أو الخواص "فأجزاء الحيوان" إذا نتيجة بل نتيجة محتومة ، لتاريخ الحيوان القصصى . ومع ذلك أيضا فثمت طريق ثالث . وهو البحث

(١) "Je m'attache pour l'ordre aupéripatétisme."

فى الوظائف الكبرى للنظام العضوى أو أفعالها أو قدرتها كما كان فى مبـدأ أمره بحثا عاما ثم ننسب هذه الوظائف فى الحيوانات المختلفة للأعضاء التى خلقت لها وخصصت لاحداثها . ويتطلب هذا إدراك الرسائل الفسيولوچية المتفرقة وتحريرها . تلك المسائل التى كتبت على مباحث التنفس وا لحركة والنوم والسير وعلى ذلك الوصف الخطير لتناسل الحيوان (والمبحث الأخير . يعتبر فى بعض الوجوه أكثرها طموحا و براعة وغرابة) .

ونستطيع أن نعتبر الآن أن السلسلة التامة الممكن ادراكها وضعت بايجاز فكان ذلك بمثابة نقش الشطر الأكبر من اللوحة العظيمة . ولكن اذا شئنا أن نجعل لهذا العلم صلة بالحياة الانسانية وأن نجعل له مكانة طيبة فى درجات الفاسفة العالية فالواجب أن نواصل البحث وأن ندرس الحياة بالذات : وأن ندرس ما يسميه الناس روحا . ومن هنا نشأت الفكرة العظيمة . فاننا نبدأ بالأساطير التافهـة وهى التى يعرفها السماك والصياد والزارع ثم تتكوّن أمام ناظرينا علوم الحيوان والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وعند المساء نجلس خاشعين تحت أقدام المعـلم الأكبر للحيـاة نفسها والمؤرخ للروح . وليس لنـا أن نجسر فنبيّن أن القصة لا تنتهى حتى هنا وأن هـذا مطلع أرقى فصول الفلسفة . واذا تذكرنا أن حديثنا القصير هـذا ان هو الا أخف تلميح لناحيـة واحدة من النواحى الكثيرة لأعمال الفيلسوف ومشروعاته بدأنا أن نسمو نحو فهم ما قاله روجر باكن " ان ارسطو وان لم يبلغ آخر مدى المعرفة فقد نظم كل أقسام الفلسفة " وقد صرح ناقد عصرى بنفس الروح " أنه لم يصل الى تعريف وتنظيم كل أقسام العلم فحسب بل إنه أظهر فوق ذلك ما بينها من علاقة ووحدة " .

وارسطو كشكسبير ملئ بالأمثال القديمة ووصايا الحكمة ودرر من القول فى جمل ذات خمس كلمات وهاك مثلا منها يصلح للعلم والمتعلم على السواء : ”الايمـان طريق المعرفة“ (وهو ينبئنا بأن طريق العلم عن طريق الايمـان) ومعناه أن الطالب يحتاج للقلب كما يحتاج للعقل تمـاما .

ونجد فى ارسطو كثيرا من الأساطير الغريبة ويرجع ذلك من جهة لتأثير أجنبي وللسذاجة المدمنة القديمة التى لا تبرأ منها حتى الفلاسـفة فالعـنز الذى يتنفس من أذنه والرخم الذى يلقحه الريح والنسر الذى يموت جوعا والوعل الذى يصطاد بواسـطة الموسيقى والسمندل الذى يسير عبر النار ووحيد القرن والغول كل هذا قليل من السخافات الشائعة أو الأقوال المتوارثة (كما يسميها السير توماس براون) التى خلد ذكرها كتاب ”تاريخ الحيوان“ ولكنه لم ينشئها وبعضها أتى من الشرق الأقصى عن طريق العجم والبعض الآخر (وتجده أيضا فى كتابات هرابولو القس المصرى) ان هو الا تعبـير ظاهرى أو مجازى عن أسرار الديانة المصرية القديمة، وعلى ذلك حدث أن العالم منذ ألفى سنة كان يحج الى ارسطو من جميع الأقطار فيلقى عنده ما يريده وقد اقتنى العرب والمغاربة والسوريون واليهود كتبه فى الوقت الذى كان الظلام يكتنف فيه العالم الغربى . وقد بنى صرح التعليم القديم على أساس من كلماته وشيدت أقدم جامعات كولونيا وباريس وأكسفورد على دعائم من تعاليمه بل لقد أنشئت هذه الجامعات لدراسته فحسب وقد خلد تأثيره أنى وجد ظاهرا كان أم كامنا ، حتى المغاربة والعرب وجدوا فيه ليومنا هذا معلما يستهوى الفؤاد وأسـتاذا للحقائق الخالدة يحدثهم عن النوم والحلم والشباب

والشيخوخة والحياة والموت والتناسل والفساد والنمو والانحـلال واعتبروه دليلا لكتاب الطبيعة وكاشفا للروح ونبيا ينبئ بقـدرة الخالق .

وقد خبرت أن الغرض من هـذه الفصول القصيرة (ولو أنى كدت أنسى ذلك) ان هو الا دفاع وتزكية لدراسة لغـة اليونان وآدابها الجمة . وهذا عمل لا قبل لى به ولم أهيأ له . ان اليفرجولدسمث يوم اعترم تدريس اللغة اليونانية فى ليدن وقد خبر أن دراستها اختيارية صدمـه مدير تلك الجامعة الشهيرة (كما نعرف جميعا) باعتراضات وجيهة فقال : "اننى لم أدرس اليونانية قط ولم أشعر نحو جهلى بها بأى نقص فى نفسى لقد حصلت على شهادة الدكتوراه وأخذت القلنسوة والجبة بغير اليونانية . وأنا بدونها أتقاضى عشرة آلاف فلورين فى السنة . وصفوة القول فأنا لا أعرف اليونانية ولا أجد فائدة فيها" - ولقد رأيت أو قرأت القصة مرارا لأنها مسطرة فى كتاب "خورى ويكفيليد" ولم أسمع قط بأى شخص حتى ولا جولدسمث نفسه قد حاول أن يقرع حجة المدير . فأنا أوافق المدير على معظم ما قاله وأرى جليا أن كل اليونانيـة التى يعرفها جولدسمث وكل اليونانية التى يعرفها العالم بأسره لم تكن تجديه فتيلا أو تفيده أية فائدة ولكن يوجد كثيرون غيره، وسيوجدون ، يلقون فى الحكمة اليونانيـة والحديث الاغريقى الرقيق أشياء يشعرون بحاجة اليها واذا لم توجد فانهم يكونون بائسين حقا . أشياء يتخذونها عصيا فى أيديهم ونورا يهديهم سواء السبيل ومصباحا عند أقدامهم يقيهم مواطئ الزلل .

ونستطيع فى هـذا العالم المكد المعنى أن نملك أنفسنا بسهولة وذلك كما يقول چبن من أن رعايا التاج البيزنطى بالرغم من رسفهم

فى ربقة الذل وانغماسهم فى حمأة الانحطاط "كانوا يملكون مفتاحا من الذهب يستطيعون أن يفتحوا به مغلق كنوز الأقدمين ولغة موسيقيــة خصيبة تنفخ الروح فى المحسوسات وتجسم الأفكار الفلسفية المعنوية" .

ويظهر أن أعمارنا نفسها طالت حقبتها بتذكر الآثار لأنه كما يقول شيشرون "ان لم تعرف أعمال السابقين تظل الحياة كلها طفلا" وأنا أتمثل بقول الدكتور چنسن الذى يذكرنا أيضا بقول لارسطو نفسه وهو "اننا كطلبة يجب علينا بادئ بدء أن نبحث ونفهم ما كتبه المتقدمون ثم نقلب الطرف فى العالم" .

ولكنى الآن وقد جسرت أن أرشف رشفة صـغيرة من بئر ارسطو الواسع العميق أشعر كأنى أبحث عن عذر فألتمسه فى المثال والوصية وأعتقد أن الوصية على الأقل عبث فقــد أنفق أبى كل أيام حياته الطويلة فى دراسة اليونانية ولربما ظننت أن ذلك كان من أجل الحكمة . ولكن والدى كان شخصا متواضعا . والحقيقة أنه سلك هذا المسلك لسبب أبسط من هذا السبب . لسبب غريب جدا . يجمل أن أهمس به فى أذنك لا أن أخبرك به ، لقد صنع ذلك من أجل الحب .

ومنذ نحو أربعين سنة خطوت خطاى الأولى فى طرق يهب فيها ريح شرقى فى مدينة فقيرة جائعة (وأقصد بفقرها من وجهة العلم) حيث قدّر لى أن أقضى ثمة سـنين عدة . وأول ما وقع عليه بصرى كتابة أقيمت على باب وضيع خاشع ("Hic mecum habitant Dante, Cervantes, Moliere") وكانت الدار لمعلم فقير يدرّس اللغات فيكتسب ما يضيفه الى أرباح مدرسته الزهيدة

ولقد تأسيت كثيرا بهذا الخبر . وهكذا فهذا العالم الفقير ينظر الى صف رثيث من كتب قليلة بالية فيتجلد ويتأسى ويسمو به الخيال فتتملكه العظمة والفخر ,"Hi mecum...Homerus, Plato Aristoteles" واذا سألت المعلم الفقير وهو ساه عن السبب الذى دعاه للتفرغ لليونانية والانعكاف فلربما غلبت عليه الحبسة واللكنة (مثل دوميني سمبسون) وأجاب بجواب يكاد يكون غير مفهوم . وأكبر ظنى أنه يذهل ويخر ساكتا لفظاعة هذا السؤال الوقح المهين . وبذلك يظل سبب ولوعه وانهماكه خفيا عن السائل كمينا الى ما شاء الله .

دارسى ونثورث ثومسون

البيولوچيا — أو علم الحياة

قبل ارسطاطاليس

ما العلم ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه وربما تعذرت الاجابة عليه أصلا ، فليس من التعاريف تعريف يلوح أنه منطبق على المرام تمام الانطباق فهى إما أعم منه أو أخص ومع هذا فاننا يمكننا أن نرى العلم فى حال نموّه ويمكننا أن نقول انه لما كان العلم عملية تطوّر فلا وجود له الا ناميا .

أين يبدأ علم الحياة ؟ سؤال آخر : لا يمكننا كذلك الاجابة عنه ولكن يمكننا أن نرقب نشوءه وارتقاءه فقد عرف عن اليونان منذ زمن بعيد جدا دقة الملاحظة للكائنات الحية ، وهذه الملاحظة هى على الأقل احدى ضروريات علم الحياة نعم ان كلمة بيولوچيا كما نفهمها الآن لم يكن من الممكن وجودها عند اليونان فالمقطع الأول من كلمة بيولوچيا وهى بيوس (Bios) تشير الى حياة الانسان ولا يمكن اطلاقها على حياة غيره من الكائنات الأخرى الا عن تكلف أو على سبيل المجاز [1] ولكن الأفكار التى نقرنها الآن بمدلول هذه الكلمة كانت ظاهرة النمو فى الفلسفة اليونانية فأصول علم الحياة عريقة فى القدم .

---

(١) كلمة بيولوچيا أدخلها جوتفريد رينهولد تريفيرانوس (١٧٧٦ – ١٨٣٧) فى كتابه المسمى : "Biologie oder die Philosophie derlebenden Natur" وهو فى ستة أجزاء ومطبوع فى جوتنجن ما بين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٢٢ ثم استعملها دلامارك فى كتابه المسمى "Hydrogeologie" المطبوع فى باريس سنة ١٨٠٢ ، ومن المحتمل أن تكون الكلمة استعملت لأوّل مرة بمعناها الحاضر فى اللغة الانجليزية فى كتاب سيروليم لورنس (١٧٨٣ — ١٨٦٧) المسمى "On the Physiology, Zoology, & Natural History of man" المطبوع فى لندن سنة ١٨١٩ — وهناك قبل ذلك استعمالات أخرى للكلمة فى اللغة الانجليزية مضادّة لكلمة "biography".

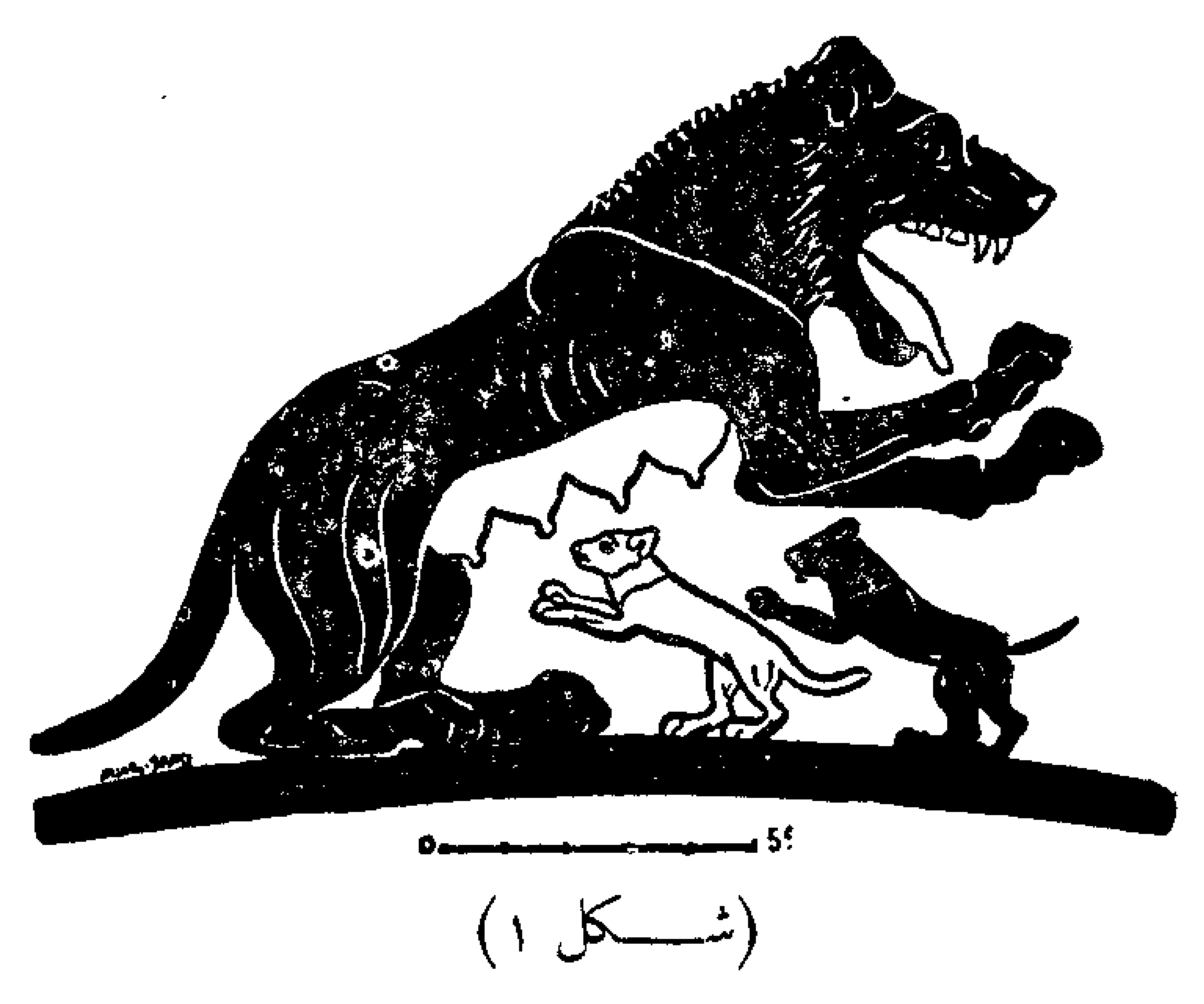
لليونان عدّة أصول من حيث الجنس والثقافة والروح وعن جميع هـذه الأصول ورثوا قوى وصفات شتى وأخذوا مختلف أفكار وتقاليد شتى كذلك. وأليق المصادر بالموضوع الذى نحن بصدده هو الجنس المينوى الذى سلبه الاغريق ماله واحتلوا أرضه فان هذا الشعب ذا المواهب الساميـة قد أظهر فى جميع أدوار تقدّمه قدرة فائقة على تصوير الأشكال الحيوانية، ومن أشهر الأمثـلة التى تدل على براعة هذا الشعب فى التصوير أفاريز اقريطش وكؤوس ڤافيو (شكل ٥) وأسود ميسينى وكلها ذائع الصيت ومن الصعب ألا نعتقد أن دخول العنصر المينوى فى ذلك الخليط من الشعوب الذى يقال له الاغريق كان من بعض الوجوه على الأقل عاملا فى ايجاد مثل هذه القدرة على التصوير فى العالم الهيلينى وان لم يظهر للآن اتصـال كبير بين الفن المينوى والفن الاغريقى العتيق ، ولمعـرفة أقدم ما قام به الاغريق من موضوعات علم الحياة يلزمنا أن نجعل جل اعتمادنا على المعلومات المتصيدة من الآثار الفنية .

نعم لقد وصل الينا بعض نبذ ممـا كتبه فلاسفة الأيونيين والصقليين الطليان وفيها نقرأ شيئا عن آراء نظرية عن كنه الحياة والروح و بفضلها يمكننا أن نكوّن فكرة تقريبيـة عن المحـاولات الأولى التى قام بها أمثال القماون الكروتونى (٥٠٠ قبل الميلاد) لبيان تركيب الحيوانات بواسطة التشريح [١] كما أن معجم عقاقير لبعض المؤلفات الأولى فى المجموعة الايپقراطية ينبئ عن إلمام كبير بالنباتات الأهلية والأجنبية [٢] وفوق ذلك اشتملت كتب هرودت وغيره

(١) آثار القماون مذكورة فى كتاب هـ . ديل المسمى "Die Fragmente der Vorsokratiker" المطبوع فى برلين سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠٣ و يأتى ذكر القماون فى فصل الطب اليونانى من هذا الكتاب .

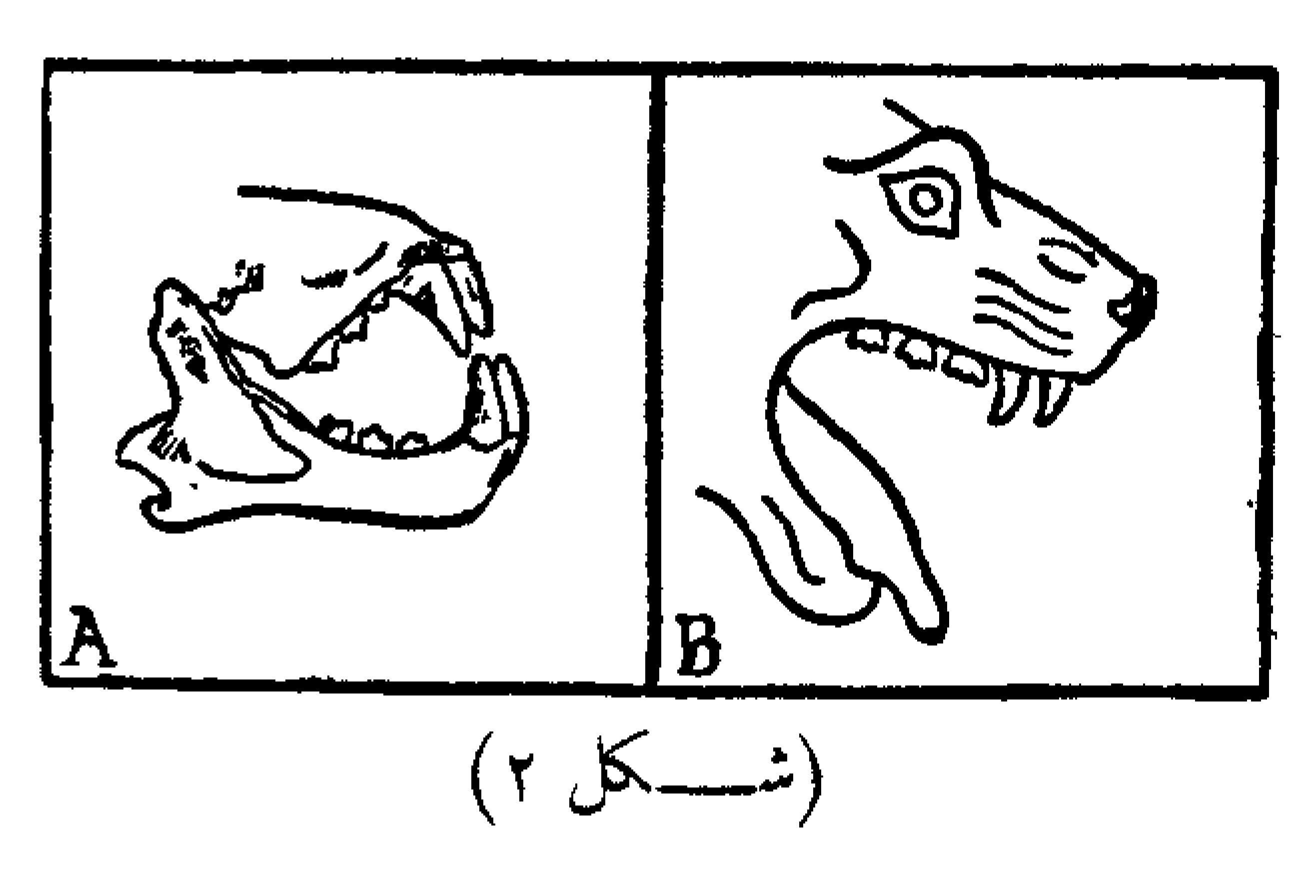
(٢) وخصوصا فى الكتابين اليونانيين المسـميين "فى طبيعـة المرأة" وفى "أمراض النساء" .

من الكتاب المتقدمين على كثير من المعلومات العارضة عن الحيوانات والنباتات مبعثرة هنا وهناك بين طياتها ولو أن هذه المعلومات منقولة ولا تفيدنا الا قليلا فى معرفة ما كان للاغريق



(شكل ١)

رسم لبوة وأشبالها مأخوذة عن آنية أيونية من القرن السادس قبل الميلاد عثر عليها فى قاير فى اترورِيا الجنوبية (متحف اللوفر حجرة ه رقم ٢٩٨) والصورة مأخوذة من كتاب ج . مورن المسمى 'Le dessin des Animaux en Grèce d'après les vases paints'' المطبوع فى باريس سنة ١٩١٩ (Renouard) ويرى الحيوان وهو منتصب لمهاجمة الصيادين . والعفرة الخفيفة وشكل المخالب والضروع وهيئة الأسنان كلها مرسومة رسما كثيفا وان يكن مضبوطا .

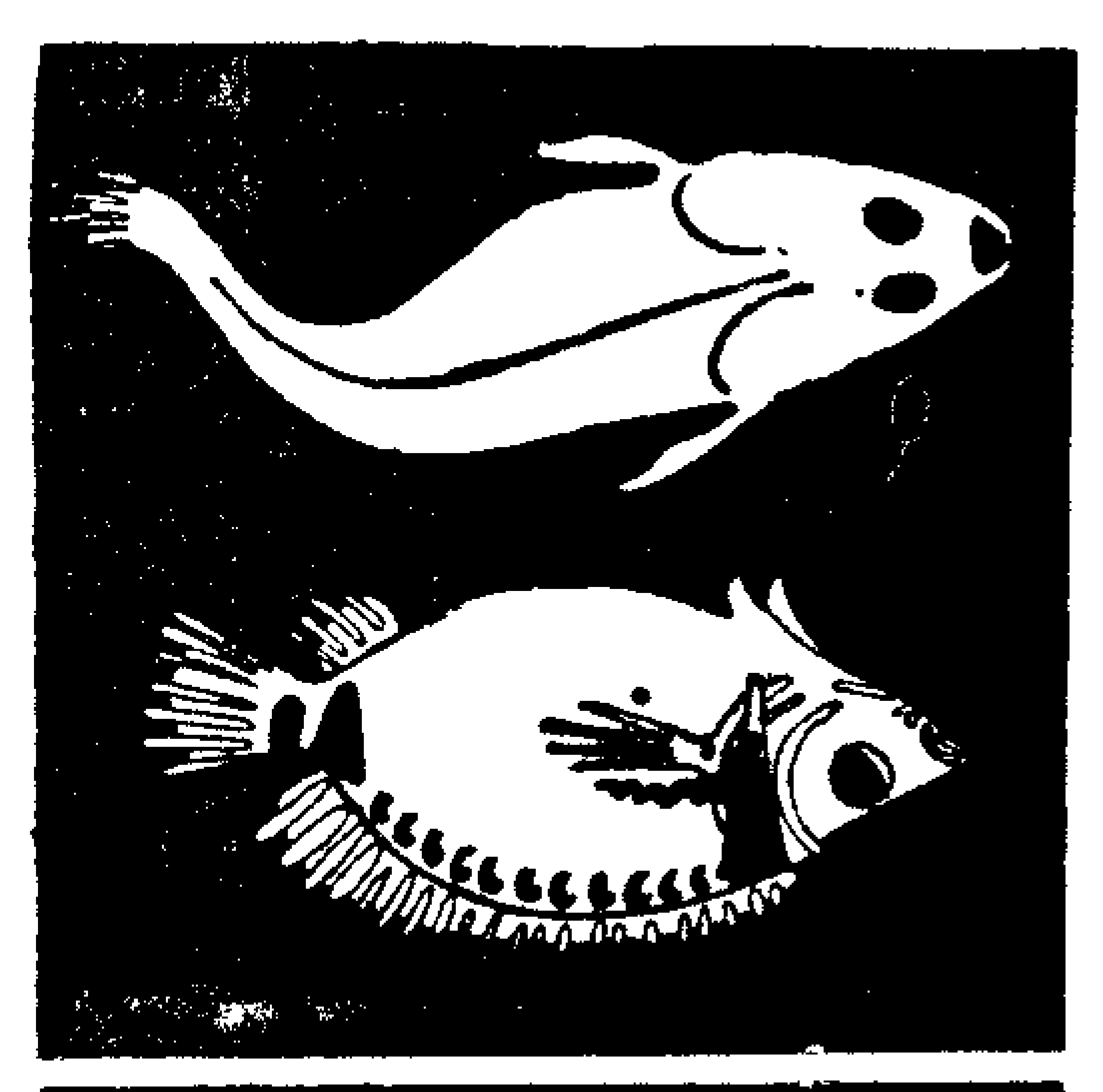
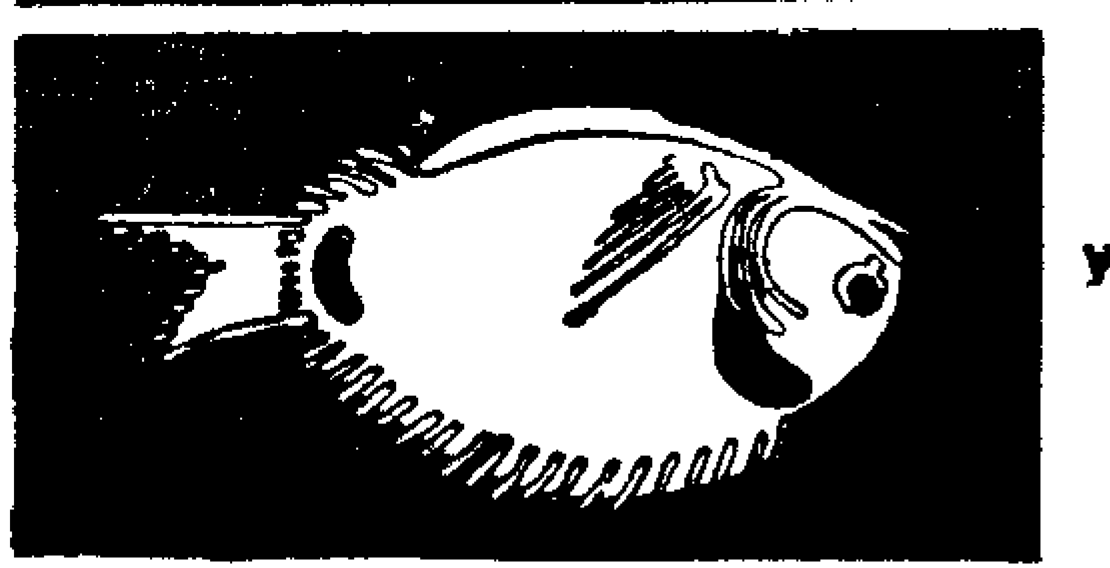


(شكل ٢)

(ا) عظام فك أسد ، (ب) رأس لبوة مأخوذة عن آنية نايرية (شكل ١) من رسم مورن ، لاحظ كيف ميز الرسام بين الأضراس والقواطع .

من دقة الملاحظة وهى الأساس الضرورى الذى يقوم عليه العلم الطبيعى . على أن هناك أشياء أخرى يكشفها لنا الفن اليونانى القديم . ان لدينا مجموعة مسلسلة من أوانى القرنين السابع والثامن قبل الميلاد نرى دقة فى ملاحظة الأشكال الحيوانيـة تحدث عن شعب غير غافل عن دراسة الطبيعة ، فما نراه مصوّرا فى هذه المجموعة عدد من الحيوان ، أما النبات فلا يرى وان رؤى فقليل ، ومن أبدع ما صوّر منها حيوانات برية فنرى الوعول هادئة ترعى أو مرعوبة من صوت والطيور إما طائرة أو تلتقط الدود من الأرض والظباء العفر تخترق لها طريقا فى الأوغال أو ترعى مطمئنة أو تعدو مسرعة والخنازير البرية تتأهب للكر على كلاب الصيد والكلاب تطارد الأرانب والأنعام الوحشية تتحلق دفاعا عن نفسها والصقور آخذة بفرائسها .

وكثير من هذه الصور تدل على ملاحظة غاية فى الدقة حتى أن اتجاه الشعر فى فراء الحيوانات درس أحيانا دراسة دقيقة وصوّرت العضلات فى الغالب تصويرا جيدا وفى بعض الحالات قد وجد حتى هيئة الأسنان وترتيبها مصوّرا تصويرا

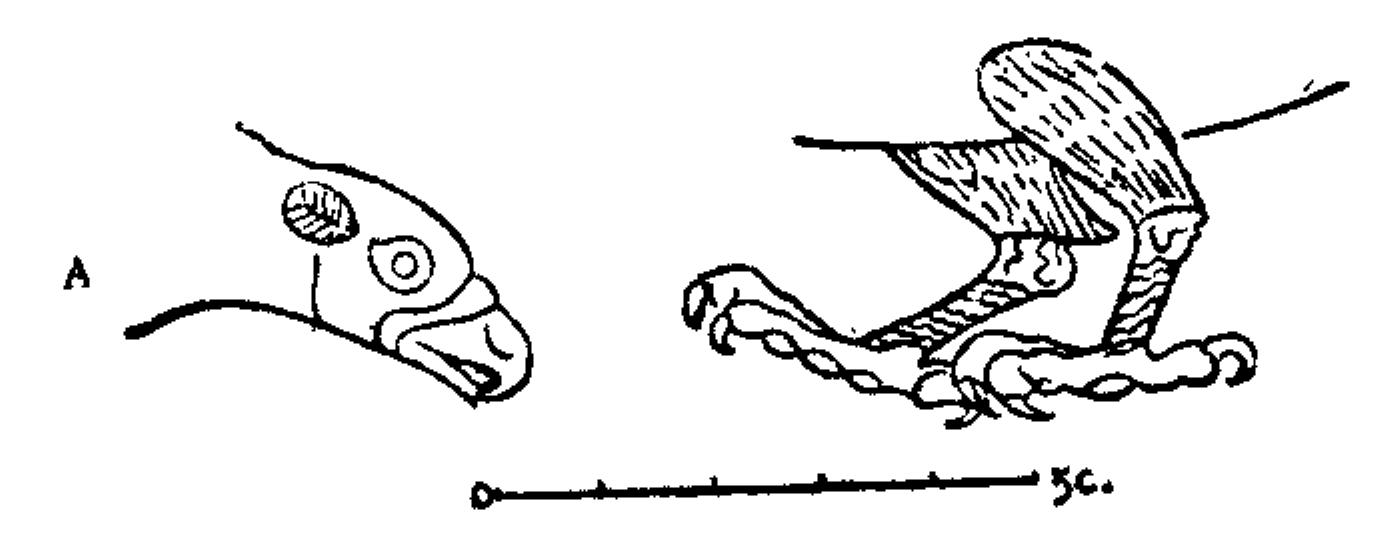



(شـكل ٣)

صور أسماك على صحون تصوير اغريقى ايطالى من القرن الرابع قبل الميلاد ، من مورن

(ا) Sargus vulgaris (ب) crenilabrus Mediterraneus (ج) Uranoscopus Scaber

مضبوطا كما يشاهد ذلك في صـورة لبؤة على آنية أيونية صـوّرت في القرن السـادس قبل الميلاد وهذا الحيوان كان حينذاك نادر الوجود على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ولو أنه كان معروفا في بابل وسوريا وآسـيا الصغرى وتفاصيل الرسم تدل على أن المصوّر لا بد أن يكون قد فحص الحيوان أسيرا (شكلي ١ و ٢) .





(شـــكل ٤)

رأس عقاب البحر (Haliaetus albicilla) ومخالبه .

(أ) مأخوذ عن آنية أيونية من القرن السادس قبل الميلاد .

(ب) مرسوم من المنظور .

من مورن .

وتوجد رسوم حيوانية من هذا الطراز مبعثرة في العالم الاغريقي كما في قبرص وبوشيا أو خليس ومما يلفت النظر الى عناية القوم بالأشكال الحية نفس اللفظ اليوناني (زوغرافس) لكلمة مصوّر وما جاء القرن الخامس حتى كانت أتيقا قد أثبتت تفوّقها في تصوير الأشكال الحيـة كما ظهر في أنواع أخرى من الفنون . وتوجد على أوان من الفن الأتيقي نقوش بديعة للحيوانات لا تقل روعة عن رؤس خيول البارثينون (شكل ٦) .

ولقد ظهر قديما في أتيقا ضرب خاص من التصوير المتقن للأشكال البحرية ثم ازداد هذا الضرب شيوعا في جنوب ايطاليا

فى القرن الرابع . ولقد وصــل هنا من العصر المذكور عدد من الصحون والأوانى مرسوم عليها أنواع كثيرة من أشكال السمك مصوّرة بدقة تجعلها طريقة لمـا ظهر من العناية بالكائنات البحرية فى المؤلفات الباقية من عهد ارسطاطاليس (شكل ٣) .

وهــذه المصنوعات الفنية أرقى من أن تكون مجرد صورة للحياة اليومية للناس : فالصياد يلاحظ عادات الحيوانات وصائد السمك يلاحظ أشكال السمك وألوانه ولكن أساليب الصياد وصائد السمك لا تفسر دقة تصوير أسنان الأســد ولا صحة عد قشور السمك ولا دقة ملاحظة اتجاه الريش على رأس جارح من الطير أو ملاحظة باطن مخالبه (شكل ٤) فأمثال هذه الملاحظات تجعلنا تجاه شىء جدير بأن يســمى علم الحياة . ولو أن ما وصل الينا ممـا كتب فى الموضوع المتقدّم قبل مؤلفات ارسطاطاليس قليل الا أن روح كتاباته وأمثال هذه النقوش والصور تشير الى وجود اهتمام شديد وكتابات كثيرة ، بيولوچية بالمعنى الحديث ، قبل القرن الرابع .

على أن للعلوم اليونانية فى جميع أدوار تاريخها صبغة خاصة تميزها عن وجهة نظر العلم الحديث فجل مباحث العالم اليونانى كان فيما له علاقة بالانسان فالطبيعة لا تلذ له فى الغالب الا فيما له علاقة بنفسه فكان الانسان قطب العالم الاغريقى العلمى منه والفلسفى ويتضح ذلك جليا من الكمية الهائلة التى وصلت الينا من التصانيف الطبية اليونانية عدا المؤلفــات البيولوچية وهذا هو أيضا الشعور المتجلى فى وصف الشعراء لخلق الحيوانات .

فيقول شاعرهم :

كم هناك من العجائب
ولكن ليس أعجب من الانسان
. . . .
فطيور الهواء ضعيفة الأحلام
وحيوانات البرية والغابة
وأسماك البحار المالحة
كلها يصيدها باشراكه المحوكة
ما أبرعه دهاء وحيلة
فالثيران الوحشية والوعول
التى تهيم فى الجبال طليقة حرة
يتابعها الانسان بحيلته التى لا تنفد
والجواد الأشعث ذو العرف الخشن
يذلله ويلبسه الشكيمة

سوفوكليس
أشعار ٣٤٢ .ff
ترجمة . ف . ستور

لهذا لا غرابة فى أن يكون أول مبحث منتظم فى الحيوان واردا فى كتاب طبي عملي من المجموعة الايبقراطية يسمى "فى الطعام" ويرجع تاريخ هذه الرسالة الغريبة الى الجزء الأخير من القرن الخامس وظاهر فيها ظهورا بينا أثر هرقليتوس (٥٤٠ — ٤٧٥ قبل الميلاد) وهى تشمل عدة وجوه للنظر . فتظهر فى الفلسفة التى جاءت بعد ذلك و يؤخذ مما ورد فيها أن جميع الحيوانات مكونة

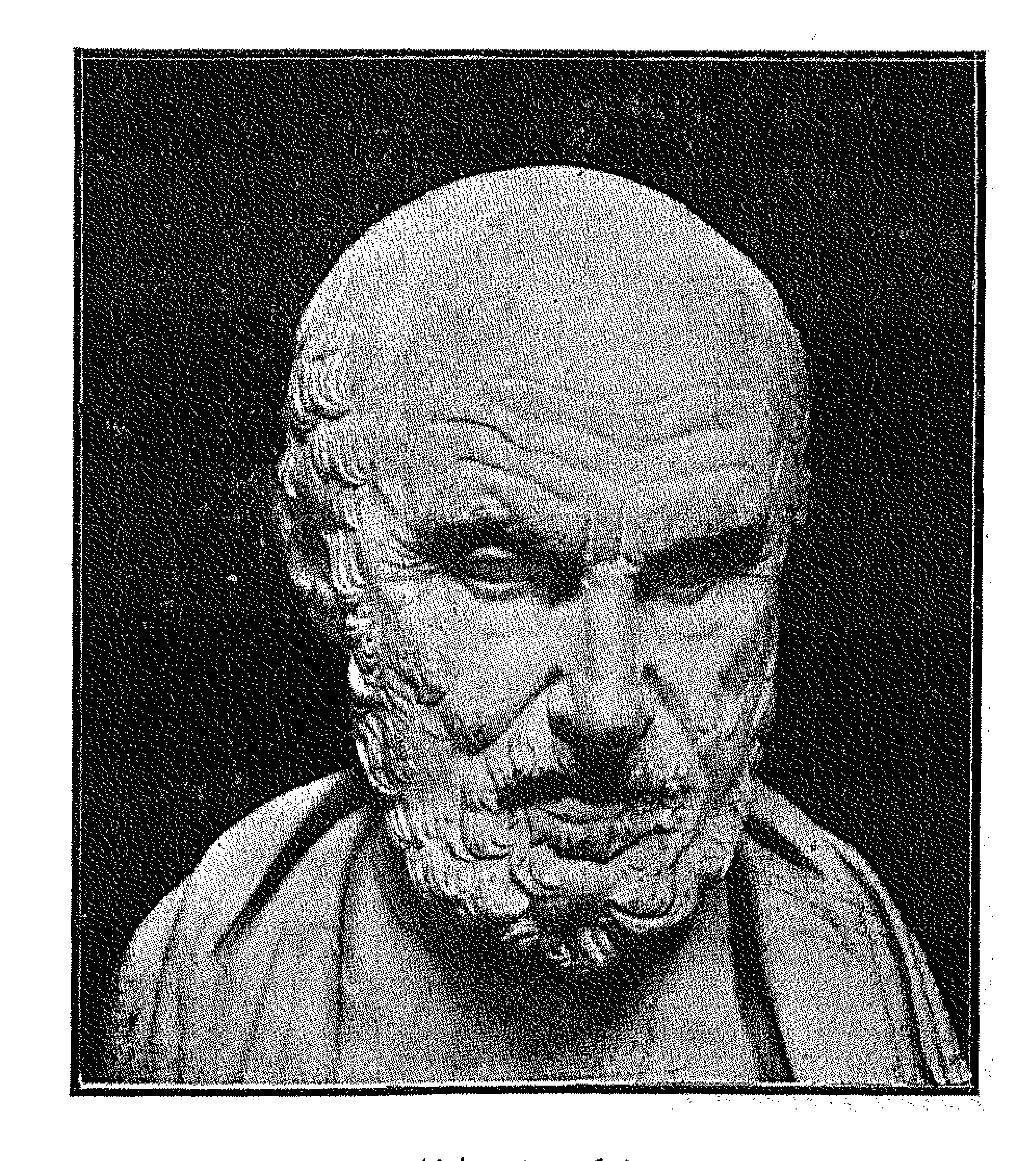
من النار والمــاء فلا شيء يولد ولا شيء يمـوت ولكن للأشـياء دورة أزلية مستمرة فليس هناك من حقيقة سوى التغير نفسه وما طبيعة الانسان إلا صورة للطبيعة العامة وما فنونه الا تقليد لفنونها أو لوظـائف الجسم والروح وهى مزيج من المـاء والنار تستنفد نفسها فى الطفولة والشيخوخة وتزيد أثناء سن المراهقة وتعثر فيها أيضا على مبدأ غريب لا يخلو من ارتباط بمجرى الأفكار البيولوجية المتأخرة وهو أن جميع أجزاء الجنين تتكوّن فى آن واحد وعلى نسبة النار والمــاء فى الجسم يتوقف كل شيء من جانس وطبع ومزاج وادراك .

بأمثال هذه الآراء النظرية يتميز هذا الكتاب عن المؤلفات الطبية الايبقراطية ذات الطريقة المألوفة والكتابان فى الحقيقة لا يشتركان إلا فى شيء قليل .

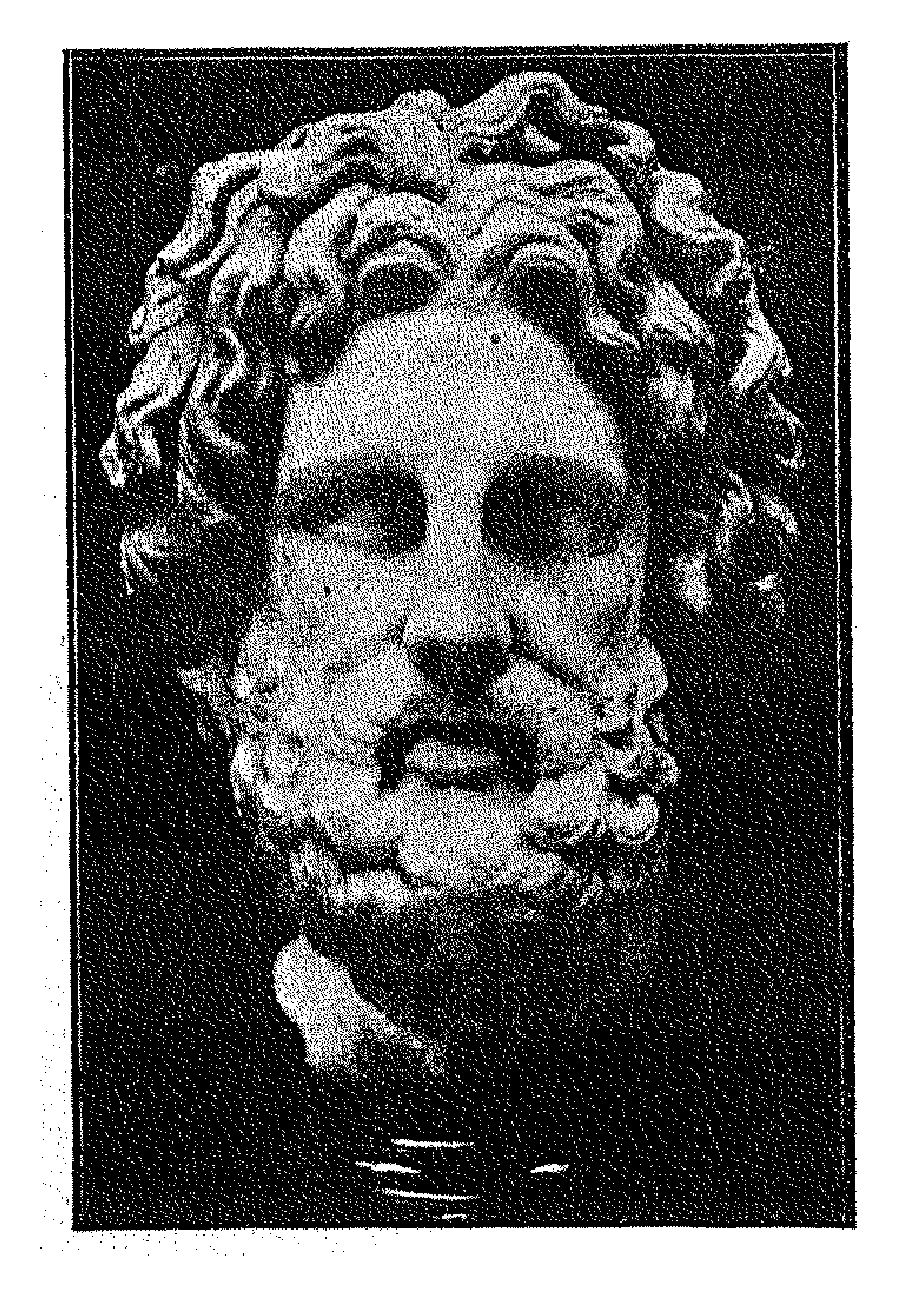
وبعد أن بحث الكتاب فى هذه المسائل النظرية عاد الى معالجة الأغراض العملية التى وضع لأجلها ، وفى أثناء بيانه طبائع الأطعمة ذكر ما يقوم مقام تقسيم تقريبي للحيوانات فوضعها فى مجاميع ولا ينقص من المجـاميع الكبرى إلا الزواحف والحشرات . ولقد وصف الجدول المتقدم من غير مبرر فى الحقيقة بأنه النظام التقسيمى القونى .

فهو ليس تقسيما بالمعنى العلمى المعروف الآن فى استعمال الكلمة فى تقسيم المملكة الحيوانية .

ولكن لدينـا مع ذلك نوعا محدودا من ترتيب الحيوان حسب طبائعـه المفترضة ، ونبدأ هــذه الفقرة بذوات الثـدى مقسمة الى مستأنسة ووحشية والأخيرة مرتبــة حسب حجومها وتليهـا



(شكل ١ ايبقراط)
المتحف البريطانى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد



(شكل ٢ اسكلو بيوس)
المتحف البريطانى القرن الرابع قبل الميلاد

الطيورالأرضية ثم الطيور المائية ثم الأسماك وقسمت الأسماك الى الأقسام الآتية :

(١) الأسماك التى تغشى الشواطئ .

(٢) الأنواع التى لا تغشاها .

(٣) الأسماك الغضروفية أو السيليشية وهى وان لم تسم بهذا الاسم فقد جمعت معا .

(٤) الأنواع التى تهوى الطين .

(٥) أسماك الماء العذب .

وأخيرا يأتى ذكر حيوانات لا فقرية مرتبة ترتيبا ما حسب تركيبها . وخاصة هذا التقسيم هو تمييز السمك عن باقى ذوات الفقرات وتمييز عديمة الفقرات عن كلا النوعين ومن الخمسين حيوانا التى ذكرت فى الجدول لا يقل عدد أسماء الأسماك فيها عن العشرين وهو نحو خمس العدد الذى عنى بدراسته ارسطاطاليس ولكن يجب ألا يعزب عن فكرنا أن الجدول قد اقتصر على ذكر الأنواع الصالحة للأكل .

إن أقل ما نتبينه من وجود هذا الكتاب عناية القوم فى القرن الخامس بدراسة الأشكال الحيوانية دراسة متقنة صحيحة جديرة بأن يقال عنها بحق انها علمية . ولا غرابة فى كثرة أنواع السمك التى ذكرت وتفردها باسهاب فى التفصيل والشرح عن المجاميع الأخرى . فالبحر الأبيض المتوسط مشهور بغناه على وجه خاص فى هذه الأشكال . والاغريق شعب بحرى ومؤلفاتهم مشحونة بالمجازات المقتبسة من حرفة صيد السمك ، وأنواع السمك المختلفة وجمالها وألوانها بقيت تؤثر فى عقولها تأثيرا عميقا من العصر المينوى الى

العصر البيزانطى كما يشهد بذلك فنهم ومع ذلك فانـــ الخدمة التى أداها الأطباء الايبقراطيون لعلمى التشريح ووظائف الأعضاء هذين العلمين اللذين يختلف فيهما تركيب الانسان والحيوان المستأنس عن سائر الحيوان لأعظم أثرا فى نمو علم الحيـاة فيما بعد من هـذه الملاحظات المتعلقة بطبيعة الحيوان وعاداته ، ومعظم المؤلفات البيولوچية القديمة الباقية من هـذا العصر تقصر بحثها على طبيعة الانسان وتركيبه وتدل هـذه المباحث على ميل لا ريب فيه نحو ترتيب هذه الموضوعات ترتيبا منسقا فنجد فيها تقسيما ووصفا للجسم فى أسباع من سطحه الى مركزه ومن قمة الرأس الى أخمص القدم [١] أو تقسيما الى أربع مناطق [٢] كما أن التعاليم الخـاصة بالعناصر الأربعة والأمزجة الأربعة صارت ذات شأن عظيم وقد اقتبس ارسطاطاليس بعضها فيما بعد ونجد فيه أيضا تفسيرات عدة ميكانيكية عن تراكيب الأجسام ومقابلة بين حالات تشريحية ممـا نعثر عليه فى الحيوانات المتقاربة النوع وتجارب فى حيوانات حية [٣] وتفريخا نظاميا لبيض الدجاج لدرس تطوّره وموازنة بين نمو النبات وأجنة الانسان والحيوان ونظريات فى التناسل ومن بينهـا ما سمى بعد ذلك بعلم الجراثيم المنوية ، وهى محاورات عن بقاء الأقوى وتغلبه على الضعيف وهى تكاد تكون نفس نظرية بقاء الأصلح الحديثة ونجـد فيه أيضا نظرية عن وراثة الصفات

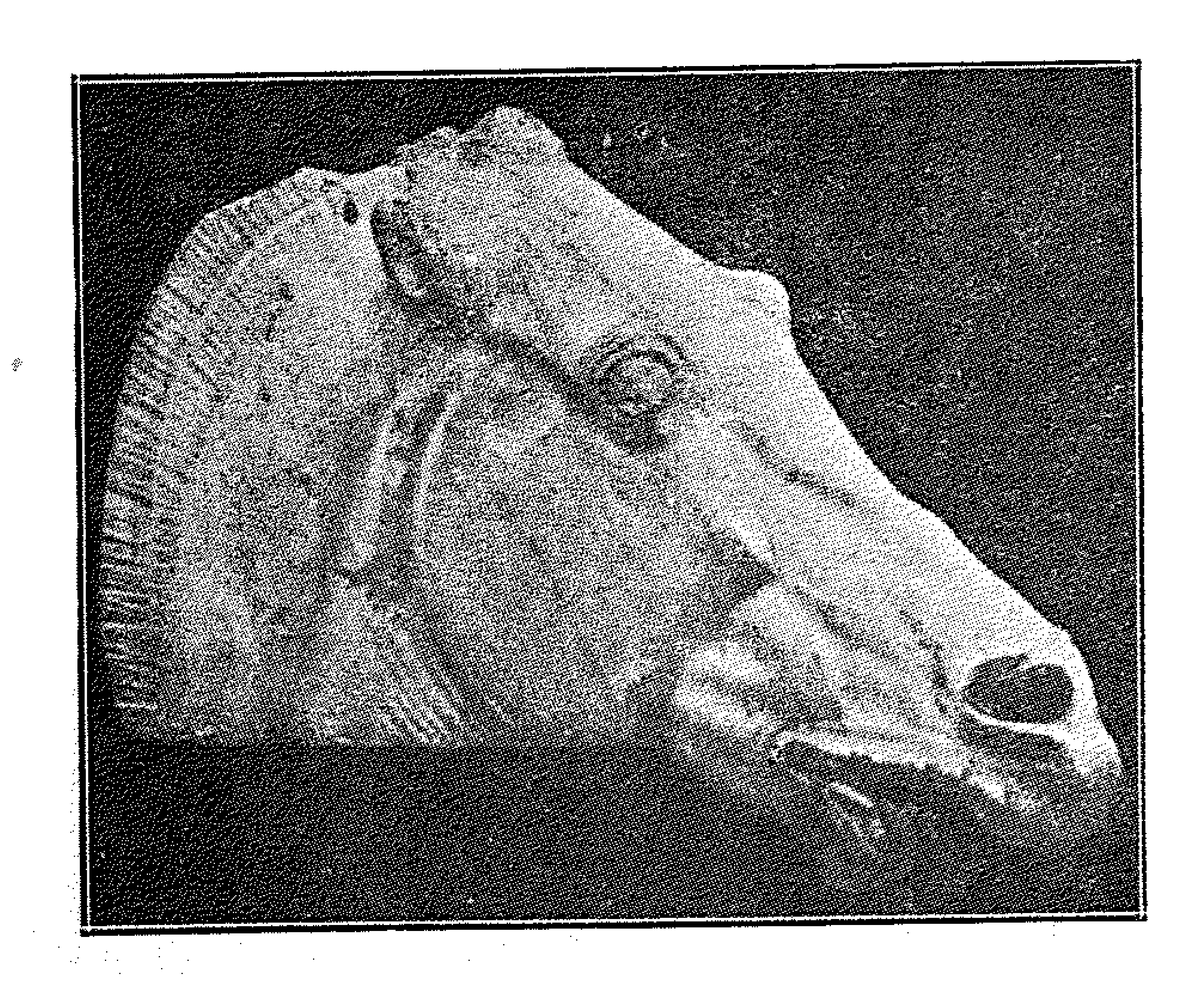
(١) الأصـل اليونانى فقد وفى حوزتنـا ترجمة له قديمة بربرية باللغة اللاتينية وطبع حديثا شرح له باللغة العربية فى ليبزج سنة ١٩١٤ G. Bergstrâsser, Pseudogaleni in Hippocratis de septimanis commentarium ab Hunnino Q.F. arabice Versum, Leipzig, 1914.

(٢) περὶ νούσων δ'

(٣) περὶ καρδίης.



(شـــكل ٥)



(شـــكل ٦)

المكتسبة [1] وكل ما ذكر لا يدل فقط على معارف واسعة بل يدل أيضا على السعى وراء استخدام أمثال هـذه المعارف فى أغراض الانسان واذا اعتبرنا كيف كان ارتباط علم الأحياء بالطب حتى العصور المتأخرة وكيف كان تأثير المؤلفات الابقراطية قويا جوهريا فيمن أتى بعدهم مباشرة من الأمم القديمة وفى العصور الوسطى الى القرن التاسع عشر أدركنا خطر هذه التطورات .

هكذا كانت صفة الأفكار البيولوچية فى القرن الخامس وأن الجيل الذى تأثر بهذه الحركة قد قام ببعض الأعمال المجيدة فى العصر الذى تلا ذلك مباشرة ففى الكتاب الذى عنوانه "فى التغذية" والذى ربما يرجع تاريخه الى نحو (٤٠٠ سنة قبل الميلاد) أتى ذكر النبض لأول مرة فى المؤلفات اليونانية الطبية ونقرأ فيه عن نظام فسيولوجى ظل حتى عهد هارفى وعلى حسب هـذا النظام تخرج الأوردة من القلب والشرايين من الكبد وفى نحو هذا التاريخ ظهر مؤلف آخر موضوعه "القلب" فيـه وصف للبطينات والأوعية الكبيرة وصماماتها ومقارنة بين قلب الحيوان وقلب الانسان .

وقد ظهر بعد هذا بقليل وربما كان ذلك (فى سنة ٣٩٠ قبل الميلاد) كتاب ثالث موضوعه "العضلات" وفى هذا الكتاب معلومات أكثر مما يتضمن عنوانه ففيه كلام عن نظام السبعات القديم ووصف للقلب بأنه يراسل الهواء والنار والحركة داخل الأوعية الدائمة الحركة الى أجزاء الجسم المختلفة الحركة وقد لا يخلو هـذا الوصف من التأثر بفلسفة هرقليتوس (حوالى ٤٤٥ — ٤٧٥ قبل الميلاد) وصاحب هذا الكتاب يعتقد أن الطفل وهو فى بطن أمه يستنشق

(1) خصوصا فى "περὶ γονῆς."

الهواء والنار بفمه و يأكل وهو فى الرحم و يوازن بين فعل الهواء فى الدم وفعله فى النار ثم انه جعل للمجموع العصبى المركزى أهمية ثانوية مخالفا بذلك ماورد فى بعض البحوث الايبقراطية الأخرى إلا أنه عنى عناية كبيرة بالحواس الخاصة وقال : ان المخ يرجع الصدى أثناء السمع وأن أعصاب الشم مجوفة متصلة بالمخ كما أنها تحمل اليه مواد متطايرة تجعله يفرز المواد المخاطية ثم انه فحص العين ووصف أغطيتها ورطوباتها وصفا تقريبيا وربما كان قد أشار الى عدسة العين البلورية لأول مرة فى المؤلفات اليونانية ثم انه وازن بين عين الحيوان وعين الانسان . وفى الكتاب من البينات ما يدل لا على اتباع طرق التشريح فحسب بل وعلى التجربة أيضا ونرى البداية البسيطة للفسيولوجيا الكيميائية فيما يحاوله من الموازنة بين مقاومة الأنسجة المختلفة لبعض العمليات كالغليان .

هنـاك مؤلف موضوعه التناسل هو أوفى من كل ما تقـدم من الكتب وهذا الكتاب ربمـا يرجع تاريخـه الى نحو (٣٨٠ قبـل الميلاد) [١] وان كان أقل منها فى قوة الملاحظة وهو يدل على مؤلف ذى عارضة فلسفية قوية شغوف بالتفسيرات الفسيولوجية لكن يقعد به جهله بعلم الطبيعة قد أوتى فى الواقع ضعف خلفه ارسطاليس وقوته الى حد قليل فالكتاب ينبئنا سلفا عن كتاب ارسطاليس القيم فى التناسل وقد أسهب جدا فى تقرير مبـدأ فى علم الجراثيم المنوية لا يختلف كل الاختلاف عن مبدأ داروين فى نفس الموضوع ولأجل أن يفسر ظواهر الوراثة فرض أوعية تصـل الى البويضة حاملة معها أمثلة لجميع أجزاء الجسم واعتقد

(١) ثلاث المؤلفات "التناسـل" و "طبيعة الجنين" و "الأمراض" الجزء الرابع – تؤلف كلها فى الحقيقة بحثا واحدا فى التناسل .

بوجود قنوات تمر من جميع الأعضاء الى المخ ومنه الى النخاع الشوكى (أو النخاع الأصلى) ثم الى الكليتين ومنها الى أعضاء التناسل واعتقد أيضا بأنه يعرف الموضوع الحقيقى لاحدى هذه القنوات لأنه لاحظ خطأ أن التشريط خلف الأذن يسبب تعطيل المجرى و يؤدى الى العنة . وبناء على هذه النظرية لا يمانع فى القول بوراثة الصفات المكتسبة وقال ان الجنين يمو و يستنشق بواسطة مواد تنتقل اليه من أمه داخل الحبل السرى ونجد أيضا فى هذا الكتاب وصفا مطولا بعينة منتثرة من الغشاء المخاطى للرحم اعتبرها المؤلف خطأ جنينا ولكن أقل ما تدل عليه ملاحظاته أنه أشد ما يكون رغبة فى الوقوف على الحقائق [١] .

فمؤلف كتاب التناسل المذكور آنفا هو اذا بيولوجى حسب الاصطلاح الحديث ومن الفقرات التى تظهره بهذه الصفة موازنته بين جنين الانسان وأفرخ الدجاج حيث يقول : "الجنين فى غشاء توجد فى وسطه السرة التى بواسطتها يشهق الجنين و يزفر و يخرج الأغشية من الحبل السرى . . . وتجد أن تركيب الطفل من البداية حتى النهاية على ما وصفته آنفا . . . واذا شئت فأجر هذه التجربة : خذ عشرين بيضة أو أكثر واجعل دجاجتين أو أكثر تحتضنها ثم خذ بيضة منها كل يوم من ابتداء اليوم الثانى حتى يوم الفقس واكسرها ثم افحصها فستجدها كما قلت تماما لأنه يمكن تشبيه طبيعة الطائر بطبيعة الانسان و (سترى) أن الأغشية تخرج من الحبل السرى وكل ما قلته فى موضوع الطفل ستجد شبيهه فى بيضة الطائر وسيدهش من يقوم بهذه المشاهدات لوجود حبل سرى فى بيضة الطائر [٢] .

(١) طبيعة الجنين الفقرة ١٣ ، نفس التجربة مشروحة فى كتاب " العضلات "

(٢) كتاب "طبيعة الجنين" الفقرة التاسعة والعشرين .

وقد أظهر المؤلف فى تكلمه على النبـات نفس الاهتمام الذى أظهره فى بحث موضوع نموّ الانسان والحيوانـ فقال : اذا أبقيت بذرة فى الأرض فانها تتشبع بمـا فيها من العصارات لأن التربة تحتوى على عصارات من كل نوع تغـذى بها النبات فاذا تشبعت البـذرة بالعصارات تمدّدت وانتفخت و بذلك تنضغط القوة (الطاقة) المنتشرة فيهـا بالروح والعصارة فتتشـقق وتصبح البذرة الأوراق الأولى ولكن يأتى على هذه الأوراق وقت لا يمكنها فيه أن تغتذى من العصارات الموجودة فى البذرة ولذلك تنـدفع البذرة والأوراق الى أسـفل وتدفع الأوراق البذرة الى أن ترسل فى الأرض بذلك الجزء من قوتها الذى لا يزال مركزا فيها و بذلك تتكوّن الجذور كأنما هى امتداد للأوراق فاذا أصبح النبات فى آخر الأمر ثابت الجذور فى الأرض وامتص غذاءه منها انعدمت الحبة لأنها امتصت كلها خلا قشرتها التى هى أصلب أجزائها ومع ذلك فان القشرة تختفى أخيرا عن الأنظار بسبب تحللها فى الأرض و بعد زمن يخرج بعض الأوراق أغصانا ولا يزال النبات رخوا ورطبا لأنه انمـا يولد من البذرة بواسطة الرطو بة ولا يمكن للنبات بعد أن يثمر لقوة نموه من أعلا ومن أسـفل وذلك بسبب خلوه من صفتى القوة والادخار اللتين منهما يمكن أن تنشأ البذرة ولكن اذا مضى على ذلك زمن وأصبح أصلب عودا وأثبت جذورا تكوّنت فيه أوعية هى مسالك توصل الى أعلا وأسـفل ولا يجر من التربة ماء فقط بل يجر أكثر من ذلك مواد أكثف من الماء وأدسم فاذا سخنت الشمس هذه المواد فعلت فعل الخميرة فى الأطراف وولدت ثمرا من نوعه وعلى ذلك يكون الثمر كثيرا من قليـل لأن كل نبات

يستمد من الأرض قوة أوفر كثيرا من القوّة التى ابتدأ بها ولا يحصل الاختمار فى موضع واحد بل فى عدّة مواضع (١) .

ولم يحجم هـذا المؤلف عن تشبيه النبات بجنين ذوات الثدى فقال : "بنفس الطريقة يعيش الطفل فى رحم أمه وفى حالة مناسبة لصحتها . . . وستجد شبها تاما بين نتاج التربة ونتاج الرحم".

ولقلة الأمثلة التوضيحية المستمدة من المباحث النباتية فى المؤلفات اليونانية القديمة كان خليقا بالذكر المقارنة الجليلة بين تولد النبات من العقل وتولده من البذور التى ورد ذكرها فى نفس الكتاب الآنف الذكر .

"أما بخصوص النباتات المتولدة من العقل . . . يغرس جزء الغصن من حيث قطع من الشجرة فتخرج منه الجذيرات وهذه طريقة حصوله يستمد جزء النبات الموجود فى التربة العصارات و ينتفخ و يكون روحا بخلاف الجزء الخارجى ثم ان الروح والعصارة يركزان قوة النبات فى أسفله فيصير أكثف ثم ينفجر الطرف السفلى و يولد جذورا رخوة ثم ان النبات يسحب العصارات بجذوره من الأرض و ينقلها للجزء الذى يعلو التربة فيستغلظ و يولد روحا فتصبح القوّة مركزه بعد أن كانت منتشرة فى النبات و بذلك يخرج النبات شطأه وأوراقه . . . فالعقل تختلف اذا عن البذور ففى حالة البذرة تتولد الأوراق أوّلا ثم ترسل الجذور الى أسفل وفى حالة العقلة تتكوّن الجذور أوّلا ثم الأوراق" (٢) .

ولكن بلغ الطور الأول لعلم الحياة اليونانى أزهى تقدّمه بهـذه المؤلفات التى ظهرت فى الجزء الأوّل من القرن الرابع أما المؤلفات

(١) كتاب "طبيعة الجنين" الفقرة الثانية والعشرين

(٢) نفس الكتاب

الاپيقراطية المتأخرة التى تبحث فى الموضوعات الفسيولوچية فأحط مستوى .

والواجب أن نبحث عن سبب خارجى لهذا القصور ولن نتكلف البحث بعيدا فهذا العصر شهد قيام حركة كان لها أبلغ أثر فى كل دائرة من دوائر الفكر فنرى ظهور حركة فكرية عظيمة فى العالم اليونانى كانت نتيجتها تقهقر دائرة الفلسفة التى تبحث فى الطبيعة أمام الفلسفة الأخلاقية وكانت أتينا مركزا لهذا الانقلاب الفكرى الذى ربما لم يشهد العالم أعظم منه كما أن سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩) كان زعيمها ولا تعنينا الحركة نفسها أو نتيجتها التى امتازت بها ، على أن الخالف العظيم لمنشئ هذا الانقلاب وتلميذه يكشف لنا فى الطيماوس (Timaeus) عن صورة للدرك الذى يمكن أن ينحط اليه العلم الطبيعى بمحاولة أن يعطينا معنى خاصا عن الغاية من جميع أجزاء العالم المنظور فالكتاب والصورة التى يرسمها هذا الكتاب بالرغم من أنها سوداء وممقوتة للعقل الذى درج على الطريقة العلمية الحديثة سيطر على فكر فريق كبير من البشر مدّة تقرب من ألفى سنة وتبدو الطبيعة العضوية فى الكتاب المتقدّم وهو لأفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧) كأنما هى انحطاط للانسان الذى جعله الخالق فى غاية الاتقان ثم ان المدرسة التى تمسكت بهذا الرأى انحطت أخيرا بسبب فشلها فى ترقية المعارف وأصبحت آراؤها على مر القرون تزداد بعدا عن الظواهر وأن التطوّرات القريبة التى انتهت اليها "الأفلاطونية الجديدة" المتأخرة تبقى الى اليوم نذيرا لكل طريقة تهمل التأمل فى ظواهر الطبيعة .

ولقد جرت الأفلاطونية معها فى سقوطها العلوم الطبيعية وأهملت كل المعلومات البيولوچية المتقدّمة فقضت بذلك عليها

ولكن الرياضيات فلأنها ليست من مباحث الظواهر الطبيعية كانت أكثر موافقة لطبع الأفلاطونية الجديدة فاستمرت تتقدم حاملة معها هنيهة من الزمن علم الهيئة ذلك العلم الذى كان ذا أثر فى حياة الانسان والذى أصبح بسرعة خادما لعلم التنجيم وكذلك الطب الذى يقرر أحوال حياة الانسان نال أيضا رعاية وان أخطأ فى كثير من الأحيان ولكن العلم الطبيعى المحض قد قضى عليه ومع أن النظر الى الطبيعة من الوجهة الأخلاقية قد غمر العلم فى آخر الأمر فان قيام ارسطاطاليس (٣٨٤ — ٣٢٢) ذى الشخصية القوية أوقف هذه الغمرة الى حين ومع هذا فان المؤلف فى علم الحياة اليونانى ليبقى فى مركز غير حسن اذا وزن بأمثاله من مؤرخى الرياضيات أو علم الهيئة أو علم الطب اليونانى وذلك لقلة الموارد الكافية لتقديم بيان عن تطور المباحث البيولوجية قبل ارسطاطاليس ولقد بسط هذا الطبيعى الجليل نفوذه العظيم على علم الحياة اليونانى تمام البسط كما بسطه على شىء كثير من علم الحياة الذى جاء بعد ه

تشارلس سنجر

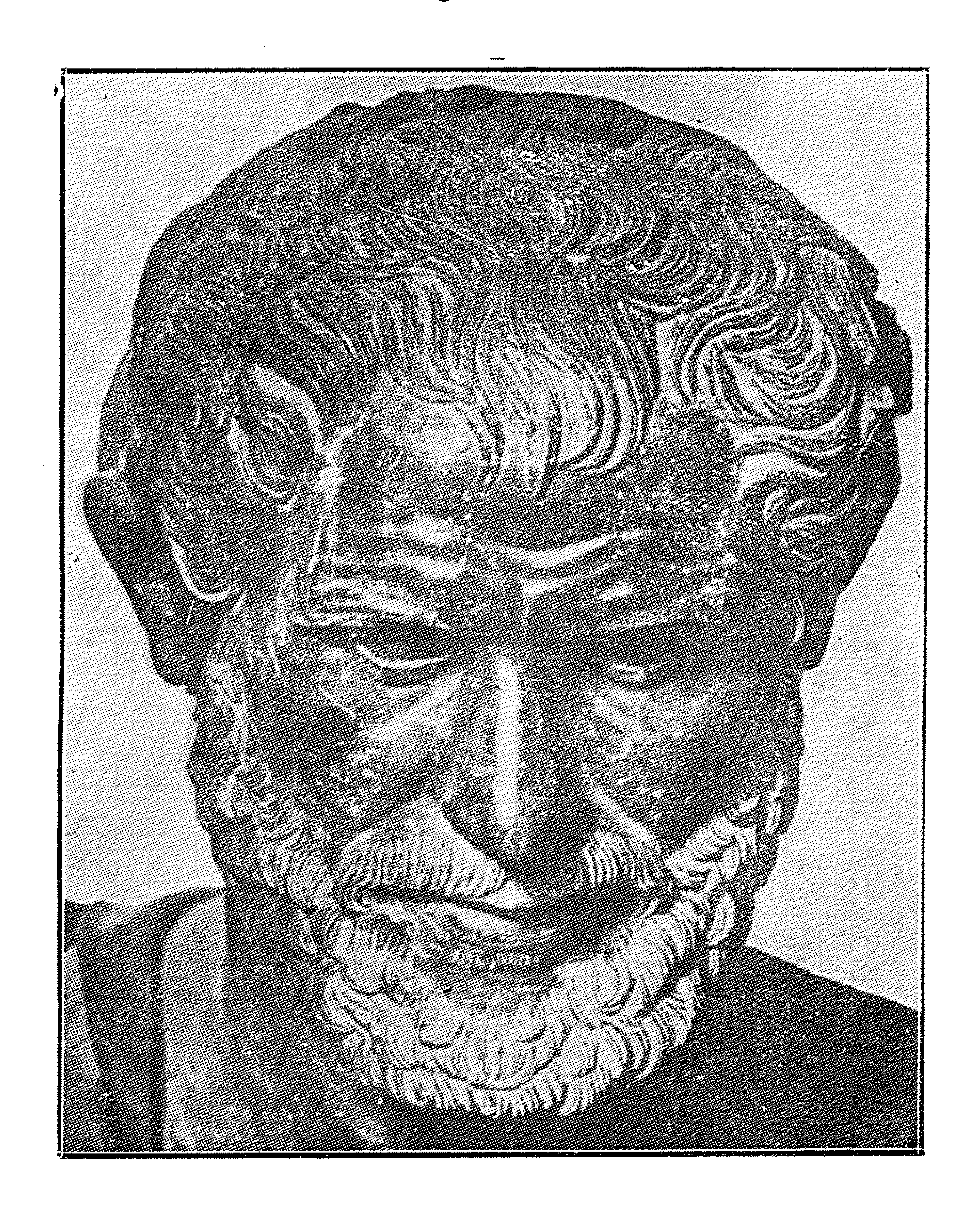
بعد ارسطاطاليس

كل ما بقى من المؤلفات البيولوچية الارسطاطاليسية تشير مبدئيا الى الحيوان . أما كتاب ارسطاطاليس فى النباتات فقد ضاع أو بقى ولكنه ليس الا بقية محرفة ولكن من حسن الحظ أن لدينا كتابين كاملين من تأليف تلميذه وخلفه تيوفراسطس (٣٧٢ — ٢٨٧) وهــذان لا يمكن اتخاذهما فقط دليلا على النهج الأرسطاطاليسى نحو عالم النبات بل يشيران أيضا من طرف خفى الى الحالة العامة لعلم الأحياء فى الجيل الذى أعقب ارسطاطاليس .

ورسالتــا تيوفراسطس المتقــدمتان من وجهات كثيرة أكمل وأنظم ما وصل الى وقتنا الحاضر من المؤلفات البيولوچية العتيقة جميعها ويعطياننا فكرة عن نوع اللذة التى تنشأ فى نفس العالم الطبيعى العامل فى تلك الأيام عند ما يلهم عبقرية معلم عظيم بدل أن يلهم بقوة أفكاره الخاصــة ذلك بأن تيوفراسطس يسير حيث يحلق ارسطاطاليس فالأول بالنسبة لأستاذه كالعلماء المورفولوچين

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنسبة لدارون فقد وقف مجهود الطبيعيين ومهارتهــم فى جميع العالم مدة جيلين بعد ظهور كتاب "أصل الأنواع" ســنة ١٨٥٩ عند حد البحث فى تركيب الكائنات الحية وطريقة معيشتها بحثا تفصيليا على قاعدة فلسفة النشوء حتى أن معظم المباحث الخاصة بالمورفولوچيا وكثيرا من مباحث الفسيولوچيا من بعد زمن دارون يمكن اعتبارها تفسيرا لمؤلفاته وكذلك مؤلفات تيوفراسطس المذكورة تعطينــا نفس الفكرة وهى تمثل الآثار ، وياللأسف تكاد تكون قاصرة على الآثار البيولوچية الباقية من مدرسة عملت فكرة عظيمة مدفوعة بذكرى

ارساطاليس



(شـــكل ٧)

مأخوذة من الهرقولانيوم

(يحتمل أن تكون من صنع القرن الرابع قبل الميلاد)

معلم عظيم وتشبه بحالتها هذه كثيرا من المؤلفات العلمية فى أيامنا هذه التى يقوم بتأليفها رجال ليس لهم من العبقرية الا أنهم مزودون بتخيل وأمل ومثل أعلى وليس فى قدرتنا أن نكتب عن أمثال هؤلاء الرجال كما نكتب عن ارسطاطاليس فكل أثرهم فى الحياة مقصور على الأعمال التى قاموا بها فعلا وبما أن تيوفراسطس مؤلف منظم ومؤلفاته قد وصلت الينا فى حالة جيدة فهو مقياس مناسب جدا للمستوى الحقيقى الذى أدركه علم الحياة العتيق . "لولا التخيل لهلك الناس" ولا يستطيع العلم أن يستمد حياته الا من ذلك النفر القليل جدا من الأنبياء الذين أمدوا العالم من آن لآخر أثناء العصور المختلفة بالكليات العظمى والأمثلة العليا . فى ضوء هذه الحقيقة دعنا نفحص ما قام به ثيوفراسطس .

يكاد علم النبات جميعه حتى القرن السابع عشر يكون مكونا فى الغالب من أوصاف الأنواع وذلك لعدم وجود أى نظام واف للتقسيم وكان وصف ورقة أو جذر وصفا دقيقا باللغة المعتادة فى ذلك الوقت يستلزم غالبا عدّة صفحات لكن علماء النبات الحديثين قد اخترعوا مصطلحات محكمة ومهما استقبحتها العين أو استثقلها السمع فان لها فضلا عظيما فى اختصار الكتابات العلمية ، وأما علماء النبات قبل القرن السابع عشر فكان لبعضهم هذه الطريقة الخاصة فى التعبير والى بعض هـذا النقص تعزى المجهودات المستمرة التى كانوا يبذلونها أثناء العصور لتمثيل النباتات بالرسم فى كتب النبات الخطية منها والمطبوعة ، وبهذا أصبح من المتيسر الوقوف على تاريخ كاف للتصوير النباتى .

ويظهر أن ثيوفراسطس شعر بشـدة الحاجة الى المصطلحات النباتية فهناك عدّة حالات يؤخذ منها أنه حاول اعطاء معنى

اصطلاحى خاص الكلمات شائعة شيوعا كثيرا أو قليلا ومن أمثلة هذه الكلمات ما يأتى : "Carpos" للثمرة و "Pericarpion" لوعاء البزرة و "Metra" وهى كلمة أطلقها على الجوف المركزى لأى ساق سواء أكان مكوّنا من خشب أو لب أو أية مادة أخرى ، ولقد وصل الينا بسبب استعمال ثيوفراسطس لهذه الاصطلاحات تعريف حقيقى للثمرة ولوعاء البذرة [١] ومن السهل أيضا ادراك السبب الذى من أجله أدخل كلمة "metra" فى علم النبات ، ومعناها فى الأصل "الرحم" وادراك الفراغ الذى ملأته الكلمة فى اللغة اليونانيـة ، وعن هذا يقول المؤلف "metra" هو ذلك الجزء من الخشب الذى يقع فى وسطه وترتيبه الثالث ابتـداء من اللحاء فهو كالنخاع بالنسبة للعظام وبعضهم يسميه القلب وآخرون يسمونه الباطن بيد أن البعض يطلق لفظ القلب على الجزء الأوسـط فقط من المترا نفسـه بينما آخرون يسمون هـذا الجزء النخاع [٢] فهو بذلك قد اخترع كلمة تشمل جميع الأنواع المختلفة للب ناقلا اياها من مبحث آخر وهـذه هى الطريقة المتبعة فى التسمية العلمية الحديثة وهى طريقة لم يكد يعرفها علماء النبات حتى القرن السادس عشر بعد الميلاد فان واضعى أساس المصطلحات الحديثة هما سيزالبينو و يواقيم ينج وذلك فى أواخر القرن السادس عشر وفى القرن السابع عشر .

---

(١) يجوز أن ثيوفراسطس اقتبس كلمة "Pericarp" من ارسطاطاليس وفى النبذة المذكورة فى الكتاب المسمى "De anima" ما يشعر بأن الكلمة المذكورة لم يكن لها المعنى الاصطلاحى التام الذى أعطاه لها ثيوفراسطس .

(٢) كتاب "Historia plantarum" الباب الأول ، الفصل الثانى ، السطر السادس .

لقد أدرك ثيوفراسطس قيمة دراسة التطوّرات مستمدا هذا الادراك من أستاذه قال: ”للنبات قوّة انبات فى جميع أجزائه لأن الحياة موجودة فيها كلها ولذلك يجب النظر اليها لا بحسب ما هى بل بحسب ما تؤول اليه“ (١) .

ولقد فصل طرق تكاثر النبات تفصيلا صحيحا بطريقة تفوق ما جاء فى الكتاب القديم الوحيد الذى بقى حتى الآن والذى عالج هذا الموضوع بالتفصيل ونعنى به مؤلف ايبقراط فى ”التناسل“ وقد قال فيه ان طرق توالد الأشجار والنبات هى : تكاثر ذاتى أو من بزرة أو من جذر أو من قطعة ممتلخة أو من فرع أو غصن أو من الجزع نفسه أو من أجزاء من الخشب قطعت قطعا صغيرة (٢) ولا بد أن تكون أعجوبة الانبات قد أثارت دهشة القوم من قديم الزمان ولقد سبق أن رأينا أنها تشغل عقل مؤلف أقدم من هذا كما أنها كانت أيضا احدى الشواغل الأولى الهامة لارسطاطاليس فليس عجيبا اذا أن تكون عملية الانبات قد شغلت أيضا ثيوفراسطس الذى ترك آراء مدوّنة فى تكوين النبات من البزرة فقال فى بعض النباتات تنبت الجذور والأوراق من أحد طرفى البذرة وفى البعض الآخر ينبتان منفصلين كل من أحد طرفيها ففى القمح والشعير والقمح الألمانى وجميع ما شابه ذلك من الحبوب ينبت كل منهما من أحد الطرفين حسب وضع [البذرة] فى السنبلة فينبت الجذر من الطرف السفلى الغليظ والساق من الطرف العلوى ولكنهما ، الجذر الساق ، يكونان معا

(١) نفس الكتاب جزء ١ صفحة ١ سطر ٤

(٢) كتاب ”Historia plantarum“ جزء ٢ صفحة ١ سطر ١

شيئا واحدا متصــلا ، وأما الفول وسائر البقول فليست كذلك ففيها ينبت الجذر والساق من نقطة واحدة هى موضع التصاقهما بالقرن حيث يكون منشأهمـا كما لا يخفى وفى بعض الحالات تكون ثم عملية يحدث منها أن ينمو الجذر متجها الى أسفل والورقة والساق الى أعلا كما فى الفول والحمص وخصوصا الترمس . وفى بعض الأشجار تنبت فيهـا البرعمة أولا داخل البذرة ثم يزداد حجم البذرة فتنشق فكأن هذه البذور مكوّنة من فلقتين ومن الجلىّ أن جميع بذور النباتات البقلية ذات فلقتين وهى مزدوجة واذا يخرج الجذر من غير ابطاء ولكن لا يحدث هذا فى الحبوب لأن بذورها قطعة واحدة بل ينمو الجذر قبل (الساق) بمدّة وجيزة" وينبت كل من الشعير والقمح وحيد الورقة ولكن البسلة والفول والحمص تنبت متعددة الورقة ، لجميع النباتات البقلية جذر مفرد خشبي تتفرع منه جذور رفيعة جانبية ولكن للقمح والشعير والحبوب الأخرى جذور رفيعة عديدة تجعلها متشابكة .

وهنـاك تباين بين هذين النوعين ، فالنباتات البقلية لها جذر مفرد وأشطاء كثيرة جانبية علوية تخرج من الساق [المفرد] . . . بيد أن للحبوب عدّة جذور تخرج منها عدّة سـيقان مجردة عن الأشطاء الجانبية " (١) .

ولا شك أن ما تقدم يدل على ملاحظة دقيقة للطريقة التى بها نبتت البـذور فهو يعين بالدقة الفرق بين ذوات الفلقتين والفلقة الواحدة الا أنه لم يعن بالبذرة من حيث فلقها عنايته بعلاقة الجذور

(١) كتاب "Historia plantarum" الجزء الثامن ، الصفحة الأولى ، السطر الأول .

بالسيقان وفى ذوات الفلقتين أبان أن الجذر والساق يخرجان من نقطة واحدة وفى ذوات الفلقة الواحدة يخرجان من الطرفين المتقابلين للبذرة .

ولم يحصل تقدم حقيق بعد ذلك فى موضوع البذرة النابتة حتى اختراع المجهر (المكرسكوب) وظهور مؤلف هايمور (Highmore.) (١٦١٣–١٦٨٥)[١] ومباحث ملبيغى (Malpighi.) (١٦٢٨ — ١٦٩٤)[٢] وجرو (Grew.) (١٦٤١ — ١٧١٢)[٣] ذات الاستقصاء الواسع المدقق بعد منتصف القرن السابع عشر على أن ملاحظات تيوفراسطس كانت صحيحة وواضحة وتامة لدرجة يصح معها أن تكون عنوانا لصفحات المؤلفين المتقدم ذكرهم الذين أتوا بعده بألفى سنة .

قد كتب المتأخرون كثيرا عن علم الأقدمين بالنبات من حيث الذكورة والأنوثة ويمكن أن يقال ان ما من أحد من الكتاب الأقدمين كانت عنده أية فكرة واضحة عن العناصر التناسلية للزهرة ومع ذلك فان الذكورة والأنوثة غالبا ما ينسبان الى النباتات فقد ترى فى دواوين الشعراء شيئا عن "غرام النبات" تشبيها لها بالناس ، وكثيرا ما وصفت النباتات أيضا كأنها ذكر وأنثى

(١) كتاب "A History of Generation" لمؤلفه "Nathaniel Highmore" مطبوع فى لندن سنة ١٦٥١

(٢) كتاب "Anatome plantarum" لمؤلفه "Marcello Malpighi" مطبوع فى لندن سنة ١٦٧٥

(٣) كتاب "Anatomy of Vegetables begun" لمؤلفه "Nehemiah Grew" begun مطبوع فى لندن سنة ١٦٧٢

فى المؤلفات البيولوچية العتيقة ويذهب بللينى فى ذلك بعيدا الى حد القول بأن بعض التلاميذ اعتبر أن جميع الأعشاب والأشجار ذات صفة جنسية[١] ولكن اذا أمكن اختبار أمثال هذه الكتابات وجدنا أن ما سمى ذكورا واناثا هو عادة أنواع مختلفة من النبات ، وفى حالات قليـلة وصف نوع عقيم من النبـات كأنه الذكر ونوع مخصب كأنه الأنثى وفى بقية قليـلة من الحالات اعتبرت نباتات أو أزهار من ذوات الأعضاء التناسـلية المنفصلة كأنها ذكر وأنثى ولكن من غير فهم حقيق لطبيعة الأزهار الجنسية ، يتبق بعد ذلك النخيل ولقد عرفوا عن جنسه النباتى أكثر قليلا ممـا عرفوا عن غيره فقال تيوفراسطس : "فى حالة البلح يجب جلب الذكور الى الاناث لأن الذكور تثبت الثمرة فى محلها وتنضجها وهذا ما يسميه البعض من طريق المقارنة "اسـتعمال التين البرى" [٢] والعمليـة هـكذا : عند ما يزدهر الذكر فانهم يفصلون فى الحـال الغمد الزهرى مع الزهرة ويهزون النوار بزهرته وطلعه فوق ثمرة الأنثى فاذا عولجت هكذا احتفظت الأنثى بالثمرة ولم تطرحها [٣] ولقد عرف البابليون منذ عهد قديم جدا ما لغمد ذكر النخيل من صفة

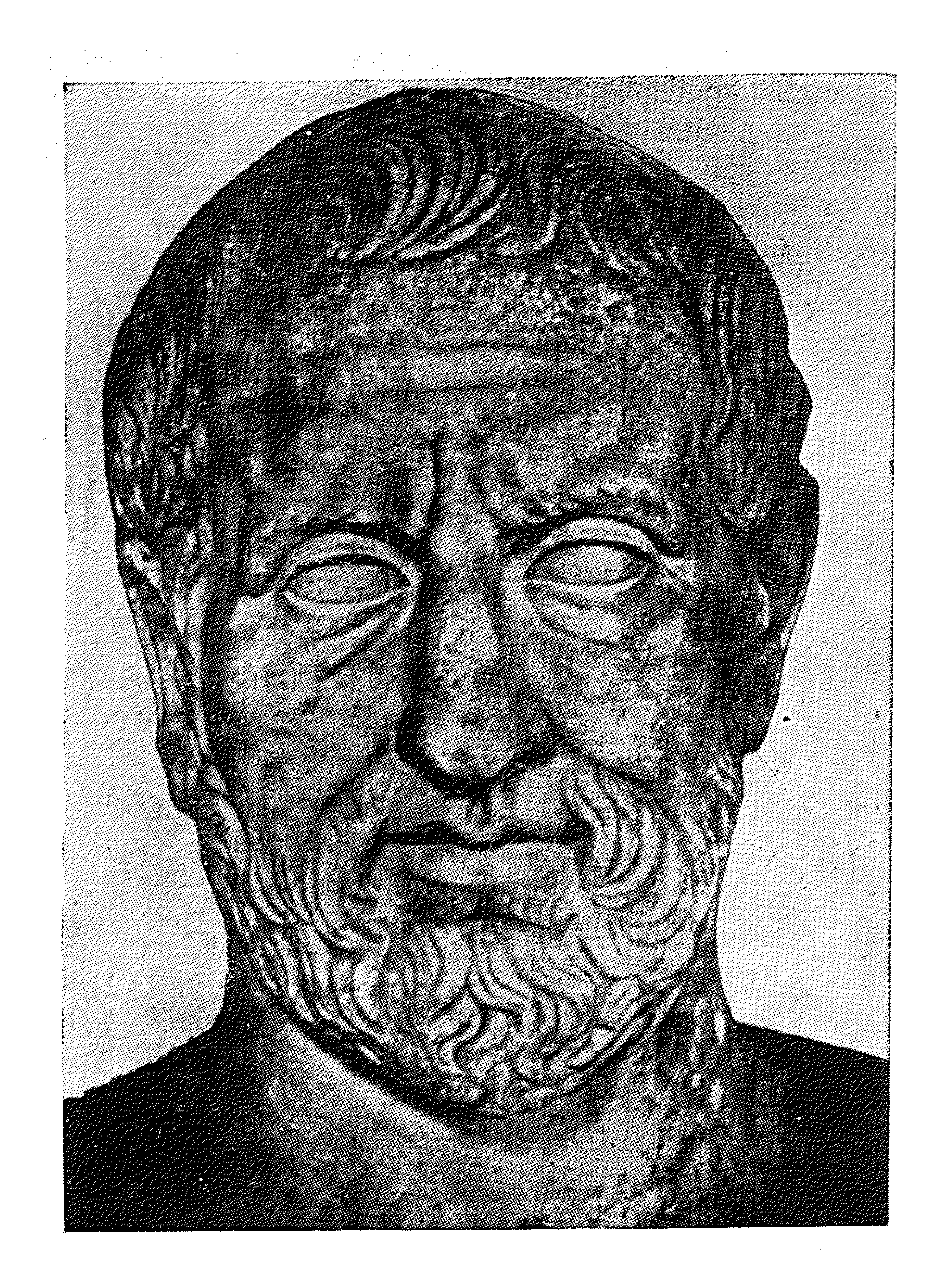
---

(١) كتاب "Naturalis Historia" لمؤلفه "Pliny" الجزء الثالث عشر صفحة ٤

(٢) الكلمة الغريبـة "ὀλυνθάζειν" التى ترجمت هنا بالعبارة الآتية " استعمال التين البرى " مأخوذة من " ὄλυνθος " وهو نوع من التين البرى الذى قلمـا ينضج ، والمعنى الخاص المقصود من الكلمة مفسر فى كتاب آخر لثوفراسطس مسمى De causis plantarum جزء ٢ صفحة ٩ سطر ١٥ وبعد أن شرح الانضـاج فى التين قال "لا يحصل نفس الشىء فى البلح ولكن يحصل شىء شبيه به ولهذا سمى هذا الشىء" "ὀλυνθάζειν" .

(٣) كتاب "Historia plantarum" جزء ٢ صفحة ٨ سطر ٤

ثيوفراتوس



(شـــكل ٨)
مأخوذة من ڤيلا البانى
نسخة فى القرن الثانى للميلاد عن صورة أقدم

التلقيح وقد ذكرها هيردوت [١] ورمز لها برمز شائع على الآثار الأشورية .

ومقارنة تلقيح النخيل باستعمال التين البرى تشير الى عملية "الأبر" وأن تيوفراسطس يخبرنا بأن هناك أشجارا معينة منها التين عرضة لأن تلقى ثمرها قبل الأوان ولعلاج هذه الحالة تتبع "طريقة الأبر" وحشرات العفص تخرج من التين البرى المعلق هناك وتأكل قمم التين المنزرع وبذلك تجعلها تنتفخ [٢] . وهذه الحشرات العفصية "تنشأ من البذور" [٣] وقد فرق تيوفراسطس بين تطبيق العملية فى التين وتطبيقها فى البلح ملاحظا "أن فى كليهما (التين والبلح) يساعد الذكر الأنثى لأنهم يسمون (النخلة) الحاملة للثمر بالأنثى ، لكن بينما يتحد الجنسان فى أحدهما فان الأمر ليس كذلك فى الآخر" [٤] .

لم يوفق تيوفراسطس جد التوفيق الى تمييز طبيعة العناصر الأولية للنباتات ولو أنه كان فى مكنته أن يفرق بين الجذر والجذع والورقة والأذين والزهرة من الوجهة المورفولوچية وكذلك من الوجهة الفسيولوجية لحد ما . وقد اختار للجذر التعريف المشهور الوحيد الممكن اختياره قبل ظهور علم الكيمياء وهو (ما يمتص به النبات الغذاء) [٥] وهذا الوصف ينطبق على الشرح الذى أورده مؤلف كتاب التناسل قبل زمن ارسطو . وقد بين تيوفراسطس بأمثلة

(١) كتاب "Herodotus" جزء ١ صفحة ١٩٣
(٢) « "Historia Plantarum" « ٢ « ٨ سطر ١
(٣) « نفس الكتاب « ٢ « « ٢
(٤) « "Historia Plantarum" « ٢ « ٨ « ٤
(٥) نفس الكتاب جزء ١ صفحة ١ سطر ٩

عديدة أنه قادر على تتبع النظائر المورفولوچية فقد فطن الى أن اللبلاب تنبت له جذور من الأغصان التى تتخلل الأوراق وبها يستطيع أن يعلق بالأشجار والجدران[١] وأن الدبق لا ينبت الا على قشور الأشجار الحية حيث تتغلغل جذوره وأن التكوين الخاص الذى يمتاز به شجر (المانجروث) يمكن تعليله بأن هذا النبات تنبعث له جذور من الأغصان حتى تتصل بالتربة فتكون جذورا أخرى وبذلك تتكون حول الشجرة دائرة من الجذور لا ارتباط بينها وبين الجذع الأصلى بل توجد على بعد منه[٢] على أنه لم يفلح فى التفرقة بين طبيعة بعض التكوينات كالبصيلات والريزومات والدرنات ولم يكن أوفر حظا فى بحثه فى طبيعة الجذوع ، أما الأوراق فكانت أفكاره عنها جلية مرضية ولو أنه ضل ضلالا كبيرا فى بحثه عن وظائفها ، فلا شك عنده فى أن الورقة الريشية لشجرة لسان العصفور الجبلية ورقة وليست فرعا .

وعلى الرغم من قصوره عن ادراك كنه التناسل فى الأزهار فقد توصل الى فكرة تقريبية صحيحة عن العلاقة بين الزهرة والثمرة فيقول عن بعض النباتات ان (الزهرة) تكون حول الثمرة نفسها كما فى الكروم والزيتون وان أزهار الزيتون تظهر حين سقوطها كما لو كان هناك ثقب يخترقها ويتخذ من ذلك دليلا على طيب ازدهارها فان الزهرة اذا احترقت أو لم يتم نضوجها سقطت مع الثمرة وبذلك تصبح غير مثقوبة . ونجد غلاف الشجرة فى أغلب الأزهار فى الوسط وقد توجد الزهرة أعلى غلاف الثمرة كما هى فى الرمان والتفاح

(١) نفس الكتاب جزء ٣ صفحة ١٨ سطر ١٠

(٢) كتاب "De causis plantarum" جزء ٢ صفحة ٢٣

والكمثرى والبرقوق والآس لأن بذورها توجد أسفل الزهرة ، وأحيانا نجد الزهرة أعلى البذور نفسها كما فى جميع النباتات الشبيهة بالعوسج [١] وبذلك نجح تيوفراسطس فى التمييز بين أنواع الأزهار السفلية الالتحام والدائرية الالتحام والعلوية الالتحام وكاد يصل الى أن يعد علاقة الزهرة بالثمرة العنصر الضرورى للزهرة .

وكانت لدى تيوفراسطس فكرة تامة الوضوح عن توزيع النباتات من حيث توقفه على التربة والمناخ ويخيل اليك أحيانا أنه على وشك الانتقال من ذكر توزيع المناخ الى بحث مناطق جغرافية حقيقية ، وقد بقى البحث العام فى توزيع النباتات زمنا طويلا عند الحدّ الذى تركه عنده ان لم يكن قد تراجع عنه وقد شوّه قيمة المخطوطات والمطبوعات النباتية القديمة التى وجدت فى بلاد الغرب عدّة قرون التمسك بوصف للنباتات أعدّ للشرق اليونانى والجنوب اللاتينى ، وكادت هذه المؤلفات تكون خلوا من كل فائدة لولا ما احتوته هنا وهنالك من رجوع الى الطبيعة ولما مات تيوفراسطس حوالى (سنة ٢٨٧ قبل الميلاد) انقرض علم الحياة النظرى من العالم الاغريقى لدرجة كبيرة وذلك هو نفس الانحلال الذى دب دبيبه فيما بعد فى الأفرع العلمية الأخرى فلم تعد تحد والناس الى العلم الرغبة فى المعرفة بل أصبح العلم دراسة تطبيقية خاضعة للفنون العملية . وتلك الروح لا بد أن تعود بالضرر على العلوم التطبيقية نفسها فى آخر الأمر . على أن القرون التى تلت ذلك العهد لم تخل من كتاب ذوى مقدرة كبيرة فى علم الحياة . وقد ثبتت دعائم علمى التشريح والفسيولوجيا فى المدرسة الطبية بالاسكندرية من حوالى (سنة ٣٠٠

(١) كتاب Historia plantarum جزء أول صفحة ١٣ سطر ٣

قبل الميلاد) على أن مركزهما كان دائما ثانويا بالنسبة لعلم الطب وما زالا كذلك من ذلك العهد . وقد اشتهر اثنان من تلك المدرسة وهما هيروفيلوس وأراسيستراتس ولا بد لنا من ذكرهما فى مكان آخر [١] وقد اختفت مؤلفاتهما ولدينا منها مجرد نبذ ومع ذلك فقد كان هنـاك كتّاب عديدون فى القرن الأخير السابق للمسيحية والقرنين الأولين من صدر المسيحية وقد بقيت أجزاء من مؤلفاتهم ذات قيمة بيولوچية كبيرة . نذكر من بينهم كراتياس وهو كاتب نباتى ومصوّر يرجع اليه فضل كبير فى التوسع فى طريقة تمثيل النباتات بانتظام بالرسوم دون الوصف ان لم يكن هو فى الواقع مبتكر هذه الطريقة وهذه الطريقة على ما لها من أهمية للآن كانت أعظم شأنا فى عصر لم يوجد فيه نظام موافق للتسمية النباتية وقد صوّر كراتياس النباتات ومن المحتمل أن تكون قد وصلت الينا نسخ من صوره .

فاستن بذلك سنة استقرت حوالى القرن الخامس وظلت ثابتة تقريبا حتى العودة الى اكتشاف الطبيعة فى القرن السادس عشر وقد كان طبيبا لمتريداتس السادس يو باتور (١٢٠ — ٦٣ قبل الميلاد) ولكن كانت لمؤلفه شهرة ومكانة فى روما التى أصبحت موئل العبقرية الاغريقية [٢] .

(١) انظر فصل الطب اليونانى المرافق لهذا الفصل .

(٢) طبع م . ولمان حديثا القطع الباقية من مؤلفات كراتياس وألحقها بكتاب ديسقوريدس المسمى "De materia medica" فى ثلاثة مجلدات مطبوع فى برلين سنة ١٩٠٦ — ١٧ الجزء الثالث صفحة ١٤٤ — ١٤٦ وقد بحث نفس المؤلف مصدر رسومه النباتية وما آلت اليه فى كتابه المسمى "Krateuas" المطبوع فى برلين سنة ١٨٩٧ .

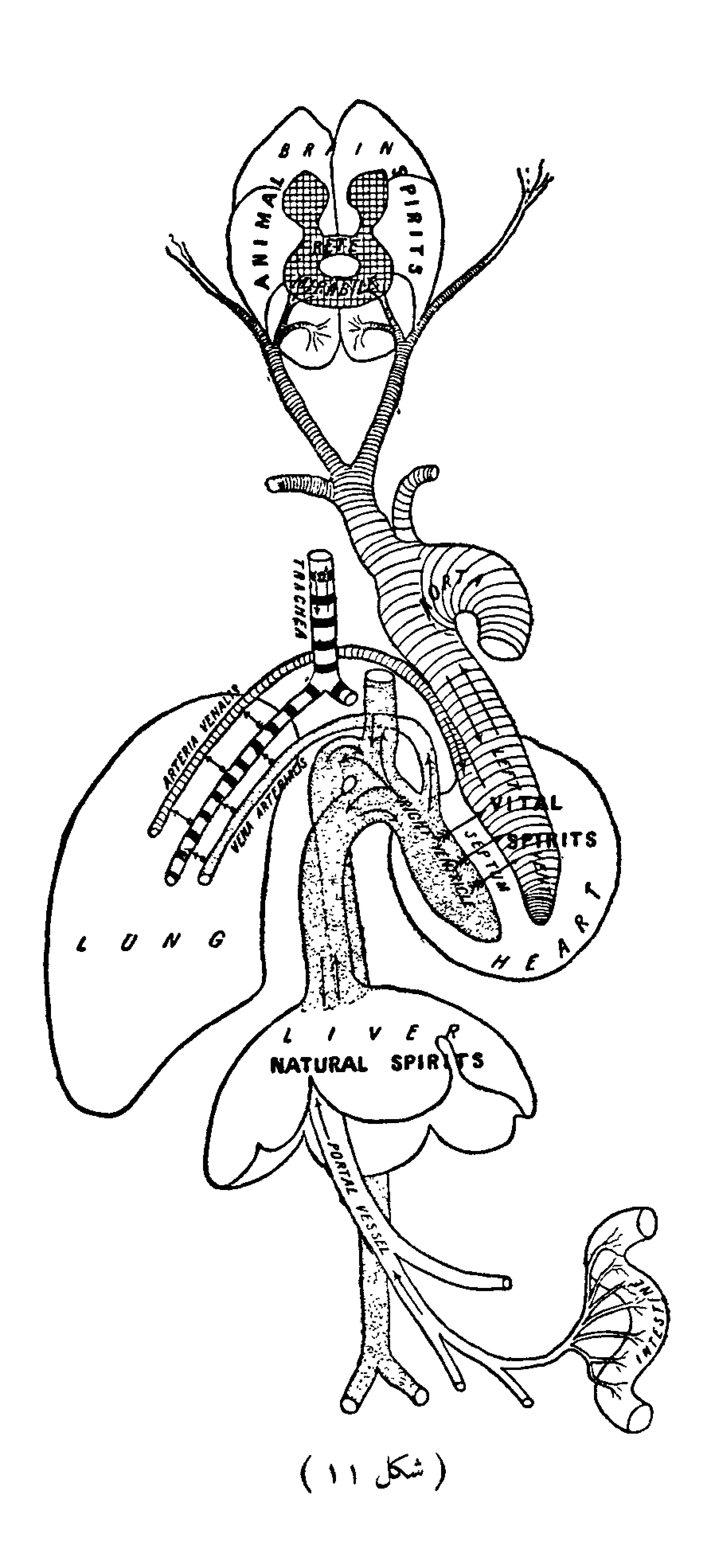
وقد كتب سلسوس الذى اشتهر (حوالى سنة ٢٠ قبل الميلاد) كتابا قيما فى الطب ولكنه لم يكتب فى التشريح والفسيولوچيا الا النذر اليسير على أن روفوس الأفسوسى قام فى القرن التالى بتشريح القردة والحيوانات الأخرى . وقد وصف تقاطع الأعصاب البصرية وغلاف العدسة البلورية وكتب أول وصف جلى لتركيب العين باق حتى الآن وكان يعتقد بتفرع الأعصاب من المخ وكان يفرق بين أعصاب الحركة وأعصاب الاحساس وقد وصف قناة المبيض فى الأغنام .

وكان محقا فى اعتقاده بامكان الحياة مع عدم وجود الطحال .

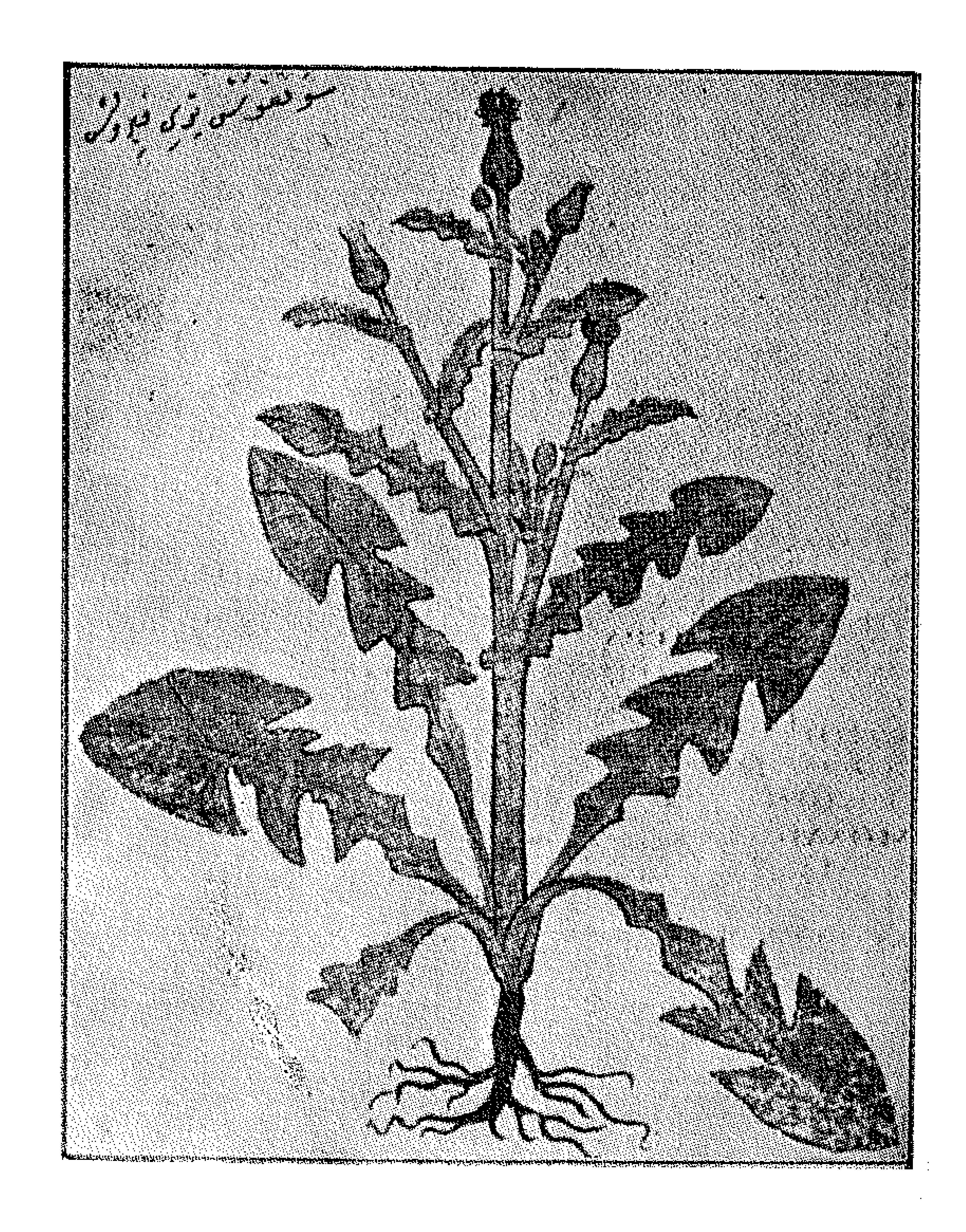
وقد ظهر فى القرن المسيحى الثانى كاتبان هما بلينى وديسفوريدس وهما ان لم تكن لهما أهمية من الوجهة العلمية فانهما كانا أهم من نقل الينا تقاليد الاغريق فى علم الحياة الى العصور الوسطى على الرغم من أن بلينى الذى عاش (من سنة ٢٣ الى سنة ٧٩ بعد الميلاد) كان لاتينيا فانه مدين لكتب الاغريق بكل ما أودع دائرة معارفه من الطرائف ونجد فى كتابه عن التاريخ الطبيعى مجموعة من الآراء الشائعة فى كنه النباتات والحيوانات وأصولها ومنافعها وذلك ما كان منتظرا من شخص نابه مجد أمين ينتمى الى طبقة الملاك لم يؤت قدرة على النقد وليست له كفاية علمية خاصة والكتاب تافه من الوجهة العلمية على أنه لا مندوحة من ذكره كلما تصدينا لدرس مخلفات اليونان فقد مرت عصور عديدة كان فيها ذلك الكتاب أهم مرجع للتعاليم والمشاهدات القديمة فى التاريخ الطبيعى فقد تصفح الناس جزءا كبيرا من مؤلفات بلينى فى جميع العصور سواء فى ذلك أعرقها فى الجهالة أو أكثرها اشراقا بنور العلم ثم عمدوا

الى نقله واعادة نقله ثم الى ترجمته وشرحه والاقتباس منه واختصاره حتى تسرب بالتدريج الى ألسن الخلق ، فاليه يرجع الفضل فيما يتردد على ألسنة العرافين من النور الى يومنا هذا من صيغ شوهاء لقوانين ارسطو وأبيقراط التى يرجع تاريخها الى ٢٥٠٠ عام مضت .

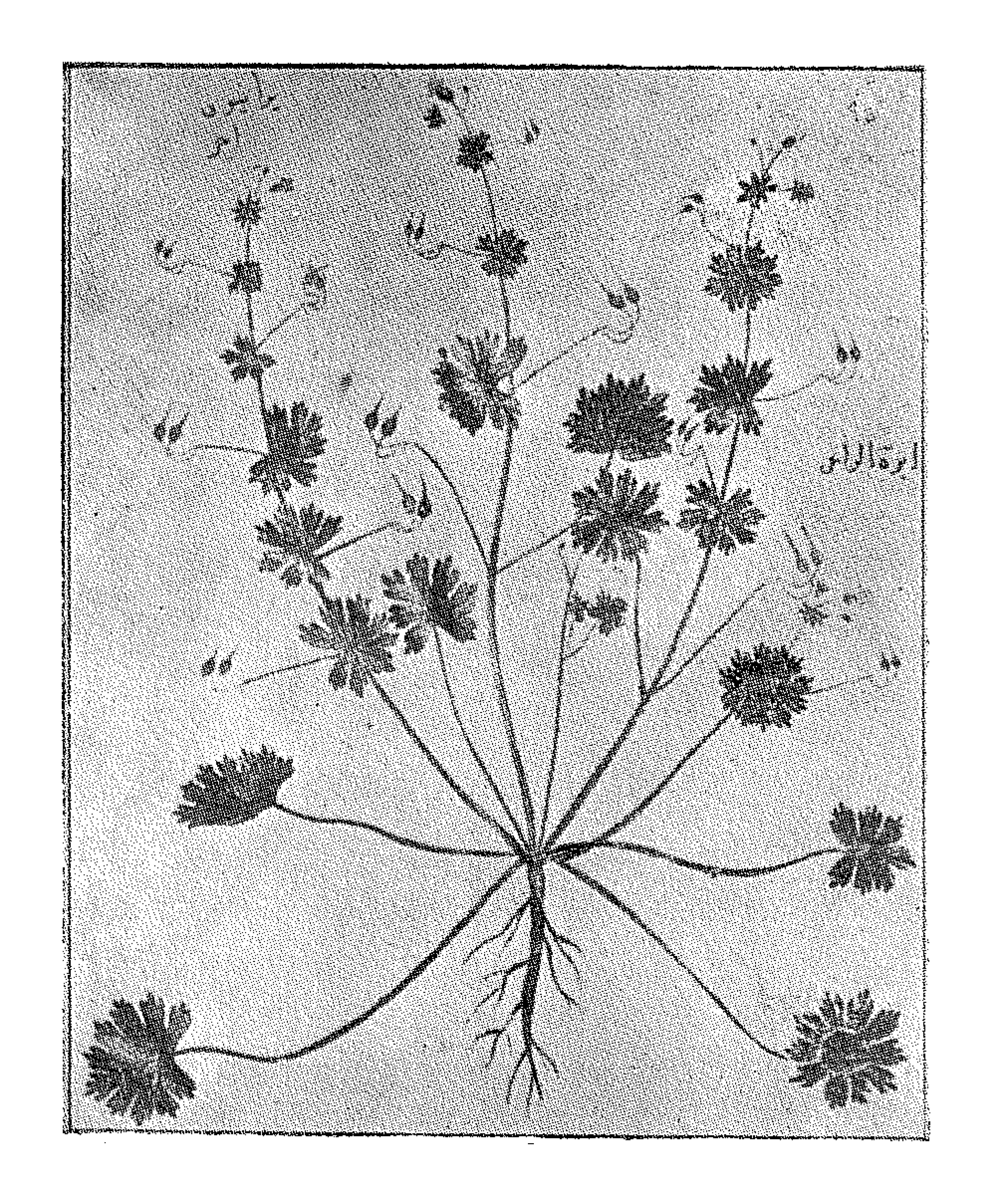
ولم يختلف ما أصاب ديسفوريدس عن ذلك فكتابه فى المـادة الطبية يحتوى على مجموعة من شروح موجزة للنباتات يكاد يكون ترتيبها غير متوقف على طبيعة النباتات نفسها ، على أنها جزيلة الفائدة لما حوته من أوصاف محكمة مدهشة تضمنت فى الغالب ذكر الطبائع والمواطن . وقد دل تاريخ هذا الكتاب على أنه من أكبر المؤلفات النباتية أثرا فهو مصدر جل المعلومات النباتية الضئيلة التى وصلت الى القرون الوسطى . وكان أكبر حاث على القيام بالأبحاث النباتية فى عصر النهضة ومنه اتخذت كل فارماكوبيـا عصرية شكلها العام واليه يرجع كل الفضل فى التسمية العصرية للنباتات سواء أكانت علمية أم دارجة واذ كان كتابه قد ترجم الى جميع اللغات تقريبا من الانجليزية القديمة والبوهيمية الى العربية والعبرية ونشر مختصرا وكاملا فيما لا يحصى من المخطوطات البديعة الزخرف التى لا يزال بعضها بين أجمل كنوز الكتب الأهلية فقد مرت قرون كان فيها ديسفوريدس بائع العقـاقير محبوبا من طائفة العقول المصبوغة بالصبغة المدرسية وان فى كثرة ما نجد فى أوراق البردى من النبذ المأخوذة عنه لدليلا على مكانة مؤلفه فى مصر فى القرنين الثالث والرابع ومن أقدم المخطوطات الاغريقية الموجودة والتى يمكن الرجوع الى تاريخها مجلد فاخر لديسفوريدس مكتوب بالحروف


ANIMAL
SPIRITS
RETE
TRACHEA
ARTERIA VENALIS
SEPTUM
VITAL
SPIRITS
HEART
LUNG
LIVER
NATURAL SPIRITS
PORTAL VESSEL

(شکل ١١)



(شـــکل ۹)
کریپس پالودوسا



(شـــکل ۱۰)
جرانیوم پیرینایکوم

الكبيرة [١] وكانت له من القيمة ما جعله جديرا بأن يكون هدية عرس لسيدة كانت ابنة أحد أباطرة الرومان وخطيبة لآخر [٢] ورسوم هذا المؤلف الخطى الذى ظهر فى القرن الخامس هى أثر ثمين جدا لتاريخ الفنون وأثمن درة تباهى بها المكتبة التى كان يطلق عليها اسم المكتبة الملكية بفينا (شكلا ٩ و ١٠) [٣] وظهرت لديسقوريدس تراجم لاتينية مصوّرة وكانت متداولة فى زمن كاسيودورس (٤٩٠ — ٥٨٥) وهناك مؤلف آخر مؤسس عليه ومحلى مثله بالصور الا أن اسم مؤلفه أيوليوس وهو من أكثر الكتب النباتية شيوعا فى العصور الوسطى ويرجع تاريخ أقدم نسخة باقية الى عصر كاسيودورس نفسه[٤] وقد ظلت مؤلفات ديسقوريدس بعد نهضة العلوم موضوع بحث عدد كبير من نوابغ النباتيين واللغويين فتعددت طبعاتها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وكان كثير منها محلى برسوم فاخرة .

(١) الكتاب الخطى الذى نبحث فيه هو " Med. Graec " الجزء الأول ويوجد فى المكتبة التى كانت سابقا المكتبة الملوكية بفينا وهو المشهور باسم " Constantinopolitanus " وقد نقل بعد الحرب الى سان مارك بفنيسيا ولكنه إما أن يكون قد نقل الى فينا أوعلى وشك أن ينقل اليها وقد نشر سيجنوف صورة طبق الأصل لهذا الكتاب الخطى الفخم فى لندن سنة ١٩٠٦

(٢) هذه السيدة هى جوليانا أنيسيا ابنة أنيسيون أوليبريوس امبراطور الغرب سنة ٤٧٢ وامرأته بلاسيديا ابنة فالنتنيان الثالث وقد خطبها الامبراطور الشرقى زينو سنة ٤٧٩ لتيودر الاستروجوتى لكنها تزوجت أريو بندوس وهو ضابط حربى عظيم كان يعمل تحت امرة الامبراطور أناستاسيوس البيزنطى وربما كان ذلك سنة ٤٨٧ حين أهدى لها الكتاب الخطى .

(٣) وقد بحث شارل سنجر أهمية هذا الكتاب الخطى ومركز ديسقوريدس كطبيب نباتى فى مقال عنوانه البيولوجيا الاغريقية ونهضة البيولوجيا العصرية فى كتاب بحث فى تاريخ العلوم وأساليبها والمجلد الثانى المطبوع فى أكسفورد سنة ١٩٢١ .

(٤) ويوجد هذا الكتاب الخطى فى مكتبة الجامعة بليدن بنمرة ٩ Voss Q

على أن أعظم البيولوجيين فى العصر الاغريقى المتأخر ومن أعظمهم فى جميع العصور هو كلوديوس جالينوس البرجمونى الذى عاش من (سنة ١٣١ الى سنة ٢٠١ بعد الميلاد). ولقد عنى جالينوس من حداثته بدراسة الطب . وفى الحادية والعشرين من عمره نعلم أنه درس التشريح تحت اشراف بلوبس بأزمير وقد قام فى أول أمره برحلات طويلة الى آسيا الصغرى ليزيد معلوماته عن العقاقير ثم رحل الى الاسكندرية ليهذب معلوماته عن التشريح وهنا يخبر بأنه فحص هيكلا عظميا بشريا ومن المحتمل أن إلمامه بالتشريح البشرى بطريقة عملية مباشرة كان قاصرا على الهيكل العظمى وأن الأجسام البشرية لم تكن تشرح فى عهده وعلى ذلك لم يكن له بد من استقاء معلوماته فى الفسيولوچيا والتشريح من مصادر حيوانية على الأخص وقد بز الكتّاب القدماء فى العلوم من حيث عدد ما كتبه من المجلدات وهو من أكثر الكتّاب القدماء تأليفا فى أى علم ولا يهمنا هنا ما حوته تلك المجلدات الضخمة من المعلومات الطبية ولكن سنقتصر على الآراء الفسيولوچية التى لم تسد فى عالم الطب حتى زمن هارفى و بعده فحسب بل سيطرت على أفكار رجال العلوم والجمهور فيما يختص بطبيعة الجسم البشرى والعمليات الداخلة فيه خمسة عشر قرنا ودخلت فى صلب كلامنا مدة قرون . والوقوف على آراء جالينوس الفسيولوچية لا مناص منه لاجادة فهم تاريخ علم الحياة وهو يفسر ما يعسر من كتابات أدبية يرجع تاريخها الى القرون الوسطى وعصر النهضة .

وكان الطب منقسما بين عدد كبير من الطوائف فى الزمن الواقع بين تأسيس المدرسة الاسكندرية وعصر جالينوس على أن جالينوس كان يتخير من كل شىء أطيبه .

فاستقى بعض تعليماته من كثير من هذه الطوائف بيد أنه كان فوق ذلك طبيعيا ذا قدرة ومثابرة عظيمتين وكان على علم تام بقيمة طريقة التجربة ولكنه كان فيلسوفا جعجاعا لدرجة ما ، وكان من زهوه بمواهبه الفلسفية لا يتردد فى استخلاص نتائج من شواهد ليست كافية فى جميع الأحوال وسنشرح باختصار النظام الفسيولوجى الذى توصل اليه (شكل ١١) .

ان المبدأ الأساسى للحياة تبعا للفسيولوجيا الجالينوسية اثير هوائى يكتسب من الروح العالمى العام أثناء عملية الشهيق فيدخل الجسم عن طريق الشريان الخشن (المسمى فى العصور الوسطى "arteria aspera" وهو العضو المعروف لنا الآن باسم القصبة الهوائية) .

و ينتقل الاثير الهوائى من الحنجرة الى الرئة ومن ثم الى البطين الأيسر عن طريق الشريان الشبه الوريدى (ما يسمى "arteria venalis" فى العصور الوسطى وما نسميه الآن الوريد الرئوى) ويجمل بنا أن نترك الاثير الهوائى برهة ونتبع الجهاز الوعائى فى طريق آخر .

فالطعام الصادر الى المعدة بعد مروره فى القناة الهضمية يمتص من الأمعاء فى صورة كيلوس ثم يجمعه الوعاء البابى و يحمله الى الكبد وهذا العضو حسب رأى جالينوس ، مركز الحرارة الطبيعية وله قدرة على تحويل الكيلوس الى دم وريدى وعلى اكسابه اثيرا يسمى بالاثير الطبيعى (ما يسمى "Spiritus naturalis" فى العصور الوسطى) وهو غريزى فى كل مادة حية ما دامت على قيد الحياة . فاذا تحمل الدم الوريدى بها و بالمواد المغذية المأخوذة من الطعام

قام الكبد بتوزيعه بواسـطة الأوردة التى تتفرع منـه كما تتفرع الشرايين من القلب وتقوم هذه الأوردة بنقل الغذاء والاثير الطبيعى الى جميع أجزاء الجسم . وقد مرت أجيال كان فيها شعار الفسيولوچيا الجالينوسية أن الكبد منبع الأوردة . وكانوا يعتقدون أن الدم دائم السريان ذهوبا وجيئة فى الأوردة أثناء الحياة .

ويخرج من الكبد وعاء كبير هو الوريدى الكبدى وكانوا يعتقدون أن الأوردة الأخرى تخرج من شعب منه . وأحد هذه الأفرع ، هو المعروف لنا باسم الوريد الأجوف السفلى يدخل الجانب الأيمن من القلب أما الدم الذى يحمله الى القلب فله مصيران ، فالجزء الأكبر يبقى قليلا فى البطين حيث يتخلص مما به من المواد الفاسـدة والأبخرة ونفايات الأعضاء التى يحملها الوريد الشـبه الشريانى (المسمى "Vena pulmonalis" فى العصور الوسطى والمعروف لنا باسم الوريد الرئوى) الى الرئة حيث تنطرد الى الهواء الخارجى . والمواد الفاسدة ، والأبخرة هى التى تكسب النفس صفاته السامة الخانقـة . فاذا ما تخلص الدم الوريدى مما به من المواد الفاسدة غادر البطين الأيمن ثانية الى الجهاز الوريدى . أما الجزء الأصغر من الدم الوريدى الذى دخل البطين الأيمن فله مصير آخر فهـذا الجزء من الدم الوريدى الأصـغر الذى لا يزال محملا بالاثير الطبيعى المكتسب من الكبد يمر فى قنوات دقيقة فى الغشاء الذى يفصل البطينين ثم يدخل الفجوة اليسرى وعند وصوله يلاقى الاثير الخارجى فيتحوّل الى شكل أسمى من أشكال الاثير وهو الاثير الحيـوى (Spiritus Vitalis) الذى يوزعه الجهـاز الشريانى مع الدم على جميع أجزاء الجسم وهو يسرى أيضـا ذهوبا وجيئة فى الجهاز الشريانى ويمكن رؤية نبضه أو ادراكه باللمس هنالك .

ولكن توجد من بين الأوعية الشريانية التى ترسل الدم الشريانى المحمل بالاثير الحيوى أوعية خاصة تصعد الى المخ وقبل وصولها اليه تنقسم الى قنوات دقيقة وعند مرورها فى المخ تتحول بفعله الى نوع من الاثير أرقى من السابق يسمى بالاثير الحيوانى وهو مادة اثيرية تقوم بتوزيعها على أجزاء الجسم المختلفة التكوينات المعروفة لنا الآن بالأعصاب والتى كانوا يعتقدون حينذاك أنها قنوات جوفاء . وعلى ذلك فقد كان بدء ذكر القوى الأساسية الثلاثة، وهى الطبيعة والحيوية والحيوانية التى تحدث وظائف الجسم المقابلة لها وصفا للقوة الأولية أى الاثير .

ويمكننا أن نؤكد أن هذا النظام الفسيولوچى لم يكن نتيجة بحث فى التشريح البشرى فالمخ البشرى ليس به "rete mirabile" مع أن مثل هذا العضو موجود فى العجول وليس بكبد الانسان وريد كبدى مع أن هذا العضو موجود فى الكلب وقد شرح جالينوس كثيرا من الكلاب والعجول والخنازير والدببة فضلا عن قردة بلاد البربر وهذه هى الحيوانات التى استقى منها آراءه الفسيولوچية ويرجع كثير من أغلاط جالينوس فى التشريح والفسيولوچيا الى أنه ينسب لحيوان تركيب حيوان آخر ولم تتجل هذه الحقائق للشرحين الا فى عصر النهضة بتدرج بطىء . ولقد حوى عدد قليل من مؤلفات جالينوس كل ما كان معروفا للعالم فى علم الفسيولوچيا من القرن الثالث الى القرن السابع عشر وكل الأفكار البيولوچية تقريبا لغاية القرن الثالث عشر وجل علم التشريح وشيئا كثيرا من علم النبات حتى القرن السادس عشر وكل الآراء الشائعة فى العصور الوسطى فى التركيب الطبيعى للكائنات الحية . وقد ظلت مؤلفات ارسطو وتيوفراسطس بين الحياة والموت

فى هيئـة بضعة مخطوطات نادرة فى أديرة الشرق وقد اندثر كل الاندثار ما تمخضت عنه عقول المجدين بالاسكندرية و برجامون فى مئات من السنين وانسحب ذيل النسيان على مؤلفات اليونان البيولوچيـة التى نجا منها أنموذج واحد بأعجوبة ولكن مؤلفات جالينوس الضخمة التى ديدنها الثرثرة وسوء الترتيب ظلت باقيـة، ولمـا كانت قد ترجمت الى اللاتينية والسريانية والعربية والعبرية فقد نهلت منها عقول المفكرين فى العصور الوسطى. وقام بشرحها بعض كتّاب الاغريق المتأخرين ثم ترجمت كتب هؤلاء الى نفس اللغات المـذكورة ثم ظهرت ثانية بأسمـاء بعض كتّاب الاغريق أمثال أورياسيوس وبول الاجنائى واسكندرالتراليسى، وما السر فى تلك القوة الحيوية التى أودعت أفكار جالينوس؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال فى بضع كلمات وهى: أن جالينوس كان ممن اتفق أن طابقت آراؤهم الروح الدينية السائدة فى العصور الوسطى سواء أكانت مسيحية أو اسلامية أو يهودية . وتبعا لآرائه يكون مصدر كل شىء فى جسم الانسان تبدو عليه مظاهر النشاط كائنـا زكيا يخلقه وفق خطة حكيمة وعلى هذا يكون العضـو من حيث تركيبه ووظيفته نتيجة تلك الخطة وكان من بليغ حكمة الخالق أن تخير أفضل الوسائل للوصول الى أغراضه الخيرية ومما يدل على قدرته أنه خلق كل شىء حسن تبعا لخطته وبذلك حقق مشيئته" (١) .

(١) وهناك مثال حسن يبين وجهـة نظر جالينوس . . . . وهو وصفه لليد ذلك الوصف المشهور فى عالم الأدب — فى كتابه المسمى منافع أجزاء جسم الانسان الجزء الأول . وقد ترجم توماس بلوت هـذه القطعة الى الانجليزية فى رسالة طبعت بلندرة سنة ١٨٤٠

أعقب جالينوس ألف سنة سادت فيها الجهالة وانقطعت سلسلة تاريخ علم الحياة . فقد اتجهت عقول القرون الوسطى صوب الدين . أما تلك البقايا من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى تسربت الى النظام الدينى فلا فائدة فيها للروح العلمية على أن هناك فرعا من المعارف الوضعية لابد أن يظل باقيا بطبيعة الحال فما زال الناس يتألمون لما يلحق بأجسامهم من العلل وما زالوا يتلمسون الخلاص منها . ولكن الكتب التى كانوا يسترشدون بها لم تعن بذكر القواعد العامة أو ما شابهها من المعلومات وكانت أحقر الكتب التى كانت لا تزال تتنكر تحت اسمى ابقراط وجالينوس وكانت فى الغالب عبارة عن مجرد قوانين وترياقات أو على الأكثر جداول لأعراض الأمراض . ولما تجاوز انحطاط العقل الغربى مبلغه كانت الكتب البيولوچية التى يمكن أن تغتذى بها العقول لا تزال معدومة .

وكان الاهتمام السائد فى العالم الهمجى عند ما أخذ يعنى أخيرا بما توارثه من القدم موجها لعلم المنطق ولم يبق من مؤلفات ارسطو مترجما الى اللاتينية إلا كتابا " المقولات " و " التفسير " وهى مخلفات أغاثنا بها بيثيوس خاتم الفلاسفة ولو بقيت لنا ترجمة لمؤلفى ارسطو " تاريخ الحيوانات " و " توالد الحيوانات " أو وصلت الى القرون الوسطى المتقدمة ترجمة لاتينية لمؤلف ابقراط فى التناسل أو لمؤلفات تيوفراسطس فى النباتات لكان فى الامكان أن تتغير معالم التاريخ العقلى فى أوروبا وأن يتقدم تاريخ العودة الى اكتشاف الطبيعة قرونا على أنه كان لا محيص للعالم من التريث طويلا لوقوع هذا التغير . وكان أقدم ما أهداه الينا الاغريق فى علم الحياة شيئا دون ذلك كثيرا ، ولما وصلت الينا هديتهم برزت فى صورتين احداهما لم تعرف قيمتها تماما على أن كلتيهما

كانت من مخلفات اليونان وهاتان الصورتان هما أولا الكتب الشهيرة التى كتبها المترجمون الأقدمون ، ثانيا مؤلفات مدارس معينة فى فنون ثانوية ولم تدرك أهميتها الا بعد زمن طويل .

وأقدم المؤلفات البيولوچية التى أمكن الحصول عليها فى الغرب لم تترجم من اليونانية بل من العربية [١] وربما كان أولها مؤلفا لجالينوس فى حركة العضلات وهو كتاب يشمل أكثر مما يدل عليه اسمه وتجد فيه فى الواقع شيئا كثيرا من النظام الفسيولوچى لجالينوس وقد ترجمه الى اللاتينية من النسخة العربية ليوانيتوس (حنين بن اسحق ٨٠٩-٨٧٣ ميلادية) رجل اسمه مارك الطليطلى وكان ذلك حوالى سنة ١٢٠٠ ولم يلق اهتماما كبيرا على أنه لم يمض الا القليل حتى صارت مؤلفات ارسطو البيولوچية فى متناول الناس ويحتمل أن يكون أولها نبذة اسمها "فى النباتات" وأصلها الاغريقى مفقود وفيما عدا الترجمة اللاتينية ليس لدينا الآن سوى صورة عربية لترجمة عربية سابقة وقد نقلت هذه عن ترجمة سريانية مأخوذة عن شرح يونانى . وقد ظهر هـذا المؤلف لمترجم اسمه الفريد الانجليزى حوالى سنة ١٢٢٠ أو بعد ذلك بقليل ولا يمكن أن نستشف روح جالينوس فى هـذا المؤلف ولا فى مؤلف آخر لنفس المترجم اسمه "فى حركة القلب" حاول فيه أن يثبت أولوية هذا العضو بحجج مأخوذة من ارسطو [٢] .

---

(١) قام م . استينشنيدر بترتيب التراجم الأوروبية القديمة المأخوذة عن العربية فى جداول تدل على اطلاع لا مثيل له وذلك فى كتاب "Die Europäischen Uebersetzungen aus dem Arabischen bis Mitte des 17. Jahrhunders" فى : "Sitzungsberichte der kais. der Wissens chafte in Wien" مجلدا ، المطبوع فى فينا سنتى ١٩٠٤ و ١٩٠٥

(٢) مقال س . ه . هاسكنز "كيف قوبلت العلوم العربية فى انجلترا" بالمجلة التاريخية الانجليزية المطبوعة بلندره سنة ١٩١٥ صفحة ٥٦

ويفضل هذين المؤلفين قليلا مؤلف الساحر ميخاييل الاسكتلندى (١١٧٥ ؟ - ١٢٣٤ ؟) ويخبرنا روجر بيكون أنه فى سنة ١٢٣٠ "ظهر ميخاييل (فى أكسفورد) ومعه مؤلفات ارسطو فى التاريخ الطبيعى والرياضة مشروحة شرحا متقنا وعلى ذلك كان اللاتينيون يمجدون فلسفة ارسطو" [1] وقد كتب سكوت مؤلفه فى الحيوانات حوالى هذا التاريخ وضمنه مؤلفات ارسطو البيولوچية الثلاثة الكبرى وكلها مترجمة من ترجمة عربية غير متقنة [2] . ولم يتوفر لالبرتوس ماجنوس لذلك الوقت ترجمة مأخوذة عن اليونان رأسا ليرجع اليها فى كتابة شرحه الكبير لكتاب "تاريخ الحيوانات" ولكنه اعتمد على مؤلف سكوت . وقد ترجمت مؤلفات ارسطو البيولوچية من اليونانية مباشرة الى اللاتينية فى سنة ١٢٦٠ وربما كان مترجمها وليم المربكى [3] ولما كانت أمثال هذه التراجم قد ظهرت فى عصر الفلسفة الدراسية البحتة كان كل شىء فيه موجها ضد روح الملاحظة بطريقة مباشرة فلا

(١) كتاب روجر بيكون Opus majus نشره ج . هـ . بروجر فى ثلاثة مجلدات بلندره ١٨٩٧ — ١٩٠٠ المجلد الثالث صفحة ٦٦

(٢) فيما يختص بتراجم سكوت لارسطو انظر كتاب أ . هـ . كوريفلند Michael Scottus und seine Schrift, De Secrefis nafurae المطبوع فى ليبزج سنة ١٩١٩ وكتاب س . هـ . ماسكنز Michael Scot a Frederick II جزء ٢ صفحة ٢٥٠ المطبوع فى بروكسل سنة ١٩٢٢

(٣) كتاب جـ . هـ . شنيدر Aristotelis de animalibus historiae. generatione animalium المطبوع فى ليبزج سنة ١٨١١ صفحة كتاب ل . دتمير Guilelmi Moerbekensis Marslio commen tationis Aristotelicae de I المطبوع فى رلنجن سنجن سنة ١٩١٥ كتاب ل . دتمير De animalibus historia المطبوع فى ليبزج سنة ١٩٠٧

يمكن القول بأنها صادفت مرعى خصيبا . نعم نجد فيها وصفا منسقا للطبيعة وطريقة مثلى للبحث على أن هذه المزايا وجدت فى مجتمع لم يدرك شيئا من قيمتها الحقيقية (١) .

على أن ظهورها وافق عودة الرغبة الى ملاحظة الطبيعة فقد كان ألبرت على الرغم من فلسفته المدرسية طبيعيا لا يستهان به . واذا اعتبرنا ما كتب فى علم النبات فاننا يمكننا أن نقول ان ألبرت أول من درس علم النبات من الطبيعة رأسا فى العصر الحديث فقد تضمن كتابه "De Vegetabilibus" مشاهدات ثمينة وهو جدير بأن يذكر بين منشئ علم الحياة . ورغما عن أن كل علمه وتطويله كانا عقبة فى سبيله فقد دل كتابه الضخم "De animalibus" أنه أوتى دقة الملاحظة وأنه أشرب شيئا من روح الطبيعى العظيم الذى وقف ألبرت حياته لدرس مؤلفاته وتصدى لشرحها كما يصرح بذلك . فنرى فى وضوح أن ذلك الغرس الذى غرسه ارسطو ينمو ويترعرع ولو أن ألبرت كان لا يزال فيلسوفا مدرسيا ويمكننا أن نقتبس قطعة من كتابه فى تناسل السمك وهو موضوع أتى فيه ارسطو بأوصاف غاية فى الغرابة ظل بعضها غير محقق حتى الأزمنة الحديثة . وقد تركت هذه الأوصاف أثرا فى عقل ألبرت مثل الأثر الذى تتركه فى عقل الطبيعى العصرى ولقد يروع من لم يقف

(١) وقد بحث أ و ج . جوردان موضوع التراجم اللاتينية لارسطو فى كتاب **Recherches critique sur l' âge des Traductions latine d' Aristote:** الطبعة الثانية . باريس سنة ١٨٤٣ وكذلك م . جرايمان فى كتاب **Forschungen uber die lateinischen Aristoteles Ubersetzungen des XIII Jahrhunderts** المطبوع فى مينستر I W سنة ١٩١٦ وف . و . ستنفلد فى كتاب **Die Ubersetzungen arabischer Werke in das Lateinishe Seit dem XI Jahrhundert.** المطبوع فى جتنجن سنة ١٨٧٧

على ما وسعته مؤلفات ارسطو البيولوجية من قوة الاستحثاث والتنبيه وصف ألبرت لجنين السمك ودقة تمييزه بين طريقة نموها وطريقة نمو الطيور بانعدام الغشاء السجفى فى احدى الحالتين وتوفره فى الأخرى وألبرت يعتمد على مؤلفات ارسطو ، أى على ترجمة منقولة عن ترجمة منقولة عن الأصل ، على أنه لم ينقد له انقيادا أعمى .

هناك فرق بين طريقتى نمو بيض الطيور والأسماك وهو أنه أثناء نمو السمك لا يوجد ثانى الوريدين الممتدين من القلب (حسب وصف ارسطو للطيور) لانا لا نجد الوريد الذى يمتد الى الغطاء الخارجى لبيض الطيور وهو الذى يسميه البعض خطأ بالسرة لأنه يحمل الدم الى الأجزاء الخارجية" على أننا نجد الوريد المناظر للوريد المحى للطيور لأن هذا الوريد يمتص الغذاء الذى تنمو بواسطته الأعضاء ...... وتمتد الأوعية فى السمك كما فى الطيور من القلب الى الرأس والعينين أولا حيث تظهر قبل كل شىء الأجزاء العلوية العظمى و باستمرار نمو صغار السمك يقل الزلال لأنه يندمج فى أعضائها ثم يتلاشى كلية عند ما يتم النمو والتكوين . وضربات القلب تنتقل الى الجزء السفلى للبطن وتحمل النبض والحياة للأعضاء السفلى .

وحينما تكون صغار (السمك) فى طفولتها غير كاملة النمو نجد لها أوردة طويلة تقوم مقام الحبل السرى ولكن اذا نمت وكبرت قصرت الأوردة وضمرت داخل الجسم نحو القلب كما ذكرنا عن الطيور وتكون صغار السمك و بيضها منحصرة داخل غطاء كما هو الحال فى بيض الطيور وصغارها ويشبه هذا الغطاء الأم القاسية

(للمخ) و يوجد أسفله غطاء (فهو لذلك يناظر الأم الحنون للمخ) ولا يحتوى شيئا سوى صغار الحيوان [١] .

وفى القرن التـــالى أخرج كنرادفون مجنبرج "سفر الطبيعة" وهو مؤلف كامل فى التـــاريخ الطبيعى والأول من نوعه فى لغتـــه وهو مؤسس على الترجمة اللاتينية لمؤلفات ارسطو وجالينوس البيولوجية المنقولة عن اليونانية رأسا فى ذلك العهد وهو حسن الترتيب ومصدر بوصف منسق لتركيب الانسان ووظائف أعضائه باعتباره نوعا من المخلوقات الحيوانية ثم يصف هذه بطريقة منتظمة و يتبع ذلك بوصف النباتات و بالرغم من استرشاده بارسطو فقد كان كنراد يلجأ الى اســتعمال عينيه وأذنيه و بذلك افتتـــح هو وألبرت عصر الجنوح الى الملاحظة بطريقة مباشرة [٢] .

على أن هناك فرعا آخر من العلوم كان الناس أسبق فيه الى تعرف قيمة مخلفات اليونان فقد مرّت قرون كان الناس ينســـخون فيها رسوم كتب النبات والحيوان و يتناقلونها الواحد عن الآخر و بذلك حافظوا على سنة ابتدأت فى عهد فنانى الاغريق فى القرن الأول قبل الميلاد بيذ أن رسومهم كانت تنسخ بدون الاسترشاد بالشيء

---

(١) يمكن الاطلاع الآن على الكتاب الضخم De Animalibus الذى كتبه ألبرت الكلونى فى طبعة هـ . ستاولز المسماة Albertos Magnus De Animalibus libri XXVI nach der Cölner Urschrif فى مجلدين . طبعت فى مينستر I/W ١٩١٦ — ١٩٢١ . ترجمت القطعـــة المقتبسة من المجلد الأول صفحتى ٤٦٥ — ٤٦٦

(٢) نشر هـ . شولتز كتاب كنراد بطريقة مناسبة فى Das Buch der Natur Var Conrad Von Megenberg, die erste Naturgeschichte in deutscher in New-Hochdeutsche Sprache bearbeikt. المطبوع فى جرايفســـفالد سنة ١٨٩٧ وكتاب كنراد مؤسس على كتاب توماس الكانتمبرانى (١٢٠١ — ١٢٧٠)

المرسوم فبعد الشبه بينها و بين الأصل شيئا فشيئا وأخيرا أصبحت تلك الرسوم ولا شأن لها الا كنماذج صورية وظلت على هذه الحال فى بعض النسخ المتأخرة والتى ظلت تصدر حتى القرن السادس عشر ولكن أتى عصر حدث فيه انقلاب فأصبح الفنان لا يقنع بالركون الى التقاليد فلجأ الى الطبيعة أخيرا . وهذا الانقلاب الحديث فى الفن يناظر الانقلاب الحديث فى الآداب أى النهضة العربية وهى نفسها من مخلفات اليونان ولو أنها فسدت فسادا عظيما أثناء انتقالها وكانت السبب فى بدء عهد الفاسفة .

ويتجلى فى كثير من أشغال الحفر والنحت الجميلة لكنائس الجامعة الفرنسية روح التطور الحديث فى صدر القرن الثالث عشر فنجد فى بعض الجهات مثل شارتران محاولة تمثيل النباتات والحيوانات بدقة فى الأحجار يرجع تاريخها فى القدم الى سنة ١٢٤٠ أو ما قبل ذلك . ويظهر نفس الميل للتصوير على الرق ، وهو وسط أسهل من الحجر ، فى عهد أسبق . وبمجرد ابتداء هذه النزعة أخذت تتقدم ببطء حتى ذلك العهد العظيم عهد استرداد كتب اليونان فى القرن الخامس عشر اذ نشطت ثانية وقد انصرفت جهود علماء النبات والحيوان فى القرن السادس عشر فى الغالب الى اخراج طبعات لمؤلفات ديسفوريدس وتيوفراسطس موضحة بالرسوم ومشروحة بكل عناية الى وصف الحيوانات وطبائعها وتركيبها وصفا يرمى الى توضيح ما كتبه ارسطو بينما كان المشرحون يدرسون دخائل أجسام الانسان والحيوان لتأييد آراء جالينوس أو دحضها . وتلك الرسائل القيمة التى كتبت فى الطيور والأسماك والنباتات فى ذلك العصر والتى لم تكن فى ظاهرها سوى شروح لبليني وارسطو وديسقوريدس كانت فى الحقيقة أول مجهود فى العصر الحديث

يرمى الى كتابة تاريخ طبيعى وقد تسربت بطبيعة الحـال الى دوائر المعارف فى أواخر القرن السادس عشر ثم دخلت هـذه فى صلب المؤلفات الفسيولوجية فى القرن السابع عشر ولم يكن ارسطو من سقط المتاع أبدا فى علم الحياة كما كان فى علم الطبيعة ذلك لأنه كان من علماء الحياة القديرين ولكنه لم يكن عالمـا عظيما فى الطبيعة .

وما انقضى صدر القرن السـادس عشر حتى أضحت مؤلفات ارسطو وكذلك مؤلفـات ديسقوريدس وجالينوس بدرجة أقل عاملا كبـيرا فى انشـاء علم بيولوجى جديد وقد أتى ماتيـولى (١٥٢٠ — ١٥٧٧) فى شرحه لديسقوريدس (الطبعة الأولى ١٥٤٤) وهو من أوائل الكتب التى ظهرت من نوعه بلغته القومية بمشاهدات مباشرة للوقوف على طبائع النباتات وتركيبها وهى مدهشة حتى للنباتى العصرى . وحوالى نفس هـذا التاريخ أصبحت الفسيولوجيه الجالينوسية ، وقد ظهرت أيضا فى عدة مؤلفات باللغة الدارجة وأثارت حب الاستطلاع عند الأطباء ، المنشأ الجلى لعلمى الفسيولوجيا والتشريح المقـارن العصريين . على أن مؤلفات ارسطو البيولوجية كانت فضلا عن كل ذلك مخصبة للعقول . فمن الممتع أن نشاهد ملاحظا دقيقا مثل فابريسيوس آب اكوابندنت (١٥٣٧ — ١٦١٩) يضع أسس علم الأجنة العصرى بسلسلة بديعة من المشاهدات المبـاشرة ويعد مباحثه الجليـلة كشرح لارسطو تقريبا . ما أبعد الفرق بين هذا وبين طبيعـة ذلك العصر الجافة والمؤسسة أيضا على مؤلفات ارسـطو ويقول فابريسيوس أن غرضى البحث فى تكوين الجنين فى كل حيوان مبتدئا بمـا يخرج من البيضة ، لأن هذا البحث يجب أن يسبق ما عداه فى الموضوع لأنه لا يصعب أن نتعرف رأى ارسطو فى المسألة

ولأن كتابه فى تكوين الجنين من البيضة أغزر مؤلفاته مادة والموضوع أصعب الموضوعات وأكثرها اتساعا [١]

وقد أوتى فابريسيوس المجد الحريص قدرة مدهشة على الملاحظة لم يشحذها بنفسه بل بفضل مؤلفات ارسطو وبذلك كانت رابطته بالأستاذ نفس الرابطة التى تربط تيوفراسطس وهو تلميذ ارسطو أثناء حياته فيوجد حقا شبه بين مؤلفات فابريسيوس وتيوفراسطس فكلاهما يعتمد على طائفة واحدة من الآراء العامة وكلاهما ينتقل بنفس الاطمئنان المنظم الهادئ من مشاهدة الى أخرى ووهب كلاهما الهاما فعالا باعثا على العمل على أنه دون المرتبة العظمى وقد أوتى كلاهما الحماسة والتأثير كباحثين وراء الحقائق على أنه تنقصهما الشجاعة والتأثير عند استخلاص النتائج .

على أن فابريسيوس كان موفقا فى تلاميذه أكثر من تيوفراسطس فنشاهد نفس آراء ارسطو تختمر فى عقل خلف فابريسيوس وهو وليم هارفى [٢] أعظم بيولوچى وجد منذ زمن ارسطو نفسه (١٥٧٨ — ١٦٥٧) فمؤلف هذا الكتاب فى التناسل عبارة عن شرح معتنى به لمؤلف ارسطو فى نفس الموضوع وليس شرحا بالمعنى القديم بل هو شرح تتجلى فيه روح ارسطو نفسه فقد فحصت كل عبارة فيه ومحصت فى ضوء التجارب فنجد الطبيعى الفتى رغم اجلاله لارسطو لا يتردد فى نقد نتائجه . وقد توفر له من استقلال الفكر والبراعة فى اجراء التجارب والقدرة على الاستنتاج ما يجعل لمؤلفه

---

(١) انظر كتاب هيرونيمو فابريزيو الاكوابندنتى المسمى Deformato Foetu المطبوع فى بادوا سنة ١٦٠٤

(٢) انظر كتاب وليم هارفى Exercitationes de generatione animalium المطبوع فى لندره سنة ١٦٥١

المكانة الوسطى بين ثلاثة المؤلفات العظمى فى علم تكوين الأجنة والمؤلفان الآخران هما كتابا ارسطو وكارل أرنست فونـ بير (١٧٩٦ — ١٨٧٦) [١] .

وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر وأثناء ردح كبير من القرن الثامن عشر قلت العناية الموجهة لمؤلفات ارسطو البيولوچية فقد كانت تلك الحرب التى أثيرت ضد علم الطبيعة الارسطاطالى انتهت بالانتصار عليه على أنه بانتهاء هذا العهد انسدل ستار العفاء ظلما على مؤلفات ارسطو البيولوچية كما كان منسدلا على كل ما كان محل اجلال فى القرون الوسطى .

والعودة الى استكشاف مؤلفات ارسطو شيء عصرى . وقد كان جمع ذلك الجم الغفير من الأشــكال الحية الشغل الشاغل لأجيال من الطبيعيين من عهد راى (١٦٢٧ — ١٧٠٥) وولوبى (١٦٣٥ — ١٦٧٢) الى عهد رومور (١٦٨٣ — ١٧٥٧) ولينيوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨) ومن بعدهم الى القرن التاسع عشر ويظهر أن ضخامة هذا العمل وروعته كادتا تحولان دون وضـع قواعد عامة وبانقراض هذا العهد ظهرت طائفة من علماء الطبيعة كانت أكثر تعمقا فى الفلسفة منها كوفييه (١٧٦٩ — ١٨٣٢) وأعضـاء أسرة سان هيلير . وبفضلهم تبوأ ارسطو مركزه اللائق به ثانية . ومنذ بزغ فجر القرن التاسع عشر وأصبح فى مقدور الطبيعيين تحقيق آرائه أخذت شهرة ارسطو كطبيعى تزداد ازديادا مطردا .

فجوهان ميلر (١٨٠١ — ٥٨) وريشار أون (١٨٠٤ — ١٨٩٢) وچورچ هنرى لويس(١٨١٧ — ١٨٧٨) ووليم أوجل(١٨٢٧ — ١٩١٢)

(١) Ueber die Entwick elungsge chichte der Thiere, Konigs berg 1828 - 37

قليل من كثير ممن تلقوا الوحى من مؤلفاته البيولوچية مباشرة ولما تهذبت طرق البحث الحديثة حول علماء البيولوچيا شطرا كبيرا من اهتمامهم نحو مسائل التناسل . وقد تحول اهتمامهم على الأخص الى مؤلف ارسطو فى هذا الموضوع وربما كان الآن أكثر ذيوعا من أى كتاب بيولوچى آخر قديم أو حديث ما عدا مؤلفات دارون وقد كتب ذلك الطبيعى الكبير الى أوجل فى سنة ١٨٨٢ يقول قد تولدت عندى مما شاهدته من المقتبسات فكرة سامية عن مواهب ارسطو على أنى لم تكن عندى أية فكرة عن مبلغ عظمة الرجل وقد كان لينيوس وكوڤييه موضع اكبارى وإجلالى لميزات فى كل تخالف ميزات الآخر جد المخالفة ولكنهما كانا كصبية المدارس اذا قيسا بارسطو الشيخ »

تشارلس سنجر

الطب

صدق هروفيلوس أحد أطباء اليونان وفلاسفتهم (حوالى ٣٠٠ قبل الميلاد) حين كتب : "اذا فقدت الصحة لم يكن لدى العلم والفن على السواء شيء يخرجانه وعجزت القوة عن المجاهدة وصار الغنى لا نفع له والفصاحة غير مجدية" [١] . من أجل ذلك كان لجميع الشعوب طرائقها فى معالجة المرض . وقد هذبت هذه الطرق فى أغلب الأحيان عند أرقى الشعوب ثقافة حتى كادت تكون مذهبا منظما ولقد شاعت مذاهب مختلفة كهذه قديما كما هو الحال حديثا وتركت تلك الأمم التى كانت تمارس فن الكتابة من قديم سجلات عدة سجلوا فيها طرقهم الطبية وتعاليمهم : لذلك أصبحنا نستطيع أن نكون رأيا يشبه أن يكون حقا عن الأصول الطبية فى الحضارات العراقية والمصرية والايرانية والهندية والصينية .

وفى هذه المذاهب كثير مما يشبه طرق العلاج عند القبائل الأول فى أنها كانت مبنية على نظرية للمرض تتفق مع نظرية أخرى عن كنه الشر .

وكان أكثر هذه النظريات شيوعا النظرية الشيطانية التى تعتبر أى حيود عن معيار الصحة العادى نتيجة لأذى من مخلوقات خارقة للطبيعة أو لدخول تلك المخلوقات بالفعل فى أجسام المصابين . وإن مذهبا طبيا مبنيا على مثل هذا الرأى لقابل للتوليد الكبير فى الحضارات الأرقى .

---

(١) مؤلفات هيريفولوس مفقودة وهذه العبارة البليغة حفظها سكتس أمبريكس أحد أطباء القرن الثالث فى مؤلفه الذى فى صميمه طعن على الفلسفة الايجابية ومن المفكه أن نضطر الى الذهاب الى مؤلف كهذا نلتمس مخلفات أعظم مشرح فى التاريخ القديم والعبارة مذكورة فى القسم الموجه ضد الأخلاقيين من الكتاب .

ولكنه لا يمكن أن ينمو نموّا غير محدود لأنه غير مبنى على المشاهدة وما كان كذلك فهو لا محالة بالغ نقطة يحجم عندها العقل عن الاستنتاجات المعقدة البعيدة عن الظواهر المشهورة. فمثلا: طب الحضارة القديمة المستقرة التى كانت لقوم مثل الأشوريين — البابليين وقد عثر منها على بعض آثار مذكورة، لا يكاد يكون أنجع من الطب عند كثير من قبائل متوحشة أمية يمكن أن تشاهد اليوم وإن كان أكثر منه تنظيما. وقد نستطيع وصفا لمثل هذا الطب أما أن نكتب له تاريخا فقلما نستطيعه. لأنا لا نستطيع اثبات عناصر الاتصال والترقى التى منها وحدها يمكن أن يبتنى التاريخ.

لقد امتاز اليونان وحدهم بين أمم العصر القديم باتباعهم فى الطب نظاما مبنيا لا على نظريات ولكن على مشاهدات جمعت على ممر الزمن تباعا فى نظام واحد. ولشاهد أن يشهد لليونان بأن بعضا منهم على الأقل لم تزغه نظرية ولم تخدعه شعوذة ولم تعقه تقاليد أثناء بحثه عن حقائق المرض ولا أثناء محاولاته تفسير ظواهره لقد استطاع اليونان وحدهم بين القدماء أن يعتبروا مداويهم physicians (أى اتباع الفطرة) وفى هذه الكلمة القائمة نفسها تذكير خالد بما فعلوه [1].

أخذ الناس فى دور من أدوار تاريخ الغرب — قد يختلف فى تحديد تاريخه لكن لا اختلاف فى وقوعه — يقبلون على التنقيب عن كنوز الحكمة القديمة وبالتدريج كشف الغطاء للطلاب عن

---

(١) ان كلمة (فيزيقوس) بالرغم من انتقالها الى اللاتينية (ششرون) بمعنى متبع الفطرة قد أكسبها الكتّاب اليونانيون المتأخرون معنى ساحر ولعل كلمة physicianus انما وضعت تمييزا من physicus أى مشعوذ ثم صارت physicus و medicus, مترادفتين فى اللاتينية التى جاءت بعد.

جميع ما كان لليونان فى الطب من علم وقد احتوى ذلك على كثير من غث تخلف عن العصور اليونانية السابق منها واللاحق لا يكاد يفضل ، إن فضل التراكيب الممسوخة التى كانت متداولة تحت شعار الطب فى القرون الوسطى .

لكن ما استرد من الكتابات الطبية اليونانية حوى أيضا بعضا من أنق المواد وأكثرها انطباقا على الأصول العلمية تكون هى والروح التى كتبت بها دين الطب القديم على الطب الحديث وهو دين لا يمكن الغلو فى تقديره . حقا ان الأطباء فى عهد النهضة وبعده بوقت طويل غلوا فى الايمان بلفظ ما سطره سابقوهم من اليونان وحاولوا أن يحبسوا روح ايبقراط وجالينوس الحرة بين جامد جدران لفظ ما عادوا فاكتشفوه من المتون . وهى محاولة أحنقت كبار رواد الطب الذين جاءوا من بعدهم وخفى عنهم أكثر حقيقتها فثاروا غير قليل وبحق ثاروا على رق لليونان نشأوا فيه . على أن من المحقق أن هؤلاء الكاشفين الحديثين كانوا هم ورثة اليونان الحقيقيين فلو لم يكن هروفيلوس لما كان هارفى ولجاز أن تتأخر نهضة علم وظائف الأعضاء قرونا . ولولا بقاء مؤلفات قط ولأمكن أن جالينوس لما أعاد فزاليوس بناء علم التشريح تخلف الجراحة تخلف أخيها علم الأمراض الباطنة . فمجموعة ايبقراط كانت هى الأساس الضرورى المعترف به لأعمال أكبر مشاهد حديث فى الطب التطبيقى توماس سدنهام . وتعاليم ايبقراط وتلاميذه هى الآن الأساس المتين للتعليم فى أروقة المستشفى الحديث . فسنعمد اذا فيما يلى الى أن نستعرض الصفات العامة للعرفان الطبى فى أحسن عصور اليونان وننظر باختصار فى مقدار ما كان فى متناول أوائل رجال الطب الحديث من ذلك الارث العظيم حتى يستطيع القارئ

أن يقدر بعض التقدير مقدار ما وصل من تلك الوديعة الى أزماننا هذه . من الواضح أن ممارسة الطب لم تكن لتجىء على نمط واحد بين طائفــة من الشعوب كالأغريق متفاوتة فى درجة حضارتها وفى عقولها وفى مركزها الجغرافى والاقتصادى وفى وجهتها العامة . كان هناك صــنوف كثيرة من الآراء العلميــة والعملية رائجة بينهم لأنه لم يكن لديهم طريقة ترد التربية الطبية الى مركز واحد وتوحد معيار التعليم . وكثير من تلك الصنوف كان فى درك سافل من عوائد العامة وقد وصل الينا من مثل هــذا الغثاء كثير يونانى الأصل وان رجع كثير منــه الى عصر متأخر على غرابة فى ذلك . لكن السواد الأعظم من الأدب الطبي اليونانى الأسبق قد نصب لنا مثالا خالصا من السعى العلمى وراء مشاهدة الأمراض وتصــنيفها ووراء استخلاص الكليات من جزئيات عنى بجمعها وتعليل منشأ المرض تعليلا معقولا واتباع أساليب فى المداواة مبنية على أساس اتخذ بعد تفكير فنحن اذا لا نبعد اذا أكدنا أنه لا يزال بأيدينا بالرغم من خسارات جسيمة لا يمكن تعويضها بعض من أحسن ما نتج العقل الطبي اليونانى .

وهناك أدلة ضافيــة على أن اليونان ككثير غيرهم من شعوب منبتها البحر الأبيض المتوسط وآســيا قد ورثوا عن أسلاف لهم أبعد منهــم مجموعة كاملة من الصيدلة والطب منشؤها السحر والتعليل غير المعقول وهناك أوجه شبه كبيرة يمكن سردها بين ما كان يتداوله عوام اليونان من هذا و بين مذاهب الطب عند الرومان الأولين وعند قدماء المصريين وأيضــا بينه و بين طب فيدا الهندى وما كتبه همج الأورو بيين الأولين ، فمن المعقول اذا اذا ظهرت هــذه العناصر فيما تأخر من كتب اليونان أن نفرض

أنها تمثل من الشعب اليونانى أعرق عناصره فى الجاهلية تمثلها متخللة الطبقات العليا فى العالم اليونانى المتعلم صاعدة اليها ظاهرة عليها تحت تأثير الانحلال الاجتماعى وما يتبعه من الانحطاط الفكرى ولكنها عناصر لا تهمنا نحن كثيرا على عظم أهميتها لعلم تطوّر الانسان وعلم النفس وعلم سلالات البشر وتاريخ الأديان . ثم هى على أهميتها ليست من الأشياء المنبنى عليها دعوى تبريز الشعب اليونانى ولكنها أقرب أن تساعدنا على ربط العقلية اليونانية بعقليات الشعوب الأخرى التى تشابه ذلك الشعب .

ان الأولى بنا أن نبحث مجرى الطب اليونانى الأصولى خاصة ونبحث نوع التعاليم الطبية والتطبب القابل للترقى والذى هو أساس نظام طبنا الحديث . ان الذى يهمنا فى الحقيقة انما هو أقدم طب متطور لا تكاد تكون هناك حاجة لتمحيص مناشئ الطب اليونانى الأولى فان المادة التى بين أيدينا قليلة والاستنتاجات مشكوك فيها بعض الشك وربما كانت سابقة أوانها فان كشف جزء كبير من التاريخ الذى ألفه مينون أحد تلاميذ ارسطو عن آراء بعض المتقدمين الذين مهدوا السبيل للمدرسة الايبقراطية يجدد فى الصدر أملا أن يؤدى البحث اذا امتد واتسع الى حقائق أخرى عن مصادر الكتابات اليونانية الطبية الأولى وماهيتها[1] إن درس أقوال عوام العراقيين فى النجوم قد بين أن هناك صلة تربطها بعلم الفلك عند اليونان المتقدمين ولكن مجهودات دارسى الكتابة الأشورية لم تظفر باثبات وجود مثل هذه الصلة بين طبى الشعبين . وفى الجملة

(١) نشرت هذه النبذة فى الجزء الأول من المجلد الثالث من كتاب Aristotelieum Supplementum تأليف هـ . ديلز المطبوع فى برلين سنة ١٨٩٣ انظر أيضا كتاب هـ . نج . ف سبت المطبوع فى برلين سنة ١٨٩٦ .

فالبحث الحديث يشير الى أن المصادر المصرية أقوم وزنا من المصادر العراقية خلافا لما كان يقال به من قبل . فمن أحدث ما ظهر وصف ورقة بردية مصرية فى الطب تاريخها (حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد) تشبه بعض التآلف الابيقراطية شبها واضحا [١] . كذلك ظهر أن بعض العقاقير التى كانت متداولة بين اليونان مثل "Andropogon" والحبهان والسمسم الشرقى هى هندية الأصل ثم هناك أيضا المدنيات المنوية وهى جديرة بالاعتبار ومع أن ما نعرفه الآن غير كاف للحكم على ما قد يكون الطب اليونانى قد أخذ وما لم يكن أخذ عن هذا المصدر فقد يفيد أن علم الصحة عند اليونان كان مدينا لهذا المصدر بشىء [٢] . فسنغفل اذا هذا العهد الأول القديم وننتقل مباشرة الى فترة لاحقة بين القرنين السادس والرابع قد وصل الينا مخطوطات منها بالفعل .

أول مدرسة طبية جاءتنا عنها معلومات بينة هى مدرسة (سنيد) وهى مستعمرة لسذمونية فى دورس الأسيوية ومنشؤها قد يرجع الى القرن السابع قبل الميلاد ولدينا مدونات حقيقية تدل على أن مدرسى سنيد كان من عاداتهم جمع خواص أعراض الأمراض جمعا منظما وتبويب ما جمعوه تبويبا غاية فى التعقيد والراجح أن لدينا أيضا عدّة من مؤلفاتهم نفسها . أما كتب ناقديهم من أطباء عصرهم فلم يصل الينا منها الا كتب أطباء قوص وهؤلاء كانوا يرون أن الأطباء السنيديين أعاروا الأعراض المرضية وما يحس به المريض أكثر مما ينبغى له من الاهتمام به وقد صاغ السنيديون

(١) ظهر أثناء الطبع تقرير مبدئى عن بزديه أدوين اسمث ذات الشأن .

(٢) نجد أنفسنا تميل الى ربط مذهب الأفعى الأسقلوبية بالمركز الخاص الذى للأفعى فى الديانة المنوية .

أهم تعاليمهم فى سلسلة جمل أو كلمات جوامع تنصح على ما يظهر بعلاج الأعراض أو على الأكثر بعلاج المرض نفسه من غير نظر للمريض تابعين المصريين فى ذلك . يؤيد هذا ما حوته المجموعة الايپقراطية من كتب فى أمراض النساء يرجع أصلها فى الغالب الى السنيديين . هناك فوق ذلك قليل من أسماء وصلتنا لأطباء سنيديين لم يصلنا الا أسماء مؤلفاتهم ثم جملة كتبت عنهم تفيد أنهم مارسوا التشريح كذلك . وليس هناك شك فى أن المدرسة السنيدية اقتبست من الطبين الفارسى والهندى . ان مدرسة جزيرة قوص المجاورة قد نشأت بعد مدرسة سنيد بقليل والراجح أن تاريخها يرجع الى القرن السادس قبل الميلاد أما المدرسة القوصية أو على الأقل الوجهات العامة التى كانت تمثلها فلدينا لها فى الجسد الايپقراطى أثر أدبى خالد جمع بين الفخامة والغزارة . والجسد الايپقراطى مجموعة جمعها على الراجح فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد لجنة من علماء الاسكندرية طاعة لأمر المغرم بالكتب بطليموس سوتر (حكم من ٣٢٣ الى ٢٨٥ قبل الميلاد) والعناصر التى تتكون منها هذه المجموعة ذات تواريخ مختلفة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد وهى متفاوتة قيمة ومنشأ ولكنها تمثل فى الغالب وجهة نظر أطباء القسم الشرقى من العالم اليونانى فى القرنين الخامس والرابع .

إن أظهر صفات هذه الكتابات القوصية وأكثر عناصرها استلفاتا لنظر الباحث الحديث هو أنها تعير تتبع مسار المرض توكيدا عظيما فقد افتتح كتاب من أعظم المؤلفات الايپقراطية بالجملة الآتية :

"يخيل إلى أن من أحسن ما ينميه الطبيب فى نفسه المقدرة على التنبؤ[١] انه اذا عرف أعراض المرض ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأخبر عن ذلك بمحضر من المريض وفسر كل ما أهمل المريض ذكره يجعله يعتقد فيه أنه فاهم حالته فيطمئن الى اسلام نفسـه لعنايته وبذا يكسب احترام مرضاه بحق ويكون طبيبا مجيدا . إن معرفة ما سيقع فى كل حالة يعينه على الاحسان فى رعاية من يرجى شفاؤه وان انذاره بموت من سيموت وتبشـيره بشفاء من سيشفى يقيـه من اللوم" [٢]

فكما أن السنيديين بتقسيمهم الأمراض حسب أعراضها بالغوا فى توكيد التشخيص وفى تعقيد العـلاج كذلك القوصيون اهتموا كثيرا جدا بالانذار الطبى فى المرض فكان موقفهم تجـاه الأمراض موقف المتوقع المنتظر . وكان بين كل من أطباء سنيد وأطباء قوص صلة مشتركة تنتسب تاريخيا إن لم تكن فعليا الى عبادة الهيا كل . والأطباء الذين يجمعهم الانضواء تحت اسم إله ، كما كان الاسقلابيون ، يمكنهم أن يتجنبوا وقد تجنبوا بالفعل الأحط من عناصر الشعوذة فى طب الهيا كل فقد خلصوا منهـا الخلوص المنتظر أن يخلصه الطبيب الكاثوليكى الحديث من سخافات لوردز .

ولكن قد لا يبعد أن المتطرف من مذهب الانذار بين أهل قوص قد نشأ عن الأقاويل الطبية لمتكهنة المعـابد بأن استبدلت بالنذر الدينية علامات محسوسة فى المريض نفسه[١] . ونجد أنفسنا

(١) إن كلمة pronia كما فسرها جالينوس ليست هنا بمعناها الفلسفى كما لو سأل سائل أخلقت الدنيا بالمصادفة أم بال pronia ولا هى تمـاما بمعناها الحديث prognosis أو الانذار وإن تضمنت ذلك أيضا وهى فى كتابة ابقراط تفيد معرفتك أمورا عن المرض قبل أن تخبر بها . انظر ما قال E. T. Withington تحت عنوان بعض الاصطلاحات الطبية اليونانية مرجوعا فيها الى يوك وليدل وسكوت .

(٢) Prognostics 1

أيضا تميل الى ربطه بطريقة التكهن الفلكى والتكهن النجمى التى كانت معمولا بها فى الحضارات العراقية التى قلدتها أيونيا وأخذت عنها ما أخذت . فالدين إذا كان له بالطب نفس العلاقة التى يمكن أن تكون بين الدين وبين رجل حديث متطبب متدين ، يوحى اليه بالباعث ويكيف وجهة عمله من غير أن يمتد تأثيره الى التفاصيل والطريقة .

وبينما كانت مدرسة الطب القوصية تمو متنحية هذا النحو فى القرنين السادس والخامس كانت هناك حركة من أهم الحركات شأنا تجرى فى أقصى الطرف الآخر من العالم اليونانى . وليس هذا هو موضع التعرض لمجرى الفلسفة الصقلية وأهميتها ولكن لم تكن تلك الحركة الخارقة للعادة غير ذات تأثير على الطب نظرا وعملا .

وكان بعيد الأثر فى هذا السبيل امبدوكليس الأجرجنتينى (٥٠٠ — ٤٣٠ قبل الميلاد) أخذ رأيه فى الدم أنه موطن الحرارة الغريزية من اعتقاد العامة أن (الدم هو الحياة) وكان لا يكاد يرى مميزا بين الحرارة الغريزية والروح . وأنفع من هذا كان قوله بأن التنفس لم يكن مجراه مانسميه الآن بالمسالك النفسية فحسب بل أيضا المسام الجلدية . وأدت تعاليمه الى الاعتقاد بأن القلب هو مركز الجهاز الدموى وأنه العضو الرئيسى للنيوما أو الاثير الهوائى التى كانت أوعية الدم توزعه . وهذا الاثير الهوائى كان عندهم عدلا لاروح والحياة كلتيهما . بل كان شيئا أكثر من ذلك . كان هو ذات الهواء والنفس . وكانوا يستطيعون أن يروه بالذات يتصاعد من دم القربان المسفوح كبخار متألق ، أفلم يكن الدم هو مقره الطبيعى ؟

(١) هناك مبحث عن علاقة الاسقلوبية بشعائر الهياكل فى مقال E. T. Withington فى كتاب "أبحاث فى تاريخ العلم وطرقه" تحرير Charles Singer

كان هناك أيضا اثير هوائى يتخلل الكون حولنا و يكسبه صفات الحياة التى كانوا يشعرون أنها فيه ووظيفة الاثيرهذه يمكن أن يقال ان "انكسمينس وهو يونانى سابق لأمبدوكليس (٦١٠ — ٥٤٥ قبل الميلاد) قد حددها لنا إذ قال" كما أن روحنا تبعث فينا الحياة لأنها هواء كذلك الاثير والهواء يتخللان الكون جميعه"[1] إلا أن آراء أمبدوكليس نفسه هى التى آل أمرها الى أن تعتبر أساس المدرسة الاثيرية فى الطب التى كان لها فيما بعد تطوّرات فى غاية الأهمية .

وآخر من رجال المدرسـة الغربية الأولين فيثاغورس الصاموسى (٥٨٠ — ٤٩٠ قبل الميلاد) الذى زاد فى التعاليم الطبية زيادات مهمة لا حاجة بنـا إلى أن نتكلم عنه إلا من ناحيتها . كان عنده أن العدد هو أساس الفلسفة لأنه أصفى التصوّرات وأن الوحدة هى رمز الكمال وتقابل الاله نفسه . وكان عالم الحس عنده يمثله رقم ٢ و يقسمه ١٢ ومن هنا نجت ثلاثة عوالم وأربعـة دوائر وهذه بدورها ينشأ عنهـا حسب رأى متأخرى الفيثاغوريين على الأقل العناصر الأربعة : التراب والهواء والنار والمـاء . وهو قول أساسى فى الطب والعلم ربما كان مأخوذا عن قدماء المصريين وظل متبعا أكثر من ألفى عام وكان الفيثاغوريون يقولون أيضا بوجود روح حيوانى متشعع عن روح الكون وفى ذلك كله يمكننا أن نتبين جرثومة مذهب علاقة الانسان بالكون علاقة العالم الصغير بالعالم الكبير . مذهب رأت المؤلفات الايبقراطية أنه خارج عن موضوعها فنبذته ثم عاد فظهر فى المؤلفـات الأفلاطونية وفى الافلاطونية المستحدثة على الخصوص وصار بعد ذلك فى الطب اللاحق من أهم المسلمات .

---

(١) مؤلفات انكسمينس مفقودة أما عبارته هذه فقد نقلها لنا الكتبة المتأخر عنه زمنا أتيوس .

إن الكميون الكروتونى (حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد) أحد تلاميذ فيثاغورس ومعاصر لأمبدوكليس أسن منه شرع فى وضع أساس إيجابى للعلم الطبى بممارسة تشريح الحيوان وكشف عصبى الابصار وقنوات أوستاكيوس بل قد مدّ أبحاثه الى علم الأجنة وفيها ذكر أن رأس الجنين هى أول أجزائه نموا — استنتاج تبرره المظاهر — وهو أيضا صاحب المذهب القائل بأن الصحة متوقفة على الائتلاف بين العناصر فى الجسم والمرض على اختلافها . وقد أثارت أقوال أمبدوكليس والكميون تطلعا الى معرفة توزيع الأوعية أفضى الى الاستزادة من التشريح . وكل تلاميذ الكميون — اكرون (حوالى ٤٨٠ قبل الميلاد) وبوسانياس (حوالى ح ٤٨٠ قبل الميلاد) وبعدهما فلستيون اللوكرى[1] (ح٤٨٥ قبل الميلاد) معاصر أفلاطون كلهم قاموا بأبحاث تشريحية .

ان آراء أمبدوكليس وخصوصا مذهبه القائل بأن القلب هو المركز الأساسى للاثير (النيوما) الهوائى لم تمر على اليونان من غير أن تؤثر فيها بالرغم من أن مدرسة قوص كلها قد رفضتها وقد قام ديوجين الابولونى فيلسوف مذهب الاثير (النيوما) الهوائى وأحد كتّاب أواخر القرن الخامس الذى كان لا بد معاصر الابقراط الكبير قام نفسه ببحث عن أوعية الدم . ويمكن تتبع أثر هذه المدرسة فى مؤلف صغير عنوانه "عن القلب" وهو أحسن رسالة تشريحية فى المجموعة الايبقراطية . تناولت بالوصف الأورطة والشريان الرئوى وكذلك الصمامات الثلاثة الموجودة فى أصل كل من هذين الوعائين الكبيرين وتحدثت عن تجارب تجرى لاختبار استحكامها

(١) لمعرفة مؤلفات هؤلاء الأطباء انظر خاصة كتاب م . ولمان المطبوع فى برلين سنة ١٩٠١

وقد تناولت بالبحث التامور والسائل التاموري ولعلها تناولت العضـلات الحلمية وفارقت بين ضخامة جدر البطينين الأيمن والأيسر . وفى رأى المؤلف أن البطين الأيسر خال من الدم . وكذلك هو ولكن بعـد الموت [١] وأنه منبع الحـرارة الغريزية والذكاء المطلق . وهى آراء تتفق وتعاليم أمبدوكليس . ولذا قد يكون لنـا أن نقدم على القول بأن هـذا المؤلف هو من أعمـال المدرسة الصقلية لم تذهب به الأيام . ومن الممتع أن نلاحظ أنه قد جاء فى هـذا الكتاب أول اشارة الى تشريح الانسان . فان مؤلفه يخبرنا أن قلوب الحيوان يمكن أن تقارن بقلب الانسان . على أن شرف السبق فى الكتابة عن التشريح البشرى بالذات هو على الراجح لكاتب لاحق ديوكليس بن ارشـدامس الكارستى الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد[٢] والآن يصح أن ننظر فى الجسد الايپقراطى فى جملته . هذه المجموعة تتركب من مؤلفات مستقلة حوالى الستين أو السبعين عدا مكتوبة فى عصور مختلفة وعلى درجات من الصيانة مختلفة ولا يمكن أن يعزى منهـا الى ايپقراط على أحسن تقدير الا جزء صـغير جدا لكن من المتفق عليه أن النظر فى صحة نسبة هـذه المؤلفات لا طائل تحته اذ ممـا لا شك فيه أنه ليس لدينا أى ضابط نعرف به ما اذا كان مؤلف ما هو من قلم (أبى الطب) أم لا ؟ وأكثر ما يمكن أن يقـال عن مؤلف كهذا أنه على ما يظهر من تأليف مدرسته وأنه مشرب بروحه . على أن من أعظم ما أسدته هذه المجموعة الى عصرنا والى كل العصور هبتين تطولان كل ما عداهما . صورة انسان وصورة طريقة .

(١) ملاحظة للترجمين : ليس ذلك صحيحا فى جميع حالات الموت اذ فى بعضها يشاهد الدم فى البطين الأيسر .

(٢) جالينوس فى التحاضير التشريحية .

الانسان هو ايبقراط نفسه . ان نفس تفاصيل حياته لا نكاد نعرف عنها شيئا . تقع فترة نشاطه الأكبر (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد) . وقد عاش على ما يظهر عيشة المتجول . ولد من سلالات متعاقبة من الأطباء فى جزيرة قوص فكان ميدان جهاده طراقيا وابديرا وديلوس والپرو پونتيس وثاسوس وتساليا (ولا سيما لارسا وملبية) وأتينا وغيرها ومات فى لارسا بعد أن بلغ من العمر أقصاه (حوالى سنة ٣٧٧ قبل الميلاد) . وكان له تلاميذ كثيرون منهم ولداه تيسالوس ودراكون وكانا مثله سائحين وصهره بوليبوس الذى حفظ علينا ارسطو شذرة من كتاباته [١] وثلاثة آخرون من أهل قوص يدعون أبولونيوس ودكسيبس و پراكسا جوراس . هذا يكاد يكون كل ما نعرفه عنه على التحقيق .

ولكن على الرغم من أن هذه لمحة من بعيد وفيها غموض شديد فانه لا يمكننا مهما تغالينا أن نقدر تأثر مجرى الطب وتكمل الأطباء فى جميع العصور بالصورة المتوارثة التى كونت عنه من البدء والتى لا يزال من الممكن انتزاعها مرة أخرى من المؤلفات الموسومة باسمه تلك هيئة ، جمالها ووقارها فوق متناول المدح وسيبقى ايبقراط الى الأبد مثال الطبيب الكامل يحيط به ابهام قليل لعله يزيد فى أبهته كان عالما دقيق الملاحظة رحيما شديد الاكبار لحقوق مرضاه عليه ثم شديد الحرص على أن ينفع غيره بخبرته ، من طبعه النظام والهدوء لا يقلقه الا حرصه على تدوين معلوماته لينتفع بها اخوانه فى المهنة وليخفف بها الآلام رزينا متدبرا متحفظا نقى الخاطر مالكا لزمام

(١) تاريخ الحيوان الجزء الثالث يعزى هذا المؤلف الى بوليبوس . ولكن نفس العبارة كررت مرتين فى الكتابات الايبقراطية فى (عن طبيعة الانسان) وفى (عن طبيعة العظام) .

نفسه . تلك صورة غير مبالغ فيها لأبى الطب كما كان يبدو لأهل عصره ولمن بعدهم صورة من الخلق والفضيلة كان ولا يزال لها لدى أطباء جميع العصور أثر خلق لا يقاربه الا أثر مؤسسى الأديان العظمى فى نفوس تابعيهم فلو أريد قول مأثور ليوضع على تمثال ايبقراط لما وجد خير مما جاء فى كتاب الحكم "أينما توجد محبة الانسان توجد محبة الفن" ان تماثيله النصفية التى أدركت عصرنا ليست صورا زيتية ولكن أحسن تلك التماثيل أعون لنا وأفضل من أى صورة زيتيـــة . إن هى الا مثل عليا لما كان ولما ينبغى أن يكون عليه الطبيب عند صفوة أهل اليونان وأحكمهم [1] .

كانت طريقة الكتاب الايبقراطيين هى تلك المعروفة الآن بالاستقراء لم يكن لديهم ما لدينا من الارث العلمى الواسع ولم يكن لديهم بالنسبة لما لدينا الا قليل من مشاهدات مأخوذة عن مدارس قوص وما جاورها وكان يحيط بهم جميع صنوف الديانات الشرقية الخرقاء التى لا يراعى فيها علاقة ما بين السبب والمسبب مراعاة كافية .

وكانوا فضلا عن ذلك بمستحث دائم من تلك العبقرية الرابية عبقرية الفلسفة العقلية التى كانت لذلك الشعب اليونانى الذى كانوا يعيشون فيه ويلقون ما يلق من المغريات العقلية . ومع ذلك كله فقد كانوا فى الغالب صابرين على مشاهدة الحقائق شاكين فى الخوارق وفى ما لا يمكن التحقق منه مترددين عن تخريج النظريات الا بقدر ما تبرره المقدمات . ولكنهم كانوا دائما مسارعين الى العموميات ينتزعونها من التجارب الفعلية هادئين مخلصين ذوى كفـاية فى خدمة السقيم والمريض . انه لا يكاد يكون هناك نوع مما نعرف

(١) أنظر (شكل ١) .

من أنواع الجهود العقلية لم يأت به اليونانيون أولا يمكن استخراج مثله من بين كتاباتهم أما الرجوع ، ابتغاء التثبت على حذر واستمرار الى المخبور الماثل فى سجلات من المشاهدات الفعلية وهى الطريقة المعتادة المتبعة فى فروع العلم الحديثة فانه نادر بينهم الا عند هؤلاء المؤلفين الطبيين الأولين .

ولا يمكن توضيح الروح التى كانوا بها يعملون بأفضل من ذكر نص اليمين المعروف باليمين الايبقراطى . انه وثيقة يستضاء بنورها الباهر فى استجلاء آداب الطب اليونانى . ولو أنها ترجع فى شكلها الحاضر الى عصر أحدث من عصر ابقراط :

"أقسم بابولوا الطبيب و باسقلابيوس وهيجيا و بنسيا . ضارعا الى جميع الإلهين والإلاهات أن يكونوا علىّ شهداء أنى سأبر بهذا القسم و بهذا الميثاق المكتوب جهد طاقتى وقصارى حكمى . ليكونن الذى علمنى هذا الفن بمنزلة منى كمنزلة أبوى الذين ربيانى لأقاسمنه معاشى ولأكفينه حوائجه ان نزلت به حاجة . ولأجعلن ذريته من خاصة اخوتى ولأعلمنهم هذا الفن ان رغبوا بلا أجر أو عوض .

لأبوحن به فيما أرشد وفيما أحاضر و بكل وسيلة من وسائل التعليم لا لأبنائى فقط بل أيضا لأبناء من علمنى وللمريدين المرتبطين بالميثاق والقسم حسب قانون الأطباء لا لمن عداهم لأراعين فى المسلك الذى أتخذ مصلحة مرضاى جهد طاقتى وقصارى حكمى لا أبتغى ضررهم ولا أرمى الى مقصد معيب . ما كنت لأعطى أحدا عقارا قاتلا وان سئلته . وما كنت لأدل السائل على الطريق اليه . كذلك ما كنت لأعطى امرأة شيئا يسبب اجهاضها بل

لأحفظن حياتي وفني نقيين طاهرين . مهما أدخل من بيت فلأدخلنه ابتغاء الخير للمريض متجنبا أن أضر باختيارى أو أن أفسد ومتجنبا على الأخص أن أغوى أحدا ذكرا أو أنثى عبدا أو حرا ومهما أر أو أسمع من شيء من شئون الناس أثناء عيادة مرضاى ، بل و بمعزل من عيادتهم ، مما لا ينبغي التحدث به فلآخذن بالصمت فيه ولأعدنه سرا من أسرار الدين . فاذا ما وفيت بهذا القسم غير ملحد فيه فليكن لى على السواء سرور الحياة وسرور الفن مع حسن السمعة بين جميع النـاس أبد الآبدين ولينزل بي ما هو ضد لذلك كله إن أنا اعتديت وحنثت في يميني" .

احترم هذه اليمين العربي والبهودى والنصرانى على السواء فى جميع العصور ثم هى لا تزال بعد ذلك شعار مهنة الطب [١] وكان للإعلان بها من القيمة الخلقية ما لم يكن ليفوت حتى ولا بيزنطيا من عباد الشكل . ومما تروق ملاحظته أن أقدم نسخة خطية يونانية من نسخ المتن الايبقراطى وتاريخها يرجع الى القرن العاشر قد عنونت فيها تلك القطعة الفخمة بعنوان "من يمين ايبقراط على صورة لا يتحرج نصرانى أن يحلف بها" .

اذا نحن امتحنا الجسد الايبقراطى بتدقيق أكبر تبين لنا أن تلك الرسائل لم تكتبها أيد كثيرة فحسب بل وليس فيها فكرة أو مذهب نسق ينتظمها من الأول الى الآخر . يوضح هذا جيدا بعض ما هو أشهر من عبارات تلك المجموعة الممتازة ففى قطعـة مشهورة من (الأهوية والمياه والأماكن) نجد أن السنيديين ينسبون عاهة جسدية

(١) لا بد مع ذلك من التسليم بأن فى المجموعة الايبقراطية أحوالا حنث فيها باليمين مثل تسبيب الاجهاض المذكور فى أحد الكتب على أن هناك شواهد على أن مؤلف هذا الكتاب لم يكن من المتطبين .

مخصوصة الى بعض الآلهة وعقب المؤلف على ذلك بقوله "ولكن يظهر لى أن هـذه العلل ليس فيها من الإلاهيـة الا مافى أى علة أخرى وأنه لا مرض أعرق فى الإلاهية أو فى البشرية من غيره بل كلها إلهية على السواء لأن لكل منها فطرته وليس منها ما ينشأ عن غير سبب فطرى" . ولكن من الناحية الأخرى نجـد مؤلف الكتاب العظيم "عن النذر الطبية" ينصحنا اذا دعى طبيب لعيادة أحد أن يتحرى استكناه العلل التى يعالجها وخاصـة "ما اذا كان فى العلة شيء إلهى وليعلم ذلك أيضا قبل أن يكون" ويصح أيضا أن نلاحظ أن هـذه الجملة هى تقريبا السابقة مباشرة لجملة لعلها أشهر الجمل الايپقراطية ،هى وصف ما قد سمى منذ ذلك الوقت بالملامح الايپقراطية هذا الوصف العجيب لعلامات الموت يصح أن نذكره هنا تبيانا للموقف الذى كان من عادة المدرسـة الايپقراطية أن تقفه تلقاء الانذار فى المرض ومثلا من أمثلة عنايتهم الشديدة بملاحظة التفاصيل .

"ينبغى له (للطبيب) أن يلاحظ كذلك فى الأمراض الحادة:
أولا وجه المريض هل هو يشبه وجوه أهل العافية وعلى الأخص هل هو يشبه نفسه فذلك خير وكلما ازدادت مخالفته لها كلما كان ذلك شرا له بأن تكون الأنف مرهفة والعين غائرة والصـدغان منخسفين والأذنان باردتين متقبضتين قد انعكست تعاريجهـما والجلد حول الجبهـة خشنا متمددا جافا ولون الوجه كله مخضرا أو قاتمـا فاذا كان الوجه كذلك فى أوّل المرض ولم يمكن تعليل ذلك بالأعراض الأخرى وجب الاستفهام عما اذا كان قد قضى ليلة لا نوم فيها وعن أمعائه هل بها اسهال شديد أو عما اذا كان متهافتا من الجوع . فاذا كان شيء من هذا واقعا جاز أن يعتبر الخطر أقل

ويمكن فى ظرف ليـلة ونهار أن يحكم على ما اذا كان مظهر الوجه قد نشأ عنها أما اذا لم يمكن القول بأن شيئا من هذه موجود ولم تخف الأعراض فى تلك الفترة فليعلم على التحقيق أن الموت منه قريب".

كذلك نقرأ فى كتاب " فى الفن الطبى " "أرى لائقا بالطبيب أن يمتنع عن معالجـة من أخنى عليهم الداء" وهى خطة إن كانت قاسـية فهى حازمة بين قوم لعلهم ينظرون الى مقدور الطبيب كانه من السحر . ولعلها طريق من الحكمة اتباعها اليوم فى بعض أماكن غير بعيدة من قوص . على أن كتاب "فى الأمراض" ينصح لنا حتى فى الأمراض الميئسة أن نخفف عن المريض بالعلاج المستطاع وزيادة على ذلك فمؤلفات كتاب المدرسة الايبقراطية تقف أحيانا فيما بينها موقف النقيض من النقيض .

ففى الرسالة "عن القلب" تجـربة كان يظن بها أنها تثبت أن جزءا على الأقل من السائل المشروب يجد منفذا الى تجويف الرئة ومنـه الى أجزاء الجسم وهى غلطة كانت ذائعـة قديمـا فى كتاب تيمايوس لأفلاطون . لكن هذا الرأى قد نص على بطلانه مؤلف كتاب "فى الأمراض" ويظاهره مناقشـة جاء ذكرها فى نبـذة منون التى سلمت لنا .

لقد أقنعت أمثال هذه العبارات جميع الطلاب بأنا حين ننظر فى المجموعة الايبقراطية ننظر فى كتب مختلفة كتبها كتاب مختلفون فى تواريخ مختلفة فى ظروف مختلفـة . وهو أمر يمكن فهمه اذا نفكرنا أن الطب عند اليونان كان موضع دراسـة مطردة مدة هى أطول بكثير مما كان عليه الحال فى العالم الغربى الى الآن . فالكلام عن مثل هـذه المجموعة غير ممكن الا من أعم سبيل . والنظام أو النظم الطبية التى سنتكلم هكذا عنها كانت معمولا بهـا الى العصر السكندرى أى الى مبدأ القرن الثالث قبل المسيح .

كان التشريح وعلم وظائف الأعضاء وهما أساس نظامنا الطبي الحديث موطن ضعف علمى شديد فيما سبق العصر السكندرى من العصور . لقد عنوا بدراسة هيئة الجسم الظاهرة خصوصا من جهة علاقتها بالكسور ولكن ليس فى آداب ذلك العصر أى بينة تدل على أنهم كانوا أكثر من ذلك إلماما بالتراكيب التشريحية الجثمانية وهذه الحقيقة يؤيدها الفن اليونانى تأييدا حسنا [1] لأن الفنان فى أنبل عصور الفن لم يظهر أى دليل على أنه استعان فى فنه بمعلومات تشريحية . ولن نلق مثل هذا الدليل الا اذا بلغنا نحت العصر السكندرى . وعندها نرى فى بعض أعمال مدرسة برجمون مواقف فيها بعض تكلف و بعض مبالغة فى تمثيل العضلات يفيد أن الفنان ان لم يكن أخذ معلومات فقد أخذ اشارات عن المشرحين الذين كانوا على نشاط فى ذلك العهد . على أنه ليس من البعيد أن عظاما منفصلة إن لم تكن هيا كل عظمية كاملة كان من العادة دراستها قبل ذلك العهد يدل عليه أن المؤلفات الجراحية فى المجموعة الايبقراطية وعلى الخصوص ما كان منها فى الكسور والخلوع ، فيها ما يدل على معرفة بعلاقة بعض العظام ببعض وبموضعها الطبيعى فى الجسم لم يكونوا ليحصلوا عليها بدون تلك الدراسة إن حصلوا إلا بكبير المشقة . إن فى المؤلفات الايبقراطية مقابلات بين التركيب الانسانى والحيوانى كتلك التى يمكن الحصول عليها من العمليات الجراحية ومن الاصابات التى تقع من آن لآن وفى الناس من يرى أن عادة استطلاع الغيب من امتحان أحشاء القرابين قد أدت بهم الى بعض المعلومات التشريحية

(١) ورد فى الرسالة المسماة "فى المفاصل" اشارة الى التشريح ترجع فى رأى المؤلف الى العصر السكندرى .

ولكن يظهر أنه ليس من المرجح أن نظاما فيـه من العلمية ما فى نظامهم لا تكاد تربطـه بالهيكليات رابطة يكون فى حاجة الى كبير أخذ عن تلك المصادر ثم لا داعى للالتجاء الى القساوسة نستعين بهم ، ونحن نعلم أن الحيوانات كانت تشرح بالفعـل من عهد بعيد مثل عهد الكمون. صحيح أن الكاتب المجهول مؤلف (فى مواطن العلل فى الانسان) المكتوب (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد). يعلن أن (تركيب الجسم أساس الطب) لكن ما بين أيدينا من الرسائل من العصور الابيقراطية المكتوبة فى التشريح خاصة قد ذكرت المعيار التشريحى لجسم الانسان وما ذكرت مقصر غاية التقصـير أما صحيفة "فى التشريح" وان كانت أحدث كثـيرا على الراجح (لعلها حوالى ٣٣٠ قبل الميلاد) فانها قصرت حتى عن رسالة فى القلب ولعل هذه (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد) .

كان همهم الأول المريض المتألم ولذا تجنب الأفضلون منهـم عن قصد كما يصح أن نظن ، كل اشارة الى تلك التخرصات الا فى الأقل النادر، كانت صحة الجسم العامة تتوقف عند الابيقراطيين على توزع العناصر الأربعة — التراب والهواء والنار والمـاء التى من خلاطها Cris ومن خواصها الأساسـية من جفاف وحرارة وبرودة ورطوبة يتركب الجسم وجزئياته ويقابلها السوائل الأصلية الدم والبلغم والصـفراء والسوداء : والشرط الأساسى للحيـاة هو الحرارة الغريزية التى بزوالها يكون الموت . هذه الحرارة الغريزية تكون على أشـدها فى الشباب ولذا كانت الحاجة فيه الى الوقود أشد وتضمحل على التـدريج كلما تقدّم السن . وضرورة أخرى من ضرورات الحياة الاثير الهوائى أو النيوما الذى يدور فى الأوعية كل هـذا ربمـا كان فيه من الخيال ما فيه . لكن يحسن بنا أن

نذكر أن النصف الأول من القرن التاسع عشر تقضى قبل أن يبطل القول بالأمزجة الذى كان حينئذ قد استمر اثنين وعشرين قرنا على الأقل ولعله لا يزال يعيش الى الآن فى صورة بعض نواجم العلم الحديث . وفضلا عن ذلك فان ألطف المؤلفات الايپقراطية أخصها بالايپقراطيين هى بين مغفلة هذه النظريات غير الضرورية لغرضها الأول ومشيرة اليها عرضا فقط . فان شغلها الذى اختارت لنفسها من ملاحظة الأعراض وتمييز الأصلى من العرضى فى الأمراض وانتزاع الكليات من المخبورات يمكن أن يمضى فى سبيله غير متأثر بأى رأى يرى فى طبيعة الانسان أو طبيعة العالم . حتى العلاج الذى لا يكاد يكون فيه بد من مراعاة نظرية ما عن التسبيب لم يحد عن سبيله من أجل قول بالعناصر والأمزجة لم يكن مستطاعا البناء عليه بالذات . وزاد عن علم فوائد الأدوية فلم يتأثر بمثل هـذا قولهم بالطبيعة كشافيـة للأمراض وهو ما كان يقول به الكتاب اللاتينيون المتأخرون والذى يقال به اليوم .

ان سبيل مداواة الأمراض حسب الرأى الايپقراطى هو اعادة التوافق بين العناصر والأمزجة وهذه فى الواقع تجنح بطبيعتها الى التوازن واذا ما تركت وشأنها أرجعها اليه فى أغلب الأحوال الميل الفطرى الى التعافى .

هذا الارجاع يسمى بالهضم و بالطبخ كما يسمى باللاتينى ونقطة الانقلاب التى عندها تظهر آثاره هى البحران وهو مصطلح لا يزال له على بعض معناه الأصلى مكان فى الطب . هـذه النقطة نقطة الانقلاب تقع بالفعل فى كثير من الأمراض ، خصوصا الجرثومى منها ، فى أيام مخصوصة وان كان الأطباء اليونانيون قد أعاروا عدد مرات وقوعها بالضبط فوق ما ينبغى له من التوكيد . ولم يكن من

غير المهم من واجبات الطبيب أن يعين الفطرة بالدواء يتحرى في اعطائه أوقات البحران (الحرج) فاذا لم يكن بحران أو اذا أخطئ بالأدوية لحظة الاعطاء فان المرض قد يصير عياء لكن الأمراض انما كانت تنتج بالذات أو بالواسطة عن اضطراب ما بين الأمزجة من التوازن والتآلف وهذا لم يكن إلا مجرد فرض كما كان الايبقراطيون أنفسهم يعرفون وكانت هناك أسباب أخرى أكثر بعدا تقع في أفق نظر الطبيب من ظروف كان يستطيع أن يدرسها و بالفعل درسها . فضرب لها مثلا طرائق العيش غير الحكيمة والتعرض لتغيرات الجو والسن الكبير وما أشبهه وكثير من هـذه كان يمكن تصحيحه أما ما لم يكن تصحيحه ممكنا فقد كان له من المداواة طرق متنوعة بالمرصاد .

أما ان الأجسام البشرية تكون عادة على حال من الصحة تظل عليه وأنها في الجملة تجنح الى الافاقة من المرض فهو رأى قد ألفناه اليوم حتى لا يكاد يكون هناك الى التذكير به حاجة . اننا نعيش بعد ايبقراط بنحو ثلاثة وعشرين قرنا كان العالم المتمدين في ستة عشر منها يرى أن الفصد والحجامة المتجدّدين ضروريان للاحتفاظ بالصحة وظللنا في آخر قرن أو قرنين منها نحور الى الموقف الايبقراطي بالتدريج .

لعل فخر المجموعة الايبقراطية الأكبر من الوجهة التطبيقية هو وصفها حالات قد وقعت يبلغ كل ما يسلم الينا منها اثنين وأربعين[1] وهي لم تظل قريبا من ألفي سنة فريدة في مجموعها فحسب بل هي لا تزال الى اليوم نماذج مما ينبغي أن يكون عليه الوصف التطبيقي

(١) وهي توجد في ملحق للجزأين الأول والثالث من كتاب "الأمراض الوبائية" وفي صلب الجزء الثالث ..

الوجيز فهى واضحة مختصرة ليس فيها من كلمة زائدة ثم فيها مع ذلك كل ما لا بد منه . لا يبدو فيها الا رغبة فى تدوين أهم الوقائع من غير أى نزوع الى العجلة فى الحكم فهى المثل الكامل للنبوغ اليونانى فى انتزاع المهم، لا يبدى كاتبها أقل رغبة فى الاعلاء من مهارة نفسه، انما يروم أن يضع الوقائع بين يدى القارئ ليهتدى بها فى مثل ظروفها، ومن النتائج الطبيعية لروح الأمانة التامة التى فيها عاش أولئك الرجال وبها عملوا تدوينهم عن جل تلك الحالات أنها كانت حالات موت . من تلك المجموعة الصغيرة المعجبة يصح أن نورد هنا حالتين :

"المرأة المريضة باللوزتين الساكنة مع أرسطيون ، بدأت علتها فى اللسان، الصوت منحبس ، اللسان أحمر جاف . اليوم الأول : رعدت ثم سخنت . اليوم الثالث : حمى حادة ، انتفاخ أحمر جامد على جانبى العنق والصدر، الأطراف باردة ممتقعة ، التنفس مرتفع ، الشراب عاد من الأنف ، لم تكن تستطيع البلع ، الافراز البولى والمعوى موقوف . اليوم الرابع : احتدت الأعراض كلها . اليوم الخامس : ماتت" .

أمامنا هنا على الراجح حالة دفتريا فالتهاب اللوزتين وشلل اللهاة أدى رجوع الطعام من الأنف وصعوبة النطق والبلع هى نواتج تميز بها هذه العلة قد عقدها هنا امتداد النتوءات المتسممة الى العنق والصدر ، توابع لهذا المرض غير قليلة الوقوع انما الأشبه أن يكون غير عادى هو سرعة هجمة الأعراض لكن تعليله يتيسر اذا ما اعتبرنا الحالة حالة دفتريا خفيفة لم يفطن لها تعقدت بعد بشلل و بتسمم ثانوى عرضت المريضة من أجلهما على الطبيب.

فى تاسـوس أصاب زوجة دلرسيس الساكنة فى السهل حمى مرعدة حادة لحزن نزل بها . كانت من أول الأمر لآخره تلتف بغطاء فرشها ، ظلت صامتة ، نكشت ، لقطت ، نقبت وجمعت الشعر (من الفراش) ، دموع ثم عودة الى الضحك ، لا نوم ، الأمعاء سهلة التهيج لكن لا تبرز شيئا ، اذا ألح عليها شربت قليلا ، البول رقيق قليل ، كانت الحمى تبـدو خفيفة للمس ، برودة فى الأطراف . تاسع يوم : تكلمت كثيرا بخلط ثم عادت الى الصمت العميق . اليوم الرابع عشر : التنفس نادر مديد على فترات ثم عاد فصار سريعا . اليوم السابع عشر : بعد تنبيه الأمعاء أخرجت حتى المشروبات وما كانت تستطيع امساك شىء . لا تعى شيئا ، الجلد جاف مشدود . اليوم العشرون : كلام كثير ثم هدوء ففقدان صوت ، التنفس معجل . اليوم الحادى والعشرون : ماتت . كان نفسها أثنـاء ذلك كله نادرا مديدا . وكانت لا تعى شيئا ملتفة دائمـا بغطاء فرشها . وكانت إما فى كلام كثير أو فى سكوت تام .

هذه الحـالة الثانية بعضها وصف لغيبوبة فيها هذيان خافت وهى نهاية عادية فى الحميات الملحة كالتيفود مثلا . وهنـاك شبه كبير بين الوصف وبين ما هو معروف الآن بالحالة التيفودية . ثم فيه بالمصادفة اشارة الى نوع من التنفس شائع عند الموت اذ يصير الشهيق عميقـا بطيئا ينتهى بالتدريج الى السكون ويقل ثم يقل حتى يبدو كأن قد انقطع تماما ثم تزداد سرعته بالتدريج وهكذا دواليك . هذا النوع من التنفس معروف لدى الأطباء باسم شهيق شين ، استوكس تنويهـا بطبيبين أرلنديين نابهين عاشا فى القرن المـاضى واستلفتا رجال الطب اليه وقد فسر حديثا تفسيرا

جزئيا مبنيا على أساس فسيولوجى [1] ولنا أن نلاحظ أن هناك فى المجموعة الايپقراطيــة صورة أخرى قلمية لشهيق شين استوكس أحسن من السالفة وردت فى الحــالة المشهورة حالة فلسكوس الساكن بجوار الحائط الذى لزم فراشه من أول يوم حم بحدة فيه وقد مات حوالى منتصف اليوم السادس .

ويلاحظ الطبيب أن التنفس (الشهيق) من الأوّل للآخر كان تنفس شخص جامع لوعيه وأنه كان مديدا نادرا . وصف تنفس شين استوكس فأحسن بأنه "تنفس شخص جامع لوعيه" .

من الممكن أن يفرق بين أمثال هذه المدوّنات وبعض مدوّنات أخرى بلغتنا عن العهد اليونانى القــديم نضرب مثلا لها : لوحتين كشفتا فى ابيدوراس سنة ١٨٨٥ فيهما وصف أربعة وأربعين شفاء هيكليا الآتيان مثلان منهما معتدلان :

ارستاجرا الطرزونية : كان عندها الدودة الشريطية وبينا هى نائمــة فى هيكل اسقلابيوس فى طرزون رأت رؤيا . رأت كأن أبناء ذلك الاله اذ لم يكن هو حاضرا بل كان غائبا فى ابيدوراس . قد قطعوا رأسها ولكنهم لم يستطيعوا اعادتها مكانها فأرسلوا رسولا الى اسقلابيوس يسألونه القدوم الى طرزون . وطلع النهار فيما بين ذلك ورأى القسيس رأسها منفصلا بالفعــل عن جسمها . وفى

[1] وصف جون شين (١٧٧٧ — ١٨٣٦) هذا النوع من الشهيق فى تقارير مستشفى دبلن (١٨١٨ — ٢ صفحة ٢١٦) وقد وصف سمى شين . جورج شين (١٦٧١ — ١٧٤٣) حالة بالغة منه فى كتابه المرض الانجليزى (١٧٣٣) اشتهرت "بحالة الكولونيل تونشند المحترم" ونشر وليم استوكس (١٨٠٤ — ١٨٧٨) وصفه للتنفس الشين استوكس فى صحيفة دبلن الربع السنوية للعلوم الطبية سنة ١٨٤٦ صفحة ٧٣ المجلد الثانى .

الليلة التالية رأت ارستاجرا كان ذلك الاله عاد من ايدروس ووصل رأسها برقبتها ثم شق بطنها وعاد فخاطها . وكذلك شفيت .

كان عند رجل خراج فى بطنه فرأى رؤيا خيل اليـه فيهـا أن ذلك الاله أمر العبيد الذين كانوا معــه فرفعوه وأمسكوه بحيث يمكن شق بطنه . حاول الرجل أن يفلت فأمسكه عبيده وربطوه وكذلك شق اسقلابيوس بطنه وأزال الخراج عنه ثم خاطه ثانيـا وفك عنــه القيود . من تلك اللحظة قام الرجل معافى وكان بلاط المنامة مغطى بالدم [١] .

إن عنصرا أساسيا فى مادون من طرق المداواة الهيكلية . وقد سـلم منها عدد عظيم فى متنوع من الوثائق كبير، هو العملية المسماة بالترقيـد أو نوم الهيكل يكون عادة فى مكان للنوم مخصوص أو المنامة ولا يزال للعملية ما يوازيهـا عن قرب فى بعض الكنائس اليونانية الحـديثة وفى أماكن للعبادة أخرى أبعـد منها كثيرا الى الغرب . بل هناك آثارات منها فى هـذه الجزائر ومن المرجح الأرجح أن المسيحى منها يمى الى الوثنى بنسب متسلسل متصل [٢] .

ماهية علاج الهياكل كانت ولا تزال على شكل يوحى للمريض أن يحلم بالاله . ولذا فهو يحـلم به فى العادة . ومثل هذه المعالجة بالايحـاء لا تنطبق الا على أنواع خاصة من الأمراض وهى دائما

(١) النقوش الابدورية ذكرها م . فرانكل فى Inscriptionum Graecarum Corpus الجزء الرابع صفحة ٩٥١ — ٦ وبحثها مارى هماتن (مـمزجاى دكنس) فى الترقيد (سنت اندروز ١٩٠٦ من ترجمتــه نقلنا . وهناك نقوش أخرى ذكرها كافيدباس فى كتابه المطبوع سنة ١٩١٨ والصادر سنة ١٩٢١

(٢) ومثل دذا تقريبا قد ورد فى "وحى تيقوريمـاس المشكوك فيه" مؤلف كتب على الراجح حوالى آخر القرن الرابع .

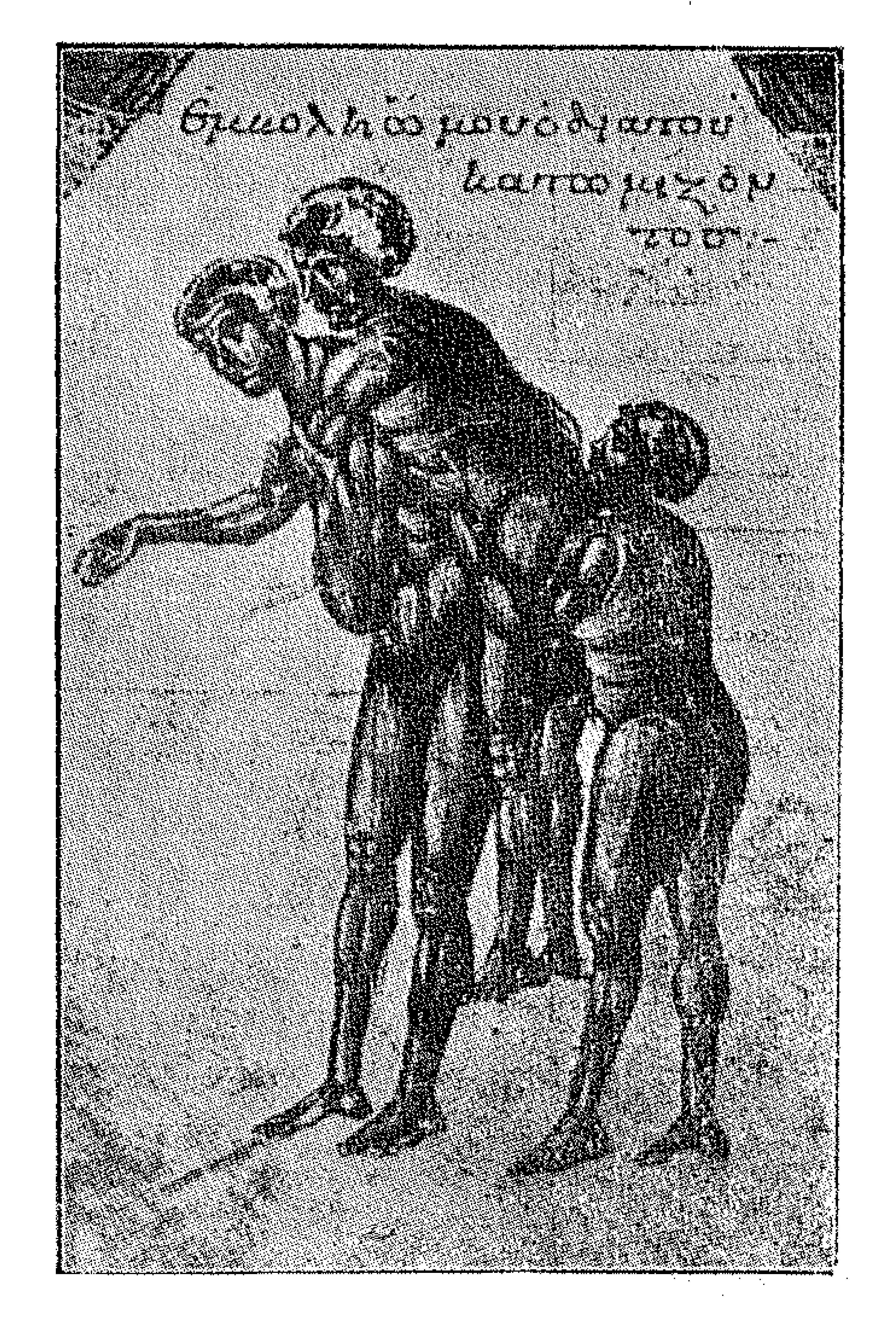
عرضة لأن يستثمرها الجهلة المتغالون فى الدين والمحتالون . والعقبة التى يصادفها الطبيب النزيه هى أن المصاب هو مسبب مرض نفسه بنفسه . فيصعب جدا اقناعه أن شكواه هى ما هى فى الحقيقة علة فى العقل . وهذا هو الذى يعطى المتجر بالخوارق فرصة .

انظر قليلا فى الحالتين من ابيدوراس وما هما الا نموذج للباقى وتلاحظ أن الأولى منهما وصفت مجردة بأنها حالة الدودة الشريطية أو الوحيدة من غير مبرر قط لهذا التشخيص . وليس نادرا فى أيامنا هذه أن نرى المرضى الناحلين المتخوفين يتولون بغير مبرر كذلك أنهم مصابون بتلك العلة . ينسبون أعراضا معدية مخصوصة الى هذا السبب الذى لعلهم قرأوا عنه فى الاعلانات المستلفتة للناس . ثم يطلبون دواء لمرض هم أنفسهم شخصوه لكن لا وجود له فى الواقع . فحالة كهذه يناسبها غالبا العلاج بالايحاء . واذا كان هناك من التعقيد فى دواء الهيا كل ما يدعو الى الدهشة قليلا فان من السهل اخراج مقابل لذلك من أقاصيص القديسين المسيحيين . وفضلا عن ذلك فانه ينبغى أن نتذكر أن ما بين أيدينا ليس هو حكاية حكتها المريضة عن نفسها ولكن كتاب تزكية كتبه عمال الهيا كل . أما الحالة الثانية : حالة الرجل المصاب بخراج فى بطنه فهى أبسط كثيرا من أختها ومن الواضح أن قد أجريت فى الواقع عملية أجراها الكاهن متنكرا فى ثوب اسقلابيوس . بينما كان المريض يمسكه العبيد ثم أكدوا له أن ذلك ما هو الا حلم وخرج معافى يعلق على ما رأى تعليقة النمام وكان بلاط المنامة مغطى بالدم" .

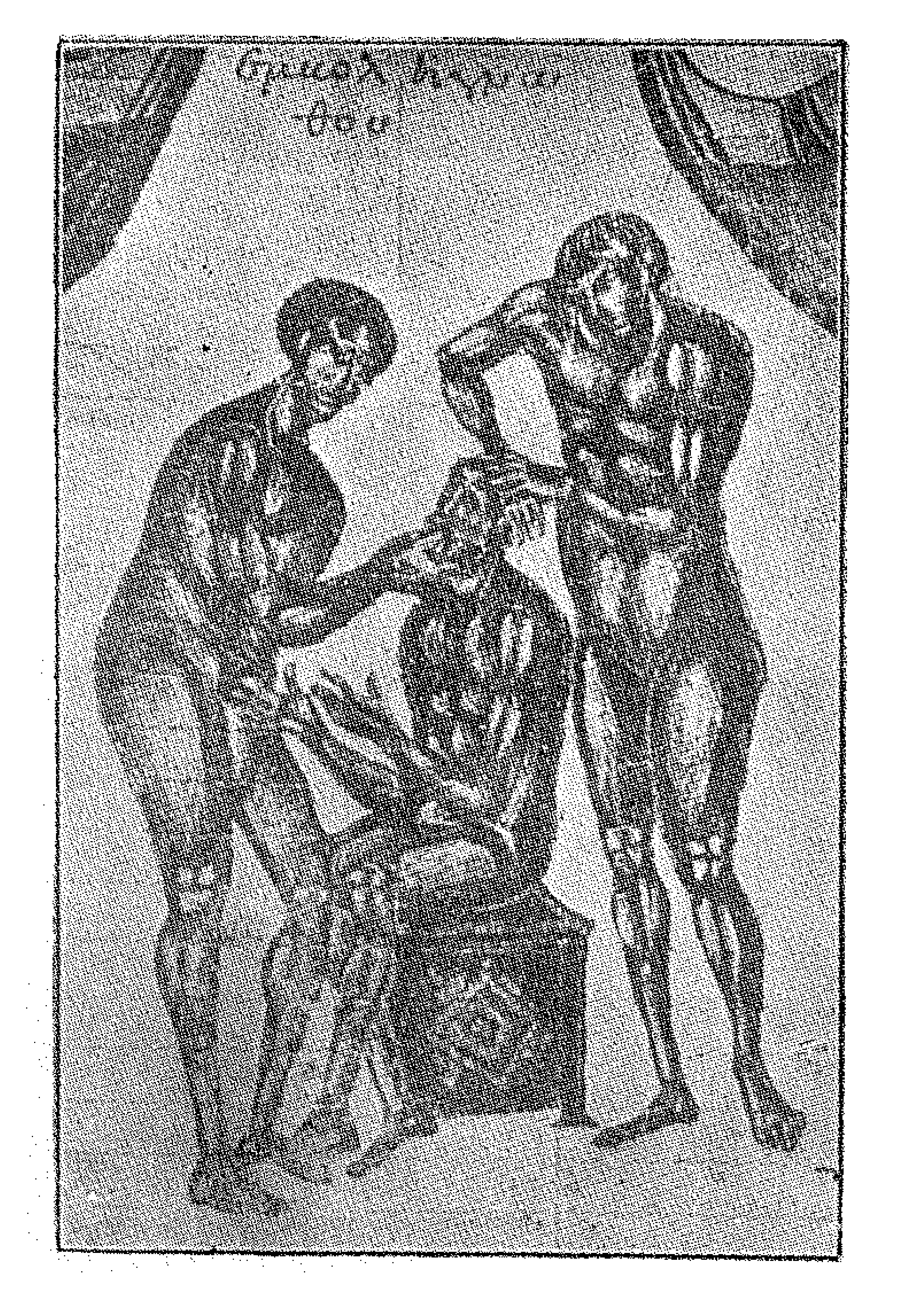
هذه الأحوال يمكن مضاعفتها الى غير حد من غير فائدة كبرى نفيدها ما نحن بصدده اذ ليس فى هـذه الأمور نمو ولا تطوّر ولا تاريخ ومثلها فى ذلك من غير شـك جزء عظيم جدا من طرق التطبيب عند اليونان وكذلك جزء صغير من الطب الحديث ولكنا هنا لسنا بصدد تبيان هذا ولذا فلن نلتفت اليه لكن لا بد من كلمة تحذير نقولهـا : عبادة الهيكل هـذه قد قورنت بالتحليل النفسى الحديث وهو طريقة قد استعملت أحيانا على غير وجهها كغـيرها من الطرق ولكن فرق ما بينها و بين نظام الهيكل انهـا فى روحها عملية علمية محضة بهـا يكشف للمريض عن الأسس الأصلية لتوهماته فتبدو له واضحة .

على أن هنالـك ناحية أخرى للهيا كل الاسقر بية انهـا قد نمت تدريجا على النحو الذى نمت عليه مصطافاتنا ومصحاتنا وا كتسبت كثيرا من الصفات ـــ حسنها وقبيحها ـــ التى نعرفها فى بعض أماكن المياه المعدنية فى القارة . فمن قبيح ذلك أنها صارت مجامع للقيل والقال بل صارت شيئا لا يكاد يفضل المواخير الا قليلا كما قد يؤخذ من (mimes) لهورنداس . ومن حسن ذلك أنها كانت فيما يحيط بهـا من جمـال طبيعى مونق ملاجئ هادئة للمريض والمجهـد والناقه يستطيع كل فيها أن يتمتع بمـا هنالـك فى الهواء النقى والمنظر الأنيق والمعيشة المنظمة من منفعة وفائدة . كذلك من المـرجح أن الهواء الطلق وطريقة العيش أفادت كثيرين من حالات السل البدئ .

لنرجع بالقول الآن الى المجموعة الايبقراطية . لن تجد الرسائل الجراحية الصرفة فيها أقل تميزا من رسائل الطب التطبيقى . فقد قال جراح قدير فرانسيس ادم (١٧٩٦ — ١٨٦١) فى منتصف القرن التاسع عشر وكان عالى الكعب فى الأدب اليونانى أن ليس



(شكل ٣)
جبر الكتف المخلوعة



(شكل ٤)
جبر الفك المخلوع

فيمن كتب بانتظام عن الجراحة الى عصره من وصف بعض الخلوع — خصوصا خلوع مفصل الورك — فبلغ من الاجادة والاحاطة مبلغ الوصف الموجود فى المجموعة الايبقراطية .

ومن المحقق أن بعض أنواع اصابات الورك كما وصفتها المجموعة الايبقراطية لم تعرف من غير طريق المجموعة الا معرفة كبيرة النقص حتى وصفها سير استلى كوبر (١٧٦٨ — ١٨٤١) الذى كان نفسه كأنما هو من الايبقراطيين [١] . ومن المرجح أن حكم أدمس كان حكما عادلا وان كانت جراحة الخلوع قد تخطت منذ أيامه بمعونة أشعة س على الأخص ، موقفها الذى كانت عليه عند الايبقراطيين الى موقف جلى وراءه . ومن الجدير بالاعجاب كذلك وصف الايبقراطيين لخلع مفاصل الكتف والفك . اذا حدث خلع فى الورك أو فى الكتف أو فى الفك وما شابهه وحدث معه تشويه محسوس . هذا التشويه قد وصف الكاتب الايبقراطى طبيعته ومعناه وصفا يسترعى النظر بدقته . كما وصف أيضا النقص الناتج عنه . أما قواعد العلاج عندهم فى هذه الأحوال بل وتفاصيله فانها تكاد تكون هى بنفسها التى عندنا إلا أننا نستعمل مخدرا . والعمليات لا تصلح لسوء الحظ أن تذكر هنا نقلا ووصفا مفصلا . ولكنها ذات مغزى خاص ، إذ قد وصل الينا صورة واضحة منها . ففى المكتبة اللورنتية فى فلورنس مخطوط فى الجراحة كتب فى القرن اليونانى التاسع يحتوى على أشكال لجراحين يجبرون تلك الخلوع . وهناك ما يحمل على الظن أن هذه الأشكال المصغرة منقولة عن

(١) انظر أستلى باستون كوپر (مؤلفه على الخلوع وكسر المفاصل) المطبوع بلندن سنة ١٨٢٢ (وملاحظات على كسور الرقبة والورك الخ) بلندن سنة ١٨٢٣

أشكال أعدت أول مرة فى عصور ما قبل المسيحية بقرون وفى هذه يمكننا أن نرى نفس عمليات جبر تلك الكسور كما كان يعملها جراح آخذ بالتقاليد الايبقراطية بالذات (انظر شكلى ٣ و ٤) .

وأغلب ما كتب فى الجراحة فى المجموعة يوافق هذا كله حتى لتكاد تروعنا الرنة الحديثة تنبعث من الاجراءات اذا ما تصفحنا على عجل كراسة المذكرات . . . "فى الجراحة" أو الرسالة الأعقد منها "فى التطبيب" ففيهما نقرأ اذا شئنا ارشادات مفصلة عن



صـــورة

(شكل ٥) عيادة طبية يونانية فى (حوالى ٤٨٠ — ٤٧٠ قبل الميلاد) من نقش على خزف يجلس فى الوسط طبيب ممسك مشرطا يفصد مريضا من الوريد الأوسط عند ثنية المرفق الأيمن فى طشت كبير وقد علق فوق الطبيب وخلفه ثلاثة محاجم والى اليمين يجلس مريض آخر منتظرا دوره وعضده الأيسر مربوط فى منطقة ذات الرأسين والشخص خلفه يشم زهرة ربما أراد بشمها الوقاية من العــدوى وقد وقف خلف الطبيب رجل متوكئ على هراوة . مجروح فى ساقه الأيسر المربوطة وبجانبه شكل قزم رأسه غير متناسب معه كبرا وبجسمه عاهات هى مثال المرض التكوينى المعروف الآن بوقوف نمو الغضاريف أو (Achondroplana) ويلاحظ زيادة على هذه العاهات أن جسمه كثير الشعر وأنه أفطس الأنف يحمل فوق ظهره أرنبا بريا يكاد يبلغه طولا . ويتحدث الى القزم رجل متكئ على هراوة طويلة على صدره بقية من رباط .

(انظر كتاب بوتير " عيادة طبية يونانية فى القرن الخامس ، الخزف الأثرى من مجموعة يذبيل معهد بوچين تماثيل وذكريات .... " (بعض تفسيراتنا يختلف عن تفسيرات مسيو بوتير) .

غرفة العمليات . وعن نقطة أخرى مثل حسن استعمال الضوء من صناعى وطبيعى وتنظيف الأيدى تنظيفا مستقصى وحفظ العدد واستعمالها مع الاحتياطات الخاصة اللازمة لها إن كانت من حديد . ثم الأدب الواجب مراعاته أثناء العملية والطريقة العامة للربط والوضع الذى يكون عليه المريض والجبائر والحاجة الى حسن الهيئة والى الترتيب والنظافة .



(شكل ٦) قدح يونانى من متحف برلين (تاريخه ٤٩٠ قبل الميلاد) منقوش عليه أى "صنعنى سوسياس" ويمثل اكيليس يربط لباتروكليس وحول الهامش مكتوب اسما البطلين .
الناقش يوفرونيوس . والنقش هو آية أعمال ذلك الفنان العظيم . عضد باتروكليس الأيسر به اصابة واكيليس يربطه برباط ذى طاقتين (لفتين) وهو يحاول أن ينزل به ليمده فوق المرفق . أما تصوير الأيدى وهو فرع نبغ فيه يوفرونيوس فانه ممتاز بدقته . لم يكن اكيليس جراحا مدربا ويلاحظ من موضع ذيلى الرباط أنه سيجد بعض صعوبة عند ما يريد فى النهاية أن يعقده .

هذه الارشادات قد توسعت فى كثير منها المؤلفات الجراحية الأخرى فى المجموعة، ففيها تجد على الأخص تعليمات وافية عن الربط وعن تشخيص الكسور والخلوع وعلاجها وقد مثلت هذه الجراحة التى تصفها تلك المؤلفات تمثيلا مقبولا فى نقش على آنيـة أتينية الأصل تاريخها (حوالى ٤٨٠ — ٤٧٠ قبل الميلاد) وإذا تكون سابقة لابيقراط نفسه (انظر شكل ٥) وعلى أوانـى خزفية يوجد أيضا تمثيلات جميلة عدة لنفس عمليات الربط (شـكل ٦) . من بين الاجراءات الجراحية التى نجد وصفا لها فى الكتابات الايبقراطية فتح الصدر من أجل الحالة المعروفة بالأمبيما (تجمع المدّة فى البلورا الذى كثيرا ما يعقب النيومونيا أو ذات الرئة) وتربنة (أى ثقب) الجمجمة فى أحوال كسرها . عمليتان أساسيتان فى الجراحة الحديثة . لقد تقدّم فن الجراحة تقدّما عظيما فى أزماننا بحق ومع ذلك فمن الممكن تحضير كتاب مما ورد عن الجراحة فى هذه المجموعة وحدها فيه كثير لا يزال نافعا الى اليوم .

فاذا ما مررنا الى المؤلفات فى الطب بمعناه الخاص مررنا الى منطقة أكثر صعابا بل ولعلها أكثر خلابا ينقطع فيها البحث عن العلل البسيطة المعروف أصلها و يتصل بآثار المرض والفساد الذى لم يكن الكتاب الايبقراطيون يعرفون عن خصائصهما بطبيعة الحال إلا النذر القليل . ولقد صان أحاسن هؤلاء الأطباء أنفسهم صيانة لا هوادة فيها عن كل محاولة يقصد فيها الى تعليل المرض بأسباب قريبـة تفترض فتصرف جهود القـارئ الى وجهـة لا نفع لهـا فى الطب — الى التخرص المبهم الذى كان الرذيلة العقلية الشائعة بين اليونان . وكان يمنعهم أن يستخلصوا إن استطاعوا مستنبطات عامة من أحوال شوهدت بالفعـل . لقد صار كثير من أفكارهم

كلمات تردّد فى البيوت ميراثا ورثنا أكثره بالذات عن أولئك الأطباء الأقدمين . لكن علينا أن نذكر أن الأفكار التى جرت منا هكذا مجرى الأمثال كانت فيهم نتيجة اختبار طويل مسطور وأنها ليست كشىء مما نلاقى فى طب الأمم القديمة الأخرى .

هذه النتائج لعلك تجدها فى أحسن صورها فى الكتاب العجيب كتاب الكلم الجوامع ومنه نستبيح أن نورد هنا فقرات قليلة .

"العمر قصير والفن طويل، الفرصة راكضة، التجربة خطرة والحكم عسير ، وعلينا مع ذلك أن نستعد لا لعمل واجبنا بأنفسنا فقط ولكن على كل من المريض والخادم والظروف المحيطة أن يعين" [1] فى هذه العبارة المأثورة المفردة التى اشتدّ ايجازها فى الأصل حتى كادت تستعصى على المترجم قد ترك من سبق الى فصل الطب من الفلسفة كل ميل للحدس والتخرص جانبا وهو بمحضر من المريض . ووقف جهده كله على الحالة التى بين يديه متخذا تلك الوقفة الخاصة التى هى فى آن واحد شخصية شديدة وغير شخصية والتى صارت منذ ذاك الحين شارة الطبيب وصيرت الطب علما كما صيرته فنا .

"للأمراض الشديدة طرق للمداواة شديدة" [2] .

"الصوم أسهل ما يكون على المعمرين ثم على البالغين ثم على الصغار وأقلهم تحملا له الأطفال خصوصا أكثرهم نشاطا وحركة".

"أكثر الأجسام حرارة غريزية النامى منها" .

---

(١) الأسطر الأولى هى منشأ الأسطر المشهورة فى فاوست لجوت .

(٢) شدّة العلاج أريد به فى الأصل الاحتماء الشديد من الأكل ... ... لكن معنى الكلمة قد فهم دائما على أنه أعم .

"أكثر الحرارة الغريزية هى فى الأجسام النامية لذلك هى الى الغذاء أحوج فان لم ينالوه نحلوا . والمعمرون قليلة حرارتهم ولذا فقليل من الوقود يكفيهم اذ كثيره يطفئها . كذلك الحميات لا تبلغ من الحدة فيهم ما تبلغه فى غيرهم لأن جسومهم باردة .

" النوم المتكاف المستعصى علامة الهلكة فى المرض لكن اذا تنفس فلا هلكة فيه" .

"النوم اذا انتهت به الغيبوبة علامة حسنة" .

"اذا جاد أكل الناقه ولم يزدرد سمنا كان ذلك علامة سيئة" .

"لأن يكون الطعام والشراب أقل جودة وأحسن مذاقا خير من أن يكون أكثر جودة وأقل مذاقا" .

"الكبار فى الجملة أقل شكاة من الصغار . لكن تلك العلل المزمنة التى تنزل بهم قلما تفارقهم" .

لدينا هنا طائفة من المشاهدات قد سار بعضها حقا على ألسنة الناس . بل وليس من الصعب تفهم كيف خرجت تلك الأمثال من حوز الخاصة الى حوز العامة . لقد ترجم هذا الكتاب الفخم كتاب الكلم الجوامع الى اللاتينية فصار ميسورا للغرب من عهد بعيد قبل القرن السادس المسيحى على الراجح غير متأخر عنه على التحقيق . وقد بقيت نسخ من الترجمة اللاتينية تاريخها القرنان التاسع والعاشر فى الأماكن التى ترجمت بالفعل فيها . فى مونت كاسنو فى جنوب ايطاليا وفى اينزيلدن فى سويسرا . ولما جاءت سـنة ٩٩١ كان كتاب الكلم الجوامع مشهورا يدرس عن تمعن فى مدرسة الكاتدرائية فى شارتز . ومن فرنسا بلغت الكلم الجوامع انكلترا . وهى مذكورة فى وثائق تاريخها القرنان العاشر والحادى عشر . ولم يأت هذا

التاريخ حتى كان الكتاب قد ترجم الى اليونانية . ومن بعدها الى العربية والعبرية فلم تأت القرون الوسطى الحقة الا والكتاب معروف شرقا وغربا بالعامى من الألسن و بالفصيح . وعن اللغيات الشرقيــة أخذت تراجم أخرى عديدة الى اللاتينية . وقد عاش على رغم الحوادث عدد ضخم من مخطوطات الكتاب فى جميع اللغيات الغربية تقريبا وهى تدل فى الجملة على أن متن الكتاب قد حفظ من العبث الى حد يحمل على العجب . وفى أواســط القرن الثالث عشر أخذ بعض من أشهر تلك الكلم الجوامع فأدمج فى قصيدة لاتينية ذاعت عندئذ بين الناس نشرتها مدرســة الطب فى سالرنو و إن نسبت كذبا الى تاريخ أسبق من ذلك . وقد ترجمت القصيدة السالرنية الى لغية عامية أوروبية فكانت بذلك مما جعل ايبقراط يتبوأ مكانا فى كل بيت . لكن ما كل الكلمــات الجــوامع يمكن أن يندمج فى طب العوام . انمــا الذى يمكن أن يقع له ذلك منها هو ما اتصل بالأحوال التى تتكرر كثيرا .

كذلك يحتوى الكتاب على عدد من الملاحظات عن أحوال نادرة قلما يلحظها إلا رجال الطب . مثل ذلك : الملاحظــات الفطينة الآتية :

” الجرح الذى تتبعه رعدة مهلك “ .

” المصابون بالكزاز ” التتانوس “ يموتون فى أربعة أيام فان لم يموتوا فيها تعافوا “ .

” التشنج والفواق اذا وقع أحدهما بعــد ادماء كثير كان ردىء العاقبة “ .

”اذا لم يظهر بعد الجروح البليغة ورم كان الأمر شديد الخطر“ .

هذه الجمل الأربع خاصة كلها بالجروح . الأوليان منها تشيران الى مرض الكزاز "التتانوس" الذى كثيرا ما يعقب الجروح الملوثة بالتراب فى الأماكن الحـارة الرطبة . ومن خصائص هذا المرض سلسلة انقباضات عضلية مؤلمة يمكن أن تصير فى الشديد الخطر منه رعدةمتصلة هى المشار اليها فى الجملة الأولى . وفى التتانوس كلما تأخرت وطأته عن زمن الانجراح كلمـا كانت فرصة الشفاء أكثر . وقد وضح هذا فى الجملة الثانية . والجملتان الثالثة والرابعة توردان أعراضا مشئومة تعقب الجرح الطاغى يعرفها ويحذرها الآن كل جراح . وقد وجد بالطبع فى الحرب الماضية أمثلة لا تعد تؤيد صدق تلك الكلمات فى حالة الجراح المتسعة لا سيما الجروح المتهشم معها أحد الأطراف .

" السل أكثر ما يكون يكونـــ بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين " .

" الاسهال الشديد اذا أعقب السل يميت " .

إن الفترة التى تقول الكلم الجوامع ان هـذه العلة تقع أكثر ما تكون فيهـا تؤكدها المشاهدة الحديثة والكلمة الثانية صحيحة كذلك فالاسهال المستمر كثيرا جدا ما يسبق القاضية فى الســل المزمن وقد دل التشريح بعـد الموت على أن تأثر الأحشاء بالمرض تأثرا مضاعفا أمر كثير الوقوع جدا فى هذا المرض . وليس المثل الآتى بأقل استرعاء ممـا سبق :

" من الخطر فى اليرقان أن تتليف الكبد " .

اليرقان عارض عادى تافه يتبع أنواعا مختلفـة من الأمراض أو يصحبها وهو فى ذاته و بمفرده لا أهمية له و يذهب من نفسه دائمـا

تقريبا . إلا أن هناك طائفة صغيرة من الأمراط المرضية لا يقع هذا فيها . أكثرها ذيوعا وأهمها تليف الكبد وسرطانها وهما علتان فاتكتان يحس فيهما تضخم ذلك العضو وتصلبه فاذا ما أحس إذا فى اليرقان بذلك كان الأمر كما تقول الكلمة الجامعة فى نهاية الخطورة . وقد وصل الينا من الأزمان اليونانية تمثيلات لأحوال كان فيها ذلك . فعلى تمثال نصب فى أثينا تذكيرا بطبيب مات فى القرن الثانى المسيحى يمكننا أن نرى عملية الامتحان التطبيقى (شكل ٧) فيه يمس الطبيب كبد شخص فيه قصر شديد تنبىء بطنه المنتفخة وأطرافه المنهزلة وطاعته الناصبة بحال يشبه تلك الموصوفة فى الكلمة الجامعة بل من الممكن أن نتبين فى التمثال التمدد الذى سببه تمدد الكبد .

" يجب أن نلتفت الى مظهر الأعين فى النوم منظورا اليها من أسفل فانه اذا بدا جزء من البياض من بين الجفنين المقتربين ولم يكن ذلك ناشئا عن اسهال شديد من مرض أو مسهل كان ذلك علامة رديئة جدا ومن علامات الموت" إننا فى هذه الكلمة وهى آخر ما سنورد نرى الطبيب الايبقراطى وهو يقوم فعلا بمشاهداته . إن مقلة العين تكون فى النوم منقلبة الى أعلا فلا يرى من العين عندئذ اذا فتحت وامتحنت إلا البياض . والجفون فى الأدوار الأخيرة من الأمراض المزمنة المضنية تميل الى ألا تنطبق . ومن بلغ به المرض ذلك مات غالبا وعيناه مفتوحتان غير باد منهما أحيانا إلا البياض كما هو معروف — لكن الطبيب الايبقراطى لم يكن يقنعه أن يكون مشاهدا فحسب إنه كان أيضا يستخرج العلامات بطرائق فعلية . إن أكثر عمل طالب الطب فى العصور الحديثة بل ولعل رأس عمله هو تعرف هذه العلامات المسماة (بعلامات

المرض الطبيعية) التى أعيد بناء تقاليدها بالتدريج فى القرون الثلاثة الأخيرة . ومن أهم الطرائق التى يتعلم الطالب كيف يمهر فيها التسمع . لقد زاد شيوع هذه العملية النافعة منذ اخترع (لانك) المسمعة فى سنة ١٨١٩ مستعينا باشارات قيمة أخذها من الكتابات الايبقراطية وقد ذكر التسمع الأطباء الايبقراطيون . ووصفوه مرارا واتخذوا فيه الطريقة المباشرة طريقة الاصغاء لا طريقة الواسطة التى ابتكرها (لانك) . على أن هناك أحوالا لا يزال الطبيب الحديث يرى فيها أن خير الطريقتين هى أقدمهما . الطريقة الايبقراطية التى لا آلة فيها . انا نقرأ فى المؤلف الايبقراطى "فى الأمراض" عن حالة فيها سائل فى البلورا أن "ضع المريض على مقعد لا يتحرك وليمسكه مساعد من أكتافه واهززه مستمعا بأذنك لصدره حتى تعرف فى أى الجنبين العلامة" . هذه العلامة لا يزال الأطباء يأخذون بها وتعرف بينهم بالخضخضة الابقراطية . وفى قطعة أخرى من نفس المؤلف موصوفة أعراض التهاب البلورا وأنه يمكن سماع قعقعة كقعقعة الجلد ، وهذه هى الحفيف البلورى المشهور الذى تعوّد الطبيب أن يتلمسه فى أمثال هذه الأحوال والذى هو أشبه ما يكون بقعقعة الجلد .

ان مثل هذه المقتطفات تشرف بنا على طريقة الايبقراطيين العامة ووجهتهم ، ومن المستحيل أن نورد هنا فى مثل هذا الاستعراض أكثر من مجرد لمحة من فن كفن الطب كان وراءه حتى فى تلك الأيام تقاليد طويلة معقولة . أما العلاج نفسه فأعقد كثيرا من أن نوجز وصفه هنا وهذا يصدق بالأخص على ما كانوا يعلمون



(شـــكل ٧)

تمثال جنازى اثينى

القرن الثانى بعد الميلاد

كتب عليه ما يأتى : المتحف البريطانى "چاسون واسمه كذلك دكموس الأكرنيانى طبيب" و يلى ذلك نسبته . والى جانب المريض كأس هواء .

قديما عن الأوبئة التى لا غنى لنا عن أن ننظر اليها نظرة على عجل. لم يكن الأطباء الايبقراطيون ولا العصور القديمة يدرون بعد ما طبيعة العدوى [1]. وما كانوا يعرفون وجودها الا لماما من بعيد.

كان المرض الحاد عندهم شيئا يحيق بالمريض من الخارج . أما كيف وصل اليه من الخارج وما هو ذلك الذى وصل اليه فانهم باقرارهم لم يكونوا بعد يعرفونه . وفى حيرتهم هذه ولوا وجوههم شطر المشاهدة المتتابعة وأداهم الاختبار المتكرر الى ملاحظة أن الأمراض الوبيئة فى دنياهم موزعة توزيعا خاصا بين الفصول وبين البقاع . فلم يكن قطر مثل آخر تماما ولا فصل مثل آخر بل ولا سنة مثل أخرى . وبسلسلة من مشاهدات متساندة عن البقاع والفصول والسنين كيف اختلفت فيما بينها أفلحوا فى وضع أساس دراسة معقولة لعلم الأوبئة نشأت عنه فكرة وجود بنية وبائية للسنين المختلفة. فكرة شد ما كانت منبهة مخصبة لدى كبار الأطباء التطبيقيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وما هى لدى علماء الأوبئة الحديثين بغير ذات فوائد. لقد أسس . . آباء علم الأوبئة الحديثون عملهم عدا على ايبقراط . . قبل أن نغادر الطبيب الايبقراطى يجب أن نقول كلمة عن وسائل المداواة عنده .

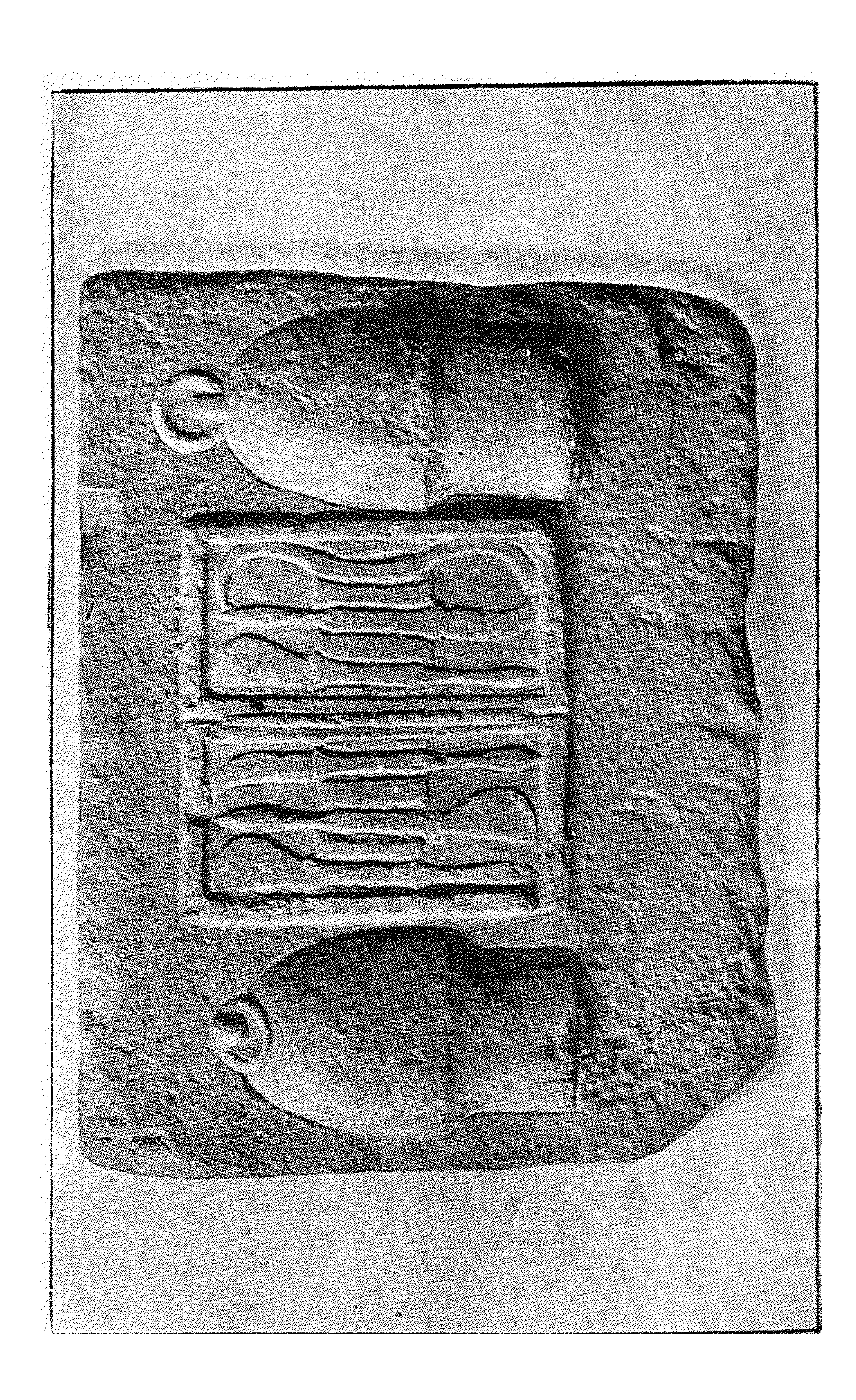
---

(١) كان الأقدمون يكادون لا يعلمون شيئا مطبقا عن العدوى مطبقة على الأمراض بنوعيها . لقد كان الأقدمون كالرومان واليونان يؤمنون بانتقال الخصائص من شىء لآخر فالطهارة والنجاسة وحسن الحظ وسوء الحظ كانت فى نظرهم تنتقل بالعدوى وكانت فى الأمراض تدوى بهذا المعنى . أما العدوى بالمعنى الحديث فليس من كبير دليل على الايمان بها عندهم على أن بعض أمراض قليلة أشير اليها فى قطع معينة على أنها معدية كالرمد والجرب والسل — انظر كتاب " عن اختلاف الحميات صحفة ٢٧٩ والاشارة الى العدوى فى الطب نيويورك سنة ١٩١٧ العصور القديمة مبينة تفصيلا فيما كتبه لك ؛ وسنجر عن المنزلة العلمية لجرالمو فى جريدة التاريخ .

إن بيت سلاحه يمكن أن يقال عنه انه كان يشبه ذلك الذى كان للطبيب الحديث قبـل جيلين . حقا اننـا فى ذينك الجيلين أضفنا أدوية الى قائمة الأدوية الفعالة عندنا لكننا عن تراض عام رجعنا فيهما من ناحية أخرى الى التبسط الايبقراطى فى العلاج .

كان قطب عوامل العلاج بعد الراحة والهدوء هو الغذاء وكان له علم ينظر الى السن (الكبار فى السن أقل حاجة الى التغذية من الصغار) والى الفصل فى الشتاء التغـذية الكثيرة أصح وفى الصيف الطعام الأخف أصح والى حالة الجسم . النحاف من الناس ينبغى أن يكون طعامهم قليلا ولكن هذا القليل ينبغى أن يكون دسما . أما السمان من الناس فينبغى أن يكون طعامهم كثيرا ولكنه ينبغى أن يكون دهنه قليلا ، كذلك لم يهمل النظر فى قابلية الأطعمة المختلفة للهضم (اللحم الأبيض أسهل هضما من الأحمر) ولا فى تحضيرها وفى الأشربة كان يستحب الماء وماء الشعير وماء الجبن . وكانت قواعد التغذية عند الايبقراطيين خصوصا فى الحمى هى فى صميمها نفس قواعد اليوم . ومن الممكن القول أن الميل الطبى العام فى الجيل المـاضى كان أقرب من هذه الوجهة الايبقراطية "كلمـا غذينا الأجسام غير الصحيحة أضررنا بها" . يجب على المرضى الذين يأخذهم من الحمى أشدها منذ البدء أن يفرضوا فى الحال على أنفسهم نظاما دقيقا فى الغذاء "الحمية التامة غالبا ما تنفع ان كان المريض عنده من قوة ما يتحملها . على أنه ينبغى أن تمتحن قوة المريض لنرى ما اذا كان فى حال يصلح معه الاستمرار فى الأخذ بهذه الحمية فى الطعام حتى يبلغ البحران" .

يجب فى تطبيق هذه القواعد أن نكون دائمـا على ذكر من قوة المريض ومن مجرى كل علة من حدتها ومن نظام المعيشة وسمتها العادى فى كل علة كذلك .



وكان لدى الطبيب الايپقراطى بجانب الطعام متنوع كبير من الأدوية الأخر من بينها الحمامات والتدليك والألعاب الرياضية والأخف من ضروبها . ومن المرجح أنه قد أسرف بعض الاسراف فى الأخذ بالحجامة والفصد . ولدينا تمثيلات متعددة للآلات التى كانت تتخذ لهذه العمليات (شكل ٨) وهو لم يكن يستعمل العقاقير كثيرا وقليلا مايذكرها ، اللهم الا فى مؤلفاته فى معالجة النساء التى يرجح أن تكون من أصل سنيدى . والتى منها استمد أكثر المواد الثلاثمائة المكونة لمعجم الصيدلة (الفرماكوبيا) الايپقراطى . فقائمة العقاقير كانت لديه قصيرة ولكن عددا من العقاقير التى كان يعرف لا يزال بين أيدينا نستعمله .

ان عمل هؤلاء الرجال يمكن أن يلخص بقولنا انهم بلغوا بعلم المرض منشئه ومجراه أقصى ما يمكن أن يبلغه من كان خلوا من التشريح ومن علم وظائف الأعضاء والأمراض العمليين ومن كل معونة مصدرها الآلات . وهذا فعلوه بالاستقراء العملى المحض فالجراحة عندهم وان لم تبن على التشريح الا من بعيد كانت مؤسسة على اختبارات لهم مدونة أدق تدوين وقد صانوا أنفسهم فى علم فوائد الأدوية عن أن تخدعهم آمال باطلة أو تزيغهم تقاليد زائفة ومع ذلك فقد ظلوا الى القرن التاسع عشر غير مفضولين فى كثير من أبواب التشخيص والانذار والجراحة وفوائد الأدوية . والى بعض طرقهم رجع الناس فى القرن العشرين . فالطرق الايپقراطية كانت هى الأساس لجميع أبواب التقدم الحديث لأنها بقيت ماثلة فى جميع العصور ، تقاليد كانت يزداد وضوحها حينا وحينا يقل واتخذت أوضح أشكالها فى القرن السادس وبعده .

لكن تاريخ الطب اليونانى لم يقف عند المجموعة الايبقراطية بل يمكن أن يقال انه فى كثير من الأمور قد بدأ عندها ، غير أننا لا نلمح فيما جاء بعدها شيئا له نفس المعيار السامى الذى نعرفه فيها لا فى الخلق ولا فى الصناعة . كذلك تاريخ الطب اليونانى منذ العهد السكندرى أكثره تاريخ لمذاهب مختلفة فى التفكير الطبى لم يبصر كل منها إلا جزءا من مجرى العرفان الطبى وطبيعته . وحل مشكل مجرى تلك الفرق وتعاليمها ظل طويلا الشغل الشاغل للذين احترفوا تاريخ الطب لكن القارئ العادى لن يجد ما ينشرح له فى فروق ما بين المتعنتين والمتبسطين والمتنظمين [1] الذين ماتت آراؤهم كما ماتوا . ولم يكن العقل اليونانى فى هذا العصر السكندرى المتأخر أقل نشاطا منه قبله انما تجد لما عمل مذاقا غير المذاق . ترى تدينا عاما فى روح ما أخرج فى الطب وفى الأدب . وهيهات أن تحس ثانيا تلك الحضرة التى كان يسمو بك صلاحها الرزين الجميل والتى كنت تستشعر أنفاسها تتخلل المجموعة الايبقراطية وتكسبها طيبا خاصا .

سنمر بسرعة كبرى على المجرى العام لما تأخر من الطب اليونانى . قامت مدرسة طبية واضحة فى الاسكندرية وربما قامت مدارس أخر فى برجمون وغيرها . أما أثينا فانها صارت بعد موت ارسطو وتلاميذه فى الذيل لا يؤبه بها مطلقا فيما يختص بالطب . بدأ التشريح يدرس فى الاسكندرية حيث جمعت مكتبة طبية كبرى وأخذ يمارس المهنة فيها رجلان ارستراتوس وهروفيلوس كان لمستكشفاتهما شأن عظيم فى تاريخ التشريح . واذا صار التشريح أساسا أمكن أن تصير التربية الطبية أكثر وأبلغ نظاما . ومن

(١) Dogmatists, Impirics, & Methcdists.

أكبر البلايا أن تفقد تآليف هذين الرجلين المتفوقين . لقد سلمت نبذ من هروفيلوس محفوظة فى مؤلفات جالينوس (١٣٠ — ٢٠١ قبل الميلاد) وسيلس أوريليانوس (القرن الخامس) وآخرين . هذه النبذ كانت موضوع محاولة من أول المحاولات الحديثة وأشقها وأنجحها فى اعادة تركيب مؤلف مفقود لمؤلف قديم ومستقانا الرئيس عن ارستراتوس رسالتان مكبرتان ناقض بهما جالينوس وحديثا تيسر للناس شىء جديد عن كلا الرجلين فى بردية منون . لقد أمكن على الأخص اعادة تركيب رسالة فى التشريح لهروفيلوس على وجه فيه رجحان كبير . بدأ رسالته بارشادات عامة عن عملية التشريح وأتبعها بأن وصف بالتفصيل المجموعات المختلفة عصبية ووعائية وغددية وهضمية وتناسلية وعظمية وكان فيها قسم عن الكبد خاصة لم يسلم منه الا جزء صغير ولعل أوفى أجزائه خبرا لدينا ما كتبه عن الجهاز العصبى ومنه يتضح أنه تقدم وراء الموقف الايبقراطى وأمعن ففى صندوق الدماغ رأى الأغشية التى تغطى الدماغ وفرق بين المخ والمخيخ .

وقد عرف شيئا عن بطينات الدماغ وعن أعصاب الرأس والنخاع الشوكى وأعصاب القلب ولفافات العين واستبان قنوات دم الجمجمة بل قد أبصر ما هو أدق بنية من ذلك كالانخفاض الصغير فى البطين الرابع فى الدماغ الذى يعرفه المشرحون الحديثون بالوعاء الكتابى فهو لا زال موسوما بالاسم الذى سماه به اذ قد تراءى له كما أخبرنا جالينوس أنه يشبه الأقلام التى كان يكتب بها الاسكندريون فى ذلك العهد (١) . كذلك لا نزال نستعمل

(١) جالينوس ... ... فى التحضيرات التشريحية — ٩ — ٥ — (الجبلة الأخيرة) .

مصطلحه الاثنى عشرى . فكذا يؤكد جالينوس أن هروفيلوس سمى الجزء الأول من الأمعاء قبل أن تتلفف ثنايا الاثنى عشرى [١] هو جزء من الأمعاء شكله U يعقب المعدة مباشرة وهو لا يمكن أن يتلفف فوق ذلك لأنه مثبت وراء بجوة البطن وهذا يفسر وصف جالينوس له . وكان طوله حوالى اثنى عشر أصبعا فى ما شرح هروفيلوس من الحيوان .

لارستراتوس الأصغر قليلا من هروفيلوس فى السن والمعاصر السكندرى له شرف استكشافات تشريحية أخرى . وصف صوابا عمل لسان المزماز فى منع الطعام والشراب أن يدخلا القصبة الهوائية أثناء البلع وأبصر الأوعية اللبنية فى المساريقا وتوسع فى تتبع تشريح المخ وأضاف الى ما كان معروفا عن تشريح القلب ووصف صمامات ما بين الأذين والبطين ووصف انفلاقها وميز أعصاب الحركة من أعصاب الاحساس .

وقد وقف على ما يظهر وقفة تجربية لا شك فيها وهو أمر نادر جدا بين الأطباء الأقدمين . وقد كشف حديثا وصف تجربة أجراها قال :

" اذا أنت أخذت حيوانا . عصفورا مثلا . وحبسته حينا فى اناء من غير أن تطعمه ثم وزنته هو وفضلاته وجدت نقصا مذكورا فى وزنه [٢] " . التجربة بسيطة ولكن قد مر حوالى عشرة وتسع مئين من السنين قبل أن خطر لأستاذ حديث سنكتاريو سنتاريو (١٥٦١ — ١٦٣٦) أن يعيدها .

---

(١) جالينوس ... ... فى تشريح العروق والشرايين .

(٢) الشاهد مأخوذ من سطر ٤٤ من الفصل الثالث والثلاثين من ه . ديلز فى مجلد ٣ جزء ١ برلين ١٨٩٣

وكان للتقدمات التشريحية التى أوجدها السكندريون تأثير طبيعى على المقدرة الجراحية . والتحسن الناتج يمكن ادراكه من وصف العلاقات التشريحية مثلا فى بعض حالات خلع الورك للجراح السكندرى هجتر الذى عاش (حوالى ١٠٠ قبل الميلاد) فقد تساءل فى كتابه "عن الأسباب (أسباب العلل)" و"لماذا (بعض الجراحين) لا يبتغون طريقة أخرى لجبر خلع الورك ... ... هم يرون أنه اذا كانت مفاصل الفك والكتف والمرفق والركبة والأصبع الخ ممكنا اعادتها الى مواضعها ، وجب أن يمكن ذلك فى جميع الأجزاء ثم هم لا يستطيعون تعليل استحالة رد عظمة الفخذ الى مكانها ... كان الأولى لهم أن يعرفوا أن من رأس عظمة الفخذ تخرج عصبة لتدخل فى حق عظم الورك... ... وانه اذا ما انقطعت هذه العصبة مرة لم يمكن لعظمة الفخذ أن تستبق فى مكانها"[1] هذه القطعة تحتوى على أول وصف لما هو معروف لدى المشرحين الحديثين بـ(Ligamentum teres) حزمة ليفية قوية تصل رأس عظمة الفخذ بالحق المقدر لها فى عظمة الورك كالخيط الذى يربط الكاس والكرة فى لعبة الطفل .

هذه العصبة تنفصم فى بعض أحوال شديدة من خلع الورك .

بعد أن استقام أمر مدرسة الاسكندرية انتظم التعليم الطبي بسرعة لكنه كان يشتكى فى العصر القديم من أنه لم يكن هنالك شىء ما يشبه دبلوما تمنحها الحكومة . وكان لأى انسان أن يتطبب وأعقب ذلك أن كثر الدجالون والمتحذلقون والمتهوسون بين صفوف

(١) هذه هى القطعة الوحيدة التى سلمت من كتابات هجتر محفوظة فى مؤلف أبولونيوس القبطى ؟

المتطببين الذين كانوا فى الغالب من الأرقاء أو من المعتقين . على أن المدرسة السكندرية العظيمة عملت الكثير مما أقام للناس معيارا فنيا ما وكان أخص ما أعان على ذلك سنتها فى التدريب على التشريح .

ان ما كتب فى الطب فى فترة ما بين تأسيس المدرسة السكندرية وجالينوس لسنا بالأغنياء فيه فانه اذا استثنينا النبذات والتآليف الصغرى لم نجد فترة الأربع المئين هذه أو يزيد من السنين قد سلم لنا فيها الا أعمال خمسة مؤلفين هم سلسوس ودسكريدس وارتاوس الكپاروقى ومؤلفان من افيزيا اسمهما روفوس وسرانس .

اسلسيس الذى عاش فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد مؤلف واحد هو كتاب لاتينى مترجم عن اليونانية على الراجح وهو الجزء الطبى الذى سلم من دائرة معارف كاملة . وهو بالرغم من أصله الذى لا يرى منه خير كبير معجم جليل فى بابه فيه تقدّم كبير من نواح شتى وراء الموقف الذى انتهى اليه الايپقراطيون لهجته الخلقية نبيلة جدا كذلك وان خلت مما كان لايپقراط من جمال عال متجرد . تحسن التشريح كثيرا وتحسن معه أسلوب الجراحة . والكتاب يمثل على الراجح أحسن ما كان يعمل السكندريون والفرماكوبيا (معجم الصيدلة) أغزر مادة ولكن ما تصل بعد الى حد الثقل وخطة العلاج العامة معقولة رحيمة واللغة رقيقة واضحة . وقد وصف فيما وصف أسلوبهم فى معالجة الأسنان ذاكرا العلامات التى تدعو الى استخراج السن وطرق استخراجها وتثبيت الأسنان بالسلك وقد يكون ذكر مرآة للأسنان . وهناك وصف غاية فى الحسن لما قد يظن به أنه العملية الحديثة لازالة غدّتى اللسان ولا يزال سلسيس مذكورا فى الطب الحديث بالمساحة السلسية مرض من أمراض الجلد ليس بقليل الشيوع .

الواقع أن كتاب De re Medica هو من عيون أحاسن الكتب الطبية التى وصلت الينا من القدم وله تاريخ نسى فى القرون الوسطى واستخرجه المتأدب بالأدب القديم الكلاسيكى جارينو الفيرونى (١٣٧٤ — ١٤٦٠) وكشف صاحبه لامولا نسخة خيرا من نسخته فى ١٤٢٧ ووجدت أخرى فى ١٤٤٣ وجدها تومس بارنتكلى (١٣٩٧ — ١٤٥٥) الذى صار بعد البابا نيقولا الخامس ودرس بوليتيان متنها بعد ذلك (١٤٥٤ — ٩٤) وهو وإن كان من آخر ما كشف من متون الطب القديم العظيمة فقد كان من أول ما طبع (فلورنسا ١٤٧٨) ونفد له من الأول طبعات كثيرة جدا وكان ذا أثر عظيم فى احياء الطب .

بعد سلسيس جاء دسكريدس فى القرن الأول للميلاد كان جراحا حربيا يونانيا من أصل سيليشى وقد خدم نيرون وفيه ترى العقل اليونانى قد بدأ يعتريه الخور . عمله كبار الأهمية من جهة تاريخ النبات لكنه من جهة الطب المبنى على العقل يكاد لا يكون شيئا .

بدأ حيث كان ينبغى أن ينتهى . بدأ إما بقوائم العقاقير ذاكرا ما يقال انها تشفيه أو تخففه من الأعراض وإما بقوائم أعراض ذاكرا معها سلسلة من العقاقير قد سماها . أما المشاهدات والتدوينات التطبيقية فهو منها خلاء كما قد خلت هذه الفارماكوبيا المعقدة من روح ايبقراط .

بالقرن الثانى من العهد المسيحى ينتهى عهد الابتكار فى الطب اليونانى . أن لدينا مؤلفات أربعة من كبار كتاب هذا القرن . ثلاثة منهم ، روفس الافيسى ، سورانس الافيسى ، وأرتيس الكپادوقى ، لم يكن لهم أثر مذكور فى مجرى الطب فى العصور

اللاحقــة وان كانوا ذوى خطر لمن يريد أن يتصوّر حال الطب فى أيامهم . ترك لنا روفس ألافيسى وهو أصغر قليلا من دسكريدس فى السن ، أول مؤلف موضــوع فى التشريح البشرى وله بعض أهمية فى تاريخ مقــارنة التشريح وهو مذكور فى الطب بأنه أول من وصف الطــاعون الغــددى وفى الجراحة بوصفه طرق وقف النزيف و بمعرفته تشريح العين . قد ترجم له مؤلف فى النقرس ، الى اللاتينية فى القرن السادس لكنه بقى غير معروف حتى حديث العصور .

سورانس ألافيسى (حوالى ٩٦ — ١٥٠ ب٠م) كاتب ذكى فى علم الولادة ترك مؤلفا يمثل التشريح فى عهده تمثيلا حسنا وكان له تأثير دام قرونا عدة وقد وصــل الى عصرنا فى مخطوط يعاصر نفس الكتاب [١] ملخص لاتينى له عمله فى القرن السادس من يدعى مشيون وموضع استلفات النظر فيه أنه يضاد النظرية الايبقراطية القائلة بأن الجنين الذكر يتكوّن فى الشق الأيمن من الرحم والأنثى فى الشق الأيسر — قياس فاسد أخذ فى الأصل عن أبيدوكليس و بارمنيدس لكنه دام حتى القرن السابع عشر أدامته التراجم اللاتينية للرسائل . كان مؤلفه مزينا بأشكال سلم لنا بعضها فى مخطوط من القرن التاسع . سلم ولكن طبعــا فى تحريف من النساخ كبير وان لم يكن فى بعد عن الحقائق سحيق . وهو يعطينا فكرة من بعيد عن كيف كانت الرسوم التشريحية القــديمة ونســتطيع أن نعين خيالنا قليــلا فيكوّن فكرة عمــا كانت صورة تلك الأشكال وذلك بالاستعانة ببعض أشكال أخرى من القرون الوسطى تمثل مختلف

(١) Leyden Voss فى القرن السادس قطعة من ذلك المؤلف

المجاميع التشريحية هيئةوتوزيعا من عروق وشرايين وأعصاب وعظام وعضلات . مجاميع يمكن ردّها الى أصل سكندرى[1] على الأرجح .

كان أرتيس الكپادوقى على الراجح من معاصرى جالينوس (النصف الثانى للقرن الثانى . ب . م) وشهرته عالية كمؤلف تطبيق ولعلها أعلى مما يستحق وقد لفت الأنظار اليه على الأخص وصفه لذات الرئة والأمپيا أو التهاب البلورا الصديدى والبول السكرى وداء الفتيلة وهو يعالج بالبسيط من العلاج غير ناظر الى الصيدلة المركبة وارتأى كثيرا من الوسائل الآلية التى لا تصدر الا عن ذكاء ولم يكن أرتيس على ما يظهر كاتبا مستقلا ولكنه فى صميمه كان جامعا يعتمد كثيرا على اركجنيس وهو طبيب ممتاز معاصر لجوفنال قد ذهبت مؤلفاته الا نبذا صانها أرتيس وأتيوس عن طريق الجمع .

وكان ارتيس كثير القراء جدا بين اليونان فى جميع العصور لكنه لم يترجم الى اللاتينية ولم يعرفه الغرب إلا وسط القرن السادس عشر وفى ما كتب متعة للقارئ من حيث الاشتقاق اللغوى لأنه ما زال يستعمل اللهجة الأيونية .

بقى هناك شخص جالينوس الضخم الباسق . ان الكتلة الكبيرة التى سلمت لنا من مؤلفات هذا الرجل الذى كان الحاكم فى الطب حتى عصر النهضة وبعده من شأنها أن تطغى على المدوّنات الطبية اليونانية فتخرجها كلها عن المنظور . ان مؤلفات جالينوس وحده هى تقريبا نصف مجموع ما سلم من الكتابات الطبية اليونانية وتبلغ فى الطبعة الصحيحة اثنين وعشرين جزءا سميكا متراص الحروف وهى تشمل كل فرع من الطب والتشريح ووظائف الأعضاء

(١) كشف هذه الصور وأسنادها لأصحابها من عمل ك . شودوف وذكر المراجع التى رجع اليها فى مؤلف فى الموضوع يوجد فى كتاب "دراسة التشريح" فى عصر إحياء العلوم الأول فى كتاب ك . سنجر "دراسة فى تاريخ العلم وطريقته" الجزء الأول اكسفورد سنة ١٩١٧ .

وعلم الأمراض والنظريات الطبية وعلم فوائد الأدوية كما تشمل الطب التطبيقى والجراحة . أما الأسلوب فثرثار ثقيل وكثيرا جدا ما يغلب عليه الاكثار ثم هى مشبعة بالتليولوجيا[1] التى تمل أحيانا فتسرف وقد خالط كثير من الشروح التليولوجية ما ورد فى مؤلفاته التشريحية من الكلام عن أجزاء فى الجسم لم يستوف فى الغالب وصفها .

ومع ذلك فالى هذا العنصر منها يرجع الفضل فى صيانة أغلب أعمال جالينوس من الضياع لأن وجهته التليولوجية صادفت هوى دينيا من المسيحية الغربية ومن الاسلام الشرقى فمؤلفاته التى لا تطاق كأدب هى بيت ثمين يحوى كنوز الطب من معرفة وخبرة وعوائد وتقاليد وتاريخ .

ان الجسد الجالينى كالجسد الابيقراطى مؤداه التى بين أيدينا مختلفة المصادر الى حد ما الا أن لدينا فى حالة جالينوس معيارا حسنا لصحة النسب ذلك أنه قد ترك لنا قائمة بكتبه يمكن أن نراجع عليها تلك التى لدينا بالفعل . ليست الكتابات الجالينية بمباينة الابيقراطية فى وجهتها العامة لكنها خلاء من سمو النظر الذى كان لذلك الطبيب العالى الهمة الطاهر الروح . وقد حل محله فيها شخص متوقد مخلص مجادل يفيض نشاطا وجلدا . ليس بالفظ لكنه يحب العراك فهو شخص جرىء هجوم . يحب الحق لكن يحب الجدل مثله على السواء . أما قيمة كتاباته الفلسفية وقد سلم بعضها فليس هذا محل تناولها بالبحث لكن من الواضح أنه كثيرا ما يقنعه التفسير اللفظى البحت أما وهو فسيولوجى ذكى مجرب يجيد التجربة بالفطرة . مشرح تفوق ويريد المزيد . يعرف الهيكل البشرى العظمى معرفة حسنة والأجزاء الباطنة معرفة فيها من الدقة كل

(١) البحث عن العلة الأخيرة للأشياء .

ما يمكن اكتسابه بالعكوف على تشريح الحيوان عكوف الولهان به، أما وهو قد تهيأ بكل ما كان هناك من علم فى مدارس برجمون وأزمير والاسكندرية واستغنى بالحنكة التى أكسبه إياها عمله الواسع فى رومه فان جالينوس فى صميمه هو الرجل المقتدر . لقد كان عنده من اللياقة ما جعله يعترف اعترافا متجددا مستمرا بفضل الكتابات الابيقراطية عليه . هكذا كان الرجل الذى تكوّن آثاره والمجموعة الابيقراطية صميم ما خلفته اليونان للعالم الغربى من تراث طبى .

ان بعض مؤلفات جالينوس هى فقط قوائم عقاقير لا تفضل قوائم رسكريدس بشىء وقد نشأ عن الانحطاط العقلى الذى ساد عند تفكك الامبراطورية الرومانية ان اختيرت هذه المؤلفات دون غيرها ووزعت فى الغرب . كذلك كان مما راق الفكر الممسوخ فكر أواخر العالم الرومانى بعض تآليف فى التنجيم تافهة محرفة كانت متداولة باسم جالينوس وابيقراط .

لم يكن الكتاب اليونانيون فى الطب بعد جالينوس الا مقلدين له وملخصين، لكن كان بعضهم واسطة فى أن مؤلفاته وصلت الى الغرب فى عهد بكير من القرون الوسطى فمن الملخصين الذين نقلوا الى اللاتينيين فى البكور أرباسيوس (٣٢٥ — ٤٠٣) و بولص الأجينى (٦٢٥ — ٦٩٠) واسكندر الترالى (٥٢٥ — ٦٠٥) أما أحسن مؤلفات جالينوس وأكثرها علمية فان القرون الوسطى لم تعرف عنها ان عرفت الا القليل .

ثم صار جالينوس وابيقراط بعد أقرب قليلا الى المتناول لا بترجمة عن اليونانية ولكن بترجمة عن العربية نقلا عن ترجمة له سريانية وأول ما نقل بهذه الكيفية ترجمة من جوامع الكلم

لابقراط كانت مع ذلك موجودة كما رأينـا فى ثوب لاتينى هى والطعام فى الأمراض الحادة لابقراط و بعض تآليف لجالينوس فى ترجمة ممسوخة لاسحاق بوديس . نقل هذه الكتب عن العربية الى اللاتينية قسطنطين وهو جوّاب من افريقيا ترهبن فى جبل كسينو ومات هناك فى سنة ١٠٨٧ كان قسطنطين صانعا حقيرا ذا معرفة قليـلة بكل من العربية واللاتينية وكان أحسن غناء منه مترجم القرن الثانى عشر العظيم عن العربيـة جارد الكرومونى (مات سنة ١١٨٥) الذى نقل تآليف كثيرة فى الطب عن العربية الى اللاتينية والذى اقتفى أثره فى ذلك جيش كامل من المقلدة . على أن أهم من هذا لتقدم الطب كان الانتعاش العلمى فى القرن الثـالث عشر ذلك الانتعاش كان فى أساسه مبنيا على تراجم من العربية لكن عددا محدودا من التآليف قد نقل أيضـا عن اليونانية بالذات . ففى القرن الثالث عشر بدأت مؤلفات ارسطو العلمية تعـالج بهذه الطريقة لكن أهم منها للطب كانت مؤلفات جالينوس ولم يكن لهذه بد من أن تنتظر حتى القرن الذى بعده . فمطول جالينوس عن منـافع أجزاء الجسم فى الانسان ترجمـه نيقولا الرجوى عن اليونانيـة الى اللاتينية فى أوائل القرن الرابع عشر وهـذا المؤلف على عيوبه كان بعيد مدى الفضل على كل ما ظهر لذلك العهد فى وصف الجسم البشرى . وقد سـلمت مخطوطات كثيرة للترجمة اللاتينيـة وترجمت الى لهجات عدة منها الانجليزية وأثرت فى الجراحة تأثيرا كبيرا .

إن نقل هذا المطول الى اللاتينية وانتشاره الواسع يمكن أن يعتبر مبتدأ الطب العلمى الحديث ، وظهوره كان فضلا عن ذلك جزءا من ظاهرة تجـدد الاقبال على التشريح الذى بدأ التمرن عليه

فى الجامعات فى القرن الثالث عشر [١] وصار سنة عم الأخذ بها فى الرابع عشر والخامس عشر .

كاد التقدم فى التشريح يكون غير محسوس حتى آخر القرن الخامس عشر . وفى القرن الخامس عشر استرجعت متون أخرى لجالينوس ولايبقراط نقلت بالتدريج الى اللاتينية لكن أيضا بدون تأثير حيوى على مجرى التشريح . أما نفس طبع المجموع من مؤلفات ابقراط وجالينوس فقد جاء على تأخر لأن أطباء عهد النهضة بذوقهم الممسوخ استمروا يفضلون دسكريدس والعرب الذين طبعت مؤلفاتهم طبعات متعددة وهكذا لم يتقدم الطب تقدما يقابل تقدم الأدب . طبعت تآليف ايبقراط لأول مرة سنة ١٥٢٥ وظهرت طبعة مفردة لغث جالينوس فى سنة ١٤٩٠ لكن التقدم الحقيقى فى الطب لم يتحقق بذات دراسة هذه المؤلفات فان تلك المؤلفات لم تكن تفضل مؤلفات العرب وغيرهم الموروثة عن القرون الوسطى ما دام الناس كانوا يقرأونها بروح المدارسة الموروثة من قديم . والشروح تفسد حتى ايبقراط . ولم تظهر القيمة الحقيقية لمؤلفات ايبقراط وجالينوس حتى بدأ الباحث بالفعل يقارن مشاهداته هو بمشاهداتهما وكان أول ما حدث ذلك فيه من فروع الطب التشريح ودعاة الانقلاب أمثال لوناردو دفنسى (١٤٥٢ — ١٥١٨) الذى لم ينشر لنفسه شيئا وفساليس (١٥١٤ — ١٥٦٤) الذى ظهر مصنفه العظيم فى سنة ١٥٤٣ قد اتخذوا فى الواقع جالينوس أساسا لعملهم وإن شغلوا أنفسهم كثيرا بتبيين غلطاته .

---

(١) كان تشريح الحيوان يمارس فى سلرنو منذ القرن الحادى عشر .

وانبعثت التقاليد الايبقراطيــة على يد أنطونيــو بنفينى (مات ســنة ١٥٠٢) أحد دعاة الروح الجـديد المتشوفين بعثها بأن جمع بالفعل مذكرات عن بضع حالات مع بيانات عن الوفيات وعما وجد بالتشريح بعد الموت نرى جديرا بالذكر منها حالة بالأعور [١]. اقتدى الناس به من حين لآخر أثناء القرن السادس عشر. مثل ذلك: إن الطبيب اليهودى البرتغالى أماتس لوزتانس (١٥١١ — ١٥٦٢) طبع ما لا يقل عن سبعمائة حالة لكن البعث الحقيق للتقاليـد الايبقراطية انما جاء فى القرن التالى بمجىء سدنهام (١٦٢٤ — ١٦٨٩) و بورهاف (١٦٦٨ — ١٧٣٨) اللذين كانا يعملان على الأساس الايبقراطى عن علم و يحاولان أن يزيدا اختبار ايبقراط سعة ومدًا.

كان آخر ما انتفع بهـذا البعث الجراحة . و يمكن الاستدلال على أن أعظم جراحى القرن السادس عشر ذلك المحب المحبب أمبروس باريه (١٥١٠ — ١٥٩٠) قد استفاد كثيرا من مؤلفات العصر القديم و إن كان كما اعترف هو بنفسه رجلا جاهلا . لا لاتينية يعرف ولا يونانية — استفاد ما استفاده مما كان فى عصره متداولا منهـا فى التراجم يرشح منهـا الى أسفل الى غير العالمين .

لقد كانت متون ايبقراط وجالينوس جزءا غير مبتور من التثقيف الطبي فى الجامعات منذ ابتدائها فى القرن الثالث عشر وظهر أول متن يونانى لجوامع الكلم لايبقراط فى سنة ١٥٣٢ منقحا بيد لا تقل عن يد فرانسوا رابيليه ، فلما استرجعت فى اليونانية متون أخرى

(١) نشرت مذكرات بنفينى بعــد موته وفى بعض المؤلفات اليونانية الزائفة فى المجموعة الايبقراطية مذكرات عن الحالات المرضية كذلك .

ووضعت تراجم خير من التراجم الأولى صار ما استرجع وما ترجم هو تقريبا الوسيلة الوحيدة للتعليم أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر. كثر سواد التراجمة بعد ذلك واختلفوا فى المقدرة إلا أن واحدا حذقا بالترجمة منهم يعنى القراء الانجليز أمره على وجه خاص . ان توماس لناكر (١٤٦٠ — ١٥٢٤) طبيب هنرى الثامن ومربى البرنسيسة مارى ومؤسس كلية الأطباء وأول رئيس لها من شمل احسانه كلا من الجامعتين القديمتين وأحد أوائل الانجليز الانسانيين وأقدرهم وأجمعهم لصفات الانسانيين وأكثرهم حملا على غيظ قد فى ذاك العمل فى الترجمة التى كانت مواهبه أنفق كثيرا من جهده قد أعدته لها على وجه خاص .

اليه يرجع ما لا يقل عن ستة كتب هامة من تآليف جالينوس منها واحد Detemperamentis et de inaequali intemperie المطبوع فى كمبردج فى سنة ١٥٢١ كان من أول ما طبع بطابع تلك البلدة و يقال انه أول مطبوع فى انجلترا استخدمت فى طبعه حروف يونانية وقد نال من التشريف أن أخرج بالفوتوغرافيا فى العصور الحديثة. وكان لأمثال هذه الأعمال التى هى جهود أدبية صرفة أمر مشهور مدة قرن أو قرنين وكانت مستعملة كثيرا فى الجامعات. هـذه التخريجات الانسانية كان لها أحيانا بين دعاة الطريقة العلمية الجديدة أثر من الاحناق والاغضاب لم يعادله الا حنق الانسانيين أنفسهم على المترجمين عن العربية لكن هذه الآن نيران قد خبت . لقد أخذت دراسة المتون تدول دولتها فى التربية الطبية باطراد رسوخ قدم طرق التعليم العلمية والتطبيقية ثم زالت كما كان ايبقراط وجالينوس نفسهما يحبان لها أن تزول .

لم يبق الآن لمتون ابيقراط وجالينوس مكان فى أى مقرر طبي ومع هذا فان كل من يعرف هـذه الكتابات يعرف أيضا ليس أن روحها لا تزال لابثة فينا فقط بل أن التصانيف نفسها لا تزال فى المكان الخلفى من التطبب الحديث ولا تزال نفس تعبيراتها ينطق بها بجانب فراش المريض . إن الطب الحديث يصح أن يوصف بحق أنه فى لبـه من خلق اليونانيين ولن يعرف طبيعة نظام الطب عندنا إلا من يعرف شيئا عن مصادره اليونانية وإن يوما ينسى فيه هذا الدين لليونان لهو يوم سوء للطب يكون فيه الخسار الأخلاقى عدل الخسار العقلى على الأقل . لكن من سعادة جدنا ألا خوف هناك من هذا فان شخص ابيقراط وروحه همـا اليوم أقرب الى التحقق والحياة منهما فى أى يوم منـذ خرت العقلية العلميـة اليونانية هامدة فى القرنين الثالث والرابع من العهد المسيحى م

شارلس سنجر

الأدب

إن السائر من "بكادلى" الى "شيرنج كروس" مارا بشارع "شافتزبرى" يرى "مسرح الغناء"، واذا كان الوقت مساء فقد تكون بداخله "رواية تمثيلية" تمثل هناك، وقد تكون "مأساة"، أو أى نوع من أنواع الكوميديا فاذا كانت "كوميديا موسيقية" ودخل هذا السائر ليشهدها فانه يرى "مناظر" غاية فى الروعة والجلال. ويرى رواية قد تكون لها فاتحة، وقد يكون فى جزء منها "حوارا" بين "أشخاص" الرواية وفى جزء آخر منها قد تكون مكوّنة من أناشيد من أوزان مختلفة تنشدها فرقة المغنين على عزف فرقة الموسيقيين.

ان الألفاظ الانجليزية لتلك الكلمات تدل عابر السبيل — دون أن يكون له سابق علم — على ذلك الأثر الخالد الذى خلفته "اليونانية" فى الحياة الأوروبية العقلية والفنية كما تدله أيضا على أن "اليونانية" لا تزال حية فى القرن العشرين. وقد يحفل الأثينى القديم عند رؤية الكوميديا الموسيقية وفرقة المغنين بها ولكنه يكون كأنه ينظر الى طفل خلفه هو ومهما يكن ذلك الطفل بعيدا منحطا صعبا ادراكه فهو ابن تلك الفرقة التى بغنائها ورقصها كانت تدور حول مذبح "ديونيس" فى مسارح وطنه الأصلى.

وهذا الأثر سواء أكان ظاهرا أم غامضا يبدو على جميع أشكال الأدب عندنا عدا واحدا. فالشعر القصصى والغنائى والرثائى والتمثيلى والارشادى والنظم والتاريخ وتاريخ الحياة والبيان

والخطابة والنكتة والقالة والمواعظ والرواية التاريخيـة والرسائل والنقد الأدبى — كل ذلك يونانى فى الأصل وفيه كله ينم الاسم على الأصل . ولروما دعوى مشكوك فيها فى باب الهجاء ولكن مادة الهجاء موجودة فى الكوميديا القديمة ويظهر أنها كانت موجودة فى كتابات مفقودة الآن بل ان هناك نوعا أو نوعين من الأدب مثل الخطب الخيالية ممـا اخترعه اليونانيون وتجدها الآن من حسن الحظ فى الأدب الحـالى . وعند ما ظهر هومر لم يكن للأدب الأوروبى وجود ولكن قبل أن ينقضى عهد الدولة البيزنطية الأخيرة كانت قد وضعت الخطط التى سار عليهـا الكتّاب لوقتنا الحاضر . وقد كان ذلك كله صنع شعب واحد ضعيف من الوجهة السياسية قليل من الوجهة العددية فقير من الوجهة المـادية وذلك تصديق للقانون الاقتصادى الطبيعى الذى يمنح قوة النماء فى المسائل العقلية والروحية لمن كان قليلا عديدهم . واليونانيون جديرون حقا باعجاب العالم لقصائدهم الفردية ولرواياتهم التمثيلية ولكتاباتهم ومما يدعو الى عظيم الدهشة أن الأجيال المتأخرة وان كانت أنمت أصول الأدب اليونانى لم تزد عليها شيئا للآن . هذا جزء من تراث اليونان فى الأدب .

أما الجزء الآخر فهو المؤلفات نفسها . والأدب لا يمكن الحكم عليه إلا بعد قراءته ومن المؤكد أنه لا يمكن ايضاح مميزاته فى صحف قليلة ولكن الجاهل باليونانية والمتشوق لتقدير قيمتها يمكن له أن يكوّن فكرة عن آراء النقاد الثقاة من وراء البحث . وأكبر ظنى أنه يجدهم قد اجتمعت كلمتهم على أنه ما من رجل عظيم ثقة تكلم فى الأدب اليونانى بغير اللهجة التى تكلم بها غيره . والرومان أول شاهد على ذلك كما هو باد فى أدبهم الذى بدأ بترجمة تصانيف

اليونان ثم باتباع آدابهم نوعا نوعا . وقد تغلغلت فيه (بخاصة في كبار الكتاب) تلك التقاليد والذكريات وأثر الأدب اليوناني مما يدل على الاعتراف بالدين و بعظمه . وقد قال شيشرون : " إن اليونانيين هم أساتذتنا في العلم وفي كل فرع من فروع الأدب " — وقد ظن كنتليان أن الطفل الروماني عليه أن يبدأ دراسته باليونانية " لأن العلم الروماني مشتق من اليوناني " وهذه الملاحظة بدت بنفسها في أيام النهضة وردد صداها كثيرون في قرننا الحالي — وقال جيته : " ولو أن كتاب المآسي من اليونانيين يتفاوتون عظما ودقة فان كتابتهم كلها بها صفة واحدة بارزة . فكتابتهم تميزها الفخامة والروعة والسلامة وروح الانسانية التامة وفلسفة الحياة العليا وسمو الفكر والالهام القوى . ونحن نجد هذه الصفات فيما بقى من مأثور شعرهم القصصي والغنائي كما نجدها في رواياتهم التمثيلية ونجدها في فلاسفتهم وخطبائهم ومؤرخيهم . ونجدها تتجلى الى درجة عالية فيما بقى من آثار نحتهم " . وقال أيضا :

" لست شيئا مذكورا بجانب عظماء الشعراء الأتيكين أمثال " أسكليس " و " سوفوكليس " وقال وردسورث في " حديث المائدة " : " انه تكلم بحرارة عن مزايا دراسة الأدب القديم وخاصة اليوناني منه فقال أين نبحث عن خطيب أعظم من ديموستنيس وأى شاعر تمثيلي نراه بعد شكسبير خيرا من اسكليس أو سوفوكليس بله يوروبيدس " — وقدقال : " ان كتاب هيرودوت هو ألذ الكتب وأكثرها فائدة بعد الانجيل " — وقال شيلي : " ان الفترة التي انصرمت بين مولد بركليس ووفاة ارسطو هي بلا ريب أهم فترة جديرة بالذكر في تاريخ العالم سواء اعتبرناها بنفسها أو نظرنا اليها من جهة آثارها في مصير الانسان المتمدين ... ...

وان بقايا تلك العقول اللطيفة العميقة وفضلاتها لتدلنا — كما تدلنا بقايا تمثال بديع — فى شىء من الغموض عن عظمة تلك العقول وكمالها ...... وان لغتهم لتفوق فى تنوعها و بساطتها ومرونتها ووفرتها أية لغة أخرى من لغات العالم الغربى " وبعد أن أشار الى فن الحفر عندهم قال : " ويظهر أن شعرهم له منزلة عالية جدا وان لم تكن أقل تناسبا اذا قسناه بغيره من الآداب " .

وقال ميل : " أعظم الشعوب التى ظهرت على سطح الأرض هم اليونانيون ...... فقد كانوا البادئين لكل شىء تقريبا — عدا المسيحية — مما تفخر به العصور الحديثة ... وكانوا أول شعب ظهرت له آداب تاريخية كاملة فى نوعها (وإن لم تكن من أعلى نوع) كمال خطابتهم وحفرهم وعمارتهم وهم الذين أوجدوا الرياضيات والطبيعة وطريقة الاستقراء فى دراسة السياسة وفلسفة الطبيعة والحياة البشرية . وفى كل ذلك قاموا بالخطى الأولى التى لا مندوحة عنها والتى هى أساس الخطى الباقية " .

وقال ماكولى : "لقد رجعت الى أدب اليونان بشغف أدهشنى وقد خيل الى أنى لم أعرف من قبل معنى المتعة العقلية ، فواها لهؤلاء القوم ما أعجبهم ! انه لا يوجد فن ولا علم لا نستطيع معه أن نطلق عليه نفس التعبير الذى أطلقه "لوكريتيس" فى كلامه على "الانتصار على الخرافات" من أن العقل البشرى فوق كل شىء وأظن نفسى سعيدا جدا لأنى استطعت أن أرجع الى أولئك الأساتذة العظام وأنا بعد فى شرخ الصبا ناضج الذوق سعيد الحكم . وجل الناس يقرءون ما تعلموه من اليونانية قبل أن يبلغوا الخامسة والعشرين ... ولكن الشاب مهما كان عبقريا لا يستطيع الحكم على كاتب مثل تيوسيديدس وانى أنا نفسى لم أكن أعده من كبار

الكتاب منذ عشر سنوات . أما الآن فانى أقرأه بعقل درب على البحث التاريخى والأمور السياسية . وانى ليدهشنى سابق جهلى وعظمته . لقد كنت لا أقوى على احتمال "يوريپيدس" وأنا بالجامعة ولكنى الآن أقرأ ما كنت أنكره فيما مضى . ان ايوريپيدس غلطات لا شك فيها . ولكن ما أعظمه شاعرا" .

إن هؤلاء الرجال — وغيرهم ممن لا يصعب علينا ذكره — كلهم شهود ذوو كفايات ومنزهون عن الغرض فليست فيهم روح تحزب ولا يمكن اتهامهم كما يتهم المدرسون ورجال الجامعات أحيانا بأن شغفهم بالآداب اليونانية والرومانية وتحمسهم لها سداه ولحمته المنفعة الشخصية ولا يمكن أن يقال أيضا انهم يعجبون باليونانية لأنهم لم يقرأوا ما هو أحسن منها . ذلك بأنهم جميعا لا فرق بين جوته وغيره ملمون بالأدب الانجليزى مقدرون لعظمته — ومع ذلك فالعبارات الآنفة الذكر هى ما قالوه هم أنفسهم عن أثر اليونانية فيهم "بأن المدنية حق مشاع للعالم" . وهذا الحكم ظاهر لا يحتاج الى ايضاح . ومن الجلى أن كل من يهتم بالأدب يجد فيما بقى من الأدب اليونانى من الشعر والنثر لذة لا تدانيها لذة .

لقد حاولت أن أجيب بايجاز عن هذا السؤال ماذا صنع اليونانيون — لقد استنبطوا كل صنوف الأدب المعروفة ووضعوا الأسس التى سار عليها الأدب الأوروبى وأوجدوا مجموعة فى النظم والنثر حازت اعجاب العالم . أما السؤال الثانى وهو : ماذا يمكن أن يتعلم العالم عنهم فلسنا نستطيع أن نجيب عليه بهذه السهولة ولعمرى ان الجواب كمين فى الأدب اليونانى نفسه ، وخلاصة الأدب لا يمكن استخراجها وصوغها فى عدد من القوانين المعنوية ولا تقاس عظمة الأدب بصفاته التى هى دائما أقل من الأدب

نفسه ولكنها تقاس بمقدار امتدادها الى أعماق الكون ووصولها لذروته وهذا هو المقياس النهائى الذى يجب أن تقاس به عظمة الأدب ويمكن الحكم على مقدار ما بلغه الأدب اليونانى من هذه الوجهة من الشهادات السابق ذكرها .

ومع عدم اغفالنا هذه الحقيقة فلنحدد عمدا دائرة بحثنا ونتكلم عن الصـفات . ثم لنضيق المجـال مرة أخرى ونقصر كلامنا على بعض الصفات التى توجد بلا ريب فى كل الآداب ولكنها ليس لها فى غير الأدب اليونانى نفس القوة والانتشار التى لهـا فى هذا الأدب، لا يمكن لانسان أن يفكر فى الأدب اليونانى دون أن يفكر فى تلك الصفات لأنها تلوكها ألسنة المعجبين بها وهى التى أكسبت الأدب اليونانى ما يكمن فيه من قوة الالهام — وتلك الصفات الأساسية هى البساطة وكمال الصيغة والصـدق والجمـال على أن عظمة الأدب اليونانى ليست ناشئة كلها من هذه الصفات فان عظمة روايات أجا ممنون وأديب وباكاى لا يمكن تفسـيرها بتلك الصفات وحدها بل ان عظمتها ناشئ بعضها من أشياء خاصة بها وبعضها من نفس الأسباب التى جعلت روايات "الملك لير" أو "فوست" أو "براند" عظيمة وليست هى كل هذه الأسباب أو أهمها ولكننى أقصد بذكر هذه الصفات أن ألفت نظر القارئ الى المزايا التى يمتاز بهـا الأدب اليونانى وحده وعلى الرغم من أن بعض النقاد قد أطنبوا فى ذكر جمـال الأدب اليونانى حتى ظن الناس الى درجة السخف أن الجمال أهم صفاته أو صفته الوحيدة فقد كانوا على حق فى تقدير تفوق الجمـال فى الأدب اليونانى . وعلى الرغم من أن الصدق صفة تميز الكتابة العظيمة فى جميع اللغات فانها أعم فى الأدب اليونانى منها فى أى أدب آخر .

اذا وازن قارئ بين ملتن وهومر أو بين شكسبير وسوفوكليس أو بين أفلاطون أو ارسطاطاليس و بين أية كتابة حديثة تبحث فى الأخلاق أو السياسة أو النقد الأدبى فانه يجد فرقا وحيدا بين الكتاب القدماء والمحدثين اذ يجد الأولين أكثر بساطة و يجدهم أميل الى الاقتصاد فرواية " أوديب " بها ١٥٢٠ سطرا فى حين أن الفصلين الأولين من هملت بهما وحدهما أكثر من ١٦٠٠ سطرا . كذلك تجد كتب التاريخ والفلسفة اليونانية أكثر ايجازا من مثيلاتها فى الكتابة الحديثة . فكل مؤلفات "تيوسيديدس" يمكن طبعه فى عدد من أعداد التيمس به ٢٤ صفحة ويبقى بها فراغ بعد ذلك ورسالة ارسطو فى الشعر وهى التى ظلت عمدة الكتابة التمثيلية عدة أجيال تبلغ صفحاتها ٤٥ صفحة صغيرة وجمهورية أفلاطون وهى التى أثرت فى عالم الفكر أكثر من أى كتاب فلسفى آخر تزيد قليلا على ثلثمائة صفحة . نعم ان الايجاز ليس هو البساطة على الدوام وقد تكون الكتابة بسيطة مسهبة ولكن كل من يدقق النظر فى الكتاب اليونانيين يجدهم جميعا موجزين لأنهم يتجنبون الاستطراد والتشعب والتفصيل الدقيق و يحصرون همهم فى النقط الرئيسية لموضوعهم يحثونها باختصار لا يكلفهم كبير عناء . ولكتابتهم صفة مزدوجة فهى تدل على أنهم متمكنون من النقط الأساسية فهم يظهرونها غير مشوبة بالنتائج الصغرى الثانوية بل بارزة بروز أشجار الغابة تظهر ناتئة لا تخفيها الشجيرات الصغرى . ومن الهام تبيين هذا الفرق اذ أن كل الآداب تحوى أولى هاتين الصنفين . أما الثانية فهى بنت المصادفة والمدنية كالنهر كلما بعدت عن منبعها لا يسعها الا أن تنضم اليها آلاف النهيرات التى تزيد من حجمها وتغير من لونها وتشعب مجاريها . أما عند المنبع فهى صافية الأديم و رغبات

النـاس فى العصور الأولى هى الرغبات الأوّلية الضرورية للطبيعة البشرية . وان أدب تلك العصور يظهر تلك الرغبات غير مختلطة أو مشوبة بما هو أقل أهمية منها . ولذلك فان القضايا الهامة الأساسية تظهر جلية واضحة فى كتابات المفكرين كما يتضح ذلك فى أفلاطون، وتيوسيديدس . والشعراء يتخذون شعرهم من العواطف والرغبات القديمة قدم الانسان وليس لديهم شيء من المهذبات والتعقيدات التى تضيفها التربية والثقافة المتوارثة من قديم الزمان الى المـادة الرئيسية للطبيعة البشرية . ولقد قال الكاهن المصرى لصولون : " إنكم معشر اليونانيين أطفال دائمـا " ولقد كان هذا القول حقا من وجهــة لم يرم هو اليها . فشعور اليونانيين لم تلوّثه ولم تفسده تلك الوراثة القديمة المرذولة . فلم تكن حياتهـم ولا كان جدهم العقلى مرتبكا معقدا . ولم يطل تفكيرهم حتى يملوه . فكانوا أبناء الدنيـا وقد ضموا الى عقل الرجال حدة ذكاء الأطفال العجيبة وبساطتهم وصراحتهم .

ولقد اتخذ " بيتر " الجيوكندا التى وضعها ليوناردودافنشى رمزا للفرق بين الفن الحديث والفن القديم وبيانا لشعب الأول وتعقيده اذا قورن ببساطة الثانى . فقال عن المناليزا ان رأسهـا هو الذى من أجله قدم القـادمون من أطراف الدنيـا — الجفون متعبة قليلا — جمـال فاض من الداخل على اللحم فكانت محط الآراء العجيبة والتخيلات الغريبــة والعواطف البديعـة والشهوات الفائقة . ضعها برهة بجانب إحدى تلك الآلهة البيضاء أو النساء الجميلة القديمة وانظر كيف تضطرب لهذا الجمـال الذى مرت به النفس بجميع آلامها ! وكل أفكار العـالم وتجاربه حفرت وصيغت هناك بكل ما فيها من قوة لتجعل مظهرها

الخارجى عظيم الدلالة . وهى أقدم من جميع الصخور التى نقيم بينها وهى كالمصاصة ماتت مرات كثيرة وعرفت أسرار القبور وكانت تغطس فى البحار العميقة وتذكر الأيام الحالية ... ... كل ذلك موجود فى الرقة التى صيغت بها التقاطيع المتغيرة ولونت الجفون والأيدى — وقديما وجدت فكرة الحياة الخالدة التى تكتسح آلاف التجارب — والرأى الحديث أدرك فكرة الانسانية كما أثرت فيها وجمعت بنفسها طرق الفكر والحياة . ومن المؤكد أن اللادى ليزا يمكن أن تكون الخيال القديم مجسما ورمز الفكرة الحديثة . فى هذه الكلمات شىء من الخيال الغريب والأسلوب الخاص بكاتبها ولكنها لا تعدو الحقيقة كما يمكن لمن يوازن "مناليزا" بأية قطعة من قطع النحت فى القرن الخامس أن يرى بسهولة — ويرى فيها نفس الفرق بين الأدب اليونانى وأدبنا . وان هومر أوسوفوكليس ليضطرب اذا قدر له أن يرى كتابة بروننج أومردث أو هنرى چيمس أو كونراد الذين قد جمعوا فى شخصهم كثيرا من الآراء والتجارب المتناقضة المختلفة وازن حكاية هكتور واندروماكا بقطعة شهيرة من آثار أحد أولئك الكتاب "هكذا قال هكتور المجيد باسطا ذراعيه لولده . ولكن الولد أجفل وجرى يبكى الى حضن مرضعه الجميلة المنطقة وكان قد ذعر لما رأى والده العزيز وعلى رأسه خوذة يعلوها عرف من البرنز وشعر الخيل . واذ ذاك ضحك والده العزيز ووالدته ضحكا عاليا ثم رفع هكتور المجيد الخوذة عن رأسه ووضعها وهى تتلألأ على الأرض . ثم قبل ابنه العزيز ودلله بين يديه وأخذ يدعو الإله زيوس وجميع الآلهة قائلا " يا إلهى زيوس ويا جميع الآلهة أرجو أن يبلغ ولدى هذا بين أهل طروادة مابلغته من العظمة

والقوة والشجاعة وأن يكون ملكا كبيرا لطروادة" قال هذا ثم وضع ولده بين يدى زوجه العزيزة فضمته الى صدرها العطر وابتسمت حتى اغرورقت عيناها بالدمع فأشفق عليها زوجها ومسح رأسها بيده وناداها باسمها قائلا : "ياعزيزتى أرجو ألا تسترسلى فى الحزن فلن يكون هناك من يرديني رغم ما هو مقدر لى — على أنى أؤكد لك أن القضاء المحتوم لم ينج منه أحد" قال ذلك ورفع خوذته ذات العرف المصنوع من شعر الخيل وإذ ذاك رجعت زوجه الى منزلها وكانت تتلفت وراءها والدمع ينسكب من عينيها ثم وصلت الى المنزل الأنيق منزل هكتور مجندل الرجال ووجدت هناك وصيفات كثيرات فأثارت فيهن جميعا كامن الأشجان والعويل . فبكين هكتور فى منزله وهو لا يزال على قيد الحياة . إذ ظنن أنه لن يعود اليهن سالما من الحرب [١] — تلك العواطف يشترك فيها الناس فى القرن العشرين قبل المسيح والقرن العشرين بعده — يشترك فيها شكسبير ونابليون وأقل الناس علما وأكثرهم غباوة وجهلا وقد عبر عن هـذه العواطف بلغة تشبه العواطف نفسها فى بساطتها . وقد توجد مثل هذه الموضوعات البسيطة فى أدبنا ولكنها قلما يعبر عنها بهذا النفاذ والجلاء . بل أن "تشوسر" الفطرى يعتبر وارثا لتركة غامضة آلت اليه عن اليونان والرومان ويجول بخاطره طيف من الأدب الخيالى التصورى المفقود والموجود . ولا نجـد تلك المشاعر الفطرية التى نراها فى شعر

---

(١) الياذة هوميروس بتصرف (ترجمة لانج وليف وميرز) ويلاحظ أن الثلاثة الأشخاص فى هذا النظر يموت منهم الزوج بعد أيام قليلة وفى ظرف سنة تؤسر الزوجة — والطفل يرمى به من فوق سور المدينة .

(٢) الفصل الحادى والعشرون ٠ ١٤ ف — من سفر التكوين .

هوميروس قد عبر عنها بلغة أكثر جلاء وصراحة من لغته إلا فى الانجيل . تتبين ذلك من العبارة التالية : " وغادرت المكان وتجولت فى فيافى بئر سبع — ولما نفد الماء من الزجاجة ألقت بالطفل تحت شجرة ثم ابتعدت عنه وجلست أمامه على مرمى قوس وقالت فى نفسها لا أريد أن يموت طفلى أمام ناظرى ثم جلست أمامه وأجهشت بالبكاء" .

ولقد عاش هوميروس مثل ماعاش كاتب اسفار اليهود المقدسة فى عالم جميع عواطفه فطرية فأملت عليه مثل هذا النوع من الكتابة بطبيعة الحال . ولقد أخذت العصور التالية تتأثر بهذه التقاليد ولكن هذه التقاليد لم تنقل هذه العصور لقلتها ولأن العالم كان لا يزال ساذجا ، كذلك كان شعراؤها وناثروها يسيرون فى ميدان العمل كما يسير الجنود والساسة يقابلون باستمرار حقائق الحياة ويرونها كما هى لا كما يطالعونها فى الكتب ولذلك كانت موضوعاتهم مركزة وكتابتهم بسيطة فموضوع "أوديب" أو "هرقل فيورنس" يمكن أن يسمى سقيما ولكن الطريقة التى عالجهما بها سوفوكليس ويوربيدس ليست كذلك فالعنصر غير الطبيعى فيهما مهمل لا يكاد يشعر به . وقد صرفت العناية الى منظر عظماء الرجال وسط المصائب الفادحة . وذلك موضوع أولى مرتبط . بحياة الانسان العامة . والطريقة التى عولج بها الموضوع بسيطة ببساطتها فى هوميروس فالأشخاص قليل ومواضع الاهتمام الثانوية بعيدة عن الرواية والاهتمام كله قد حصر فى النقط الأساسية للمأساة ومن ثم كانت الشدّة النادرة والأثر السريع والشعور بالاقتراب من الشيء الموصوف الذى يلفت نظر كل من يقرأ مقالة الرسول فى "هرقل فيورنس" أو ذلك المنظر الذى تعرف فيه شخصية "أوديب" أو أية

قطعة عظيمة من الروايات اليونانيــة التمثيلية وقد دامت بساطة المعالجة هــذه الى أن جاء ميناندر والاسكندريون فهؤلاء عاشوا فى عالم أكثر شبها بعالمنا الذى نجد فيه الأدب بسيطا فى شكله كما نجده فى العصر اليونانى ولكنه أكثر فنية وعقلية وأدبية وأقل انسانية فى أساسه .

ومن الحمق أن نكلف الكتاب الحديثين بساطة هوميروس أو عصر بركليس أو أن نقول بأنهم بغير تلك البساطة لا يكونون عظماء . فلكل عصر أدبه ينم عن عقول كتابه وظروفهم ، وليست الميزة كلها فى جانب اليونانيين ، فرواية تمثيلية من شكسبير أو تاريخية من تلستوى بما فيهـا من أشخاص كثيرين أقرب الى الحياة من مأساة يونانية ينقصها المقاصد الثانوية وتقتصر على أشخاص قلائل هم محور الرواية وأن المؤرخ الحديث مثلا قد يدوّن ويبحث مظاهر من تاريخ اليونان فى القرن الخامس كان يهملها تيوسيديدس . فالأدب الحديث وان لم يبلغ من القوّة مبلغ الأدب القديم فانه أوسع منه مدى وأصدق منه ايضاحا لتعقد الحياة ومن جهة أخرى فان الأدب اليونانى خلو من سيطرة الأفكار الغريبة غير المألوفة التى تعد خطرا على الأدب الحديث وكتاب اليونان لم ينقبوا عن الفساد الجنسى أو يشجعوا القراء على التنقيب عنه . وهم أيضا خلو من سيطرة غير الضرورى الذى هو فى الحياة كما هو فى الأدب رذيلة مخاتلة خطرة وان لم يكن فيهـا ما فى غيرها من الاجرام وهذا هو سبب كون بساطتهم منعشة مبهجة ففى الحيــاة البشرية يعود الانسان من لذات شتى مسلية الى أشياء قليلة بسيطة فاذا لم يعد فانه يخاطر بحياته . وذلك ما يجب أن يكون فى الأدب الذى هو ظل الحياة .

على أن بساطة الأدب اليونانى يصحبها أرقى درجة من درجات الفن الأدبى وليس ثمة ما هو أكثر غرابة من هذا لأنه يظهر أن الأحوال الفطرية التى تبق على البساطة الأدبية لا تتفق مع الاجادة الفنية التى هى وليدة حديثة للأدب ولا مع وجود الذوق الناضج والخبرة الطويلة والعمل بثبات — ولكن فى اليونانية وربما كان ذلك فيها وحدها — تسير البساطة الطبيعية والفن جنبا الى جنب وأن وجودهما معا فى شعر هوميروس لمن الغرابة بمكان، فمن المتناقضات امكان تصوير خلق أشيل وموت هكتور ومكر أوديسيوس الفطرى فى مثل هذا الوزن وبمثل هذه المفردات . ويخيل الينا أن من غير الطبيعى أن أداة مهذبة كهذه تستعمل فى تصوير حياة تلك الجماعة والتعبير من أفكارها وهى أقرب الى الهمجية منها الى المدنية ولكن مهما يكن الأمر فان الواقع كذلك .

وأظهر خصائص الأدب اليونانى شكله ورقى صناعته، على أن هناك استثناءات ، فروايات اسكيليس الأولى غير ناضجة فى فكرتها ونثر جورجياس خيالى كنثر ليلى وجمل تيوسيديدس كثيرا ما تكون غير مهذبة وبها أغلاط نحوية . فاسكيليس عاش فى مبدأ الشعر التمثيلى وجورجياس وثيوسيديدس هم خالقو النثر الدورى وفيهم ضعف المهدين ولكن النثر والنظم اليونانيين على العموم قد صيغا أحسن صياغة وهذبا أجمل تهذيب وقد ترقى الفن بسرعة كبيرة حتى أنه فى حياة اسكيليس نفسه سار به سوفوكليس الى أعلى درجة فنية من الوجهتين الأدبية والتمثيلية وفى مدى جيل بعد موت تيوسيديدس أوجد أفلاطون أسلوبه الفذ ذلك بأن دم اليونانى كان يشتمل على غريزة فنية نمت عن نفسها فى كل أدبهم فى الأناشيد الغنائية الاجماعى بما فيها من ترانيم معقدة واختلافات

دقيقة وفى كتابة أفلاطون وهو يرتب الكلمات الثمان الأولى من كتاب الجمهورية المرة بعد الأخرى وفى الاهتمام الذى أظهره اليونانيون بنظرية الفن الأدبى وهم يسعون فيه كما سعوا فى غيره ومما يدل على أن اليونانيين فكروا فى ذلك أكثر منا كتاب البيان لارسطو والمنشآت لديونيسيس وغير ذلك من كتابات البيانيين التى لا عداد لها .

هـذا مجمع عليه من الكل ولكن هبة اليونانيين الفنية القائمة عليها بينة أعظم لم تعط حقها من التقدير . نعم لقد عرفت الأمم الأخرى فن الكتابة وخلدت تلك الآثار الكتابية التى هى غير مادية وسريعة المرور كالهواء ولكنها أبقى من النحاس والحجر . ولكن ليس من بين الأمم من خلقت الفن الأدبى كما خلقه اليونانيون ولا أوجدت كما أوجد اليونانيون من العدم أنواع الأدب المختلفة فلم يكن أمامهم نماذج ينسجون على منوالها ولم يكن لهم مرشدون ولم يتلقوا مساعدة خارجية ما . أما روما فكان لها من اليونانيين قدوة . وقد خلفت هى نماذج لخلفائها ولكن اليونانيين صنعوا ماصنعوا من العدم فهم مبتكرون حقا كما لم يبتكر انسان غيرهم وهناك مثالان يؤيدان ذلك هما هوميروس والروايات التمثيلية اليونانية .

يتوقع الانسان أن يرى فى فجر الأدب على الأقل خشونة وجفافا وحكما غير ثاقب ويدا ترتجف ولكن القصيدة اليونانية الأولى ولدت قصيدة تامة النمو ناضجة كما ولدت الآلهة أثينا فى الأساطير القديمة وموجدوها اصطنعوا بأنفسهم الحكاية والألفاظ الفنية والبحر الفذ الناضج ولا يقلل من قيمة هذا العمل العظيم أن القصائد الهومرية يمكن أن تكون الزهرة اليانعة لعصر شعرى بدأ من قبل . ذلك بأن منبت هـذه القصائد من صنع اليونانيين ولكنا نحتاج

لقوّة من الخيال نقدّر بها صعوبة العبء الذى أخذوه على عاتقهم بغير شعور منهـم وأتموه بهدى الطبيعة بدون نظريات موضوعة أو غرض مقصود .

ومن الصعب أن نخلق مفردات شـعرية فطرية اذا لم يوجد شيء منها وليس ثمت شيء فطرى فى قولهم فى الالياذة "كالشواهين بأظفارها الجن ومناقرها العقفاء التى تصيح بصوت عال وهى تقتتل على صخرة عالية" أو قولهم فيها أيضـا " بقدر ما يمتد نظر الانسـان فى الضباب عنـد ما يجلس على مرقب وينظر الى بحر أسود كالنبيذ بقدر هـذا الامتداد تنهض خيول الآلهة فى قفزة واحدة وتصهل صهيلا عاليا" .

ومن المتعذر كما تدل على ذلك بداية الشعر الرومانى أن نستنبط بحرا لا يكون غير موسيقى ولا غريبا مضحكا ومع ذلك فان هذا البحر وهو البحر الأوروبى الأول لم يجد له فى خصبه وقوّته منافسا من اليونانيين أنفسهم ولا من غيرهم . وتظهر نفس هذه المهارة الفنية الطبيعية أشياء أدق من البحر أو الأسلوب فقد ولد هومر عارفا بفطرته أسرار الفن الأدبى العميقة التى صاغها ارسطو بعده بقرون وجعلها أصول وحدة التمثيل وقد كتب فى "الشعريات" يقول ان مقصـد الرواية يجب أن يكون موضوعه عمل واحد تام غير مجزأ ذو بداءة ووسط ونهاية . . . وهو يختلف فى مبناه عن الكتابة التاريخية التى لا تصف بطبيعتهـا عملا واحدا ولكن فترة واحدة بكل ما يحدث فى هذه الفترة لشخص أو أشخاص تقل الرابطة بينهم بحسب الحوادث . . . ونستطيع أن نقرر أن ذلك ما يفعله معظم الشعراء وهنا يظهر تفوق هوميروس وابداعه مرة ثانية فهو لم يحاول أن يجعل كل حرب طروادة موضوع قصيدته ولو فعل ذلك لجعل

موضوعه واسع النطـاق جدا لا يمكن حصره فى منظر واحد ولو جعله فى حدود معتدلة فانه يكون كثير التعقيد بالحوادث المتنوعة . والواقع أنه يكتفى بقسم واحد [١] . وما هى الا أن ذكر مبدأ وحدة العمل مرة حتى أصبح شائعا مألوفا فى الفن الأدبى — ولكن ذلك المبدأ لا يتضح الا اذا ذكر كما يظهـر ذلك من تاريخ انياس أو "ملكة الجن" ولا بد أن الشعراء الذين أخذ ارسطو من شعرهم استقراءه كانت لهم غريزة فنية نادرة فجعلوا — دون أن يشعروا — يحتفظون بوحدة موضوع اهتمامهم فى خلال قصائدهم القصصية أو رواياتهم التمثيلية الطويلة ولا يكون مثل هذا العمل ممكنا الا لقوم ذوى عبقرية طبعية فى فنون الأدب . وقد وجدت جميع عناصر الأدب لدى اليونانيين ووصلت الى شكلها الطبيعى بنفس التطوّر الطبيعى الذى تتفتح عنه الحبة وتأخذ شكلها المقدّر لها .

ويمكن ايضاح ذلك ايضاحا أكثر من هذا بوساطة الروايات التمثيلية اليونانية وقد لا يجد الكاتب الحديث الذى يريد أن يكتب رواية تمثيلية أن ذلك سهل وان كان يعرف الشـكل العام الذى تتخذه الرواية التمثيلية والمبادئ العامة التى تتبع فى كتابتها . فهو يعرف الطول المناسب لها وتقسيمها الى فصول ومناظر وطريقة عرضها والحوار الذى بهـا واظهار مقصدها وقانون وحدة التمثيل الى غير ذلك . أما موجدو المأساة اليونانية فلم يكن لديهم مثل هذه المساعدة ولم يكن لديهـم تمثيل بالمعنى الذى نفهمه بل كل ما كان لديهم من هذا النوع جماعة من خمسين شخصا يلبسون لبس مخلوقات نصفها آدمى ونصفها الآخر ماعزى ويرقصون حول المـذبح

(١) الشعريات ص ٢٣٠ (ترجمة بوتشر) .

ويغنون غناءهم . ومن هذا كان يمكن أن يؤخذ أو لا يؤخذ شيء ولكن اليونانيين بما فطروا عليه من العبقرية أوجدوا من هذا النوع أرقى الصور الأدبية ولم تمض مائة سنة حتى كتبوا عن الروايات ما وضعها شيلي فى مصاف "الملك لير" وقال عنها سوينبرن انها "ربما كانت على العموم أعظم عمل روحانى قام به الانسان".

فاليونانيون لا يشق لهم غبار فى ابتكار مبادئ الفن الأدبى وانشاء أنواع الأدب المختلفة ولعله لا توجد أمة قد أظهرت كتلة من الأدب غاية فى ابداع الأسلوب كما أظهر اليونان . ولكنا اذا وازنا بين كاتب وكاتب فانا نجد من بين الأفراد الفنيين من ينافسهم . وان قوة الأدب الانجليزى ليست محصورة فى كماله الفنى ولكن ملتن و بوپ وتنيسن وغيرهم ممن لا حاجة الى ذكر أسمائهم متمكنون من هذا الفن تمكن أى يونانى وكذلك الفرنسيون لا يقلون عن اليونانيين فى هذا الشأن بل هم أساتذة فيه فان كمال اللفظ عندهم هو القاعدة المطردة ولكن ذلك لا يصدق على صفة أخرى من صفات الكتابة اليونانية التى يمكن وضعها فى وصف الكمال الفنى ولو أنها فى الحقيقة شيء أكثر من ذلك وتلك الصفة من أعظم خصائص اليونانية ولو أنها تظهر لأول نظرة غير متناسبة ومنفرة فاذا فتح قارئ حديث عهد بالأدب اليونانى كتب تيوسيديدس فان أول أثر يراه هو خلوها من اللذة والطلاء واذا قرأ وفى ذهنه شيء من شيلي أو تنيسن نكتة سيمونيدس على قبر قتلى الاسبرطيين عند ترموبيل التى يقول فيها "أيها الغريب خبر الاسبارطيين بأننا نضطجع هنا طوعا لأمرهم" نقول اذا قرأ ذلك فانه لا يجد فيه أكثر من نثر يعوزه الطلاء وهذه البساطة المتناهية أو الايجاز هى حجر عثرة فى سبيل متعودى الاطناب الحديث ولكن هذه البساطة

التى يراها القارئ هى أجمل آثار الأدب اليونانى الذى يبدو أحسن ما يكون عند ما يكون فى منتهى البساطة وهى ميزة من مميزات الأدب اليونانى . ويتضح الفرق بين هذه البساطة وبين الطريق الانجليزية العادية من قراءة نكتةشعرية مشهورة هى رثاء بن جنسون الذى كتبه على قبر صبي ممثل :

ابكوا علىّ يا من تقرؤون هذه القصة الصغيرة واعلموا أن الموت نفسه حزين على ذلك الذى تذرفون الدمع من أجله .

كان صبيا بلغ من لطفه وجماله مبلغا عظيما كأن الطبيعة والسماء تنافستا فى أيهما يكون له هذا المخلوق .

لم يطو من عمره ثلاثة عشر عاما حتى قست عليه الأقدار — وكان زهرة المسرح ثلاث سنين سويا .

وكان يمثل الشيوخ بمهـارة فائقة (وذلك ما نبكيه من أجله) حتى أن آلهة الأقدار ظنته رجلا شيخا لأن تمثيله بلغ غاية الاتقان .

وهكذا اتفقوا جميعا خطأ على القضاء عليه ولكنهم لمـا عرفوا حقيقته بعد ذلك ندموا على ما فعلوا ولات ساعة مندم .

فهذه السطور وليست هى كل القصيدة كانت كافية للدلالة على الفرق بين الطريقتين الانجليزية واليونانية فالأولى غنية خصبة تقفو أثر خيال غنى . أما الثانية فمقتصدة فى القول محدودة تترك لخيال القارئ مجالا وحاجة ليمثل دوره . وهناك فى قصيدة ابن جنسون مادة لبضع نكات ولو كان هو سيمونيدس أو أفلاطون لوقف عند السطر الرابع ولو فعل ذلك واقتصد فى ورقه لرفع من شأن قصيدته كما يرى بعض النقاد .

وكان الكتاب اليونانيون مقتصدين نظريا وعمليا لا يحيدون عن هذا المبدأ . يشيدون بذكر الاقتصاد فى أمثالهم الشائعة مثل قولهم "النصف أكبر من الكل" "ازرع باليد لا بالزنبيل كله" وذلك توضحه القطع القيمة من أدبهم . ولست تجده واضحا فى حكاية تيوسيديدس لحصار سرقوزه وفى ختام "الفيدو" أو "الجمهورية" بأقل مما تجده فى موت هكتور أو فى مقابلة "بريام" و "أشل" وقد يكون لديهم موضوعات توحى الى الشاعر وتغريه بالاطناب فيها ولكنهم يقاومون هذا الاغراء ويذكرون الحقائق بهدوء ثم يتركونها دون شرح أو تعليق عليها . وخاتمة "الفيدو" تدل على هذا التقييد فبعد أن يحكى أفلاطون بايجاز قاس تفاصيل وفاة أستاذه لم يزد تعليقه على هذه الحادثة التى أورثته الحزن والارتباك طول حياته على هذه العبارة "وهكذا يا يوكوكراتيس كانت وفاة صاحبنا الذى هو على ما أظن خير من عرفتهم من الناس وأرحمهم وأكثرهم عدلا" .

على أنه يوجد أمثلة طيبة للحصر والاقتصاد فى الأدب الانجليزى ومن أظهرها ما يرجع الى أصل يونانى ولكن لا يستطيع انسان أن يقول ان تلك الصفات هى القاعدة التى يسير عليها كبار كتابنا ذلك بأن العبقرية الانجليزية غنية بذخة وليست محدودة ولا يوافق مزاجها أن تكتب كما كتب سافو "يا كوكب المساء يا من ترجعين كل الأشياء التى بدد شملها الفجر اللامع يا من ترجعين الأغنام ، الماعز والأطفال الى أمهاتهم" بل تكتب كما كتب بيرون :

"يا هسبرس أنت تأتين بكل الأشياء الطيبة تعيدين المضنى الى موطنه وتدخلين السرور على الجوعان وترجعين الى فتخ الطير أجنحة آبائها الوارفة . وتعيدين الى الثور المتعب مزوده المحبوب

وكل ما تحويه بيوتنا من راحة وطمأنينة وكل ما تحميه آلهة بيوتنا من أعزة، كل ذلك يجتمع حولنا بنظرتك الهادئة . وأنت أيضا تردين الطفل الى حضن أمه" وقد يمكن أن يقال ان لكل من الطريقتين مزاياها فان الاطناب والتوسع فى التفصيل يغنيان الخيال فى حين أن الاقتصاد يحركه ويبعث فيه النشاط . وقد يكون الاقتصاد خلوا من اللذة ولا يسلم الا فى يد الكاتب الماهر . أما الاطناب فانه كالوليمة الفخمة تترك العقل متخما غير قادر على الحركة . فيه لا يجد العقل ما يعمله لأن كل شىء قد عمل له . أما الايجاز فيجعل القارئ يستنبط لنفسه من ينابيعه الخاصة فهو يجعل الخيال يسبح فى ميدان اللانهاية ويعد بعض القراء ذلك من لذات الأدب الضرورية فى حين أن غيرهم يؤثر أن يأخذ المؤلف بيدهم ويرشدهم الى كل تفصيل بكل دقة .

والايجاز فى الأدب معناه تأثر الأدب بذلك... الذى هو أرسخ المثل العليا اليونانية أساسا وأشد الكلمات اليونانية امتناعا على الترجمة ولكن المصادفة ساعدته ولو فقد فن الطباعة لكانت المؤلفات الحديثة أقل حجما مما هى وكان يشجع الايجاز اليونانى ان " فست " لم يكن وجد بعد . ونحن اللذين لا نعتمد على النسخ بأيدينا فى نشر كتبنا نطيل الكتابة بطبيعة الحال فاذا فقد الأدب بذلك شيئا من ايجازه فأنه يجد من وراء الاسهاب ما يعوضه من ذلك ولكن عادة الكتابة لكسب المال هى التى تشجع على كثرة الكتابة ووجود آلات الطباعة التى تجعل ذلك سهلا تعرضنا لأخطار ، كان الأقدمون بنجوة منها . وأكبر الضرر ناشئ من الصحف فهى تذكر أشياء كثيرة لا حاجة الى ذكرها وتقول كل شىء باطناب زائد لا حاجة اليه . وليس الضرر الذى يلحق الأدب

بأقل من ذلك فأشهر الكتاب فى الخمسين سنة الأخيرة أمثال براوننج ومردث وهاردى وكونراد يمزجون كتابتهم بأشياء لا داعى لها ان لم نقل بأشياء قليلة القيمةو ينتجون كتابة لم يكن لها أعظم قوة . ولو اقتصرت كتاباتهم على النصف — وهو اقتصار معقول لكانت أتم لأن وقتا أطول كان يخصص لها ولكانت أقوى لأن كل ضربة منها تكون دقيقة قوية وتكون أشد أثرا لأنها لا يصحبها ضربات غير منتجة . وهذا يصدق الى درجة أكبر على الكتاب الأقل مرتبة وعلى غير ذلك من صنوف الأدب وبسبب أن "الأجريكولا" التى وضعها "تاسيتس" لا تزيد على ثلاثين صفحة كانت حياة خادم رومانى مدنى ليس بذى عبقرية عظيمة أخلد من حياة من هم أعظم منه شأنا .

إن فن الحذف هو الفن الذى يجب على الكتاب الانجليز أن يكونوا أشدتعلما له منهم لسواه. وذلك المبرد الأدبى هو أقل العدد استعمالا فى يدهم ولكن كلا الفن والعدة أتم اليونانيون فهمهما واستخدماهما باطراد .

والميزة الثالثة التى يمتاز بها الأدب اليونانى صدقه وقد تكون هذه أهم مميزاته وأعمها على الاطلاق . حقا ان اليونانيين ليسوا أقل كذبا من سائر الشعوب ولكنهم أحبوا أن يروا العالم على حقيقته واستطاعوا أن يفعلوا ذلك .

وبهذه الميزة الأساسية قد أورثوا الغرب قوة ادراك الفلسفة والعلم فهذان قد ورثناهما عن اليونانيين دون غيرهم فأما فلسطين وأسلافنا من الألمان فلا هما أنشآهما ولا كان لديهما ذلك المزاج الخلقى الذى ينشئان عنه وأما رومه فقد أخذت قسطها منهما عن اليونان .

قد يفهم من لفظ الصدق هنا مطابقة الأدب للواقع مطابقة تامة كما يفعل بعض كتاب العصر الحاضر ولكن ذلك غير صحيح لأن صدق الأدب اليونانى يختلف عن ذلك كل الاختلاف و يجب التفرقة بين ذلك الصدق و بين التباعد المتكلف والنزاهـة المؤلمة التى نراها فى شعر فلو برت مثلا فان صدقه يكاد يطمسه عن الانظار كما تخفى الجدران ما فى الحجرة من آلات متحركة أما صدق الأدب اليونانى فهو صدق اختيارى طبيعى لا يبذل فى سبيله جهد ما ، هو السجية الطبيعية التى يتصف بها الفنان الذى ينسى نفسه اذا رأى منظرا من المناظر ولا علاقة بين هـذا الصدق و بين المطابقة التامة للواقع وليس من صفاته تجرده من العامل الشخصى تجردا يجعله خلوا من الرونق والحياة . فى الأدب اليونانى يحس القارئ أن الواصف انسان لا آلة صماء يشعر كل الشعور بما يراه ولكن شعوره مهما زاد لا يفسد عليـه رؤيته لذلك نشعر ونحن نقرأ وصفه بشخصية الواصف ونحس الحياة تدب فى ذلك الوصف دبيب الكهرباء .

كذلك لا صلة بين صدق الأدب اليونانى وذلك النوع الحديث من المطابقة الذى يشبه العقاقير السامة يتملك الروح و يكرب القلب و يصور الحيـاة البشرية بصورة سوداء يبتئس بها الانسان أشد ابتئاس وهـذه الصورة ليست مع ذلك أصـدق ولا أتم تمثيلا للعالم من الأدب اليونانى وينـدر بل يستحيل أن تجد بين كتاب اليونان كاتبا هذه صفاته .

يستطيع كثير من كتاب العصر الحاضر أن يصفوا ما لا يحبه الانسان ولكنك تجد وصفهم فظا فى الغالب وتنقبض له النفس على الدوام ، أما الذين وهبوا القدرة على وصف آلام الناس ومساوئهم وصفا صادقا فى جميع أجزائه ولكنه لا يبعث فى نفس

الانسان الرعب وحده، فهم قليلون وقد تكون قلتهم هى السبب فى قلة المآسى الجيدة اذ يلوح أنه يشترط فيها أن تمثل ما فى الحياة من أسى شديد دون أن تترك فى النفس شعورا بالحزن والكآبة يتملك على الانسان كل حواسه وهذا السر قد عرفه كبار كتاب اليونان ، فهم لا يقلون عن غيرهم احساسا بما فى الحياة من آلام وشرور ولا ينقصون عنهم صدقا فى تصويرها ولكن غيرهم من الكتاب اذا وصفوا آلام الناس لا يشعرون الا بالكآبة أو الضجر أو الوجل و يفقدون ما لديهم من قوة حيوية و يعتريهم الذهول والخبال ، أما كتاب اليونان فقد وهبوا حاسة هى أقرب الى فلسفة الجمال منها الى الأخلاق ، بها يدركون جلل الأمور واذا نظروا الى المصائب رأوا خلالها آلام الكون المتعب وأخذتهم الرهبة والعجب — لا الضجر والحزن وحدهما — لما يقاسيه الناس من الألم وهذا هو السبب فى أنك اذا قرأت فى هوميروس وصفه بريام وهو يضرع الى قاتل ابنه أن يعطيه جثته تشعر بشيء غير الحزن والكآبة يقول هوميروس "وهكذا دخل بريام دون أن يروه ثم وقف بجوارهم وأمسك بيديه ركبتى أشيل وقبل يديه الرهيبتين الفتاكتين اللتين قضتا على حياة كثير من أبنائه ولكن أشيل وسائر من معه أخذتهم الدهشة من رؤية بريام وصاروا من شدة العجب ينظر بعضهم الى بعض ثم شرع بريام يتضرع اليه قائلا : أى أشيل يا شبيه الآلهة فى عظمتك تذكر أباك لقد بلغ من السن ما بلغت ورد الى أرذل العمر وقد يسيء من حوله من الناس معاملته ولا يجد من يدفع عنه البؤس والشقاء ولكنه مع هذا كله اذا سمع أنك لا تزال على قيد الحياة طرب وأمل أن أيام فراقه مهما طالت سوف تنقضى فتقر عيناه برؤية ولده مرة أخرى أما أنا فما أتعس حالى لقد كان لى أولاد

هم خير من أنجبت طروادة فقضوا عن آخرهم والآن قد قتلت من كان باقيا منهـم قتلت هكتور بطل طروادة وركنها المكين وهو يدافع عن وطنه . وقر الآلهة يا أشيل وارث لحالى واذكر أباك واعلم أنى أتعس منه حالا وأنى قد لاقيت ما لم يلاقه بشر من قبل اذ أرفع يدى الآن ضارعا الى قاتل أولادى" [١] فى هذا الوصف من الألم والبؤس بشىء كثير والشاعر لا يحاول اخفاءهما أو نقصهما ولكنى أظن أن معظم القراء عند ما يقرءون هذه القطعة لا يشعرون بما يشـعرون به وهم يقرءون قصة "ما دام بوڤارى" أو "چود المجهول" [٢] ذلك بأن صدقها ليس بالقبيح ولا بالكئيب .

كذلك ليس صـدق الأدب اليونانى عبارة عن شيئية . ذلك بأن الكاتب الشيئى يقص قصته ويعبر عن آرائه بسرد الحوادث دون تعليق عليها قدر المستطاع وكتاب القصص والروايات التمثيلية مضطرون بطبيعة عملهم أن يكونوا شيئيين بهـذا المعنى (على أن فيلدنج وثكرى من كتاب القصص وابسن وشو [٣] من كتاب الروايات التمثيلية يعلقون على ما يروونه من الحوادث بلسانهم هم لا بلسان أشخاص قصصهم ورواياتهم) ولكن هذه الشيئية لا تجعل الكاتب بالضرورة أكثر صدقا أو نزاهة من غيره لأن فى استطاعته أن يشوه الحقائق تشويها تاما بذكر بعضها واغفال البعض الآخر كما يشوهها غيره بالتعليق عليها تعليقا مضللا والكاتب اذا كان شديد

(١) الياذه هوميروس الفصـل الرابع والعشرين ص ٢٧٧ (مع حذف بعض الأجزاء) .

(٢) Madame Bovary, Jude the Obscure

(٣) Fielding, Thackeray Ibseu, Shaw.

التحيز عرض على قرائه من الحقائق ما يؤيد وجهة نظره هو وبذلك تؤثر شخصيته فى كتاباته تأثيرا لا يقل عن تأثير الكاتب الذى لا يخفى تشيعه لفكرة خاصة وان كان الأول لا يجهر بهذا التشيع كما يجهر به الثانى على أنه مع ذلك شيئ أيضا ولكن شيئته لا تعدو كونها أسلوبا من أساليب الأدب . والكتاب اليونانيون شيئيون من هذه الوجهة يقصون القصة من غير أن يعلقوا بأنفسهم عليها ، ترى ذلك فى شعرهم القصصى ورواياتهم التمثيلية حيث يكون هذا أمرا طبيعيا وتراه أيضا فى تواريخهم وفى غيرها من كتاباتهم فاذا نظرت الى ثوسيديديس مثلا وهو يتلو عليك تاريخ حرب كبرى رأيت تعليقاته عليها قليلة وهى مع ذلك مذكورة بالطريقة الروائية الشيئية على شكل خطب يلقيها كبار الرجال فى ذلك العصر . على أن لليونانيين شيئية أهم من هذه كثيرا ذلك بأن شيئيتهم ليست حيلة أدبية بل سجية عقلية ففى مقدور كتابهم أن يبعدوا أشخاصهم البعد كله عن المسائل التى تهمهم شخصيا وينظروا اليها عن كثب نظر المشاهد النزيه باهتمام كبير ولكن من غير تحيز فى ذلك مثل عرافة دلفى فى نبوءاتها حين تفنى شخصيتها وتصبح لسان حال الاله الذى ينطقها وكذلك الكاتب اليونانى يترك الحقائق تفصح عن نفسها ويجعل نفسه لسان حال لها ويبعد كل البعد شخصيته عن أن تؤثر فى كتاباته فاذا وصفنا كتاب اليونان بأنهم شيئيون وجب أن نفهم من شيئيتهم كل هذه المعانى السالفة الذكر .

وفى استطاعتنا أن نفهم صدق الأدب اليونانى حق الفهم اذا تركنا العبارات الفلسفية جانبا ونسينا المعانى الحديثة ثم ذكرنا قول انكساجوراس اذ سئل مرة "لم ولدت ؟" فأجاب "لكى أتفكر فى ملكوت السموات والأرض" ذلك بأن الرغبة فى فهم الأشياء

على حقيقتها فهما خاليا من الغرض تلك الرغبــة التى كانت تجمع حول سقراط طوائف الباحثين ليناقشوه فى معنى العدل والصداقة وهل الخير من المعــارف التى يمكن تعلمها ، نقول ان تلك الرغبة يوجد ما يماثلها فى عالم الأدب . ان اليونانيين قد فتنتهــم رؤية الانسان والعالم ولا ترى هـذا الافتتان باديا فى فلسفتهم المجردة فحسب ، بل فى أدبهم أيضا ولا نكون مخطئين اذا قلنا ان شعراءهم أيضا قد ولدوا ليروا الدنيــا والحياة البشرية لا ليستخلصوا منها دروسا خلقية أو يمعنوا فى عواطفهم أو بيانهــم أو تصوّفهم بل ليروها كما هى . هؤلاء ينطبق عليهم ما وصف به كيتس المزاج الشعرى حين قال : "ليس له نفس هو كل شىء ولا شىء . . يتمتع بالضوء والظلام . . الشاعر أقل شعرية من أى شىء فى الوجود يستمد وحيه من غيره وحياته منصرفة لغيره وتتقمص روحه جسم غيره" فاذا كان للناس هذا المزاج كتبوا أدبا اذا وصف بالصدق كان هذا الوصف منطبقا عليه كل الانطباق . يتجنبون الارشاد فى أدبهم فلا يقلبون الحقائق لتوافق ميولهم الشخصية . بعيدون عن المحسنات اللفظية فلا يضحون بالحقائق فى سبيل جمال اللفظ بعيدون عن العواطف والخيال لا يحيدون عن الحقائق فى سبيل ارضاء عواطفهم أو عواطف سامعيهــم يتجنبون التصوّف فلا يتنكبون طريق الحقائق الى عالم الشعور همهــم أن يروا الأشياء وتسرهم مجرد الرؤية يرددون فى أنفسهم قول كيتس "اذا رأيت عصفورا أمام نافذة حجرتى كنت جزءا من ذلك العصفور أنقر معه الحصى كلما نقر" (١) لا يصفونه كما يصف شلى القنبرة أو كما

(١) هذه المقتبسات من شعر كيتس مأخوذة عن محاضرة عن الشعر فى اكسفورد لبردالى ص ٢٣٨

يصف كيتس ووردسورث البلبل وهـذا سر من أسرار الشعر اليونانى فان لشعراء اليونان قدرة لا يدانيهم فيها غيرهم من الشعراء على ايصال ما يصفونه الى النفوس بطريقة سهلة بسيطة من غير حاجة الى آلاف الحيـل التى تستلزمها النكات الشعرية والبيان والعواطف والخيال والغموض والوجدانيات ويمكن تسمية هذا السر بالصراحة وهى عادة النظر الى الأشياء نظرا ثاقبا ثابتا ووصفها كما هى ومن ثم فهى على نقيض التعليق الارشـادى والاطناب البيانى المثـير للشعور فالكاتب الصريح كل الصراحة يبعد نفسه ومشاعره عما يصف ولا يسمح لشخصيته بأن تحول بينه وبين موضوعه .

وسنورد هنا أمثلة قليلة توضح معنى هذه الصراحة أكثر مما توضحه كثرة التعـاريف . ان النكتة الشعرية التى سبق ذكرها توضح لنا كيف يترك الكاتب اليونانى موضوعه يفصح عن نفسه بدل أن يعبر عن شعوره هو نحو هذا الموضوع ومثلها فى الدلالة ما خطه أب على ضريح ابنه اذ قال : " هنا أودع الوالد فلپ ابنه ومنتهى أمله نيكوتيلس البالغ من العمر اثنى عشر عاما ليسـتريح " أنظر كيف ان الوالد الثاكل لا يذكر كلمـة واحدة عن حزنه ولوعته ولا عن فدح الخطب الذى ألم به بل يكتفى بذكر اسم ابنه وسنه وقوله انه " منتهى أمل والده " وهو اذا ذكر هذا فقد ذكر كل شىء ، كذلك لا يعبر سيمونيديس عمـا يشعر به نحو بطولة موتى الاسبارطيين لأنه يعلم أن قبورهم تنطق بهـذه البطولة لكل من يمر بها وليست هذه الطريقة مجرد أسلوب أدبى أو طريقة كتابية يلجأ اليها الكاتب فيذكر الحقائق ويتركها تؤثر فى القارئ بما فيها من قوة من غير تعليق عليها أو تفسير لها ولو قارنا نكتة بن جنسن

بعنوان القبر اليونانى الســالف الذكر لعرفنا أن الصراحة اليونانية تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف، نعم ان الخيال الذى يختم به بن جنسن نكتته جميل ولكنه غير صحيح ولا يتفق فى الحقيقة مع شدّة التأثر أما الصراحة اليونانية فلا تفتأ تنظر الى الطفل الميت ولا ترى الا ذلك الطفل وحزن والده .

والقطعة الآتيـــة وان كانت فى موضوع آخر تفسر معنى تلك الصراحة تفسيرا جليا أيضا وقد وقعت حوادثها فى المستعمرة الأثينية أمفيپوليس على نهر أستروما وأشخاصها هم القــائد الاسبارطى براسيداس الزاحف على هذه المستعمرة والقائد الأثينى توسيديديس الذى كان فى ذلك الوقت فى ثاسوس على مسيرة يوم فى البحر من أمفيپوليس واليك هذه القطعة : " ولمـا سمع توسيديديس بأخبار براسيداس أبحر لساعته الى أمفيپوليس . . . ليحميها بجنده اذا استطاع قبل أن تسلم للعدو واذا لم يستطع فلا أقل من أن يحتل أيون ثغرها وفى أثناء ذلك بذل براسيداس كل ما فى وسعه ليستولى على المدينــة قبــل وصول توسيديديس لأنه كان يخشى وصول الأسطول الأثينى من تاسوس ويخشى أيضــا توسيديديس نفسه الذى سمع عنه أنه . . . كان من أعظم رجال الدولة . . . لذلك عرض على المدينة شروطا معتدلة . . . فقبلتها وسلمت اليه . . . وفى مساء اليوم الذى سلمت فيه أبحر توسيديديس بسفنه الى أيون ولكنه لم يصلها الا بعد أن استولى براســيداس على أمفيپوليس ولو طال دفاعها ليلة واحدة لاستولى توسيديديس على أيون " [١] ملخص القصة التى تحتويها هــذه القطعة واضح جلى : استولى

(١) توسيديديس الجزء الرابع صحائف ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ (من ترجمة چوت فى الغالب) .

القائد الاسبارطى براسيداس على مدينة أمفيپوليس المهمة ووصل توسيديديس بعد فوات الفرصة فلم يتمكن من انقاذها ولكن هل يتصور انسان أن القائد الأثينى توسيديديس هو نفسه المؤرخ توسيديديس الذى يؤرخ هذه الواقعة وأن هذه الحادثة التى يصفها هنا بهذا الحياد والتجرد كانت السبب فى نفيه من بلده العزيز عليه وفى اهدار دمه اذا عاد اليه . لقد اكتفى توسيديديس بذكر الحقائق وحدها مجردة من كل شىء عداها كأن هذه الحادثة تتعلق بشخص آخر غيره . ذكرها من غير تعليق ولا احتجاج ولا كلمة اعتذار ولا تفسير ولا أسف على المصيبة التى حلت به فى آخر أيام حياته واذا ذكر نفسه ذكرها بضمير الغائب . ليست هذه هى الطريقة التى يصف بها قواد هذا العصر ما يصيبهم من فشل ولكنها هى الطريقة اليونانية لقد نسى توسيديديس نفسه وشعوره ولم يفكر الا فى ذلك اليوم المشئوم يوم سار بسفنه فى نهر استروما ووجد أبواب أمفيپوليس موصدة دونه وقد بلغ من انكاره نفسه أنه لا يسمى هذه الحادثة مشؤومة مع أنها كانت غاية فى الشؤم عليه وعلى بلده و بنفس هذا التجرد يكتب توسيديديس عن استعباد ميلوس ومأساة سيراقوزه مع أنه يرى و يجعلنا نشعر معه أن أولى الحادثتين كانت أكبر جرم اقترفه بلده وأن الثانية أكبر مصيبة حلت بذلك البلد ولكنه يذكر الحقائق محررة و يترك القارئ يستنتج منها نتائجه ولو لم نكن نعرف أنه أثينى لما عرفنا من كتابته هل يميل الى جانب أثينا أو الى جانب اسبارطة فى تلك الحرب ذلك بأنه فى كتابته يبعد نفسه وشعوره كل البعد عن موضوعه هذا الى أنه كان وطنيا صميما يصف الحرب التى قضت على مجد دولته وسلطانها .

فهل يظن انسان أن مؤرخا يكتب تاريخ الحرب الكبرى حرب

١٩١٤ — ١٩١٨ بهذه الطريقة سواء كان فى صف الحلفاء أو فى صف الألمــان .

كذلك شعر هوميروس يمتاز بميزة التجرد فان هوميروس وان كان يونانيا يصف حربا دامت عشر سنين بين اليونانيين والأسيويين فان معظم قرائه يعطفون على هكتور أكثر من عطفهم على أشيل . أما هو فانه لم يفضل أحدهما على الآخر بل نظر الى الرجلين نظرة واحدة وشعر بشعور واحد نحو البطل الذى يحارب عن طروادة حربا خاسرة وذلك الذى قتل صديقه فأذهله الحزن فلم يعد يرى أو يشعر الا بشىء واحد هو رغبته الشديدة فى الانتقام . لقد يخيل الينا أن من الصعب أن يكتب انســان ختام الكتاب الثانى والعشرين من الالياذة الذى يتقابل فيــه البطلان من غير أن يميل بطبيعته الى أحدهمــا فأما نحن فنميل الى جانب هكتور وأما هوميروس فانه يبتعد فى كتابته عن هذا النزاع كل البعد يرى الرجلين ويحس ما يحســانه ولكن عمله الوحيــد أن يحصى على كل منهما أعماله ولا يحكم له أو عليه ولا يستطيع القارئ أن يعرف أفكار هوميروس أو أفكار توسيديديس الا من قبيل الحدس والتخمين فان هذين الكاتبين يذكران الحقائق من غير تعليق عليها بل يتركانها تفسر نفسها بنفسها وتثير فى نفس القارئ ما يجب أن تثيره من الشعور وتوضح له سبيل الحكم عليها بنورها الوهاج .

وان قليلا من الفكر ليدلنا على أن المزاج الصريح المتجرد الشيئى هو أصل العلم والفلسفة اللذين ينشآن عن الرغبة فى رؤية الأشياء على حقيقتها لا كما يحب الناظر اليهــا أن يراها وفى استطاعتنا أن ندرك أثر هــذا المزاج فى الشعر اذا ذكرنا بعض مظاهر الأدب

الانجليزى التى لا نرى لها مثيلا فى الأدب اليونانى ومن هذا البحث نعرف أيضا ما يمكن أن يستفيده كتاب العصر الحاضر من الأدب اليونانى وهل هم فى حاجة الى الاستفادة منه .

وأهم مميزات الصراحة حصر الذهن فى الموضوع وهذه العادة تقلل بل تمنع اتباع قاعدة مرسومة فى الأدب وتقضى على الشعور الرقيق المتصنع والخيال البعيد مما يمنع الكاتب من أن يرى الحياة ويصفها على حقيقتها ، هذه العيوب كلها موجودة فى الأدب الانجليزى وقد سبق أن مثلت لذلك بنكتة بن جنسن وبحثت المسألة فى غير هذا المكان [1] ولذلك سأنتقل الى بحث العيوب الأخرى التى هى أحدث من ذلك فى الأدب والتى لا تتفق أيضا والصراحة فى التعبير فنقول :

ان غنى اللغة الانجليزية هو فى نفسه خطر كبير عليها ذلك بأن طبيعة هذه اللغة تساعد كثيرا على اللغو والهترة شأنها فى ذلك شأن اللغة اللاتينية وقد عرف هذا كتاب عصر اليصابات ولما كان كتاب العصر الحاضر أميل الى الافراط فى التأنق من كتاب ذلك العصر فقد استغلوا ما فى اللغة الانجليزية من موسيقية كما يتبين الانسان ذلك من مجموعة من الشعر ككتاب أكسفورد فى الشعر الفكتورى الذى يمثل شعر ذلك العصر أصدق تمثيل . يحتوى هذا الكتاب على بعض الشعر الرقيق ولكن معظمه " لغو فى وصف أشياء عديمة القيمة " كما يقول هوراس : كذلك كان شعر معظم مقلدى تنيسن غثا وقلما يوجد فيه شىء قيم وخير علاج لهذه السفاسف البيانية والموسيقية قراءة الأدب اليونانى لأنه خلو من

---

(١) فى العبقرية اليونانية ومعناها ص ٧٤ وما بعدها .

البيان وأن ما كان فيه من ألفاظ موسيقية خالية من المعنى قد سخر منه الكتاب فى ذلك العصر ففضحوا أمره حتى لم يبق منه الا القليل وعلى الجملة فان صراحة الأدب اليونانى قد حالت بينه و بين هذا العيب الأخير كما أن كثرة المحسنات اللفظية فى شعر لوكان و بيرون وغلبة اللفظ على المعنى فى بعض من شعر شلى وفى معظم شعر سوينبرن سببه أن أولئك الشعراء قد أغفلوا عالم الحقائق وتاهوا فى نغمات الألفاظ ، وأما اليونانيون فقد بدءوا بالحقائق لا بالألفاظ ولا بشعورهم نحو الحقائق ولذلك لم يكن من السهل أن يخضعوا لسلطان اللفظ لأنه لم يكن لديهم ما يغريهم على ذلك الخضوع واذا وجد هـذا الاغراء فأوقعهم فى ذلك الخطأ فسرعان ما كان يفتضح خطؤهم ولهذا كان اليونانيون من هـذه الوجهة مثلا طيبا يحتذيه الأدباء لا سيما أولئك الشعراء الذين اذا كتبوا نسوا الأرض وما عليها وسموا الى جنان من المشاعر المبهمة غير عالمين أن أحسن الشعر شعر الحقائق لا شعر الألفاظ وان الشعر مهما سما و بعد عن عالم الدنيا فان أسلمه وآمنه ما بدأ بالعالم الأرضى وكان على اتصال دائم به .

وفى الصراحة أيضا منجاة من الأدب الأنانى وهو العيب الذى يقع فيه الشعر النفسى اذا أفرط فيــه . ان عادة ادخال الكاتب نفسه فيما يكتب لا عيب فيها اذا انحصرت فى دائرة ضيقة ولكنها اذا أفرط فيهــا أصبحت عيبا كبيرا كما ترى فى الأدب الانجليزى ، ان أحدا لا يشــكو من أن ملتن ووردسورث مثلا أقل تجردا فى شعرهما من شاكسبير وسـفكليز ولكن الأمر غير ذلك فى شعر بيرون وكارليل النفسى فان شعرهما تغشاه دائما سحابة من نفسيهما تخفى معناه اخفاءا جزئيا أو كليا فتشيلد هارولد يرى نفسه فى كل

ما ينظر اليه ويبرز شخصيته فى بلچيكا وأثينا وروما فيغشى سماءها الزرقاء غمامة من مزاجه الصفراوى ويكاد ينطبق هذا أيضا على تلاميذ كارليل مثل رسكن وفرود وعلى طائفة من صغار الشعراء والقصصيين الحاليين الذين لا يعرضون على الجمهور الا ما فى قلوبهم من غم وغل . ان الأنانيـة عيب فى التفكير والأسلوب كما هى نقص فى الأخلاق لهـا أثر خاص بهـا ويلاقى صاحبها ما يستحقه من الجزاء ، فأما أثرها فانها تشغل الانسان عن عظائم الأمور بصغارها تلهيه عن العالم الواسع وتشغله بالنفس الصغيرة . أما جزاؤها فهى أنها بما تبعثه من الملل والسآمة فى نفس القارئ تجعل الجيل الذى يعقب صـاحبها ان لم يكن معاصروه أنفسهم يسأمون ادخاله فى كتابته عنصرا لا يهمهم قط ومن ثم كان النسيان جزاء الكاتب الأنانى وان كان هذا الجزاء ظالمـا فى كثير من الأحيان لهذا ترى الجيل الحاضر على اهتمامه بالأشخاص لا يتسع وقته لقراءة بيرون أو كارليل لأن أشخاص معاصريه تشـغله عن الاهتمام بأشخاص من سبقوه ولكنك لا تجد كاتبا يونانيا نسيه الناس من أجل هـذا العيب . فمهما كان فى الكتاب اليونانيين من عيوب فليس منها الأنانية الأدبية ذلك بأن صراحتهم حولت كل أنظارهم الى العالم الخارجى وعودتهم أن ينظروا حتى لأنفسهم من خارجها .

على أن الأنانية ليست أكبر عيوب الأدب الانجليزى بل أن بعض الناس يعدونها من فضائله . أما العيب الذى هو أشد خطرا والذى يشترك فيه الأدب الانجليزى مع غيره من الأدب الحديث فهو ضيق وجهة نظره واقتصاره على جانب واحد ولقد ظهر أثر ذلك فى التدافع المتكرر بين المذاهب الأدبية فلقد تقلب الأدب الانجليزى بين الوجدانيات المبالغ فيها وبين الأدب الواقعى المحض

السائد فى الوقت الحاضر وهذان المذهبان من مذاهب الأدب هما افراط فى مزاجين مختلفين : الأول افراط فى الكرم والعطف ، والثانى افراط فى الصدق و يمثلهما من كتابنا العبقر يين (دكنز) و (هاردى) أحسن تمثيل وأنصار المذهب الأول يرون فى قصصهم أن يجزى الطيبون دائما خيرا والمسيئون شرا كما يودون أن تكون الحياة و يغمرون باحسانهم أولئك الأشخاص أو يصبون عليهم جام غضبهم من غير أن يكون لمـا يقع فى العالم الخارجى أثر فى حكمهم ، لذلك تجد مكوبر ومستر مل ينجحان فى أستراليا مع أن شخصيتهما لا تترك مجالا للشك فى أنهما انما ولدا ليلاقيا الخيبة والخسران ، كذلك تجد العقاب يحل فى قصص دكنز أسرع مما يحل فى عالم الحقائق يأتى بعد هذا الافراط الكاتب الصدوق فيغضبه ما يرى فى الأدب من استهزاء بالحيـاة تضلل القارئ وتسخر من الحقائق فيندفع بكليته الى الطرف الثانى فيجسم الخيال و يعنى كل العناية بحجب نور الحقيقة عن الأنظار لذلك نرى أنه بينما سكوت ودكنز يمثلان العالم تمثيلا غايته أن تلقى الرذيلة الآثار وتجزى الفضيلة أحسن الجزاء ترى توماس هاردى فى قصتيه چود المجهول وتس صاحب دو برڤيل [1] يحتج على المذهب السالف الذكر و يملأ الفراغ الذى أغفله سابقوه ولكن فى هذه الحالة أيضا يعتدى على الصدق أعظم أنصاره لأن العـالم الذى يمثله هاردى ليس هو العالم الحقيق فدكنز عند ما يرسم شخصية مستر مكوبر حاكم مقاطعة بورت مدلباى لا يمثل الحياة ولكنه يمثل ما يريد هو وقراء قصته أن يعتقدوه لتنشرح صدورهم متى أتموا قراءة القصة .

(١) فى هاتين القصتين وفى قصة الحاكم يسمح هاردى لآرائه الشخصية أن ترجح احدى الكفتين وأما فى قصصه القليلة الأهمية فقد استطاع أن يلزم الحياد ولا بد أن يذكر القارئ هذا الفرق بين قصصه فى كل ما أورده هنا من الانتقاد على كتاباته .

يغضب لذلك توماس هاردى فى الجيل الذى يليه فيكتب قصته ويصف سوء عاقبة تس ثم يشفع ذلك بتلك العبارة ، وبذلك ختم إله الآلهة عبثه بتس " فدل بهذه العبارة على أنه ليس أصدق تمثيلا للحياة من دكنز وعلى أنه يضع نفسه موضع الحكم فى هذا العالم القاسى فى نظره .

على أننا لا نستطيع أن نصف دكنز وهاردى بعدم الصدق لأن كلا الرجلين يصف الحياة وصفا صادقا الى حد ما وخطأ هاردى على الخصوص ينشأ من حذف الحقائق أكثر مما ينشأ من تشويهها فهو يرى جانبا واحدا من الحياة ويغض الطرف عن الجانب الآخر فلا يستطيع أن يوفى كل جانب حقه من الاهتمام وينقصه العطف على العالم بوجه عام وكلا الشاعرين غير كامل فى كتابته فليس يصدق عليهما ما يصدق بكليته على معظم الشعراء اليونانيين وما يصدق بعض الصدق عليهم جميعا من أنهم ينظرون الى الحياة نظرة مطمئنة شاملة لا كنظرة دكنز وهاردى ومن جاء بعدهما ممن قلدوهما فى عيوبهما وتمادوا فيها شأن جميع التلاميذ والمريدين فأخذوا يترددون بين العواطف الكاذبة والحقائق المجردة القاسية التى سادت الأدب الانجليزى فى العشرين سنة الأخيرة والأدب الفرنسى منذ أبعد من هذا الزمن فليس بين هؤلاء الكتاب حتى بين أحسنهم من هو صريح فى كتابته بل كلهم يشبهون دكنز فى اطاعة ما تمليه عليهم عواطفهم الكريمة أو يسألون أنفسهم وهم يكتبون " هل يمكننا أن نصدق من غير أن نغضب الجمهور " وذلك أسوأ الشرين ومنهم من يسترون غرضهم الارشادى وراء ستار الواقعية ويصبون جام غضبهم الشخصى الشديد على قسوة العالم فهم فى كلتا الحالتين ضيقو النظر ينظرون الى العالم خلال منظار من مزاجهم .

ولتوضيح هذه النقطة نأخذ قطعة شهيرة من شعر هوميروس ونسأل أنفسنا كيف كان يكتب هذه القطعة كاتب خيالى وآخر واقعى . تصور كيف كان يصف دكنز أو هاردى موت هكتور فأما أولهما فالأرجح لدينا أنه ما كان يسمح بأن يموت هكتور واذا سمح به فلا أقل من أن ينعت أشيل بأقبح الأوصاف ثم يمعن فى وصف مأساة موت هكتور حتى يمل القارئ من شدة العطف والحنان عليه فاذا واجه دكنز مثل هذه المأساة أطلق لجزعه وحزنه العنان وأما هاردى فلسنا نظن أنه كان يتأثر بحزن الموقف تأثره بوحشية أشيل وفساد نظام العالم الذى يجيز وقوع مثل هذا الحادث ولا يستطيع هاردى أن يترك تلك المسألة الخلقية تمر على القارئ دون أن يلفت اليها نظره باشاراته الدقيقة و بتأكيده بعض النقط المناسبة كل ذلك ليجعل مأساة الموت أشد أسى ووحشية أشيل أكثر فظاعة كما فعل فى موت چود وهكذا يجعل دكنز وهاردى كل بطريقته الخاصة شخصيتهما هى الناطقة لا الحقائق نفسها فهما برؤيتهما جانبا من القصة دون الجانب الآخر يجعلانها أقل تعقيدا من الحياة الحقة وأقل منها كمالا . أما فى الاليـاذة فلست ترى شيئا من شخصية هوميروس ولا تسمع فيها الا صوت الحقائق المجردة ترى القصة تفصح عن نفسها دون حاجة الى الحيلة والصناعة اذ كل ما يفعله الشاعر أن يضع الشخصين أما القارئ هكتور أمل طروادة الأخير تنتظر عودته زوجه وولده وأشيل وقد جن لموت صديقه — ولا نرى بعد ذلك حكما أو تعليقا بل نرى المنظر لا أقل ولا أكثر .

وجوابنا لمن يقول ان دكنز أو هاردى يمثل العالم تمثيلا صادقا أولا — ان العالم الذى يصفانه ليس هو العالم الذى يصفه شاكسبير أو

مرديت وكثير من النـاس يكفيهم هذا برهانا على أنه ليس العالم الحقيق . ثانيا — ان تاريخ الأدب الانجليزى والفرنسى كان فى المائة وخمسين سنة الأخيرة عبـارة عن رد فعل متكرر فقد حل الأدب الوجدانى محل الأدب العقلى ثم جاء على أثرهمـا الأدب الواقعى وكل مذهب من هذه المذاهب عبارة عن احتجاج على سابقه ورد فعل له ولا بد لهـذه التقلبات من سبب اذ لا يوجد رد فعل فى الأدب الا اذا كان ثمة افراط يثيره لأن رد الفعل فى الحقيقة هو أعراض مرض لم تكن لتظهر لولا هـذا المرض الكمين ويحتمل كثيرا أن رد الفعل يفرط فيه أيضا ذلك بأنه اذا اختل التوازن مرة سواء فى عالم الأدب أو فى عالم المـادة صعبت اعادته كما كان هذا شأن الأدب الانجليزى والفرنسى ، أما الأدب اليونانى فلم ينم فى دور من أدواره كما نمـا الأدب الانجليزى والأدب الفرنسى بطريقة رد الفعل فقد تلا الشعراء الحمـاسيين الغنائيون ثم جاء من بعدهم شعراء المآسى ثم أعقبت المآسى الملاهى الحديثة ثم تلاها كلها شعر الاسكندرية العلمى الفنى . أما فى النثر فقد تلا أسلوب هرودوت الخالد أسـلوب توسيديديس وأوجد أفلاطون وغيره من الخطباء أسـاليب فى الكتابة مختلفـة ولكن ليس بين هـذه الأساليب ما يصح أن يوصف بأنه رد فعل لمـا قبله نعم قد نجد بعض التدافع بين نظرة سفوكليس الهومرية ونظرة يوربديس ولكن هذا لا يعد تدافعا بين مذهبين أدبيين بل بين كاتبين فرديين ولا يوجد وجه شبه بينه وبين العلاقة الكائنة بين الأدب الوجدانى والأدب القلبى أو بينه وبين الأدب الواقعى ، والفرق بينهما أقل وضوحا مما هو بين ڤولتير وڤكتور هوجو مثلا أو بين هذا وبين فلوبر ، والخلاصة أنه ليس فى الأدب اليونانى تدافع بين مذاهب مختلفة لأنه ليس

فيهـا افراط فى أحدها حتى يدفع بمذهب آخر والسبب فى عدم وجودهذا الافراط أن الكتاب اليونانيين صادقون شيئيون كأنهم مرآة تنعكس عليها الحياة كما هى لا عدسات تشوّه الحياة فتظهرها على غير حقيقتها بحسب ما فيها من العيوب والنقائص .

و يشـبه الأدب اليونانى فى هـذا الأدب الا ليصاباتى نعم ان الثانى شخصى أكثر من الأوّل وأوفر منه مادة وأكثر شذوذا وخيالا ولكنه يختلف عن الأدب الانجليزى فى أى عصر من العصور التـالية لأنه فى الجمـلة أبعد عن الهوى وأخلى من الارشاد وأكثر ميلا الى التفكير فى الحياة من أجل الحياة نفسها غير أنه بعد عصر المتحرجين فى النصرانية تكرر ظهور النزعة الارشادية فى أسلوب الكتاب الانجليز وكثر حدوث الاحتجاجات والانقلابات الأدبية وهذه الانقلابات مهما أعجبنا بها فى الأخلاق كثيرة الضرر فى عالم الأدب لأنها تنتهى بكل ما تنتهى بهـا كل الانقلابات عادة أى بالافراط فى احدى النـواحى افراطا يفسد اعتـدال المزاج الذى لا بد منه لوجود أحسن الأدب وأعظمه ولم تبلغ شدّة هذا المزاج الارشادى الذى يستر أحيانا بستار الواقعية ما بلغه فى عصرنا هذا والسبب فى ذلك أن كثيرا ممن يجب أن يشغلوا وظائف دينية قد ولوا وجوههم شطر أعمال أخرى فاتخذوا الأدب وسيلة ليلقوا بها على العالم المواعظ التى كانت تلقى فى الماضى من فوق منبر الكنيسة ونكتفى من بين هؤلاء بذكر ولزوشـو وجولزورذى وكلهم قسس ضالون قد خلقوا لالقـاء العظات الدينية لا لكتابة القصص والروايات وان شئت فسمهم أشخـاصا مزدوجة قسسا وكتابا منشئين قد أفسد خلقهم الدينى مزاجهم الشعرى فنشأ عن ذلك أن رغبتهم الشـديدة فى الارشاد والوعظ تلك الرغبـة التى كانت

تسكن ثائرتها منذ قرن من الزمان بكتابة رسالة دينية أخذت تظهر اليوم على شكل قصة أو رواية تمثيلية لا تختلفان عن الرسالة فى معناهما وشكلهما أما مزاجهما ومقصدهما فهما كمزاج الرواية التمثيلية وقصدها سواء بسواء .

على أنه من الكنود أن ننكر فضل هذه النزعة الارشادية والتهذيبية التى تبعث الحياة فى طائفة كبيرة من الأمة الانجليزية والتى يرجع اليها الفضل فى كثير من أعمالها المجيدة ولكن موضع هذه النزعة عالم الأعمال المادية لا عالم الآداب وليست هى التى تنتج أفضل الآداب وأعظم الأفكار ولو كان لدى اليونانيين قسط أكبر منها لأفادتهم كثيرا ، أما نحن فما أحوجنا الى الاستفادة من نزاهة اليونانيين العقلية تلك النزاهة التى اذا وجدت فى المناقشات السياسية والاجتماعية أعانت على فهم الآراء المتناقضة وجعلت محجة الصواب سهلة واضحة ، ولو وجدت فى الأدب لأنجتنا من الافراط الذى يتبعه رد فعل يعقبه افراط فى جانب آخر ، واذا امتزجت بالحياة القومية حفظتها من المادية التى تسود عادة فى العصور الصناعية والتجارية . ليست هذه النزاهة مقصورة على اليونانيين ولكن المثل الأعلى للصدق لم يظهر بأوضح وأعم مما ظهر به لدى تلك الأمة التى أوجدته فى عالم لم يكن يعنى به ثم بنت على أساسه آدابها وفنونها وعلمها وفلسفتها .

وآخر صفات الأدب اليونانى التى أريد أن أبحث فيها هنا صفة لا يتوقع الانسان وجودها مجتمعة مع صفة الصدق وهى من غير شك نادرة الوجود لدى كتاب العصر الحاضر الواقعيين تلك هى غريزة الجمال التى لا ينكر وجودها لدى اليونانيين انسان يشهد بذلك ونكلمان الذى كشف هذه الصفة من جديد مع أنه كان

يعيش فى عالم قد نسى اليونانيين و يشهد بهـا أيضا كيتس الذى لم يتعلم الأدب اليونانى تعلما يبعث فيـه البلادة وقلة الاهتمام به بل عرفه عند ما بلغ سنا تمكنه من الحكم عليه حكما صادقا وقدعرف كيتس وونكلمان بأن فى الأدب اليونانى جمـالا ظريفا عديم النظير ومن الأدلة على ذلك الجمال "أساطير اليونان الدينية الجميـلة" (١) التى ابتدعها خيال جمهور ساذج غير مثقف والتى لا تدانيها فى جمالها أساطير أقوام الشمال . ان لهـذه الأساطير قوة سحرية تتبينها فى قصص اطلنطا و (النرجس)، بجمليون، أورفيوس ، يوريديس، فيتون ، مدوزا حتى ولو قرأتها متفرقة فى القاموس .

والقطعة الآتية المأخوذة من أنشودة ديميتر توضح ذلك الجمـال وان لم تكن من خير القطع فى الأدب اليونانى ومع أن كاتبهـا غير معروف وهى قطعة "الأرض وابنتها برسفون" واليك هى :

"يامن اختطفها ايدينوس برضاء زيوس ذى النظر الثاقب وإله الرعد القاصـف وهى تلهو مع بنـات اقيانوس الكواعب وتجمع الأزهار من أرض كستها الحشائش الفضية والورد والزعفران والبنفسج الجميل والسوسن والخزامى والنرجس ذو الجمال الباهر الذى أخرجته الأرض لتقتنص به الفتاة الزهراء اجابة لرغبـة ايدينوس لقد أعجب بالنرجس كل من رآه سـواء فى ذلك الآلهـة الخالدة والخلائق الفانون ولقد نمت من جذوره مائة زهرة وانتشر شذاها فضحكت لرؤيتها الأرض وأمواج البحار فأعجبت الفتاة بما رأت ومدّت يديهـا لتقتطف تلك اللعبة الجميـلة وعنـد ذلك انشقت الأرض ذات الفجاج فى سهل نيزيا وخرج منهـا ملك أمة الموتى العظيمة بخيوله الخالدة" .

(١) ليتس فى مقدمة انديميون .

أنظر بعد ذلك الى قصيدة انجليزية شبيهة بهذه كقصيدة أونون أو تيتونس تجـد بينهما فرقا كبيرا اذ مهما بلغ شـعر تنيسون من الجمـال فان خيرا منه جمال الشعر اليونانى لأنه ليس جمال اللفظ أو الاستعارات أو الصناعة ، بل هو جمال أبسط من ذلك ، جمال طبيعى غريزى اذا رأيته حسبت أن الطـبيعة نفسهـا لا الانسان قد نطقت به ، ولقد شهد بذلك الجمال الفذ كاتبان من أقدر الكتاب على الحكم فى هـذا الموضوع لأنهما من أكبر شـعراء العالم ومن أكثرهم إلمـاما بآداب اللغات المختلفة التى لم يصفاها بمـا وصفا به الأدب اليونانى . هـذان الكاتبان هما جوته وكيتس وقد قال أولها فى ذلك قولا قاطعا صريحـا : "يشعر العقل وهو ينظر الى جمال الأدب القديم كأن الطبيعة من حوله قد بلغت منتهى الجمال ولا تزال للأناشيد الهومرية حتى وقتنا هذا ما كان لها من المقدرة على أن تزيل عنا ولو الى حين ذلك العبء الثقيل ، عبء التقاليد القديمة التى ظلت تنقض ظهرنا مئات السنين" و يشير جوتا بهذا الى مافى الأدب اليونانى من جمـال ساذج طبيعى يختلف كل الاختلاف عن ذلك الجمـال الغريب المتكاف الذى ساد الفنون والآداب فى القرون الوسـطى وفى العصر الحـاضر ، وكذلك كان يفكر كيتس فى تلك القدرة التى امتاز بها الجمال اليونانى وهو يكتب قصيدته عن "الوعاء اليونانى" و يقول : "أيها الجسم الصامت الذى يبعد بنـا عن الأفكار والظنون كما تبعدنا عنها الأبدية . أيها الراعى الذى فقد جذوة الحياة انك بعد أن تفنى الأيام هذا الجيل الحاضر ستبقى على الرغم ممـا يحيط بك من حزن وألم غير حزننا وألمنا صديقا للناس تناديهم ان الجمـال هو الصدق والصـدق هو الجمال ، ان ذلك هو كل مايهمك معرفته عن هذه الدنيا واست بحاجة الى أن

تعرف غيره" ويشير كيتس بهذه العبارة الى ميزة أخرى من ميزات الجمال اليونانى لا بد أن يشعربها كل من رأى التماثيل اليونانية . تلك هى أن ذلك الجمــال لا يثير جدالا كما أنه لا يحرك رغبة لأنه لا يخالطه من العناصر ما يحرك فى الانسان هذه المشاعر ، بل ، هو جمال خالص نقى يبتغيه الانسان لنفسه .

وليس الجمال اليونانى مختلفا فى نوعه عن جمال أدبنا فحسب بل هو أيضا أغنى منه كما يحكم بذلك كل ناقد نزيه وازن بين هوميروس والشــعراء الغنائيين وكتاب المآسى وأفلاطون وتيوكريتس وكتاب النكات الشعرية من جهة وبين من يمــاثلهم فى الأدب الحديث من جهة أخرى . لقد نظر اليونانيون الى العالم من جهة أخرى غير التى نظر اليه منها كتاب الوقت الحــاضر وكانوا أكثر منا ادراكا لجماله كما أن بعض الناس يفوقون البعض الآخر فى رؤية الألوان وسماع الأصوات والشعور بالعواقب الخلقية والعقلية ويتضح ذلك بجلاء من طريقة معالجة اليونانيين للموضوعات المحزنة فهو ميروس والروائيون مثــلا لا ينقصهم الأسى والحزن فى كتاباتهم ، وربمــا كان نظرهم الى الحياة أسوأ من نظرنا نحن اليها ، وقد أثر عنهــم تشاؤمهم الذى جعلهم يواجهون الحقائق ويعترفون بها مهما كانت مرة ولكن تلك السحب المكفهرة فى سماء أدبهم تخللها دائما بوارق من الجمال فترى هوميروس وهو يصف فراق هكتور وأندروماكى المحزن يخفف من وقعــه بذكر قصة الطفل والريش المنكسة ولكنه لم يتخذ من هذه الحادثة وسيلة يزيد بها المأساة حزنا وأسى كما كان يفعله غيره من الكتاب فى مثل هذا الظرف ، والحق أن تلك الحادثة لا تزيد من حزن المأساة ولا تنقصه وانما هى ساعة حبور اختيارى عرضى وطبيعى فى الأطفال تشبه أويقات السرور التى تستبدل

بأشدّ الساعات حزنا فى الحياة وان خلت منها القصص الواقعية كذلك يمهد اسكيليس الى مذبحة سلاميس بذكر خيول الفجر البيضاء وصدى الأصوات المترددة خلال الصخور وزبد البحر الأبيض الذى يرى من تحت المجاديف ولا ينسى وهو يصف الجزيرة التى قتل فيها الفارسيون الرقص الذى كان يتمتع به (پان) فى العهد القديم.
وان شئت مثلا ثالثا فهاك أغنية تأتى فى أثر أشدّ اللحظات حزنا فى هيبوليتس "ليتنى أستطيع أن أختفى عن الأنظار فى كهف فوق ذروة التلال لا تشرق عليه الشمس بنورها الوهاج أو أعيش فوق هامة السحاب كطير من أسراب الطيور التى خلقها الله أو ليتنى أقضى نحبى بين خرير ماء البحر الأدرياوى العميق على ذلك الشاطئ الذى ترى فيه مياه أريدانس رائقة صافية وحيث تجلس أخوات فيتون الحزانى بجوار قبره ، يسكبن فى النهر عبراتهن فتتلألأ كل دمعة خلال الأمواج تلألؤ الكهرمان" [1] .

قد يكون اجتماع الجمال والأسى من المتناقضات ولكنه رغم تناقضه يكسب الأدب قوة لا ينكرها قارئ . ان قصة موت هكتور وحدها كما يرويها هوميروس لشديدة التأثير حتى ولو قرأها الانسان مترجمة بلغة غير لغتها الأصلية ، أما اذا قرأها بتلك اللغة نفسها فان سحر بيانها وبحر شعرها يضاعفان هذا الأثر . ولا حاجة الى القول بأن اجتماع الأسى والجمال الذى هو من مميزات الأدب اليونانى ، على ما فيه من تناقض ظاهرى ليس قاصرا على الأدب اليونانى مثال ذلك : وصف موت أوفليا فى رواية هاملت . ولكنك لا تجد رواية تمثيلية غير الروايات اليونانية امتزج فيها الأسى والغناء البديع امتزاجا منتظما يرجع اليه الفضل فيما للأدب اليونانى من قوة التأثير .

(١) الالياذه صفحة ٧٣٢ (ترجمة مراى) .

على أن كلمة التأثير كلمة خاطئة فى هذا المقام، لأنه ليس فى الأدب اليونانى أثر للصناعة ولكنها الحياة تامة جلية بطبيعتها تشعر بذلك الجمال الذى لا تقضى عليه الشرور وترى ما للأسى نفسه من جمال وتذكر أنه مهما طالت الأيام السود فان العين يسرها أن ترى خلالها ضوء الشمس . وهذه الفلسفة التى يتضمنها الأدب اليونانى جميعه تحببه الى كثير من الناس لأن من لا تعجبه فلسفته أعجب بما فيه من جمال. ان الروح اليونانية من القوى الكثيرة الاختفاء والظهور التى اذا ما وصلت من جديد الى يد الانسان أثارت قواه الكامنة بقوتها السحرية كما تثيرها التمائم والطلاسم وكل من قرأ أدب ذلك العصر الذى أحيي فيه الأدب اليونانى رأى أن أكبر آثاره أنه يبعث فى الناس شعورا بالبسطة والحرية ، فان اليونان فى عصر إحياء العلوم، وفى القرن الثامن عشر قد وجدت العالم مقيدا بأغلال ثقال فحطمت تلك الأغلال ودمرت جدران السجون ، نعم ان هذه الأغلال لم تكن متشابهة فى هذين العصرين ولكن الحرية التى تمتع بها الناس وقتئذ كان من أسبابها الكثيرة فى أول هذين العصرين وكان سببها الوحيد فى ثانيهما ما بهرت به اليونان العالم من جمال وأن العصر الذى نعيش فيه لكثير القيود أيضا، وأن الانسان ليشعر كل الشعور بذلك العبء الثقيل الذى وصفه جوته لقد سرى القبح فيه بخطا أسرع من خطا الجمال ولا يستطيع كتابه أن ينقذوه من هذه السقطة مهما بلغت كتابتهم من الكثرة واللذة ومهما أوتوا من القدرة على التفكير ولكنهم قد يجدون فى الأدب اليونانى ما وجده فيه الكتاب فى سائر العصور من قوة تصلحه وتطلقه من عقاله .

ان لأدب الانجليزى لا يفضله أدب آخر ولكن عيوبه من النوع الذى يخلو منه الأدب اليونانى، ذلك بأن بساطة الأدب اليونانى تجعل قارئه يوجه كل اهتمامه الى عواطف القلب البشرى وصدقة يمكن القارئ من رؤية العالم على حقيقته ويدعوه الى النفور من الألفاظ الموسيقية الجوفاء ومن البلاغة والمشاعر الكاذبة ومن ضيق نظر الكتاب الذين لا ينظرون الى الحياة فى مجموعها بل يقصرون نظرهم على جانب واحد منها ويهملون الجانب الآخر حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وأمزجتهم . أما جمال الأدب اليونانى فهو رمز لجمال العالم الذى عميت عنه بصائر الناس أجيالا عدة وأما لفظه فهو درس فى الأسلوب عظيم الفائدة يبين ما له من مكانة فى الأدب .

وليس فى دراسة الأدب اليونانى من خطر على عبقريتنا القومية ذلك بأن دراسة الآداب الأجنبية قد تعرقل رقى أدب الأمة فى منشئه وقد تفسده أحيانا ولكنها لا تمسه بسوء مطلقا اذا كان هذا الأدب قد نما وترعرع لأن صبغته القومية تكون عندئذ قد ثبتت وتمكنت أصولها فلا يقوى الأدب الأجنبى على افساده فاذا وجد الى جانبه مستوى آخر من الآداب لموازنته به وكشف عيوبه ثم اصلاحها كان وجود الأدب الأجنبى خيرا محضا ويؤيد هذا الرأى الأدب الانجليزى نفسه فان أثر الأدب اليونانى فيه كان كبيرا ولكنه لم يفسده أو يشوهه، انظر الى الشعراء الذين كان للأدب اليونانى عليهم أكبر فضل أمثال ملتون، وجراى، وشلى، وكيتس، ولاندروتنيسن، وماتيو آرنلد، وسونبرن، وبردجس، أولئك يصعب على أى ناقد أن يجد أية خاصة مشتركة بينهم أو أية صفة جامعة فى شعرهم يرجع أصلها الى الشعر اليونانى، اللهم الا رصانة اللفظ

والأسلوب على أن هذه الرصانة ليست من الرذائل الخطرة المعيبة الشائعة بين الكتّاب الانجليز وحتى هذه الصفة العامة لا يظهر لها أثر اذا أضفنا الى الشـعراء السالفى الذكر الشعراء المعروفين باسم برونج الذين كانوا يفهمونـــ اللغة اليونانيـة والروح اليونانية و يقدّرونهما تقديرا لا يقل عن تقدير الشعراء الأوّلين .

ولقد يعجب الانسان لأول نظرة من اختلاف الأسلوب والمـادة فى شعر شلى ، وكيتس وفى شعر آرنلد ، وسونبرن الذين كانوا من أشدّ الناس اعجابا ببلاد اليونان والذين كانوا يستمدّون منهـا وحيهم الشعرى ولكن السر فى هذا يسهل ادراكه اذا عرفنا أن لبعض الآداب أثرا استبداديا يفرض نفسه على قارئه فيسيطر عليه و يستعبده ولكن هناك نوعا من التأثير خيرا من هذا وأندر منه وجودا وكل ما يفعله أنه ينبه الشاعر و يلهمه ثم يتركه ينمى عبقريته بعـد أن يوسع دائرة نظره و يقوّى احساسه وقد كان أثر الأدب اليونانى فى الكتّاب الانجليز من هـذا النوع الأخير و ربما كان سبب ذلك خلو الأدب اليونانى دون غيره من الآداب من التحايل والتصنع الصالحين لأغراض السخرية والاستهزاء فكأن ذلك الشـعر هو لغة الطبيعة بنغماتها المختلفة ".

ر . و . لفنجستون

التـاريخ

الفصـــل الأول

العلاقة بين مدنية الاغريق القديمة ومدنية غرب أوربة الحديثة

انقضت الحياة الاجتماعية الاغريقية فى القرن السابع الميلادى ، ويرجع بعض المؤرخين انقضاءها الى ما قبل ذلك بكثير ، الا أن كثيرا من المؤرخين مجمعون على أنه وان كانت لا تزال بقية من الحياة عالقة بالجسم الى ذلك التاريخ فان الجهود العقلية والجثمانية له كانت قد انقضت منذ عهد بعيد وأن الانتقال من غشية الموت الى وقوعه لم يكد يحس به ، لذلك اذا أمعنا فى الحساب فان زهاء ثلاثة عشر قرنا تقف بين نهاية تاريخ الاغريق وبين العصور الحديثة ، وان العصر الزاهر فى تاريخهم أيام أن كانوا فى أوج عظمتهم وكانوا يملون تاريخهم على العالم ويغيرون من تاريخ الأمم المجاورة ليفصله عن وقتنا الحاضر نيف وألفا سنة ، وحق أن نتساءل أى تراث تدلى لنا على سلم الدهر فى غضون تلك العصور العظيمة من بدء الحياة الاجتماعية الاغريقية الى عصرنا الحاضر؟ وقبل أن نحتال للاجابة عن تلك المسئلة الهامة يجدر بنا أن ننظر الى أخرى أقل خطرا وهى أثر تاريخ الاغريق القديم فى عصرنا الحاضر . ان فريقا من أهل العصر الحاضر فى غرب أوربة وأمريكا يكونون جماعة خاصة يطلق عليها اسم مدنية "الغرب" وتلك الجماعة تمت بعلاقة الى الاغريق ولا نجد تلك العلاقة قائمة بين غرب أوربة وفرق أخرى حاضرة مثل المسلمين وأهل الهند والصين ، ويمكن القول ان غرب أوربة وليد الاغريق ، على أن وصف العلاقة بين

الاغريق والعالم الغربى الحديث ليتعدى المجاز الى الحقيقة فان الجماعات كالأفراد كائنات حيـة وهى تسلك سبيل الأفراد ، فلنتخذ المجاز لتبيان الحقائق . وأول ما يجب أن يلحظ أن تاريخ كل من الجماعتين جماعة الاغريق وجماعة العالم الغربى الحـديث متدخل بعضه فى بعض ، هذا ويمكن أن نرجع بتاريخ الحياة الاجتماعية فى غرب أوربة الحـديثة الى ما قبل الميلاد بقرن أو قرنين حين اختلط قبائل الغرب بشرق البحر الأبيض المتوسط حيث بلغت الحياة الاجتماعيـة الاغريقيـة كامل نمـوها واذا فأرومة الحياة الاجتماعية فى الغرب الحـديث تكوّنت فى جسم الحياة الاجتماعية الاغريقية كما تتكوّن الأجنة فى البطون ، فكانت الامبراطورية الرومانية من ذلك المجاز مدّة الحمـل وفى غضون تلك المدة كمنت الحياة الجـديدة وتغذت بالروح القديمة . وكان "العصر المظلم" شدّة المخاض . وفيه بان الجنين عن أمه وأصبح مخلوقا الا أنه كان عاريا ضيق الحيلة ، وكانت العصور الوسطى عهد الطفولة وفيه عاش الطفل واستقام على ما كان عليه من وهن ، وكان القرنان الرابع عشر والخامس عشر من ذلك المخلوق زمن البلوغ ، وهمـا يمتازان بكثير من معالم التغير والانتعاش ، أما القرون المتواليـة منذ بداية القرن السادس عشر الى اليوم فهى التى فيهـا اكتمل الطفل وبلغ غايته، وهذا المجاز يوضح ما كنا نقصد اليه وهو ما خلفه الاغريق لغرب أوربة الحديثة .

يرث الأبنـاء عن آبائهم من نواح عدّة فتنتقل الملامح والغرائز من جيـل لآخر ، وقد يقلد الولد فى طفولته الأولى كلام والده واشاراته التى قد لا تدل عليها القرابة وتصـدر عن الولد من غير أن يكون لاختياره وارادته نصيب موفور فيها ، وقد يكون التقليد

ناشئا عن العمد والاختيار وذلك فى سن متأخرة فى حياة الولد اذ يستطيع أن يدرك ما عليه أبوه من خلق ، وكل ما يورثه الأب ابنه يختلف باختلاف مبلغ ما يقف عليه اختيار الولد وارادته لقبول ما يرثه والمران عليه ، ومما يجدر ذكره أن الغرائز التى تكون أقل احتمالا أن تنتقل تكون بعينها أعظم شأنا من غيرها اذا حدث الانتقال ، وآية ذلك أن التقليد الاختيارى فى سن متأخرة يؤثر فى حياة الطفل وأخلاقه أكثر مما يؤثر ما يرثه الطفل عن أبيه وليس للاختيار نصيب فيه كلون الشعر أو العين أو شكل الذقن أو مسحة من الخلق ، وبينا نجد أن وراثة تلك الملامح الأخيرة وغيرها مما يكون فى الآباء لا بد من وجوده فى الأبناء ، نجد من ناحية أخرى أن ما يورث بطريق الارادة والاختيار قد لا يوجد فى الأبناء مطلقا ، وأن الولد لا يتشبه بوالده الا اذا عرفه وأعجب به أو كان لأبيه فى نفسه وقار واحترام ، واذا اعتبط الوالد أو حيل بينه وبين ولده أو زال ما بينهما من عطف فان ذلك جميعا يقف دون التشبه ، وفى هذه الحالة لا يكون للوراثة الاختيارية أى أثر على مكانتها من التأثير فى حياة الولد .

تلك الاعتبارات تقرب لنا فهم ما انحدر لنا من أرومة حياتنا ونعنى به مدنية الاغريق القدماء ، فهل خلف لنا الاغريق ما يقارن بما ينتقل من والد لولده من ملامح خلقية ووجوه شبه خلقية ؟ غير يسير أن نجيب على سؤال كهذا كما يصعب على أفراد الأسرة الواحدة أن يميزوا دقيق التمييز ما بينهم من ملمح أسرى ، ولذلك يستطيع المسلم أو الهندى أو الصينى على بعده من الاغريق ومنا أن يكون فى حكمه على تراث الاغريق أقرب الى الصواب وأمس للحقيقة ، الا أنه من المحقق أن تشابه الأحوال الجوية بين موطن

الاغريق وغرب أوربة الحـديثة وما بين العنصرين من آصرة الجنسية يجعلانهما أقرب لحمـة بعضهما لبعض من أيهما لأى عنصر آخر ، فان الشعر والفلسفة والحياة الاجتماعية والنظم السياسية عند قدماء الاغريق وعند الغرب الحديث لتظهر متشابهة اذا هى قورنت بمثيلاتها فى مدنيات أخرى .

فالأوربى أو الأمريكى يعلى قدر هوميروس أكثر من التوراة وفى نفسه من الأثر لسقراط أكثر مما فيها لبوذا أو كنفوشيوس ، وكثيرا ما يقارن المؤرخون بين اختلاط قدماء الاغريق بالشرق القديم واختلاط الغرب الحديث بالشرق الحديث ، على أن تلك المقارنة قد تقوم على صـلة حقة بين المدنيتين و بين نظيرتيهما الشرقيتين الا أن هذا غير مقطوع به ولا يساعدنا كثيرا فى البحث ، وربما نجـد للعـلاقة بعض أثرها الواضح اذا نظرنا الى ما يرثه الولد عن أبيـه عن غير عمـد واختيار ، فان ما خلفته الحياة الاجتماعيـة الاغريقية واضح فى العصور الوسطى وهى العصور التى تقوم مقام عهد الطفولة لمدنية الغرب الحـاضرة ، وتلك العصور كما قدمنا أعقبت العصر المظلم عصر المخاض ، ولقد كان من أولى حاجات الحياة الاجتماعية الغربية للنهوض فى حداثتها أن يكون لوحدتهـا رمز ، وهـذا يقابل ما يحصـل عليه الابن بطريق الاختيار عن أبيه ، لذلك أخذ الغرب الآراء الاجتماعيـة عن العالم الاغريقى القديم ، هذا وقد كان للدولة الرومانية المقدّسة فى العصور الوسطى من الأثر فى مدنية الغرب الحـديثة ما يخالف أثر الامبراطورية الرومانيـة فى العهد الأخير من عصر الاغريق القـديمة ، على أن المدنية الحديثة لم تخلق لنفسها نظاما يقوم بحاجاتها بل انها فى طريق

نموها وجدت عن غير اختيار أنها أحيت عادات كانت لقدماء الاغريق ، فالمفكرون السياسيون فى عصر شرلمان لم يتصوروا وحدة عالمية تخالف الوحدة الاغريقية .

أضف الى ذلك أنه بعد مضى نحو قرن بزت بعض جهات الغرب مثل شمال وأواسط ايطاليا والأراضى الوطيئة كل أوربة فى الرقى الاقتصادى وبذلك احتاجت الى نظم للحكم الذاتى تعين على حياتهم الاقتصادية فتطلعوا الى النظم الاغريقية القديمة وأحيوا نظام الولايات ثم بعد ذلك تقدمت المدنية الغربية الحديثة ونهضت سريعا فاضطرت الى الاتساع وجدت فيه فكان مجال اتساعها شواطئ البحر الأبيض المتوسط كما كانت الحال فى عهد الاغريق ، وحركة الاتساع فى العصور الوسطى التى تعرف بالحروب الصليبية والتى بدأ تأثيرها فى أسبانيا وصقلية وبحر ايجه والأرض المقدسة تشابه تماما اتساع الولايات الاغريقية وامتداد نفوذها حول نفس الشواطئ بين (٧٥٠ و ٦٠٠ قبل الميلاد) ، واذا عدنا الى البحر الأبيض المتوسط وجدنا أن الأمم الغربية فى العصور الوسطى كانت تجد فى البحث عن أراض تفتحها ولكنها بدل أن تغزو غيرها وقعت تلك الأمم تحت تأثير ما خلفه الاغريق .

والقول المجمل أن ما خلفه الاغريق يظهر فى العصور الوسطى فى ثلاثة أحوال : فى الدولة الرومانية المقدسة وفى الولايات (الفلمنكية) الوطيئة والايطالية وفى الحروب الصليبية ، ومظهر الوراثة كان فى العودة من غير تعمد واختيار الى الحياة الاجتماعية الاغريقية ، وحق أن نتساءل هل ما ورثته العصور الوسطى عن الاغريق يكوّن ركنا من أركان تاريخنا الحديث ؟ ألم تكن كل تلك المظاهر جوفاء أسفرت عن قليل ان كانت أسفرت

عن شيء مطلقا؟ فما كانت الدولة الرومانية المقدسة سوى سراب وان معنى الوحدة فى العالم الغربى الحديث لا يرجع الى النظام الاغريقى بل الى أصل قائم بنفسه هو نظام الكنيسة البابوية ويصعب أن نتتبع أى أثر للاغريق فيه ، فولايات أوربة الحديثة وأمريكا لا ترجع فى أصلها الى « غنت » أو « بروج » أو « فلورنس » أو « البندقية » فى عصورها الوسطى بل الى مصدر أحدث عهدا وأقل نظاما وهو الولايات الاقطاعية الانجليزية والفرنسية فى عصورهما الوسطى ، كذلك لم يتبع غرب أوربة الحديثة نظام الصليبيين فى مدّ نفوذه وبسط سلطانه ، فطريق البحر الأبيض المتوسط عدل عنه بعد تجربة دامت ثلاثة قرون ، واتساع مدنية الغرب الحديثة كان فى أقاليم لم يطأها الاغريق وهذه كانت شمال جرمانيا واسكندناوة والجزائر البريطانية وبحر الشمال والبحر البلطى والمحيط الأطلنطى وقارة أمريكا ، وكذلك ما ورثناه عن الاغريق عن غير تعمد واختيار كان من قبيل الاتفاق التاريخى أكثر منه صلة حقة بين المدنيتين ، أما ما ورثناه عن الاغريق حقيقة وعن عمد واختيار فهو ما ظهر فى مدنيتنا منذ بداية القرن السادس عشر الى اليوم أى من عهد أن اكتملت مدنيتنا الحديثة نموها .

ذلك الارث الذى تلقيناه من قدماء الاغريق يعرف عادة فى التاريخ باسم « النهضة الأوربية » لقد نهضت حياتنا الاجتماعية وخطت خطوات واسعة وذلك بدراسة كل ما خلفه أسلافنا من الوجهتين الأدبية والفنية ، ثم كان لنا أن نختار تلك الدراسة أو أن نمر عليها فلا ندرسها ، وقد كنا مجدودين فى درس ما خلفه الاغريق وكان ذلك من أكبر سعودنا ، هـذا وان دراسة مختلف ما تركه الاغريق قد ألمعنا اليه فى فصول ذلك الكتاب الفارطة وهنا يجدر

أن نذكر أن النهضة الأوربية لم تقتصر على درس آداب الاغريق وفنونهم بل تناولت فن العمارة والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والعلوم السياسية وكل مظاهر الحياة الاجتماعية الراقية ، وان استيعابنا تلك الحياة الكبيرة ليعلل الحركة العظيمة التى ظهرت فى مدنية الغرب فى غضون الأربعة القرون الأخيرة .

وهل لنا أن نتساءل عن انقضاء تلك النهضة ونفاد أثرها ؟ وهل ما خلفه الاغريق قد أتت عليه واستنفدته تلك القرون الأخيرة ؟ وهل خلقت المدنية الغربية الحديثة من وحى الاغريق وتعاليمهم من الآداب والفنون والعمارة والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والعلوم السياسية ما يضارع أو يبز مثيلاتها من القديم ؟ وهل ساعد الحديث القديم أو أعاقه ؟ تلك هى المسئلة الهامة التى أثارها الجدل اليوم فى انجلترة عن دراسة الحياة الاغريقية القديمة .

واذا رجعنا الكرة الى عبارتنا المجازية الأولى وجدنا جوابا شافيا فى انفراد المرء بشخصيه مميزة ، لوعدنا الى علاقة الولد بأبيه أو أية علاقة بين شخصين لوجدنا أن الفرد لا يستنفد ما يستطيع أن يفيده من شخصية آخر ، فقد يستطيع أحد شخصين أن يكون له من القوة والعقل والخلق ما للآخر ، الا أن أحدهما قد ينفرد بشخصية تبقى أبدا موضع الدرس ويستنير بها الباحث وغيره من بنى الانسان ، واذا كان هـذا يصدق على أى فردين فانه أولى أن يكون كذلك بين اثنين على درجة واحدة من الخلق والعبقرية ، نترك المجاز الى الحقيقة ونترك فردا يدرس آخر ونعدو الى جماعة تدرس أخرى وكلاهما على شىء من الحضارة والمدنية ، فللبحث فى مدنية من المدنيات العظيمة قيمة لا تقتصر فائدتها على

مدنية أخرى تقف منها موقف الولد من أبيه بل تعم فائدتها كل باحث عن العلم تكون له مدنية قائمة بذاتها وعلى ذلك نجد أن قيم ما خلفه الاغريق ينتفع به المسلمون والهنود والصينيون كما ينتفع به الغربيون ، ويجب أن يتوافر فيمن يتلقى ذلك الارث صفتان أن يكون ذا عقل راجح وقلب واع حفيظ .

٢ — مدنية الاغريق القديمة قطعة من الفن

المدنيات هى أرقى وأندر ما تبلغه الجامعة الانسـانية ، ولقد ظهر فى الوجود جماعات عدّة ثم اختفت فى طى المئات والألوف من السنين ولم تترك احداها مدنيــة مذكورة ، فالمدنيات التى ظهرت لا تعدو الأصـابع عدًا ولا نجد سوى ثلاث مدنيات فى أوربة — المدنية المينوية فى جزائر بحر ايجة من (٤٠٠٠ قبل الميلاد الى ١١٠٠ قبل الميلاد) والمدنية الاغريقية أو الاغريقية الرومانية فى شواطئ البحـر الأبيض المتوسط وقد ظهرت بين القرنين الحادى عشر قبل الميلاد والسابع الميلادى ثم مدنيتنا الغربية الحديثة على شواطئ المحيط الاطلنطى وقد بدأت فى الظهور فى القرن الثامن الميلادى ولا تزال قائمة حتى اليوم ، كذلك قد قامت مدنيات قديمة فى مصر وسهل الجزيرة الأدنى وقد تأثرت بالمدنية الاغريقية القديمة ثم اندمجت فى مدنية واحدة فى الشرق الأدنى وهى مدنية الاسلام ، كذلك قامت مدنيتان فى الهند والصين ، واذا أضفنا الى مدنيات العالم ما كانت عليه المكسيك و بيرو قبل الفتح الأسبانى وجدنا أن عدد المدنيات المستقلة التى ظهرت يتضاءل جدا أمام الجماعات الانسانية الكثيرة ، ذلك لأنه ليس من السهل مطلقا أن يسجل التاريخ مدنية لجماعة من الجماعات ، هـذا وفى الحياة الاجتماعية

عاملان دائبان هما روح الفرد والبيئة ، والحياة الاجتماعية عبارة عن العلاقة القائمة بين الاثنين : فتصل الحياة الى ذروة المدنية اذا كان للروح النصيب الأوفر فى تلك العلاقة ، وليس اذا أثرت البيئة فى الانسان فصاغت حياته كما هى الحال فى الغابات الاستوائية بأواسط أفريقية والبرازيل ، وليس اذا تعادل التأثيران فكان أثر الانسان فى البيئة يعادل أثرها فيه كما هى الحال فى سهوب أواسط آسية وبلاد العرب بين القبائل الرحل ، وانما تكون المدنية اذا استخدم الانسان البيئة فى أغراضه وظهر للعالم أثره واضحا فيها ؛ هذا ولا يختلف درس مدنية من المدنيات عن درس الآداب فى لغة من اللغات ، فكلاهما من عمل الانسان وكلاهما مستمد من روحه وكلاهما فن من الفنون .

المدنية فن من الفنون ، ونقصد بذلك حقيقة اللفظ دون مجازه ، حق ان الفن يقوم به الأفراد والمدنية تقوم بها الجماعات ، ولكن أى عمل فنى يقوم به فنى لا يكون مدينا لغيره فيه ؟ فالمدنية وهى عمل الأفراد والأجيال التى لا تقع تحت حصر لا تختلف فى النوع عن قصيد أو تمثال بل اختلافها فى القدر .

والمدنية عمل فنى تقوم به الجماعات كما تقوم بالشعائر الدينية أو الروايات التمثيلية وأصدق ما يقال فى المدنية أنها مأساة لها محور والتاريخ هو المحور لمأساة المدنية .

وقد اتفق كتاب الروايات التمثيلية من عهد ارسطاطاليس على أن المأساة الكبيرة على كثرتها فى الأدب تعرض لنا قليلا من الحوادث اذا حللها الانسان تحليلا دقيقا ويحتمل أن تكون مآسى التاريخ وهى المدنيات العظيمة التى أوجدها الانسان تقوم كلها حول

محور واحد اذا نحن بالغنا فى تمحيصها ، فكل مدنية كمدنية أوربة فى القرون الوسطى أو مدنية أوربة الحديثة أو مدنية الاغريق القـديمة مظاهر شتى لفكرة واحدة ، وان درس محور مدنية فى أكبر مظاهرها كالمظهر الاغريقى أو مظهر مدنيـة الغرب لهو الغرض الحقيقى للتربيـة الاجتماعية ، على أن الانسان ليتساءل لم يدرس مدنية الاغريق القديمة و يترك مدنيتنا ؟ ان درس مدنية من المدنيات ينطوى على صعاب لأن الدرس يتطلب درسـا أصليا وفرعيا من الوجهة اللغوية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية حتى أنه ليستوعب كل جهود الانسـان ، ولذلك نجد أن عظماء المؤرخين قصروا بحثهم فى الدرس على مدنية واحدة ، وان عظماء المؤرخين من الاغريق أمثال هيرودوت ، وتيوسيديد ، و پولبيوس وجهوا كل عنايتهم الى درس مدنيتهم ولم يعرضوا لغيرها الا اذا دعت حاجة اختلاط مدنيتهم بمدنيات أخرى ، لذلك كان حقا على من يريد أن يدرس التاريخ استعدادا للحياة أن يتخير لنفسه ، فيقتصر على دراسة مدنية من المدنيات اذا هو أراد أن يجنى ثمار درسه ؛ وفى هذه الحال نعود لسؤالنا الأول لم نقـدم درس تاريخ الاغريق على درس تاريخنا ؟ وهناك حجتان تدعمان درس تاريخنا فهو أقرب مساسا بنا وهو أجزل نفعا ، على أنه بعيد عن الصواب أن نترك هاتين الحجتين دون أن نعلق عليهما ، فمساسه بنا لا يفيد سهولته و جزالة نفعه لا تفيد أن درسه يقرب من منهج يلمـان وقد علق الآن بأذهان الناس فكرة مهوشة عن التربية ، و يظهر أن ذلك أثر من الآثار السيئة للحرب المـاضية وستزول تلك الفكرة كما ستزول غيرها من آثار الحرب ، وهذه الفكرة ترمى الى قصر التربية على الكيمياء العملية مثلا أو الهندسة العملية ، و يظن الناس أن الذين يدرسون

أمثال تلك العارم سيكونون أقدر من غيرهم على منافسة الأجانب فى صناعة الصباغة أو فى اعداد الذخيرة فى الحرب المقبلة ، وعلى هذا القياس تكون المبالغة فى درس تاريخنا الحديث بظن أنه يمد الطالب بدراية فى المحال التجارية أو يؤهله للعضوية فى البرلمان ؛ هذه الفكرة على ذيوعها الآن غاية فى السخف ، والمغالطة فيها هى عدم التفريق بين معرفة النظريات العامة لعلم من العلوم و بين الالمام الفنى والتجربة الشخصية اللذين لا بد من تحويرهما الى وجهة عملية فى الحياة ، وقد تتفق آراء رجال الأدب والعلوم فى تلك الفكرة ، وانما يقع الخلاف بين من لا يقدرون قيمة العلم لذاته ومن يقدرونه لذاته ، وهؤلاء يدركون معنى التربية الحقة ، وطلاب العلم لذاته وطلاب التربية الحقة متفقون سواء أكان موضوع درسهم الانسان أو البيئة التى يعيش فيها ؛ واذا أهملنا مذهب النفعيين على ما به من بعد عن جادة العلم الصحيح وعما يجب أن يكون عليه الانسان فان هناك حجة بالغة فى ترجيح درس التاريخ الحديث على درس القديم من الوجهتين العلمية والبشرية ، فقد يقال ان علمنا المباشر بمدنيتنا يمكننا من بحث أعمق ولذلك يكون هذا البحث أقرب من الوجهتين العلمية والبشرية عما اذا عمدنا الى درس مدنية الاغريق القديمة ، وقد يقال أيضا من الوجهة البشرية وحدها ان درس مدنيتنا وتعرف أصلها يكون له من الأثر فى رقيها أكثر مما لمدنية غيرها ، وهذا القول الأخير ينطبق على الجيل الذى شهد الحرب الكبرى التى هى احدى أزمات مدنيتنا والتى هى كالنار العظيمة الهائلة تضىء الماضى الغامض وتبرزه مرئيا للعين والتى نستطيع معها أن نسلم بدرس تاريخنا اذ لا بد لنا أن نتعقب أسباب تلك الكارثة

العظمى ، واذا فعلنا ذلك أخذنا فى البحث عن تطوّر المدنيـة الغربيـة منذ العصر المظلم ، وان ما نكب به العـالم فى الحروب البلبونية دفع (ثيوسيديد) الى تصدير كتابه عن تلك الحرب بمقدمة حلل فيها أصل المدنية الاغريقية تحليلا دقيقا موجزا لم يسبق اليه وذلك التحليل استوعب فصول المقدمة من كتابه الأول ؛ فهل لا يدفعنا ذلك ويحدو بنـا الى قصر الدرس على تاريخنا ؟ هذه مسئلة جديرة بالاعتبار وليس ذلك لأهميتها من الوجهتين العلمية والبشرية، بل ولما تجر من نفع ،أما الاجابة عنها فتفتقر الى تدليل وهناك وجهة فى درس مدنية الاغريق القديمة يمكن تلخيصها فى أربع نقط :

أولا — ان مدنية الاغريق واضحة النهج الى غايتها فنستطيع لذلك أن نتبين الرواية كلها ومفرق حوادثها ونتكهن بالنتائج المحتومة ونحكم على النتائج المنتظرة فى الأحوال التى يجرى فيها أحد ممثلى الرواية فى غير دوره، ونحن نستطيع أن ندرك مبنى المأساة ونقسمها فصولا ولكنا فى تاريخنا نشبه الممثلين فى الرواية "لا كالذى يستطيع أن يحكم عليها وهو بعيد عنها" وبينا نحن نتبين الفصل الثالث أو الرابع أو ندرك الفصل الأخير أو ما قبله ، لا نستطيع أن نتكهن بشىء فيكون درس تاريخنا بحث شىء مبتور لم يتم بعـد ، ولذلك لا نتبينه وحدة قائمة بذاته من الوجهة الفنية مهما كان ادراكنا مسـتوعبا لمقطعاته وأجزائه ومواقفه ، ولذلك كان من أولى الحجج فى ترجيح درس تاريخ الاغريق أنه يبدو لنا تاما واضحا .

ثانيا — الأمر الثانى ، أن موضوع تاريخ الاغريق أكثر وضوحا من موضوع تاريخنا فهو يتناول الفن الاغريقى وأدب اللغة ، اذ من الخطأ أن يكون موضوع التاريخ مقصورا على أنه سجل حوادث ،

ولشعراء الاغريق حظ موفور كما لفلاسفتهم ومؤرخيهم فى مساعدتنا على تفهم تاريخ العقلية الاغريقية وهو جزء متمم فى درس أى تاريخ وتاريخ العقلية الاغريقية يتضح من آدابهم أكثر مما يتضح تاريخ أوربة الحديثة من آداب أممها ، ومن غير أن نعمد الى موازنة بين الأدب القديم والحديث فى ذاتهما نذكر ونحن على شىء من الثقة أن فرائد الأدب الاغريقى الخالدة تعين على تفهم التاريخ الاغريقى والعواطف والأبحاث التى قامت على أثر تطورات الحياة الاغريقية والتى أسفرت عن أكبر الذخائر ، أكثر مما يعين الأدب الحديث على تفهم التاريخ الحديث .

ثالثا — الأمر الثالث ، يتضح من العبارة التى ختم بها ارسطاطاليس تعريفه للأساة (المقطعات الشعرية — الجزء السادس) « أنها صورة جدية تامة ذات قدر معين لأمر من أمور الحياة ومظهر تلك الصورة الشفقة والخوف وغرض المأساة تخليص هاتين العاطفتين من كل الشوائب» (ترجمة Butcher) والكلمة التى معناها تخليص أو تطهير أو تنقية كانت مثارا لجدل عنيف غير محدود بين جمهور الطلبة ، ولكنها تصبح جلية واضحة المعنى لمن شهد الحرب الكبرى وكان ذا المام بالأدب الاغريقى ، ولقد وجد كاتب هذه السطور فى أحرج أوقات الحرب بعض السلوى والراحة العقلية فى قراءة منتخبات من أدب الاغريق بين مقتطفات (أسكليس) أو لوكريتس أو (فرجيل) و بين معانى (ثيوسيديدس) و بين ما ينطوى عليه حوار أفلاطون من مرارة وجد ، وهؤلاء قد قطعوا شوطا بعيدا فى طريق نحن لم نخط فيها خطوة واحدة ، وهم قد بلغوا غايتها ، فألبسوا حكمة تجارب أطول من تجاربنا ومرارة آلام أشد من آلامنا طلىّ الألفاظ وعذبها وقد كنت أنشد الراحة أجدها كلها فى أدب الاغريق

الذى هو أبينُ مظاهر حضارتهم (مدنيتهـم) وأدب الاغريق واسطة الاتصال بمدنية مخالفة لمدنيتنا و بأمة حلبت شطرى الدهر وهى الآن تمتع بالراحة والخـلود فى غير متناول الدهر وحدثانه ، وتمحيص الأمور هو ما يشعر به الانسان فى تقدير مدنية غير مدنية قومه وهو لا يتيسر للإنسان اذا درس مدنية قومه .

رابعا ـــ الأمر الرابع ان طريقة الدرس بالمقارنة لها قيمة فى نفس الانسان ، ولتلك القيمة كفاية عقلية يحصل الانسان عليها بدرس أحوال غيره المماثلة لأحواله غير المطابقة لها ، ولا يحصل الانسان عليها بدرس الأحوال الخاصة به و يتضح ذلك اذا ألمعنا الى درس اللغات ، فدرس اللغة الاغريقية القديمة له من الفائدة العلمية للطالب الانجليزى ما ليس لدرس اللغة الفرنسية الحديثة أو الألمانية ذلك لأن اللغتين الاغريقية والانجليزية يحويان القواعد الأصلية للغة الانسان بعبارات غير مأخوذة عن لغـات أخرى ، بينما نجد اللغتين الفرنسية والانجليزية فضلا عمـا بهما من الأصول المشتركة فى كل اللغات يشتركان فيما اختصت به التوراة واللغتان الاغريقية واللاتينية وقد ذودتهما بطائفة مشتركة من الألفاظ وصور عديدة من الخيال ، كل ذلك ينطبق على درس المدنيات ، فالبـاحث يستفيد بدرس المعتقدات الدينية الاغريقية ومقارنتها بالمسيحية أكثر ممـا يسـتفيد بدرس المسيحية وهو بعيد البعـد كله عن غير المسيحية من الديانات ،وكذلك يستفيد باحث النظم الحكومية من درس الولايات الاغريقية وموازنتها با لولايات الحـديثة أكثر ممـا يستفيد اذا قصر بحثه على تطورات النظم فى أور بة الحديثة ، واذا نحن قصـدنا الوجهة العقلية وليست العملية كما يقصد رجال الآداب والعلوم نقول وليس فى قولنا تناقض أو غموض ان درس مدنية الاغريق قيم لأن المدنية الاغريقية تخالف مدنيتنا .

تلك أمور أربعة تحبذ درس تاريخ الاغريق ، فأمامنا المأساة غير منقوصة ومغزاهاواضح جلى ولها قيمتها الوجدانية وقيمتها العقلية وكل أولئك لا يفيده الباحث فى مأساة يقوم هو بدور من أدوارها .

لذلك أرى ضروريا أن أقسم أدوار تاريخ الاغريق ، وقد يكون لكل وجهته فى التقسيم ، وانى بادئ بذكر ما ارتأيت من التقسيم حتى أستحث القارئ على عمل تقسيمه ، ثم أعقب بشرح النقطة الثانية التى تبحث فى جمال المبنى باقتباس عدة مختارات من المؤلفين القدماء ، أما النقطتان الأخريان الخاصتان بالتمحيص وقيمة تاريخ الاغريق النسبية فأتركهما لخبرة القارئ الشخصية ، وانى لعلى يقين من أن القارئ سيدركهما اذا جدّ فى الدرس ونظر نظرة عامة .

٣ — محور مدنية الاغريق القديمة

ترجع مدنية الاغريق على التحقيق الى ما بعد القرن الثانى عشر قبل الميلاد حين كانت سلفها وهى المدنية المينوية فى التدهور والاضمحلال وتنتهى المدنية الاغريقية القديمة على التحقيق قبل القرن الثامن الميلادى حين بدأت خلفها وهى المدنية الغربية الحديثة ، وبين هذين الحدين لا نستطيع أن نقطع ببدئها ونهايتها ولكنا نستطيع القول أنها استمرت ردحا من الزمن بين سبعة عشر وثمانية عشر قرنا .

ومن الميسور أن نقسم المأساة التاريخية فصولا فنستطيع ادراك دورين هامين فى الرواية وهما بدء الحروب البلوبونية وتأسيس الامبراطورية الرومانية ، وزيادة فى الايضاح نذكر أن الدورين

بدآ (سنة ٤٣١ قبل الميلاد وسنة ٣١ قبل الميلاد) ونرتب الحوادث على أن تكون قبــل الدور الأول و بين الدورين و بعد الدور الثانى حسب البيان الآتى :

الفصل الأول — (من القرن الحادى عشر قبل الميلاد الى ٤٣١ قبل الميلاد) :

(١) التكوين ، تكوين الولايات الاغريقية وهى نواة الحياة الاجتماعية الاغريقية (من القرن الحادى عشر قبل الميلاد الى ٧٥٠ قبل الميلاد) .

(٢) الاستعمار أو انتشار الولايات فى البحر الأبيض المتوسط (من ٧٥٠ قبل الميلاد الى ٦٠٠ قبل الميلاد) .

(٣) التطور الاقتصادى أو التحول من الانتشار والاتساع الى التقدم الداخلى (من ٦٠٠ قبل الميلاد الى ٥٠٠ قبل الميلاد) .

(٤) الاتحاد ، طرح فكرة الامبراطورية العامة والعمل على اتحاد الولايات واتحاد ديلوس (من ٥٠٠ قبل الميلاد الى ٤٣١ قبل الميلاد) .

الفصل الثانى — (من ٤٣١ قبل الميلاد الى ٣١ قبل الميلاد) :

(١) الحروب الاغريقية ، انفراط عقد الاتحاد ، (من ٤٣١ قبل الميلاد الى ٣٥٥ قبل الميلاد) .

(٢) الحــروب فى الشرق (الغازى ، غزو الشرق ، القتال للغنائم ، غارة البرابرة (من ٣٥٥ قبل الميلاد الى ٢٧٢ قبل الميلاد) .

(٣) التنظيم الأول (تغيير النظام القائم وتجارب جديدة ترمى الى اتحاد آخر (من ٢٧٢ قبل الميلاد الى ٢١٨ قبل الميلاد) .

(٤) الحروب الرومانية اضمحلال أربع قوى أمام قوة واحدة ، تخريب أمم البحر الأبيض المتوسط (من ٢١٨ قبل الميلاد الى ١٤٦ قبل الميلاد) .

(٥) حروب الطبقات (الرأسمالية ، البلشفية ، النظام النابوليونى) (من ١٤٦ قبل الميلاد الى ٣١ قبل الميلاد) .

الفصل الثالث — (٣١ قبل الميلاد الى القرن السابع الميلادى) :

(١) التنظيم الثانى (التجربة النهائية للاتحاد ، التوفيق بين الولايات المستقلة والرأسمالية المركزية (٣١ قبل الميلاد ١٨٠ ميلادية) .

(٢) الاضمحلال الأول (غارة القبائل الرحالة على الحدود ، دخول المسيحية (١٨٠ — ٢٨٤ ميلادية) .

(٣) التنظيم النهائى ، (قسطنطين غارة القبائل على البلاد وتقليد القسيسين المناصب (٢٨٤ — ٣٧٨ ميلادية) .

(٤) الاضمحلال النهائى (انحلال الروح الاغريقية من ٣٧٨ — القرن السابع الميلادى) .

ويرى ثما فرط أن هذا التحليل لا بد أن يكون خاصا بى ، ولكل أن يعمد الى تقسيمه الخاص كما أن لكل انسان أن يفهم الفن على أى شكل يراه ، الا أنه مهما حاول المؤرخ تحليل الأدوار وتبويبها وتفصيلها فانه لا بد له أن يضع نصب عينيه أن الأدوار متتابعة وأن ظهور الولايات الاغريقية فى بحر إيجة فى البدء والآثار الأخيرة لحكم المدائن المستقلة فى الامبراطورية الرومانية فى النهاية هما مظهران لتاريخ مدنية واحدة ، ولقد يبدو متناقضا أن تكون تلك المدنية وحدة قائمة بذاتها ، ولكن درس الآداب

الاغريقية واللاتينية لا يترك مجالا للشك أن الفرق اللغوى أقل أهمية من الاتفاق فى تراكيب اللغتين ، وأن الدارس انما يدرس أدب لغة واحدة وهو الأدب الاغريقى الذى ذاع كثيرا فى اللغة اللاتينية ، كما حدث ذلك الى حد صغير فى اللغة العبرية وبعدها فى اللغة السريانية واللغة العربية ، فقد تبدو الوحدة جلية ظاهرة اذا تركنا البحث اللغوى وعمدنا الى درس المدنيات ، اذ نجد أنه غير ميسور أن نفرق بين تاريخ الاغريق وتاريخ الرومان وأكثر ما نستطيعه أن نقول أن التاريخ الاغريقى فى وقت من الأوقات قد بلغ مرحلة يحسن أن ينسب فيها الى رومه ، واذا بحثنا فى الامبراطورية الرومانية يعجب القارئ أنها تتمشى مع الفصل الثالث فى مأساة تاريخ الاغريق ونجد أنها فى أصلها نظام اغريقى وما هى من أساسها الا اتحاد الولايات وأنها حل للمشكلة السياسية التى عاناها الاغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، أضف الى ذلك أن النظام البوروقراطى المركزى فى حكومة أغسطس والذى عمد اليه الامبراطور فنشر خيوطه الدقيقة حتى عمت الاتحاد الذى كونه من نظام حكومته المحلى لم يكن الا ثمرة من تجارب الاغريق فى نظمهم الحكومية ، وتدل الآثار البردية الخاصة بنظم الحكم فى عهد البطالسة وهم خلفاء الاسكندر الذى سبق قياصرة الروم الى حكم مصر على أن نظم الامبراطورية التى تعد أبعد الأشياء عن النظم الاغريقية انما جاءت الى الرومان عن طريق اغريقية ، يضاف الى ذلك أن التشريع الامبراطورى استطاع أن يحول قانون البلديات الرومانى الى قانون عام للمدنية الرومانية بادخال مبادئ الفلسفة الخلقية الاغريقية ، وقد كانت اللغة الاغريقية وليست اللاتينية هى اللغة التى كتبت بها أمهات كتب الأدب فى العهد الامبراطورى ، ولسنا فى حاجة الى التدليل على ذلك بأكثر

من ذكر المؤلفات الذائعة والتى كان لها الأثر فى مدنيتنا مثل (تراجم) بلوتارخ و (نظرات) ماركس أوريليوس والعهد الجديد فى الكتاب المقدس ، وكل هذه كتبت بالاغريقية ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العصر الذى كتبت فيه لا يعدو التاريخ الاغريقى أو أن الحالة الاجتماعية التى أبرزت تلك الأسفار لم تكن الا فصلا فى مأساة التاريخ الاغريقى ، هذا ويدل الاحصاء على أن الامبراطورية الرومانية كانت اغريقية النزعة لأن السواد الأعظم من أهلها كانوا يتكلمون الاغريقية كلغة عامة ان لم تكن كلغة قومية ، وكانت المراكز الصناعية والتجارية العظيمة فى الأقاليم الاغريقية أو فى الأقاليم ذات الصبغة الاغريقية ، ويرجح أن دهماء رومة نفسها ظلوا طوال القرنين الأولين من الامبراطورية يتكلمون الاغريقية أكثر من اللاتينية ، ولهذا كله نجد أن العنصر الاغريقى فى الامبراطورية الرومانية كان له ما لغرب أوربا الآن فى العالم الحديث ، وأن الأقاليم ذات الصبغة اللاتينية المحضة كانت متأخرة ولم تصب حظا موفورا من الحضارة . فأسبانيا وأفريقية اللاتينيتان فى العالم الاغريقى القديم يقابلان الآن أمريكا الجنوبية كما أن غالة بريطانيا القديمة اللاتينيتان تقابلان وروسيا الحديثة .

ولذلك يمكن القول ان الصبغة الاغريقية كانت القلب من الامبراطورية الرومانية وكان القلب يرسل النبض فى جميع الأعضاء وكان أشد الأقاليم تأثرا أقربها من القلب وأضعفها أبعدها منه .

تعبير الأدب عن الرواية

الآن وقد اقترحنا للرواية تأويلا ، قد حان الوقت أن نترك الممثلين يتكلمون عن أنفسهم . ولا يتسع المجال لاقتباس أكثر من بضع قطع إلا أن هذه انتخبت لتوضيح أدوار ومواقف الانتقال

فى الرواية كما رسمناها . وربما أقنعت القارئ بأن للتأويل الحالى ما يبرره .

وسوف لا نطيل القول عن العصر الذى سميناه الفصل الأول أعنى العصر السابق (لعام ٤٣١ قبل الميلاد). على أنى أعود فأنصح للقارئ ألا يهمل شعراء الاغريق جانبا عند مطالعة مؤرخى الاغريق. إذ أن هوميروس يوضح من الفصول الافتتاحية أكثر مما يوضح هيرودوت . ومثل ذلك السمو الروحى الذى ولده صد الفرس ، والذى ظهر من وجهة النظم السياسية فى حاف ديلوس لا يكاد الانسان يشعر عاطفته به دون قراءة شعر أسكليس وكذلك لاغنى عن الفلاسفة ورجال العلم فان مؤلف الأستاذ برنت ، الفلسفة اليونانية القديمة ، أو مؤلفه الفلسفة اليونانية من طاليس الى أفلاطون يضىء التاريخ ولا يقتصر نبراسه على نظرية اليونان العلمية. ويجدر بالقارئ أن يتعرف المؤلف الصغير على الأجواء والأمواه والبقاع ، الذى انبعث من المدرسة الابيقراطية الطبية ، وهذا المؤلف يزيد على ثلاثين صفحة فى نسخة تيبنر (مؤلفات ابيقراط . المجلد الأول) ولكنه يوضح وجهة النظر العلمية فى القرن الخامس أكثر مما يوضحها هيرودوت. واليك قطعة منه — كانت جديرة أن تكتب فى انجلترا فى عصر الملكة فكتوريا — يصف كاتبها مرضا غريبا انتشر بين البدو فى جنوب روسيا فيقول : "ان الأهالى يعتقدون أن هذا المرض جاء من عند الله ، فهم يجلون و يعبدون ضحاياه خشية أن يصيبهم هم أنفسهم . وأنا مستعد أن أعترف أن مثل هذه الظواهر من عند الله ، ولكنى أنظر الى جميع الظواهر بمثل هذا النظر وأعتقد أنه لا توجد ظاهرة أكثر أو أقل قداسة فى أصلها من أية ظاهرة أخرى ، بل كلها على نسق واحد ، وربما كانت

كلها مقدّسة . غير أن كل ظاهرة تخضع لقانون والقانون الطبيعى لا يعرف استثناء" .

وانه لمن الصعب أن نترك هـذا الفصل من تلك المـأساة — فصـل انتصار الشباب . وان العبارة التى يلخص بها هيرودوت تاريخ اسبارطة القديم حيث يقول : "انهم قصدوا العلى وأفلحوا" لتنطق عن الروح السائد فى حضارة اليونان الأولى على أن هناك عبارة أخرى فى هيرودوت تشـعر بالفصل الثـانى عبارة مشـئومة كانت تأتى له عفوا الى حدّ أن الانسان يلاحظ بضعة عشر مثالا منها فى تاريخـه وهى " قدر أن يقع الشر بكذا وكذا ولهـذا .... " ويلى ذلك حكاية كارثة فى كل حال . والفكرة المستترة خلف هـذه العبارة تشرحها كلمات صولون الى كريسـوس (هيرودوت الكتاب الأول . الفصـل ٣٢) ونصها : "انى أعلم يا كريسوس أن الاله دائم الحسد والتشتيت ، وأنت تسألنى عن مصير الانسان" عليك أن تلاحظ اللفظ الذى ترجمناه "بالتشتيت" فاننا سنقابله ثانية ، وما هو إلا العبارة المرّة التى يلفظها رجل استمر على قيد الحياة فى عصر العظمة حتى أدرك الحرب ، الا أنها لم تبلغ من المرارة ما بلغته الحقيقة التى لم يستطع الكاتب أن يقنع نفسه اقناعا تاما بكشف اللثام عنها ، اذ الواقع كما يعترف به العـلم اليونانى المعاصر " أن ليست ظاهرة أكثر أو أقل قداسـة من غيرها " وأن القوى الحاسـدة المشتتة ، التى حطمت حضارة اليونان لم تكن قوة خارجيـة بل هى نفس روح الانسان الذى خلق تلك الحضارة . وفى شـعر هوميروس سطر معمى عبر به مرة أو مرتين عن معـالم فى منظر طبعى كنهر مثلا وهو " الآلهة تسـميه زنتوس والبشر يسمونه سكامندروس" .

و بمثل هذا نستطيع أن نتكلم عن سقوط اليونان ، فلقد نسب اليونان ذلك السقوط الى حقد الآلهة واجابت كهنة الآلهة جوابا مخالفا .

لمـا ذا انفرط عقـد حلف ديلوس وأضاعت اليونان شـبابها فى حرب مبـيرة ؟ انمـا سبب ذلك وجود الشر فى قلوب الرجال ذلك الحقد الذى أثارته عظمة أثينا سياسيا وتجاريا بين الطبقات الحاكمة فى اسبارطة وكورنته و بسبب الطمع الذى ثار فى الآثينيين وأغرى سواسهم أن يتسفلوا برياسة حلف حرالى سيطرة أثينـا على اليونان ، وأغرى عامة الآثينيين وعامة الدول المتحالفة أن يسيئوا استعمال الديمقراطية باتخاذها ذريعة بها ينهب الفقراء أملاك الأغنياء ، فان الحسد والطمع يلدان الجور ، والجور يلد الخيانة . وفى أثناء تنافس دول المدن على السيادة أو مقاومتها سيطرة دولة على أخرى نسيت ولاءها لمصلحة اليونان عامة ، وحارب بعضها بعضا ابتغاء السلطان أو الحرية ونسى الأغنياء العريقون من المواطنين ولاءهم للمدنية ابان شحناء مملوءة عمى وغيظا مع العامة الذين كانوا يجردونهم من ممتلكاتهم ونفوذهم ، فخانوا بلادهم لمصلحة الأعداء الأجانب .

"عجبا كيف يلوم الناس الآلهة و يقولون ان الشر من صنع أيدينا فى حين أن الحقيقـة أنهم انمـا يجرون الويلات على أنفسهم ، و بخرقهم يدفعون يد القدر الى التدخل . وانظر الآن كيف دفعها آجنوس بأخذه حليلة اتريدس الشرعية وذبح زوجها عند عودته رغم أنه لم يكن أمام عينيه إلا الهلكة الصريحة اذ أننا أنفسنا حذرناه ألا يقتل الملك وألا يتزوج من امرأته والا نزل به الانتقام بيد ارستيز بن اتريدس حينما يبلغ سن الرجولة و يحن الى وطنه . كذلك تكلم رسولنا لكنه بكل حكمته لم يتمكن من ترقيق قلب اجستوس . وها هو الآن قد جوزى الجزاء الأوفى (Odyssey a 32—43)

هذه الأسطر من القصيدة الأولى من الأودسى تخيلها خيال جيل كان لا يزال فى حل من أن يخطئ (من غير أن يضربه الخطأ) . أما حين اقتربت اليونان من ساعة القضاء فقد وضح وحى نبوءتها فكان شعراء القرن السادس يختلجهم — أكثر مما كان يختلج هوميروس احتمال الثبور الذى هو طبيعى فى كل صنوف الفلاح من نجاح شخصى ونصر حربى وانتصار اجتماعى للحضارة . وكانوا يعزون الضرر الى غرور الروح الانسانى تحت تأثير صدمة رقى فجائى غير منتظر . وكانوا يعلمون حق العلم أن عظائم الأعمال المتراكمة من أجيال ، والآمال المستقبلة التى هى أعظم منها قد تضيع نهائيا بسبب اخفاق فى هذه اللحظة الحاسمة "ان التخمة تولد الخطيئة حين يزور الفلاح عقولا مختلة التوازن" ويتكرر المثل بألفاظ مباينة قليلا فى مجموعتى الأشعار المنسوبة إحداهما الى ثوجنيز والأخرى الى صولون .

وقد أبى ضارب المثل أن يضيف اليه ما كان قائما بذهنه وذهن سامعيه ألا وهو أن الخطيئة متى نشأت تولد منها الثبور، ذلك الهلاك التام المحقق الذى يتغلغل فيه الخاطئ بعينين لا تبصران . الا أن كل اللغز الخلقى ورد بنتيجته القاسية مرارا وتكرارا فى كلمات حارة لاسكايس الذى اطرح عن قصد القضاء السحرى القديم الذى عبثا حاول فيما بعد هيرودوت أن يجد فيه تنفيسا لكربه .

واليك كلمات اسكليس :

"ولكن الخطيئة القديمة أولعت أن تلد كلما حانت الساعة خطيئة جديدة تضحك ملء شدقيها بين دموع بنى الانسان . أجل وزميلها (الباطل) الذى لا يسمح لأحد أن يتوسل اليه أو أن

يناهضه، والذى يجازف دائما غير حاسب حسابا للخوف أو لشىء مقدس. فأذابهما نارا ظلمة فى بيت ولدا جديرين بمنبعهما القديم".
(Agamemnon V 763--71—Murray's translation)

وكان شاعر النصر المؤزر على الفرس مفعما بالخوف كما كان مفعما بالجذل بسبب احتمالات الخير والشر التى كانت بيد جيله المنتصر وما اذا كان أهله معدنا نقيا أو زائفا حسب ما ستظهره الأيام، على أنه لم يكن يشك فى القانون الذى لا مناص منه.

لا دولة ولا ذهب يقى من الألم قلب من طرده مذبح العدل القديم الى الظلام الأبدى -Agamemnon V. 381--4 Murray's translation

وقد كتب أجا ممنون حين كانت أثينا فى سمت عظمتها وقوتها وقبل أن يتبع أبناؤها هوى قلوبهم كولد يقتفى طائرا فيضعوا عقبة كأداء فى طريق مدنيتهم أو يلطخوها بوصمة لا تطاق. اذ أن جيل مرثون كان ينذر بحرب البلوبونيز. على أن الصدمة لما حدثت جاءت من وراء قوة خيالهم بينما أثرها فى فكر اليونان عبر عنه لأول مرة الجيل الذى قصمت الحرب ظهره وهو فى ريعان الشباب واليك كيف أحس به ثيوسيديدس اذ يقول "كذلك أخذت حرب الطبقات تزداد وحشية وتركت أثرا عميقا لأنها كانت أول انفجار لحركة سرت على مدى الأيام فى كل المجتمع اليونانى تقريبا، فقام تشاحن الطبقات فى كل دولة ونال قواد الأحزاب المختلفة تدخل الآثينيين أو اللاسيديمونيين فى جانبهم. ولم تكن اتتاح لهم الفرصة أو الميل لاستدعاء الأجنبى فى زمن السلم. أما الآن فكانت الحرب قائمة وكان من السهل على أى حزب من الأحزاب الفاتكة أن يتوصل الى تحطيم منافسيه والقبض على أزمة الأمور بالتحالف مع أحد المتحاربين. وقد جرت حرب الطبقات هذه على دول اليونان

نكبة اثر نكبة من مثل النكبات التى حدثت والتى لن تنفك تحدث — بالرغم من أن تغير الظروف والأحوال قد يعدلها أو يخففها أحيانا — ما دامت الطبيعة البشرية على ما نعهد . اذ أنه فى أحوال السلم الحسنة لا يستطيع منطق الحوادث أن يزج بالمجتمعات أو بالأفراد كرها . ولهذا يمكنهم أن يشرئبوا الى مستوى أرقى . أما الحرب فتستل من الحياة العادية كل وسعة ، وبتعليمها البهيمى تذلل الخلق للظروف . كذلك مزقت حرب الطبقات الدول وكان الشعور الذى تحدثه كل حرب يترك أثرا سيئا فى التى تليها . وبالجملة وجد شبه مسابقة فى اتقان ذلك الفن الجميل فن الدسائس والفظائع كذلك غمرت حرب الطبقات المجتمع اليونانى فى كل أنواع الفساد الخلق ، وسخر الناس من الأمانة — وهى أهم سلم للسمو الى المثل الأعلى — فاختفت من جو العداء والتهم السائد اذ ذاك ، ولم يعد لحجة من القوة أو لعهد من القداسة ما يوفق بين المتخاصمين . بل كانت الحجة الوحيدة التى يقبلها الحزب صاحب السلطة مؤقتا هى عدم احتمال بقائها بيدهم طويلا ، ونتيجة ذلك أن ليس من الحكمة الهوادة مع أعدائهم .

وعلى قدر نصيب كل فريق من المتحار بين من الغباوة يكون حظهم من البقاء ، لأنهم يفرقون من نقصهم ويخافون أن يبزهم أعداؤهم بالذكاء والحيلة فيغامرون فى عملهم غير مبالين . بينما من هم أعلى منه ذكاء — ممن وكلوا حماية أنفسهم الى فكرهم واحتقروا الحيطة العملية — كثيرا ما أخذوا على غرة وسيقوا الى الهلاك .

ذلك كان أثر الحرب اليونانية الكبرى فى الجيل الأول وكان ثيوسيديدس بطبيعة الحال ذا مزاج حساس سريع التأثر فتراه دائما يسوس نفسه ويكبح جماحها ولكن الانسان يدهش

لانفجار نفس الشعور فى رجل أصغر ســنا ألا وهو زينوفن الذى كان عادة على نسق أهل عصره والذى يحتمل أنه كان قليل التخيل وراضيا عن نفسه من طبعه. وكانت الحرب فرصة مناسبة لزينوفن بجندى وكاتب فلم يكن ميالا للشكوى من القوى "الحاسدة المشتتة" التى أودت بالحضارة اليونانية. الا أنه فى الفقرة الأخيرة من "تاريخ عصره" ينسى نفسه على أثر فراغه من وصف واقعة منتينيا (٣٦٢ قبل الميلاد) التى فقد ابنه فيها فيكتب :

"لقد خيبت نتيجة الحرب آمال كل انسان ، لأن اليونان كلها تقريبا حشدت جنودها فى جانب أحد الفريقين أو فى الآخر وكان من المسلم به أن المنتصرين سيعملون ما يشاءون وأن المنهزمين سيكونون تحت رحمتهم ، ولكن المقادير رتبت الأشياء بحيث ادعى الانتصار كلا الفريقين فى حين أن أحد الطرفين لم يكسب قيد شبر من الأرض أو مدينة واحدة أو ذرة من القوة عدا ما كان له قبل الحرب . بل على العكس زاد الاضطراب والهرج باليونان أكثر مما كان عليه قبل الحرب . على أنى لا أريد أن أستمر فى قصتى بل أترك البقية لأى مؤرخ آخر يهمه تدوينها" (Hellenica, Vii 5 fin)

ويحول حجم الكتاب دون الاقتباس من أفلاطون ولكنى أنصح للقارئ أثناء دراسته ، ماوراء الطبيعة ، لتفهم فلسفته أن يلاحظ خواطره وشعوره لما يلقيان من النور على تاريخ عصره . فان حياة أفلاطون الطويلة — ٤٢٧ — ٣٤٦ قبل الميلاد — تكاد تنطبق تمام الانطباق على الدور الأول من الفصل الثانى من المأساة أى سلسلة الحروب التى بدأت عام ٤٣١ قبل الميلاد — والتى حطت بدول المدن اليونانية الى التفرق والاعياء التامين عام ٣٥٥ وكان أفلاطون من الطبقة الحاكمة المهذبة التى أصابتها هذه

الويلات الأولى بأكبر ضربة فانه فى التاسعة والعشرين من عمره بعد أن شهد سقوط أثينالم يجد مناصا من مشاهدة قتل سقراط بأمر القضاء . وسقراط أكبر رجل من الجيل القديم كان أفلاطون وأصدقاؤه يقدّرونه ويحبونه . هذا الى أن أنبغ تلاميذ أفلاطون والذى كان أفلاطون قد عينه خلفا له من بعده قتل فى موقعة بسبب عودة الحرب عودة لا غرض لها . ومن السهل فهم اقلاع أفلاطون عن غروره السياسى وفهم عناده ؛ الا أنه من الغريب الممتع أن نلاحظ التضارب بين مرارته السياسية وصفائه الفكرى ففى دائرة الفكر والفن — ككاتب وموسيقى ولاهوتى — كان يحس أنه يقف فى سمت تاريخ اليونان ، ولكنه كلما التفت الى السياسة كان يشعر أن فصل الربيع سقط من عداد فصول السنة حتى دعته غريزته أن يقدم تاريخ وضع محاوراته فجاء أكثر الأشخاص من جيل سقراط الذين أدركوا الرجولة قبل الحرب والذين كان ذكرهم يهيج ذكريات العظمة التى محتها الحرب . ولنلاحظ أيضا اشتغاله بالعالم الآخر ، لأنه ظاهرة تدخل الحضارة اليونانية مع أفلاطون وتسرى فيها تدريجا فاذا بأفلاطون يلتفت من العلم الى الفقه ومن عالم الزمن والتغير الى عالم النماذج الأصلية والأفكار ، ومن دين المدنيــة الاجتماعى الى دين شخصى يتخذ له رموزا من الأساطير القديمة وبالجملة يلتفت من السياسة الى المثل العليا على أن أفلاطون لم ير فى حياته الا الدور الأول من الكارثة .

أما اذا استعرضنا بقية ذلك الفصل الأول — تلك القرون الأربعة المريعة التى تلت عام ٤٣١ قبل الميلاد) فانا نسمع أخبار نازلة بعد نازلة كرسالات الخطب الواردة فى سفر يعقوب وبينما الدنيا تنهار يميل الناس شيئا فشيئا الى وضع كنوزهم فى جهات أخرى .

ففى "القوانين" لا يضع أفلاطون مكان مثله الأعلى أبعد من اقريطش وبعد ذلك بقرنين يعلن أتباع أرستونيكوس " الشيوعى " الذين نفتهم مدن اليونان أنهم من مواطنى " مدينة الشمس " وبعـد ذلك بقرنين آخرين ييأس أتباع يسوع الناصرى من هــذه الدنيا ويدعون عليها أن تحرق بالنار لتفسح مكانا للملكوت السماء .

ان حالة أفلاطون الفكرية تصوّر لنا جوّ الدور الأول بعد الكارثة أما عن الدور الثانى وهو فتح الشرق والصراع على الغنائم فانا نحيل القارئ على ماجاء بكتاب المستر ادوين بيفان الموسوم "محاضرات على الزينونيين والدهريين" كما نحيله على ما قاله الأستاذ جلبرت مورى فى محاضرة تذكار كنواى تحت عنوان " الفلسفة الزينونية" فان هذه ستريه مذهبا فلسفيا لم يعـد مجرد نتيجة تفكير ، بل هو فى أساسه وقاية أدبية شيدت على عجل لصـد عواصف الحياة .

وأما الدور الثالث — وهو انتعاش الحضـارة فى وسط القرن الثالث قبل الميلاد — فهـو مصوّر فى حياة ملكى اسبارطة آجس وكليومينس تأليف بلوتارك وكل من يقرؤهما يحس بشهامة هــذا الانتعاش وبالحـزن لاخفاقه . ثم يأتى الدور الرابع — حرب الرومان ضد بقيـة الدول العظمى فى البحر الأبيض المتوسط — فان حرب هانيبال فى ايطاليا هى على الراجح أفظع حرب حدثت بدون أن نستثنى الحـرب الأخيرة فى أوربا اذ كانت فظائع تلك الحرب تزعج الأجيال التالية ، واذا كان مجرد ذكرها يصوّر الفناء خلاصا محببا من حياة لا تطاق . واليك قطعة من لوكريتس (Lucretius, iii—830—842) تأتى عقب محاورة متقنة يراد بها البرهنة على أن الموت يعدم الشخصية وعلى أن الروح ليست خالدة وهاك محاولة ترجمتها :

"ولهذا ليس الموت بشيء عندنا ولا يهمنا فى شيء اذ قد برهنا على أن الروح ليست بخالدة. وكما أننا لم نشعر بألم فى الزمن الماضى حين كان الفينيقيون ينهملون للقتال على كل جبهة ، وحين زلزلت الأرض برجة الحرب وضجيجها وارتعدت من مركزها الى قبة السماء ، وحين لم يكن مناص من وقوع الجنس البشرى كله تحت سلطان المنتصر فى حين كان النصر غير مضمون — كذلك شأننا اذا انقطع وجودنا عند ما يفترق الروح والجسم اللذان من اتحادهما يتكون وجودنا — عند ذلك لا يمكن أن يمسنا شيء اذ لا وجود لنا . ولن يستطيع شيء أن يجعلنا نشعر حتى ولو اختلط اليابس بالماء والماء بالسماء" هذا ما كتبه لوكريس بعد أن أخلى هانيبال ايطاليا بمائة وخمسين سنة والهلع لم يزل جليا فى فكره بل لا يزال هذا الشعر يثير الهلع فى أفكارنا حين نسمعه . ولن ينسى المؤلف كيف كانت هذه الأبيات تحور فى رأسه فى ربيع سنة ١٩١٨

على أن المنتصرين أصيبوا مع المنهزمين بفناء الحضارة المشترك فان عالم البحر الأبيض المتوسط كله لا سيما الأقاليم المخربة من ايطاليا زلزلتها الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التى جرتها الحرب الرومانية فى أثرها ، وبلغ الظلم الواقع على العامة حدا انعدمت معه رابطة المجتمع نهائيا . وبعد أن هددت الحضارة اليونانية بالمحو القاسى حركات شيوعية — كحروب الأرقاء فى صقلية وثورات ارستونيكوس ومذابح متريداتس فى الأناضول وانفجارات سبارتكس وكاتيلينا فى ايطاليا — حلت محلها فى النهاية حضارة منافسة لها من جانب العامة ألا وهى الكنيسة المسيحية .

وان الدور الأخير الثورى من الفصـل الثانى ، وهو الفصـل الأخير قبل تأسيس الامبراطورية خلف التعبير عنه فى صيحة "ابن الانسان" "لأن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه" . [1] وكانت هذه العبارة احدى التعابير التى لا يعلم لها واضع والتى تجرى على ألسنة جميع الناس لأنها تشرح ما فى قلوب كل الناس . ولقد استعملها تيبير يوس جراكوس فى خطاباته العامة فى رومة وظهرت بعد قرنين فى أحاديث يسوع الناصرى "وكذلك رأت فليبي الجيوش الرومانية يسـدد بعضها سيوفه ضـد البعض الآخر فى الحرب للمرة الثانية ولم يحزن الآلهة أن تروى أماثيا وسهول هيمس بدمائنا مرتين . فيا أرباب آبائنا وأرباب وطننا ويارب مدنيتنا ويارية بيوتنـا التى ترعى تيبر التسكانى وبلاتين الرومانى لا تمنعوا هذا المخلص الأخير أن يساعد جيلنا الكسير فقد سال دمنا أطول ممـا تنبغى وكفرنا تكفيرا تاما عن خطايا آبائنا فى نقض عهد طراودة القديمة" .

لقد انحلت الروابط بين المدن المتجاورة فهى تتلاقى شاكية السلاح والحـرب تتلظى فى أنحـاء الدنيا ومركباتهـا التى دخلت المضمار تزيد سرعة كلما سارت وعبثا يجذب السائق الأعنة فتجمح به جياده ولا تبالى باللجم(Georgics 1. 489 sepp)تلك صلاة لرفع اللعنة وفى هـذه المرة أصاخت القوى الحاسدة المشتتة ، فاستعاد السائق سلطته وها نحن نحمل الى الفصل الثالث من الرواية المحزنة حيث يوجد جزء غير صغير من جمالها وشطر كبير جدا من مغزاها فان السلم الامبراطورى لم يستطع انفاذ جسم الحضارة الرومانية — لأن حرب أربعة قرون أحدثت جروحا قاتلة ولكنه ربمـا أنقذ

(١) انجيل متى اصحاح ١٨

الروح لأن أغسطس وان لم يحز مهارة قيصر كان يحس بأحزان العالم ويأسى لها . وقد نجح فى التعبير عن الأسى والندم والاشفاق واجلال الماضى ذلك الشعور الذى كان يدور فى أنفس جيله . ولكن أى تعبير يصلح لوصف الامبراطورية ؟ يتبادر للذهن كلمتا التدهور والسقوط ولكن كيف ينبغى تطبيقهما ؟ لقد اعتبر جبون القرن الثانى وهو عصر الانتونين العصر الذهبى فى العالم القديم وتتبع تدهور الامبراطورية وسقوطها من موت ماركس اريليوس . غير أنه من جهة أخرى اذا كان التأويل الحالى للرواية تأويلا صحيحا تكون الكارثة المميتة حدثت قبل ذلك بستة قرون (سنة ٤٣١ قبل الميلاد) وتكون الامبراطورية نفسها تدهور الحضارة الاغريقية وسقوطها .

ولكن هل كانت ذلك فحسب ؟ يميل الانسان الى هذا الرأى حين يقرأ يومية ماركس اريليوس ويتخيله فى معسكره فى كارنتم يجاهد على جبهتين جهادا جميلا ولكنه مقطوع الرجاء يجاهد المتبربرين على الطونة ويجاهد الحزن الذى فى نفسه .

"والحياة الانسانية ! مداها وقتى ومادتها فى سيولة دائمة وحواسها معتمة وكيانها البدنى هالك وادراكها دوامة ومستقبلها مظلم وشهرتها غير محققة والواقع أن العنصر المادى نهر جار والعنصر الروحى أحلام وبخار والحياة حرب ومقام فى بلاد سحيقة والشهرة نسيان أى رفيق يوصلنا ؟ شىء واحد وشىء واحد فقط وهو الفلسفة ومعنى ذلك حفظ الروح التى فينا من التلف والدنس وعدم الانصياع للسرور أو الألم وألا نعمل دون تفكير أو بخداع أو عدم اخلاص وألا نتكل على مساعدة خلقية من غيرنا . ومعناها أيضا مقابلة الواقع بالرضا باعتباره جزأ من العملية التى

نحن مدينون لها بوجودنا . وفوق كل شيء معناها مواجهة الموت بهدوء ، والنظر اليه كمجرد انحلال للذرات التى يتركب منهـا كل كائن حى . واذا كان التغير الدائم لا يضر الذرات فـماذا يهـم الانسان أن يتغير الكائن كله أو أن ينحل ؟ ان هـذا قانون من قوانين الطبيعة والقانون الطبيعى لا يمكن أن يخطئ" —Markos) (fin 11 318 الا أنه بعد الاقتباس عن ماركس اريليوس المواطن الأول فى الامبراطورية يلزم أن نضيف اقتباسا من بولص الطرسوسى وهو مواطن يحق له أن يسمع كأى مواطن غيره .

"كيف يبعث الموتى ؟ بأى جسم يأتون ؟ أيها الغبى ان الذى تزرعه لن يعيش الا بعد أن يموت انه مزروع فى الفساد ويبعث فيما لا يطرأ الفساد عليه انه مزروع فى الخسة ويبعث فى العظمة انه مزروع فى الضعف ويبعث فى القوة" .

انه ليزعجنا أن نذكر بأن هذين الممثلين ظهرا على المسرح فى الفصل نفسه من الرواية وأن بولص لعب دوره بالفـعل قبـل ماركس بقرن من الزمان وأن صوت بولص ينبئ لا عن جيل أصغر فحسب بل عن رواية مخالفة تمـاما وأن فكره الذى عبر عنه فى الأسطر التى اقتبسناها الهام من سلف عدّه ماركس واحدا من كثير من أنبياء العامة .

ان حبـة القمح ما لم تسقط الى الأرض وتمت تبقى وحدها أما اذا ماتت فانهـا تنبت ثمرة كثيرة وهذا القول من خليط الأحاديث المنسوبة الى يسوع الناصرى والتى تناقلتها أفواه الجماهير الأميين والتى لم تشرع فى اثارة حب الاسـتطلاع بين الطبقات المهـذبة فى عهـد ماركس . وما عسى أن يفهم البحاثة من

مجموعة من تلك الأحاديث لو أنها وقعت تحت نظره مخطوطة على ورق ردىء بالاغريقيـة الشنيعة ؟ قليـل جدا لأنه كان لا بدمفتقدا ما تستند اليه كل عاطفته وفكره والذى ليس أقل مما تستند اليه الحضارة اليونانية . وأن الكلمة الموجزة التى سبق اقتباسها من يومية ماركس لتكتظ بالذكريات الأدبية — إبكتاتوس ولوكريتوس والباكية (التى اختارها أتبـاع زينو) وأفلاطون وسقراط وديمكراتوس ومدرسة ايبقراط الطبية التى أخذنا منها أول اقتباس فضلا عن عقول أكثر بساطة وفنانين أقدم عهدا وجدوا فى الأجيال المظلمة التى خلف أولئك حتى تنتهى الرواية التى كنا ننظر اليها وأن يبنى الرجلين لعوالم شاسعة على الرغم من أنه متى جردنا نظريتهما وجدناهما متشابهتين كثيرا .

الكائن يتغير ويتحالل ، ان ما تزرعه لن تدب فيـه الحياة الا بعـد أن يموت ، فكلاهما يعتبر الموت دورا من أدوار عملية الطبيعة ولكنا لا نتصور الفرق فى وجهـة النظر والعاطفة الا بعد أن ندرك تشابه أفكارهما .

ولقـد كان تحت سطح الامبراطورية الأملس هوة واسـعة تفصل الطبقة الوسـطى من دول المدن عن نسل الأرقاء الذين جلبوا أثناء الحـروب الرومانية ، الا أن الامبراطورية بتحسينها تدريجا حال العامة المـادية غيرت وجهـة نظرهم دون أن يشعروا وان نمو دينهم — وهو الملك الوحيد الذى لا يمكن انتزاعه والذى حمله الأرقاء من أوطانهـم المشرقية — لدليل التغير النفسانى حتى أنه فى الدور الأخير من الفصل الثانى كان الحرس الأحمر فى صقلية والأناضول يقوده أنبياء ووعاظ من قبل آلهتهم الشرقية لأن دينهم أخذ صيغة حال فكرهم الثائرة . أما فى عهد الامبراطورية حين

نجح سلالة رقيق المزارع فى شراء حريتهم وتكوين طبقة جديدة من أصحاب الحوانيت والكتاب فان دينهم صور رقيهم فى الحياة بالمثل . اذ أنهم مع بقائهم بعيدين عن الفكرة الامبراطورية اليونانية ـ ان لم نقل معادين لها بدءوا يشرئبون الى مملكة خاصة بهم فى هذه الدنيا وفى الآخرة كذلك لأن القوة التى انطلقت فى صنع العجائب الخرافية على بديونس المنسوب الى أنا Enna والتى أوحت اذ ذاك الى بولص الطرسوسى الولع بحب الحياة الأخرى ، ما لبثت أن نقلت الى جدران الكنائس واستمر الشعب المحلى من قاصدى الكنائس المسيحية يرتبطون الى تحالف منظم تنظيما قويا ألزم تحالف دول المــدن الامبراطورية فى آخر الأمر أن يختار بين الاشتراك معه أو اخلاء السبيل له . ومن أجل هـذا كانت الامبراطورية التى من مواطنيها ماركس وبولص أكثر من الفصل الثالث فى رواية اليونان القديمة . فبينما أخرت الانحلال المحتوم لاحدى الحضارتين حملت بخلفه ولما أخفقت السياسـة الامبراطورية بعـد موت ماركس وتهشم فى نهاية الأمر الكائن القديم الذى طالما حافظت عليه بمهارتها لم يمح الزلزال الجديد والقديم معا ، بل تمخص عن الحياة الجديدة وما أتى القرن السابع بعد الميلاد وهو القرن الذى يمكن أن يقال ان الحضارة اليونانية القديمـة تلاشت فيه نهـائيا حتى كانت حضارتنا متأهبـة أن تنبسق وتفلح وتعيد على الجنس البشرى الرواية المحزنة .

وأحسن طريقة يستطيع المؤلف أن يعبر بها عن شـعوره الشخصى نحو الامبراطورية هى ضرب ذلك المثل وهو أنها كانت كالبحر الذى انتظمت حول شواطئه شـبكة من دول مدنهـا . وان البحر الأبيض المتوسط ليظهر لأول وهلة عوضا ضئيلا من

الأنهار التى وهبت أمواهها لتكوّنه، اذ أن تلك كانت أمواها حية سواء جرت كدرة أو صافيـة بينما يظهر البحر ملحا را كدا ميتا ، الا أننا متى ندرس البحر نجد هنالك أيضا حركة وحياة .

وهنالك تيـارات هادئة تدور أبدا من جزء الى آخر والمـاء السطحى الذى يظهـر أنه فقد بالبحر ليس مفقودا حقيقة بل سينزل وقد تصـفى من مرارته فى أماكن وأزمان بعيـدة مطرا يحيي الأرض بعد موتها و بينما ترفع هذه المياه السطحية الى السحاب يحل محلها طبقات أسفل منها لا تفتأ ترتفع من الأعماق . فالبحر نفسه فى حركة خلق وحياة دائمـة ولكن أثر ذلك الجسم المـائى العظيم يمتد بعيدا خلف شواطئه فاذا بالانسان يجده يلطف تطرف الحـرارة ويحيي النبات وينعش حياة الحيوان والانسان فى قلب القارات السحيق و بين أناس لم يسمعوا باسمه أبدا ٤٦

ارنلد تو يبنى



الأفكار السياسية

قد يبدو لأول نظرة أننـا عند بحثنا ما خلفته اليونان القديمة لحضارتنا الحديثة ومسائلها يمكن الاغضـاء عن تراث اليونان السياسى . ان الفن اليونانى والآداب اليونانية والفلسفة اليونانيـة من مقتنيات العالم الخالد لأن الرغبات والمبـاحث البشرية التى أنتجتها والحـاجات البشرية التى تسـدها ستبقى ما بقيت الحياة البشرية ذاتها ، ولكن أفكار اليونان السياسية شديدة الارتباط بأحوال اليونان الخارجية فى القرنين الخـامس والرابع قبل الميلاد وهى ظروف خاصة زائلة وتدور كلها حول المسائل الخاصة بأثينا حاضرتها الفكرية حتى لقد يبدو أن الاهتمام بأمرها قد ذهب بذهاب النظم السياسية التى خلفتها أن اجممنن وانتيجون وما فيها من تعاليم القدر والواجب وهرمس أولمبيا ونقوش برثينون وما تحتويه من سحر الفتوة ذى القوة الخـالدة التى لا تقاوم والفايدو و بحثها فى الخلود ونظريات أرسطو فيما وراء الطبيعة بما تحتويه من الآراء الكثيرة الدقة والتعقيد والتى اشتق منها كثير من تعاليم النصرانية والدفاع عنها : كل هذه لا تحتاج الى كبير دفاع أمام الهمجى فى العصر الحـاضر اذا أمكن حمله فقط على أن يتأمل فريسته المقصودة قبل أن يهوى عليها . ولكن ما شأننا نحن وتوسيديدس ووصفه المسهب للحرب بين القبـائل أو المدن وما يزينه به من خطب مزيفة لم تلق قط ، وأفلاطون ومجتمعه الخيالى المكوّن من نصف بلدة يونانية صغيرة أو نصف هيئة اشتراكية مستحيلة الوجود مرتبطة بروابط لاثبات لها ذلك المجتمع المبنى على مقارنة بديعة خاطئة بين صفات الروح البشرى

وخلافات الطوائف التى كانت تسود المجتمع اليونانى فى ذلك الحين ، وأرسطو ومباحثه الشاقة فى أمراض الحكومات البلدية فى عصره ووصفه المسهب للعلاج المؤدى الى ترقية أبناء مقاطعته وتهذيب نظمهم ، نقول : ما شأننـا نحن بذلك كله فى عصر ذى مسائل ومنازعات عالمية ، عصر لا تقتصر آراؤه ومشروعات تنظيمه على قارة واحدة بل تشمل العالم بأسره ؟ ان أول واجب على من يحاول أن يحمل القارئ فى الوقت الحـاضر على الاهتمام بالمباحث اليونانية السياسية هو أن يكون تام الصراحة والبيان فى ذكر نقائصها وليس له أن يخشى أنه اذا ما استبعد هذه الأشياء الناقصـة من برنامجه لم يبق له من نفيسها الا النذر اليسير .

ويمكن اجمال هذا النقص فى نوعين رئيسين فهو ينشأ أولا عن خلاف فى مدى هذه الأفكار وثانيا عن خلاف فى وجهة النظر بين الأفكار السياسية القديمة والحديثة ، أما الخلاف فى مداها فيبدو لأول نظرة وان كانت نتائجه ليست كلها بهذا الوضوح . ذلك بأن اليونان القديمة كانت من حيث الأغراض السياسية مجموعة ولايات صغيرة ذات سيادة تجتمع عادة حول حاضرة أقليم ريفى أصغر مســاحة من مقاطعة انجليزية متوسطة لذلك كان مصدر الأفكار السياسية فى اليونان من وجهة نظرنا الحديثة صغيرا بل ضئيلا جدا ، وخير طريقة لادراك ذلك أن نتدبر عدد المراحل التى توجد فى الوقت الحاضر بين حكومة مدينة أو مقاطعة بحجم أتينا فى القرن الخامس وبين حكومة دولتنـا ذات السيادة أى حكومة الامبراطورية البريطانية . لقد كانت أتينا أصغر كثيرا من ليدز أو جوهانسبرج أو شيكاغو ، ومع ذلك فان رئيس حكومة احدى هذه المدن لا يشغل مركزا ذا مسئولية كبيرة بالمعنى الذى

تفهم به المسئولية السياسية فى عالم اليوم الشاسع الأطراف. ذلك بأن الولاية الأمريكية فى الحالة الأخيرة وحكومة ولاية أفريقية الجنوبية هى وحكومة اتحاد جنوب افريقية فى الحالة الثانية تقف بين البلدية الكبيرة والبرلمان ذى السيادة، وأن المسائل التى كانت تصادف رجالا مثل بركليز بل الاسكندر نفسه لا تبدو الا كعبث الأطفال لرئيس وزارة بريطانية ينتقل من بحث مشكلة اغتصاب لحم يؤثر فى تجارة العالم بأسره الى مؤتمر امبراطورى يشتغل بوضع سياسة موحدة لمسألة المحيط الهادى .

ولنر ما هى النتائج التى تترتب على اختلاف المدى . أول هذه النتائج أن الأفكار السياسية اليونانية لم تنجح قط فى أن تجرد نفسها من بعض عناصر الفردية المحلية أو القومية وان كانت ترمى (كما سنرى) الى أن تكون عامة شاملة أى الى الوصول الى قوانين أو نتائج محددة بشأن المسائل السياسية. لذلك ترى أن أفلاطون وتوسيديدس حينما يفكران فى "الدولة" و يكتبان عنها يفكران أيضا فى المدينة والواقع أن كلمة (polis) تعنى كليهما وليس فى المدينة اطلاقا أى فى حكومة بلدية ما بل فى مدينة معينة ، وفى الأفكار السياسية اليونانية عناصر يستحيل تعميمها لا شىء آخر سوى أنها قد استمدت وحيها من أثينا . وكما أن رسالة فى التربية تمزج فيها القواعد النفسية العامة بقواعد مبنية على التجربة فى مدرسة انجليزية ذات تقاليد فذة خاصة بها ، يجب أن تفحص جيدا وأن يحتاط فى تطبيقها على شؤون المراهقة فى اليابان أو نيجيريا ، كذلك لا تكون الأفكار السياسية اليونانية سياسية حقا ما دامت هذه الأفكار أثينية أو قومية اذا استعملنا هذا اللفظ الأخير المتنازع فيه بمعناه الصحيح فى اعتقادنا .

ان الفارق الذى أحاول وصفه صعب ولا يمكن فهمه دون أن نعطف قليلا على طبيعة درس السياسة :

السياســة هى دراسة الحكومات وأعمالهـا هى ادارة شؤون الناس العامة أو المشتركة ونحن فى حاجة الى "الساسة" الى رجال يتفرغون لادارة شؤوننا المشتركة ، ونحن لا نحتاج اليهم لأننا انجليز أو أرلنديون أو أمريكيون ، بل لأننا بشر نعيش معا فى المجتمع ولأن علاقاتنا وجهودنا المشتركة تحتاج الى الارشاد والمراقبة . إما ان السياسى طاغية فى الشعب أو خادم له فليس ممـا نعنى به هنا أن ما نعنى به هو أنه مدير لمـا يسميه الرومان "المصالح العامة" وهو التعبـير اللاتينى الذى يقابل الكلمة الانجـليزية القـديمة (Commonwealth) .

فالسياسة اذا تعنى بادئ بدء بالمسائل العملية التى تنشأ عن كون عدد من البشر مختلفين يعيشون معا وكلما عظم الفرق بينهم وصغرت ما بينهم من الصفات المشتركة أصبحت تلك المسائل سياسية حقا وأول أعمال السياسى أو الحاكم هو كما قال أرسطو : أن يعمل على أن يعيش الناس "أى أن يعنى بالمسألتين الشقيقتين مسألتى التموين والدفاع" وثانيها هو أن يعمل على جعلهم يعيشون عيشة راضية (وتجىء فى مقدمة ذلك المسائل الخاصة بصحتهم ونمـائهم وهنائهم الجسمى) والسياسة الخالصة اذا استقصينا حقيقتها تعنى على الأخص بالادارة ادارة الشؤون المشتركة للناس جميعا فى مصلحتهم جميعا وقد يكشف ذلك أحفاد أحفادنا اذا ما صارت الدولة العالمية حقيقة واقعة يوما ما .

كانت السياسة اليونانية تعنى كثيرا بالبحث فى شؤون ليست مشتركة بين الناس جميعا ولا تكون مادة للسياسة بمعناها الصحيح

تعنى بمسائل لا تنشأ عن حاجة الناس جميعا الى قانون عام ولكنها تنشأ عن الخلافات الداخلية النهائية الراسخة بين الأمم المختلفة وغيرها من الجماعات البشرية ولا تزال السياسة الحديثة تعنى أكثر من اللازم بهذه الأشياء والمثل الآتى يوضح ما نقول : اذا كانت عصبة الأمم أو مجلس مدينة دبلن تبحث فى مسألة انتشار مرض الجدرى أو تحسين بعض الأحواض والأرصفة أو تحسين مدارس الأمهات أو فى مسألة استخدام الأحداث فان بحثهما هذا يكون فى المصالح المشتركة التى يتأثر بها البشر باعتبارهم بشرا وهما بذلك يتناولان صميم السياسة ولكن اذا سار مجلس مدينة دبلن وراء الحركة الديموقراطية الأوروبية فى القرن التاسع عشر وعرض اقتراحا ليرضى به عواطف من يقولون إن ارلندة يجب أن تكون دولة حرة ذات سيادة لأنها وطن أمة واذا طلب الى عصبة الأمم أن تعالج الموقف السياسى الناشئ عن اصطدام القوميات المتنازعة فى الجزائر البريطانية أو فى غيرها ، واذا فعلت الهيئتان ذلك فانهما كهيئتين حاكمتين تخرجان عن وظيفتهما اذ تواجهان مهمة مستحيلة فهما قد أنشئتا لتعنيا بالسياسة الخالصة ، أى بالمصالح المشتركة بين الناس من حيث هم أناس ، واذا فلا بد أن تخبطا تخبطا شديدا اذا استدرجتا الى الخوض فى مسائل معقدة دقيقة خلابة هى مسائل الشخصية الفردية والقومية تلك المسائل التى كلما أمعنت فى بحثها ألفيت المصالح المرتبطة بها أقل اشتراكا بين الناس وأقل تجانسا وانطباقا على قاعدة عامة أو قبولا لهذا الانطباق وأقل احتمالا للتسوية بل للفهم من جانب سياسى ساذج سريع الاقدام اعتاد أن يعالج المسائل جملة وأن يقدر النتائج بالكم وأن يصوغها فى لغة الاحصاء الجامدة الشاملة .

وعلى ذلك فيجب علينا متى قرأنا ما كتبه الساسة اليونانيون أن نعنى بتمييز العنصر العام منها من العنصر المحلى السريع الفناء ولا ريب فى أن العنصر الأخير جم اللذة والقيمة ، بيد أننا قد نغفل العناصر الثمينة الخالدة فى أفكارهم اذا لم نجهد أنفسنا فى أن نفرق بين ثوسيديدس الوطنى الأثينى عديم الأوهام وثوسيديدس المؤرخ العلمى والعالم النفسى ، بين أفلاطون الأرستقراطى الذى ولد فى غير عصره وأفلاطون الباحث الفذ فى الطبيعة البشرية وفى الحاجات الدائمة للمجتمع البشرى .

ولقد أدى عدم ملاحظة هذا الفارق الى كثير من سوء الفهم وضعف التفكير فى محاولة تطبيق الأفكار والأمثال اليونانية على الحياة الحاضرة تطبيقا حرفيا ، وكثيرا ما نسمع الانجليز الذين لا تزيد معرفتهم بالسياسة والتاريخ خارج دائرة الصحف على بعض ذكريات متقطعة من دراستهم للآداب اليونانية واللاتينية فى المدرسة والكلية دراسة غير مستفيضة نسمعهم يتنبئون وهم واثقون بخيبة الديموقراطية مستندين فى ذلك على كلمة عرضية قالها ثوسيديدس أو أفلاطون و يقررون مصير الدولة البريطانية بعبارات يقتبسونها من بعض أحكام لسالوست أو تاسيتس عن الامبراطورية الرومانية قدوتها الأصلية التى تخالفها أيما خلاف وأن ثرثرة كهذه أو ادعاء كهذا مصدر حملات رجال مثل كوبدن أو هربرت سبنسر أو هـ. ج ولز ومصدر ارتياب الرجل العملى فى قيمة دراسة الآداب اليونانية واللاتينية . أن مثل من يسترشد بأفلاطون أو مكيا ڤيللى فى هذه المسألة بصفة خاصة فى تفهم معضلة سياسية كمثل من يسترشد بتقارير السوق فى العام المنصرم لاجراء صفقة حاضرة .

وإذا كانت دراسة الآداب القديمة التي يراد بها في انجلترا ترقية الخلق لا العقل "وهو تفريق خاطئ لا يترك مجالا لصفة كصفة الاصلاح العقلي لا تترك وراءها سوى قدر ضئيل من العلم والرأى فان أقل ما يجب على خريجى المدارس العامة بالأمس ورجال نوادى لندن اليوم أن يتبينوا ضيق دائرة دروسهم وأن يتجنبوا التعميم السياسي الموثوق بصحته . إن نائب العمال الذى صرح لكاتب هذه السطور ذات مرة بمناسبة مناقشة حدثت فى الشؤون الهندية أنه قد ظل فى مجلس النواب مدة كافية لأن يعرف أن كل ما عرفه عن الهند هو أنه لم يعرف عنها شيئا ، قد تربى فى مدرسة ان لم تكن أرقى من المدارس السالفة الذكر فلا أقل من أن تكون أكثر دهاء ، وخير تعليم لمن يدرس السياسة والتاريخ ، بل لمن يدرس أى موضوع جدى هو أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن شيء ما ، سواء أكان هذا الشيء الترتيب التاريخي لمحادثات أفلاطون أو مسألة الرطوبة وأثرها فى معامل النسيج أو تخطيط حقل أو حماية هدف "فى لعب الكرة" وهذا هو السبب فى أن دوق ولنجتون الذى كان يعرف بلده انجلترا ويعرف علومه الحربية، وان كان قد فاته ذكاء فوش، قد فضل ساحات اللعب على فصول ايتون حيث تدرس الآداب القديمة واتخذ هذه الساحات مثوى له وميدانا للتعلم وتنمية تلك الملكات العقلية والروحية النزيهة المركزة التى تمكن بها جيشه من الظفر خلال الكفاح الذى دام أعواما طويلة ، وان من الخير أن يزداد الأخصائيون منا فى دراسة الآداب القديمة استمساكا بالتواضع والجد رغم ما يواجههم من ضروب النقد والمنافسة من أنحاء عدة .

أول ما نحذر به القارئ هو أن الأفكار السياسية اليونانية قومية وعامة معا ، وأنه يجب علينا أن نتعلم كيف نميز ما يتعلق منها بالقومية وما يتعلق بالحكومة .

وهنالك نتيجة ثانية تترتب على ضيق مدى السياسة اليونانية هى أننا لا نجد فى أية ناحية من نواحيها بحثا شافيا فى مسألة العلاقات الخارجية . إن السياسة الخارجية هى احدى نقط الضعف فى الديموقراطية الحديثة وربما كانت أحوج عناصر فنوننا السياسية الى تهذيب شامل ، فلا زال من واجبنا أن نحمل الفرد فى الوقت الحاضر على أن يعنى عناية مستمرة بالنتائج التى قد تعصف فى أية لحظة بنظم حياته اليومية كلها رغم ما قد يبدو عليها من البعد عن شؤونه . ثم يجب علينا بعد ذلك أن نحمله على أن يعالج هذه المشكلات العالمية لا بروح المنافسة فى التوسع ولكن بفكرة البحث عن خير سياسة تؤدى لصالح العالم بأسره . وما دامت الشعوب مشتغلة بشؤونها الخاصة فسوف تستمر الحكومات على تسيير علاقاتها المتبادلة على قاعدة المصلحة الشخصية الفردية وسوف تبقى اجتماعات عصبة الأمم على حالتها الحاضرة أى أنها ليست اجتماعات ساسة يسعون جميعا كل من وجهة نظره وطبقا لنشأته وراء صالح الانسانية ، بل مساومات ساسة قدموا كلهم الا قليلا منهم الى السوق ليعقدوا خير صفقة ممكنة لعملائهم . هذا وليس فى توسيديدس ولا أفلاطون شىء يساعدنا على اصلاح حال عصبة الأمم وقد كانت عبارة "صالح العالم بأسره" لا تعنى فى نظرهما شيئا من الوجهة السياسية . ذلك بأنهما لم يفكرا فى الانسانية مجتمعة ، بل فكرا فيها باعتبار أنها تنقسم الى طائفتين متباينتين هما اليونان والبربر ، ونظروا الى العالم اليونانى كأنه واحة صغيرة من الذكاء

والثقافة تحيط بها صحراء من الهمجية شاسعة لا نهاية لها نعم اننا نحن أيضا نقسم الشعوب الى متقدمة ومتأخرة ولكن الشعوب المتأخرة ليست في نظرنا كما كانت فى نظر اليونان كتلة قوية مركبة من قبائل تتلوها قبائل وتكون كلها قوة عسكرية تمتد حتى حدود العالم المعروفة أو الخيالية ، بل الى ما وراءهما ، ولكننا نعد تلك الشعوب كأنها أطفال تحت حراستنا فنعنى بها ونسيطر عليها ، لقد كشفنا وعرفنا العالم كله وفرضنا ولا نزال نفرض وصايتنا أينما وجدنا ضعفا أو انحطاطا ، أما فى نظر اليونانيين الذين كانوا دائما على حذر من غزوات البربر من الشمال والجنوب والشرق والغرب من اللوبيين والفرس والقرطاجينيين . فقد كان نص الانتداب الذى ورد فى الميثاق "ميثاق عصبة الأمم" يبدو غير مرغوب فيه من الوجهة النظرية ومستحيلا من الوجهة العملية . ولم يحلم كاتب يونانى قط بنظام تعاون دولى بين حكومات العالم المعروف يومئذ، بل كانوا جميعا يفكرون فى المنافسة والنضال المستمر وخير ما فكروا فيه من هذه الوجهة توازن القوى المزعزع حتى لقد كان لمجتمع أفلاطون الخيالى نفسه طائفته الجندية وكانت هذه الطائفة جندا بالمعنى الصحيح لا جماعة من الشرطة فحسب ، وعلى هذا الاعتبار فان ألمانيا المغلوبة وقد أعفى شعبها كله من الواجبات العسكرية وأصبح مستعدا للأعمال المنتجة تفوق كثيرا أسمى نظم تصورتها اليونان القديمة .

وهناك نقطة أخرى تجب ملاحظتها فى هذا الصدد وهى أنه اذا كانت الأفكار اليونانية لا تفيدنا فى السياسة الخارجية فهى لا تساعدنا — إلا من طريق بعيدة جدا — فى ميدان صعب آخر، هو ميدان السياسة الصناعية . إن مسألة السياسة الصناعية أو

ما يسمى أحيانا على سبيل التساهل بمسألة العمل قد يمكن تلخيصها فيما يأتى "كيف تحصل أو تحفظ للعالم المتمدين" أو لقسمنا الخاص منه، ما يلزمه من البضائع والخدمات وأن تكفل فى الوقت نفسه العدل والحرية لأولئك الذين يقومون بانتاج هذه البضائع أو أداء هـذه الخدمات ، أو بعبارة أوجز كيف توفق بين حياة ناعمة للمستهلك ومثلها للمنتج. تلك مسألة من أهم أسس الديموقراطية فان العالم لم يعرف حتى الآن عصرا لم تؤد فيه زيادة الثروة وما يترتب عليها من زيادة التنعم والحضارة فى الطبقة العليا من المجتمع الى انحطاط الطبقة الدنيا وظلمها وفى هذا الموضوع أيضا لا يستطيع اليونانيون مساعدتنا انهم لم يواجهوا هـذه المشكلة ويخفقوا فى حلها كما حدث للرومان ، بل كان تمدينهم المادى من السذاجة بحيث لم تنشأ لديهم هذه المسألة اللهم إلا فى حالات خاصة كمسألة الأرقاء الذين يعملون فى المناجم ، بيد أن اقرارهم لنظم الرقيق دون وازع من الضمير أو بادرة أسف يبين لنا كيف كانوا يعالجونها لو أنها نشأت ، فاذا واجهت أفلاطون بمسألة مشاكل الصناعة الحاضرة وأثبت له كما يستطيع أن يثبت محاضر فى وقتنا هذا أن الحياة لا تستمر دون تدهور وانحطاط بالنسبة لرجل الشمال على الأقل ، الا اذا كان أساسها نظم الصناعة الشاسعة وما أعددناه وأصبح مألوفا لدينا من سكك حديدية وسفن تجارية وتليفونات وما اليها ، إذا واجهته بهـذا فلا نكون مخطئين اذ قلنا إنه كان يعجز عن أن يجيب عليها الجواب الذى ينتظره منه المصلح الحديث فبدلا من اعتناق أحد المذاهب الاشتراكية المتعدّدة المعروفة التى تنتسب اليه خطأ كان إما أن يقبل حجج محـدثه ويخبره أن يبنى حضارته الشمالية النفيسة على أسس من الرق ، وإما أن يرفضها

وينصحه كما نصح صمويل بتلر ، أن يحتفل بحرق الآلات الصناعية ، وثانى الأمرين هو فى الواقع أكثرهما احتمالا فهو الذى تتجه نحوه صفوة المفكرين البعيدى النظر (ونستطيع أن نزيد الأكثر يونانية) من قادتنا المحدثين واذا كان رجلان شديدا التباين كتاجور الحكيم الهندى وراتناو كبير النقابة الصناعية الألمانية يقول كل منهما ان الداء الذى نعانى شره انما هو داء (الآلات ونظامها) واننا فى حاجة ماسة الى البساطة فلا نكون مخطئين على ما يظهر اذا تنبأنا بأن أفلاطون ما كان ليرفض التسليم بامكان تحقيق "الحياة الطيبة" للفرد الحديث فى عالم يتجرد من معظم الحلى الصافية الرنانة التى يفخر القرن التاسع عشر باختراعها .

ولنعطف بعد ذلك على النقص الثانى الذى ينشأ لا عن خلاف فى المدى بل عن خلاف فى وجهة النظر بين النظريات اليونانية والنظريات الحديثة . نستطيع أن نلخص ذلك النقص أحسن تلخيص فى قولنا : إن الأفكار السياسية الحديثة كالأفكار الحديثة بوجه عام — تعمل من الداخل الى الخارج من الفرد الى الدولة والمجتمع فى حين أن المفكرين القدماء كانوا يسيرون عادة على عكس هذا الطريق أى يقدمون مصلحة المجتمع أو الدولة على مصلحة الفرد . وهذا ما عناه فوستل دى كولانج بقوله ان الرجل القديم لم تكن لديه فكرة ما عن معنى الحرية . لا ريب فى أن الحرية تعبير غامض مر بك بعض الشيء ومن الصعب أن نفصلها عن قرينيها السياسيين الاستقلال القومى والحكومة الذاتية الديموقراطية واذا فقد نستطيع أن نهذب تعبير الكاتب الفرنسى (فوستل دى كولانج) بقولنا انمفكرى اليونان السياسيين لا يعترفون بحقوق الفرد ومسئولياته أو أنهم لا يقدرونها تقديرا صحيحا .

وقد أخفقوا فى التمييز بين الضمير والواجب العام كما أخفقوا فى التمييز بين القومية والحكومة . نعم إن سقراط وقد هلك طاعة للضمير والقانون قد لاحت له تلك الحقيقة العلياء ولكن تلاميذه لم يعنوا بذلك الجانب من رسالته أو لم يصلوها بنظرياتهم السياسية وإن عنوا بها فى درسهم للأخلاق الفردية . وإنما لخص تلك المسألة وصاغها بصراحته الفذة وتهكمه البديع ، من هو أعظم من سقراط حين قال : «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ولو قيل ذلك أمام توسيديدس أذكى رجل عملى بحث فى الأفكار اليونانية السياسية لما استطاع أن يفهم من معناه شيئا فهو يرى أن قيصر والله — أو مدينة أثينا والآلهة أثينا هما لفظان غير متناقضين بل يكادان يكونان لفظا واحدا لذلك كان الأثينى كما يصفه توسيديدس إذا ضحى بجسمه فى خدمة المدينة كان هذا الجسم مجرد آلة خارجية وعد عقله مالكا له حقا حين يعمل لمصلحتها وإذا فعل ذلك كان حسب الاعتقاد اليونانى العام يخدم إلهه وجاره معا ، يخدم مصالحه الشخصية ، وأشرف قضايا العالم . كانت حياته وحدة غير منفصلة . لأنه لم يكن قد عرف بعد كيف يفرق بين روحه وروح المدينة أو الجماعة ، أو يفرق بين إلهه وإله إسرائيل أو أثينا ، وسترى أن المفكرين اليونانيين كانوا يحاولون مخلصين أن يفرقوا بين الوطنى الطيب والانسان الطيب ، وأن يقيموا الدولة على أساس الروح ، ولكن الذى أفسد عليهم عملهم عجزهم عن تقدير ضرورة مطالب الروح الفردية ومدى هذه المطالب . يجب أن يكون الناس أحرارا من الوجهة الروحية قبل أن يستطيعوا التعاون السياسى بأرقى شروطه . ويمكننا فى آخر الأمر أن نرجع ضعف الأفكار السياسية اليونانية

الى ضعف الدين اليونانى ، لقد عالج أفلاطون نفسه موضوع الوثنية الصحيحة ، وجعل لأبلون دلفى مكانا اسميا فى مجتمعه الخيالى فأثبت بذلك جبنه عن مساس المعتقدات اليونانية كجبن المفكرين الانجليز اليوم عن المساس بالملكية وهذا الرياء فى أساس البحث هو الذى يبدو من خلال الأبحاث المبنية على هذا الأساس ، لذلك كانت الأفكار السياسية اليونانية تشتمل حتى فى هذا العهد القديم على جراثيم ذلك الداء الذى حمل الناس بعد ذلك بقرون — الدهماء منهم أولا ثم الخاصة — على أن ينبذوا تلك الرموز البالية التى كانت تمثل اتحاد الكنيسة والدولة وأن يتأسوا عنها بدين قد شاد دولة الروح على أسس متينة ثابتة و إن كان قد قوض دعائم آخر الدول القديمة وأعظمها ثم أودى بحياتها فى آخر الأمر . إن كتاب چوليان Vicisti Galilaee هو الحد الذى انتهى عنده ذلك النمط أو التقليد الخاص من الأفكار السياسية القديمة التى نشأت من العبادات المحلية فى دول المدائن وظلت تزداد قوة مع الزمن حتى أصبح الناس فى كل العالم المعروف يركعون أمام هيكل قيصر الاله الأمبراطور ، ولم يك ثمة سبيل للخروج من ذلك سوى الثورة وقد كفرت الانسانية فى حلك القرون المظلمة عن خطيئات التراخى والتلون التى ارتكبت خلال قرون طويلة من قرون النور والعرفان .

والآن وقد انتهينا من سرد ما عليهم بصراحة فلنتكلم فيما لهم .

إن أول فضل عظيم أسداه اليونانيون للأفكار السياسية هو أنهم ابتكروها ابتكارا وليس من المبالغة أن نقول إن السياسة لم توجد قبل وجود اليونان فى القرن الخامس . نعم قد وجدت قوى و إمارات وحكومات ورعايا ولكن السياسة لم توجد فيها

كما أن الكيمياء لم توجد فى عصر الكيمياء الكاذبة . إن تقليد فكرة — كما علمنا أفلاطون — ليس كالفكرة ذاتها ، كما أن تقليد علم ليس كالعلم نفسه ، لقد حكم رمسيس و بختنصر وقارون الليدى ولورش الفارسى دولا عظيمة ، ولكن السياسة لم توجد فى أقطارهم لأن الشؤون العامة لم توجد فيها و إنما وجد شىء واحد هو الشؤون الخاصة للملك وطبقته الحاكمة ، أما الحكومة وكل من الخدمة العسكرية والضرائب وامداد « الحرم » الملكى بالنساء فلم تكن كلها إلا مظهرا لقوة الحاكم و إرادته ، وأما الخطوة الكبيرة التى خطتها اليونان فهى أنها عرفت وجود المصالح العامة أو المشتركة وأنها أعدت العدّة لادارتها ولدرسها ثانيا ، و بعبارة أخرى كان اليونانيون أول من أنقذ الجماعة السياسية من الدجالين وعهد بها الى الأطباء .

وخير ما نقدر به عظمة هذا العمل هو أن نتأمل الفراغ الشاسع الذى يشغله درس السياسة الحقيقى ، وتشغله الاصطلاحات والأفكار التى نشأت عنه فى حياة الرجل الحديث ، ولا سيما فى حياة الرجل الانجليزى الحديث إن العدالة والحرية والقانون والديموقراطية والبرلمان والرأى العام — هذه كلها وكثير غيرها يعود الفضل فيها الى فلاحى الجمهوريات اليونانية الصغيرة وصناعها الذين شعروا بالحاجة الى طريقة حسنة لادارة شؤونهم الضئيلة فعملوا على ايجادها بنفس ذلك الابتكار و باعداد الوسائل المطابقة للغايات ، فتمكنوا فى فن المعمار من احتراع المعبد القديم وفى الفنون الجميلة من اختراع التمثيل فاذا كان من المبالغة أن نقول أن كل سياسى حديث مدين الى اليونانيين بمجموعة أفكاره العامة ، فلا ريب فى أنه قلما يوجد منهم من لا يستمد من اليونانيين مبادئه الأساسية .

وليس هنا مقام الافاضة فى أهم صفات النظام السياسى اليونانى أو الكلام عن العناصر المختلفة فى السياسة اليونانية النظرية والعملية التى ثبتت فائدتها الدائمة ولكنا سنحاول فقط أن نلم بها إلماما عاما فى إيجاز على أنه يمكن استخلاص بعض النقط ذات الأهمية الخاصة للمدنى الحاضر . وأول هذه النقط أن اليونانيين لما تبينوا وجود الشؤون العامة أو المشتركة عكفوا على درسها بجد وعزيمة .

واذ كانوا يؤمنون بالفعل إيمانا راسخا فانهم لم يقعوا فيما وقع فيه الانجليز من الخطأ اذ اعتقدوا بأن النظم لا « تخلق » ولكنها « تنمو » أو أن الصعاب التى لا يقوى على معالجتها الجبناء تذلل نفسها اذا تركت وشأنها ، بل شعروا بأن المسائل السياسية يخلقها الناس ، ويخلقها تفاعل الارادات والرغبات البشرية ، وأن فى وسع الانسان بل عليه أن يحلها باستخدام الذكاء البشرى استخداما مقصودا مدبرا ولم يروا من اللائق أن يسلموا الشؤون العامة الى القضاء والقدر رغم اعتقادهم فى القوى الخفية التى تسيطر على مصائر الأفراد والأمم ، كذلك لم يحولوا أنظارهم عنها باعتبارها أمورا دنيوية محضة لا يسوغ لذوى الأفهام السقيمة مباشرتها فيتركوها الى رحمة زعيم جماعة أو رجل نظريات جاهل خرب الذمة . على أن شؤونهم العامة لم تكن أكثر لذة من شؤوننا بل كانت أقل منها كثيرا اللهم الا اذا حاولنا أن نثبت أن انتخاب القوّاد لقيادة جيش أصغر كثيرا من الجيش السويسرى أهم فى نتائجه من اختيار حكومة تبسط سلطانها على أربعمائة مليون من الأنفس يسكنون القارات الخمس أو أن مسألة السلم أو الحرب بين أقليمين صغيرين جبليين متجاورين تفوق فى الأهمية مسألة العلاقات بين الجنسين الأبيض والأصفر . واذا لم تكن الشؤون

السياسية اليونانية شيقة فى ذاتها فقـد كانت أيضا أقل أهمية اذا قورنت بأمور أخرى كانت تستلفت نظر المـدنى اليونانى . ان الناخب الحديث الذى يقصر فى اعطاء صوته ، ينفق ما هو مدين به للانسانية من وقت وعناء فى العمل أو اللهو ، فى السيارة أو فى نادى الموسيقى ، ولكن الأثينى حينما كان ينفق يوما حارا منهـكا (اذا لم نظن أن أعصابهم كانت أقل احتمالا للقيظ من أعصابنا) فى الأصغاء الى مناقشة برلمـانية أو نزاع قضائى وهو يجلس فى العـراء فوق مقعـد حجرى خشن ، نقول إنه حينما كان يفعل ذلك كان يرجئ الى الغـد أو الى الفراغ الذى يسمح له به زرعه وأشجاره المناقشة فى قصـة تمثيلية فائقة أو ابتكار جديد للفكر البشرى أبرزته الى الخلود قبل ذلك ببضعة أيام أو أشهر قريحـة أحد مواطنيه . واذا كان من الصعب على المدنى النيويوركى أن يجد وقتا لخلع نير « تامانى » [١] ، أو على الناخبين فى بريطانيا العظمى أن يسحقوا جمعية شبيهة بها وان كانت فى ظاهرها أدعى الى الاحترام منها فى هذا الجانب من المحيط الاطلانطى ، مع أن حياته وصحفه ملأى بالملاهى السافلة السريعة الزوال ، اذا كان ذلك صعبا عليه فلشد ما كان من الصعب على معجب بيورو بيديس أو تلميذ لسقراط أو بروتا جوراس أن يقطع البيداء مدى أيام ليعقد صفقة مع زعيم تراقى أو يقضى لفرد مسـكين بتعويض لا يتجاوز عددا من الدراخمات! إن علينا أن نحمـدهم لا أن نرثى لهم أو نحتقرهم لأنهم رأوا من الصواب أن يفعلوا ذلك .

---

(١) جمعية ديموقراطية فى نيو يورك كبيرة معروفة بتدخلها فى الشؤون السياسية المحلية .

ولأنهـــم على الرغم من تدهور الشؤون العامة وعدم لذتها ورغم خلوها من التهذيب والدقة اللذين هما من مميزات شؤون الانسان الضرورية . تعمدوا أن يبعثوا فيها تلك اللذة الناشئة من تحرك الأذهان الشريفة المخلصـــة القادرة لدرسها ، وكما أن هكسلى قد استطاع أن يجعل محور بحثه فى مر العصور الجيولوچية قطعة من الطباشير ، وكما أن السير رتشارد أوين قد استطاع أن يعيد تركيب هيكل الرجل الأول من عظام ابهامه ، فكذلك استطاع الأثينى — كما تصوره لنا صحف توسيديدس أن يعالج المشكلات السياسية الدائمة وأن يجعلها تحيا من بعده ألفى ســنة بمناقشات ظاهرها العناية بشؤون محلية تافهة ، واذا كانت هذه هى صفة الحق الذى وجد حينئذ فليس غريبا أن يعير البعيدون عنه و يوصفوا بالسخف .

لنعطف لحظة على ذلك المزاج العقلى الذى كان المدنى الأثينى يعالج به المسائل السياســية . كان الأثينى محافظا ومتطرفا معا ، أو بعبارة أصح كان يجمع فى السياسة بين خيرما فى مذهب المحافظين ومذهب المتطرفين . كان محافظا لأنه كان يحترم التقاليد و يسلم بسلطان العادة وقيمتها . وليس من بين كتابنا المحافظين المحدثين والمدافعين عن النظم القائمة بما فيهم بيرك نفسه أو بسمارك أو شاتو بريان ، من هو أكثر من الأثينى تأثرا بهاته الشرائع غير المسطورة التى تجلل من يعتدى عليها بالعار الذى لا ينكره انسان . كانت أثينا ديموقراطية محافظة . والحقيقة أن سواد الديموقراطيات محافظ رغم دعاوى ساستها ذلك لأن الفرد العـــادى الذى يمثلون نظامه محافظ بنفس طبيعة حياته وعمله ، ولا ينقذ عقول سواد الناس من قيود العادة الا الفراغ والأسفار أو تربيتهم تربية أوسع مدى مما أسبغته الى الآن أية ديموقراطية على شبيبتها . بيـــد أن

أثينا كانت أكثر محافظة من أية ديموقراطية حديثة نعرفها ، فحيثما يعرب الشعب البريطانى عن استيائه من كاتب أحمق بالائتمار على مقاطعة مؤلفاته ليشل بذلك قلمـه اذا لم تكن له موارد خاصة ، وحينما تذهب الولايات المتحدة الى أبعد من ذلك فتحرم امتيازات البريد على مؤلفـاته ، كانت أثينا لا تحجم عن دس السم له ، وكانت الديموقراطية تهتف هتاف الاستحسان اذا غضب أحد من صفوة القوم أو حزن . لم تبد الولايات المتحدة قط فى أشد أطوار الأرهاب الأحمر الحديث بهذا الغلو فى المحافظة ، ويجب أن يعيننا ذلك على تقدير متانة أسس التقاليد والعادات والتقديس الأبوى والرسوم الدينية التى أقيمت عليهـا نظم الديموقراطية الأثينية فى القرن الخامس اذا رأينا تقلباتها الظاهرية .

كان للمدنى أن يجيل فكره بمـا شاء من الحرية فى المـادة التى تقدم اليه ليبحث فيها ، ولكن كانت هنالك نقطة عندها تهيب به الدولة وتهيب به غرائزه أيضـا إن (قف) فيذعن الى هذا النداء الا فى أحوال نادرة ، ومن العدل أن نزيد أن أشد الآراء الحديثة ثقافة يؤيد كل التأييد معارضـة الرأى الأثينى للمجادلة فى القوانين غير المسطورة أمام البرلمـان . والفرق بين الديموقراطى الأثينى المحافظ وبين الحر الحديث فى مثل هذه المسائل ليس هو أن أحدهما يأبى المجادلة فى حرمات الحياة أمام البرلمـان والمحاكم والآخر يطلبها ، بل هو أن أحدهما يستند الى العادة ويستند الآخر الى الضمير فى ضمـان احترام العرف ذاته ، فسواء أكان الأمر متعلقا بالآلهة أم بالانسان ، بقانون البيت أم قانون الضمير فان كليهما يتفق على أن ما هو خاص ومقدس لا محل له فى سـاحة المناقشات العامة .

على أن المدنى اليونانى كان متطرفا فى دائرة هذه الحدود المعترف بها بمعنى أنه كان دائم الأهبة لأن يحيل عقله فى الشؤون العامة دون خوف أو تحامل ، لقد كان مولعا بالتفكير الصريح الصادق وكان يبذل جهده فى معالجة الموقف الحقيقى الذى يواجهه دون أن تعميه أو تضله موانع أو نتائج عرضية. وكم فى خطب توسيديدس من درس فى الأمانة العامة يجب على ساستنا وعامتنا أن يتعلموه ، لقد اعتاد النقدة القليلو العلم أن يطلقوا عليهم لفظ الكلبيين وهى صفة يولع الانجليز — المهرة فى خديعة النفس — بنسبتها الى الأمم التى هى أشد اخلاصا منهم فى معرفة أنفسها . ونحن اذا أبينا رسميا أن نناقش مسألة يجرى العمل بها يوميا لأنها مسألة حزبيــة ولأن حكومة إئتلافية تتربع فى كرسى الحكم واذا تركنا لرحمة الأقدار مسألة يعتبر عدم التعرض لهــا سياسة ، واذا تعمدنا أن نخترع دعاوى حزبية أو نداءات انتخابية يقصــد بها تضليل عقل الناخب و إبعاده عن الغـاية الحقيقية ، واذا كان ساستنا قد أصبحوا أساتذة فى الفن الذى وصفه توسيديدس بأن فن استــعمال عبارات خلابة لتحقيق غايات جنائية ، ووصفه رئيس وزارة بريطانيا بوصف ملطف هو « الخديعة السياسية » اذا كنا كذلك فخير لنا أن نجلس لنقرأ ونلاحظ ونعى وننسق ونطبق على مواقفنا الحديثة الخطب أو الفصول الخـالدة التى يفصح توسيديدس لنا فيها عن حقيقة الحياة السياسية لعصره وأن نجعل منها مطهرا لبعض نظم حياتنا المعسولة . إن حلاوة الصــدق المشوبة بالمرارة ليست شائعة دائمـا فوق منابر الانتخاب ولكنها غذاء طيب للمدنى الصادق قديما كان أو حديثا .

يفضى بنا هـذا الى فكرة أخرى . كان اليونانيون فى تفكيرهم السياسى طلاب حقائق لا طلاب مثل عليا وهذا الوصف يصدق على كل الكتّاب اليونانيين حتى على من كان منهـم مثل أفلاطون قد بدأ فى سوق أتينا ثم سما بنا الى مجتمع خيالى فى السحب. كانوا جميعا طلاب حقائق فى كونهم قد بنوا مباحثهم السياسية على العالم كما هو ، وعلى الطبيعة البشرية كما هى، لا على فهم شخصى أوخيالى لمـا يجب أن يكونه الانسان والعالم، و بعبارة أخرى كانوا طلاب حقائق لأنهم كانوا علماء نفس ولأنهم طبقوا الطريقة النفسية على المسائل السياســية . أما أنهم كانوا أول من فعل ذلك فلا حاجة الى ذكره لأنه لم يطبق أحد قبلهم أية طريقة ما ، اللهم الا على أبسط الأساليب وأكثرها سذاجة . أما هم فقد طبقوها بأحكام ليس فوقه احكام ، و ببساطة فنية رائعة تامة حملت من سار على منهاجهم على قبول استنتاجاتهم أو نقدها دون أن يلاحظوا أساس درسهم البشرى الذى بنيت عليه . فلم تقرن السياسة وعلم النفس من جديد الا فى الأعوام القريبة جدا بفضل عمل بعض الباحثين الصابرين الذين قاموا فى كلا الميدانين بأبحـاث منظمة كما فعـل جراهام والاس .

قد يستغرب قراء هـذا العصر اذا علموا أن "تيوسيديدس" و "أفلاطون" وأرسطو قد ساروا من هـذه الوجهة الهـامة على خطة أقوم من التى اتبعها كل المفكرين السياسيين ورجال السياسة الى وقتنا هذا . ومن كان فى ريب من هذا فليرجع الى ما حوته كتبهم يجـد أن هؤلاء الذين سميتهم أجهدوا أنفسهم فى دراسة الطبيعـة البشرية قبـل أن يخطوا حرفا مما كتبوه . فكتّاب الجمهورية مصدّر بعـدة أجزاء فى التحليل النفسى "البسيكولوجى"

وهو وان كان يتخلله بعض الخيال البعيد فيما فيه من التبويب السابق لأوانه فهو مملوء بالحياة والحقائق ، وليست هذه الحقائق خاصة باليونانيين بل هى حقائق بشرية عامة . وقد كان اليونانى فى أبحاثه يستطيع أن يكون كالباحث الألمانى والأمريكى فى وقتنا هذا "فأرسطو" قد قدم على كتابه السياسة الذى جمع فيه نتائج بحثه ودراسته لكل ما عرف فى أيامه من المعلومات السياسية والنظم الدستورية كتابا فى الأخلاق ما زال يعد بحق علما من أعلام الكتب التى يعتمد عليها طلاب العلم فى وقتنا هذا . أما "ثيوسيديدس" فمعرفته بالناس ، وهى ثمرة خبرة طويلة زادها رسوخا خيبة آماله ، ظاهرة فى كل سطر من سطور كتابه كما يراها الانسان فى خلفه الصميم "فنزيلوس".

ولنرجع البصر الى الكتاب الحديثين فهل نجد من (هبس) و(بنتام) و (برك) و (روسو) والفرديين والاشتراكيين والهيجليين والفوضويين من حاول محاولة واسعة خالية من التعصب أن يرى الانسان كما هو ، اللهم الا فى الأيام الأخيرة ، وطالما طرقت آذاننا كثير من الحكم والأمثال المبنية على تقدير وقتى نصفى عن تأثر الانسان بالحوادث والأنظمة المحيطة به .

ويتجادل الناس وتتضارب آراؤهم فيما إذا كانت " الطبيعة البشرية قابلة للتغيير " وفيما إذا كان الانسان غير مسير إلا بمنفعته الشخصية أو أنه لا ينتظر إلا ريثما يتخلص من همومه ومشاغله حتى يكون رائده فى العمل حبه لاخوانه . وكذلك يتجادلون فيما إذا كان الخوف أو الأمل أو العادة أو حب المخاطرة هو أكبر دافع طبيعى يضطر الانسان إلى العمل . ونشأ من ذلك أن أسدل ستارا كثيفا من العقائد والثرثرة على حقيقة الانسان بهذه المناظرة الكبرى

كما هو الحال فى كتاب الخطرات لبرك وكتاب رأس المال لماركس وفى كتب مين ومل ومازينى وكذلك فى كتب صغار الكتاب الذى ينشرون نتائج أبحاث هؤلاء الكتاب بين عامة الناس فى الكتب المدرسية والنشرات الانتخابية . فنحن فى حاجة إلى بساطة اليونان أو كلبيتهم لكى ترجع بنا إلى الحقائق مرة أخرى .

والآن فلنتصوّر لحظة موقف "ثيوسيديدس" تجاه معضلات عالمنا هذا بعد الحرب الكبرى . ليس علينا إلا أن نقرأ تحليله الخالد لحالة اليونان النفسية والحربيـة وما كان يصحبها من المظاهر العصبية والحسـية ليتبين لنا أن أول ما كان يحاوله هو أن يوضح لنا حقيقة أنفسنا ، وما كان يسمح لنا أن نوافق من غير بحث على اعتقادنا الغامض بصواب أعمالنا ، ولا أن نستسلم إلى نفورنا من الأجانب أو إلى سوء الظن بمبادئ ولسن المثالية .

كان "ثيوسيديدس" يرجع بضجرنا وتزمرنا إلى أسبابه الحقيقية دون أن تأخذه فى ذلك هوادة أو شفقة ويعرض أمام أعيننا حالتنا وهى مزيج غريب من حزن وتعب ، وقلق وفشل ، وأمل وعجز ، هى علة ما نحن فيه الآن . ارجع إلى قوله فى كتابه « إن الحالة النفسية الحربيـة قد جاءت معها أعراض كثيرة فظيعة حدثت وستظل تحدث طالما بقيت طبيعة الإنسان كما هى ولو أنها تختلف فى الشـدة والاعتدال حسب اختلاف الأحوال الخاصة . كان "ثيوسيديدس" يراقب تلك الحالة فى كل أطوارها سواء أكانت معتدلة أم شـديدة ، بسيطة أم مركبة . تدعو الى العطف أم الى النفور .

كان يظهر لنا الطبقتين الانجليزيتين العليا والوسطى وقد حرمتا أسباب الراحة والسرور والسلامة بسبب الحرب وما فيها من الأحزان وهما يواجهان مستقبلا مفعما بأفكار وقوى مفزعة ، مجهولة العاقبة يضرب جابى الضرائب هدوءهما وسكينتهما الضربة القاضية ، وكذلك يكشف لنا عن طبقة العمال وقد دعيت لتحارب من أجل قضية لم تحسن ادراك كنهها أملا فى عالم جديد يأتى به النصر ، ويحثها زعماء الأمة على أن يكون إقدامها فى سياستها الداخلية كأقدامها فى خنادق القتال ،ثم بعد ذلك تلاقى عالما كسدت فيه الأسواق ، وافتقر العملاء وسادت فيه قوانين العرض والطلب بشدتها التى لا تعرف الرحمة ، والتى اعتادت طبقة العمال أن تعتقد أن فى امكانها تجاهلها لأنها طالما تمنت زوالها ، فيدفعها هذا الاعتقاد تارة الى الاستلام ، وطورا الى ثورة العجز ، وأحيانا يدفعها الى نظام نقابات العمال العتيق ، وآونة الى أحدث أنواع التطرف ، وذلك حسب السن والمزاج والخبرة : ثم يصور حالة فرنسا وقد خرجت من الحرب منهوكة القوى ، بعد هجمات دامت خمسين سنة ، وكابوس استمر خمس سنوات وهى تكاد تموت من الحزن والانتظار ولكنها عند انتصارها ، قد أخذت العزة من نفسها مأخذا أصبحت معه لا تعترف بضعفها ، وهى تنظر الى حلفائها وقد ظهر عليها شىء من الازدراء بالخطوب وشىء من القلق علها تجد من بينهم من يدرك حاجتها البادية عليها رغم صمتها وهى تتوق بكل قواها الى أن تستأنف فى اطمئنان وهدوء بال أعمالها العادية وفنونها التى جعلتها فى الماضى وستجعلها فى المستقبل أتينا العالم الحديث وكان يصور ألمانيا التى لا تقل عن جارتها الغربية ضعفا واضطرابا ، وإن كانت هى من معدن أصلب من معدنها

فهى بلاد أهلها قطيع من الغنم بلا راع يندفع من جهة الى أخرى منقبا و باحثا عن مرشد ، ولذلك تجد قدرتها المدهشة فى الكد وحصر الذهن ، وكذلك شعورها القوى الجائش ، يذهبان هباء لعــدم وجود من يحسن ارشادها : ويصور بلجيكا وهى واثقة بنفسها نشطة تجددت قواها : وايطاليـا وقد تم اتحادها أخيرا ، وأصبحت تختبر قوتها فى معالجة معضلات عهد من تاريخها جديد ووراء ذلك كله عالم الصقالبــة الجــديد المضــطرب من براغ ذات الحماس المنظم وعلى رأسها رئيسها الفيلســوف الى الروســيا الجديدة وهى تعانى آلام المخاض فى قبضة أطباء الكرملين الجفاة المستبدين — كل هذا كان يحاول أن يظهره لنا "ثيوسيديدس" جديد دون أن ينسى ما فى الأجيـال القديمة من قوات محافظة وآلهة من تقـاليد كاثوليكية وبروتستنتية واسلامية واشتراكية ودون أن ينسى سلطة أصحاب المصارف والتجار والجامعات والصحافة وغير هؤلاء من أجناس البشر الذين أوجدهم وميزهم عن غيرهم جدهم وعملهم ، فاذا فرغ من اظهارنا على حقيقة أنفسنا ، كل منا فى مشكلاته الخـاصة ، وكلنا معا فى ركننا الصغير من هيكل الانسانية الهائل بعــد أن يرينا ضآلتنا وتمسكنا بعقائدنا القديمة ويجمعنا كلنا عالم الزمان والمكان .

اذا فرغ من ذلك كله قطع ذلك السكوت وأجاز لنفسه أن يصف لنا العلاج وعندئذ تكون الرسالة الأولى و ربما كانت الرسالة الوحيدة التى يقدمها ذلك المؤرخ العلمى الحكيم فى عصرنا المضطرب . هى قوله "اعرف نفسك "

ربمـا سأل سائل وقال بأى حق نتكلم عن ثيوسيديدس كمؤرخ علمى فى عصر الانتاج العلمى المنظم عصر معاهد الأبحاث العلمية

وعصر التخصص ، فليس هو الا رجلا لا يحمل درجة علمية قط ولم يحضر العلم فى جامعة مطلقا هو رجل بعد أن خدم فى الجيش خدمة قصيرة لم يتعلم من أجلها شيئا فى جامعة (كما تستبين ذلك من قيادته) قد جلس ليكتب تاريخ الحرب التى اشترك فيها معتمدا فى قصته على خبرته وعلى أقوال من استطاع أن يصل اليهم من شهود العيان . إن فى قدرة أى مدرس تاريخ مبتدئ فى احدى الكليات أو الجامعات الحديثة أن يتنبأ بالنتيجة . ليست هذه النتيجة الا مجلدا من المجلدات الضخمة المشحونة بتفاصيل وذكريات وفيها يحاول رجال ممن تقدموا فى السن أن يبرروا وجودهم فى العالم ويستنزلوا اللعنات على وزارة الحربية أمام جمهور غير مكترث . كيف يرجى خير من ذلك من جندى بسيط ورجل عملى غير مثقف لم يتعوّد فنون البحث ولا جمع الحقائق على قطع من الورق ثم يرتبها مرات متوالية حتى يستنتج منها شيئا ولم يتعوّد الرجوع الى كتب المراجع فى دور الكتب ثم ترتيبها ترتيبا واضحا حسب الحروف الهجائية رجل يجهل تمام الجهل المباحث الثانوية الشاقة التى يبنى على أساسها التاريخ العلمى الصحيح بل يجهل اللغات الأجنبية نفسها ولم يقرأ شيئا فى علم الاجتماع ، بل لم يتنبه حتى الى وجوده ولا تتعدى معلوماته الجغرافية ما علمه من سياحته وما سمعه من أصدقائه ، وبلغ من وقاحته أن صار يدمج فى قصته خطبا مختلفة وبذلك يهدم أى ادعاء للصفة العلمية فى رسالته بل يظهرها فى شكلها الحقيقى أى أنها مجرد عمل فنى أو خيالى . ومما يشك فيه أن أمين مكتبة عصرى مدرب يعمل حسب التبويبات التى وضعها "مؤتمر المكتبات فى واشنطون" يسمح لنفسه اذا لفت نظره الى هذا الكتاب القبيح بأن يضعه بين كتب التاريخ ، وربما

قال : ان خير مكان له هو أن يوضع مع الشعر النثرى أو مع التاريخ الخرافى الذى يليه مباشرة . ومع هذا فانك اذ تصفحت الأبواب الأولى من كتاب "ثيوسيديدس" تجد أغلب العلوم التى كتبت فيها الكتب المطولة الحديثة ، ولكنك تجد أكثر من ذلك ، تجدها كلها ممزوجة موحدة .

فدع هؤلاء الذين ينكرون على "ثيوسيدرس" أنه كان عالماً من علماء الاجتماع ولا يزالون يدعون أن هربرت سبنسر مخترع تلك الكلمة المروعة هو أيضاً موجد "لعلم الاجتماع" دعهم يقرءون ثانيا ما كتبه "ثيوسيديدس" عن تطور المجتمع اليونانى "لأنه رآه ووصفه من حيث هو" من أقدم العصور إلى أيامه هو. دع هؤلاء الذين ينادون بعلم تركيب جسد الانسان ووظائفه يفحصون معالجتــه بالأساطير والعــادات وقدرته على استعمالها كبراهين اجتماعية ولو أنه لم يتعلم فى مدرسة أو معهد . ودع الجغرافيين الذين قد ينسون فى بعض الأحيان أن الانسان ليس ابن بيئته فحسب ينعشون عقولهم بما أدلى به من الآراء الجغرافية التى فسر بها بعض مظاهر المستعمرات اليونانية الأولى وبناء المدن اليونانية . ليس ذلك تاريخا صحيحا فحسب من نوع تاريخ مدرسة رانك التى كان "ثيوسيديدس" موجدها والموحى بها — بل لا توجد حركة واحدة من الحركات الكثيرة التى سعت فى توسيع دراسة التاريخ فى السنين الأخيرة ابتداء من بكل وليلاى وفندال دى لا بلاس إلى علماء اليوم والغد الذين يحللون النفس . أقول لا توجد حركة من هذه الحركات إلا وجد القائمون بها لثيوسيديدس بعض آراء ساطعة سابقة آراءهم تتمشى مع أفكارهم .

وهنا نذكر ما يمكن أن يعد أكبر ميزة لعلماء السياسة اليونانيين كما أنها أكبر ميزة لما خلفته اليونان فى الجملة . فانهم رأوا كل المعضلات ولكنهم رأوا كلا منها فى موضعه بجزء من كل . فهم كما قال ماتيو ارنلد "قد نظروا إلى الحياة بامعان و رأوها من كل وجوهها" وإن كان هذا التعبير قد بليت جدته من كثرة الاستعمال ولكنه تعبير لا يمكن أن يوجد خير منه . وإذا أردنا أن نعبر عن الفكرة نفسها بعبارة أخرى نقول إن اليونان كانوا بطبيعتهم كاثوليكا طبيعيين بينما نحن فى العصر الحاضر وعلى الأخص فى ميدان السياسة مندفعون دائما إلى البروتستنتية وإنى لا أقصد بالكاثوليكية شيئا نظريا أو دينيا ولكن مجرد تعوّد العقل على النظر إلى كلية الشيء قبل جزئياته والى مراعاة المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة ، وإلى التلطيف والتوفيق بين الأشياء المتناقضة المتنافرة التى لا بد منها فى الحياة وذلك بتذكر المصالح الكبرى العامة على الدوام . فالكاثوليكى هو كما وصفه نيومان وهو نفسه من أعظم أفراد هـذه الطائفة رغم نزعته الدينية ، هو من لا يستطيع ذهنه أن يكون محابيا ولا مغلقا دون الجديد ولا غضوبا ولا مرتبكا ، وهو لا يستطيع إلا أن يكون صبورا هادئ البال ، ساكنا فى وقار وجلال ، لأنه يرى النهاية فى كل بداية ، والأصل فى كل نهاية ، والقاعدة فى كل شاذ ، والحد فى كل تأخير .

لأنه دائما يعرف الحد الذى يقف عنده ويعرف الطريق الذى يسلكه من نقطة الى أخرى .

أما البروتستنتية فهى موقف الاحتجاج والعصيان والسخط فهى الروح التى لا تشعر الا بما هو ضدها وقد أخذ الجهل والغضب منها مأخذا عظيما فمنعها من أن تنظر نظرة شاملة الى كل المعضلات التى تندمج فى احتجاجها ، أو أن تفكر لنفسها فى خطة أخرى

واذا لم يكن اليونانيون قد استطاعوا أن يؤدوا لنـا خدمة أخرى وسط ما نحن فيه من تذمر ، فلا أقل من أنهم يستطيعون بمـا نأخذ عنهم من النظر الى الأمور بطريقة شاملة وبلا وجل — أن يخلصونا من ثورتنا البروتستنتية ، ومن اتهام بعضنا بعضا ، وأن يبثوا فى نفوسنا طريقة التفكير الكاثوليكى المطرد .

واليك بعض أمثلة مأخوذة عن أفلاطون لمـا نسميه الروح الكاثوليكية ربمـا كانــ أكثر مسائلنا أشكالا وتعقيدا ، علاقة الرجال بالنساء فى مجتمع قد منح أو على وشك أن يمنح النساء حق المساواة التـامة مع الرجال فى حقوقهم وفرصهم قبل أن يحدث ما يقابل ذلك من التطور الداخلى فى الأفكار والعواطف . وبعبارة أخرى لا يقبل الرجال المرأة المتعلمة فى صفوفهم رغم المهن الكثيرة التى يحترفون بها . هذه مشكلة خطيرة فى غاية من التعقيد بحثها أفلاطون منذ نيف وألفى سنة ولكنه بحثها بروح يختلف كل الاختلاف عن روح أغاب النسائيين فى الوقت الحالى ، ولسنا نعنى أنه كان أقل رقيا فى أفكاره ومباحثه فانه كان مستعدا لأن يواجه كل معضلة تستحق البحث ويبدى فى سياسته آراء أبعد مما يعد لائقا لأن يطبع فى مجلة انجليزية أو أمريكية، ولكن روحه كانت دائما مشبعة بالرزانة ، ومنظمة وعلمية بخيرما يفهم من هذه اللفظة فكان يصل باستنتاجاته الى غايتها القصوى دون أن يظهر عليه أى أثر للتأنق أو التواضع المصطنع ، فأين تجد فى مجادلاتنا العصرية عن استخدام النساء وعن مساواة أجورهم اذا تساوت أعمالهم الى غير ذلك من الموضوعات . نقول أين نجد الفكرة الأساسية مذكورة بغاية البساطة والوضوح كما هى مذكورة فى الجملة الآتية :

اذا وجدنا أن أحد الجنسين الرجال والنساء تفوق على الآخر فى فن أو عمل ما ، قلنا ان هذه المهنة يجب أن تحفظ لمن تفوق فيها دون سواه ولكن اذا كان الاختلاف مقصورا على أن المرأة تحمل وأن الرجل يلقح فلسنا نتخذ ذلك دليلا على أن المرأة تختلف عن الرجل فيما يختص بالمسألة التى نحن بصددها ولا نزال نعتقد أن أوصياءنا ونساءهم يجب أن يحترفوا حرفة واحدة .

ولو كانت كل مناقشاتنا فى الوقت الحاضر بنفس هذا الوضوح والصراحة لكنا الآن قد تقدمنا تقدما عظيما فى هذا الموضوع وان كان العقل اليونانى وصفاء تفكيره ووضوح تعبيره لم يعقه ارث عائق مفسد كذلك الأرث الذى اذا وصفناه بأنه بيور يتانى فقد أسأنا الى هذه الحركة العظيمة أيما اساءة .

واليك مثلا آخر وهو أثر المهنة فى الأخلاق وهذا له مساس عظيم بأصل كثير من معضلاتنا الاجتماعية لأننا اذا لم ندرس تأثير الأعمال المختلفة على أجسامنا وعقولنا ولم نتقن طرق اختيار الحرف نكون قد تركنا مجالا واسعا للشقاء والتعاسة . ولكن الباحث العصرى يجد تلميحا مفيدا الى هذه الفكرة فى كتاب الجمهورية واذا وجد الباحث أن علاج أفلاطون لهذه الحالة كما هو فى مسألة العلاقة بين الرجال والنساء علاج شديد مستأصل ، ومال الى عدم موافقة أفلاطون على تحريم التمثيل (الألعاب البهلوانية) فليفكر هذا الباحث فى الحد الذى وصل اليه تنعم المستهلك على حساب المنتج فى الأزمة الحديثة ، واذا ما حضر حفلة موسيقية ليرتاح بعد مجهود يومه أو عند ما يخاطب انسانا بواسطة المسرة ، أو عند ما يبتاع تذكرة سفر من احدى المحطات فليسأل نفسه كم مرة فكر فى هذه الحياة التى قد تآمر مع غيره على القضاء

على من يقومون بحاجاته ورغباته . كان أفلاطون يؤمن بفضل الجمال ايمـانا راسخا لا كأيمان عشاق الجمال الحديثين، ولقد عرف وأدرك ما للتوافق والانسجام واللطف والحرية من الأهمية العظمى فى الحيـاة الخارجية وفى الروح نفسها ، ولو وجد نفسه قد زج فى وسط احدى مراكز المدنية الحالية لكان لديه بعض الأسئلة يسألها بقصد البحث والتنقيب ، ومما قاله فى ذلك أن انعدام اللطف والرقة والتوافق والانسجام كل هذه تقترن بالألفاظ الرديئة والطبع الخبيث . ونحن لا نرغب فى أن نربى أولياء أمورنا وسط الرذائل فيكونوا كمن تربى فى مرعى خبيث ، فيزداد تأثرهم بمـا حولهم شيئا فشيئا ويوما بعد يوم حتى تتجمع فى نفوسهم فى آخر الأمر أنواع الخبـائث وهم لا يعلمون " . فهل يمكن تشخيص أشد أمراضنا انتشارا تشخيصا أحسن من ذلك ، ألا يتضاءل شأن أطباء أمراضنا الاجتماعية والرأسمالية وعلاجهم المـادى المحض أمام تلك العبارة البسيطة المقنعة ؟

قد تكلمنا عن بعض المسائل الخـاصة التى يمكن أن يساعدنا فيها "ثيوسيديدس" وأفلاطون وسنتكلم الآن باختصار عن ثالث الثلاثة الأعاظم . ان أرسطو هو بالطبع أكثر الثلاثة تفكيرا منظما ومن أجل هذا السبب عينه نجد فيه العاملين اللذين لاحظناهما فى الأفكار السياسية اليونانية ، وهما العامل الوقتى المحلى ثم العامل العام ، قد امتزجا امتزاجا يجعل انفصالهما من الصعوبة بمكان .

ومع أنه كان أستاذ الاسكندر المقدونى فان عقله كان لا يستطيع تخطى حدود المدينـة المستقلة . لذلك كان كتابه فى الأخلاق عبارة عن رسالة عن الطبع البشرى من جهة وكان من جهة أخرى كتابا فى الأخلاق يقرب من نوع كتاب «نيوفراستس» عن سلوك

الفرد اليونانى . فلا غرابة فى أن أجيالا متتابعة من الطلبة فى الجامعات الانجليزية قد أخفقت فى إدراك معنى الكمال البشرى أو السحر الاجتماعى فى بطله أو النموذج المثالى الذى وصفه بأنه الرجل ذو الروح العالية أو الرجل العظيم . كذلك يحتاج قارئ كتاب السياسة الى خبرة والى معرفة سابقة بالحياة اليونانية حتى يميز بين المسائل العامة والخاصة ثم يستنتج استنتاجاته الحديثة . واذا قرأت بهذا الروح الكتاب الأول من السياسة وميزت ما يقال عن الدولة عن كل ما هو خاص بالمدينة فقط وقدرت ما فى القواعد العامة البيولوجية والبسيكولوجية والاجتماعية من المخاطرة كقوله (الانسان حيوان سياسى أكثر من النحل وغيره من الحيوان الذى يعيش جماعات) ، (من كان بطبيعته ليس لنفسه بل لغيره وليس بانسان فهو بطبيعته رقيق) ، (الدولة بطبيعتها قبل الأسرة والفرد لأن الكل بالضرورة مقدم على الجزء) تلك المخاطرة التى أساسها كما يظهر من الأمثلة المذكورة أن العلوم إذ ذاك كانت فى دور تكوينها — لو فعلت ذلك كله لبقى عندك شئ كثير من الحكمة العلمية الكثيرة الفائدة فى الحاضر والمستقبل .

دعنا ننظر لحظة الى عنصر واحد من عناصر هذه التركة لأنه أصبح منذ عهد قليل موضع جدل عظيم ، ذلك هو رأى أرسطو فى الدولة وعلاقتها بغيرها من الطوائف الاجتماعية والسياسية . لقد بينا أن الآراء السياسية اليونانية يعاب عليها أنها لا تهتم بالفرد الاهتمام الكافى ، أما أرسطو فأقل تعرضا لهذا العيب من زميليه العظيمين لأنه يسمح لبعض الأفراد الممتازين أن تكون لهم حياة داخلية أو « نظرية » كما يسميها ، بعيدة عن مشاغل المدينة المستقلة ، وتكاد هذه تذكرنا بآراء أديرة القرون الوسطى

لولا ما فيها من العقلية الراجحة . وهـذه الحياة وإن كانت خاصة بعدد قليل فان فى ذكرها اعترافا بأن وراء الشخص المتحضر يوجد الانسان الذى يمكن فى بعض الأحيان أنــ تكون له حقوق ، وإن علم السياسة كما يقول أرسطو لا يكوّنــ الرجال كما ظن ثيوسيديدس أن أثينا هى التى كونت الأثينيين ، بل يتسـلمهم من الطبيعة ويستخدمهم .

وقد وضح بجلاء حق سيطرة الدولة على الطبيعة البشرية وخضوع الانسان لكل أو جزء من طبيعته ، هذا الحق هو أن الانسان اذا كمل (أى أشرفت عليه الحكومة وعلمته) كان أفضل حيوان ، ولكنه اذا انفصل عن القانون والعدالة فهو أحطها ، أو بعبارة أخرى كتبها فى مكان آخر ، إن الانسان الذى ليس له نصيب فى حياة الدولة أو المدينة ، إما أن يكون وحشا أو إلها ، والفرض الأول أكثر احتمالا (كما يفهم من ترتيب الألفاظ) . وبعبارة أخرى (إن القانون والعدالة هما أساس السياسة وسبب تبريرها) وليس ذلك الأساس هو كما يعتقد ثيوسيديدس سمو الروح الى أعلى سلطتها ، وليس كما يبشر أفلاطون وجود اشـتراك عضوى بين الحياة الداخلية للنفس ونظام المجتمع الخارجى . يقول (أرسطو) إنــ العدالة (مستعملا هـذه الكلمة بمعناها الضيق لا بالمعنى الأفلاطونى أو النظرى) هى الرابطة التى تربط الناس بعضهم ببعض فى الدول وأن ادارة القضاء وتقرير ما العدل هو أسـاس النظام فى المجتمع السياسى .

الآن وقد وضح هذا المبدأ وعرفنا أن أرسطو قد اعترف اعترافا جزئيا أو ضمنيا على الأقل بحق الفرد قد أصبح من السهل أن نفهم موقف أرســطو المتطرف تجاه مطالب الجماعات الخارجة عن

الحكومة ، وهذه نقطة دار حولها أخيرا جدل شديد . وقد بدأ كتابه فى السياسة بقوله كل حكومة هى جمعية من نوع ما ، وقد أسست كل جمعية لغرض المنفعة من أى نوع كانت . . . ولكن لما كانت كل الجمعيات ترمى الى فائدة ما فالحكومة أى الجمعية السياسية التى هى أرقاها جميعا والتى تشمل سائر الجمعيات ترمى بدرجة أعظم من غيرها الى أكبر فائدة و بعبارة أخرى اذا حدث تعارض بين الولاء للدولة أى الجمعية السياسية والولاء لأية جمعية أخرى سواء أكانت الكنيسة أم النقابة أم رابطة المهنة أم جمعية انسانية وجب أن تقدم مطالب الدولة .

وكثيرا ما انتقد هذا المبدأ انتقادا شديدا لأنه يمنح الدولة سلطة مطلقة لا يمكن الدفاع عنها ، وينكر على الجمعيات الصغرى شخصيتها ، وينفى حق الولاء لما هو أصغر من الدولة . وقد ذكر المستر فجس فى هذا الموضوع فى عدة رسائل جيدة وان كانت غير مقنعة نظريات اليسوعيين وغيرهم من الأقليات المعادية للحكومة الساخطة عليها ، وقد دعمها بنظريات المعتزلين عن الكنيسة الملكية ونظريات نقابات العمال أو اتجاه ميول عصرنا هذا ، وقد تشجع عدد كبير من الشبان الأذكياء دعاة «التقدم» فاتبعوه غير أن الهجوم على سيادة الدولة قد وقف أمام ضغط الحقائق وقوتها ، ومن الغريب أن فى عصر التعصب المذهبى ، وعصر النظريات الثائرة قد أظهر النزاع هذه الحقيقة ، وهى أن معظم الجنس البشرى الآن كما كان فى أيام اليونان القديمة يلبى نداء الوطنية عند الحاجة وأنه متى جاءت الحرب ونودى الناس كلهم فرادى وجماعات الى ميدان القتال لا يحتمى الناس بحماية هذه الجماعة أو تلك ، بل بأنظمة الدول التى تمثلهم خير تمثيل والتى هى

أكبر الأنظمة ، وأن الأحزاب والجمعيات السرية التى تضرم نار الحماسة وتوجد النشاط فى أوقات الفراغ ، لا يمكنها أن تحافظ على دعوتها متى كان كيان المجتمع كله فى خطر ، وإذا استثنينا الذين رفضوا نداء الحكومة ارضاء لضمائرهم حقيقة وتلك البقية المحتقرة التى أدعت مثل هذا الاعتقاد ، فان عدد الانجليز الذين قدموا ولاءهم لجمعية سياسية أو اجتماعية على ولائهم للدولة قليل جدا ، فلم يتأثر الولاء الأساسى ولا ما يمليه الشعور العام الفطرى غير المحلل بالنظريات والحجج المنمقة الخلابة فى هذا البلد .

ولكن الآراء التى نسميها آراء نظرية غير محللة يمكن تحليلها ويجب أن تحلل . وهناك سبب عملى هام قد عرفه « أرسطو » يجعل الناس يفضلون الدولة على الجمعيات التى هى أصغر منها ، وذلك بأن الدولة تترك لهم من الحرية أكثر مما يتركه سواها . فهؤلاء الذين يذكرون استبداد الدولة يتجاهلون تلك الحقيقة البسيطة ، وهى أنه لا يوجد استبداد كاستبداد الجيران الأقربين فكلما صغرت الجماعة اشتدت وطأة يدها الخانقة على حياة الانسان ونشاطه . نعم إن من المرغوب فيه بل ومن الضرورى جدا وجود الجماعات الصغيرة والاخلاص لها فى مجتمعنا العظيم فى الوقت الحاضر ، ولكن هذه الجمعيات توقع الناس وبخاصة ضعيفى الارادة ناقصى التفكير منهم فى أخطار أكثر مما يعرضهم لها ولاؤهم الأكبر للدولة . إن ولاء الرجل لمهنته أو عمله أو غيرهما قد يبلغ من الشدة مبلغ موقف الاعتراف بالنسبة للمرأة فى أسوأ حالاته . ففى العالم الحديث كثيرون ممن باعوا إخلاصهم لأنفسهم ليحافظوا على وحدة حزبهم أو تقاليد نظمهم أو مصالح حرفتهم أو بقاء تجارتهم ، ولو أمكن كشف أسرار القلوب كلها لوجد كثير من

كبار رجال الكنيسة وزعماء الأحزاب ونقابات العمال واتحادات أصحاب المصانع وهم يفكرون بل و يقولون فى السر ما يحرم عليهم اخلاصهم لجماعاتهم قوله علانية لأخوانهم . نعم قد ترتكب الدولة فى ميدانها الواسع بعض الخطأ الفظيع ، بل بعض الجنايات ، ولكنها على الأقل فى هذه الأيام ذات الحكومات الكبيرة لا تعرض أبناءها الى ما يحدث كل يوم من الكذب والنفاق والى ما يعوق تقدمهم بسبب الاعتبارات الشخصية التافهة الدنيئة ، والأباطيل التى يظهر أنها تلازم حياة الجماعات الصغيرة من رجال ونساء . ولو نظرنا الى الدولة من هذه الوجهة لما ألفيناها الحارسة على العدالة فحسب بل على الحرية أيضا ، حرية النفس والروح التى لا تتفق مع عقلية رجال النقابات والمهن ، بل تناقضها تناقضا بينا لا ينقص منه عدم الجهر به .

واذا لم يكن كل هذا قد اتضح لأرسطو عند ما كتب الفقرة الأولى الخالدة من كتاب السياسة فيجدر بنا على الأقل أن نسجل له فضل وضع مبدأ سيادة الدولة على أساس متين لم تزعزعه مناقشات نيف وعشرين قرنا ابتداء من الرواقيين والفلاسفة الكلبيين ثم أوغسطس ودانتى الى روسو ولنين فالدولة ذات الأراضى لم تزل حافظة كيانها فى كل العالم المتمدين رغم الكنيسة والسوفيت والحكماء والنساك والفوضويين ، وليست عصبة الأمم وهى أحدث نظام مثالى وإن كان قد أسيء تسميتها الا اتحاد دول أكبر حجما فى المتوسط ولكنها من حيث النوع والتركيب تشبه تلك التى وصفها فلاسفة اليونان بأنها هى الغرض الحقيقى من دراسة السياسة ، وأنها أكبر وسيلة دائمة تضمن للانسان المتمدين حياة طيبة .

ما هي أهم الآراء التي يتركها لنا اتصالنا بمفكري اليونان السياسيين وأبقاها ؟ هي في الحقيقة نوعان الأول يتعلق بمـادة السياسة والثاني برجال اليوم ونسائه الذين يسمون « الوطنيين » . وإنا نشعر أن الاشتغـال بالشؤون العامة ليس متعبة شاغلة وليس عملا دنيئا ، بل هي مصالح الشعب الدائمة ، واذا لم تكن تلك الأعمـال أتفه وأحقر من أن يتناولها كبار رجال الفن مثل ثيوسيديدس وأفلاطون فلا خوف من أن تكون تافهـة أو محقرة بالنسبة لنا ، واذا هي لم تكن غير جديرة بدراستنا فيجب ألا نهملها لأنها محاطة بسحب من البـلاغة أو في أثواب من العواطف . يجب أن نأخذ عن الأغريق أن مصالح الانسـان العامة هي أمور يجدر أن نفكر فيها ونشعر بها . ولا يمتاز من نسميه بالسياسي الكفء ، والوطني ذي الروح العامة ، عن زميله الذي هو أقل منه سياسة بشدّة شعوره . ذلك لأنه يوجد بين رجال السياسة المسخرين من هم أبناء مخلصون وأزواج محبون كما يوجد أولئك بين صفوة رجالها ، ولكن الذي يميزهم هو أنهم بحسن اسـتعمالهم قوّة ذكائهم ومخيلتهم المرتبطتين ، أمكنهم أن يرفعوا شـعورهم الى مستوى أرقى ، و يواجهوا نتائج عظيمة الخطر ، بذهن مشحوذ لا لبحث المسائل المنزلية والعائلية ، بل لبحث مصـالح الانسانية التي هي أرقى وأصعب . إن علمـاء علم النفس يعلموننا كيف نرفع من شأن مشاعرنا في حياتنا الفردية ، اذا لم تسمح لها الحياة بمخرج يتفق مع مستوى رغباتنا ، وذلك بأن نسمو بها الى مستوى أرفع وأرقى شـعورا وعملا فكما أنه يمكننا أن نرفع من شأن حبنا للأفراد ، كذلك يمكننا أن نرفع من شأن حبنا للوطن دون أن نطفئ جذوة وطنيتنا أو ننكرها ، وإنمـا يكون ذلك بتقسيمها ، وتقسيطها عن قصد وارادة .

ويجب أن نتعلم كيف نحافظ من أجل دمنا ووطننا على ذلك الجزء الثمين مما وهبناه من القدرة على الخدمة ، وذلك الجزء الذى لا يمكن منحه مباشرة للانسانية لأنه خاص بالأسرة ، ولكن يجب أن نتلق أيضا ذلك الدرس الأكثر صعوبة وهو أن ننقل الى المسرح الدولى — حيث يقوم الرجال لمجرد كونهم رجالا بالواجبات المشتركة ويحثون عن أوسع ميدان للتعاون المشترك — كل المصالح وأنواع الولاء التى تحف بذلك المسرح بحق وبلا خوف من ضرر. هذا ما يدعو اليه قيصر اليوم سواء أبقيت عواصمه منفصلة كما هو الحال الآن فى لندن وباريس وواشنجتن وغيرها من عواصم الدول ذات السيادة أو استطاع بنو الانسان أن يسمو شأنهم فيندمجوا فى دولة واحدة وإن لم يكن فى أيامنا هذه إننا اذا أهملنا هذه الدعوة عرضنا أنفسنا لخطر عظيم لأننا اذا لم نعط ما لقيصر لقيصر واذا لم نطرح جانبا تلك القوميات المفرقة العديمة التبصر فان عواطفنا الشريفة لن تجدينا نفعا اذا ما دارت رحى الحرب الأهلية بين الملائكة الأخيار بين وطنية ووطنية وعاد الى المال والشيطان سلطانهما القوى — ففى هذه الأيام ذات النظم واسعة النطاق والنقابات الهائلة يحتاج الى (قيصر) (أى حكومة) أمم متعددة لتوقف شركات الاحتكار الكبيرة عند حدها ، ولو كانت أرض واشنجتون ولنكلن قد قسمت الى حكومات مستقلة بدل اجتماعها وتأليفها ولايات متحدة لتغلبت المصالح الشخصية وهزمت كل حكومة على حدة شر هزيمة ، ولاختفت الحرية من تلك البلاد ، اللهم إلا إذا تدخلت الملائكة الخيرون وفازت فى حرب قامت بين شيطان وشيطان ، أو بعبارة أخرى بين شركات المصارف والطرق الحديدية وبين شركات الزيوت والأخشاب . وهذا

يصدق أيضا على الحكومات الصغيرة فى القارات الأخرى فى هذا العصر . وما الوطنية المحلية أمام القوى التجارية الهائلة الا كطفل أمام مارد عظيم ، وسيزداد اندفاع الناس إن لم يكن ذلك بتفكيرهم فباستقلالهم وآلامهم — الى تعلم الدرس الذى ما زال يفهم خطأ بأنه حب الاستعمار حتى يجدوا أنفسهم صارخين مع رسول الخوارج غير اليهود الذى حارب ضد القومية قائلا « أنا نلجأ الى قيصر » .

غير أن لدى اليونانيين رسالة لا تهمنا من حيث مادة سياستنا فحسب بل تهمنا أيضا من حيث شخصياتنا . ماذا نستطيع أن نعمل لتقدم الانسانية فى مسائلها العامة . لقد انتهى عصر الأحلام الخيالية وعرفنا الآن أن العلوم العصرية قد جعلت العالم كله مكانا واحدا وأن خلاص المجتمع لا يتحقق ، كما تصور الاشتراكيون السابقون ، بالمهاجرة من الجهات المأهولة بالانسان وتأسيس مدينة كنموذج فى الخلاء .

لذلك يجب أن تقوم بقسط من المساعدة و يكون ذلك الآن وهنا فى هذه الدنيا المظلمة حيث قادتنا الأقدار ، فاذا كنا لا نستطيع أن نأمل فى جعلها كما نشتهى فدعنا على الأقل نجعلها تشبه ما نشتهى بقدر الامكان ، هذا ما يوحى الينا به أفلاطون حتى فى أكثر كتبه خيالا وأكثرها نزعة الى المثل الأعلى ، لذلك يجدر بنا أن نورد هنا الفقرة الشهيرة التالية بالتفصيل « اذا هل تنقص قيمة حججنا فى نظرك لأننا لا نستطيع أن نبرهن على أنه من الممكن تأسيس دولة من النوع الذى وصفناه ؟ » فقال : « بالتأكيد لا » .

«اذا لا تجبرنى على أن أبين لك أن كل ما قررناه فى بحثنا يمكن تطبيقه عمليا من جميع الوجوه . فاذا أمكننا أن نعرف كيف يمكن تنظيم دولة قريبة الشبه مما وصفنا فيجب أن تعترف بأننا اهتدينا الى تحقيق أوامرك . ألا تكتفى بذلك ؟ أما أنا فلو كنت فى مكانك لاكتفيت » فقال : « نعم سأكتفى » .

«إذا فالظاهر أن الواجب هو أن تحاول أن تعرف . . .ما هو أقل تغيير يمكن به أن تصل الدولة الى هذا النوع من التكوين» .

فقال : « بالتأكيد » .

فقلت : « حسن ، فهناك تغيير واحد فى اعتقادى يمكننا أن نبرهن على أنه ينتج هـذا الانقلاب وهو بالتأكيـد ليس بالتغيير الضئيل ولا بالسهل ولكنه ممكن» .

فقال : « وما هو »

فقلت : "الآن أرانى فى نفس الموضوع الذى شبهناه بأكبر الأمواج ، ومع ذلك فلا بد من أن أنطق به وإن أغرقنى ذلك فى طوفان من الضحك والاستهزاء . . . تدبر اذا فيما سأقول" فقال : "قل".

فقلت : اذا لم يقبض عشاق الحكمة على زمام السلطة العليـا فى الدول أو يصبح من يقـال لهم الآن ملوكا وحكاما عشاقا للحكمة قادرين مخلصين فيجتمع حب الحكمة والحكومة معا ، واذا لم تمنع بالقوة تلك الطبائع التى تطلب الآن إما الحكمة وإما الحكومة — الواحدة دون الأخرى — عن عملها هذا ، فان تنجو من المفاسد والشرور الحكومات ولا الانسـانية عامة على ما أظن يا عزيزى جلوكن بل ولن يتحقق هـذا الدستور الذى وصفناه فى بحثنا والذى يمكن تحقيقه أو يرى ضوء النهار ، وان هذا هو الذى جعلنى أتردد فى النطق به مدّة طويلة .

اذا رأيت كيف يظهر هذا الكلام متناقضا ، ذلك بأنه لا يدرك الا قليل من الناس أنه لا يوجد دستور آخر يمكنه أن يحقق السعادة للدول والأفراد" .

هذا قول فيلسوف الزمن الغابر . وقد فسرت كلماته فى بعض الأحيان كأنه يدعو فيلسوفا عبقريا لينتزع ادارة الحكومة من قبضتنا الضعيفة جدا . ولكن ليس ذلك ما يدعونا اليه فقد ذهب العصر الذى يمكن أن يتولى فيه أمبراطور فيلسوف ولن يعود أبدا . وفى نظرنا أن أقول إن أفلاطون إنما يدعونا بها لأن يكون كل منا فى دائرته الخاصة محبا للحكمة بقدر ما تسمح به قدرته ، فاذا أردنا أن نصلح العالم المحيط بنا — وهو فى أشد الحاجة الى الاصلاح — فأول واجب علينا هو أن نجتنب الضـلال ونتبع الحق فى حياتنا وأفكارنا وأعمالنا ، فالتطور والانقلاب لا ينقل من الخارج الى نفوسنا بل بالعكس ينتقل من نفوسنا الى الخارج ، وفى الغالب عندما يكون العالم الخارجى فى أشد المرض والحزن وعندما يكون حب النفس وعدم تقدير المسئولية متسلطين على حكومات العالم ، عند ذلك تكون قوة الحق أكثر نشـاطا فى زوايا النفس الساكنة تقويها حتى تخرج مرة أخرى وتظهر رغبة الانسـان التى لا تقهر فى النظام والعدالة والحرية وأثرها فى مشاكل الانسان العامة المعقدة فى هذا العالم الصغير .

مصابيح الفن اليونانى

مما يدخل على نفوسنا السرور وسط ما يكتنفنا فى هذه الحياة من سفاسف ومنازعات أن نرجع قليلا الى ما يجرى على لسان ماتيو آرنولد من الحكم العذبة ، وهاءنذا أبدأ بكلمة اقتبسها من كتابه الأدب والعقيدة " مثل الرجل الذى يميل الى فن النحت ثم يبتغى لهذا الميل غذاء فى غير مخلفات الفن الاغريقى والذى يميل الى الشعر من غير أن يستعين فى تمية هذا الميل بهومر ، وشيكسبير كمثل من يلتمس التهذيب والخلق القويم فى غير تعاليم الكتاب المقدس".

ففى نظر أرنولد تتألف من الكتاب المقدس ومن هومر وشيكسبير ومن الفن اليونانى مجموعة تلك المخلفات القديمة العظيمة الخالدة التى ستظل أبدا باعثا قويا ومثالا حيا لأجل الأعمال الانسانية . ولقد انصرف الناس من غير شك فى بحر الخمسين سنة التى جاءت بعد أن كتب أرنولد تلك الكلمة المشهورة عن طريقتهم الأولى فى التشبث بتلك المخلفات القديمة انصرافا بينا حتى أن الرجوع الى شىء منها يعتبر اليوم رجوعا الى روح الأرستقراطية . لقد أصبحنا نعتقد أننا أفضل من السلف وأنه يجب علينا أن نخرج من ولايتهم . ولعل ذلك يرجع لحد ما الى ما أحدثته الحرب العظمى من قلق واضطراب أعصاب . ولكن هذه الحالة لم تنجم عن توتر الأعصاب وحده وانما هى نزعة خاصة نزع اليها المجتمع ينبغى أن يدرس مميزاتها كل من يحس أنه أهل لأن يضرب بسهم فى الحركة العالمية اذ لا يصح لنا أن نغفل أمر من يحيدون عن الطريقة المألوفة والا كنا نحن عرضة لأن نهمل ونغفل .

ولقد عهد الى أن أعالج الأسباب التى من أجلها لا يزال الفن الأغريق جديرا بعنايتنا . فأما نحن رجال الانجليز فان تقديرنا للفن لم يبلغ يوما ما تقديرنا للشعر والفلسفة، وما هو ببالغه. غير أنه يمكن اقامة الدليل فيما أرى على أن للأغريق علينا من الفضل فى الفن أكثر مما لهم علينا فى ميدان الشعر والفلسفة . والواقع أن لنـا فى الشعر والفلسفة نبوغا قوميا وقد أنتجنا فيهما آثارا عرف قدرها فى أوروبا جميعها . أما فى الفن فقد كانت جهودنا وسطا . ولعل روح الفن أضعف فى بلادنا الآن منها فى أى بلد متمدين آخر غير أمريكا .

وهاءنا أبدأ حديثى بقضية جريئة أرجو أن أوفق الى التدليل عليها بمـا سوف أعرض من البيان . فانى أرى أنه لولا قدماء الأغريق ولولا ما للفن الأغريق من التأثير المتواصل لمـا ارتفع الفن كثيرا فى أوروبا عن مستوى الفن الهندى على ما فيه من سخافة وانحطاط و لجنح الفن فى أوروبا الى الغلو والفوضى .

ففى القرن السابق على حروب الفرس التى وقعت بين (سنتى ٥٠٠ و ٤٨٠ قبل الميلاد) كانت بلاد الأغريق بقسميها الأيونى والدورى كشجرة أنبتت أغصـانا ناضرة انبعثت فى نواحيها المختلفـة مخـترقة لحاء الأوضاع القديمة فأنتجت مقياسا جديدا للتمييـز فى الشعر والفلسفة والتاريخ والفن فكنت تراها تصول ذات اليمين وذات الشمال فى كل ميدان من أخلاقيات وعقليات وخيال . فما حل القرن التالى لتلك الحروب حتى كان هذا الغرس الطيب قد جاء بأطيب الثمرات وأخرجت لنا اليونان تلك الآيات التى بقيت حتى اليوم مرجعا لكل الأجيال تقرأ فيه مدى ما تصل اليه طبيعة الانسان .

ويزعم كثيرون أن المنتجات الفنيــة انحط نوعها بجأة بعد عام (٤٠٠ قبل الميلاد) ولكنه زعم فاســد فان القرون التالية أخرجت فى الفن أمثلة لا تكاد تسبق . إذ من ذا الذى ينكر أن فاسفة أرسطو وشعر تيوكريت وتمثــالى أفروديتى (ميلوس) والنصر لساموثريش لا تزال فى سمــاء الفن نجوما يهتدى بها الناس فى كل حين ولكن أعمال الكهولة قل أن تجد بها ذلك السحر الذى تمتاز به أعمال الشباب المفعمة بشرا وأملا .

صنف رسكن كتابا عن مصابيح فن البناء السبعة وهو كتاب على ما فيه من غلو فى مواضع يفيض إيحاء والهاما .

ومن الغريب أن تروج بين الناس آراء رسكن فى الاقتصاد التى يغلب عليها الكرم وان كانت لا ترجع الى مقياس يستند على أساس من الحقائق بينا لا يعنون هذه العناية بآرائه فى الفن حيث يتجلى نبوغه . ومهما يكن من الأمر فانى بحكم تأثرى بتلك المصنفات سأحاول أن أسمع قرائى صدى ضعيفا لواحد منها بأن أتابع الحديث عن مصابيح الفن اليونانى التى ترسل علينا نورها فتهدينا به السبيل . انى أجد أن للفن اليونانى ثمــانى ميزات :

(١) الانسانية ؛
(٢) البساطة ؛
(٣) التوازن ؛
(٤) محاكاة الطبيعة ؛
(٥) الطموح الى الكمال ؛
(٦) التأنى ؛
(٧) البشر ؛
(٨) الزمالة .

ولما كان المجال الذى سمح لى به ضيقا محدودا فلن أستطيع أن أبحث بحثا مستفيضا يتناول جميع نواحى الفن اليونانى وما يتعلق به وأجدنى على ذلك ملزما بأن أقيد بحثى فأقصره على فن النحت اذ هو أوضح أبواب الفن وهو الفرع الوحيد الذى تعيننا كثرة مخلفاته على تكوين رأى صحيح وأرانى ملزما بعد ذلك أن أكتفى من فن النحت بما يمثل الصورة الانسانية . فان اليونان المتأخرين قد أخرجوا من تماثيل بعض الحيوان كالخيل مثلا نماذج عجيبة ولكن قد نافسهم فى تصوير الحيوان أمم غيرهم . أما فى تصوير الناس من رجال ونساء فهم المتفردون الأفذاذ .

الفصل الأول

الانسانية

انكشفت لبصيرة الانسان ثلاثة أمور خطيرة منذ بدأ ينظر فيما حوله و يفكر فيه : فكان أولها الاهتداء الى الله ، وقد قام بأوفى نصيب من هذا أبناء بنى اسرائيل وان كانت اليونان ولا شك قد أمدت هذا الكشف بشىء غير قليل من الوجهة العقلية ثم جاءت المسيحية مهذبة لكلتا الديانتين ديانة يهوذا وديانة اليونان .

أما ثانيها فكان معرفة الانسان نفسه وهذا فى أساسه العمل الجليل الذى قام به مفكرو اليونان وكتابهم .

أما الثالث فكان الوقوف على أسرار الطبيعة وكشف قوانينها وقد بدأ فى اليونان قديما ثم تقدّم فى العصر الحاضر تقدما عظيما .

وأرى أننا لو فكرنا قليلا لوجدنا أن الأخير أقل الثلاثة خطرا فانه وان كان قد غير كثيرا فى عادات الانسان وما يحيط به وخطا به فى سبيل التقدّم خطا واسعة لم يغير شيئا يذكر من طبيعته ولم يزد كثيرا فى سعادته .

نحن نعرف كيف قضت لذات التفكير والفن والشعر والموسيقى على الوحشية وأتت للناس بمعنى جديد من التلذذ بالحياة .

ولكن آثار التقدّم العلمى لم تبلغ بعد بالانسان ما كنا نرجو له منها فانه ما من استكشاف خطير فى العلوم الطبيعية الا سخر أولا فيما يقضى على الانسان و يفنيه لا فيما ينفعه و يغنيه . فهذه الجوارى فى المحيط تتقفاها الغواصات وتلك الطيارات تسخر فى القاء القنابل

على المدائن التى لا تملك عن نفسها دفاعا . وأن من المستحدثات الكيمياوية الغازات السامة . ونحن نرجو أن تكون هـذه سحابة عارضة عن قريب تقشع ثم يعقبها الصفو والنور .

ولكنى أجرأ على القول بأننا لن نهتدى الى طريق التقدّم الحقيقى الا اذا احتفظنا بوجهات النظر عند اليهود واليونان ، فيجب أن لا ننسى ما بين العلم و بين الدين والأخلاق من صلة وأن لا نكتفى باتخاذ العلم وسيلة لاستغلال العالم المـادى . فانا بدلا من أن نأخذ بخطام قوى الطبيعة ونسيرها نحو غاية انسانية نحو السعادة ، ألقينا حبلها على غاربها وتركناها تقع فى يد من يملك زمامها بالحيلة أو بالغلبة ليدفع بها الى حيث يشاء فى طريق الخـير أو طريق الشر وبذلك جردنا العالم من انسانيته وجعلناه يطأ الحياة الانسانية بحافر خشن .

فاستكشاف الانسان ومواهبه من أكبر ما قدّمته اليونان للعالم لقد كان قبل الإلياذة قصص شعرية ولكنها لم تكن تفيض روعة ولا أسى ولم تكن تجرى عبرة أو تشق ابتسامة كما تفعل الإلياذة وكان قبل سقراط فلاسفة ولكنهم كانوا دائبين فى البحث عن مادة هذا الكون فقام سقراط واتخذ شعاره حكمة (رلفى) "أن أعرف نفسك" فأصبح رائد الباحثين فى كنه الواجب والسعادة .

وكذلك كان فى العالم فن كثير قبل نهضة اليونان فكان فى مصر وفيما بين النهرين وفى جزيرة كريد ولكنه كان فنا بعيدا عن الانسانية فكان همـه تصوير عبـادة الآلهة وتصوير الحروب والحصارات والحياة الريفية أما الصور الانسانية فلم تكن تأتى فى هذه المناظر الا رموزا متواضعا عليها وليس فيها ما يثير الشعور

الرقيق للانسان وما يبعث فيه حب الجمال ولا ما يعليه فوق المستوى العادى للحياة اليومية ولقد كان اليونان يعرفون آثار الفن الأولى ، ولكنهم أبوا أن يستهويهم ما استهوى الفينيقيين والأتراسكانيين الذين اقتصروا على تقليدها ومحاكاتها . ذلك أن الاغريق قامت فى نفوسهم عقيدة هى فى طبيعتها اقرب الى الوجدان منها الى العقل وهى استحداث فن انسانى جديد . وأنهم أوتوا من الكفاية ما يجعلهم أهلا للقيام بهذا الواجب . فبدءوا عملا ارتقى بسرعة مدهشة وليس ما يقف به عند حد الا أن تعود الوحشية فتكتسح هذا العالم المضى وهو ما يبدو غير مستحيل فى هذه الأيام . "الانسان مقياس الأشياء جميعها" ذلك هو المذهب الذى يعزى لبروتاغوراس الأبديرى الذى أثار سخط الناس فى أتينا وحمل عليه أفلاطون بطريقته الانشائية . وأنه لمذهب قابل أن يساء استعماله بل أن يتخذ هزؤ . على أن نسبته الى تعاليم سقراط ليست أقل من نسبته الى بروتاغوارس ولقد ظل متماسكا محتفظا بكيانه من عهده حتى عهد النفعيين والبرغماتيين . وأنك لتجده فى أساس نظر اليونان الى هذه الحياة حيث يقف الانسان فى الجبهة بارزا واضحا بمشاعره ومواهبه وجهوده بينما يقع كل ما عداه من خلفه فى غير جلاء . فكان من الطبيعى ما دام مفكرو اليونان يفسرون كل الحوادث بنسبتها الى قوى الانسان ومواهبه أن يتخذ فنانو اليونان من جسم الانسان أداة للافصاح عما كانوا يحسون به من معانى الطبيعة . ولهذا ترى أنه بينما كان توحيد المتأخرين من بنى اسرائيل يحرم عليهم تمثيل أى كائن حى فى فنونهم لا سيما الانسان كان فنانو اليونان قد وقفوا أنفسهم على هذا التمثيل . وكان الأثر العظيم لتغلب روح الانسانية على الفن اليونانى تصوير الآلهة فى صورة

الانسان ولا يزال سائدا بيننا بقية من كراهة اليهود لتمثيل كل ما هو مقدّس فى هــذا الوجود بالنحت . فاننا لنكرر من يوم الى يوم تلك الوصية الاسرائيلية "لا تتخذ لنفسك تمثالا منحوتا". ولست الآن بسبيل للناعى على فكرة تحطيم الأصنام وهى احدى الأصول التى قامت عليها ديانة اليهود . فانى لا أشك فى أن ازدراء اليهود لأوثان الأمم المجاورة لهم ومقتهم اياها كان عظيم الأثر لهذا الشعب فى تقدّم ديانته . فكانت تلك الحــرب المتجدّدة التى دفع بهــا اليهود غارات الوثنئنية لازمة لنشر تلك الديانة النبوية الخالصة التى كان تبليغها ونشر دعوتها فى العالم أهم ما قام به الشعب اليهودى . ولا أنا بحامل على آثار تلك الفكرة فى العالم الحديث ، فالمسلمون يرونها كما كان يراها اليهود الأولون من قبلهم مــن مستلزمات ادراك الذات الأقدس ادراكا روحيا ساميا ولسنا نستطيع الا أن نعطف على أســلافنا البيورتان عند ما نقرأ شيئا عن أنباء اتلاف الصور الدينية فلقد كانت كراهية الأصنام من مميزات الايمــان القوى الخالص فى تلك الديانة الروحانية التى قام المصلحون العظام باحيائها ونشرها فى أوربا .

على أن تقديرنا لهذه الناحية من الدين لا يصدّنا عن النظر الى نواحيه الأخرى فاننــا لم نرث ديننا عن يهوذا وحدها بل ورثناه كذلك عن اليونان . ففى أســاس عقيدتنا ماكان يملأ قلوب اليهود من حب تقوى الله وطاعته . على أن هــذه العقيدة هى أخت التعصب وضــيق الفكر وضعف الانسان . وأما ما لحقها من التعديل والتهــذيب بمــا أدخل فيهــا مــن روح الانسانية والاحساس بمشابهــة الانسان لله فى طبيعته وتعشق ما أودعه الله فى المخــلوقات من جمال ، والاغتباط بكل ما هو حلو وكل ما هو لطيف ظريف فمرجعه الى اليونان .

ذلك أن اليونانى كان يتأثر بجمال الله وجلاله تأثر اليهودى بعزة الله وتعاليه الذى لا ينال فبدا لأهل الفن من اليونانيين أن يستعينوا بالرخام والبرونز على تمثيل ما فى بعض نواحى الطبيعة المقدّسة من معانى الرقة والانسانية . وما أعذب حكمة مكسيماس الطيراوى حيث يقول : "من عادة اليونانيين أن يمثلوا الآلهة بأجمل ما على ظهر الأرض من مادة خالصة و صورة الانسان و براعة الفن وأن فكرة أولئك الذين يصيغون الصور الالهية فى قالب آدمى لفكرة جد صائبة فان روح الانسان هى أقرب الأشياء الى الله وأشبهها" .

ولقد كان الروح السائد على فن النحت عند اليونان فى حياته كلها من أول نهضته فى القرن السادس حتى عهد انحطاطه فى القرن الثالث هو هذه الرغبة فى تمثيل الآلهة بأجمل ما على الأرض" .

نعم ان الفن عند الأمم الشرقية العظمى ومصر وآشور حافل بتماثيل الآلهة ومناظر العبادة لكن هذه التماثيل لا تدل على شيء أسمى من الانسان . فكانت صور الآلهة صورا اصطلاحية لا تخرج عن حد كونها صور رجال ونساء عاديين ولتمييزهم عن المخلوقات الفانية كان الفنانون فى الشرق يلجؤون الى الرمز فكانوا يضيفون الى الصور البشرية زوائد يقصد بها أن تدل على الصفات فكانوا يزيدون الأجنحة ان أرادوا تمثيل سرعة الاله ولم يكن يقصد بالأجنحة الطيران فعلا ولكن لتكون رمزا للحركة السريعة . وكانوا يصورونهم وقد صرعوا الوحوش الضوارى لأنهم كانوا يرمزون بالوحوش للقوى الخبيثة التى تدأب على مناوأة الآلهة . ولقد انحدر اليونان الى محاكاة هذه الطريقة فى بعض أعمالهم الفنية العتيقة فكانوا يمثلون ابولو وعلى جانبيه جارحان مدحوران وكانوا يجعلون لأرتميس جناحين وفى يديها أسدين وقعا فى أسارها . غير أن ذوقهم الفنى ما لبث ان ثار على هذه

الطرق العقيمة . وأخذوا يحاولون تمثيل الطبيعة القدسية لآلهتهم لا برموز خارجية يتواضع عليها بل بتعديل الصور الانسانية نحو الكمال على أننا نجد أحيانا آثار تلك الطريقة الأولى الرمزية فى أمثلة الفن المتأخرة التى كانت تعمد الى الرمز فى تمثيل الصفات الالهية فنرى أن هرميس لا يزال له جناحان ولكنهما عند رأسه أو عند قدميه . وقد نرى أن زيوس يحمل الصواعق وهى رمز سلطانه على العواصف ونرى ابولو ينبعث من جسمه النور فيجتمع فيه الصورة الانسانية مع الأشعة التى تبعثها الشمس الوهاجة .

غير أن هذه ليست الا بقايا العهد القديم ولم تؤثر فى عملية الارتقاء التى كان يتناولها فنان بعد فنان ومدرسة بعد مدرسة . فقد كانوا فى تمثيلهم الآلهة يزدادون اقتباسا من أكمل الصفات الانسانية فكان "زيوس" وهو أبو الآلهة والناس جميعا يمثل فى صورة المثل الأعلى للآباء الآدميين جامعا بين الهيبة والانصاف والطيبة والحنان وكانت تجسم فى الآلهة أتينا معانى العقل والحكمة السماوية ولعلها أقرب صور الآلهة الى المثل الأعلى فان هذه العذراء المسلحة الظافرة (وقد عقدت الحكمة على جبينها) لا تشترك الا قليلا مع نساء بلدتها أتينا اللاتى تحين وألزمن البيوت أما (ابولو) فانه لم تكن له عضلات المصارع الدرب ولكن ملامحه النبيلة وذلك التناسق الذى امتاز به شكله جعله مثلا أعلى لما يمكن أن يصل اليه الشاب بقوة ارادته وطموحه ويلى ذلك فى المرتبة (هيراكليس) فى صورة مصارع وهو يمتاز بتناسب جسمه تناسبا بديعا ولكنه فى قوته يفوق أقوى المصارعين .

وهناك أيضا (هرميس) وهو مثال العداء وكأنما كل عضلة من عضلاته قد هيئت للسرعة وخفة الحركات .

فترى فى صورة الآلهة التى أحدثها الفن اليونانى وهو فى بسطة سلطانة طائفة من الانسان الراقى رجالا ونساء وهم يمثلون أسمى وأجل ما يطمع انسان فى بلوغه وهى نماذج تمثل غاية الكمال فى الجسم والعقل . وكان تأثير هذه الصور يساير الزمن من قرن الى قرن ، وما كانت أشد العصور ظلاما لتمحو آيته كل المحو بل ظل على الأيام حارسا يحفظ الطبيعة البشرية أن تزل قدمها الى مهاوى الدنس والانحطاط كما كانت تلك الصور فى جميع أدوار تاريخ الفن عاملا قويا فى سبيل الرقى والتهذيب ولم يهبط مستوى تلك الأنماط الا بعد انحطاط الديانة الأولمبية فى القرن الرابع . على أن الاحساس بالجمال عند الفنانين ظل حادا قويا كما كان ، بل أن صنعة الفن تقدمت وارتقت . ولكن مذهب "الانسانية" مازجته نزعات جديدة أقل منه نبلا فنزلت به واتخذت الآلهة صورة ما عليه الانسان بالفعل فى هذه الحياة لا صورة ما قد يصل اليه من الكمال .

ولم يكن يتناول التصوير والحفر صورة الآلهة وحدها بل تاريخ ظهورها على الأرض واشتباكها مع الانسان فى المعاملات وكلنا يعلم كيف كان يرى أفلاطون أن تلك الخرافات التى كانت تروى عن الآلهة غير لائقة من الوجهة الأخلاقية ولكنا نخطئ التقدير فى أمر تلك الخرافات اذا زعمنا أن الغابرين كانوا يعتقدون صحتها أو أنها كان لها شأن فى تنظيم سلوك الانسان . فان أهم ما عملته كان توسيع دائرة المسرات والبهجة فى هذه الحياة ، ولما ضعف أثرها فى التربية والتثقيف ظل حبا قويا فى الشعر وكان له أثر عظيم فى تلطيف جفاف الحياة العادية .

ويجب أن لا ننسى أن من بين القصص اليهودية التى كانت منبع لذة وتسلية لأجدادنا ما ليس من السهل تبريره من الوجهة الأخلاقية المحضة ، ومع ذلك فانها كانت ذات أثر مهذب فعال إذ من ذا الذى يرى أن يحرم على الكنائس ذكر آدم وحواء ويوسف وداود استنادا على الطهارة الأخلاقية . ان حياة الكثيرين ليس فيها ما يجملها حتى نفكر فى تجريدها من هذه العناصر السارة .

وكما كانت صور الآلهة تتخذ صورا جميلة غير أنها صور بشرية من كل وجه ، كانت الظواهر الطبيعية العظيمة من أنهار وجبال وماء وسماء وشمس وقمر ورياح سافية وزوابع عاصفة كل أولئك كانت تمثل فى صور آدمية . فان جماعة أوليمبوس "الآلهة جميعا" وهى القوى التى تتجلى فى الطبيعة كان يصوغها النحات فى صورة مجتمع بشرى ولكنها تفوق البشر فى جمالها وعظمتها وتمثيل الآلهة بهذه الصور الانسانية يؤدى كما سيتبين لك فيما يلى الى تمثيل الانسان نفسه فى أكرم صورة وأحسن تقويم .

فكما كانت الآلهـة تهبط الى مشابهة الانسان ، كذلك كان الانسان يسمو الى مراتب الآلهة ومن هنا نشأت خاصة التسامى الى المثل الأعلى التى اختص بها فن النحت عند اليونان ، وهو ما سأعود الى البحث فيه قريبا .

وقليل من بين أعمال الفن ما يتجلى فيه ميل الفن اليونانى الى تمثيل المعانى بالصور الانسانية بدقة وروعة كما يتجلى فى أثناء فى المتحف البريطانى يمثل شروق الشمس . فانه صورة لتنفس الصبح وقد تمثلت كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية فى صورة بشرية فعن اليمين اله الشمس فى عربة تجرى بها خيل أربعة ذات أجنحة يخرج من جوف البحر وأمامه فتية تغوص فى الماء وهؤلاء يمثلون



(شـكل ١)

آنية تمثل شروق الشمس

النجوم . وترى عن الشمال الهَة القمر تغيب وهى على ظهر فرسها وراء الجبال وقد وقف على واحد منها إله من آلهة الجبال وقفة الاندهاش وقد ركضت أمام الشمس ايوس ذات الأجنحة رمزا للفجر وهى كما يزعم القصصى الخرافى الجرىء تجد فى أثر كيفالوس الصياد الذى كانت تهيم به حبا فاذا رأيت ثم رأيت مناظر طلوع النهار ولكنها لا تمثل على أنها حقائق طبيعية بل من حيث تأثيرها فى الآلهة والناس .

ولقد سبق لى أن أثبت هذه الصورة فى كتاب (مبادئ الفن الاغريق) فأنا لا أثبتها هنا ولكنى رأيت أن أضع بدلا منها صورة أخرى لا تقل عنها جمالا وهى مأخوذة عن غطاء إناء من آنية الزينة الموجودة بمجموعة سابوروف فى برلين . وفيها نفس الصور الثلاث : صورة اله الشمس وآلهة القمر والفجر ذى الأجنحة وقد ظهر الأخير فى هذه الصورة سائقا عربة . وهذه المجموعة كلها وفى وسطها ذلك القرص المشع تمثل القبة الزرقاء أروع تمثيل .

خذ مثلا آخر قوى الدلالة كسابقه على هذا المثل فى الفن وهو كرياتيد الاركتيوم الذى قام رمزا لما فى العمد من قوة داعمة وهو عبارة عن جوار موقوفة على خدمة الالهة (أثينا) يحملن وهن راضيات ما يحلى معبدها من الزخارف الثقيلة . وقد لا تكون تلك الفكرة مقبولة فى ذاتها تماما ولكن ان قبلت فهل ترى تطبيقا أسلم من هذا التمثيل ذوقا وأجمل أثرا . انك لترى تلك النسوة بقوامهن المكتنز الملئ وتنظر الى شعرهن الغزير فيكسب أعناقهن قوة ، والى وقفتهن التى لا تكلف فيها فتحس أنها لا تنوء حملا بما ألقى على عاتقها ولا تضيق به ذرعا .

وليسمح لى أن أضع صورة حديثة من صنع رودين الى جانب تلك (الكرياتيد) اليونانية . وانى لشديد الاعجاب بقوة هذا المثال وحسن صنعته . ولكنك لا تكاد تستعرض أعماله فى جانب ما عملته اليونان حتى تحس أنها أقل من صاحبتها شأنا فى عظمتها وفى بساطتها وفى كمالها .



(شكل ٢)
كرياتيد الأركتيوم



(شكل ٣)
كرياتيد من صنع رودين

الفصل الثانى

أما المصباح الثانى من مصابيح الفن فهو البساطة ، اذ كان الفنان يتصوّر ما يريد نحته تصوّرا واضحا ثم يأخذ فى عمله بثبات وبلا تردد ولا ارتباك فى عمله قاصدا الى الصميم . والواقع أن المجتمع كلما كان أقرب الى الفطرة وأبعد عن تكلف الحياة المدنية كانت البساطة أسهل على الفنان وأقرب اليه . أما فى المجتمع المعقد فانه يخشى على الطريقة السهلة والنهج الأمم أن يختلطا بما هو مبتذل بل بما هو سخيف . فان بساطة ورد سورث وتنيسون كانت تهبط بهم أحيانا الى ما تحت الحد المقبول . ولكن اليونانيين يمتازون بأنهم جاءوا سابقين لغيرهم من الأمم المثقفة فلم يكن أمامهم متبذل يتجنبونه . فكان فى استطاعتهم أن يكونوا بسطاء بساطة ورد البرية وهل بعد بساطة الألياذة من بساطة . وكذلك كان فن النحت عندهم . فان الناظر اليه لا يحتاج لاجهاد فكره كى يفهم معناه . فكل صورة من صوره لا يعتريها غموض ولا لبس كما لا يوجد ما هو أدل على الفطرة اللطيفة من أن يكون الانسان بعيدا عن الشعور بنفسه شعورا يربكه .

فكذلك ليس أدل على العظمة فى الفن من البساطة ولم يكن اليونانيون يجهدون أنفسهم لكى يكونوا من أهل الابتكار أو لكى يبهروا الأبصار أو ليأتوا بالعجيب . فلقد كان من أكثر ما ألفوا فى النحت اليونانى صورة قتال بين رجال محاربين ونساء محاربات (الأمازونات) وانك لترى صور هذه الوقائع تزين جدران كثير من المعابد ولكنك ترى فرقا بينا فى الأسلوب تمتاز به كل واحدة عن

أختها . فلست تخلط بين مجموعة من تلك الصور فى معبدفيجالياو بين أخرى من الموصوليوم ولست تجد بين اثنتين منهما اتفاقالأن لكل مجموعة منها ميزة خاصة أوطابعا خاصا بها يجعلها وحدة مخالفة للنوع المعتادفيها ترى فارسةتسقط عن جوادها اذترى الأخرى تطلب الأمان وترى ثالثة تقفو أثر عدو يولى الأدبار . ولكن ليس بين هذه المجموعات ما يحتم على الناظر أن يحدق فيه . اذ المقصودمن تلك النقوش أن تكون زينة للمعبد . فان كان فى ابداعها ما يصرف أنظار النـاس عن المعبد ذاته أو ما يلهيهم عن المعبود الذى استوى على عرشه فيه حق لنا أن ننعته بالتطفل وتجاوز الحد المحمود . ولقد بذل المثال قصارى جهده فى عمله ولكنه كان شديد الحرص على أن لا يعمل شيئا يتنافر والبيئة التى تحيط به ولهذا أخفى شخصه فى طى عمله حتى أنه كان اذا عالج عمـلا أكبر من أمثال هذه الصور شأنا كان يجعل أكبر همه أن يبعد عن كل ما لا يليق ولا يناسب وكان رائده فى عمله أن يوجه الأنظار الى الشخص الذى يصوره أو الشيء الذى يمثله لا الى صفـة الصنعة فكانت الفكرة التى يحاول ابرازها مجسمة فى الرخام أو البرونز هى ما يتصوره الناس فعـلا عن الشئ الذى يصوره وليس رأيه هو فى ذلك الشئ .

ويدلك على أن قصد الفن لم يكن سوى هذا القصد الوحيد ما يروى عن بروتوجنيز المصور فانه رسم صورة ساتير (حيوان خرافى له نصف انسان ونصف حيوان) ثم جعل الى جانبه صورة ليست ذات بال وهى رسم قطاة ولكنه لمـا رأى الزائرين يعجبون بمـا فى صورة القطاة من شـبه الحياة اعجابا كان من شأنه أن يصرف أنظارهم عن الصورة الكبرى محا تلك القطاة من الرسم .



(شـــكل ٤)

سائق عربة دلفى



(شـــكل ٥)

ارتيس من جاب

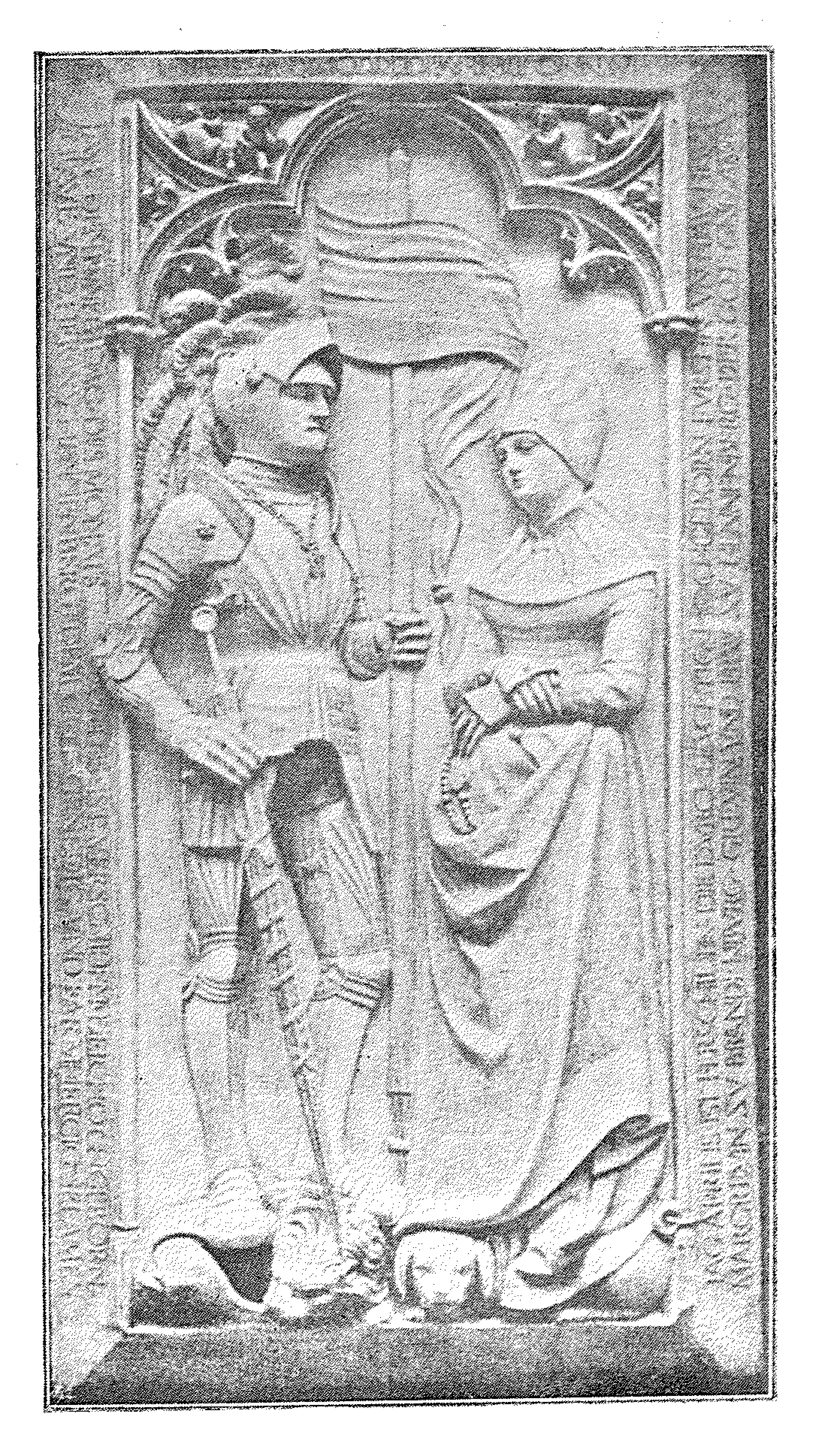
والبساطة ولا شك تستدعى القصور فلم يكن من السهل فى عصر من العصور أن يبلغ الانسان قصارى الاحسان بغير أن يضحى فى سبيل ذلك بشىء من البساطة وان أعلى ما تسمو اليه الحياة الفكرية والروحية فى الانسان من مذاهب الأسرار الروحانية والنورية الرمزية لا يمكن تمثيلها فى أى صورة من صور الفن بالبساطة التامة . فلسنا ننكر أن نظرة الأغريق الى الحياة كانت محدودة غير متعمقة . وانهم لم يحاولوا أن يمثلوا فى الفن أسمى ما تطمح اليه الروح ولقد كان جهدا ضائعا أن يذهب بعض الناس فى الجيل السابق الى تأويل التصاوير التى كانوا يحدونها على الآنية الأغريقية زاعمين أنها رموز لمعان روحية غامضة بل أن محاولة اليونانيين تمثيل آلهة الأسرار لا تكاد تعد من أعمال الفن ، فان أمثال سابزيوس وايسيس وميتراس لم تظهر فى الفن القديم الا عند ما أخذ فى الانحطاط . فلست أقول أن العالم الحديث بما فيه من مشاعر لاحد لاختلافها ولا أن المطامح السامية التى ترمى اليها أمثال الديانة المسيحية والبوذية است أقول أن هذه تكتفى بمثل ما سلكه النحات اليونانى من الوسائل البسيطة التى توافق فطرته وذكاءه أكثر مما توافق عواطفه العميقة . على انى أرى أن تلك المعانى الوجدانية لا تجد ما يمثلها تمثيلا صحيحا فى الفنون التى اتحدث عنها أعنى فنى الرسم والنحت حقا قد وجدت هذه المعانى فى الشعر فى جميع العصور لسان صدق لها . ولعلها فى هذه الأيام الحديثة قد وجدت أداة أبلغ وأفصح فى الموسيقى التى كانت قبل المسيحية ساذجة بادئة . أما التصوير فانه ضعيف فى الدلالة على مثل تلك المعانى المبهمة وأقل من التصوير صلاحية لهذا الأداء فن النحت فانه أكثر الفنون تقليدا للشىء المصور وتقيدا به .

ويظهر لى أن كل المحاولات التى قام بها حديثا بعض النحاتين ليستخدموا فنهم فى الرمز عن المعانى الخفية انمـا هى محاولات مقضى عليها بالفشل بحكم طبيعة فن النحت . ولا يمكن للعقل الغربى أن ينظر بعين الرضا لذلك الفن الهندى الذى لم يسلك فى الغالب غير طريق الرمز فأقصاه ذلك عن السعى فى سبيل الجمال وبذلك تنكب الوجهة الفنية الصحيحة . وليس الحسن وحده بكاف أن يكون مثلا أعلى ولكن هناك جمالا أسمى وذلك هو الجمال الذى يتفق مع العالم المحيط بنا والنفس التى بين جنوبنا .

ولا بد للبساطة من أن تكملها صفتان أخريان لترتفع بهما الى أسمى مراتب الاعجاب وهما الاغراق فى حب الجمال والصبر الطويل على العمل . فمن جهة لا ينبغى أن تقف بنا البساطة عند حد محاكاة الطبيعة من غير افتنان ومن ناحية أخرى ينبغى ألا تدفعنا الى التعجل والتقصير فى العمل .

وانك لترى فى صورة (كرياتيد الاريكتيوم) التى سبق ذكرها مثلا تجلى فيه البساطة التامة ولزيادة إيضاح هذه الخاصة تخيرت تمثالا برونزيا سائق عربة حربية من دلفى وتمثال ارتميس من جابى وهى الآن باللوفر. أما الأول (شـكل ٤) فشاب من أسرة نبيلة عليـه ذلك الثوب الطويل الذى بقى من يسوق العربة من أن تلفحه الريح . وأما الثانى (شكل ٥) وهو من ثمـار مدرسة براكسيتليز فانه يمثل آنسة تعقد ثوبها على كتفها .

وكلا التمثالين أبعد ما يكون عن محاولة الابتكار أو الابتداع . ولكن لن يتردد ذو ذوق لحظة واحدة فى أن يعجب بجمالها . ولقد كان غاية الفنان أن يكون عمله من الاتقان فى الدرجة العليا فكان يتجه نحو هذه الغاية من غير انحراف ولا تعقيد ، ومن غير أن يبالى البتة بأن مثل هذا العمل صدر عن آخرين فكان ينبغى له أن يبتكر شيئا جديدا .



(شـــكل ٦) فارس وسيدة من صنع بطرس فيشر

والى جانب الصورتين اللتين أثبتهما فى هذا المقام أضع مجموعة أحدث (شكل ٦) وهى كذلك من صنع عبقرى عظيم وهو بطرس ڤيشر وهى تشترك مع منتجات اليونان فى بساطتها ودقة صنعها . ولكنها أقل منها حظا فى جمالها ولا يسع الانسان الا أن يأسف على أن مثل هذا الفنان العظيم بذل قواه فى تصوير أمور تافهة كدسر الدرع وصفاحه ، كما أن السيدة وان كانت على شىء من الحسن اذا قورنت بغادة برا كستيليز ذات النضارة الرائعة ظهر ما فيها من تصنع وتكلف .

الفصل الثالث

أما المصباح الثالث من مصابيح الفن اليونانى فهو التوازن والضبط أعنى مراعاة الحدود والقانون وأكثر ما يتجلى ذلك فى فن البناء ولا سيما بناء المعابد وهو أهم منتجات هذا الفن فان شكل المعبد منذ استقر ظل ثابتا على ما هو عليه فى جميع أزمانه دون أن يتطرق اليه التغيير الا فى حدود خاصة . ولقد تناول أحد الكتاب النابهين وهو م . بوتمى هذا الموضوع فأوضح بكل جلاء كيف أن جميع الأجزاء التى يتألف منها المعبد يرتبط بعضها ببعض . وأن هذه الأجزاء جميعها تتبع طريقة واحدة ويؤلف بينها نظام متناسق وان لكل جزء فيه عملا خاصا يؤديه فى أبسط صورة وأوضحها . فالأعمدة انما نصبت لتكون مسندا فكانت هيئتها وزينتها الخفيفة تتفق مع هذا الغرض أما شكلها فكان يضمن أقصى حد من الرسو . وتلك القنوات التى توشى سطح العمود تستدرج العين الى قمته حيث تنتفخ لتستند اليها الطنف الكرنيش المستقيم الثقيل . ومن فوق الطنف بخوات تكون أخاديدها امتدادا لقنوات الأعمدة الى السقف . أما حوائط المعبد فلم يقصد بها أولا حمل ما فوقها ولكن لتحيط بالحجرة المقدسة . وليس بها من زينة الا ما يحلى أعلاها كما قد ترى فى الستار ذى الجانب المزركش . فالبناء كله يقصد منه أن يكون بيتا لتمثال المعبود الذى يحويه وليس لجزء منه أن يتزين الا زينة تتبع هذه الغاية العامة فمثله فى ذلك مثل الصدفة أو خلية النحل تتمثل فيهما فكرة وغاية . ولكنها فى البناء غاية نتيجة الشعور والتفكير لا بنت الفطرة ووحى الغريزة .

وكذلك التريين بالنحت وهو أظهر صـفة فى المعابد كان يتبع بدقة الفكرة فى بناء المعبد والغاية منه فلم يكن يزخرف من البناء ما من شأنه أن يحمل ثقلا الا فى حالة أو حالتين وقعتا فى العصور الأولى وفشلت فيهما التجربة . فالعمد والعوارض التى ترتكز عليها القباب ليس لهـا عمل الا حمل الأثقال فاذا زينت فان ذلك يبعدها عن المعنى الذى أقيمت من أجله . أما فى الأجزاء التى ليست بذات خطر من حيث تركيب البناء كأعلى المدخل ووجهة بنـاء فكان فن النحت يجد مجالا واسعا . على أنه كان اذ ذاك ملزما أن يعمل وفق طبيعة المعبود الذى فى داخل الهيكل والمراسيم التى كانت تقام له فلم يكن يسمح لأية غاية أخرى أن تعترض تلك الغاية ولا لأية فكرة خارجة أن تفسد هذا الغرض .

وان ما يمتاز به المعبد من صلابة الشكل وسيطرة العقل فيه هو نفس ما كانت تمتاز به المأساة فى أثينا .وقد يكون من الممكن ايجاد موازنة دقيقة بين هذين النوعين من الفن اليونانى . ولكن ينبغى لنا أن نعود الى موضوعنا ــ فن النحت ــ فنقول ان خاصتى التوازن والضبط تتجلى فى نحت المعابد . ففى (أعلى المـدخل) نرى تحت رأس الشكل نقطة متوسطة توضع فيها أعظم أشكال المنظر وعلى كل من جانبى هـذا الشكل الأوسط صور ترى لكل واحدة منها نظيرا فى الجانب الآخر . فاذا بلغت الأركان رأيت فيها أشكالا مائلة من محاربين يموتون ، أو آلهـة الأنهار أو طائفة مـن النظارة يشهدون . أما فى (الوجهة) فان رقعتها المربعة يشغلها شكلان أو ثلاثة متقابلة الوضع على أبعاد متساوية من خط المـركز وتلك فكرة مستقلة متناسقة كأنمـا هى شكل هندسى تبلغ البساطة فيه أقصى حدودها .

فالتناسق والتوازن والتماثل هى فى اظهار روح النظام وضبط النفس فى النحت ما تعلمـه الأغريق من الشدائد فلقد أشرقت مدنية الأيونيانيين فى آسيا . وذلك الروح فيض ما غمرهم من نعيم الحياة ولذة الجمال واستخدام جميع المواهب التى كانت سائدة حينا ما فى بلاد اليونان نفسها . وكان الفن عنـدهم طليقا مفعما بالسرور . فدخل فنانو أيونيا مدينة أثينا فى القرن السادس وزاروا بلاط بيزاستراتوس المترف وبلغ تأثيرهم (پلپونيزيا كما أظهرت بجلاء أعمال الحفر التى قامت بها المدرسة الانجليزية فى أثينا . ولكن هؤلاء الأيونيانيين وطأتهـم اقدام الفرس الثقيلة وكان ما هم عليه من التفانى فى الحـرية الواسـعة والتفكك وقلة النظام سببا فى هلاكهم . وكان فى عزم ملك فارس العظيم أن يدوس بلاد الأغريق الأصلية كما فعـل بهؤلاء وقد كاد ينجح فى هـذا لولا اخلاص الدوريين وحبهم للنظام . وكان انقاذ بلاد الأغريق من الاستعباد يرجع الفضـل فيه الى أهل أسبارطة ومعاونة ملتيادس وثيمستكليز لهم بمـا أوتوا من المواهب الحربيـة السامية . فلقـد كانوا طائفة حربية خلقت للقتال كالتمپليين والهسبتاليين الذين عاشوا فى القرون الوسطى بأوربا . وكان هؤلاء الأسـبار العمود الفقرى للجنس الأغريق فمزقوا الجموع الأسيوية بنفس السهولة التى شتتهم بها رجال الاسكندر الأكبر من بعدهم بقرن ونصف قرن .

ولقد أدرك الأثينيون بفطنتهم المتقدة السر فى خلاصهم فقامت فى أوائل القرن الخامس حركة المناهضة للروح الأيونيانية فسادت الآداب الدورية والملابس الدورية والفن الدورى من تساليا الى لاكونيا . ولقد كانت عقائد الدوريين فى النظام والضـبط وحكم النفس هى نفسها التى دخلت على الفن اليونانى فجعلته سلسلة

كريمة من تقدم مطرد بدل أن يكون مجرد ومضة ساطعة . وكان أفلاطون على بصيرة بتلك الأخطار التى أحاطت بأهل اتينا من جراء عظيم مقدرتهم على أنواع كثيرة من العمل وقلة خضوعهم ورأى أن هذه الخصال التى كانت تزين مدنيتهم لابد أن تهدمها فى النهاية . وقد كان هـــذا الرأى واضحا فى ذهنه وضوحا أدى الى أنه كان يميل الى تفضيل الفن المصرى مع جموده وتشابهه على الفن اليونانى الخلاب الذى كان فى عهده . وقد كان فى ذلك من غير شك مغالاة منه فى التحفظ على الأخلاق مغالاة نفسه التعصب وخروجا على قواعد الاعتدال التى كانت تملأ نفسه على أنه لم يغل هذا الغلو الا فى آخر حياته .

ومن الميسور ملاحظة دقة هذا التوازن وذلك التناسب فيما على الأوانى الاغريقية من الرسوم وقد سبق أن أشرنا الى ذلك فى عدة مواطن . فهنالك ترى الصورة ذاتها محكمة متوازنة وهى فوق ذلك متناسبة فى شكل الآنية نفسها . فالصورة التى تليق أن تكون نقشا على الأمفورا اناء للشراب بمقبضين كان يستعمله اليونان والرومان لا يصح أن تكون على قدح الشراب كما أن قدح الشرب نفسه يستدعى ظاهره من النقش غير ما يستدعى باطنه . ولم يكن أساس التصوير أن تطلق يد الفنان فيما يصور فحسب . بل أن تجتمع فى الصورة من المناسبة والملابسة والتوافق ما يستدعيه المقام . وترى فى الشكل الأول ما يوضح ذلك خير ايضاح .

بل أنك لترى حب اليونانيين للتناسق فى نحت الدمى المفردة وهى الصور والمجموعات التى تنصب فى الأسواق أو توجد على الأبواب وهو ما كانوا يعبرون عنه (بالتناسق والتماثل) . وكان قدماء النقاد يسهبون فى بيان هذه الظواهر فيما كانوا يكتبون عن

النحت عن اليونانيين . وقد وصل الينا بعض ما كتبوا فى تصانيف بليني وكونتليان . فهؤلاء النقاد يبينون أن الفن كان فى أول بداوته لا يظهر فيه غير التوازن السطحى الأولى على حين أنه فى القرن الخامس قد أصبح حب النظام والضبط من أصوله . ولقد فاق فى اظهار هذا التناسق والتماثل (فيثاغوراس الريجيامى) ولكن أعماله لسوء الحظ لم تصل الى أيدينا أما معاصراه (ميرون وبوليكلتياس وهما اللذان بلغ على يديهما فن تمثيل الأجسام المروضة فى بلاد البلوبونيز أقصى غاياته فقد اشتهر أولهما بما أدخله على صناعة من روح التناسق فى الحركة وقد اشتهر ثانيهما بالتوازن الدقيق الذى كان يصوغ فيه صور مصارعية . وبذلك التناسب الذى كان يظهره فى شكل أجسامهم على أن (فيدياس) كان فى جوهر أعماله أقرب تمثيلا للمعانى من هذين كما سترى الآن ولكنه أظهر فى البارثينون وبعض أعماله الأخرى من الاحتفاظ بروح الضبط والملاءمة ما يدل على منتهى الحذق والمهارة .

وان الفرق لعظيم بين التوازن والتماثل ، وبين القيود التقليدية . فان النظام هو أول قوانين الوجود وان الخلق العظيم لا يكون اكتسابه باتباع الأهواء كيفما ثارت ولكنه يكون بتحكيم العقل والواجب فيها وتهذيبها وترويضها كما تهذب الخيل الوحشية وتراض على خدمة الانسان . وقد يتجاوز ترويض الخيل حدوده فتقتل القسوة فى نفوسها كل ما بها من روح وبذلك قد يتجاوز الأمر حدوده مع الناس فتجمد أهواؤهم من طول حبسها وحرمانها فتنكمش نفوسهم وتموت وذلك هو شأن أهل اسبارطة فقد زاد بهم النظام على حده وكانت ميولهم الطبيعية تحت ضغط مستمر فأصبحوا مجرد أدوات ولم يمض عليهم زمن طويل حتى كانوا فى الهالكين .

أما القيود المعقولة التى توضع على الميول الطبيعية القوية فانها تحدث نتائج طيبة فى جميع دوائر العمل .

وكل هـذا صحيح بالنسبة للفن . فان التقيد بالضبط والنظام لا يسهل انتاج الأعمال الفنية إذ من الطبيعى فى هـذه الحالة أن يكون النظام فى البداية قيدا ثقيلا ويبدو كالعقبة تعترض سير العمل غير أنه لا بد من النظام والتقيـد بالقواعد والأصول لكى يكون العمل الفنى جيدا خالدا . خذ مثلا أسهل الفنون وهو الشعر . فان كتابة الشعر المرسل أسهل من كتابة الموشحات الشعرية ولكن كتابة الموشحات الجيدة أسهل بكثير من كتابة الشعر المرسل الجيد . وذلك أن تلك القيود الشكلية المستمرة تحفز الفكر وتثير القريحة وتنشط فى الانسـان قوة الاختراع وتمنعه أن يندفع مع العجلة وتمرن مقدرته على الاحسان . وكذلك كان تقيد الفنان اليونانى بأصول تركيب (أعلى المدخل والوجهة) و(الافريز) يحفزه الى التفكير فى انشاء الصور التى تلائم هذه الأشكال .

وليس يمكن أن تجد مثلا لبيان التوازن والنظام فى الصور البارزة خيرا من التابوت الحجرى الفخم الذى وجد فى صيدا (شكل ٧) وترى على جانب منه صورة تمثل أحد انتصارات اسكندر الأكبر على أنك قد تحسبها لأول نظرة صورة اختلط حابلها بنابلها . فاذا أنعمت فيها النظر انجلت هذه الفوضى السطحية عن نظام دقيق إذ ترى الاسكندر فى هجومه من اليسار يقابله بارمنيو وهو يهجم من اليمين . وترى الفارس توسط بين الزعيمين تحسبه خارجا من الناحية القصوى وعلى كلا جانبيه جمـاعة يقتتلون . فترى عن شمـاله أحد المشاة المقدونيين يقاتل فارسيا راجلا وعن يمينه

(شكل ٧ — التابوت الصيداوى)

ترى يونانيا خفيف السلاح يدفع عن نفسه خيالا فارسيا ثم هناك جنديان من رماة الفرس يوازن كل منهما صاحبه وجملة الجنود فى الصورة خمسة من اليونانيين يقابلهم ثمانية من الفرس اشارة الى تفوق هؤلاء فى العدد . ولو أننا كنا أوفر علما بهذه المعركة لكان من المحتمل أن نجد فى الصورة رمزا يشير لأكبر مميزاتها . فتلك الصورة البارزة تدلنا على أكثر مما كانت تدلنا عليه صورة طبيعية تمثل جهة خاصة من جهات ميدان القتال . والفنان اليونانى لم يكن يستطيع أن يعمل من غير أن يستخدم عقله وروح النظام التى أودعت فيه كما كان يستخدم يده البارعة الماهرة .

الفصل الرابع

أما الرابعة من أظهر خواص الفن اليونانى فهى محاكاة الطبيعة . ونظرا الى كون التصوير بالألوان والنحت من الفنون التمثيلية أو التى تقلد الأشياء فان أثرها يتوقف على دقة الملاحظة والاقبال على درس الطبيعة ولعل هذه الظاهرة فى أعمال النحت عند الاغريق ليست أوضح ما تراه عين الناظر الحديث . ومما لا شك فيه أن عادة دقة الملاحظة التى اكتسبناها بفضل الدراسة الحديثة لمظاهر الطبيعة واستخدامنا لما يزيد فى حدة أبصارنا من المجاهر والعدسات المكبرة واستعمالنا التصوير الشمسى فى كافة أعمالنا . كل ذلك جعل معظمنا أكثر علما بظواهر هذا العالم المحيط بنا مما كان عليه الاغريق . ولكنا اذا قارنا أعمال الاغريق بأعمال العصور التى سبقتهم تبينا أن محاكاة النحت اليونانى للطبيعة كانت لا بد تدهش من رآها . بل أن أعمال العهد القديم (مثل أعلى مداخل ايجينا) تدل على علم بالجسم البشرى يفوق بكثير فى دقته كل ما تحلت به قصور آشور أو معابد مصر . وانك قد تجد دائما كثيرا من الفرق فى كل مذهب من المذاهب التى لا تفتأ تظهر معلنة أنها تفك عن نفسها قيود الوضع والتقاليد وترجع الى الطبيعة نفسها . فانه لمن المستحيل أن يصل الانسان الى الطبيعة عن غير طريق الحواس البشرية ، ومن غير الادراك الانسانى . وان الفنان الذى يعمل على أن يورد لنا الطبيعة فى تلك الصور التى نراها على لوحات الصور الشمسية وأشباهها من المحدثات الميكانيكية انما تضيع جهوده سدى ويحدث أثرا لا يمكن أن يكون موضع اهتمام أى انسان . ولقد ورد عن بلينى ان ليسيباس

كان يقول انه لم يكن ليتخذ غير الطبيعة وحدها معلمـا له . والحقيقة أن أعمال ليسيباس التى وصلت الى أيدينا أو التى نقدر أن نعرف لهـا أثرا . تلك الأعمال مشربة بروح خاصة محددة . فالفنان ينبغى أن ينظر الى الطبيعة بعينيه هو ، وهاتان العينان تلقيان على ما يقع تحتهما ظلا يستمد من شخصية صاحبهما . فكل مايراه الفنان يتلون بلون نفســه التى لا يستطيع الفكاك من قيودها على أن جميع أدوار تاريخ فن النحت عنـد الأغريق مشبعة بدراسة الطبيعة . وكلما تقدمت هـذه الأدوار شاهدنا بهـا آثار الملاحظة الدقيقة أكثر وضوحا وكانت الفرص ميسورة للفنان كى يدرس الأجسام البشرية — وهى فى نظره جماع الظواهر الطبيعية الهـامة — دراسة لا يطمع الفنان الحـديث فى الاحاطة بها ففى المستحمات وفى أماكن الألعاب الرياضية حيث كان جميع الشبان الأحرار يقضون بعض سويعات الصباح فى الجرى والوثب والمصارعة والسباحة كان الفنان يشهد كل يوم أجسام المصارعين الجميلة فى مختلف المواقف والحركات . فكان يعرفهم كما يعرف مدرب الخيل خيوله أو غاوى الكلاب كلابه . ولم يكن بحاجة الى نموذج خاص ولكنه كان يقف كل يوم على تفاصيل عضلية جديدة ويهتدى الى مواقف جديرة بالعناية . كان يدخلها فى ذهنه على سابق ماأدركه عن الصور البشرية . غير أن محاكاة الطبيعة لم تكن أوضح خواص الفن فى عصوره العظمى بل كانت تغلب عليه دائمـا الأفكار السامية والأساليب الفخمة . وانك لتنظر الى فن النحت فترى فى تطوره نزوعا مستمرا الى القرب مـن الطبيعة ولكنك لا ترى تلك الفوضى التى ترى فى مظاهر الطبيعة جميعها على السواء موضوعا للفن . فان الفنانين الذين قاموا بعمل ايجينا



(شـــكل ٨) ديموستنيس
(صنع بوليوكتوس)



(شـــكل ٩) أبراهام لنكولن
(صنع بارنارد)

لم يكونوا يحملون أنفسهم على اخفاء جمال أجسام المحاربين بأمثال تلك الدروع الضافيــة التى تراها فى مجموعة (فيشر) وهذا هو السر فيما ترى من التناقض حين ترى معركة بهــا رجال مسلحون وليس عليهم دروع فان أقصى الجهود كانت تبذل فى تصوير الأطراف العــارية ففى ذلك التمثال النحاسى العجيب الذى وجد فى دلفى تمثال ســائق العربة الحربيــة (شــكل ٤) الذى يرجع تاريخه الى عام (٤٧٠ قبل الميلاد) تقريبا تجد ذلك الجلباب اللازم لوقاية الرجل من هبوب الهواء فى غاية البساطة . وأما الذراعان والقدمان وهى ما لا يستره الجلباب فانها صورة صادقة للطبيعة وفيهــا من الدقة ما يدهش الألباب . فكأن الفنان أحب أن يعوض نفســه عن البساطة العظيمة فى صناعة الثوب بالأمعان فى درس الطبيعة بغاية الدقة حيث يتسنى له ذلك . ثم ان الرأس لم يقصد به أن يكون رأس شخص بعينه ولكنه رأس يمثل الجنس . والواقع أن الصور الخاصة تكاد تكون غير ميسورة فى ذلك الوقت . ولعل هذا هو موضع التحدّث عن الصور الشخصية عند اليونان اذا سمح المجال ولن أزيد على الاشارة الى الخطأ الشائع بين الناس وهو أن الصور الشخصية عند اليونان كانت محاطة بالقيود الوضعية وليس فيهــا ما يسترعى الأبصار . وأن الرومان هم أول من أدخل الشخصية فى التصوير وأنه لعجيب أن ينتشر مثل هــذا الانتشار رأى يقع من الخطأ فى صميمه . نعم أن الصور الشخصية الأغريقية فى القرن الخامس بل والرابع أيضا كانت يغلب عليها تمثيل الجنس وأن المــلامح الشخصية كانت تشكل بمــا يتفق مع روح ذلك العصر روح الاندفاع وراء المثل الأعلى والتشبه به . ولكنا نجد منذ القرنين الثالث والثانى عددا عظيما من الصــور التى بلغت الغــاية

القصوى فى تصويرها للأشخاص ومميزاتهم مجموعة عجيبة من صور رجال الفلسفة والشعر والسياسة لا يمكن أن تفوقها صـور أخرى فى دقة شبهها بالصور الحيــة . على أن أبدع الصور الشخصية للرومانيين كانت جميعها من صنع فنانيـــ من اليونان . ولست أقدم غير مثــل واحد للصور الشخصية الأغريقية البالغــة أقصى الجمال وهو تمثال لديمستينيس يرجع الى القرن الثالث قبـل الميلاد (شكل ٨) فهـــذه صورة شخصية بمعنى الكلمة فالوقفة والذراعان الطويلان الهزيلان يدلان على الشخص بعينه وما امتاز به من الخواص كما يدل الوجه وما ارتسم عليه من علائم الحزن وما عليه من أسارير عميقة تنم عمــا فى القلب من شجون . فالرجل ماثل أمامنا من قمة رأسه الى أخمص قدمه لا كما هى العادة فى التماثيل الحديثة حيث توضع صورة الرأس على جسم جامد ذى صورة وضعية .

ولقد جئت بصورة تمثال لكبير من كبار رجال السياسة الحديثين وهو أبراهام لنكولن من صنع برنارد (شكل ٩) للمقــارنة بينه وبين ديمستينيس وليس ذلك التمثال خير تمثــال له . ولكنه تمثال يستحسنه الكثيرون . أما غايته فكانت صدق التمثيل الا أنه لم يبلغ بالتمثال غير حد السخرية (الكاريكاتور) وذلك بالمبالغة فى تصــوير خشونة لنكولن وحدة ملامحة وحجم كفيه وقدميه والقلق البادى على وجهه . ولقد ثبتت هذه المبالغة بمراجعة عدّة صور شمسية وهى جميعها تدل على أنه كانـــ أنيق الملبس لا ينقصه شيء من الهيبة بحــال من الأحوال فتمثال ديموستنيس آية فى صــدق التمثيل وهو يزيد على الحقيقة مسحة من العطف فى حين أن تمثال لنكولن قد بعد عن الصدق وذلك راجع الى المبالغة فى تمثيل أبغض ملامحه الظاهـرة .

وإذا نحن أردنا أن نبين مقدار قرب فن النحت الأغريقى من الحقيقة فى تصويره يجب علينا أن نحوّل أنظارنا عن عصر الكمال الفنى العظيم الى العصر الهليدنستى . جعل ليزيستراتوس اخوليسيپاس يتخذ من الجص نماذج لوجوه الأفراد وفى مدرسة الطب الكبيرة التى كانت بالاسكندرية كان تشريح الجسم الانسانى من الأمور العادية بعد أن كانت تأباه الأجيال السابقة مدفوعة بعامل الورع والدين . فلقد كان بعض الجراحين أمثال هيروفيلوس وايرازستراتوس مشهورين بتمكنهم فى علم التشريح . وانك لترى فى المنتجات الفنية فى القرن الثالث قبل الميلاد ما كان نتيجة لازمة لتلك الدراسة وهذا هو زيادة الدقة فى تمثيل العضلات والجلد تمثيلا قائما على أساس من العلم صحيح .

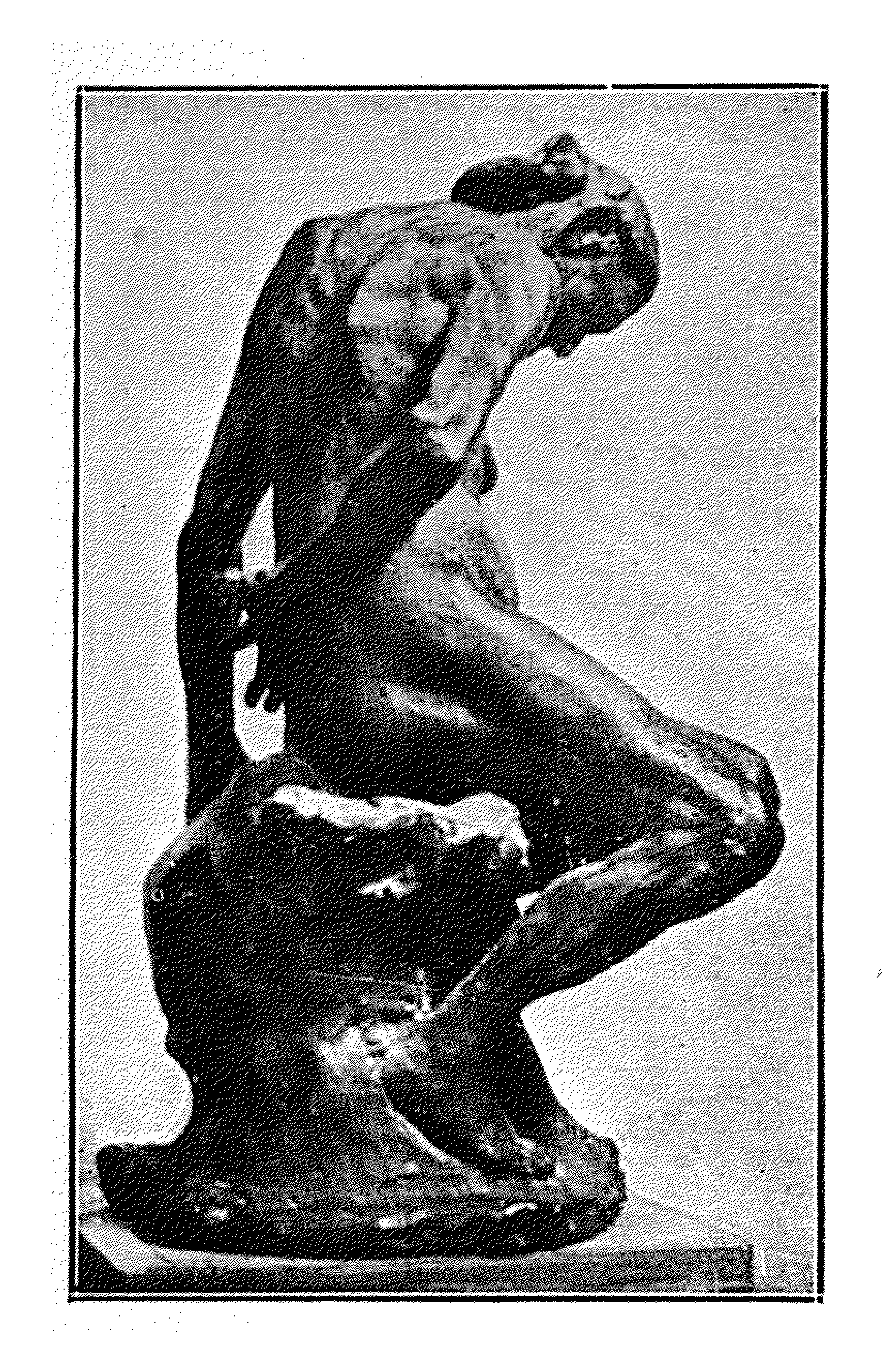
ولم يتردّد بعد ذلك الفنانون فى تصوير أجسام أضناها التعب والتعرض للجو أو ضمرها الصيام . وفى متاحفنا كثير من أمثال هذه التماثيل وكلها آيات ناطقة على تلك الدقة العجيبة التى كان يعالج بها الفنانون صور الفلاحين أوالمسنات من النساء أوصغار الأطفال . وهأنا أورد واحدة من تلك الصور وهى محفوظة بروما فى متحف كنسر ڤاتورى الكابتلول وهى صورة راعية غنم عجوز على ذراعها حمل (شكل ١٠) ولكن مما يلاحظ أن الصورة ليس فيها ما تنفر منه النفوس على شدة محاكاتها لما فى الحياة العادية من الحقائق . وهى الى حد ما أقرب الى تمثيل الجنس منها الى تمثيل فرد من الأفراد أو هى قصيدة من شعر الطبيعة أكثر منها صورة لشخص من الأشخاص وأنها لشبيهة بقصائد (ريفيات)تيوكريتاس ،وهى تخالف أشد المخالفة تلك الصور الكريهة التى يصيبنا بها بلاء بعض المثالين الحديثين الذين يغالون فى شغفهم بتمثيل الحقيقة المجردة وان كانت

منفرة كما ترى فى هولمير العجوز التى صوّرها رودين (شكل ١١) وهى صورة مومس مسنة بادية البلى .

وانى لأعرف أن بعض النقاد يدافعون عن هذه الصورة مستندين الى ما فيها من عبرة خلقية اذ تقوم دمامتها دليلا على قبح مصير الجمال الى البلى اذا سار فى طريق الشهوات . ولكنى أقول بملء فى أنى أشك فى صلاحية فن النحت لنشر مثل هذه الدروس الخلقية فانه جعل للتمثيل لا للشرح والايضاح .



(شـــكل ١٠) الراعية العجوز
(صنع أسكندرى)



(شـــكل ١١) هولمير العجوز
(صنع رودين)

الفصل الخامس

والآن نأخذ فى الكلام عن المصباح الخامس من مصابيح الفن اليونانى وهو الطموح الى الكمال والتسامى الى المثل الأعلى فان اليونانيين فى تصويرهم للمعانى فى جسم الانسان وتصويره قد سبقوا أمم الأرض جميعا وتركوا وراءهم آثارا خالدة : وما تاريخ الفن اليونانى الا تاريخ البحث عن الجمال والشعر والتنقيب عن كل ما يطرب ويسر .

ولقد كان لانج الدانمركى أول من فطن الى أن أقدم أعمال النحت عند اليونان لم تكن صورا تحاكى الأشياء كما تبدو فى عالم الوجود بل إن هى الا نتائج ما وعته ذاكرة المثال من صور العالم وهو يصوغها معا يضم بعضها الى بعض ويبرزها كما تهوى نفسه وتريد لا كما تحتمه طبيعة الأشياء ذاتها . وهذا عين ما يفعله النجباء من الأطفال اذا رسموا شيئا فى كراستهم فتراهم يخرقون كل قاعدة من قواعد الرسم المنظور اذ يجمعون فى الصورة الواحدة للشىء الواحد ما علق بأذهانهم من صور أوضاع مختلفة لهذا الشىء فتخرج الصورة من أيديهم متنافرة الأجزاء غيرمتناسقة فهم لايغفلون اثبات خاصة فى شخص يرسمون صورته اذا كانت تلك الخاصة قد استرعت انتباههم ولفتت نظرهم ولو كانت تلك الخاصة غيرظاهرة فى الوضع الذى يرسمون الشخص فيه فهم يمثلون صورة الشخص موليا وجهه شطرهم ومع ذلك يمثلون رجليه تسيران مجانبة لهم . وعندهم أن لكل وجه عينين ولكل جسم ذراعين سواء أظهر ذلك لهم فى الواقع أم لم يظهر : وكذلك كان

من المألوف أن يرى الناظر الى الصور التى حفرها اليونانيون بارزة على الأحجار فى بدء عهدهم بالفن أن نصف الصورة من الرأس الى الحقو يبدو مواجها له بينما يكون النصف الأسفل مجانبا بغير وجود قسم متوسط بين النصفين . ومن أحسن الأمثلة على ذلك وجهات سليناس المشهورة بصقلية على ان هـذا الطريق فى الفن سلكته جميع الأمم فى أول عهدها به ولكن اليونان يمتازون عن غيرهم بأنهم بعد أن أصلحوا تلك الأخطاء الأولى احتفظوا بتغلب الفكر والتصور فى فنهم على الأشياء المادية وجعل المكان الأول للانسان دون الطبيعة أو بعبارة قصيرة جعلوا المعانى أكبر شىء فى الفن فلم ينظروا الى جسم الانسان كما ينظر اليه الماديون الذين يرون أن الجسم هو الانسان نفسه بل كانوا يرون انه غلاف خارجى هو نتيجة فعل الروح الكامنة فيه . فاذا نظروا اليه فبعين الخيال والتصور كما ينظرون اليه بالعين المبصرة . ولذا كانوا لا يقنعون بما هو كائن فى الظاهر مجسدا بل يشرئبون الى معرفة ما استسر وراء تلك الظواهر . ولقد كان من رأيهم أن الطبيعة لا تبلغ غاية النجاح فى تكوين الانسان وتصويره بل تقف دون غايتها وتقصر عن ابراز فكرتها . والفنان قد يدفعه حب تلك القوة الخالقة الى أن يقدم على اصلاح ما صنعت وان يعمل على تنفيذ أغراضها والسعى لاخراج فكرتها على الوجه الأتم الأكمل . وقد كان حب الفنان عندهم لجسم الانسان واجلاله له يغريانه دائما بمحاولة السمو به الى درجة أعلى ومكانة أقرب الى الكمال فى فن الرياضة البدنية عندهم إذ كان اليونانيون فى ممارسة رياضة البدن لا ينظرون نظرة رياضيى هذه الأيام فيقصرون نظرهم على عدد ما يستطيع أن يقفزه الرياضى من الاقدام أو قدر ما يستغرقه من الزمن فى قطع

مسافة ما . بل كانوا ينظرون أيضا الى جسمه وتكوينه وقوامه والى اتساق حركاته وانتظامها فاذا برز لهم رياضى قبيح الهيئة هتفوا بسقوطه كما كانوا يفعلون بالممثل اذا أظهر عجزا : وكانت معظم تمريناتهم الرياضية يقومون بها على نغمات الناى ولسنا نجد فيما خلفوه لنا من تماثيل الرياضيين تمثالا واحدا يظهر فيه عدم التناسب فى تكوين الجسم فلا ترى فى أحدها صدرا قويا مع ساقين ضعيفتين أو ساقين عضليتين مع ذراعين سقيمتين . ولعل صور بعض الرياضيين الذين امتازوا بجمال هيئاتهم وحازوا أعظم الاعجاب قد أثرت فى فنهم حتى أوجدت نموذجا خاصا نرى شيئا منه فى كل تمثال من تماثيل الرياضيين كما أثرت صورة الاسكندر الأكبر فى تماثيل كافة قواده وأتباعه . ولا ريب فى أن كل من له دراية بنماذج اليونانيين وأشكال أجسام الرياضيين فى عصرنا هذا يرى فرقا بين هذه وتلك فان اعتدال الجو وهدوء الشباب فى بلاد اليونان كان لهما أثرهما فى ابراز الجسم أكثر امتلاء باللحم وأكثر استدارة مما نراه فى بلاد الشمال فليس فى أجسام الرياضيين فى بلاد الشمال من التناسق مثل ما لليونانيين بل ان عضلاتهم أكثر بروزا وأجسامهم أكثر وعورة وأدق عودا .

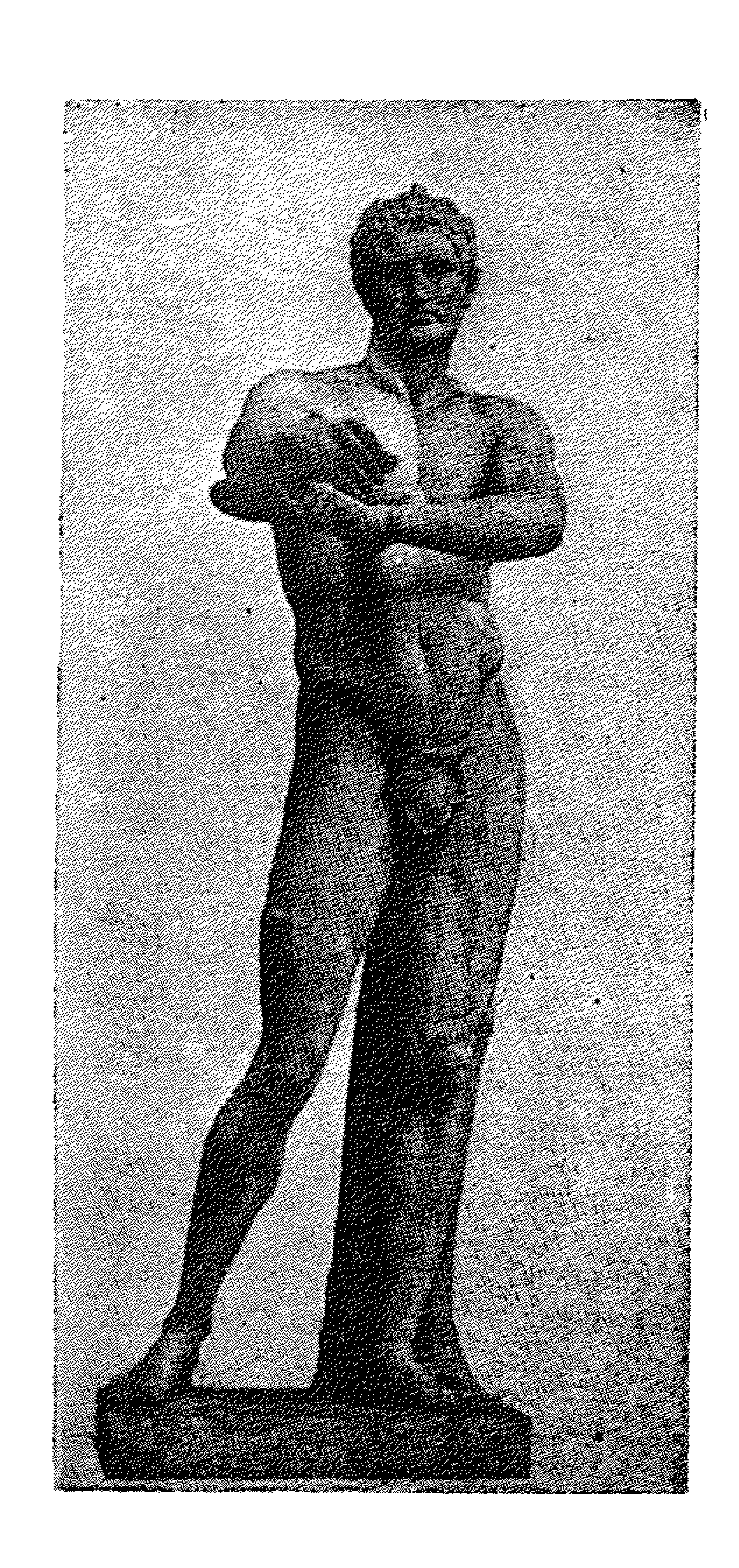
ولقد أنشأ المدرّب [1] المثال الدكتور تيت ماكنزى نماذج للقوة والجمال تختلف عما أبرزه اليونانيون ولكنها لا تقل عن ذلك جمالا فى بابها . ولقد عمل فى ابرازها على طريقة المثالين اليونانيين اذ جعل قاعدة عمله متوسط الأقيسة التى أخذها عن جماعة من الشبان ومن خير الأمثلة لما أخرجه اليونانيون من هذا النوع ،

---

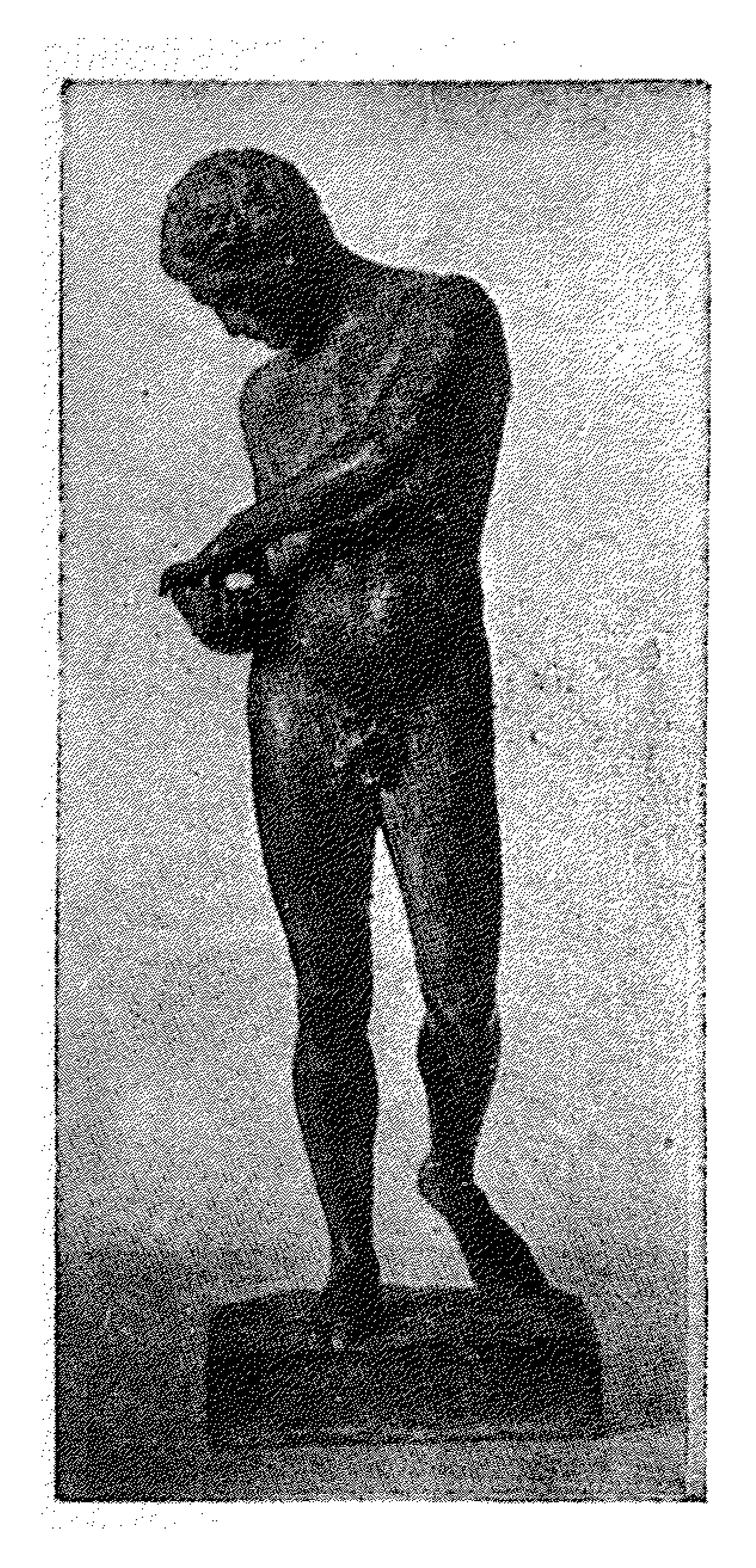
(١) ترجمة كلمة trainer وهو من يدرب الرياضيين على الأعمال الرياضية .

تلك التماثيل الجميلة للّلاكمين فى القرن الخامس التى ألان حواشيها حب الكمال ولكنها بقيت بعد ذلك مثالا بديعا للتناسق والقوة ثم تمثال ابوكسيومنيوس (شكل ١٢)وهو تمثال رجل يحك جسمه بحجر كما كانت العادة عند الاستحمام وهذا من أعمال القرن الثالث بعد أن أدخل المثالون فى فنهم ما تعلموه من التشريح وكانت لذلك آثار حسنة وأخرى سيئة . والى جانب هذا التمثال يمكننا أن نضع تمثال الدكتور تيت ماكنزى وقد أخرجه بعد موازنة دقيقة بين الأقيسة التى أخذها عن مئات من الشبان الرياضيين فى جامعتى هارڤارد وفيلاديفيا (شكل ١٣) . وهذا عمل من نتائج الطموح الى الكمال فى هذا العصر وقد أخرج على طريقة اليونانيين وهى التى كان لها الفضل فى عظمة فن النحت الرياضى عندهم .

ولقد أتت نماذج الجمال النسوى فى فن النحت عند اليونان متأخرة عن نماذج جمال الرجال ، ففى أعمال النحت الأولى عند أهل اطيقه وايونيا تظهر النساء متدثرات بالثياب ولم يجسر فدياس ولا معاصروه على اظهار المرأة مجردة عارية بل لقد أبرزوا جمال المرأة مستعينين على ذلك بالثياب وليس بعد تجريدها منها ولقد بقى لعصر براكسيتليز وسكوباس أن يخرج آلهة الحب فى صورة امرأة عارية ولقد أراد براكسيتليز أن يعتذر عن تلك البدعة بجعله الاستحمام تفسير الضرورة لعرض المرأة عارية وتخفيفا من وزر ذلك . وانك لاتجد فى تمثال الافروديت الذى صنعه براكسيتليز أى أثر للدلال ومحاولة الفتنة واثارة الشهوات فهى تقف متماسكة فى عظمة ونبل فلا ترى فيها الا نموذجا ومثالا للجمال لا صورة شخص على أن المثالين الذين جاءوا بعد ذلك قد خرجوا عن السنة سنة التناسق البسيط وحاولوا أن يجعلوا تماثيلهم أكثر استهواء للرجل العادى



(شـــكل ١٢)





(شـــكل ١٣)

ولكنهم لم يسرفوا فى ذلك الى حد الضعف ولم يتبذلوا . ولقد كانت تماثيل الافروديت التى صنعت فى القرن الرابع مقياسا للجمال النسوى وقد بقى ثابتا تتلقاه طبقة بعد طبقة من الفنانين حتى عصرنا هذا . ولعل خير هذه التماثيل جميعا اظهارا لذلك المعنى هو تمثال افروديت المجلوب من «ميلوس» والمعروض فى اللوفر وهو من مخلفات العهد الهيلينسى (Hellenistic Age) وقد اجتمعت فيه عظمة تقاليد القرن الرابع مع ما اتصفت به العصور التالية من كمال الدقة فى ابراز جميع أجزاء الجسم واكساب التمثال دلائل الحياة وأكثر المعروفين بحسن الذوق يستملحون هذا التمثال ولكنى لا أحسب أن ذلك منهم عن علم واحساس صحيح بما فى التمثال من جمال وكيف يكون ذلك وليس أبعد من الخلاف بين تركيب جسم آلهة ميلوس و بين أجسام النساء المشهود لهن بالجمال فى هذا العصر . ولقد قام بخاطرى أن أضع صورة تلك المعبودة الى جانب صور الأجسام التى تنقش على صحافنا المزخرفة فان هذه الصحاف لا تمثل المرأة كما هى بل كما تحب أن تكون . فهى لا تصور الواقع وانما تصور المثل الأعلى عند أهل هذا الجيل ... ... و ياله من مثل أعلى !

ولعل بعض القراء سيعجب من أنى أتكلم بلهجة الجد عن تلك الصور العرضية قصيرة الأعمار . ولكن من كان ملما بأصول علم النفس لا يمكنه أن يستهين بأمر هذه الصور فان عرض نماذج نسائية خاصة أمام الناشئة على أنها مثل للجمال ينبغى أن يحتذى مثالها يجعلها تترك أثرا فى الجيل القادم فيبحث الشبان غدا عن نساء لهن هذا الجمال ليجعلوهن موضع اعجابهم و يسعون للتزوج بهن . أما الفتيات فيتلمسن السبل ليصلن الى مثل هذا الجمال وهكذا تكون

تلك الغلطة الشنيعة فى فن الجمال عاملا من عوامل الانحطاط يهبط بالناشئين رويدا رويدا من نور السماء وهوائهـا هاويا الى كهوف الأرواح الخبيثة .

وليس يوجد فى بلاد اليونان الا قليل من التماثيل تصور جمال المرأة اليونانية الشابة بأبهى مما يتجلى فى تمثال ارتميس الحابى الذى سبقت الاشارة اليـه (شكل ٥) على أنه لا يسعنا الا أن نقر بأن مسحة الجمال السماوى لا تتجلى فيه واضحة ولكن فيه بعد ذلك بساطة وظرفا وجمالا ومحاكاة للطبيعة قل أن يوجد مثلها فى غيره .

وكما ان لاختلاف الجواء والشعوب أثرا فى أشكال الرجال كذلك لاشك فى أن هذا هو حال النساء أيضا فان الأجسام المليئة الملتفة تقل فى الشمال وتكثر فى الجنوب من أوروبا فالشعب الانجليزى مثلا أطول قامة وأضعف تكوينـا وأنحف هيكلا من الشعب اليونانى القـديم وفى الشعب الانجليزى تحل الأوتار الصلبة القوية محل العضلات الضخمة . ثم إن مزاولة الألعاب الرياضية لاشك تجعل بناء أجسام النساء قريبة من بناء أجسام الرجال من بعض الوجوه . ومن المعلوم أن مزاولة الألعاب الرياضية باعتدال قد تحسن الصحة وتزيد القوة من غير أن تحرم الأعضاء الحيوية من غذائها ولكن المرأة التى تسرف فى الألعاب الرياضية تكون أبعد عن حياة الصحة الطبيعية من الرجل الذى يسرف فيهـا . وسواء أكان الاجهاد للجسم أم للعقل فان أثر ذلك هو حرمان المرأة من انوثتها الحقيقية وانه لمما يؤسف له انه لم يتح للعالم شخص يصور لنا المثل الأعلى لجمال النساء كما فعـل تيت ما كنزى بجمال الرجال أهل الرياضة . وبطبيعة الحال ليست الطريقة واحدة فى الحالين فليس فينا من يرغب أن يرى جمال المرأة ممثلا فى صورة امرأة من

المنصرفات الى الألعاب الرياضية الا أن نكون قد أردنا أن يعود الى هذا العالم عهد جماعة الأمازون . ولكنا فى أشد الحاجة الى أن تعرض أمام أنظارنا نماذج تجتمع فيها كل عناصر المثل الأعلى لجسم المرأة الصالحة القوية . أما الآن فانا نرى العاريات فى الفن لاتزال صورتهن مأخوذة على الأكثر نقلا عن اليونان على حين نرى تماثيل الكاسيات تصاغ فى قالب من تراهن فى الشوارع من النساء على صور مختلفة حسب مايقتضيه تقلب الأزياء التى لا رابط لها . ولذلك تجد التباين بين الصنفين عظيما ولقد كان اليونانيون اذا رسموا صورة امرأة على آنية رسموا أولا خطوط جسمها ثم أضافوا اليه الملابس بعد ذلك . أما اليوم فان من يحاول أن يرسم ماتحت ثياب المرأة من خطوط جسمها على آنية مزخرفة فانه يقف مشدوها أمام الشكل الذى رسمه ولقد حكى شيشرون حكاية قيمة عن الرسام زيوكسيس الذى عاش حوالى (عام ٤٠٠ قبل الميلاد) اذ كلف بأن يخرج لأهالى كروتون صورة لهيلانه الطروادية فكان أول ما بدأ به عمله أن سأل عمن اشتهر بجمال جسمه بين فتيان تلك المدينة المعروفة بكثرة الألعاب الرياضية فيها ويظهر أن مثل هذا السؤال كان فى طوق العامة أن تجيب عنه . ثم طلب أن يسمح له بفحص أجسام أخوات هؤلاء الشبان اذ رأى أن الأخوات لا بد أن يشاركن الأخوة فى الجمال حتى اذا ما تم له ذلك اختار من أولئك خمس فتيات جعلهن موضع بحثه بعد ذلك وعلى هذا الوجه أخرج الصورة المطلوبة منه . ولا يستطيع أحد أن يقول ان هذا الرجل كان من الجهل بحيث يأخذ عفوا شيئا من جمال هذه وشيئا من جمال تلك من فتياته الخمس ويصوغ من هذه المجموعة صورته المطلوبة فانه لو فعل

ذلك لمـا زاد على أن يخرج الناس صورة تمثل أبشع ما وصل اليه الخلط وعدم التناسب ولكن اشتغاله وسط هذه النماذج الجميلة شحذ ملكة ادراك الجمال فى نفسه الى أقصى حد يستطيع ادراكه .

ففى هـذه الحكاية مواضع كثيرة جديرة بالملاحظة فمنها نعرف أولا أن ما اصطلح عليه عند اليونان أن يكون مثالا للجمال كان أتم وصفا وأكثر تحـديدا فى الرجال منه فى النساء . وثانيا أن الفنان اليونانى كان دائم اليقظة لا تفوته لمحة من لمحات الجمال حتى يزيد بها تالد الفن وتراثه . ولقد قال الأستاذ بروك فى كتابه القيم عن جمال الجسم الانسانى : ان التأمل فى أبدع تمـاثيل اليونان يرى ملامح قل أن يجدها فى عالم الوجود بين النساء أو الرجال ولكن لا جدال فى قوة سحرها و جمالها فقد ظل محصول ما فى أذهان الفنانين من صور الجمـال يزيد عصرا بعد عصر وطبقة بعد طبقة فكان كل نموذج جديد للجمال يفحصه فنان يضيف شيئا الى ما كان الأستاذ بروك يسميه : خزانة المحاسن التى كانت تحت يد الفنانين .

الفصل السادس

أما المصباح السادس للفن اليونانى فهو الاجتهاد فى بلوغ الكمال فان الناظر الى أعمـال الحفر الدقيقة لدى اليونان يرى من دلائل عدم الضن بالوقت والجهد مايذكر الانسان بعمل الطبيعة نفسها . تلك الطبيعة التى لا ترى أبدا وهى تعمل فى عجلة ولا تقنع بتخطيط سريع بل تعمل فى أناة وتؤدة غير مبالية بفوات الوقت . ولقد أتانا حديث پروتوجينيس أنه قضى سبع سـنوات كاملة فى رسم صورة واحدة وانى على يقين أنه كان يقضى سبعا غيرها عن طيب نفس لو علم أنه بذلك يستطيع أن يحسن هـذه الصورة وأن أول ما يلفت النظر فى تمثـال سائق العربة الحربيـة الذى وجد فى (دلفى) أو تمثال هرميس الذى صنعه براكسيتليز هو تلك العناية الفائقة التى بذلت فى اخراج جميع التفصيلات والى العمل الدقيق المتواصل جيلا بعـد جيل يرجع الفضل كله فى علو شأن فن النحت حتى صارت له تلك القدرة على تمثيل العضلات كما تبدو فى تمثال المحارب المعروض فى اللوفر وتلك الدقة فى تصوير الثياب كما تبدو فى صورتى (انتصارات الشرفة بأتينا) أو (انتصارات ساموتريس) . ولكن أكثر ما تبدو دقة اليونانيين فى نفس الصور البارزة على قطع النقود والجواهر . ولم يكن الغرض الأول من النقود أن تكون جميلة الشكل تسر العين ولكن كان القصد منها أن تصلح للتداول فى أسواق السمك ومع ذلك فان كثيرا منها قد بلغ من الاتقان مبلغا اذا كبرت معه صورها مرات لم يذهب من جمالها شىء يذكر ولن تظفر منها عين الناقد بعيب أو نقيصه . وكانت فصوص الجواهر

تستعمل لختم الوثائق اذ كان الخـاتم فى ذلك الوقت يقوم مقـام التوقيع اليوم . ولكن ما نقش على تلك الأختام يبـدو فى احكام صنعته كأحسن ما نحت المثالون . بل ان الأختام فى غالب الأحايين اذا كبرت صورها لم ينقص جمالها بل يبدو أكثر منـه وهى صغيرة . ومع ذلك فانا نعلم أنها قد صنعت من غير استعانة بالمجاهر .

وموضوع تلك الصور ليس محدودا ولا محصورا فانها صور الآلهة ومناظر أقاصيص اليونان وصور الناس وأشـكال من الحيوان . وكذلك ترى أنها هى وقطع النقود قد أدخلتا فى الحياة المعتادة الفاترة عناصر من الشعر والخيال .

الفصل السابع

أما الخاصة السابعة فهى المرح أو التنعم بالحياة وهى والخاصة الخامسة أعنى الطموح الى الكمال صنوان متوافقان توافق الخاصتين السادسة أعنى العناية والصبر ، والرابعة وهى محاكاة الطبيعة .

ولقد وصف الشاعر كيتس فى بيت واحد خالد روح الفن كما كان يفهمه اليونانيون حين قال : (انما الشيء الجميل معين سرور لا ينضب) . وأنت فانك ترى البشر الفياض الذى هو أساس الخلق وأصل التطور ممثلا خالدا فيما صنع اليونانيون من تماثيل وصور بل هو الذى ألهمهم فى كل ما صنعوا . وأن ذاك البشر الذى لا حد له وهو الذى منح الزهور زاهى ألوانها والفاكهة حلو مذاقها والطيور جميل تغريدها والذى حرك فى البشر شعورهم الجنسى قد بلغ تصويره فى الفن اليونانى غاية الغايات بيد أن حياة اليونانيين لم تكن خالصة السعادة غير مشربة بالأكدار ، فكثيرا ما نشبت الحرب بين المدن اليونانية وكان جزاء المدن المدحورة أحيانا أن تدك أسوارها ويقتل رجالها وتسبى نساؤها وكثير ما اجتاح المرض أرضهم بل فتكت الأوبئة بهم وهم لا يجدون من فنى الطب والجراحة اذ ذاك ما يستعينون به على صد غائلتها ويركنون اليه فى تخفيف ويلاتها كما نفعل نحن اليوم وكان السواد الأعظم من أهل الريف الذين يأوون الى أكواخه الحقيرة أو من أهل المدن الذين يتمرغون فى حمآتها القذرة وبخاصة من كان يعمل منهم فى المناجم . كان كل هؤلاء يعانون من شظف العيش وبؤس الحياة ما لا يعرفه أهل هذا العصر فى حياتهم العادية . ويزيد على ذلك

أنه لم يكن لديهم من الآمال فى حياة أخرى هنيئة مباركة ما يهون غصتهم وينفس كربتهم ويخفف عليهم شقاوتهم كما كان شأن الناس فى القرون الوسطى . ومع هذا فقد عاشوا تحت هذه السحب المعتمة القـائمة بقلوب ملؤها الأمل ونفوس مستبشرة طامحـة . وكانت فنونهم تمثل أبدا جانب الحياة اللامع المضىء ولا شك قد كانوا فى ذلك منهم عن حكمة . فلم تكن الفنون لتثير فينا التشاؤم بل لتوحى الينا التفاؤل ولم تكن الفنون لتعرض علينا من الطبيعة جانبها الكريه المنفر بل لتكشف لنا عما فيها من جمال باطن وحسن مسـتور ، فانمـا الحياة غايتنا وليس الموت ونحن انما نسعى الى حياة أطول وعيش أحفل وأرغد .

على ان الفن اليونانى كان فى بعض صوره جاهما عبوسا شديد الحساسـية بمـا فى هذا العالم من ألم وشر فقـد اخترع اليونانيون المأساة وما هى الا نظرة الشاعر الى قسوة القدر وتفكيره فى جوره وعسفه . وأنت هل تجد فى هذا العصر جماعة من النظارة تستطيع أن تحملهم على أن يبقوا يوما كاملا من أيام الصيف يستمعون فيه قول شاعرين مثل اسكيليس وسوفوكليس فى وصف قوة تمسيس أو فى وصف زوال السعادة وقلة ثبوتها أو فى بيـان المصائب التى تصور حياة كل من أثار على نفسه الآلهة . كلا وألف مرة كلا ! وانك لا تجد وصف الأحزان فى المأساة اليونانيـة وحدها بل انك واجد ذلك فى المراثى وما يكتب على قبور الموتى حيث تنعكس عناصر صادقة لنفوسنا تمثلها ساعة اكتئابها . ولكن اليونانيين رأوا أن النحت والتصوير لا يصلحان أداة لتصوير خواطر الحزن واليأس التى لا يجوز عرضها فى الأسواق والمعابد اذ هى ليست من الحالات النفسية الثابتة ، بل إنها تقوم بنفس الشخص آونة ثم تحول —

وكانت الطرق الى بعض المدن كثيرا ما تقوم على جوانبها قبور أثرية لتخليد ذكر بعض الناس فلو أن شيئا نقش على حوائط هذه القبور يدل على حزن أهل الميت وأسفهم اذا لدخل المدينــة من يدخلها وفى نفسه من تلك الكلمات أسى وعلى وجهه اكتئاب وتجهم ولكن الفنانين من صناع ونقاشى القبور تجنبوا كل ما يثير فى النفس أحزانها . وذلك أمر يعرفه كل من زار متاحف الآثار الآثينية . فتراهم يمثلون فى المتوفى خير حالاته وأبهجها فيصوّرونه وقد خرج منصورا من حرب ويمثلونه فى محفل رياضى أو جالسا وسط حلقة سعيدة من آله وعشيرته . أجل انه ما كان فى مقدورهم أن يحولوا دون أن يكون فى المنظــر ما يبعث فى النفس شيئا من الشجو الهادئ ولكن لم يكن فى عملهم شىء مما يصدم الشــعور ويدخل الكآبة على النفوس وكانوا فى تمثيلهم للمتوفى يصوّرونه كأنما يشارك الأحياء فى مسرات الحياة وأعمــالها لا كمن حجب عن سعادة الدنيا حجبا وحيل بينه وبينها .

وقد وصف ملتن فى بعض كلامه الباهر شعور السرور العميق الذى فاضت به قلوب الناس فى عهد النهضة العلمية عند ما استنقذوا الانجيل وأصبحت لهم الحرية التامة فى مطالعته والنظر فيه بعد أن كانت الكنيسة تستأثر به دون الناس . وكذلك كان فرح العلماء والفنانين بل لقد كان فرحهم آنق وأزهى باحياء الآداب والفنون الأغريقية التى قضت على روح التشاؤم ومحت فكرة الزهد فى الحياة وهما اللذان سادا فى القرون الوسطى وأوجدا جماعة الرهبان الكرميليين والقسيسين المتسوّلين فكأنما عاد الى الدنيا شبابها بعد هرم وأورق عودها بعد جفاف . على أن هــذه الوثبة الفجائية قــد أدّت الى الاسراف المشين ولكنها بقيت مع ذلك أثرا قائما يمثل خطوة من أعظم خطوات الانسانية فى سبيل التقدّم والرقى .

الفصل الثامن

أما المصباح الثامن فهو المزاملة . ولعلك لا تجد من صفات الفن اليونانى صفة هى أكثر افادة لأهل هـذا العصر من هـذه الصفة فقد امتاز عصرنا بروح الفردية التى جعلت من حق كل فنان بل من واجبه أن يظهر شخصية فى عمله فلا يخرج للناس الا ما كان صورة أصلية لما يقوم فى نفسه من صفات وما تنفرد به من خصائص . وليس من شك فى أنه ما من فنان عظيم يستطيع أن يفعل غير ذلك الى حد ما لأنه عند ما يعمل لا يستطيع أن يكون غير نفسه وهو لا محالة ناظر الى العالم بمنظار هيأه له خلقه ومواهبه ، ولما كان الانسان صورة مصغرة للعالم البشرى أجمع كان من الطبعى أن يوجد فى هذا العالم من يعجب بما امتاز به المصور من عناصر الجودة وقوة الابتكار . وأن يفهم ذلك منه فريق من الناس ممن نشأوا نشأة خاصة أو عاشوا فى طبقة خاصة من الناس أو كانوا أهل بلاد خاصة . غير ان البحث فيما اذا كان يحمد فى الفنان أن يتعمد اظهار شخصيته وابرازها ، وفيما اذا كان يرتفع قدره بأن يخرج للناس صورة تنعكس فيها نفسه لا شأن له بما نحن فيـه من الحديث . فنحن نجد أن أعظم ما يستوقف نظر من يدرس الفن اليونانى هو سيره فى سبيل من غير انقطاع ولا توقف فهو من يوم ان بدأ لم ينكص خطوة واحدة بل سار فى طريقه الى الأمام يذلل عقبة بعد عقبة ويصعد طبقة بعد طبقة حتى اذا ما كان القرن الخامس تشعب فروعا وانقسم مذاهب وسار بعد ذلك كل واحد منها وقد ارتقت وسائله ومهارته العمليـة ولكنها جميعا انحطت روحها

وخبت نار الهامها . وهذا منهج من النشوء والتطور فى الفن لا يختلف فى ثبات سيره عنـه فى الحيوان والنبات . وهو يدل على أن الفن لم يعتمد فى نموه وارتقائه على ظهور عدد من الرجال ذوى الكفايات والعبقرية واحدا بعـد الآخر لا هم لكل منهم الا أن يكشف للناس عن شخصيته ولكنه اعتمد فى ذلك على ظهور عدة مذاهب أثرت فيه أثرها ولم تكن كل منها تترسم خطوات مؤسس لها أو أستاذ لا تخرج عما رسمه ولا تحيد بل كانت تمثل وجها من أوجه ارتقاء الحياة عنـد الشعب اليونانى وكانت المذاهب ما بين ايونيانية ودورانيــة أو أطيقية وارجيقيــة وهو تقسيم يتوافق مع حضارة الأقوام التى يتألف منها الشعب اليونانى . فالفن الايونيانى تمشى مع روح المرح وحب المسرات اللذين اشتهر بهما الساحل الأسيوى والفن الدورانى كان صورة ممثلة للاعتدال والتوازن وضبط النفس وهى الصفات التى عرف بها أهل پلوبونيسس . أما الفن الاطيقى فقد كان متناسبا مع الذوق الراقى المصفى الذى اشتهر به أهل أتينا ثم بعد ذلك جاء وفق النزعة العلمية التى تملكت عقول أهل تلك المدينة التى لم يخلق قبلها ولا بعدها فى البلاد ما هو أشد كلفا منها بالعلوم وشغفا بالمعارف . ومن المحقق أن هذه المذاهب لم يقم كل واحد منها و يزدهر و بينه و بين الآخر حجاب حاجز وفارق فاصل فقد أثرت كل مدينـة فى غيرها من المدائن كما أثر كل فنان فى زملائه من الفنانين ولكن ذلك التأثير كان أقل بكثير مما هو الحال فى هذه الأيام .

فالمذهب الواحد كان عبارة عن نوع قائم بذاته وكان كل فرد من أتباع المذهب أشبه بزملائه منه بمعاصريه من أتباع المذاهب الأخرى . ولذلك كان من السهل علينا اذا نحن فحصنا عملا من

أعمال النحت عند اليونان قبل أن تنشأ المذاهب الاكلكتية (١) أن نعين زمنه نعيينا قريبا من الصواب وأن ننسبه الى مذهب خاص بغير أن يخالجنا شك فى تقديرنا وذلك مع نقص علمنا بتاريخ الفن اليونانى ولكن قلما نستطيع أن نقول ان عملا من الأعمال هو من صنع فنان معين اللهم الا اذا قام التمثال على قاعدة عليها اسم الصانع أو أن يكون قدماء النقاد والمؤرخين قد خلفوا لنا وصفا مفصلا لأثر باق من الآثار الفنية . هذا وان ما أقوله انما أقصد به الأعمال التى ابتكرها اليونانيون . أما ما قد نقله المثالون اليونانيون المتأخرون فى عهد الرومان عن آثار سلفهم ليزينوا به المتاحف الرومانية فان فيه من اختلاط الأساليب وقلة العناية فى العمل ما يجر الى الخطأ حتى ولو كانت من التماثيل التى بقيت على حالها ولم تمسها يد المثال الايطالى الحديث باصلاح ما .

وان السلسلة المتصلة العظيمة من التماثيل والصور البارزة التى تكون فى مجموعها زينة المعابد أمثال معبد (زيوس) (بأولمبيا) و (البارتنون) أو (الموصوليوم) لهى عمل مشترك قام به عدد من المثالين وكانوا ولا شك تحت اشراف مهندس معمارى أو بناء رئيس ولكن أغلب الظن ان الاشراف عليهم كان جد قليل . وانك لتجد فى تلك الأعمال طرقا شتى يربط بينها تشابه عام وقد بلغ من شدة ذلك التشابه ان المشاهد الغير المدقق لا يرى بينها فرقا ولعل الرأى السائد فى انجلترة هو أن فيدياس قد صنع كل أعالى المداخل وأفاريز (البارتنون) على أنك قد ترى بين الصور المتجاورة فرقا واضحا وسط ذلك التشابه العام وهذا ما يدل على أنه قد قام بصناعته

(١) مذاهب فى النحت كانت فى القرنين الأول والثانى قبل الميلاد فى بلاد اليونان .

أيد مختلفة وفى (الأركتيوم) بأثينا لا يزال توجد الى الآن جريدة طويلة بأجور عدد من الصناع قاموا بصنع التماثيل المختلفة فى الأفريز ولم يكن هناك (مقاول) عام ولا صانع مهيمن قام بنفسه على تأجير البنائين مياومة بل أن كل صانع أتم صنع صورة من الصور البارزة كان يأخذ نظير ذلك ستين درهما ولم يكن لصعوبة الصورة أو بساطتها دخل فى الأجرة وانه لمن السهل أن نأتى بجماعة من البنائين المهرة ليقوموا قياما تاما متقنا بانفاذ خطة قد رسم لهم تفصيلها ولم يبق عليهم الا أن ينقلوها نقلا صحيحا — ولا شك لقد كان سهلا على جماعة من المثالين المصريين الذين كانوا ينقلون أشكالهم عن نموذج ثابت مصطلح عليه قد كان سهلا عليهم أن يأتوا بنتيجة متجانسة متشابهة. ولكن لقد كان أكثر من هذا شدة وأعظم صعوبة أن يقوم عدد من الصناع المهرة لهم حرية واسعة فى تفاصيل العمل بصناعة شكل متجانس متشابه . فاذا نحن رأينا الصناع اليونانيين قد أتوا بمثل هذه النتيجة عادة أمكننا أن نعرف مقدار تأثير المذهب الفنى فيهم — ولم يكونوا فى عملهم ينقلون به الطبيعة وحدها فقد كانت أعمالهم من نوع به أثر الطموح الى الكمال ويرمى الى ابراز الفكرة فى شكل مجسم — ومن الواضح انهم كانوا يستعملون آلات واحدة ويتبعون طريقة متشابهة فى صنعتهم وفوق ذلك كانوا يقصدون الى غرض واحد وفكرة واحدة ولا بد أن يكونوا قد ألفوا من مجموعهم ما يصح تسميته بشخصية الجماعة وأن أغلب الظن أن المثالين الشهيرين الكامنيس واجورا كريتس كانا من بين المثالين الذين ازدان بفنهم البارثينون ومن المحقق أن براكيس أحد تلاميذ كلامبس ولعله قريب براكستليز قد عمل فى البارثينون أيضا وبهذه المناسبة نقول

إن الفرق الذى نراه اليوم بين المثال والبناء لم يكن معروفا فى بلاد اليونان فكل بناء من ذوى المواهب والكفايات كان يصبح مثالا معروفا كما أن المثال ما كان يصنع نماذج من الشمع وعجينة الجبس بل كان ينحت تمثاله فى الحجر بنفسه كما كان يفعل ميكلانجلو أو يصبه فى البرنز كما كان يصنع بنفينوتوسيليني وقد وجدت روح المزاملة فى كل عصر من العصور التى زها فيها الفن وأينع وانا لنرى فى فن النحت بوجه خاص أن الصلة بين وضع فكرة التمثال ونحت التمثال نفسه هى من الشدة بحيث يعتبر من فساد الرأى اسناد هذين العملين الى رجلين مختلفين بل الى رجلين من مهنتين مختلفتين ولقد اشتهرت اليونان بأنها بلاد النقابات وأن فيها اسرا امتازت بوفرة فنانيها وأن بها طوائف من العمال تعمل بقلب واحد وروح واحدة ولذلك تخرج أعمالهم على نمط خاص وطراز واحد وانا لنجد لمدرسة النحت اليونانية نظيرا قريب الشبه بها فى تلك الجماعة من الفنانين السابقين على روفائيل الذين عاشوا فى منتصف القرن الغابر وكان قوامها موريس وبرن چونس وروزتى وميليه وكلتز وأصحابهم فقد جعل أفراد هذه الجماعة من الكثلكة الانجليزية التى نشأت فى اكسفورد فى ذلك الوقت فاتحة دينية لحياتهم الفنية وكانت لهم فى الفن مبادئ مشتركة كانت تتضمنها أعمالهم .

ولذلك كانت صورهم — قبل أن تتشعب بهم طرق الفن ومسالكه — تكون نوعا خاصا قائما بذاته ولها من الأهمية فى نظر المؤرخ الذى يدرس الحضارات فوق ما لأية مدرسة من مدارس الفن فى انكلترا .

الفصل التاسع

إذا أردنا أن نعرف الى أى حد أثر الفن اليونانى فى الحضارة الأوربية يجب علينا أن نتتبع تاريخ عودته الى الظهور فى العصور المختلفة فقد كانت رومه أول من دان له من البلاد اذ جلب اليها المنتصرون من قوادها أمثال مرسلس وسيبيو وفلامنينوس وماميوس وغيرهم شيئا كثيرا من التماثيل والصور اليونانية ليمجدوا نصرهم بعد أن سلبوها من المعابد والمدن فى بلاد اليونان وصقلية وآسيا الصغرى وقد حذا الأباطرة الأولون حذو هؤلاء القواد و بز الجميع فى ذلك الأمبراطور نيرون ولذلك كانت المحال العامة فى زمن بلينى العالم الطبيعى المشهور مكتظة بما حشد اليها من تماثيل اليونان المصنوعة من البرونز والرخام وما جلب اليها من بدائع ما رسم الفنانون منهم، ولقد رغب السراة بعد ذلك أمثال هورتنسيوس وشيشرون فى اقتناء هذه التحف يمائون بها بيوتهم الريفية ولما لج الناس فى طلبها وتهافتوا عليها وتعسر عليهم أن يجدوا منها ما يكفى لقضاء بغيتهم استقدموا الى رومة كثيرا من الفنانين اليونانيين وأنشأ هؤلاء مصانع لهم كان لا يزال يتدفق منها على اليونانيين فيض من المصنوعات الفنية وهى التى تملأ اليوم متاحفنا و يمكن أن يقال عنها بوجه الاجمال أنها ليست بذات قيمة فنية عظيمة فهى منقولة عن أعمال الأجيال السابقة نقلا تتفاوت فيه درجات الاتقان والاحسان وذلك لأن سراة الرومانيين لم يكن ذوقهم الفنى بالخالص السليم فان أحدهم كان اذا رأى أن مجموعة فنية قد اكتسبت شهرة عظيمة حرص على أن يجعل فى داره الريفية صورة منها و بخاصة اذا علم أن

أحد الملوك أو احدى المدن قدبذل فى سبيل اقتنائها ثمنا غاليا وكان الفنانون الذين يقدمون على هذا العمل لا يخرجون عن كونهم عمالا بالأجر مقلدين قانعين بذلك راضين لا مطمع لهم فى الفن ولا غاية. على أنه عند ما دعى بعضهم الى انشاء قوس طيطوس وعمود تراجان ووجدوا فى ذلك نوعا جديدا من العمل لم يألفوه كان هذا باعثا لهم على أن يحاولوا أن يأتوا بشىء لم يسبقوا اليه كما أنه كان يحدث أحيانا أن تتقد جذوة الفن المطمورة فى نفوس هؤلاء الصناع فيظهر أثرها فى عمل فنى يفوق فى دقته و جماله سائر أعمالهم . وقد زها الفن فى عهد الامبراطور هدريان نصير الفنون ولكن ما أخرجه الفنانون فى عهده كان فيه من الرقة والرشاقة والجمال أكثر ممـا فيه من الأهمية وقوة الابتكار ولم يكن الشعب الرومانى يقدر ما فى الفن من قوة ساحرة ولم يحفل بحسن التمثال أو قيمته الا القليلون من أهل الثقافة على أن تقدير هؤلاء للحسن منهـا والقبيح لم يكن يخلو من خطأ يدعو الى الخجل .

ثم إنه فى القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح تغلغلت المسيحية فى الدولة الرومانية حتى شملتها ولقد نشأت المسيحية بين اليهود وهم قوم يمقتون كل المقت تمثيل الكائنات الحيـة وتصويرها ، ودرجت تحت ظل التصوف الشرقى اليونانى الذى لا صـلة له بفنى الحفر والتصوير على أنهـا عند ما أخذت بطرف من هذين الفنين سلكت سبيل الرمز وهو ما كان يعمل الفن اليونانى على محاربته ومعارضته . فليس لنا بعد ذلك أن ننتظر تقدما جديدا فى الفن فى عهد المسيحية الأولى بل على النقيض من ذلك يجب أن نتوقع اساءتها الى الفن وزرايتها به . واذا نحن تناولنا بالفحص آثار الفن المسيحى فى القرون الأولى فيما نقش على التوابيت وصور

على الجدران وجدناه صورا منقولة عن آثار الفن الوثنى فى ذلك العصر لا تمتاز عنها بشىء سوى اختلاف الموضوع وما أدخل عليها من التحوير على الطريقة الرمزية التى كانت تمثل بها بعض المناظر العادية .

ولما جاءت المسيحية كادت تقضى على فكرة تمثيل الآلهة فى صورة بشرية كما كان يفعل اليونانيون الذين اقترنت عندهم هذه الفكرة بمذهب تعدد الآلهة وعبادة البطولة . فلقد كان الرسل والقديسون المسيحيون — وهم الذين حلوا مكان آلهة اليونان — بشرا مثل الناس يدوّن التاريخ أعمالهم ولا شأن للميثولوجيا بهم ، ولو أن الحد الفاصل بين التاريخ والميثولوجيا لم يكن اذ ذاك بينا واضحا — ولم يبق من آثار تمثيل القوى الطبيعية فى صور بشرية غير الشىء القليل من الصور التى رسمت على القبور الرومانية تمثل آلهة الأنهار . وكذلك كنت ترى على هذه القبور من الصور ذات الأجنحة شيئا كثيرا ولكنك لا تستطيع أن تجزم ان كانت من آلهة الحب المعروفة باسم كوبيد أو من الملائكة ذوات الأجنحة المعروفة باسم شيروبيم ولم يكن المجال واسعا ليمرح فيه المثال الفنى فيملأ الدنيا صورا تمثل الرومان ذكرا أو أنثى — أما الملائكة فقد تسامح هذا العصر فى تصويرها . ولكنها كانت صورا مأخوذة عن وصف الملائكة عند اليهود . ولم يكن عندهم تقاليد فنية لتمثيلها ولم تتجدد صورة ميخائيل ورفائيل وجبرائيل إلا بعد ذلك . وكانت الظاهرة الثانية من ظواهر الفن اليونانى أعنى التوازن والتناسب قد اندثرت معالمها فى الفن الوثنى فى العهد الانتونتى فكان ما نقش على جدران أقواس النصر وجوانب التوابيت عبارة عن مجموعة من الأشكال يزحم بعضها بعضا من

غير قاعدة ولا ترتيب بل إن ما صور على جدران مدينة پومپي لم ينسق تبعا للنظام المتبع وكان خلوا من كل ترتيب ذلك لأن القانون والنظام كانا قد انزويا وأفسحا الطريق للخيال الحر والآراء الفردية إلا فى الحالات التى تتبع فيها الطرق القديمة وباختفاء التنسيق الفنى اختفى أيضا كل ما كان يبذل من جهد نحو السمو إلى المثل الأعلى بل لم يكن الفنانون يحاولون أن يضعوا صورا أو تماثيل تفوق الأشكال العادية جمالا ونبلا وكانت صورة اتثنوس آخر صورة حاول فيها صاحبها أن يخرج لنا شكلا بلغ فى جماله حد الكمال حتى أنك لترى صورة العذراء وابنها قد رسمت دون أن يبذل فى صنعها أقل مجهود فى إلقاء مسحة من الجمال على من فيها وقد غابت أيضا ظاهرة أخرى من ظواهر الفن أعنى محاكاة الطبيعة فلم يكن الجسم نفسه موضع العناية عند التصوير إذ كانت الأجسام ترسم كاسية بالثياب وكانت هذه الثياب تصور على الوجه الذى جرت به عادة العصر ولم يعن الفنانون أقل عناية بادخال المناظر الطبيعية فى الصور بل هم فى ذلك أكثر اغراقا فى الاهمال من فنانى العصر الهيلنسى والحقيقة أن الانسان يحس أن الفنان لم يكن يستشعر أى لذة فى عمله فهو انما كان يعمد الى تصوير بعض المناظر المأخوذة من العهد القديم والعهد الجديد ولم يزد عمله هذا على أن يكون ضربا من ضروب استعمال الصور لأداء الآراء أو الحوادث المختلفة فان صوره كانت مجرد محاكاة لبعض المجموعات القديمة ولم يكن يقصد بالصورة الا ما تؤديه من المعانى اذ كانت الفكرة الدينية الأخلاقية تغطى على فكرة التصوير لذاته .

وساد المذهب التعليمى وغطى على حب الجمال وفهم الطبيعة وادراك النسب من الأشياء وظلت هذه السيادة يتسع مداها

كلما توغلت أوروبا فى طريقها الى العصور المظلمة وتضاءلت مصابيح الفن اليونانى وأخذ يكسف نورها شيئا فشيئا ولكنها لم تطفأ جملة لأنه لم يخل جيل من طائفة من الفنانين كانوا يرون فى تلك المصابيح نور الحياة وضياءها ولا تزال تعثر فيما خلفته القرون الوسطى من أعمال الحفر على صور تمثل الانسان ولكن معظمها فى أشكال غريبة هزلية . وليس يغرب عن بالنا أنه كان لا يزال قائما بين الناس بعض بدائع الفن اليونانى مثل عامود تراجان وقوس بنڤنتوم وانها وان غفل العامة عن تقديرها فلم يكن يخلو الحال من فنان يستمد منها حبه للجمال وحسن تقديره له .

وما وافى القرن الثالث حتى بدأت العظام البالية تتقارب ويتألف منها جسم الفن استعدادا للبعث وتأهبا للنشور . وهب على أوروبا — أو على الأقل بعض الأجزاء منها كشمال ايطاليا وجنوب ألمانيا وشرق فرنسا — نسيم من الحياة جديد أنعش النفوس وجادها بحيث أحيا الموات وقامت الكاتدرائيات الفخمة وأهابت بالمصور والمثال أن يشحذا عزمهما لتزيينها وتزويقها ونشأ فن للمسيحية عظيم وأورقت غصونه وأزهرت أفنانه فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكان هـذا الفن ولا شك ينطوى على كثير من صفات الفن الصحيح فكانت تتجلى فيه خاصة المزاملة ولم تكن أعمال النحت من عمل الأفراد بل من عمل جماعات يدفعهم الى العمل باعث واحد ويعملون لغاية واحدة بأسلوب واحد وقد بلغ هذا الفن غاية عظمى من حيث رتبة المبانى وتنسيق صور النبات والأزهار واعدادها للقيام بهذا الغرض ولكن أعظم ما يكون النقص فى هـذا الفن ظاهرا هو فى تمثيل الأجسام البشرية عارية أو كاسية إذ لم يتح للفنان من وسائل الدراسة والتعلم فى هذا المقام ما أتيح للفنان اليونانى .

ثم أتى عهد النهضة العلمية بعد تشتت علماء القسطنطينية فى أنحاء أوروبا فتجدد اهتمام الناس بالفلسفة والآداب اليونانية وعاد نفوذ الفن اليونانى فسيطر على عقولهم وقد استكشف فى ذلك العهد بعض أعمال الحفر القديمة أمثال اللاوكون والرجل الغالى الذى يموت وابولو بلفيدير .

وتقدم جماعة من الأغنياء يؤلفون مجموعات من الجواهر والمسكوكات القديمة — وان المطلع على تاريخ بنفونوتوسلينى يستطيع أن يعرف الى أى مدى بعيد بلغ أثر هذه الاستكشافات فى الفن .

فلقد أحس الايطاليون فى القرن الخامس عشر والسادس عشر كأنما خرجوا من الظلمة الى النور وكانت تنتهى غاية الفنان منهم أن يبلغ من الفن ما بلغ اليونان وهذان دوناتلو وميشيل أنجلو قد اتخذا من بقايا البدائع اليونانية نماذج يحتذيان على مثالها ويقيسان قدرتهما بقدر ما يتاح لهما من النجاح فى تقليدها فعادت الى الفن اليونانى بعض خواصه كخاصة التوازن وخاصة التسامى الى المثل الأعلى وخاصة محاكاة الطبيعة وجعل الفنانون يزاحم بعضهم بعضا الى سبيل الأخذ بها والاهتداء بهديها .

هذا وتاريخ احياء فن الحفر اليونانى يمكن تقسيمه الى أربعة عصور : الأول عصر النهضة الايطالية وقد سبق الكلام عليه والثانى بدأ بزيارة ونكلمان لايطاليا سنة ١٧٥٥ عند ما اتخذ جوت ولسنج من تعاليمه مقاييس يعرفان بها قيمة ما أخرجه الفن فى عصرهما وقد كان هذا سببا فى سمو الذوق الفنى فى أوروبا وخلوه من كثير من الشوائب . فان الآمال الطيبة التى فتحتها النهضة فى وجه الفن جاءها برنينى ومعاصروه فقضوا عليها بأسرافهم وجمود

أسلوبهم لجاء وتكلمان فدعا الناس الى البساطة والاعتدال والطموح الى المثل الأعلى ولكن لم يمض غير قليل حتى نسى الناس تعاليمه وحادوا عن سنته فوقع فى الخطأ مثالون مثل ثور والدن وكانوفا أوقعهم فيه تقليدهم لبعض الآثار اليونانية الحقيرة التى يستطيع وتكلمان الحصول على غيرها دون أن يفطنوا الى ما فيها من العيوب فكان عملهم ضائعا فى تقليد أعمى لكل قديم غث ولكل نخم زائف ثم جاء العصر الثالث عند ما جلبت الى لندن آثار بارثنون ورأى النقاد تفوقها العظيم على تلك التماثيل التى لم تكن إلا صورا نقلت عن أصول يونانية فى عهد الرومان أو اقتبس موضوعها منها فى العهد الهيلنسى وعند ما رأى المصور هيدون آثار البارثنون لأول مرة أخذته روعتها وامتلأت عينه بجمالها . ولم يكن كمال هذه الآثار وسموها اللذين أصبحت تضرب بهما الأمثال أعظم ما استوقف نظره وانما الذى راعه منها خلوها من شائبة التكلف خلوا يدعو الى العجب ويثير الدهشة اذا قيست بتلك التقاليد التى جرى عليها معاصروه لا يخرجون عنها ولا يحيدون .

ثم أقبل العصر الرابع عند مانشط الباحثون عن الآثار فى أرض اليونان ونجاحهم فى أتينا وأولمبيا ودلفى فرأى الناس اتساع أفق الفن عند قدماء المثالين اليونانيين وتنوع أعمالهم ووفرة أساليبهم ودقة صنعتهم ولكن هـذه المعلومات الجديدة التى عرفناها عن الآثار اليونانية لم يكن لها من الأثر فى الفن العصرى مثل ما كان لتعاليم ونكلمان وتماثيل البارثنون فى فنون تلك العصور فلم يكن يوجد حتى العام الماضى كتاب يفيض على الناس تاريخ البحث عن الآثار فى دلفى وليس يوجد حتى اليوم كتاب من هذا القبيل

عن آثار أولمبيا والمثالون اليوم يجهلون الكثير من تاريخ فنهم ولذلك يفوتهم أن يروا منه مناهل جديدة ولكن لا شك أن تلك الآثار الجديدة سيصل اليهم أثرها رويدا رويدا فان ما استكشف حديثا من التماثيل أمثال حوذى دلفى وهرميز " ضع براكستيلس " والرأس البرنزى " من بنفنتوم " المعروفة فى اللوفر وديميتر كنيدوس قد أثرت بروعتها الفائقة الفن والفنانين .

هذا وان السواد الأعظم من جمهور المثالين يعجب بالفن اليونانى وبخاصة رودين الذى يصف البدائع اليونانية بأحسن الصفات وان لم يكن هو فى عمله من أنصار القديم "الكلاسيك" ولكن لاريب أن الميل الى اظهار الشخصية الفردية والاغراق فى السعى لاستحداث أشياء جديدة قد غلبت فى الفنانين على اعجابهم بالفن القديم .

الفصل العاشر

في الوقت الحاضر تقف الديانة والتهذيب في وجه طوفان الوحشية الذي يريد أن يغشى العالم من جديد وليس من شأني هنا أن أحدثك عن القوى التي تجد في القضاء على الديانة بيننا ولكن يصح لي أن أختم هذه الفصول بأن أستعرض بعض تلك النزعات التي لا يمكن أن يقينا شرها مثل تذرعنا بالثقافة الاغريقية واذا كنت نجحت في عرض مبادئ الأدب الاغريقي والفن الاغريقي في الصفحات السابقة فان أثرها في الظروف الراهنة سوف يبدو جليا .

ولا بد لي من الالتجاء الى قياس أراه طبيعيا جدا وان كان يرى بعض القراء فيه شيئا من المجازفة . فلقد قام في الماضي مقياسان عظيمان اضبط عواطف الناس حتى لا يجمح بها التعصب وحتى يظل سيرهم في حدود العقل والفطرة السليمة . فأما الدين فمقياسه "العهد الجديد" وأما الفن فمقياسه الأغريق . وكما أن الناس في أوروبا كانوا يرجعون في عصر احياء العلوم الى آداب اليونان وفنونهم ليستمدوا منها وحيهم وليتخذوا منها نماذج لأعمالهم فكذلك كانوا كلهم أو على الأقل القبائل اليونانية منهم يرجعون في عصر الاصلاح الديني الى الأسانيد الأولى للديانة المسيحية ليستعينوا بها على فوضى الكنيسة صاحبة السلطة وابتدأ من منذ ذلك العهد صدى كان من حين الى حين يتردد لتلك النزعة الى الماضي الكلاسيكي سواء أكان ذلك في الدين أو في التهذيب

فأمثال جون وجورج فوسكس من القديسين كانوا يرجعون الى العهد الجديد وكانوا يستعينون بروحانية عهد الحواريين و بساطته على أوضاع الكنيسة ودنيو يتها .

وكذلك كان جيته وليسنج يصرفان أذهان الناس عما يتنافر مع العقل والذوق السليم فيما يحيط بهم الى الجمال الاغريق والبساطة الاغريقية ومهما يكن من أن بعض شيعة وزلى وفوكس قداندفعوا فى تعصبهم الىحد بعيد فلا يزال لهؤلاء القديسين الحديثين فى كل ناحية من نواحى المسيحية أثر فى تجديدها وتهذيبها . كما أن مدارس النقد التى جاءت بعد حين كان لها أثر بالغ فى سبيل تنو يرنا واسعادنا .

ولقد كانت ديانة العهد الجديد تسير جنبا الى جنب مع اليونانية واللاتينية القديمتين فى مدارسنا وكلياتنا منذ زمن قريب جدا فكانت الأولى تدفع ماقد يلحق بديننا من الخرافات والماديات وكانت الثانية فى حرب عوان مع ماورثناه من الوحشية والهمجية عن أسلافنا الذين لم يقدم العهد كثيرا بيننا و بينهم . وأن روح الفوضى فى الدين قد تجعلنا نظن أنه لا يوجد للخير ضابط سماوى ولا يوجد للشر طابع أزلى وأن أمر الأخلاق متروك الى مايتواضع الناس عليه فلكل بيئة ولكل أمة الحق فى عكسها وقلبها اذا وجدت أن ذلك يتفق مع صالحها . وكذلك روح الفوضى اذا تطرقت الى الفن جعلتنا نقول : ان كل ماصنعته يد الطبيعة يتساوى فى الجمال أو القبح وأنه ما من شيء فى الوجود لا يصلح أن يكون له مثيل فى معارضنا ومحالنا العمومية وأنه مادامت الصورة أو التمثال يثير فينا عاطفة من العواطف فليس يهم أن تكون تلك العاطفة عاطفة

بهجة وطموح أو عاطفة نفور وفزع . على أن الفن اذا خلا من فكرة الجمال وهى الغاية التى يرمى اليها فانه لا يلبث أن يكون جثة هامدة طارت عنها روحها . ومن الناس من يرى التسامح فى أن يركب الفن طريقا شاذا غير مألوف مهما تنافر ذلك مع الطبيعة وتنافر على مبادئ الانسانية وبعد عن آداب اللياقة والاحتشام وما أسهل أن يضيع ما ورثناه من الفن منذ خرج الانسان من همجيته الأولى اذا كنا نثق ثقة غير محدودة بقدرة عقلنا ومبلغ حكمتنا .

على أنه يحزننى أن أقف عند هذا الحد من القول فقد يترتب على ذلك أن يظن القراء أنى أحبذ تقليد أعمال الاغريق تقليدا أعمى وهذا ليس من مذهبى فى شىء . فقد قام فى القرن الماضى بعض المثالين ممن غلب عليهم حب القديم فصنعوا تماثيل ساروا فيها على نهج النماذج القديمة كتمثال "الأمل" و"هيب ثور والدن" وبعض تماثيل "دوش" و"شادو" و"ڤينوس الملونة" التى صنعها جبسون ولكن أمثال هذه التماثيل قضى عليها أن تولد وهى ميتة اذ لا يتردد فى واحد منها نفس من أنفاس عصر جديد وليس فيها أدنى محاولة لادخال التعديل التى يجعلها تتفق مع روح التطور الحديث أما تقليد ميكل انجلو للقديم فكان على غير هذا النحو . فانه كان شديد الاعجاب بما وصل الى علمه من أعمال اليونان ولكنه لم يستعن بها على اخراج صور لها سقيمة عقيمة فان ما أخرجه من التماثيل كان فى الدرجة العليا من الابتكار السامى والجمال السامى . ذلك بأنه أشرب روح الفن اليونانى ولم يكن تأثره بمظاهره وسطحياته وحدها ولهذا فانه فاق غيره من الفنانين بأنه كان ينفخ هذه الروح فى بعض الموضوعات المستمدة من الديانة المسيحية .

على أنه من الممكن التوسع فى القياس الذى سبق لى توضيحه فلقد حاول كثير من الزعماء الدينيين فى عصرنا هذا مثل تولستوى وطائفة الكويكرز أن يعودوا الى النص الذى دونه كتاب العهد الجديد فانهم رجعوا الى خطبة الجبل وحاولوا أن يتمسكوا بمـا نصت عليه من نواه وأوامر غير أن النـاس جميعا الا من أعماه التعصب منهم يرون فى مثل هـــذا العمل قضاء على الحكومات المدنية والحضارة الحالية لأن روح الحياة مستمدة من روح تعاليم السيد المسيح لا من نصوصها وحروفها وعلى هذا القياس نرى أن دراسة سطحيات الفن اليونانى لايمكن أن تعود علينا بفائدة ما فى حين أن احياء روحه بين الفنانين فى هذا العصر ممـا يجعل نفوسهم عامرة بوحيه والهامه . وان فى مصابيح الفن اليونانى لنورا يضىء فى كل العصــور فان ما امتاز به من التسامى الى الكمال وما دعا اليــه من مراعاة التوازن والتناسب . وحب كل ما هــو طبيعى صالح . وما اتصف به من البساطة والاعتدال . كل أولئك يقع من الفن فى صميمه فى كل العصور . نعم : نحن لانستطيع أن نعيد نفس الظروف التى فيها الفن الا بقدر ما نستطيع أن نستورد الى انجلترا ذلك الهواء الصافى وتلك الشمس المتوهجة وهاتيك الظلال الحادة التى تمتاز بها بلاد اليونان . ولكنا لايزال فى استطاعتنا أن ننظر الى فلسفة اليونان وشعرها وفنها باعتبارها نماذج قديمة أو أمثلة صالحة لبيان أمتع مافى الطبيعة البشرية من الخواص وابقاها على ممر الأزمان . فاذا نحن طرحناها جانبا ولم نرب أبناءنا عليها فاننا نكون قد قضينا على منبع السرور الخالص ومعين الشعور الصافى الذى كان يستق منــه معظم أهل الثقافة منذ زمن النهضة . ونكون قد أحدثنا فراغا عظيما لن يملأه

الرخاء المادى واحاطة علمنا بأسرار الطبيعة بل ولا ما يتيسر لنا اختراعه من وسائل اللهو والتسلية . واذا نحن اكتفينا بأن نستمد الوحى فى آدابنا وفنوننا الحديثة من الروح اليونانية فاننا نرتكب من الخطأ ماارتكبته الكنيسة الرومانية فى عصورها المظلمة حيث أغلقت فى وجوه الناس سبل الرجوع الى أسانيد الديانة الأولى وحملتهم على الاكتفاء بتلك التفسيرات التى رأى من بيدهم الحكم فى أمر دينهم أن المصلحة فيها . فينبغى لنا أن نحتفظ بحقنا فى العودة الى نماذج الكلاسيكية سواء أكان ذلك فى الدين أم فى الفن . ولقد صدق أرنولد الانجيل وهومر وشكسبير والفن اليونانى هى النجوم التى نهتدى بها اذا اعتكرت من حولنا جوانب الليل .

فن البناء

جمال فن المعمار اليونانى لم ينكره قط أحد وإنا لنعترف بأن وصف البارثنون بأنه "أسمى مجهود للعبقرية فى سبيل الوصول الى الجمال" كان وصفا صادقا ولكن الرجل العادى لا بد أن يسأل نفسه فى بعض الأحايين عن ماهية ذلك الفن من أين أتى ؟ والى أين ذهب ؟ وما الذى جعل الناس يعتقدون فيه الجمال ؟ وكيف تسنى لهذه الأمة الحقيرة اذا قيست بغيرها فى القوة والبطش والمساحة وعدد السكان ، نقول كيف تسنى لها أن تصل الى هذا التفوق المدهش فى الفن ؟ هذه أسئلة لا تسهل الاجابة عليها لا سيما أن الأدلة والمستندات فى هذا الصدد قليلة مبعثرة وليست فى أغلب الأحيان بالقاطعة فهى عبارة عن أطلال بقيت من قليل من المعابد والمبانى ورسالة فنية لكاتب ثرثار غير قديمة فى الدرجة الثالثة بين كتاب القرن الأول قبل الميلاد [١] وقصص رواها بعد هذا التاريخ بقليل جامع لا يمل [٢] ومذكرات أحد سياح القرن الثانى [٣] والموادالتى جمعها طلاب العلم وعلماء الآثار أثناء بحثهم بأناة وصبر. كل هذه الأدلة جمعت ورصت بعضها بجانب البعض حسب فروض علمية جادت بها القرائح النابهة والواقع أن جزءا كبيرا مما كتب عن فن المعمار عند اليونان ان هو إلا فروض .

(١) فتروفيس (Vitruvius)

(٢) بلينى الأكبر (Pliny the Eldr) " التاريخ الطبيعى (٣٦)"

(٣) بوسانياس (Pousanias) Ἑλλάδος Περιήγησις

وهذا الفن المعمارى (وأقصد به فن القرنين السادس والخامس قبل الميلاد) لم يتداول منه القدر الكثير ولكنه بالرغم من ذلك لا يزال احدى الحقائق العظيمة البارزة فى تاريخ فن المعمار فى العالم الغربى ولا يزال فن عصر بركليز بمثابة الينبوع يرد عليه الفنانون .

أما منشأ ذلك الفن وكيفية نموه فأغلبه موضع الحدس والتخمين . ان لدينا أساطير تروى عن مدنيات اندثرت معالمها إذ طغى عليها طوفان هائل لم يخلف وراءه من آثارها شيئا وهناك ظنون تشير بغير وضوح الى أن الجنس البشرى قد نشأ فى آسيا وكل ما نعرفه عن يقين هو أن أقدم المدنيات التى تقوم عليها الى الآن أدلة تاريخية حقيقية هما مدنيتا مصر وكلديا وأن الفن فى هذين القطرين بلغ غاية عظيمة من الاتقان قبل أن يظهر أقـــدم أثر لأى نوع من أنواع الفن فى اليونان بزمن طويل ولا شك فى أنه قد تسرب شىء من الفن بهذين القطرين الى الفن اليونانى بدرجات مختلفة ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر فان عنصرا آخر لعب دوره فكوّن من هذا الفن اليونانى ما يقرب من خلق جديد يختلف فى مظهره ومثله الأعلى عن كل فن تقدمه وعليه طابع من عبقرية جنس شمالى ذى بأس شديد وصفات مميزة مقصورة عليه والواقع أن الفن الشرقى ونظيره الغربى لم يندمجا اندماجا حقيقيا فى أى عصر من العصور فهناك تباين فى النوع بين الحيوية البهيجة السائدة فى الفن اليونانى الخالص وبين الصورة الأسيوية المظلمة وما يبدو عليها من تعطش الى الضخامة والفظاعة وما تنم عنه من خيال مظلم وما تفتقر اليه من دلائل الانسانية وما تنطوى عليه من عدم اكتراث بالفرد .

غير أن هـذا النوع من التفريق لم يظهر الا بعد مرور الأيام وتقدم التاريخ . فالفن اليونانى نسبيا هو تقـدم أتى متأخرا وقد شيد هرم الجيزة الأكبر قبل أن يوضع بحجر واحد فى البناء المسينى بنحو ألفى سنة وربما كان بهو الأعمدة بالكرنك الذى يبلغ ارتفاع أعمدته ستين قدما معاصرا لخزانة أتريويس وبعبارة أخرى أنه فى الوقت الذى كان فيه الفن اليونانى لايكاد يتخطى مرحلة الوحشية كان على الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط فن آخر عجيب قد قام هناك منذ زمن بعيد فمصر وكلديا بلغتا درجة رفيعة فى المدنية قبل أن يسمع شيء عن الدوريين بزمن طويل . وفى عصر من العصور الغابرة تغلغل النفوذ المصرى الى كريت وقبرص وجزائر الأرخبيل وأراضى اليونان وكان واسطة العقد وحلقة الاتصال هم الفينيقيون ذلك الجنس الوثاب المؤلف من تجار مغامرين والذى استوطن الشام ولكن أساطيله كانت تعبر البحر الأبيض باستمرار من الشرق الى الغرب . لم يكن الفينيقيون بالفنانين ولكنهم كانوا تجارا ولما نزلوا بمصر اتصلوا بفن عظيم الرقى ، معالمه أومميزاته الأساسية فوق أفهامهم ولكنه يحتوى على تفاصيل يستطيعون ادراكها بما أوتوا من ذكاء تجارى سريع .

كانوا أينما حلوا فى أسفارهم سواء أكان ذلك فى قبرص أوكريت أو الجزائر الجنوبية لبحر الأرخبيل أو بلاد اليونان نفسها أو جنوب إيطاليا أو صقلية أو قرطاجنـة أو جزائر البليار أو فى أقصى غرب أسبانيا فى كل هذه الرحلات يحتمل أنهم كانوا يحملون معهم للتجارة بعض الحاجيات الصغيرة من المصنوعات المصرية التى قد تكون مدّت سكان تلك الأماكن بارشادات فنية ولو من طرف خفى .

وكانوا اذا حلوا بمكان واتخــذوه موطنا لهم بدأوا يقلدون بقدر ما تسمح به ذاكرتهـم طرق الفن المعمارى المصرى مستعينين بمـا كانوا عليه من علم بالأساليب الفنية وهو وان كان علما قائمـا على التقليد فحسب كان متفوقا على كل ما عرفه سكان تلك البلاد التى حلوا فيهـا . فقد وجد على رؤوس الأعمدة الفينيقية ما يعد بمثابة مقدّمات أولية للولب الأيونى منشـؤها ما بقى فى مخيـلة التجار الفينقيين من ذكريات غير واضحة لمـا شاهدوه بمصر وغيرها وزيادة على ذلك فالفينيقيون الذين كانت لهم مهارة البحارة فى استخدام الحبال والبكرات لم يصـادفوا صعوبة تذكر فى اسـتخدام الحجارة الكبيرة يتناولونها بالقطع والرص فى خطوط تكاد تكون منتظمة من غير ملاط . وتلك كانت ممـيزات البناء الكريتى والميسينى . ولا يصح أنـ يتعجل الانسان فيدخل هـذا العمل فى فن المعمار وهناك مجال كبير للشك فيما اذا كان للفينيقين ميل طبيعى للفنون فالدور الذى لعبوه لم يتعد دور الوسطاء فحسب .

ومع أن الدور الذى لعبـه الفينيقيونـ فى وضع أسس الفن فى اليونان والجزائر كان غامضا فأشـد منه غموضـا ذلك الطريق الآخر الذى تسرب فيه النفوذ الشرقى فأثر فى نمو هذا الفن الذى نحن بصدده . كان يقطن فى شمال الشام وغرب كلديا جنس لم يعرف عنه الا القليل يسـمى بالحيثيين كانت عاصمته قارقميش فى أعالى نهر الفرات فى الشمال الشرقى من انطاكيا ويظهر أن نفوذ الحيثيين وسلطانهم امتد غربا فاخترق آسيا الصغرى الى شواطئ بحر الأرخبيل فيقول الدكتور سايس " فى القرن الثـالث عشر قبل الميلاد: امتد هـذا النفوذ من شواطئ الفرات الى سواحل بحر الأرخبيل فضم بين جوانحه فى وقت واحد الساميين المثقفين فى بلاد الشام

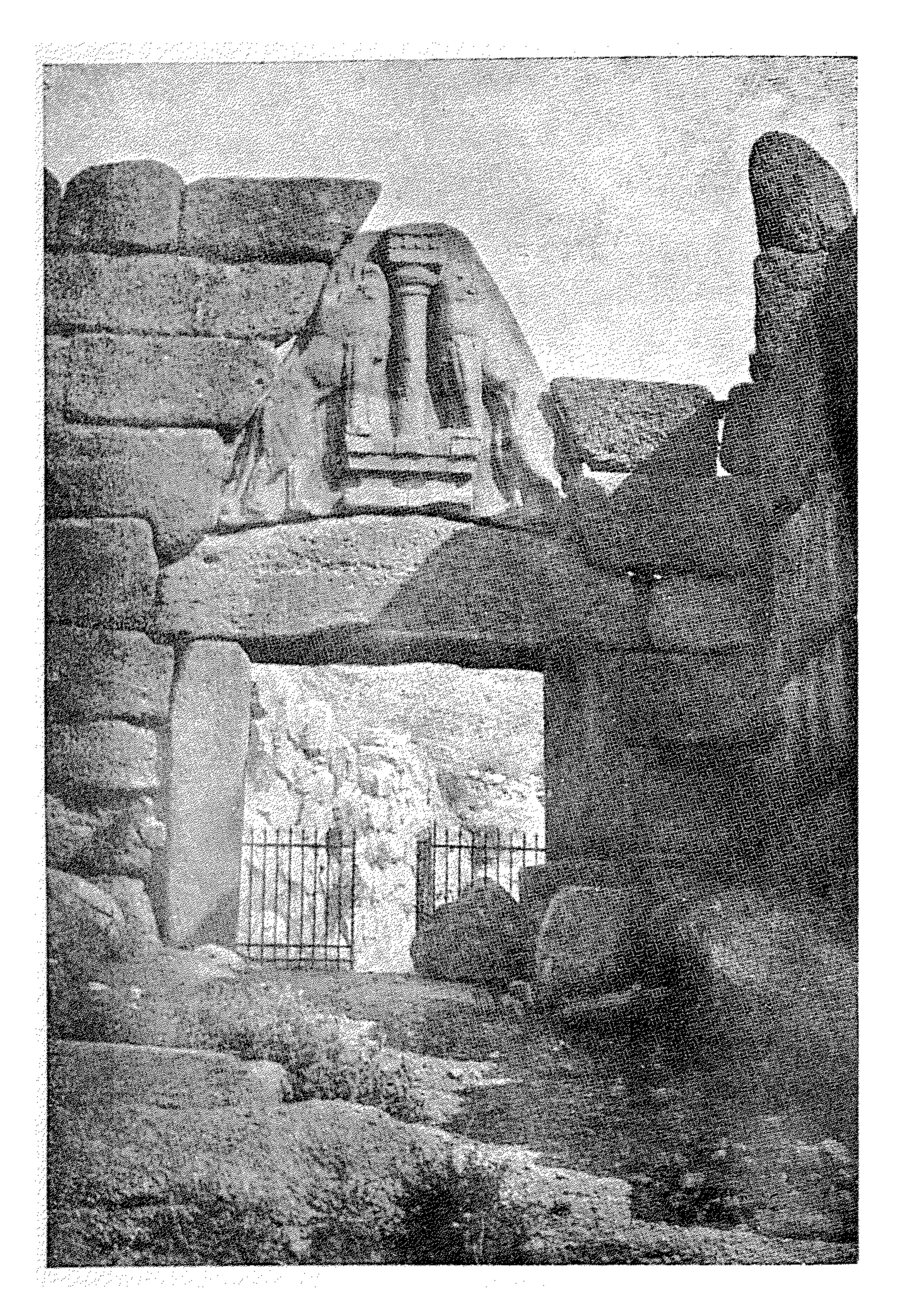
وسكان البحار اليونانية الهمج المتوحشين" بل يقول سايس أيضا :
"ان الحيثيين حملوا مدنية الشرق للقبائل المتوحشة فى أقصى الغرب"
على أن ما تبقى من آثار الفن عند الحيثيين لا يكاد يشهد بذلك
وفى الوقت الذى كان فيه الفن عند هؤلاء الحيثيين فى عنفوانه وأرفع
درجات كان الفن المينوى قد سبقه الى كريت وبلغ غاية رقيه
ثم تخطى عهد الفتوة وبدأ يطأطئ رأسه للفن المسينى والتريتى الذى
حل محله بالتدريج كما رواه المؤرخون الثقاة المعروفون والقليل الباقى
من آثار الفن الحيثى ينحصر فى رسوم أشخاص وحيوانات منحوتة
غائرة فى الصخور التى تصادفها على طول طرق القوافل الطبيعية
التى تجتاز آسيا الصغرى من الشرق الى الغرب واذا أضفنا الى هذه
الأختام والأحجار النفيسة المنقوشة بالحفر تتبين لنا منها جميعا أن
الفن الحيثى اشتق أولا من الفن الكلدانى ثم بعد ذلك من الفن
المصرى ولا شك فى أن هذا الفن الحيثى كان له بعض الأثر فى فن
اليونانيين الأولين الذين استوطنوا الشواطئ الشرقية للبحر اليونانى
وطبع هذا الفن بالطابع الاسيوى الذى لم يفارقه قط مع ما توالى
عليه من نمو وتطور والواقع أن يونان آسيا الصغرى لم يفهموا فى أى
وقت من الأوقات الصفة الموحشة التى كانت المثل الأعلى للفن
الدورى فبالرغم من أن الفن الأيونى اتخذ سبيله غربا الى اليونان
فالفن الدورى لم يتجه سيره الى الشرق قط فقد كان فن جنس شمالى
قوى ولذا لم يتهيأ له مكان بين سكان آسيا الصغرى الناعمين .

الآن يصح أن نتناول بالبحث المبادئ الأولية للفن اليونانى
وقد برهنت استكشافات الأربعين سنة الأخيرة على أنه
يوجد فى أقريطس وقبرص وجنوب اليونان وجزائر الأرخبيل فن
عتيق غامض الأصل ولكنه على جانب عظيم من الأهمية وقد بلغ

فى بعض مناحيه درجة مدهشة من التقدّم قبل أن تظهر أقدم المبادئ لما نسميه عادة فن المعمار اليونانى وذلك الفن العتيق ضعيف الأهمية بالنسبة الى فن المعمار نفسه فالأثر الذى له فى تقدم هذا الفن بعد ذلك — ان كان له حقيقة أثر ما — أثر لا شك صغير . ومع أن المستكشفين المتحمسين يدعون بأنهم يرون فيه بوادر تنم عن دقائق العمارة المنزلية الحديثة فالأدلة التى يوردونها لاثبات ذلك غير مقنعة . إن الحركات العظيمة فى الفنون تكون مدينة دائما للفترات التى سبقتها ولكن الفن المينوى والميسينى لم يكن من ناحية فن المعمار على الأقل البشير الأول الذى أعلن قدوم الفن اليونانى العظيم فى القرنين السادس والخامس بل كأن الكلمة الأخيرة فى مدنية تقوضت . نحن لا نزال بحثنا فى العصور السالفة المتناهية فى القدم من حيث الفن اليونانى وهى العصور التى بين الألفين والألف سنة قبل الميلاد أو الى أبعد من هذا [1] فى العصر المينوى بأقريطش وما كان فيه من فن المعمار الأول ومن تفوق نسبى عظيم فى الحرف وفى عصر مسينى وتيرانو ذلك العصر الذى أخرج للناس "باب الأسد" فى مسينى وكذلك خزانة أتريس ذلك البناء العجيب الذى أصفه بالنصف المتوحش ان سمح لى باستعمال هذا اللفظ . ومن المفيد أن نقف فننظر الى هذه المبانى العتيقة لا لندل على أية

---

(١) قام السير أرثر إفانز بعمل حساب تاريخى يدل على عبقرية للعصر المينوى القديم (٢٨٠٠ — ٢٢٠٠ ق.م) والمينوى المتوسط (٢٢٠٠ — ١٧٠٠ ق.م) والمينوى المتأخر (١٧٠٠ — ١٢٠٠ ق.م) وكانت كل أسانيده تقريبا مأخوذة من فخار (خزف) اكتشف فى تلك الناحية . أما المسألة العامة وهى مسألة علاقة الفن المينوى بالفن الميسينى وعلاقة هذا الفن المسينى العتيق بفن المدنيات القديمة التى سبقته مدنيتى مصر وكالديا فهى مسألة غامضة بعيدة عن التحقيق .



(شـــكل ١) باب الأسد بمسين

علاقة بينها و بين ما شيد بعدها (فمثل هذه العلاقة لا وجود لهـا)
ولكن لنلفت النظر الى أن البنائين المينو يين والمسينيين كانوا يسيرون
دون أن يشعروا بذلك فى طريق لم يكن ليؤدى بهم فى أية حال من
الأحوال الى العمارة التى أساسها "القائم والعتب" أى عمارة القرنين .
السابع والسادس قبل الميـلاد فلربمـا كانت تقودهم الى نوع من
انشاءات القباب ولكنهـا ما كانت لتصل بهـم الى معابد صقلية
الدورية وليس هناك دليل على عبقرية هؤلاء الفاتحين الدوريين
أقوى من أنهم استطاعوا فى بحر ثلاثة قرون أو أربعـة أن يخلقوا
الفن اليونانى مع أنه لم يكن لديهـم سوى ذلك الفن الأولى الذى
لم يكن يبشر بنتائج كهذه نفى تصميم بوابة الأسـد مجموعة غريبة
من مرام غير متناسقة وهى مركبة فى حائط حجارته كبيرة أركانهـا
مربعة فى غير دقة متراصة بغير ملاط صدغان كل منهما حجر واحد
يحملان عتبا ضخما مقوسا عند وسـطه كالكمرات الرابطة المستعملة
فى أسقفا المنشأة فى القرن السادس عشر وعلى ذلك العتب تتراص
الصفوف (أو المـداميك) متطرفة بعضها فوق بعض حتى تتكون
بين أوجهها السفلى المـائلة وبين سطح العتب بجوة مثلثية كبيرة
يبلغ انحدار الجانبين بها (نحو ٦٠°) أدخلت فيها صفيحة متصدرة
منقوشة على حجر واحد تمثل أسدين واقفين على جانبى عمود أثرى
يحمل جزءا صغيرا من رفرف أولى [١] وأن منظر الأسـود فى تلك
الوقفة النـاطقة ودقة الصنع فى نحتها التى تذكر الانسان كثـيرا
بالنقوش الأشورية البارزة وما فيها من تمثيل جليـل لشكل
العضـلات ونشاطها كل ذلك متقدم كثـيرا على فن المعمار الذى

(١) تصوير الأسود على هذه الصورة الناطقة يرجع الى أصل مشرقى وكان عند اليونان اعتقاد وراثى بأن رؤساء القبائل فى مسينا أتوا من ليديا .

مازال همجيا بل لا يكاد يكون من الفن فى شىء وليس هنا ما يلفت النظر الى الطريقة الدورية عند پستم وسليناس بل هناك أشياء كثيرة تعيد الى الذاكرة مبانى الشام المنشأة بالحجـارة الكبيرة والنحت فى الشرق الأقصى .

وأعجب من هذا كله خزانة أتريس لا بمـا تتفوق به من مهارة فى البناء فحسب بل لأن تصميمها موضوع وفق أغراض فى البناء كان قد رغب عنها وتركها خلفاء البنائين المسينيين . استكشفت هـذه الخزانة (أو قبر أغا ممنون) فى تل من التـلال وهى مؤلفة مـن ممر طويل يبلغ طوله نحو ١٢٠ قدما وعرضـه نحو ٢١ قدما له على الجانبـين حيطان ساندة مبنية من حجـارة كبيرة أحادية الكتل وينتهى الممر بمـدخل عظيم يوصـل الى باب . وهذا المدخل يحف به من الجـانبين أعمدة متدققة بحيث يكون أسفلها رفيعا ومزينة بكتل (أو مرائـــ) بكيفية تشبه ما كان عليه الصنع النرمانى فى القرن الحادى عشر وظاهر أنه لم يقصـد بها الا الزينة [١] . وهذا المدخل يصل الى غرفة مستديرة القباء قطرها ٤٨ قدما و ٦ بوصات وارتفاعها ٤٥ قـدما و ٤ بوصات ومن هذه الغرفة يصل الانسان الى حجرة أخرى أصغر منها ومقطع القبة مبنى على منحنى قطع مكافئ مكوّن من صفوف (أومداميك) أفقية يبرز كل منها عن سابقه وهى غير مرتبة ترتيبا شعاعيا بالنسبة لمنحنى القبة وبعبارة أخرى فهى ليست بالقبة أو العـقد الحقيقى وانمـا هى سلسـلة كوابيل متتابعة . أما الوجه الداخلى للقبة فمبطن وكان يغطيه نوع من أنواع الزخرف لا يعرفه أحد فقد

(١) فى المتحف البريطانى الآن أجزاء من هذه الأعمدة

يكون معدنيا أو يكون خزفا مطليا (أو قيشنيا) وربما كان كله من المعدن الذى يحتمل أن يكون الذهب المسينى الشهير .
كانت كل هذه الحجرة مغطاة بكوم من التراب طبقا للعادة القديمة التى تقضى باخفاء قبر رئيس القبيلة ومن المحال أن يعثر فى هذا الأثر الممتع أو فى غرفة أوركمينوس ذات القبة فى بيوتيا على أى أثر لما طرأ على فن المعمار اليونانى بعد ذلك العهد من نمو وتقدم فهو يكاد يكون بعيدا عن الفن الدورى بعد الهرم نفسه عنه سواء فى غايته أو فيما يشف عنه من معان نفسية والواقع أن فن المعمار كان عندئذ لا يزال فى مرحلته الابتدائية وقد قام البرهان مرارا عدة على أن هذا الفن لا يظهر فى سلسلة تتابع الفنون الا متأخرا فقدرة الناس على الرسم سمت قبل قدرتهم على التصميم بزمن طويل فقد كان مثلا بين رجال الكهوف رسامون يثيرون الاعجاب ولكنهم اضطروا لعمل رسومهم على جوانب الكهوف وزهريات الكنوس والكئوس الذهبية التى عثر عليها فى ڤافيو قريبا من سبارطة تدلنا على أنه كان فى عصور المينويين والمسينيين صناع مهرة فى الفخار والمعادن وكذلك قام البرهان على أنهم بنوا منازل للسكنى وزخرفوها على خير ما تسمح لهم به مقدرتهم كما يظهر مثلا فى قصر تيرنز ولكن لم يقم الدليل بعد على أن بنائيهم كانوا مهرة فى التصميم الى الحدّ الذى عنده يصبح البناء من فن المعمار فهذا الفن لم يكن قد تأسس بعد فى اليونان .

ثم جاءت غارات الدوريين بعد ذلك وعندها اختفى الفن الأقريطى والمسينى وقد يكون ما يروى من الأساطير عن ذلك العهد صحيحا فهى تنبئ بأن أهالى الأراضى الرئيسية لما غلبوا على أمرهم وقهرت بلادهم حملوا هذا الفن معهم الى آسيا ومهما كان

من الأمر فالقرون الثلاثة أو الأربعة التى أعقبت الفتح الدورى لا تزال مجهولة لنا تنتظر البحث فعسى أن يملأ لنا الباحثون صحائفها فى المستقبل وكأن هذه الفترة كانت بالنسبة للفن فترة ركود قضاها الجنس الجديد فى ترتيب أموره والاستئناس بفتوحاته ووضع أساس نظاماته وهضم شىء من المدنيات القديمة. وان فى الابقاء على مبان كخزانة اتريس لدليلا على أن الدوريين لم يكونوا مجرد قوم متوحشين يخربون ما وقعت عليه أيديهم بل إن سبارطة نفسها فى أيامها الأولى لم تكن مجرد آلة حربية فالاستكشافات التى عثر عليها بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩٠٩ تشير الى أنها كان لها من القرن التاسع الى السابع قبل الميلاد فن خاص بها تظهر فى أوانيها الفخارية آثار النفوذ الاسيوى. وبعد هذا العهد بقليل أمضت سبارطة معاهدة مع كروسوس ملك ليديا وكان باثيكليس فنان مجنزيا عنــد ذهابه الى أسبرطة موضع تكريم وتمجيد فى ســبارطة . ولم يكن الدوريون بالقوم المحاربين فقط بل يظهر أنه كان لهم نوع من المدنيــة وفيهم مقدرة فنيــة طبيعية قدر أن تظهر بعــد تجارب قرنين أو ثلاثة بمظهرها الفخم الذى ينم عن اتجاهات فنية مبتكرة وفى غاية الوضوح وقد حقق تاريخهم بعد ذلك خرافة رجوع هرقليدى . وما كان يتسنى لجنس مقلد فحسب أن يخرج للناس المعابد الدورية العظيمة على كمالها هذا مأخوذة من شــتات قليل من الفن المصرى والشرقى ومن المبانى الأولية الأقريطية والمسينية .

فن المعمار هو من وجهــة دراستنا هنــا دورى وعناصره بسيطة فانه نشأ وترقى مع تصميم معابدهم واذا استثنينا المسارح كانت هذه المعابد تشــمل الفن الدورى وتجمعــه كله ومن الوقت الذى بدئ فيه تشييد فن المعمار اليونانى الى الوقت الذى بلغ فيه أشدّه أو بعبارة

أخرى من القرن السابع قبل الميلاد الى اتمام البارثنون فى القرن الخامس قبل الميلاد فى كل هذه الفترة كان الدين ومراعاته يسيطران على حياة اليونانى كلها ويكيفانها ولم تكن ديانته كالطلسم المصرى الخبيث بل كانت بوجه عام ديانة اعتقادات فى آلهة كثيرة ديانة صريحة حافلة بالبشر تعتز بحياة وجمال العالم المرئى الذى يعيش فيه هذا اليونانى وكان هـذا الأخير يقنع بالسكنى فى منزل حقير ما دام له سوق للتجارة ومسرح للاحتفالات ومعابد فخمة للآلهة . وزيادة على هذا فمهما سفلت الدركات التى هوى اليها اليونانيون فى زمن القديس بولص فانهم اشتهروا فى زمن بركليس أيام البطولة بعدم التحول عن قصدهم وبالاستمساك بغاياتهم فاحتفظوا بطرقهم العتيقة ولم يخطر ببالهم قط أن يطوحوا بتقاليد آبائهم بل جعلوا همهم أن يصلوا بها الى الكمال وكانت نتيجة ذلك أن سار فن المعمار عندهم فى طريق صيره الاستعمال الطويل مقـدسا ويتلخص الاصطلاح الفنى عنـدهم فى تاريخ الطريقتين الدورية والأيونية [1] .

فالطريقة بنوعها وطبيعتها وأبعادها وترتيبهـا وهى وحيطـان الصومعة التى فى داخل مجموعة الأعمدة تجمع عناصر فن المعمار اليونانى وحروف هجائه إن جاز استخدام تعبير كهذا . وهنا نصل من بادئ الأمر الى صفة غريبة فى العبقرية اليونانية صفة تفرق بينها وبين العبقرية الرومانيـة . من الواضح أن خواص الخشب تختلف عن

(١) يمكن أن أفسر الطريقـة للمبتدئ بأنهـا الترتيب الكامل للعمود الرفرف موضوع فوق التاج مباشرة ثم الأفريز والكرنيش وهى الوضـع النهائى لفكرة القـائم والعتب البسيط . ويتكئ ذلك العتب على رؤوس عمـودين أو أكثر وليس هنـاك من الشك الا قدر قليل فى أن الأصل الحقيق هذه الطريقة هو كونها ترجمة حجرية لتفاصيل موجودة فى منشأة خشبية أولية .

خواص الحجر من حيث كونهما أدوات للعمار فبعض الأشياء يمكن صنعها من أحدهما ويستحيل من الآخر . ولكن اليونانيـين إما أنهم كانوا على جهل بهذه الحقيقة وإما أنهـم تجاهلوها ولم يتعبوا عقولهم ببحثها . وجدوا أن "القائم والعتب" طريقة بسيطة للبنـاء فاختاروها لتكون طريقتهم الدائمة للانشاءات وعند ما تكون الفتحة عريضة جدا زادوا فى سمك القوائم (فأعمـدة پيستم بلغ قطرها ٧ أقدام) وزادوا فى متانة العتب (أو الرفرف) وهذا هو السر فى عظم جمودة الطريقة الدورية فى معبدى صقليه ومجنا جريشيا فاليونانى لم يكن يهتم بالانشاء من حيث الانشاء نفسه لأنه وجد فى "القائم والعتب" طريقة كافية جدا لتحقيق غايته وهى الجمال العالى الذى لا يتغير وقنع بذلك . أما الرومانيون الذين قنعوا بهـذه الطرق البسيطة ردحا من الزمن فقد ضـاق صدرهم بالتقييدات الانشـائية التى يفرضها عليهم "القائم والعتب" ورغبوا فى أن يبنوا شقوقا متسعة عظيمة ويتركوا أرضها خالية من المعـترضات وحصروا تفكيرهم فى ذلك فابتكروا العقـد والقنطرة والقبة وبذلك صاروا أعظم بنائى العالم فبدت لهم الطرق المعمارية مجرد زينات يرثها الأبناء ولم يقدروها حق قـدرها فى أى وقت من الأوقات بل أخطأوا الغرض منهـا واستخدموا أسوأ عناصرهـا وكثيرا ما أساؤا استعمالها بفظاعة . ولكن اليونان اتخذوا سبيلا آخر فانهم تخيروا "القائم والعتب" من بادئ الأمر والتزموه واعتبروه الطريقـة الوحيـدة للانشاءات وركزوا مجهوداتهم فى التحسين المستمر لهذا النوع يحذفون ما لا تدعو له الضرورة ويتوصلون بتوالى الاختيـار الى أكمل تعبير لمـا يقصدون اليه من غايات ولم يكن هذا الغرض نفس الغرض الذى رمى اليه الرومان والمعماريون الحديثون وهو الغرض المـادى النفعى

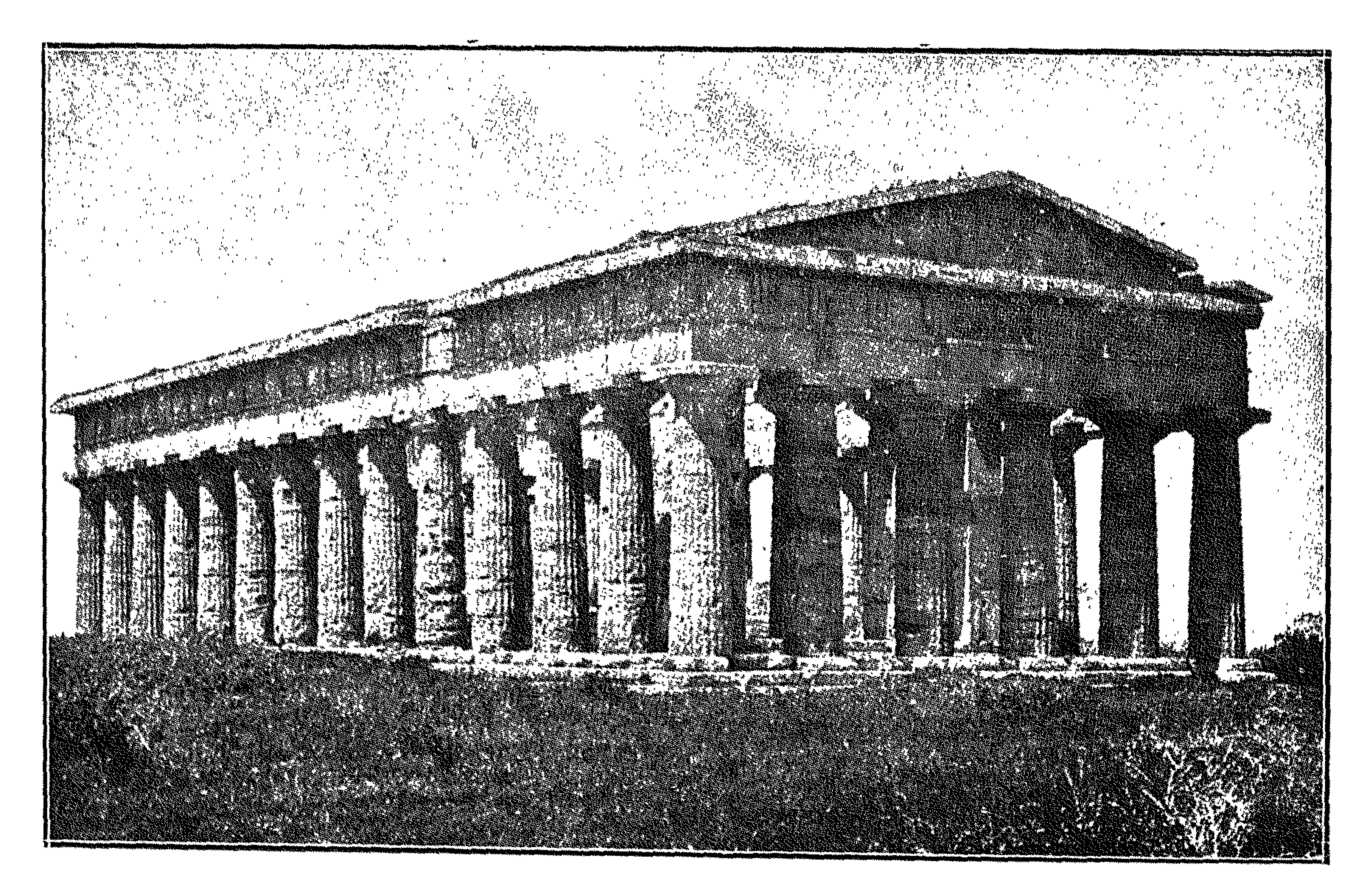
بل كان اليونانيون يرمون الى إثارة الاحساس بالجمال فقط ومناشدة العواطف بواسطة جمال الخطوط والشكل وأحيانا الى حد أقل من السابق بواسطة الألوان . "فنسيج الفن اليونانى يتمزق كل ممزق اذا احتكت به أمة مادية نفعية صرفة مثل روما"[١] .

ومن الطريقتين الدورية والايونية يلوح لى أن الأولى هى أنق تجسيم للروح اليونانيــة الحقيقية سواء فى شكلها الذى لا عيب فيه أو فى صرامة ضبط النفس واطراح ما ليس بالضرورى وكانت هى أيضا الطريقــة المتفوقة فى معابد الأراضى الرئيسية باليونان. كان الاركتيام هو المعبد الأيونى الوحيد الذى كانت له أهمية من الدرجة الأولى فى اليونان وكان استعمال الطريقة الأيونيــة هناك مقصورا على الأمكنة الداخلية والأبنيــة الصغيرة وأما الطريقة الكورنتينية التى كانت أحب الطرق الى الرومان فلم يعــد يعبأ بها اليونانيون الذين استخدموا الطريقة الدورية فى جميع معابدهم العظيمة فى اليونان وصقلية وماجنا جراشيا .

نحن لا ندرى بحق كيف توصل الى هــذه الطريقة وقد أورد بعضهم تخمينات نابهة عن أصلها فى المنشآت الخشبية و بالرغم من أن بعضا من هذه الظنون أقرب الى الحقيقة من غيرها فانا نخرج منها جميعا كما كنا تجاه الخطوات التى وصلت بها الى صورتها الأخيرة قال بعضهم : أن أصل العمود الدورى القائم الخشبى الذى يظهر فى أقدم المعابد كالتى قيل بوجودها فى هورين عند أولمبيا فيكون القائم المربع قد شطفت زواياه فأضحى مثمنا و ينتج تدريجيا من متابعة

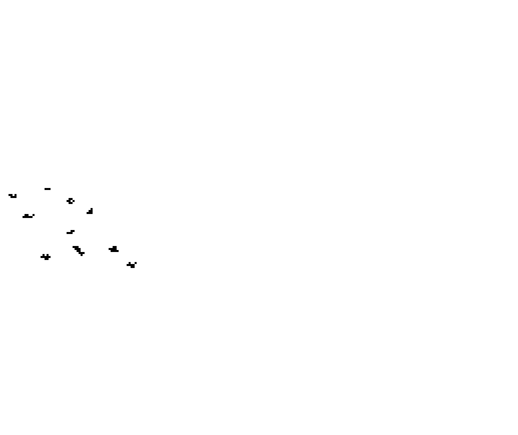
(١) "النحت الهلينستى" لجاى دكنز ص ٨٥ هذا المؤلف الذى كان يكتب بنظر الفنى الثاقب و بعلم البحاثة الدقيق مات من جروحه فى السوم سنة ١٩١٦

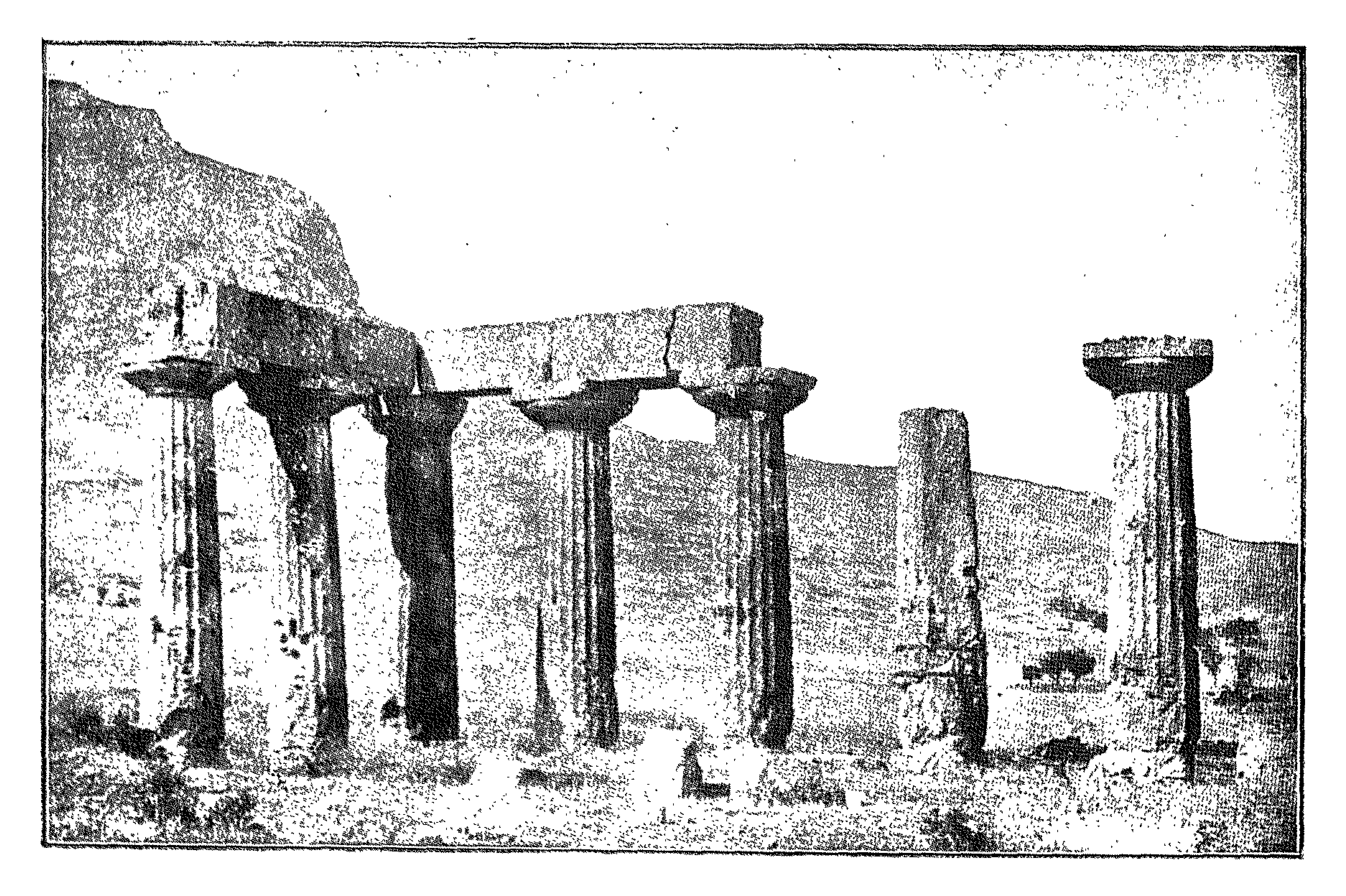
شطف الزوايا شكل مسقطه الأفق شبه دائرة ما زالت تبدو فيـه رؤوس الزوايا المشطوفة ولا يبعد أن مثل هذه العملية تكون باعثا لقوم فنيين لهم دقة الاحساس الذى لليونانيين على أن يزيدوا فى تدقيق تلك الزوايا واظهارها بوضوح باحداث تجويف طفيف بين رؤوسها ومن هذا تتكون تجاويف العمود الدورى وأما كون هذه الأعمدة مأخوذة من الأعمدة المينوية والمسينية فبعيد الاحتمال جدا . وللعمود الدورى جزءان أساسيان هما البدن والتاج (ولم يستخدم اليونانيون لهذه الأعمدة قاعدة ما) وتتطرف الأعمدة المينوية فتدق نحو أسفلها بدلا من أعلاها وهى طريقة ليست على شىء البتة من قواعد البناء وبالرغم من أن فى سراى نوسس وفى تيرانس يظهر أن أعمدة بهذا الشكل استخدمت لحمل أعتاب فان الأعمدة الحجرية التى تحف من الجانبين بمدخل خزائن أيريس فى مسينا أقيمت للزينة وليست لأغراض انشائية . ومن جهة أخرى فان أعمدة جسيمة متطرفة الى أعلى استخدمت بمصر منذ زمن أبعد من ذلك بكثير فمن المحتمل أن فكرة بدن العمود الدورى جاءت من مصر بالرغم من وجود أدلة تنافى ذلك وإن أول عهدنا بها فى اليونان كان فى القرن السابع قبل الميلاد فى العصر الذى فتح فيه ابسامتيك الأول أبواب مصر (٦٧١ — ٦١٧ قبل الميلاد) لليونانيين للتجارة وللاقامة وقد أسس الميليسيون مستعمرة نقراش اليونانية على الجانب الغربى من دلتا النيل (عام ٦٥٠ قبل الميلاد) . وفى أواسط القرن السادس قبل الميلاد أيضا تأسست علاقات تجارية محددة بين نقراش والأراضى الرئيسية اليونانية ويلوح أن إقامة اليونان بدافنه على الشاطئ الشرقى من النيل حدثت فى نفس الوقت الذى تأسست فيه نقراش تقريبا وكان ذلك فى كلتا الحالتين بتصريح



(شـــكل ٢) معبد نبتون فى بستوم







(شـــكل ٣) المعبد الدورى بكورنثة

ملك مصر وتشجيعه . ويرجع تاريخ أقدم المعابد الدورية فى اليونان وصقلية وماجنا جراشيا الى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس وفى تقارب التاريخ ما يرجح أن بدن العمود الدورى أصله من العمود المصرى رآه يونانى فطن وهو يتجر فى مصر . وعند الكلام على تاج العمود تظهر هذه الأدوار معكوسة اذ أننا لا نجد شيئا فى فن المعمار المصرى يشير الى حلية التاج الموجودة أسفل الصفحة المربعة للعمود الدورى بينما العمود المسينى له تاج أولى ربما صح أن ترجع له فكرة التاج الدورى ولكن الشىء الجدير بالملاحظة فيه هو اننا عندما نقع على التاج الدورى فى صقلية واليونان نجده أبعد بمراحل عن أى شىء آخر تقدمه فى اليونان كما نجده مختلفا تمام الاختلاف عن الأعمدة المصرية . وفى معبد كورنثة الدورى (٦٥٠ — ٦٠٠ قبل الميلاد) كانت الأعمدة قد أخذت الشكل النهائى فى البدن المتطرف بتقويسه المحدب قليلا فى شكله وفى المتانة الناشئة عن كبر الجحم (نسبة القطر الى الارتفاع فيه كنسبة ١ الى ٤ ١/٤) وفى منحنى قطع المكافئ العارى الأصم للحلية التى تحت صفحة التاج وقد كان العمود الدورى على شكله هذا (فكرة حديثة) فى فن المعمار . وتدل أعمدة كورنثة وان كانت عتيقة على أن اليونانيين كانوا سائرين على الدرب الموصل الى تلك التحسينات فى الشكل وتلك التصحيحات والتعويضات الضوئية التى تميز فن المعمار اليونانى عن فن أية أمة أخرى فتلاشت المبالغة فى التقويس فى الأعمدة العتيقة ونقص التطرف فيها وتزايد الارتفاع وقل بروز التيجان الى أن وصلنا الى الشكل النهائى الذى لا يحا لى فى الثيزيون (٤٦٥ قبل الميلاد) والبرثنون (٤٥٠ — ٤٣٨ قبل الميلاد) فارتفاع العمود الذى لم يكن فى بيستم ليزيد كثيرا على أربعة أمثال قطره

الحقيق أصبح الآن أكثر من خمسة أمثال القطر والتيجان العظيمة البروز نقصت الآن الى مقاسات معقولة وقل ارتفــاع الخارجة ومال محور العمود قليلا الى الداخل ليشعر بالثبــات والتقويس البسيط (asis) فى الأبدان زاد ظهوره بقدر يكفى ليمنع ظهور الخط المحدد للعمود كأنه مائل الى الداخل وحددت القاعدة الممتدة المقام عليها الأعمدة وارتفعت الخارجة التى تحملها هــذه الأعمدة قليلا تجاه الوسط لتصحيح ظهور الخطوط كأنها منخفضة عنده وزيد فى سمك أعمــدة الزوايا لئلا ترى وهى قائمة وحدها ومحاطة بالنور من كل جانب أقل ضخامة من الأعمدة القائمــة أمام البناء يحبس النور من خلفها . ولم يترك شيء للصدف فكل وجهة للبناء وعلاقة كل جزء منه بالمجموع والمجموع بأجزائه كلها درست بتعمق حتى لا يتطرق الفشل الى كمال الموازنة فيه ولم يصنع شيء يشبه هذا من قبل إلا فى فن المعمار المصرى والشبه فى هذه الحالة كان لحد بسيط .

كان ما صنعه اليونانيون بمثابة وضع قواعد لفن متناسق لكل جزء منه علاقة بالمجموع محدودة ومقدرة فالناظر الى هذه المعابد الدورية حتى وهى مخربة لا يملك إلا أن يستشعر الفكرة الجليلة التى فيهـا والقصـــة المعمارية العظيمة التى فيها كل صغيرة مهما جملت بذاتها خاضعة لوحدة الفكرة الكاملة التى تصورها الصانع وهذه الصفة المعنوية هى التى رفعت الطريقة الدورية اليونانية درجات فوق الفن فى كل العصور التاليــة مهما بلغ مقدار ما فيه من طموح بل رفعتها فوق كل ماصنع فى جميع عصور فن المعمار اللهم إلا شواذ ممتازة بالبهاء .

حاول الكثيرون استكشاف سر ذلك الكمال المدهش فى التناسب ويظهر انه من المؤكد أن اليونانيين كان لهم نظام خاص بهم وأنهم كانوا يشــتغلون وفق نسب محــدودة فى المقــاس والعدد وانهم

استخدموا طرق الرسم البيانى لاستخراج ذلك التناسب كاستعمال المثلثات وما شابه ذلك لايجاد حدود تصميماتهم غير أنه لا يوجد بيان لأحد المعاصرين لهم يصف فيه نظما كهذه وكل التفسيرات التى وردت كانت بطريق الاستنتاج جاء بها النظريون وهم يحللون المبانى المستكشفة أثناء دراستهم لها وليست من بنات أفكار المعماريين تواردت لهم أثناء تصميمهم لمبان جديدة . بعد ذلك الزمن بمدة تتراوح بين أربعمائة عام وخمسمائة جمع فتروفيوس رسالة فى فن المعمار بسط فيها نظرية يونانية للنسب على قاعدة جسم الانسان متبعا فى ذلك تعاليم (الحركة الفكرية بالاسكندرية). كان فتروفيوس مبهما كأن الأمر كان ملتبسا عليه لا يدرى عن يقين اذا كان الواجب أن تكون نسب الأجزاء فى تصميم ما مرتبطة بالمجموع ارتباطا يناظر ارتباط أعضاء الجسم البشرى بالجسم كله كمجموعة واحدة أو أن الواجب يقضى أن تؤخذ نسب الطريقة من النسب الحقيقية الموجودة فى جسم الانسان. وهو يدخل التعقيد الى موقفنا بالاشارة الى " الأعداد الكاملة " عند اليونانيين ولكنه لم يكن هنا أيضا على يقين فيما اذا كان العدد الكامل هو العشرة أو الستة. وبعد ذلك نصب نحا عن غير قصد لطلاب عهد النهضة وفنانيه باشارته الى جسم الانسان باعتباره قانون النسب. بعد ذلك كان يمسك عن الكلام فى هذا الموضوع ويستطرد الى تقسيم عام للمعابد حسب قواعد دقيقة لمكان وضع الأعمدة ولمقاساتها .

تلك المسائل التى كونت أس الرسائل التى ألفت فى فن المعمار القديم منذ ذلك الحين . ويجب أن نذكر مجهودات فتروفيوس بالحمد لأن رسالته كانت مع ما يوجه اليها من نقد هى للرسالة الفنية

الوحيدة التى تركها لنا القدماء فى هذا الموضوع ولكنه طبق على المعابد اليونانيــة البحتة نظاما لم يخلقه النقاد والنظريون الا بعدها بقرون . كان أغلب تفكير فتروفيوس فى روايات الرومان عن فن المعمار اليونانى وكان اهتمامه بالقواعد والتعاليم الفنية التى تكتب ليستعملها المهندسون المعماريون أكثر من اهتمامه بالجمال المطلق الذى كان وحده موضع عناية اليونانيين واهتمامهم وما من تقسيم مهما بذل فى وضعه من جهد بموصل الى أسرار فن المعمار اليونانى الخفية فجماله أخفى وأعمق من أن يصاغ فى قواعد .

ظلت الطريقة الدورية فى ذروة السيطرة طول الفترة العظيمة من القرن السادس الى آخر الخامس قبل الميلاد وسقطت بسقوط الغايات السامية الأثينية ثم ظهرت قوى أخرى لم تتأثربها هــذه الطريقــة ثم بدأ نقاد اليونان بعــد ذلك أو يتلمسون فيها العيوب لوجود بعض موازنات غير متناسبة [١] ولكن تلك الطريقة وهى الرمز الحقيق لسلالة هرقل كانت من أعظم الاضافات الى فن المعمار وأكبرها أثرا وظلت مفتاحا الفن اليونانى فى أبهى عصوره . أتى بعد ذلك حين اغتصبت فيه الطريقة الأيونية هذا المكان من الطريقة الدورية ولما دار الفلك وتغلبت روما وظهر نفوذها فى العــالم الغربى هوت هذه الطريقة الأيونية من سماء كبريائها وطأطأت

(١) فتروفيوس الجزء الثالث . كانت الصعوبة فى أن حلية الافريز الطولية لو وضعت فى زاوية البناء (كما كان يفعل اليونان) ووضعت الحلية التى تليهـا على محور العمود فالزخرف الذى بين هاتين الحليتين الأوليين يكون أكبر من الذى بين الحليات التى على محاور الأعمــدة الأخرى . وقد حل اليونان هــذه الصعوبة بتقليل اتساع المسافة التى بين كل عمود والذى يليه ولكن النقاد بعدهم لم يرتاحوا لهذه الطريقة وحلوا المسألة بنقل الحلية الأخيرة من الزاوية ووضعها فوق محور العمود الأخير .

رأسها الى الطريقة الكرنثينية الفنية المترفة التى تنم عن قليل من الانحطاط الخلق والتى كانت فى الحقيقة سجلا للانخفاض الذى أعقب سقوط أثينا فى مستوى حاسة الجمال ووحدة مقياسه .

وفى هـذه الآونة كانت الطريقة الأيونية فى الناحية الأخرى من شـاطئ الأرخبيل آخذة فى الوصول الى شكلها الكامل بتأثير عملية تفكير منتظم متشابه لتلك تجرى على نظام مستمر .

كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا الصغرى قديمة جدا وتعزى الأساطير أصل نشوء يونانييها الى سكان اليونان قبلهم الذين طردهم الدوريون . وفى القرن السادس قبل الميلاد كانت هذه المستعمرات قد استقر بهـا المقام على شواطئ آسيا الصغرى الغربية والجنوبية الغربية وأنشأ أهلها مصطلحاتهم المعمارية الخاصة بالطريقة الأيونية بعمودها الأدق من الأعمدة الدورية وقاعدته المصبوبة فى قالب وتاجه الخاص الغريب وعدم ملاءمته للحجارة أو الرخام من الوجهة الانشائية لكنه بالرغم من ذلك من حيث التخطيط والتمثيل أميل الى الجمـال الرائع الذى يتجلى فى أعمـدة ارختيون بأثينا وهناك أمران يتصلان بمنشأ هذا التاج يترجح الجزم بهما الأول أنه مأخوذ من الرؤوس الخشبية الأفقية المثبتة على القوائم لتقلل من حمل الأعتاب الخشبية الأصلية والثانى أن أول منبه لأذهان اليونانيين الأيونيين الى اللولب جاء من الشرق .

ففى أعمال الفينيقيين ما يشير الى اللولب ولو أنه ليس بالدقيق أو المتقن ويظهر مثل ذلك فى رسم بارز حيثى فى بوغاز كيوى فى وسط آسيا الصغرى فالأصل فى كلتا الحالتين شرقى وهنا يظهر الباعث الآخر فى فن العمارة اليونانى وهو شرقى أو على كل حال

أجنبي واذا قورن بالدورى ظهر غريبا عن العبقرية اليونانية الصحيحة ولكن هؤلاء القوم المدهشين أكسبوه شكلا بعيدا عن أصله الهمجى بعـد تيجان الأعمدة الدورية للبارثنون عن تيجان الأعمدة المسينية ولما اقترب اليونان من جانبي بحر الأرخبيل على أثر انهزام الفرس عبرت الطريقة الأيونية البحر وتبوأت فى معابد اليونان مكانا رفيعا ولو أنها لم تزل (الا فى أحوال نادرة استثنائية) خاضعة للطريقة الدورية . وفى مستعمرات آسيا الصغرى كان تفوق الطريقة الأيونية معترفا به من زمن بعيـد والمعبد الأيونى الحيثى فى صامس الذى يبلغ طوله ٣٦٨ قدم وعرضه ١٧٨ معتبر أنه مبنى فى أواخر القرن السادس أو أوائل الخامس قبل الميلاد وكان هو أسبق المعابد دلالة على معابد القرن الرابع العظيمة الأيونية التى بنيت فى الوقت الذى تغيرت فيـه اتجاهات فن المعار وبدأ الفن الحيثى حياته التى كانت مملوءة بالمغامرة .

جعل اليونان هاتين الطريقتين بمثابة الألفاظ والمصطلحات للتعبير وبهما شيدوا فن المعار الذى فى معابدهم وكانت خططهم أبسط ما يمكن فالنوع الأولى كان عبارة عن حجرة بسيطة أو خلوه بمدخل مكشوف معرض للهواء الا حيث أقيم عمودان بين نهايتى الحائطين الجانبيين اللذين بآخرهما كتفان يعرفان (بالانتيا) [1] . وكانت الخطوة الثانيـة تقديم مجموعة الأعمـدة الى الأمام [2] . وفى الثالثة تكرر وضع العمود فى الطرف الخلفى من البنـاء [3] وفى الرابعة امتدت مجموعة الأعمدة على الجانبين [4] . وفى الخامسة

(١) فترفيوس يسمى هذا (ايدس فى أنتس) .
(٢) بروستيل (مجموعة الأعمدة الأمامية) .
(٣) مفيپروستيل (« « فى الطرفين) .
(٤) بريپترال (« « الفردية حول البناء كله) .

تضاعفت المجموعة على الأوجه الأربعة[1] . وفى الخطوة السادسة استبقيت صفوف الأعمدة الخارجية وحذفت الصفوف الداخلية فى الجوانب فتكون بذلك ممر فسيح يحيط بالبناء الأصلى فى كل ناحية [2] . وقد أضاف فتروفيوس فرقا أخرى حسب توزيع الأعمدة تجدها فى جميع الكتب المتداولة فى فن المعمار القديم . وقد بقيت هذه الأنواع ثابتة فى معابد اليونان والرومان مع اختلافات طفيفة فى التفاصيل وأهم التغييرات حدثت فى توسيع المعبد نفسه بالاقتطاع مما أحاط به من مجموعة الأعمدة وفى المعابد العتيقة كالتى بيلينوس فى صقلية (فى القرن السادس قبل الميلاد) تشغل مساحة المدخل ومجموعة الأعمدة نحو ثلاثة أرباع المكان كله . وفى معبد هيغسيوس (ثيزيون) بأثينا (فى القرن الخامس قبل الميلاد) كانت تشغل الصومعة أكثر بقليل من نصف المساحة الكلية وفى معبد البرثنون الذى بنى بعد ذلك بعشرين عام زاد اتساع الصومعة عن ذى قبل وكانت معظم هذه المعابد مغطاة وقد ذكر فتروفيوس معابد هبترا التى كانت صوامعها مكشوفة للسماء ومن المحتمل أن بعضا — من الكبير منها على الأقل — كان مكشوفا للسماء لحد ما ولكن كيفية ترتيب الفتحات أمر يكاد يكون تخمينا بحتا . والسقف الذى استعمل كان ذا ميل طفيف فهو بنسبة جزء واحد فى الارتفاع الى أربعة أمثاله فى القاعدة وبعد ذلك كانت أكثر انسطاحا وهذا أملى عليهم مقدار ميل المثلث العلوى وكان هذا السقف يغطى جميع البناء أى الصومعة ومجموعة الأعمدة على جانبيها ولما كان

(١) ديبترال (مجموعة الأعمدة مزدوجة حول البناء كله) .
(٢) بسودوديبترال (« الصف الداخلى من الأعمدة محذوف) .

اليونانيون يجهلون قواعد الجملون المثلثى المؤلف من كمرات فى حالتى الضغط والشد حاروا فى معرفة الطريقة التى بها يحملون أسقفهم من غير أن يدفعوا بحيطانهم الى الخارج ومن هنا نشأت هذه الصلابة العظيمة لمبانيهم وطريقتهم القبيحة نوعا ما التى اتبعوها فى وضع مجموعة أعمدة داخل المعابد وكأنها كانت تظهر الطريقة الوحيدة التى خطرت ببالهم لحمل السقف ويجب ألا يغيب عن بال من يفكر فى المعمار اليونانى أن اليونانيين لم يكونوا منشئين بالمعنى الذى كان عليه الرومان فانهم كانوا يحسنون البناء وتم أفضل مبانيهم عن مهارة تفوق الوصف وما كانوا ليستطيعوا أن يعملوا المنحنيات الدقيقة فى الأعمدة وفى الأجزاء الأخرى لمبانيهم ان لم يكونوا على جانب غير عادى من المهارة فى قطع الأحجار وصفها . ولكن الانشاء بمعنى ابتكار طرق جديدة تماشى مع ما يجد من حالات صعبة لم يصادف هوى فى نفوسهم ولا مفر من أن يظن الانسان أنهم كانوا أكثر نجاحا فى صنع الجزء الخارجى لمبانيهم منهم فى صنع الجزء الداخلى لها وكأنه من الواضح أنهم قصروا معظم اهتمامهم على الواجهات الخارجية . ولم يعرف بحق كيف كانوا يضيئون معابدهم وان يكن بالطبع قد عرضت أراء كثيرة متنوعة عن اضاءتها بالمناور العلوية ومن المحتمل أنها كانت فى بعض الأحوال تنار من المدخل العمومى فقط ومن المؤكد أن اليونانى لم يكن فى حاجة الى فيض من النور داخل معبده كالذى نحسس نحن بضرورته فى أجواء بلادنا الشمالية فانه من جهة كان يتمتع بنور على جانب عظيم من السطوع والنفاذ حتى أن الضوء المنعكس داخل مجموعة الأعمدة على أعمدته الخارجية كان كافيا لأن يريه الأفاريز والحليات الأخرى ولم يتردد فى استعمال ألوان بسيطة زاهية

ليعظم أثرها وتزيد هـذا الأثر وضوحا وتفسيرا أنى وجد لذلك ضرورة ومن جهة أخرى نشأت اعتبارات داخل المعبد نفسه فقد كان المرغوب فيـه جوا مضيئا الى حد ما وليس نورا ساطعا وربما كانت الظلال العميقة لمجموعة الأعمدة الداخلية تساعد على احداث ذلك الأثر المطلوب فتزيد فى التعمية الرهيبة التى تحيط بتمثال الاله .

وهذا أيضا قد يكون تفسير ما يتراءى بلا شك للمهندس المعمارى كأنه شـذوذ فى التصميم وهو ما اعتاده اليونان من وضع تماثيل عظيمة الحجم داخل معابدهم فاليونانى كان رجلا متدينا على مذهبه الخاص فكان يبذل قصارى جهده فى تمثيل عظمة إلهه فى معبده الى حد أنه كان مستعدا فى سبيل تحقيق هذا الغرض اذا استدعى الحال للتضحية بقواعد الفن ولعـدم الاكتراث بالنسب داخل المعبد وبالتوافق النظمى التناسق فى تصميمه كل ذلك بادخاله مثل هذه التماثيل الهائلة فى المعابد. العين تحكم على الأمور بمقارنتها بما تعرف وأسهل طريقة للحصول على فكرة عامة عن حجم أحد المبانى أو الآثار تكون بمقارنته بالحجم الطبيعى لجسم الانسان وقد أشار فتروفيوس بطريقته المشوشة الى أن جسم الانسان هو قانون التصميم المعمارى وأساس مقاييسه ولكن انى للانسان أن يعرف مقياس الرسم فى بناء يحوى تمثالا لا يقل حجمه عن سـتة أمثال حجم الرجل العادى يمتد من أرض البناء الى سقفه . فتمثال زيوس فى ألمبيا الذى صنعه فيداس من الذهب والعاج مفروض أنه كان على ارتفاع ٣٥ قدما وانه كان يصل الى السقف متخطيا صفى الأعمدة والرواق فوق طريق الصومعة وزيادة على ذلك فانه كان يمثل هذه الآلة جالسا على عرشه فلم يعد فى الامكان أن يكون

متناسبا مع مقياس رسم البناء من الوجهة الفنية المعمارية بل أن معبد زيوس الهـائل بمـا فيه من أعمدة خارجية بلغ ارتفاعها ٦١ قدما و ٩ بوصات وتسع القناة من قنواتها من فرط عظمها رجلا يقف داخلها . هذا المعبد نفسه لم يكن ليتحمل تماثيل مبنية بمقاييس كبيرة كهذه . وهـذه المفارقات الشديدة فى المقاييس خرقت قاعدة التوازن أو التماثل التي تضمنت العلاقة بين الجزء والكل بدقة والتى حافظ عليهما الفنانون اليونانيون فى المواطن الأخرى بعناية ودقة لا مزيد عليهما ولا يمكن أن يكون الفنانون اليونانيون أخطأوا فى مسألة كهذه مع ما وهب لهم الله من حاسة كاملة لتقدير النسب والنتيجة التى يستنتجها الانسان من هذا التصرف هو أن ديانتهم كانت مقدسة يخضع لهـا كل شيء فى كل ما له مساس بها وحقا ان الانسان ليستطع أن يتصور الأثر الهـائل الذى يحدثه التمثال فى النفس فى حين تقع العين عليه فتراه معتما لقلة الضوء فى الصومعة وتحس أنه يملأ المعبد كله بحضرته ومثل هـذا الشذوذ فى المقاييس حدث فى الأكروبولس بأثينا حيث انقص تمثال أثينى بروماخس الهـائل من جمال كرياثيدس الاركتيوم الى حد العدم .

ويحاول المسيو شوازى محاولة تنم عن شهامة أن يبرهن على أن هذا الافتقار الى التناسب فى المقاييس وفى تجديد أمكنة المعابد كان عمدا مقدرا والحقيقة أن القاعدة العامة التى يظهر أنها روعيت فى زمن بركليس هى أن المعابد الجديدة يجب أن تبنى دائمـا على أنقاض المعابد القديمة [1] ولكن خطوط المحاور أهملت حتى أن

---

(١) يستثنى من ذلك معبد الاركتيام .

الكتل المختلفة للبروبيل لم تكن متزنة بعضها مع بعض مع أنه كان بلا شك بناء جميلا ولم تكن الأكروبوليس إلا مجموعة مبان غير متناسقة وكانت الآثار المختلفة فى تمنوس العظيم بدلفى مبعثرة حيثما اتفق [1] أما الطريق المقدّس فكان متعرجا . كحرف الهجاء الغربى S . ولم يلاحظ فى سيره الا شيء واحد وهو إزالة الكنوز والمقامات المقدسة التى كانت مبعثرة على ما يظهر داخل الفناء بغير اكتراث بعضهم ببعض بكيفية لا تختلف عن الوحشية الا قليلا وهى بمثابة رمز قريب من الحقيقة لما كان عليه التنافس المهلك بين الولايات اليونانية الصغيرة .

وكان فى دلفى أيضا تمثال هائل لابولو بتالكاس قيل أن ارتفاعه بلغ ١٧ مترا فلا بد انه كان بعيدا عن التناسب بعدا شنيعا والحقيقة أن المعماريين اليونانيين فى القرن الخامس لم يكونوا قد وصلوا بعد الى تصور فكرة المدينة بوجه عام نعم كانت لهم عين تستدعى الأعجاب فى انتخاب البقع نفسها كما كان البارثنون نفسه ومعبد الهيرا لاتينيا فى أجريجنتم الذى وضعوه فى مكان أعلى من سطح البحر بكثير ولكنه ليس من التاريخ فى شيء أن ينسب اليهم حتى الى الذين بنوا البارثينون والبروبيلى منهم معرفة ومرام فنية لم يفكر البشر فيها الا بعد ذلك بمائة سنة بل ان المعماريين اليونانيين والنحاتين فى القرن الخامس قبل الميلاد لم يكونوا محيطين بكل شيء ولكن إذا نقدناهم فى حدودهم هذه حكمنا بأن هؤلاء الفنانين

(١) أنظر دلفى للدكتور فردريك بونسن ص ٥٢ (يرى بعضهم أن الطريق المعوج كان موجودا قبل أن يبنى ذلك النظام وأن سبب تعرجه اختلاف انحدار جوانب التل . ومع ذلك لم تظهر أية محاولة يقصد منها تصحيح هذا أو بحثه كعنصر من عناصر التصميم) .

فى عصر بركليز كانوا لا يجارون فى تمام المامهم بما نصبوا أنفسهم للقيام به وأن عدمرهم كان العصر الذهبى لفن المعمار فهم حددوا فى جميع الأوقات عناصر أساسية للفن وأقاموا مستوى للتحصيل فى شكل واضح نقى لم يستطع الوصول اليه أى فن معمارى بعدهم .

طويت بسقوط أثينا صحائف هذا الفصل الباهر ولكن هذا لم يكن بأى حال من الأحوال آخر فن المعمار اليونانى والعصر الفضى الذى تبع ذلك بما فيه من فن هلينستى كان ممتعا لدرجة عظيمة وبنهوض المملكة المقدونية انتقلت المرحلة التاريخية من الأراضى الرئيسية الى المستعمرات الأيونية على شاطئ آسيا الصغرى وأضحت المدن التى مثل إفسس وملتس على جانب عظيم من الرخاء والسعادة فموسولس هاليكارناسوس واتاليد البرجامون كان لها من الثروة مالم يكن ليحلم بها يونانيو مراثنون .

فحكومة المدينة التى كانت تحارب باستيئاس فى سبيل وجودها مدفوعة بدافع الغايات السامية الوطنية والدينية أصبحت أثرا بعد عين فهؤلاء اليونان الأيونيون قنعـوا أتم القناعة بالاستمتاع بالنعيم والرخاء الذى يصحب المدنية المتوطنة دون أن يضطروا للمحاربة من أجلها ولا بد أن الجو الذى وجدوا فيه كان مخالفا لجو الحياة المجهدة عند يونانيي القرن الخامس وزيادة على ذلك فاليونانى الايرنى تأثر ولو دون أن يشعر بالروح الأسيوية فكان بطبيعة مزاجه عاجزا عن الاحتفاظ بالمستوى الفكرى لفن العمارة اليونانى بالأراضى الرئيسية ومن ثم يظهر الفرق فى جميع اتجاهات الفن ولعله أبين فى النحت منه فى المعمار .

أما تاريخ فن المعمار الهلنستى فلا يزال ينتظر التدوين وقدوصفه البعض بالانحطاط ولا شك فى أنه مسئول عن اخراج بعض أشياء

فنية فى منتهى الحقارة ولكن لا ننسى أنه اخرج لنا بجانب هـــذه الفكتورى فى ساموتريس وهى من أبهى ماصنع فى فن النحت كما أنه استحدث فى فن المعمار بعض المدهشات ولا يجمل أن يقاس بمقاييس الفن التى سبقته وقد فك اليــونانى الايونى بعض القيود وأفلت من العادات المتوارثة فى الأراضى الرئيسية تلك العادات التى كانت دائما غريبة عن غرائزه الطبيعية فان اهتمامه بالامور الدينية البعيدة عن الشخصيات كان أقل من اهتمامه باظهار شخصيتــه فلم يفقه الوطنيه العـالية والغايات الســامية للجمال المطلق التى نفخت فى روح بركليس وفنانيه فى اكروبوليس والواقع أن فى كثير من أعمال هذا اليونانى ما يسبب شعورا حديثا غريبا نمـا واشتد ظهره شيئا فشيئا بازدياد نفوذ روما عليه فروح الشخصية وروح الحقيقة وروح التجديد والروح التجارية التى تميز الفن الحديث كل هــذه بدأت فى الظهور فى أعمال الفنيين الهلنستيين فى أيونيا ورودس والاسكندرية وأتينا نفسها فى العصر الرومانى وقد ظهر فى الفن الهلنستى آثار ماطرأ على المدنية من تعقــد فمع أنه كان أبهج وأزهى من الفن الدورى فى القرن الرابع كان أيضا أملأ بالمهارة فى معالجة مسـائل التخطيط والتصميم المعقــدة . لم يحفل أحد بالبســاطة القديمــة فى الوقت الذى فاضت فيه ثروة آسيا فى خزائن الولايات الأيونية و يظهر الدليل على هذا الرخاء المالى فى معابدهم الفخمة مثل معبد ارتميس الثالث فى أفسس وفيه يبلغ طول مجموعة الأعمدة ٣٤٢ قدما و ٦ بوصات وعرضها ١٦٣ قدما و ٩ بوصات أو معبد أبولود ريديمياوس الفسيح فى ملتس ١٦٥ × ٣٦٠ قدما من مبدأ مجموعة الأعمدة الى نهايتها . أو الأثر المدهش وهو موسولس كاريا فى هلكار ناسس أو مذبح برجمون العظيم والقطع الباقية لأعمدة معبد أرتميس

الموجودة فى المتحف الانجليزى الآن تدل على حجمه كما أنها تعطى المفكر أول اشارة الى السقوط الذى حل بالفن والمدنيه بعد ذلك بقرون فيونان العصور العظيمة ابتعدوا عن الزخرفة فى انشاء مبانيهم وما كان ليخطر ببالهم قط أن يتناولوا خطوط أعمدتهم بطريقـــة تتعارض مع الغرض منها ولكن المعماريين اليونانيين الأفيسيين لم يقصروا على وضع أعمدتهم على قواعد عالية (تجعـل منظرها أقل بكثير فى الأتزان والثبات) ولكنهم زينوا الجزء السفلى من أعمدتهم بتماثيل كانت على دقة صنعها العجيب غير ملائمة للمكان الذى وضعت فيه ولا يستطيع الانسان أن يتصور أن فيدياس يقع فى مثل هذه الغلطة فالنحت الهلنستى على ما كان عليه فى الغالب من فخامة فى الصنع لم يتبوأ هذه المكانة الا بتضحية فن المعمار ومن العبث أن يبحث الانسان فى أعمالهم عن حسن الاختيار وضبط النفس اللذين أعطيا لأعمال أسلافهم ذلك الامتياز الذى لا يفنى .

أدرك يونانيو القرن الخامس أن المعمار فن له غرض محدود وليس مجرد أداة للحفر وأنه يستفز حاسة الجمال عند الناس بتأثير صفاته الخاصة التى تلازمه وهى التناسق والتناسب وتوزيع المسافات والكتل والخطوط المحددة .

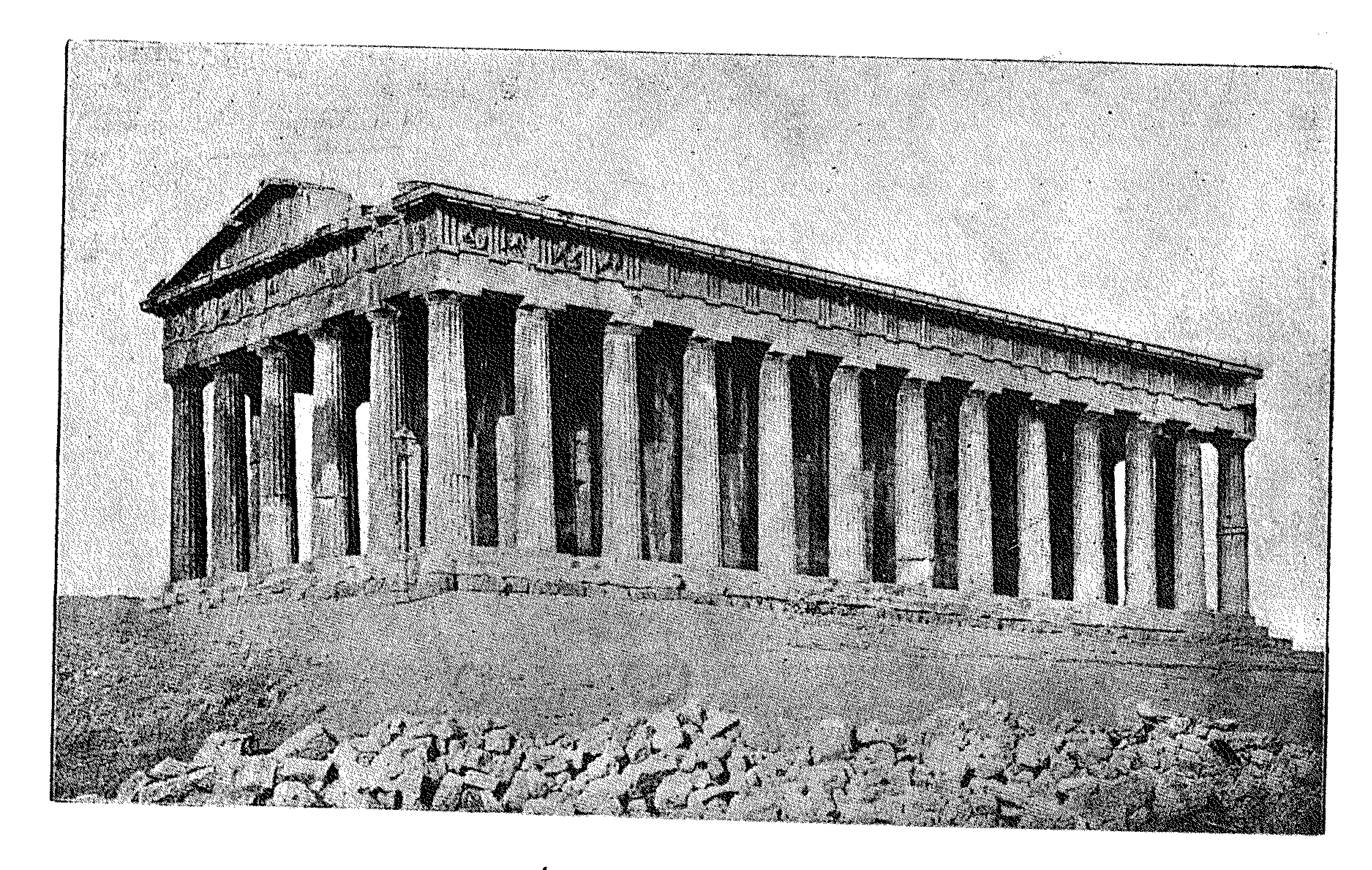
ومع أنهـم كانوا يستخدمون النحت والتلوين ليعظموا أثر فن المعمار فانهم أدركوا بغاية الوضوح وظائف الفنون بعضها بالنسبـة لبعض ولم يخرجوا النحت والتلوين عن حدود علاقتهما الدقيقة بالغرض التجميلى لفن المعمار ومما يستوجب الأسف أن المعماريين المتأخرين ضلوا فى هذه النقطة فكثير من الأعمال الأولى فى عصر التجديد إن هى الا زخرف للبناء بل ان فن المعمار انعـدم وجوده فى الأبنية التى مثل كرتوزا فى باڤيا . ويرجع معظم ما ظهر فى الخمسين

سنة الأخيرة من فن ردىء الى المغالطة الموجبــة للأسف وهى
عدّ الزخرفة من فن المعمار فأعمدة افسس والنحت الموجود فى مذبح
يرجا من على مافيها من بهاء وكمال فنى كانت النذير الأول بالانحطاط
لذاى قدر له أن يقتلع الفن من أساسه وعندها هوى فن المعمار من
العرش الذى سيطر فيه على القوى الفكرية واتجــه بالتدريج
فى الاتجاه الذى يصيره مسألة اصطلاحية اجتماعية وراثية ومن ثم
سهل انتقــاله من غزارة الفن الهلينستى ومغالاته الى الانحطــاط
الوضيع الظاهر جليا فى فن المعمار الزخرفى الرومانى .

لم يكن هنا مفر من أن تمحى البساطة الظريفة للفن
البركليزى بامحاء غاياته ويعوض علينا ذلك الى حد ما ازدياد المجال
والمرمى فى فن المعمار ازديادا نحن مدينــون به للمعماريين الهلينستيين
فى القرن الرابع قبل الميلاد والقرون التى أعقبته فأما من حيث كمال
الشكل فمن المحال أنه كان فى استطاعة أحد أن يقدم الفن خطوة
وراء المكانة الرفيعــة التى أوصله اليها به إكتنوس وكاليكراتوس
ولكن بقى شىء آخر فى غاية الأهمية كان لابدمن عمله وهو التخطيط
المحورى ومراعاة علاقة كل بناء بالآخر فقد كان على ما يظهر بعيدا
عن ادراك يونانيى القرن الخامس فكانوا ينظرون لكل بناء كوحدة
مستقلة لا صلة له بمــا حوله ولكن المضايقة التى نشأت عن ذلك
والفرص التى ضاعت والحاجة الى النظام والقواعد لا بد أن تكون
قد تجلت وازدادت وضوحا لهم بازدياد ما يصحب المــدنية من
تعقيدات وتكاليف مرهقة ولم ينته القرن الرابع قبــل الميلاد الا
وقد استتبت التقاليد الفنية فى المعمار واستطاع المعماريون أن يحولوا
عنايتهم الى الاهتمام بمسائل التخطيطــات الكبيرة فعالجوهــا على
ما يظهر بمهارة خارقة للعادة فقد كان ماتم فى هذا السبيل الى ذلك

الوقت راجعا الى أثروحى دينى كما هو الحال فى طرق لمواكب التى تصل الى المعابد المصرية أو فى شارع التماثيل فى برانشيدى . والذى عمله الهلنستيون هو أنهم فكروا فى خطط متتابعة لتخطيط المدن كان الباعث الترتيبي المسيطر عليها فنيا وكانوا قد تعلموا النظر الى معابدهم ومبانيهم العامة والميادين المكشوفة والطرق الموصلة اليها كعناصر تتركب منها مجموعة متوافقة استخدمت فيها المزايا الطبيعية للمكان خير استخدام فقيل مثلا أنه كان فى إفيسس خطة متتابعة أكبر من أى خطة مناظرة اليها قام بها الفرنسيون فى القرن الثامن عشر ولو أننا يجب أن نذكر أن الأدلة على ذلك أكثرها تخمينى وهذه الخطة كما بسطها الواثقون منها المتحمسون لها كانت خطة فخمة بعد ذلك تأتى الميناء وأمامها فى أحد جوانبها الترسانة وهى بناء منتظم يصل منه الانسان الى فناء محاط بمجموعة أعمدة ومنه يصل الى المكان (أو الميدان) العظيم وهو منحصر مربع الأركان يمتد نحو ٨٥ قدما من الشمال الى الجنوب ونحو ٦٥ قدما من الشرق الى الغرب [1] يحاط بمجموعة أعمدة من الأربع الجهات به دخلات مضلعة أونصف دائرية وفى وسط هذا الميدان (فسقية) متطاولة نحو ٣٠٠ × ٢٠٠ قدم وفى الجانب البعيد تجاه مبانى الترسانة مجلس السناتو ومبان عمومية أخرى ووراء هذه المبانى وعن يمينها وشمالها المسرح وميدان الألعاب محفورة لحد ما فى مونت كروسس وهذه الترسانة والميدان العظيم والفسقية والمبانى العامة كلها مصممة على خط محورى وعلى مسقط أفقى منتظم ومتطاول .

(١) ميدان فندوم طوله ٤٥٠ قدما وعرضه ٤٢٠ قدما وميدان حروفز نحو ٦٥٠ × ٥٣٠ ولنكن أن فيلدز نحو ٨٠٠ × ٦٣٠ اذا قيست من حائط لحائط فى المبانى المحيطة .



(شـــكل ٦) معبد تزيوس بأثينا

خطة كهذه (اذا كان من الممكن أن تتقبل تجـديدا تخمينيا) فكر فيها تفكيرا دقيقا من جميع نواحيها دلت عن تقدم حقيق فى مضمار فن المعمار . ومن العبث أن نبحث عن الجمال الخالى من العيوب فى القرن الخامس ، ولكن مهارة المعماريين الهليستين وقدرتهم الابتكارية أكسبت الفن معنى جديدا بل نكون محقين اذا قلنا أنهم وضعوا أساس الخطوة الأولى فى تمية طرقه العملية الحديثة ومن هؤلاء المعماريين الهلينيين تعـلم الرومانيون التخطيط الأثرى لمدنهم ومرت قرون كان أغلب المعماريين المستخدمين فيها للأعمال الفنية من يونانيي آسيا الصغرى وفى ذلك الحين اندمج فن المعمار الهلينستى فى الفن الرومانى وفقد مميزاته الخاصة ثم تسرب خلال الفن الرومانى فانتقل الى العمارة الحديثة وهكذا تمت السلسلة الى حد ما ولكن هناك خليجا عظيما محدودا يفصل هـذا الفن الحديث من الفن اليونانى الصميم ولا تنحصر الفروق فى الفنيات فحسب بل تتناول كذلك المرمى والغاية والمزاج وسيظل الفن الدورى العظيم الذى يتجلى فى البستوم والسلينوس والسجستا والتيزيون والبارثنون دائمـا يعبر وعن الروح اليونانية القديمة .

ومن تهكمات التاريخ أنه لمـا تنبه طلاب العـلم والفنيون فى القرنين الخـامس عشر والسادس عشر الى أنه كان فى الزمن المـاضى فن معمارى عظيم لم يقدر لهم أن يعرفوا من هذا الفن القديم سوى صورته الرومانية ما أبهـر التقدم الذى ربمـا كان يطرأ على الفن لو أن تلك الأرواح النقيـة البهية التى ظهرت فى عهد النهضة أمثال ألبرتى وبرامانتى أو بيروزى أسست نظرياتها الفنية المعمارية على ما كان فى معابد صقلية وماجنا جريشيا عوضا عن الأمثـلة المنحطة التى وجدتهـا فى روما الملكية كانوا عنـدئذ يفوزون على

الأقل بلمحة من الجمـال المعنوى للشكل والتوافق الكامل الذى لم ينكشف سره على ما يظهر الا لليونانيين وحدهم من بين سائر شعوب الدنيا ولم يكن ذلك الا فى فترة وجيزة من تاريخهم ومما يؤسف له أنه عند ما استكشف فن المعمار اليونانى فى الشطر الثانى من القرن الثامن عشر أصبح سرا مكتوما بين مهرة الفنيين واندثرت التقاليد الوطنية فى كل من فرنسا وانجلترا وأصـبح الفن المعمارى اليونانى سائدا وأصر المتقعرون الأدعياء والغواة بدافع تحمسهم الضال على النقل الحرفى الذى أتم اطفاء شعلة فن المعمار كفن أهلى واعتاض عنه بسلسلة من احياء للقديم ظلت منكوبة بهـا طول المـائة وخمسين سنة الأخيرة . وهكذا أدى ذلك التلاعب وهذه الفوضى فى الفن عن شعور بها وتعمد لها الى ابادته .

لا يمكننا مطلقا أن نعلل النفس بالأمل فى أحياء فن المعمار اليونانى من جديد ويجب ألا نحاول تحقيق ذلك . لقد قرر مرة معمارى استكلندى شهير أن العمود والعتب كانا الوسيلة الوحيدة المعتمدة فى الانشاء وبهذا التقييد و بتفصيلات يونانية أساء اختيارها أخرج بعض مبان خيالية قبيحة . وقد جرى على مثل هذه الخطة فى التفكير أحد مشاهير الفنيين فى القرن المـاضى فندد بطرق فى الانشاء لا يبيحها الانجيل القديم وكلاهما كان بعيدا عن الغرض المقصود لأن فوق التفصيلات الفنية المعمارية تقوم الروح التى بها ينغمس المعمارى فى عمله والنظرة الفكرية التى يلقيها الفنان على فنه تتجلى هـذه فى أثواب متنوعة الأشكال مختلفتها . كانت تلك النظرة فى الفن المعمارى اليونانى ابان العصر الذهبى محدودة وواضحة وكانت نظرة تنطوى على درس نحن فى شـدة الحاجة اليه فى هـذه الأيام فقد كان قصد اليونانى وغايته هو جمال الشكل . وهـذا الجمال الذى كان ينشده فى أول

فى أول أمره كرمز للتعبير عن ديانته أصبح فى النهاية هو نفسه دينا تقريبا . وقد أوقف اليونانى على تحقيق تلك الغاية كل قواه يألو جهدا فى تهذيب عمله حتى يصل الى النهاية العظمى من الكمال الممكن وقد غمس نفسه فى هـذا العمل من غير أن يفكر فى التعبير عما تكنه نفسه من تصور للجمال الالهى الصامت ولم يخطر بباله أن مشاعره جديرة بأن يحتفظ بها وفى الحفر فى العصر العظيم كانت ملامح الوجه عادة تدل على (هدوء لا يشو به اضطراب) ومع أن العواطف الدينية كانت أصل العمل ومهبط الوحى به فقد كان عمله هذا بعيدا عن الشخصيات وقد كان بعيدا عن الشغف الشديد بالاعلان عن النفس مما جعل كثيرا من الفن الحديث ممتعا من وجهـة علم وظائف الأعضاء وفيما عدا ذلك محتقرا كما أنه لم يكن لديه شىء من المهارة الفنية فلم يكن المصطلح الفنى عنده موضع عناية فى ذاته . نعم ان هـذا المصطلح صار غاية فى الفن الهلينستى وليس فى العصر الذهبى وفى الحقيقة قد كان أحيانا مهملا تقريبا التمثيل الحقيقى كما أنه لم يتبع فى فن المعمار الطريقة التى تعتبر مجرد اظهار للعلم .

وكان فى بحثه عن الشكل الجميل يقف على قارعة الطرق القديمة ثم يسير بثبات متجلدا هادئا نحو غرضـه المعين . هكذا سارت العبقرية اليونانية تعنى بما هو أحدث وتسعى له أقل من سعيها وراء ما هو أحسن و يبذل اليونانى فى تميق الصور والأشكال الجهد الذى يبذله غيره فى ابتكارات يغلب عليها العقم حتى يصل فى نهاية الأمر بالمجهود المناسب (١) الى أكبر اتقان ممكن .

---

(١) شوازى فى تاريخ فن المعمار المجلد الأول ص ٢٩٨

لم تأت الا فترات نادرة منذ ذلك الحين كان الفن المعمارى فيها يتقدم بنفس الغرض الهـادئ الثابت فى غير تردد . ومثال تلك الفترات الفن المعمارى الجوتيكى فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وفى فرنسا وانجلترا فى فترات معينة من القرن الثامن عشر عند ما كانت التقاليـد لا تزال عاملة حية والفنيون قانعين بأن يتركوا الحسن آخذا مجراه ولا يعكرون عليه صفوه .

يظهر أن الظروف الحديثة على طرفى نقيض مع الوجهة اليونانية فى الفن فالفنون الآن تظهر فى وعاء الكيمياوى لفحصها فمستوى التحصيل عند القدماء يداس بالأقدام والأنبياء يخطئون فى نبوءاتهم وقد طلب الينا من عهد غير بعيد أن نتلمس الوحى من (شياطين) الساحل الذهبي واذا كان غرض الفنى أن يتفوق على اخوانه فى الوحشية فنعمت النصيحة هذه وقد برر ناقد حديث مهازل بعض الفنيين بمـا كانوا فى حاجة اليه من الاعلان عن أنفسهم . وذلك بلا ريب أقرب وسيلة لاحراز النجاح العاجل ولكن المسألة التى يبحثها الناقد ليست إعلاء شأن الفنى نفسه بل تقدير قيمة عمله وهذا يدعو للتساؤل عما اذا كان تطلع المرء الى أن يصيح بصوت أعلى من صوت جاره قد أمده فى أية فترة من فترات تاريخ الفن بوحى يعينه على الاتيان بعمل فنى جليل . ومـما لا مشاحة فيه أن وجهة نظر اليونانى كانت على تمام النقيض من ذلك فانه لم يسع الى الاعلان والشهرة فالسعادة عنده كانت فى تصوره النفسانى للجمال وقد انكب على تحقيق ذلك فى نفسه ولم تكن عنده أدنى رغبة فى أن يصدم أو يزعج أى مخلوق . نعم إن هناك مواقف يضطر الانسان فيهـا الى القيام بمـاورات الصدم و (الازعاج) ولكن هذه ليست ضرورية فى كل يوم من أيام الأسبوع كما انه لا حاجة بالانسان الى ابادة كل مظاهر المـاضى قبل أن يشرع فى العمل متزويا فى ركنه الضيق من الفن .

والذى نحتاج اليه فى الفن الحديث هو الشعور بهذه الروح اليونانية القديمة وادراك قيمتها بعض الادراك . فاليونانيون فى عصر بيريكليس لم يرغبوا فى التجديد ولا فى الثورة فساروا الى الأمام على سنن القدماء بغير تعجل أو تلهف وقد استطاعوا أن يفعلوا ذلك لأن الفن كان ممتزجا بحياتهم اليومية الى حد أنهم فى الفنون التشكيلية لم يكونوا يستطيعون أن يغيروا أساليبهم فى التغييرات الفنية أكثر من استطاعتهم تغيير لهجاتهم فى الكلام . وقد قضى على وجهة نظرهم العالية فى الحياة هذه ومن الصعب استعادتها بين النظم الحديثة للحياة الاجتماعية والحكومة السياسية الحالية وربما لم يكن فى الامكان تحقيقها الا تحت ظل الديموقراطية الحقة التى سادت فى دولة المدينة اليونانية الصغرى حيث كان كل فرد يأخذ قسطه من الحياة المنظمة فى المجتمع ومع ذلك فان المثل الأعلى اليونانى لا يزال باقيا ففى تحمسنا التشنجى للأغراض الشريفة ونحن فى ثورة عزيمتنا الصادقة وأحكامنا الطائشة ومجهودنا السامى ونظريتنا التجارية العارية لا يزال الفن اليونانى فن فيدياس وأكتنياس الأم الرءوم التى اليها يجب أن نرجع وأن الدرس الذى نتلقاه عن البرثنون لهو درس للصورة الثابتة للجمال التى نجلها فوق مجهود الأفراد وزلاتهم متجلية فى شكل بسيط شائق رصين وليس فى تفاصيل معقدة التركيب ولا فى شذوذ مقدر . فهى تعلمنا أن ليس فى الفن طرق مختصرة وأن الفوضى بمعنى القضاء على كل ما فزنا به فى الماضى ليست من التقدم فى شىء بل هى الطريق الأكيد الى دوة الهمجية التى لا قرار لها وأن اليونانى بدلا من أن ينبذ عمل أجداده قد واصله الى حد الكمال وبنى صرح فنه على أساس وطيد لأنه لم يحول نظره يمينا ولا شمالا بل ظل متوجها بثبات نحو النور والهدى .

(المطبعة الأميرية ٤٠٢٤ س ١٩٢٧ - ١٠٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
04321155